

بنو رسول وبخوطاھر

وعلاقات الیمن الخارجیة فی عهدھا

٦٢٨-٩٢٣ هـ / ١٢٣١-١٥١٧ م

دکتر

محمد عبد العال احمد

جامعة القاهرة

١٩٨٩



دار المعرفة الجامعية
٤ - بن سویت - اسکندریة
ت : ٤٨٣٠١٦٣



28635

بنو رسول بنو طاهر

وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما
٦٤٨ - ٩٤٣ هـ / ١٢٣١ - ١٥١٧ م

953.3

٢٢٢

دكتور محمد عبد العال احمد
جامعة القاهرة

الهيئة:	مكتبة
رقم التوثيق:	953.3
رقم التسجيل:	٢٢٢
رقم الاستدعاء:	٢٢٠٥٦٢

دار المعرفة الجامعية
ع. ش. بوتييه - الإسكندرية
٢٨٣٠١٦٣ : ٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

تتضمن هذه الدراسة، تاريخ اليمن وعلاقتها الخارجية في عصر دولتي بني رسول وبني طاهر، وهي امتداد طبيعي لدراستي في الماجستير عن « دولة بني أيوب في اليمن »، وإن اختلفت أوضاع اليمن خلال تلك الحقبة عما كانت عليه زمن الأيوبيين، فقد استقلت بلاد اليمن في العصر موضوع الدراسة، وانقطعت تبعيتها المباشرة لمصر، وطرأ تطور واضح المعالم نتيجة لذلك على الأوضاع الداخلية، كان له أعمق الأثر في الدور المستقل لسلطين هانئين الدولتين، وخاصة في مجال السياسة الخارجية.

وتتمثل أهمية الموضوع في جسده، فهو يمثل حلقة من سلسلة قديمة الحلقات في تاريخ منطقة هامة لم تحظ بنصيبها من الدراسة. وإذا كان البحث قد تناول بالدراسة الأحوال السياسية الداخلية، وعلاقات بلاد اليمن الخارجية خلال القرون الثلاثة الأخيرة من العصور الوسطى، فليس من أشبهك في أن التقييد من امتداد الفترة موضوع البحث إنما يهدف إلى تغطية فترة طويلة من تاريخ اليمن السياسي، أعقبت استقلالها عن مصر الأيوبية، وانتهت ببعثتها المباشرة للعثمانيين. فهي فترة استقلت بحكم اليمن خلالها دولتان على التوالي: لعبت كل منهما دورا كبيرا في مجال العلاقات الخارجية، تعدى حدود المنطقة.

وكان طبيعيا أن يتركز الاهتمام أولا على دراسة الجانب التاريخي باعتباره الركيزة الأساسية التي يتحتم استيفؤها، بسبب الفراغ الهائل الذي سببه إهمال البحث فيه، وعدم سابقة توفر دراسات حديثة يمكن أن يعول عليها. ويمكن القول بأن دراسة قطاع طويل من الجانب السياسي لتاريخ اليمن، من شأنه أن يوجه أنظار الباحثين إلى أهمية هذا الجانب، ويساعد

على فتح مجال هذه الدراسات على مصراعيه ، ويتيح الفرص - من ناحية أخرى - لدراسة الجوانب المختلفة من تاريخ تلك البلاد ، وبوضوح التفسيرات المناسبة والصحيحة لمتغيرات الجوانب الأخرى .

وقد اتسمت الفترة موضوع البحث بكثرة الاضطرابات ، وتنوع الصراعات ، وانتشار الفوضى ، وافتقاد الاستقرار ، ونفتت الوحدة السياسية لليمن ، الأمر الذي أدى - بطبيعة الحال - إلى اشتغال سلاطين هاتين الدولتين في حروب تكاد توصف بالاستمرار والتواصل . ولهذا فلم يكن في الإمكان تجاهل تلك الأحداث ، أو تفادى الخوض في متاهات الحروب الداخلية الكثيرة ، أو دراسة الحركات التي لا تكاد نحمد فترة حتى تشتمل من جديد . وكان من الضروري تسجيل تلك الحوادث المعقدة ، لأهميتها في لميضاح الأحوال الداخلية لليمن ، كقائمة لبيان الآثار المترتبة عليها في جميع مناحي الحياة المختلفة . ومع ذلك فقد روعى عدم الخوض في التفاصيل الدقيقة ، بهدف التركيز ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، والاقتصار على الضروري بالقدر الذي يسمح بتصوير الأوضاع الداخلية خلال تلك الفترة .

وفيما يتعلق بالمجال الخارجى ، فقد حاولت الدراسة توضيح الدور الخطير الذى لعبته بلاد اليمن سواء كان إيجابيا أو سلبيا ، وخاصة في البحر الأحمر ، بحكم موقعها الهام على الطريق التجارى الرئيسى بين الشرق والغرب ، وتحكمها في المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، ويمكن القول بأن دراسة هذا الجانب قد ساعد على توضيح كثير من الأسس الرئيسية للسياسة التي اتبعتها كل من مصر واليمن في البحر الأحمر خلال عصر دولتي المماليك في مصر ، وكشف عن جانب هام من تاريخ اليمن كان مطلوبا في زوايا الاهمال والنسيان ، واستكمل من غير شك دراسة الفترة المقابلة لتاريخ مصر والعالم العربى أوأخر العصور الوسطى فيما بين نهاية ، الحكم الأيوبى والفتح العثمانى .

ويعتبر تاريخ اليمن الاسلامي ، أكثر توارىخ الإسلام صعوبة وتعقيداً ،
 ويحتاج البحث فيه إلى تكثيف الجهود وتضافرها لإبرازه . فلقد تعرض
 الكثير من مصاده للتلف والضياع نتيجة للحروب المتتصلة والقلال الداخلية
 السائدة ، وكان هذا التراث يشكل هدفاً للقوى المذهبية المتصارعة في اليمن ،
 شنية كانت أم زيدية أو إسماعيلية ، كل يعمل على إتلاف مادونه الآخرون .
 كما كان لعدم العناية بهذا التراث وإهمال المحافظة عليه ، أو انتقال ملكية بعضه
 بالوراثة إلى من ليس أهلاً بمعرفة قيمته ، أثره في ضياع الكثير منه . أما ما تبقى
 فمتناثر ، يصعب التعرف عليه بأكمله ، أو تجميع شتاته ، ذلك أن بعضه موجود
 في البيوتات العامة في اليمن ، ويحرص أصحابه على كتمان أمره ، ولا يسمحون
 بالاطلاع على بعضه - إلا نادراً ، خوفاً من الضياع أو المصادرة . أما مقتنيات
 المكتبات العامة في اليمن ، فمن الصعب الحصول على نسخ مصورة منها ، لافتقار
 تلك المكتبات لمعدات التصوير الحديثة ؛ الأمر الذي استلزم الاطلاع
 عليها في أماكنها ، وتصوير ما يلزم تصويره منها ، والعمل في نفس الوقت
 للحصول على ما بهم البحث من مخطوطات مصورة من المكتبات العالمية ،
 بالإضافة إلى الاطلاع على مقتنيات كل من دار الكتب المصرية ومعهد
 المخطوطات العربية ومكتبات جامتي القاهرة والاسكندرية ، ومكتبة بلدية
 الاسكندرية من هذه المخطوطات . وهي ما أرشدتنا إليها كتب فهارس
 هذه المكتبات والمؤلفات البيبلوجرافية ، مثل كتاب كارل بروكلمان عن
 (تاريخ الأدب العربي) ، وغيره ، مما سهل عملية الافادة من هذه المصادر
 القليلة والمتناثرة .

ولم أكتف بالاطلاع على المصادر المخطوطة بدور الكتب بمصر أو الحصول
 على مصورات من دور الكتب العالمية ، وإنما قمت برحلات ثلاث إلى بلاد اليمن ،

لم تكن قاصرة على مجرد الاستفادة الخاصة بالدراسة ، وإنما تعدت ذلك إلى الإسهام في تسهيل وتيسير الدراسات اليمنية على الباحثين .
فكانت أولى هذه الرحلات سنة ١٩٦٤ ، حيث أتيح لي خلالها الاشتراك في أعمال بعثة وزارة الثقافة والإرشاد المصرية - التي وصلت إلى صنعاء لتصوير المخطوطات اليمنية ، والقيام بترتيب وتنظيم وفهرسة وتعبئ مقتنيات الجامع الكبير بصنعاء والكتب المصدرة من مكتبات الأئمة والأفراد ، وإعدادها للاطلاع ، وانتقاء النادر منها لتصويره وإيداع تلك المصورات في دار الكتب المصرية بالقاهرة .

أما ثاني تلك الزيارات ، فكانت في سنة ١٩٧٠ ، وفي إطار بعثة الجامعات المصرية التي توجهت إلى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية لوضع أسس تجميع التراث اليمني ، والتخطيط لإقامة مكتبة قومية تضم هذا التراث في عدن . وقد زارت البعثة حسب برنامجها - بالإضافة إلى عدن عددا من مدن وقرى حضرموت حيث تفتشر المكتبات العامة والخاصة أو الموقوفة . وقد أنهت البعثة زيارتها بتقرير عن دراستها وتوصياتها لانجاز هذا المشروع .

أما ثالث الزيارات وأطولها ، فكانت أيضا لجمهورية اليمن الديمقراطية ، فبمناسبة إعارتي من جامعة الاسكندرية للعمل محاضرا للتاريخ الإسلامي بكلية التربية العليا في عدن خلال العام الجامعي ١٩٧٣ / ٧٢ ، دعيت أثناء ذلك لاستكمال دراسة مشروع تجميع التراث الذي سبق لبعثة الجامعات مجتمعة دراسته . وقد تمكنت قبل نهاية ذلك العام الدراسي من الانتهاء من إعادة دراسة المشروع على ضوء المتاعب التي واجهت التنفيذ ، والتقدم بتقرير متكامل لوزير الثقافة والسياحة اليمني عن (المراحل التنفيذية لمشروع تجميع التراث اليمني)؛ استعرضت فيه أهم توصيات البعثة وماتم تنفيذه منها ، وما اعترض

الانجاز الكامل من عقبات متعددة ، والمقترحات التفصيلية التي تساعد على انجاز هذا العمل الكبير ، وقد نشر هذا التقرير بالمجلد العشرين من مجلة معهد المخطوطات بالجامعة العربية (مايو ١٩٧٤) . واسترشدت به بعثة المخطوطات التي أوفدها الجامعة العربية سنة ١٩٧٦ إلى اليمن الديمقراطية ، كما كان أساسا في المحادثات الثقافية بين اليمن الجنوبي وبين الدول والهيئات العلمية المهمة بهذا المجال .

وقد أفادني هذا الاحتكاك كثيرا في التعرف على التراث اليمني في موطنه الأصلي ، أو في المكتبات العالمية ، وتمكنت من الحصول على نسخ بالميكرو فيلم لبعض ما يعصل منها بهذه الدراسة . ولم تقتصر معالجة كافة نقاط البحث على مصدر واحد ، وإنما روعي مقارنة الأصل بغيره من المصادر المعاصرة أو المتأخرة تحقيقا للنصوص وبيان مدى اتفاقها ، ومناقشة ما اختلف المؤرخون فيه ، ومحاولة التوفيق بينها أو ترجيح أحدها أو التوصل إلى رأى خاص بشأنها مع تدعيم ذلك بالأسانيد .

وإذا كان البحث قد اعتمد على العديد من المصادر اليمنية ، فقد أسهمت غيرها من المصدر والمراجع العربية والأجنبية الأخرى في استكمال وتدعيم كثير من نقاطه ، سيما ما يتعلق بدراسة العلاقات الخارجية ، ويتضح ذلك من مراجعة هوامش البحث وقائمة المصادر والمراجع المتنوعة الملاحقة به .

وبعد ، فقد اشتمل هذا البحث على مقدمة وباين وخاتمة ، وقد تضمنت المقدمة بيان أهمية الموضوع ، والجهود التي بذلت فيه . وخصصت الباب

الأول لدراسة التاريخ السياسي لدولتي بني رسول وبني طاهر ، وقسمته إلى تمهيد وثلاثة فصول . أما الباب الثاني ، فقد خصصته لدراسة العلاقات الخارجية في عصر هاتين الدولتين ، وقسمته إلى فصلين . أما الخاتمة ، فقد تضمنت أهم النتائج التي تم التوصل إليها .

والكتاب في أساسه ، كان رسالة بعنوان « اليمن فيما بين نهاية الدولة الأيوبية والفتح العثماني ، دراسة في العلاقات السياسية الخارجية » ، حصلت بموجبها علي درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى من كلية الآداب بجامعة الاسكندرية . وكانت تحت إشراف عالين جليلين هما :

الأستاذ الدكتور سعيد زغول عبد الحميد ، أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة الاسكندرية وبيروت العربية والكويت .

والأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة الاسكندرية وبيروت العربية ومدير معهد الدراسات الإسلامية بمدينته .

وقد حظيت برعايته وعطف كل منهما ، واستفدت من علمهما ومنهجهما الكثير ، وللهما يرجع الفضل في إرشادي وتوجيهي ، ولم يخل أي منهما بعلمه ووقته وجهده ونصائحه .

ولما تمت إعاره الأستاذ الدكتور سعيد زغول عبد الحميد لجامعة بيروت العربية سنة ١٩٧٣ ، ظل الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم خير ناصح ومعين ، وتولي سيادته الإشراف الفعلي ، وقام بمراجعة الرسالة في جميع مراحلها ، وظهرت بصماته واضحة فيها ، ولقي في سبيل ذلك كثيرا من المتاعب التي أثمرت هذا البحث ، الذي أرجو أن أكون قد تمكنت به من معالجة

تاريخ اليمن وعلاقتها الخارجية ، العربية والدولية ، خلال فترة تاريخية هامة .
 وأن تكون هذه الدراسة جديرة باحتلال مكانتها في المكتبة العربية .

وبالله التوفيق

دكتور محمد عبد العال احمد
 معهد البحوث والدراسات الأفريقية

الاسكندرية في ١٢ ربيع الأول ١٤٠٠
 ٣٠ يناير ١٩٨٠

1. The first part of the paper is devoted to a study of the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x f(t) dt$$

It is shown that the function $f(x)$ is continuous and differentiable at every point x of the interval $[0, 1]$. The derivative of the function is equal to $f(x)$ itself.

الباب الأول

التاريخ السياسي

تمهيد : أحوال اليمن الداخلية حتى نهاية الحكم الأيوبي.

الفصل الأول : قيام دولة بني رسول على عهد مؤسسها نور الدين عمر بن رسول.

الفصل الثاني : دولة بني رسول بعد نور الدين.

الفصل الثالث : دولة بني طاهر.

1871

1872

1873

1874



تمهيد

أحوال اليمن الداخلية حتى ختم الحكم الأيوبي

أصبحت بلاد اليمن منذ أسلم أهلها ، تشكل جزءاً من الكيان السياسي للدولة الإسلامية . وارتبط تاريخها - منذئذ - بتاريخ تلك الدولة ، وظلت بلاد اليمن الموحدة تابعة للحكومة المركزية ، وتتابع عليها الولاة من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين والدولتين الأموية والعباسية . وذكر مؤرخو اليمن ، أن اليمنيين أسلموا جميعاً في حياة الرسول (١) صلى الله عليه الصلاة والسلام ، وتلاحقت وفودهم على النبي (٢) صلى الله عليه وسلم ،

(١) الجندي ، يوسف بن يعقوب : السلوك في طبقات العلماء والملوك - مخطوط بمكتبة كوبريتي رقم ١٩٠٧ ، مصور بالميكرو فيلم بالجامعة العربية برقم (٧٧٦) - ص ٤٧ ، الخزرجي ، علي بن الحسن : المسجد النبوي فيمن ولي اليمن من الملوك ، مخطوط بمكتبة بلدية الاسكندرية رقم (١٢٦٥ ب) ص ٦ ، العقد الفاعل الحسن في طبقات أعيان اليمن ، مخطوط بالمتحف البريطاني رقم (72 Kings College) ، مصور بالميكرو فيلم بالجامعة العربية (بدون رقم) لوحة ٣٥ (أ) ، الأهدل ، الحسين بن عبد الرحمن : تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن - مخطوط بمكتبة خدابخش بعنة مصور بالميكرو فيلم بالجامعة العربية برقم (٣٠٨٨) - لوحة ٢٧ ب .

(٢) ابن سمرة ، عمر بن علي : طبقات فقهاء اليمن - تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٧ - ص ٨ وما بعدها ، دكتور السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في العصر الجاهلي - بيروت ١٩٧٠ - ص ٥٤٨ .

وكانوا من الكثرة بحيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم: «أناكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة وألين قلوبا، الإيمان يمان والحكمة يمانية» (١).

وكان اليمنيون سرّعى الاستجابة لداعى الجهاد، ففي عهد الخليفة أبى بكر توجه الكثيرون منهم - بكامل معداتهم - إلى المدينة للاشتراك في جيش المسلمين، وقيل أنه بلغ عدد الواصلين منهم إليها ٢١ ألفا في يوم واحد، فأرسل الخليفة نصفهم إلى الشام، ووجه الباقين إلى العراق (٢). فكان أبناء اليمن في طليعة الجيوش الإسلامية في موقعة اليرموك والقادسية وغيرهما، وأسهموا بنصيب كبير في الفتوحات الإسلامية، وقاموا بدور فعال في كثير من مراحلها، شرقا وغربا. وإن الأسماء اليمنية التي أطلقت - على سبيل المثال - على كثير من قلاع الأندلس، ستظل شاهدة على الدور البارز الذي قاموا به، مثل قلعة همدان الواقعة بالقرب من غرناطة، وحصن مراد المعروف بين أشبيلية وقرطبة، وقلعة بنى سعيد المشهورة في مملكة غرناطة (٣)، وقلعة خولان بين

(١) الحديث رواه البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم، (الأهمل، محمد بن على: نثر الدر المكنون من فضائل اليمن الميمون - القاهرة ١٩٢١ - ص ٢٥، الرازى، أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد: تاريخ صنعاء - مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٢٩٠٣، مصور بالفوتستات في مكتبة جامعة القاهرة (برقم ٢٦٠٥٧ لوحة ٢، أ).)

(٢) الجرافى، عبد الله بن عبد الكريم: المقتطف من تاريخ اليمن، القاهرة سنة ١٩٥١، ص ٤٤.

(٣) المقرئ: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة سنة ١٩٤٩ ج ١ ص ٢٧٦.

الجزيرة الخضراء واشبيلية^(١) وقلعة يمحصب^(٢) وغيرها من القلاع والحصون. كما أطلق على اليمانيين في الأندلس (البلديين أو أهل البلد)^(٣)، لأنهم استقروا في تلك البلاد واعتبروا أنفسهم من أهلها وأصحابها^(٤). أضف إلى ذلك أن الجماعات اليمانية كانت تفوق غيرها من العدا نانية عددا وقوة، وقد ذكر المقرئ أنهم د الأكثر بالأندلس، والملك فيهم أرسخ^(٥).

ومن الجدير بالذكر أن اليمانيين لم يقفوا موقفا سلبيا من الحركات الداخلية في العالم الإسلامي، بل قاموا بدور بارز فيها. ففي فتنة الأمصار التي حدثت في خلافة عثمان، انقسم اليمانيون - وفقا لمنازلهم - إلى فريقين، فريق يؤيد على بن أبي طالب، والآخر يؤيد معاوية^(٦). ومن المعروف أنه على الرغم من انبثاق الحركة من مصر، فإن الرأس المدبر لها هو عبد الله بن سبأ الصنعاني، الذي استغل العناصر اليمانية الكثيرة التي كانت قد استقرت في مصر منذ أن فتحها عمرو بن العاص، والتي بلغت عدتها في الاسكندرية وحدها، ٢٧ ألفا

(١) المقرئ: نفس المصدر والجزء ص ٢٧٧.

(٢) المقرئ: نفس المصدر والجزء ص ٢٧٨.

(٣) أخبار مجموعة في فتح الأندلس لمؤلف مجهول - مدريد سنة ١٨٦٧ -

ص ٤٤، ٤٦.

(٤) دكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس

- لبنان ١٩٦٢ - ص ١٢٠.

(٥) المقرئ: نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤، السيد عبد العزيز سالم: نفس

المرجع ص ١٢١.

(٦) كان معظم المنضمين لمعاوية ينتمون إلى الأزد الغساسنة.

في عهد معاوية (١) .

وإذا كان اليمنيون قد ناصروا على بن أبي طالب في موقعي الجمل وصفين، وكان لهم رأيهم المتخفظ من التحكيم، فقد كان اختيار أبا موسى الأشعري (اليمني) سببا في تعقد الأمور. وإذا كان على بن أبي طالب قد اعتمد على بعض القبائل اليمنية، فإن قبائل يمنية أخرى قد ساندت معاوية بن أبي سفيان، حتى قيل أن قيام الدولة الأموية تم على أكتاف اليمنيين. كذلك آذرت اليمنية الرومانية في الشام ضد الزيرية، وكان لذلك أثره العميق في انبعاث الصراع بين العنصيتين اليمنية والقيسية، وهو صراع شمل العالم الإسلامي شرقا وغربا، وكان من العوامل الرئيسية في انهيار الدولة الأموية. كما كان في الأندلس من الأسباب التي أدت إلى عبور عبد الرحمن الداخل وقيامه بتأسيس الدولة المروانية (٢) .

ومهما يكن من شيء فقد قصد الباحث من وراء تلك اللوحة السريعة، بيان أن اليمنيين لم يقتصر دورهم على المجال المحلي داخل بلادهم فقط، وإنما كان لهم دور بارز في حركة الفتوح، كما أثروا وتأثروا بشكل فعال بالأحداث والصراعات الدائرة في قلب الدولة الإسلامية. ولست بصدد تتبع حركة القبائل اليمنية وتفصيل دورها، فذلك موضوع ضخم يحتاج إلى دراسة دراسات لأبرازه.

-
- (١) المقرئزي، أحمد بن هلى : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق فستينيلد، جوتنجن سنة ١٨٧٤، ص ٣٥ .
- (٢) انظر، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٨١ وما بعدها .

وظلت بلاد اليمن تابعة للأُمويين ثم للعباسيين من بعدهم . ونتائج عليها ولائهم . وفي نفس الوقت استغلها الخارجون على الخلافة العباسية لتكون مآجاً لهم ، لبعدها عن مركز الخلافة ، وما تتميز به من طبيعة جبلية وعرة ، وحصبون عالية منيعة ، يصعب الوصول إليها أو الانتقال فيها بينها ، الأمر الذي يجعل مهمة إرسال الامدادات من دار الخلافة غير ميسور . وإذا وضعنا في الاعتبار انشغال ولاية العباسيين في اليمن وتكريس جهودهم لتحصيل الأموال ، لتبين لنا إلى أى مدى كانت بلاد اليمن هدفاً للخارجين على العباسيين لاسيما الشيعة منهم .

وهكذا يمكن القول بأن تاريخ اليمن بدأ يصطبغ منذ تلك اللحظة بلون الصراعات المذهبية ، مما كان له أكبر الأثر على الجانب السياسي في البلاد . ولهذا لم تحظ بلاد اليمن بالاستقرار الذي نعمت به غيرها من الولايات الإسلامية الأخرى ، والذي كان من أهم عوامل تطور حياتها الحضارية ، فحرمت بلاد اليمن من تلك الميزة الهامة في كثير من مراحلها التاريخية . وقد أتاح ذلك المجال للشيعة للقيام بنشر دعوتهم ، وبلغ من نشاطهم أن قيل بأن جبال اليمن تحولت إلى مذهب الشيعة ، أما سائر المناطق فقد ظلت على مذهب أهل السنة^(١) وتمسكت به . ولقد كانت بلاد اليمن سنية - كبقية الأمصار - وكان الغالب عليها مذهب مالك وأبي حنيفة^(٢) ، أما مذهب الشافعي ، فقد

Hogerth (D.G.): A History of Arabia, Oxford, 1922, p. 90, (١)

حسن إبراهيم حسن ، وطه شرف : عبید الله المهدي إمام الشيعة الاثنا عشرية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب - القاهرة سنة ١٩٤٧ - ص ٣٠٧ .

(٢) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن ص ٧٤ .

انتشر في اليمن - من عدن إلى صنعاء - ابتداء من المائة الرابعة للهجرة (١) .
وفي أواخر القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، بدأت القلاقل في بلاد
اليمن ، فخرج الأشاعر (٢) في وادي زبيد عن طاعة العباسيين (٣) . كما ثار
العلويون سنة ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م بزعامة ابراهيم بن موسى العلوي المشهور
بالجزار (٤) ، فجهز إليهم الخليفة العباسي المأمون جيشا بقيادة محمد بن زياد (٥)

(١) ابن سكرة : نفس المصدر ص ٨٨ ، الجندی : السلوك في طبقات العلماء
والملوك ص ٦٨ ، الأهدل : تحفه الزمن في تاريخ سادات اليمن لوحة ٥٤ دأ .
(٢) الأشاعر عرب من القحطانيين يقيمون بوادي زبيد . ومن أشهر
رجالهم أبو الحسن علي الأشعري صاحب المذهب الذي يعرف أتباعه
بالأشاعرة . (Kay (H. C.) : Yaman, Its Early Mediaeval History)
London. 1897, p. 123):

(٣) عمارة ، أبو الحسن نجم الدين الحكي : تاريخ اليمن ، تحقيق ونشر
هنري كاي ، لندن سنة ١٨٩٢ ، ص ٢٠ .

(٤) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : العبر وديوان المبتدأ والخبر ،
بولاق سنة ١٢٨٤ هـ ، ج ٤ ص ٢١٢ . حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن
السياسي في العصر الإسلامي ، بغداد سنة ١٩٦٩ ، ص ١١٨ .

(٥) يتصل نسب محمد بن زياد بعبيد الله بن زياد المعروف بزياد ابن أبيه
الذي قام بدور رئيسي في مقتل الحسين بن علي . (ابن خلدون ، عبد الرحمن بن
محمد : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٤ ص ٢١٣ ، القلقشندي ،
أبو العباس أحمد : صبح الأعشى في صناعه الانشا ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٩

ج ٥ ص ٢٧ ، 219 - Kay : op., cit., p.

استولى به على تهامة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م بعد حروب جرت بينه وبين الغرب^(١) واختط بها مدينة زبيد^(٢)، واتخذها حاضرة لدولته^(٣). واتسعت دولة ابن زياد حتى شملت حضرموت وديار كندة^(٤) والشجر^(٥) ومرباط^(٦) وأبين^(٧) ولحيج وعدن والتهائم إلى حلي ابن يعقوب^(٨)، ومن جبال اليمن

(١) ابن عبد المجيد ، تاج الدين عبد الباقي : بهجة الزمن في تاريخ اليمن - مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٥٩٧٧ (مربى) لوحة ١١ «أ».

(٢) عمارة : تاريخ اليمن ص ٣ :

(٣) باخرمة ، أبو محمد عبد الله الطيب : تاريخ ثغر عدن ، نشر أوسكار لوفجرين ، ليدن سنة ١٩٣٦ ، ج ٢ ص ٢١٦ .

(٤) ديار كندة من جبال اليمن مما يلي حضرموت وجبال الرمل ، وقاعدتها دمون (ابن خلدون : العبر ج ٢ ص ٣٦٧ ، ج ٤ ص ٢٥٠ .

(٥) تقع الشجر على ساحل بحر الهند بين عدن وعمان (ياقوت ، شهاب الدين أبي عبد الله الحموي الرومي : معجم البلدان - القاهرة سنة ١٩٠٦ - ج ٣ ص ٢٦٣ ، ابن عبد الحق ، صفي الدين عبد المؤمن : مراصد الاطلاع ، طبع القاهرة سنة ١٩٥٤ ، ج ٢ ص ٧٨٥) وتسمى ببلاد الهرة (ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٢٦) .

(٦) مرباط ، مدينة من مدن الشجر ، تقع على الساحل بين عمان وحضرموت (ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ص ١٢٥٣) وهي على مسافة يوم ونصف يوم من ظفار (Kay op. cit. p. 223)

(٧) أبين ، مخلاف ووادي مشهور في جنوب اليمن على البحر الهندي ، ولإليه تضاف عدن (ابن سكرة : طبقات فقهاء اليمن ص ٣٠٦) .

(٨) حلي ، مدينة مشهورة في اليمن ، تقع على ساحل البحر الأحمر شمال تهامة ، وتعرف بحلي ابن يعقوب ، وبينها وبين مكة ثمانية أيام (عمارة : تاريخ اليمن ص ٤ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٣) .

أعمال المعافر (١) . والجنند (٢) وأعمالها ، ومخلاف جعفر (٣) وصنعاء وصعدة ونجران (٤) وبيحان (٥) وواصل ابن زياد الخطبة لبني العباس (٦) .

ولما تعرضت الدولة العباسية للاضطرابات الداخلية بعد سيطرة الأتراك على الخلفاء العباسيين ، منذ عهد المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢ م) ،

(١) المعافر ، من مخاليف اليمن بين ذبحان وجببا (ابن عبد الحميد : بهجة الزمن ١٧ دأ) واليه تنسب الثياب المعافرية (ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ٩٢) وهو بلد واسع ذو مزارع وقرى (المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - ليدن سنة ١٩٠٦ - ص ٨٧) وهو من أشهر مخاليف الجبال والسهول الشرقية (الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن - القاهرة سنة ١٩٥١ ص ٧) ويعرف الآن بالحجرية .

(٢) الجنند ، مخلاف معروف باليمن يقسح إلى الشمال الشرق من تعز (القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٤) وعلى بعد عشرين كيلو مترا منها (الويسى : اليمن الكبرى ، القاهرة سنة ١٩٦٢ ، ص ٣٩) ، وقد سميت بهذا الاسم لأنها كانت مسكنا للجنند (ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، ليدن ١٩٥١ - ١٩٥٤ ، ج ، ص ١٦٣) .

(٣) مخلاف جعفر ، وينسب إلى جعفر مولى ابن زياد مؤسس دولة بني زياد باليمن سنة ٥٢٠ هـ .

(٤) نجران ، مدينة عظيمة وولاية واسعة باليمن ، وهي من مخاليف اليمن شمال نجد (ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ج ٢ ص ٢١١) من ناحية مكة (ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ٢٥٨) .

(٥) بيجان ، مخلاف معروف باليمن (ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٧٨٢) وتقع إلى الجنوب الغربى من مأرب وإلى الشمال الشرقى من ذمار (الهمداني : صفة جزيرة العرب - ليدن ١٨٩١ - ص ٢٧ ، ٨٠ ، ٨٧ ، ١٣٤) .

(٦) عمارة : تاريخ اليمن ص ٤ .

وكن نتيجة لقتل الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ - ٨٦١ م) ، وموت المنتصر مسموما (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ / ٨٦١ - ٨٦٢ م) ، وخلع المستعين (١) (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦ م) ، استغل ابن زياد تلك الاضطرابات ، واستبد بملك اليمن وعظم شأنه ، وتوارث بنوه الملك من بعده ، واقتصرت التبعية للخلافة العباسية على الجانب الاسمي المتمثل في الدماء للخليفة على المنابر .

لم يدم استقرار دولة بني زياد طويلا ، فقد نشطت الدعوة الاسماعيلية ، واصبحت بلاد اليمن منذ سنة ٢٦٨ هـ / ٨١٩ م مركزا لنشر تلك الدعوة . واستطاع الداعيان على بن الفضل الجندى والحسن بن فرج بن حوشب - المعروف بمنصور اليمن - السيطرة على كثير من المناطق (٢) . كما نشطت الدعوة الزيدية

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ - القاهرة ١٣٠٣ هـ - ج ٧ ص ٥٠ ، ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٢٠ ، د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى - الطبعة الخامسة سنة ١٩٦٠ - ج ٣ ص ٢ - ٩ ، د. احمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلسى - بيروت سنة ١٩٧٢ ، ص ١٢٣ وما بعدها .

(٢) انظر ، الحمادى ، محمد بن مالك : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة - القاهرة سنة ١٩٣٩ - ص ٢١ وما بعدها ، الجندى : أخبار القرامطة - ملحق بكتاب تاريخ اليمن لعامة - ص ١٣٩ وما بعدها ، ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص ٧٥ وما بعدها ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ١٥ وما بعدها ، الخزرجى : العقد الفاخر الحسن ج ٢ لوحة ٤٨ ب ، حسين الهمداني وحسن سليمان محمود : الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن - القاهرة سنة ١٩٥٥ - ص ٣١ وما بعدها .

وقامت دولتهم في اليمن على يد الامام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين (١) سنة ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م ، وأصبح الصراع على أشده في اليمن بين أتباع المذاهب الثلاثة - الاسماعيلي والزيدى والسني (٢) - كل يعمل على توطيد دعائمه وتقويض الآخرين (٣) . وهكذا كان لذلك الصراع المذهبي ذي الطابع السياسي ، أثره الكبير في انتشار الفوضى ، وانعدام الاستقرار ، وفقدان الوحدة السياسية في البلاد ، إلى انقسمت إلى أجزاء متناحرة (٤) . وقد ساهمت طبيعة البلاد الجبلية وضعف الخلافة العباسية وولاتها في اليمن ، في

(١) انظر ، العلوي ، علي بن محمد بن عبد الله العباسي : سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين - بيروت سنة ١٩٧٢ - ص ١٧٢ وما بعدها ، عمارة : تاريخ اليمن ص ١٠٥ ، نشوان بن سعيد الحميري : الحور العين - القاهرة سنة ١٩٤٨ - ص ١٩٦ ، الصعدي ، بدر الدين محمد بن يوسف : مآثر الأبرار في تفصيل جمالات جواهر الأخبار - مخطوط ملك الباحث - ورقة ٥٨ وما بعدها ، زيارة : محمد بن محمد بن يحيى الحسني : أئمة اليمن - تعز سنة ١٩٥٢ - ص ٨ وما بعدها ، الجرافى : المقتطف ص ١٠٤ وما بعدها ، محمد عبد الله ماضي : دولة اليمن الزيدية - بحث في المجلة التاريخية المصرية ، العدد الأول من المجلد الثالث ، مايو سنة ١٩٥٠ - ص ٢٥ وما بعدها

Kay : Yaman, p. 226.

(٢) الصعدي : مآثر الأبرار ورقة ٦١ د .

(٣) حسين الهمداني وحسن سليمان محمود : الصليحيون والحركة الفاطمية

في اليمن ص ٢٦ .

(٤) محمد عبد العال أحمد : دولة بني أيوب في اليمن - رسالة ماجستير ،

آداب اسكندرية ١٩٦٨ - ص ٢٤ .

التوصل إلى ذلك الموقف الخطير . ويمكن إجمال الصراع المذهبي في اليمن إلى نهاية الدولة الأيوبية ، وتحديدته في أربع مراحل رئيسية .

فالمرحلة الأولى ، وتبدأ في أعقاب انتشار المذهب الاسماعيلي ، وقيام الامامة الزيدية في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وكانت هاتان القوتان - الاسماعيلية والزيدية - تستهدفان إقامة دولة موالية لأهل البيت ، وتتطلع كل منهما إلى أن تكون هي المؤسسة لتلك الدولة ، باعتبارها أحق من الأخرى بذلك . فلما تحقق لكل من القوتين قيام دولته ، تطورت المنافسة بينهما إلى صراع من أجل الانفراد بالامامة والحكم ، وأدى ذلك إلى عجز تلك القوى الشيعية عن التعاون للصمود أمام القوى السنية المتداعية ، وأعنى بها دولة بنى زياد . وقد ساعد هذا الصراع المتشابك بين تلك القوى إلى إضعافها جميعاً ، فسقطت الدولة الاسماعيلية بعد وفاة منصور اليمن سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م ، وعلى بن الفضل بعده بعام . أما الزيدية ، فقد فتر نشاطهم وتنع لمأمهم بالبقاء في هدوء في قاعدة دولته صعدة (١) .

أما المرحلة الثانية من مراحل الصراع المذهبي ، فتبدأ بسقوط دولة بنى زياد في زيد سنة ٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م ، وقيام دولة بنى نجاح السنية على أنقاضها . وتتميز تلك المرحلة بعودة النشاط الشيعي من جديد ، حيث استطاع الداعي الاسماعيلي علي بن محمد الصليحي إقامة الدولة الصليحية سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م ، وأن يتخذ من صنعاء حاضرة لدولته (٢) . وكان طبيعياً أن يدخل في صراع

(١) محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب في اليمن ص ١٢ وما بعدها .

(٢) انظر الحمادي : كشف أسرار الباطنية ص ٤٢ وما بعدها ، عمارة :

تاريخ اليمن ص ٢٢ وما بعدها ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمان لوجه ٢٤ وما بعدها ،

مع دولة بنى نجاح السنية ، وأن يؤدي الصراع المستمر بينها إلى اضعافها معا .
فسقطت الدولة الصليبية سنة ١١٣٧م / ٥٠٢هـ وتوارث ملكها دولة بنى زريع
فى عدن (١) وبنى حاتم فى صنعاء (٢) . أما دولة بنى نجاح فقد انهكتها

= الخزرجى : المسجد ص ١٣٠ وما بعدها ، العقد الفاخر الحسن ج ٢ لوحة
١٣٧ وما بعدها ، العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك
اليمن من ملك وإمام - القاهرة سنة ١٩٣٩ - ص ١٥ وما بعدها ، الواسعى :
تاريخ اليمن - القاهرة سنة ١٩٤٧ ص ١٥٣ وما بعدها ، حسن سليمان محمود :
الصليحيون وعلاقتهم بالفاطميين - رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة ، الممكة
أروى سيدة ملوك اليمن - القاهرة بدون تاريخ - علاقات الفاطميين بالدول
الاسلامية - رسالة ماجستير بجامعة القاهرة - ص ٢٨ وما بعدها ، حسين
المحمدانى وحسن سليمان محمود : الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن .

Lane-Poole (ed.), The Mohammadan Dynasties, Paris, 1925, P.92,

The History of Egypt in the Middle Ages, London 1936. pp. 202-203

(١) انظر ، عمارة : تاريخ اليمن ص ٤٩ ، ابن المجاور : صفة بلاد
اليمن ج ١ ص ١٢٣ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن - لوحة ٢٦ ب ، الخزرجى :
المسجد ص ١٠٦ ، باخرمة : تاريخ نعر عدن ج ١ ص ٤٩ ، مجد جمال الدين
سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب - القاهرة سنة ١٩٦٤ - ص ١٠٢ .

Lane-Poole: The Mohammadan Dynasties, p. 97, Kay: Yaman, p. 268

(٢) انظر ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٢٩ ب ، الخزرجى :
العقد الفاخر الحسن ج ٢ لوحة ٣٧ ، المسجد ص ٩٧ ، ابن رسول ، الملك
الأشرف اسماعيل : فاكهة الزمن - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٤٠٩
تيمور ص ١٨٠ ، يحيى بن الحسين : ابناء الزمن من تاريخ اليمن - مخطوط =

الحروب ضد الصليبيين والمنازعات بين أفراد الأسرة الحاكمة ، ثم توالى على حكمها ملوك ضعاف ، لا يملكون من رسوم الملك سوى ذكر أسمائهم في الخطبة بعد الخليفة العباسي ، ونقش السكة ، والركوب بالمظلة في المناسبات . أما الأمر والنهي والتدبير فقد استأثر به عبيدهم الذين قاموا بأمر الوزارة لهم^(١) إلى أن سقطت دولتهم سنة ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م .

أما المرحلة الثالثة ، فتبدأ بظهور على بن مهدي وتأسيس دولته^(٢) هـ

= بدار الكتب المصرية رقم ١٢٤٧ تاريخ ص ٥٢ ، الشرفي ، أحمد بن محمد بن صلاح : اللآلئ المضيئة في أخبار أئمة الزيدية — مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء رقم ١٠٨ — ج ٢ ورقة رقم ١٣١ العرشي : بلوغ المرام ص ٢٩ ، الواسعي : تاريخ اليمن ص ١٦٦ ، حسين الهمداني وحسن سليمان محمود : الصليبيون ص ٢٣٩ .

(١) محمد عبد العال أحمد : دولة بني أبوب في اليمن ص ٢٦ وما بعدها .

(٢) انظر ، عمارة : تاريخ اليمن ص ٩٢ ، ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص ١٨٧ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ورقة ٤٢ ب ، ابن الوردى ، عمر بن المظفر : تاريخ ابن الوردى — القاهرة ١٢٨٥ هـ — ج ٢ ص ٦١ ، ابن رسول : الملك الأفضل عباس : نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٥١ تاريخ ، الخزر جى : المسجد ص ١٥٦ ، العقد الفاخر الحسن ج ٢ لوحة ٥٥ ب ، القلقشندي : صبح الأغشي ج ٢ ص ٢٩ ، ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار وروضة الأخبار في ذكر من قام باليمن الميمون من الملوك الكبار والدعاة الأخيار ، مخطوط بمكتبة أحد علماء حراز باليمن ص ٩ ، ابن الديبع ، أبو عبد الله عبد الرحمن بن علي : بغية المستفيد في أخبار مدينة زيد مخطوط مصور رقم ١١ م تاريخ بدار الكتب المصرية ، =

أنقاض دولة بنى نجاح سنة ١١٥٩/٨٥٥٤ م وكان ابن مهدى بشكل خطراً كبيراً على أهل السنة والشيعة على حد سواء بحيث فشلت دولتى بنى زريع وبنى حاتم الشيعيين ، كذلك الامام الزيدى احمد بن سليمان فى الوقوف أمام مطامعه . وأدى ذلك الصراع المستمر إلى انتشار الفوضى وعدم الاستقرار ، وانقسمت البلاد إلى أجزاء متناحرة مرة أخرى ، وتقطعت أوصالها ، وفقدت وحدتها السياسية تماماً (١) . فكانت منطقة تهامة المطلة على البحر الأحمر تشغلها دولتان ، واحدة فى المخلاف السليمانى فى الشمال وهى تحت حكم الأشراف من بنى سليمان ، والثانية دولة بنى مهدى فى زيد وتمتد إلى حدود مدينة حرص شمالاً . أما منطقة تهامة المطلة على المحيط الهندى فكانت تحت حكم بنى زريع . أما منطقة جبال اليمن ، فقام بها عدد من الدويلات ، فبلاد الجريب وما إليها من بلاد الشرف - وهى منطقة مطلة على تهامة - فكانت تابعة لأولاد عمر بن شرحبيل . أما ذمار وما إليها - جنوبى صنعاء - فلقبائل جنب ، فى حين كان بنو حاتم يحكمون صنعاء وأعمالها ، وكانت شهارة - فيما بين صنعاء وصعدة - لبنى القاسم بن على العياني . وفى أقصى جبال اليمن شمالاً كانت صعدة وأعمالها وهى للأشراف الزيدية أولاد .

= ورقة ٩ « أ » ، باخرمة : أبو محمد الطيب بن عبد الله : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٦٧ تاريخ . ج ٢ ص ٧٥٥ ، العبدى ، أحمد فضل بن على : هدية الزمن فى أخبار ملوك الحج وعدن - القاهرة سنة ١٣٥١ هـ ، ص ٦٣ ، العقيلي ، محمد بن أحمد عيسى ، المخلاف السليمانى - الرياض سنة ١٣٧٨ هـ - ج ١ ص ٦١ ،

Derenbourg (H.), Omara du Yémen, Sa vie et son Oeuvre, Paris 1897-1902, vol. 2, p. 566;

(١) محمد عبد العال احمد : دولة بنى أيوب فى اليمن ص ٣٥ وما بعدها .

الإمام أحمد بن سليمان . أما بلاد الجوف ، والهضبة الشرقية فكانت للسلطين
آل الدعام (١) .

ثم تبدأ المرحلة الرابعة والأخيرة من مراحل الصراع المذهبي والسياسي من
الفتح الأيوبي لليمن على يد تورانشاه بن أيوب ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م ، حيث تم
القضاء على الدويلات المتصارعة في اليمن ، وتوحدت البلاد تحت الحكم الأيوبي (٢)
بعد طرل انقسام وشقاق .

ومع الفتح الأيوبي لليمن ، كانت الدعوة الاسماعيليه قد ضعفت ، وقل
نشاط القائلين عليها نتيجة لصراع ابن مهدي مع أتباعها . فلما استولى
الأيوبيون على اليمن وقضوا على دولتي بني ذريع (٣) وبني حاتم الاسماعيليين ،
تحول أتباع الدعوة إلى السرية حفاظا عليها .

أما الزيدية ، فكانوا قد أخذوا إلى السكينة بعد وفاة إمامهم أحمد بن
سليمان سنة ٥٦٦ هـ / سنة ١١٧١ م واستمر أتباع المذهب الزيدي بغير إمام ،

(١) يحيى بن الحسين: أنباء الزمن ص ٥٣، زبارة: أئمة اليمن ج ١ ص ١٠٨ .

(٢) انظر. محمد عبد العال أحمد: دولة بني أيوب في اليمن ص ٤٩ وما بعدها،

Scott : In the High Yemen p. 226. Kay : Yaman, Introduction, p. VII, Derenbourg : Ounara Du Yemen, vol. 2, p. 548, Arnold (T.W.) ; The Caliphate, Oxford, 1924, p. 85. Marin(M.): Histoire De Saladin, Sulthan D,Egypte et Syrie, Tome, I, p. 221. Lane-Poole (St.): A History of Egypt. London, 1936. p. 197, The Mohammadan Dynasties, p, 74, Saladin and Fall of the Kingdom of Jerusalem, London, 1898, p. 124.

Lane-Poole ; The Mohammadan Dynasties, p. 97. (٣)

ودون أن يصطدموا بالقوى الأيوبية إلى سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م عندما قام بإمامتهم الإمام عبد الله بن حمزة (١) .

ومن الجدير بالذكر ، أنه على الرغم من القضاء على الدويلات السنية في اليمن قبيل الفتح الأيوبي ، فقد ظل السواد الأعظم من شعب اليمن متمسكا بالمذاهب السنية ، التي ظلت سائدة معظم أرجاء اليمن طيلة حكم الأيوبيين وما بعده ، باعتبارها مذهب الدولة الرسمي . وهذا ما كان صلاح الدين يعمل على تأكيده في جميع أنحاء دولته ، كما كان القضاء على المذاهب الشيعية من أهم أسباب استيلائه على اليمن ، إلى جانب ماحققه ذلك من تخليص اليمنيين من حكامهم الطفافة أمثال ابن مهدي ، وتوحيد البلاد ، ووضع حد للصراعات الداخلية ، بالإضافة إلى عامل آخر في غايه الأهمية ، وأعنى به تأمين الحدود الجنوبية لدولة صلاح الدين ، ولحكام السيطرة على البحر الأحمر .

ولما استكمل تورانشاه فتح بلاد اليمن ، وأقر الأمور فيها ، أناب فيها نوابا له ، ثم غادرها - بعد أن أصبحت عماله (٢) - متوجها إلى الشام لمعاونة أخيه صلاح الدين ، وظل نوابه يرسلون له ما يحصلونه من أموال . فلما توفي سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م استأثر نوابه بالسلطة ، وطمع كل منهم في الاستحواذ على ملك البلاد (٣) . وأمام الموقف المتأزم في اليمن واضطراب

(١) محمد عبد العال احمد : دولة بني أيوب في اليمن ص ٣٥ .

(٢) العرشي : بلوغ المرام ص ٤١ ، الواسعي : تاريخ اليمن ص ١٨١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢١٢ ، أبو الفدا : المختصر في أخبار

الأمور فيها ، واستمرار الفتن بين نواب تورا نشاء ، خشى صلاح الدين أن تخرج البلاد عن السيطرة الأيوبية ^(١) . فمقد العزم على إعادة الأمور إلى نصابها ، ووضع حد للاضطرابات والفوضى ، ولهذا جهز حملة تأديبية لليمن بقيادة مملوكه صارم الدين خطلبا والى القاهرة ^(٢) مستهدفا استعادة السيطرة الأيوبية على البلاد ، وإصلاح ما اختل من الأمور فيها ^(٣) .

البشر - الآستانة سنة ١٢٨٦ هـ - ٣ ص ٦٦ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٢١٩٥ تاريخ - ١٣ ص ١٥ ، الخرجى المسجد ص ١٨٦ ، طراز الزمن فى طبقات أعيان اليمن - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٢٩٥٧ تاريخ - ٢ ص ٤٥٥ ، العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية - القاهرة سنة ١٩١١ - ج ١ ص ٢٩ ، القلقشندي : صبح الأعشى ص ٢٩ ، العامرى : غربال الزمان فى وفيات الأعيان - مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء - ص ١٧١ ب ، الشرفى : اللآلى المضية ص ٢ ص ١٢٢ ب يحيى بن الحسين : انباء الزمن ص ٥٠ .

(١) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ص ٢١٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، نشر الشيبان ١٩٥٣ - ١٩٦٠ - ٢ ص ١٠٤ .
(٢) ابن أيبك الدوادارى ، أبو بكر بن عبد الله : درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان - مخطوط بمكتبة بلدية الاسكندرية رقم ٣٨٢٨ ج - حوادث سنة ٥٧٧ هـ ، المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك - نشر الدكتور زيادة ، الطبعة الثانية سنة ١٩٥٦ - ١ ص ٦٤ ، ص ٧٢ .

(٣) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين - القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ ص ٢ ص ٢٥ ، ابن أيبك الدوادارى : كثر الدرر وجامع الغرر - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٨ تاريخ ج ٧ ص ٥١ .

والحقيقة أنه على الرغم من بعد بلاد اليمن عن مسرح الصراع الأيوبي ، إلا أن أهميتها ظهرت بجلاله عندما تعرض البحر الأحمر لحملة أرناط (١) ، تلك الحملة التي لو قدر لها النجاح لكان قد ترتب عليها نتائج خطيرة . وكان من المأمول أن تنهض القوة الأيوبية المرابطة في اليمن لتلك الحملة ، غير أن الخلافات بين نواب تورانشاه لم تلبث أن نشبت من جديد بعد وفاة خطيبها . ولم تجسد تلك القوات القيادة الرشيدة القيام بأعباء المواجهة لحملة أرناط ، ولهذا أسرع الملك العادل أبو بكر - أخو صلاح الدين - وأرسل حملة

(١) عن حملة أرناط ، انظر ، ابن جبير : رحلة ابن جبير - تحقيق حسين نصهار ، القاهرة سنة ١٩٥٥ ص ١٢٦ ، ابن الأثير : الكامل - ١١ ص ٣٢٦ ، أبو شامة : الروضتين - ٢ ص ٣٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب - ٢ ص ١٢٧ ، ابن خلدون : العبر - ٥ ص ٢٩٩ ، المقرئ : السلوك - ١ ص ٧٨ ، الخطط - ٤ ص ١٢٩ ، نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين - القاهرة سنة ١٩٥٧ - ص ١٤٠ ، السيد الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين - القاهرة سنة ١٩٦٠ - ص ٦٩ ، جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية - القاهرة ١٩٦٧ - ٢ ص ٥٨ .

Lane-Poole: Saladin, p. 125, Wiet (G.) : Histoire de la Nation Egyptienne (L'Egypte Arabe), Paris 1926, vol IV. p. 322, Kammerer : La Mer Rouge, La Caire 1939, Tome I, p. 60, Lamb (H.): The Crusades, The Flame of Islam, London, 1931, p. 59 Fuller (J.F.C.) : Decisive Battles. Their influence upon history & civilization, London, 1950, part I, p. 234, De Gaury (G.): Rulers of Mecca, London, 1951, p. 69, Reinaud ; Extraits des Historiens Arabes Ralatifs aux Guerres de Croisades, p. 178.

بحرية ، تمكنت من تحطيم قوة أرناط في شوال سنة ٥٧٨ هـ / فبراير سنة ١١٨٣ م (١) .

وهكذا كانت حملة أرناط درساً استفاد منه صلاح الدين ، إذ تأكد له أهمية الدور الذي كان من الممكن أن تلعبه القوات الأيوبية المرابطة في اليمن في مثل تلك الظروف ، لو أنها كانت تحت قيادة وسيطرة شخصية قوية . ولهذا جهز حملة جديدة بقيادة أخيه الملك العزيز سيف الاسلام طغتكين سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م ليتولى أمر السلطنة ببلاد اليمن ، ويحمي الحدود الجنوبية للبحر الأحمر . واستطاع طغتكين السيطرة على البلاد ، والقضاء على نفوذ نواب أخيه تورانشاه . ولم تقف جهوده على مجرد استرجاع السيادة الأيوبية على المناطق التي كانت تابعة للأيوبيين ، بل تعدت ذلك إلى فتح مناطق أخرى لم يكن قد فتحها الأيوبيون بعد (٢) . فأصبح طغتكين سيد البلاد بلامنازع ، وأطاعه جميع أهل اليمن ، وساد الأمن والاستقرار ربوع البلاد في عهده ، فكانت فترة حكمه من أزهى فترات الحكم الأيوبي لليمن .

ومما يذكر أن الانصلاط كانت مستمرة بين صلاح الدين وسلاطين الأيوبيين في اليمن أثناء حياته ، ولكن الوضع اختلف بعد وفاته سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م حيث انقطعت الامدادات إليهم ، وتحمل الأيوبيون في

(١) أبو شامة . الروضتين ج ٢ ص ٣٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٢٩ ، سعيد عبدالفتاح عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٦٤ .

(٢) ابن عبد المجيد : تهجد الزمن لوحة ٩٨ ب

اليمن عبء الاعتماد على أنفسهم بعد ذلك (١). وقد ظهر ذلك واضحا عندما اختلت الأمور بعد وفاة طغتكين سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٧ م ، وانحراف خلفه المعز اسماعيل بن طغتكين ، وخروجه على المذهب السني ، وإساءته إلى الخلافة العباسية ، وانتسابه إلى بني أمية وإدماؤه للخلافة . ولم يتحرك الملك العادل ، بل اكتفى بمجرد رسالة توبيخ أرسلها إليه (٢) ، ولم يعمل على إجباره على التخلي عن أفكاره ، ولم يقم بتدعيم الجيش الأيوبي بها بأية إمدادات عندما تعرض الانقسام نتيجة تصرفات المعز وإساءته إلى كبار قادة الأجناد ، مما أدى إلى تعرض الوجود الأيوبي في اليمن لخطر محقق ، وخاصة بعد انضمام المنشقين منهم إلى الامام الزيدى عبد الله بن حمزة والتعاون معه ضد المعز إسماعيل (٣) . واستمر توقف الاتصالات بعد مقتل المعز سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠٢ م ، رغم أن الأمور كانت تسير من سيء إلى أسوأ في عهد خلفه الناصر أيوب بن طغتكين الذي مات مسموما سنة

(١) محمد عبد العال أحمد : دولة بني أيوب في اليمن ص ٢٤٨ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، القاهرة ١٣٤٨ هـ ، ج ١٣ ص ١٥ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٣١٩٧ تاريخ ، مصور عن نسخة فينا ، ج ٨ ص ٩٢ - ٩٣ ، العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ عن نسخة الاستانة ، مجلد ٥٢ ص ٢١٦ .

(٣) المحلى ، حميد بن أحمد : الحدايق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٨٧٥ تاريخ ، ج ٢ ص ٣٥١ ، زيارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١١٣ .

١٢١٤ هـ / ١٢١٤ م بتدبير من وزيره بدر الدين غازي بن جبريل (١)، وبوفاته خلت اليمن من العناصر الصالحة للسلطنة من أسرة بني أيوب، فقامت أم الملك الناصر أيوب بأمر الملك إلى أن تم التعرف على سلمان بن شاهنشاه بن تقي الدين عمر الأيوبي، الذي لم تكذب أم الناصر تتأكد من صحة نسبته إلى الأسرة الأيوبية حتى نصبته سلطاناً سنة ١٢١١ هـ / ١٢١٤ م، ولكنه أساء السيرة، فزادت الأحوال في عهده سوءاً، وقامت حركات العصيان ضده، وانتشرت الفوضى، وعمت جميع أرجاء البلاد (٢). وأمام الانهيار الكبير الذي هدد بخروج اليمن عن السيطرة الأيوبية، واستجابة لطلب الخليفة العباسي الناصر أحمد بن المستنصر، جهز الملك الكامل محمد بن العادل ابنه المسعود يوسف في حملة سنة ١٢١٢ هـ / ١٢١٥ م إلى بلاد اليمن لإقرار الأمور فيها (٣) واستمر حكم

-
- (١) الخزرجي: المسجد ص ٢١١، طراز الزمن ج ١ ص ٤١٥، العقيد الفاخر الحسن ج ٢ لوحة ٧٦ دأ، باخرمة: قلادة النحر ج ٣ ص ٧٢٠، تاريخ نعر عدن ج ٢ ص ٢٤، الشرفي: اللآلئ المضيئة ج ٢ ص ١٣٤ دأ.
- (٢) محمد عبد العال أحمد: دولة بني أيوب في اليمن ص ١٩٨ وما بعدها.
- (٣) ابن واصل: مفرج الكروب ج ٣ ص ١٣٩، أبو القسدا: المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ١٠٨، ابن الوردي: تاريخه ج ٢ ص ١٢٠، الجنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، مخطوط بالمتحف البريطاني رقم ٧٣١١ إضافات، مصور بالميكرو فيلم بمعد المخطوطات بالجامعة العربية رقم ٣، لوحة ١١٢، ابن مظفر، محمد بن أحمد بن حمزة: الترجمان المفتيح لثمرات كسائم البستان، مخطوط ملك القاضي حسين السياغي من علماء صنعاء، الجنداري، صفى الدين أحمد بن عبد الله: الجامع الوجيز في وفيات العلماء، أولى التبريز، مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء، لوحة ٧٤.

المسعود لبلاد اليمن حتى وفاته سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م ، فكان آخر ملوك بني أيوب في اليمن (١) .

وصفوة القول أن الحكم الأيوبي المباشر لليمن استمر قرابة الستة والخمسين عاما (٥٦٩ - ٦٢٦ هـ / ١١٧٤ - ١٢٢٩ م) شغل الأيوبيون خلالها بحروب تكاد تكون مستمرة ، فمنها ما كان يستهدف الفتح أو استكمالها ، أو القضاء على الفتن والحركات الداخلية المعادية ، ومنها ما كان ناتجا عن سوء سياسة بعض السلاطين ، وما تبع ذلك من انقسام في صفوف القوى الأيوبية ، مما أدى إلى انضمام الكثير من قادة الأيوبيين بحندهم للعمل في صفوف الامام الزيدي ، وما ترتب على ذلك من تهديد بزوال الوجود الأيوبي في اليمن ، كما حدث منذ بداية عهد المعز اسماعيل بن طغتكين (٢) . أضف إلى ذلك تلك الحملات التفتقدية والتقليدية التي كثيرا ما كانت تأخذ الصيغة الدورية أو المستمرة .

واقعد بعث الملك المسعود الأمل من جديد في حياة مستقرة باليمن ، إذ قام بعدة حملات أسفرت عن استقرار الأوضاع في البلاد . ولم يكتف بمجرد السيطرة على بلاد اليمن فحسب بل ضم مكة إلى سيطرته . وبلغ من درجة اطمئنانه أن كان يتردد على مصر لزيارة أبيه الملك الكامل ، كلها سمحت الظروف بذلك ، وهو أمر لم يسبق لغيره من سلاطين الأيوبيين في اليمن القيام به .

(١) محمد حسن : قلب اليمن ، بغداد سنة ١٩٤٧ ص ٣٨ ، محمد عبد العال أحمد : دولة بني أيوب في اليمن ص ٢٣٣ .
(٢) انظر ، دولة بني أيوب في اليمن ، ص ١٢٠ وما بعدها .

وكان الملك المسعود يعتمد على أبناء رسول كلما توجه إلى مصر ، فكانوا يقولون حكم البلاد نيابة عنه ، فبرز نجمهم في عهده ، وقاموا بأعمال بطولية أثناء غيابه ، مما أوغر صدور حسادهم حقدًا عليهم ، فوشوا بهم إلى الملك المسعود ، واتهموهم بالعمل على الاستقلال بالبلاد . فقام الملك المسعود بالقبض على أبناء علي بن رسول وأرسلهم جميعًا إلى مصر خوفًا على الملك منهم ، فيما عهدا نور الدين عمر الذي شفع له مكانته عند الملك المسعود فتركه وقربه ، وأتابه عنه عندما توجه إلى مصر في المرة الأخيرة ٥٦٢٦هـ / ١٢٢٩م حيث توفي الملك المسعود في مكة . واستمر نور الدين عمر بن علي بن رسول نائبًا عن الأيوبيين في اليمن ، وأخذ منذ تلك اللحظة يمهّد الطريق للاستيلاء على البلاد ، حتى نجحت جهوده وأعلن استقلاله بملك اليمن سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م .

100

100

الفصل الأول

قيام دولة بني رسول على عهد مؤسسها نور الدين عمر بن رسول

ورث بنو رسول ملك اليمن عن الأيوبيين ، فكانوا نوابهم عليها في عهد الملك المسعود يوسف بن الكامل آخر سلاطين الأيوبيين في اليمن . وكان الملك المسعود قد استناب عنه نور الدين عمر بن علي بن رسول في حكم اليمن ، عندما عزم على التوجه لزيارة أبيه في مصر سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م ولكنه توفي أثناء توقفه في مكة ودفن بها . فلما علم نور الدين ، خشي أن ينتدب الملك الكامل نائبا آخر بدله ، فسعى جاهدا لإثبات ولائه للملك الكامل ، حتى استطاع أن يحظى في النهاية بثقته ، وأن يستمر نائبا له في حكم اليمن . فلما تحقق له ذلك ، عمل منذ تلك اللحظة على التمهيد للسيطرة على البلاد ، واستمر يعمل تدريجيا لتحقيق استقلاله بحكمها ، حتى تكاثرت جهوده في النهاية بالنجاح ، فخلع طاعة بني أيوب في مصر ، واستقل بحكم اليمن سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م أي بعد مضي عامين فقط من وفاة المسعود يوسف .

١ - محاولات إسباغ الصفة الشرعية على حكم بني رسول :

رأى بنو رسول أنه لا بد من العمل على إسباغ الصفة الشرعية على حكمهم

لبلاد اليمن ضماناً لاستمراره . وقد أورد بعض مؤرخي اليمن عدداً من الروايات ، نقلها عنهم غيرهم ، منها ما يتعلق بنسب بنى رسول ولما رجاءهم إلى أصل يمنى ، ومنها ما هو منسوب إلى بعض الصالحين وتتضمن التبشير بقيام دولتهم فى اليمن ، وثالث تلك الروايات ما نسب إلى الملك المسعود نفسه ، مما يعتبر تنازلاً منه عن حكم اليمن لنور الدين عمر بن على بن رسول وأخيراً ما يتعلق بالحصول على اعتراف الخليفة العباسى بقيام نور الدين بملك اليمن .

وبهذا يكون بنو رسول قد استندوا فى قيام دولتهم على أصلهم اليمنى باعتبارهم من أهل البلاد وليسوا أجانب عنها كالأيوبيين . كما استندوا على تنبؤات بعض الصالحين من أهل اليمن بقيام دولتهم ، وعلى أنهم لم يغتصبوا الحكم من الأيوبيين لأن ذلك آل إليهم بعد أن تنازل الملك المسعود عنه لأولهم قبل وفاته . وأخيراً يستند بنو رسول على اعتراف الخلافة العباسية استكمالاً للصحة الشرعية ، باعتباره ضرورة من ضرورات العصر ، يستند إلى حق ثابت لهم .

أولاً : — مشكلة انتحال بنى رسول للنسب اليمنى :

ينتسب نور الدين عمر بن على — مؤسس دولة بنى رسول — إلى جده رسول ، وهو محمد بن هارون بن أبى الفتح بن يوحى بن رستم الغسانى الجفنى المنجكى التركمانى ، من نسل جبلة بن الأيهم (١) .

(١) هو جبلة بن الأيهم الغسانى الذى يرتفع نسبه إلى كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . (عن نسب بنى رسول انظر ، الجندى : السلوك ص ٤٥٢ ، ابن عبد الحميد : بهجة الزمن ص ١٠١ (أ) ، الذهبى : سير =

وإذا كان من الثابت في المصادر اليمنية أن علي بن رسول وأولاده قد توجهوا إلى اليمن صحبة الأيوبيين ، فقد كان لزاما على تلك المصادر أن توضح كيفية هجرة أجدادهم الأول من اليمن ، لذا كانوا يرجعون فعلا إلى أصل يمني ، مع إيجاد التفسير المنع لاهم نسبتهم إلى التركان ، ومع أن المصادر السابقة على الخزرجي قد اكتفت بنسبة بني رسول إلى جيلة بن الأيهم -

= أعلام النبلاء ج ١٢ ص ٢٦٣ ، الأفضل الرسولي : العطايا السننية والمواهب
المنية في المناقب اليمنية - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٥١ تاريخ -
ص ٣٠ ب ، نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون - مخطوط بدار الكتب
المصرية رقم ٣٥١ تاريخ ص ٢٧١ ب ، الأشرف الرسولي : طرفة الأصبحاب
في معرفة الأنساب - تحقيق سترستين ، دمشق سنة ١٩٤٩ - ص ١٨ - ٢٨ ،
٣٩ - ٤٢ ، ٨١ - ٩٢ ، الخزرجي : العقود الأولولية ج ١ ص ١ - ٢٨ ،
طراز الزمن ج ٢ ص ٣٧١ ، الفاسي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ،
القاهرة ١٩٥٦ ، ج ١ ص ٥٦ ، ابن الديبع : قرة العيون في أخبار اليمن
اليمنون - مخطوط رقم ١٣٥٥ تاريخ بدار الكتب المصرية - ص ٢٦٥ . أما
عن سلسلة نسب جيلة بن الأيهم ، انظر (ابن واضح اليعقوبي : تاريخ ابن
واضح - نشر هوتسما ، ليدن ١٨٨٣ - ج ١ ص ٤ ، الهمداني : الاكليل ،
الكتاب العاشر ، تحقيق محب الدين الخطيب ١٣٦٨ هـ ، ص ٥ ، للتوحي :
نهاية الأرب - طبعة دار الكتب - ج ٢ ص ٣١١ ، ابن خلدون : العبر ج ٢
ص ٢٥٣ ، الفلقشندي : صبيح الأعشى ج ١ ص ٣١٩ ، قلاند الجمان في
التعريف بقبائل عرب الزمان - نشر الاياري ١٩٦٣ - ص ٩٤ ، ٩٥ ، سعد
وغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الاسلام - بيروت ١٩٧٥ -
ص ٧٠ وما بعدها .

آخر ملوك الغساسنة بالشام (١) - واتصل بال هذا النسب إلى
شياً (٢) أو عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان (٣) ، إلا أن الخزرجي

(١) كان الغساسنة عمالاً للقيصرية على عرب الشام ، ويرجع سبب انتقائهم
لشام إلى خوفهم من انهيار سد مأرب فتركوا موطنهم قبل انهيار السد أو
بعده ، واستقر بهم المقام ببلاد الشام التي كان على ملكها سليح بن حلوان
ابن عمران بن الجان بن قضاة ، فاستولت غسان على البلاد ، وأخرجت
سليحاً منها ، فكان جفنة بن عمرو أول ملوك الغساسنة بالشام . (حمزة بن
الحسن الأصفهاني : تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء - برلين ١٣٤٠ هـ -
ص ٧٧ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٠ - ٣١ ، القلقشندي :
قلائد الجمان ص ٩٤ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في العصر
الجاهلي ص ١٩٥ - ١٩٨ ، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ العرب
ص ٢٠١ - ٢٢٠ .

(٢) قيل أنه سمي سباً لأنه أول من سبى السبائيا ؛ وكان له من الأولاد
حمير وكهلان ، فلما أحس بدنو أجله ، قلد الأول الملك ، وخص الثاني بأمور
الحرب ، وأعقب كل منهما بنوه فيما قرر له . ومما يذكر أن عامر بن حارثة
الأزدى الكهلاني - المسمى ماء السماء - كان معاصراً للحارث الرائي الحميري
الذي نسب إليه الخزرجي قصيدة تذبأ فيها بأشياء كثيرة ، منها تولي بني
رسول ملك اليمن . (الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١ - ١٦) .

(٣) الخزرجي : طراز الزمن ج ٢ ص ٣٧١ ، ابن عبد الحميد : بهجة
الزمن لوحة ٥١ «أ» ، (يلتقى قحطان وعدنان في جدهما عابر بن شالخ ،
وكان لعابر ولدان ، هما هود وفالغ ، فهود أبو قحطان ، وفالغ أبو عدنان
ومن ذريته إبراهيم عليه السلام ، ومن إبراهيم بنى إسرائيل وبني ، عدنان من
ذرية اسماعيل) الأشرف الرسولي : طرفة الأصحاب ص ١٠٨ (وبنو =

كان أول من اهتم بذكر كيفية خروج الفساسنة ، باعتبارهم أجداد بني رسول - من اليمن ، ونزولهم بأرض الشام الجنوبية ، ثم تتبع هجرتهم من بلاد الشام حتى عودة محمد بن هارون (رسول) ، وانضمام ابنه على إلى الأيوبيين ودخوله اليمن صاحبهم ، وذلك دون أن يمدنا الخزرجي بأسماء المصادر التي اعتمد عليها في ذلك .

وذكر الخزرجي (١) أن الفساسنة وغيرهم من قبائل الأزدي تركوا بلاد اليمن عند خراب سد مأرب بسيل العرم ، وتشتتوا وتبعثرت قبائلهم في مناطق متعددة من شبه الجزيرة العربية وتحوّلوا إلى الشام والعراق ، فكانت المنطقة الممتدة من الجولان إلى البلقاء منزلاً للفساسنة بعد تغلبهم على بني سليح بن حلوان المعروفين بالضجاعم ، فحلوا محل الضجاعم في خدمة الدولة البيزنطية ، وكان جفنة بن عمرو مزيقياء أول أمراء الفساسنة بالشام ، وتتابع خلفاؤه على حكمها إلى عهد جبلة بن الأيهم - آخر أمراءهم - الذي أدرك الإسلام ودخل فيه . بعد انتصار المسلمين على الروم ومنتصرة العرب في وقعة اليرموك (٢) ، ثم حدث ما جعله يرتد عن الإسلام إلى دين النصرانية ، وتوجه

= رسول باعتبارهم من بني جفنة ، أشهر قبائل الأزدي - يمتون بصلة القرى لقبائل همدان ، ويتصلون بهم عند مالك بن زيد بن كهلان (الأشرف الرسول) : طرفه الأصحاب ص ٧ و ١٩ و ٢٥ و ٢٩ .

(١) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٠ - ٢١ ، القلقشندي: قلند الجمان

ص ٩٤ - ٩٦ .

(٢) حمزة الأصفهاني : تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ص ٧٦ ، =

فيمتد واقفه من قومه إلى بلاد الروم . وظل في بلاط هرقل في القسطنطينية في رغد من العيش حتى مات على دين النصرانية في قول ، وقيل بل ندم على ما أقدم عليه ومات على الاسلام (١) .

أما بنو جبلة وقومه، فقد انتقلوا بعد وفاته إلى بلاد التركمان ، واستقروا مع قبيلة من أشرف قبائلها ، هي قبيلة منجك واختلطوا بها وتعلموا لغتها ، واستمروا معها (٢) إلى أن انقطعت أخبارهم عن كثير من الناس ، فنسبهم من لا يعرفهم إلى منجك من التركمان (٣) ثم كان دخولهم إلى العراق، واتصال

= المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر - القاهرة ١٩٥٨ - ج ٢ ص ١٠٩ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في العصر الجاهلي ص ١٩٥ و ٢٠٩ ، محمد جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية - الطبعة الرابعة ١٩٦٤ - ص ٣٢ و ٣٦ ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية - الطبعة الثالثة ١٩٦٥ - ج ١ ص ٨٩ - ٩٠

EL-KHAZREJIYY (A.H.) , The Pearl - Strings; A History of The Resuliyy Dynasty of Yemen , vol. III, The Annotations , by Sir J. W. Redhouse , p. 2, Note. 5

(١) الخـزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٥ - ٢٧ ، القلقشندي .
قلائد الجنان ص ٩٦ .

(٢) EL - Khazrejiyy : op . cit., p. 30 , Note 165 ,

(٣) الخـزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٧ ، المسجد ص ٢٢٣ ،
ابن الديبع : قرّة العيون ورقة ٦٥ ب .

رئيسهم محمد بن هارون بخدمة الخليفة العباسي . ويستطرد الخزرجي فيذكر ، أن محمد بن هارون - جده مؤسس دولة بني رسول - كان رجلا جليل القدر عظيم الشأن من بيت شجاعة ورئاسة ^(١) ، وله وجاهة عند الملوك ، أنس إليه الخليفة العباسي ووثق به ، فقربه إليه وأدناه منه ، وسمح له بارتداد مجلسه بغير حجاب . وارتفع شأنه عند الخليفة حتى اختصه برسائله إلى الشام ومصر ^(٢) وإلى من يريد من الملوك ، في الأمور السرية التي يخفي سرها ويحرص على كتمان تفاصيلها ، لاسيما الشفوية منها ، ذلك أن الرسائل المكتوبة قد يطالع عليها - ولو بعد حين - فيعرف القوم مالا يريد الخليفة نشره . ولهذا كان محمد ابن هارون يتحدث بلسان الخليفة وبغير رسالة مكتوبة منه ، ويعود بالجواب شفاهة ، اطمئنانا له وثقة بأمانته ^(٣) .

وهكذا كانت هذه المئزلة الرفيعة التي توصل إليها محمد بن هارون عند الخليفة ، سببا في إطلاق لقب رسول الخليفة ، عليه . فشاع ذلك حتى شهر به وطغى على اسمه ، فجعله الكثيرون ولم يعد يعرفه باسمه إلا القليل من الناس ^(٤) .

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٧ ، ابن الديبع : قرعة العيون ٦٥ ب .

(٢) الخزرجي : نفس المصدر والصفحة . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢١ .

(٣) الخزرجي : المسجد ص ٢٢٣

(٤) الخزرجي : المسجد ص ٢٢٣ - ٢٢٤ ، العقود ج ١ ص ٢٧ ، القاسمى : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٤٩ تاريخ تيمور - ج ٣ ص ٣٩٣ .

ويتضح لنا مما سبق أن المؤرخين اليمنيين قد عملوا على إرجاع نسب بني رسول إلى أصل يمني، واجتهدوا لاثبات أنهم من نسل جبلة بن الأيهم، الذي يرتفع نسبه إلى قحطان، الذي ينتسب إليه عرب اليمن جميعاً (١). وهؤلاء «الرسوليين» وإن كانوا غرباء قد وفدوا إلى اليمن في صحبة الأبييين إلا أنهم ينتسبون إلى إحدى القبائل اليمنية العربية، مما يكسبهم الصفة الشرعية في حكم بلاد اليمن، باعتبارهم من أبنائها.

مناقشة نسب بني رسول :

وإذا ما تطرق الباحث إلى مناقشة مذكرته المصادر عن نسب بني رسول، يتضح أن سلسلة النسب لم ترد كاملة. بمعنى أنها توقفت عند أبي الفتح بن يوحى بن رستم، ثم قفزت طفرة واحدة، قاطعة تسلسل النسب بعده ما يقرب من خمسمائة عام، دون استكمال إلى جبلة بن الأيهم، ثم إلى آخر سلسلة النسب المعروفة في كتب الأنساب إلى آدم عليه السلام. ومما لاشك فيه أن وجود تلك الفجوة في سلسلة النسب، يجعل من الصعب تتبعه إلى جبلة بن الأيهم، وفي نفس الوقت يستثير الشك في صحة انتساب بني رسول إلى الغساسنة ومن ثم إلى القحطانيين. ولو أن المصادر قد استكملت تلك الفجوة، لكان من السهل متابعة هذا النسب والتأكد من مدى صحته.

وإذا كانت الرواية قد ذكرت أن ابن هارون (رسول) قد شمر بلقب «رسول الخليفة» إلى حد اغفال اسمه الحقيقي، بحيث لم يعد يعرف اسمه

ونسبه إلا القليل من الناس (١) ، فمعنى ذلك أنه كان في الامكان استحكال سلسلة النسب عن طريق هؤلاء الذين كانوا على اتصال وثيق به ، ومن المحتم أنهم كانوا يعرفون اسمه الصحيح ، لذا كدهم من نسب محمد بن هارون ، وأنه من نسل جبلة بن الأيهم الذي مضى على اتصاله بهرقل قيصر الروم - وهجرة أبنائه من بعده إلى بلاد التركمان - ما يقرب من خمسمائة وخمسين عاما إلى بداية العصر الأيوبي ، أو ستمائة عام إلى قيام دولة بني رسول .

وإذا وضعنا في الاعتبار أن ذكر النسب قد ورد في مصادر متأخرة ، وأن المصادر المعاصرة لم تذكر شيئا عن نسبهم في ثنايا الأحداث السابقة على قيام الدولة أو بعدها ، لذا أكد لنا أن هذا النسب قد تم الاعداد له بعد قيام الدولة ، إذ أن أول ما يقابلنا فيما يتعلق بذلك ما كتبه أحد سلاطين بني رسول أنفسهم - وهو السلطان الملك الأشرف عمر بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول ثالث ملوك بني رسول (ت ٥٦٩٦/١٢٩٧ م) ، حيث ركز في معرض ذكره لانساب العرب في كتابه ، طرفة الأصحاب في معرفه الأنساب ، على نسب أسرته باعتبارهم من نسل جبلة بن الأيهم . وقد نقل عنه غيره من مؤرخي اليمن كالجندي (ت ٧٢٢) وابن عبد المجيد (ت ٧٤٣) والساطان الملك الأفضل (ت ٧٧٨) والخزرجي (ت ٨١٢) ، وقد ورد النسب في كتبهم - فيما عدا الخزرجي - مجلا ، أما الخزرجي فقد زاد على سلسلة النسب بيان خروج أجدادهم - بعد سيل العرم - إلى الشام ثم القسطنطينية وبلاد التركمان وعودتهم إلى العراق ثم مصر ومنها إلى اليمن ، متتبعا بذلك هجرتهم وعودتهم ، لازالة عوامل الشك في انتسابهم إلى القساسنة ، ولإثبات أصلهم اليمني ، ولهذا يعتبر

(١) الخزرجي : المسجد ص ٢٢٣ - ٢٢٤ ، العقود اللؤلؤية ج ١

ص ٢٧ ، القاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩٣ .

الخزرجي أول من أعطى هذه التفصيلات بل بلغ من اهتمامه ... بالإضافة إلى ما أورده في كتاب « العقود اللؤلؤية » وفي غيره مثل « المسجد المسبوك » - أن أفرد مؤلفا خاصا ساء « المحصول في انتساب بني الرسول » (١) وهو كتاب مفقود .

وعلى ضوء ما سبق ، فإنه من المعتقد أن رواية النسب هذه ملفقة من أساسها - الأمثلة الماثلة في التاريخ كثيرة - أو على الأقل مشكوك في صحتها ، وأنها عحاطة بظلال من الشك ، وتحتاج إلى الدليل القاطع على صحتها . ويؤكد ما توصلنا إليه ، أن المؤرخ اليمني بدر الدين محمد بن حاتم صاحب كتاب « السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن » والذي كان معاصرا لسلطان الرسول المظفر يوسف بن نور الدين عمر ثاني سلاطين بني رسول ، ودخل في خدمته ، ذكر في مقدمة كتابه ، أن الدافع له على تأليفه يرجع إلى أنه لما لم يكن أحد قد صرف همه إلى أخبار الغز باليمن وتخليدها في كتاب يتداول إلى آخر الزمن ، أحببت أن أكون السابق إلى ذلك » (٢) ، وقد

(١) ألف الخزرجي كتابه « المحصول في انتساب بني الرسول » شرح فيه قصيدة نسبها للحارث الراش الحميري الذي عاش في فترة ما قبل خراب سد مأرب ، وتنبأ فيها بما سيكون من الحوادث ، ومنها قيام دولة بني رسول ، وذكر الخزرجي أنه ألف هذا الكتاب لما شهد به من انتسابهم ، وقل أن يوجد دليل على صحة نسب أحد من الناس كصحة هذا النسب .
الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢ - ٦

(٢) ابن حاتم ، بدر الدين محمد : السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن - مخطوط بالمتحف البريطاني رقم ٢٧٥٤١ إضافات - ورقة ١ (ب) محمد عبد العال أحمد : القفتح الأيوبي لليمن ص ١٢٦ .

تناول ابن خاتم في كتابه، تاريخ الأيوبيين في اليمن ومن جاء بعدهم من ملوك
بنى رسول إلى بداية سلطنة الأشرف عمر بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول
ثالث سلاطين بنى رسول .

ويعتبر كتاب السمط المصدر الأول والأساسي لتاريخ بنى رسول في فترة
قيام دولتهم واستقرارها، ولم يتعرض ابن خاتم لانتساب بنى رسول للفاطنة،
بل على العكس فإنه يكون قد أكد نسبتهم إلى الغز، وهم جنس من الترك،
منهم السلاجقة^(١). والغز أو الأغز أطلقها دوزى Dozy على الأكراد أيضا^(٢).
كما ذكر ابن خلدون أنه باستيلاء الأيوبيين على اليمن، انقرض ملك العرب
من اليمن، وصار للغز (الأيوبيين) ومواليهم بنى رسول من بعدهم^(٣).
وهذا يعني أن بنى رسول لا يمتون إلى أصل عربي، وهكذا فإن انتسابهم
إلى أصل يمني يقصد به لإثبات أنهم من أبناء اليمن مما يكسبهم الصفة الشرعية
في الحكم .

أما فيما يتعلق بمحمد بن هارون (رسول) ومفادته بلاد التركمان دون

(١) القلقشندي : قلائد الجمان ص ٢٨ ، سعد زغلول عبد الحميد : الترك
والمجتمعات التركية عند الكتاب العرب وغيرهم . بحث بمجلة كلية آداب
الاسكندرية ، المجلد العاشر ديسمبر سنة ١٩٥٦ ، ص ١٦ .

(٢) انظر مادة (غز) في ، Dozy : Supplement aux Dictionnaires
Arabes.

(٣) ابن خلدون : تاريخ اليمن ، ملحق بكتاب تاريخ اليمن لعلمارة ؛ نشر

سبب معروف إلى العراق، واتصاله في بغداد بخدمة الخليفة العباسي ، فإننا إذا سلمنا جدلاً بصحة هذه الرواية نجد أنها قد أغفلت ذكر تاريخ رحيله إلى العراق ، كما لم تصرح باسم الخليفة العباسي المقصود والمدة التي عمل فيها رسولا له، وأسباب وتاريخ تركه خدمة الخليفة. بعدما بلغ هذه المنزلة الكبيرة عنده - وتوجهه إلى الشام ثم إلى مصر .

غير أنه اعتماداً على ما ذكره الخزرجي نقلاً عن صاحب السيرة المظفرية^(١)، يتبين لنا أن بني رسول كانوا في مصر في بداية عصر الدولة الأيوبية ، وباستخدام هذه الرواية بشيء من الحذر ، يمكن القول بأن توجه محمد بن هارون من بلاد التركمان إلى العراق تم على وجه التقريب ولأسباب غير معروفة في طليعة النصف الثاني من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) . وعلى هذا يكون الخليفة العباسي المقصود هو المستنجد بالله^(٢) ، وأن مغادرته العراق حدث بعد وفاة الخليفة مباشرة أو قبله لأسباب تتعلق باحتمال عدم احتفاظه بمكانته المرموقة ، أو على أكثر تقدير في عهد خلفه المستضيء . ابن المستنجد^(٣) ، وأنه لم يستمر في خدمة هذا الخليفة طويلاً ولحق بالشام

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٨ .

(٢) هو الخليفة أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتدي (٥٥٥-٥٦٦ هـ) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي - ترجمة د . زكي محمد حسن وآخرون - القاهرة ١٩٥١ ، ج ١ ص ٤) :

(٣) هو الخليفة المستضيء بأمر الله بن المستنجد (٥٦١ - ٥٧٥ هـ) ، زامباور : المرجع السابق ج ١ ص ٤ .

ومنها إلى مصر . وربما كان قد قصد خدمة نور الدين محمود بن زنكي فأرسله إلى صلاح الدين في مصر (١) .

ولا يزعم الباحث أنه بهذا التعايل قد توصل إلى إثبات صحة هذه الرواية، إذ يبق من الضروري تفسير نقطتين هامتين : -

أولاهما ، إيجاد تعاليل مناسبة لأسباب عدم ذكر محمد بن هارون - اسما ولقبا - في المصادر التاريخية أو كتب التراجم المعاصرة له ، رغم ما كان يتمتع به من شهرة كبيرة ، ومكانة مرموقة لدى الخليفة ، فالمصادر قد تعودت الإشارة إلى أخبار من هم في مثل مكانته ، وذكرهم بأسمائهم وألقابهم .

أما النقطة الثانية ، فتختص بما ذكر عن توجيه رسولا للخليفة إلى مصر ، وهذا يعنى أنه كان قد ترسل إلى الفاطميين ، وهو أمر مستبعد ، لما هو معروف عن العداء المذهبي التقليدي بين الخلافتين .

وعلى هذا نرى أن هذه الرواية يشوبها الشك أيضا ، وتحتاج إلى ما يدعمها لورودها في المصادر اليمنية المتأخرة دون غيرها ، وبغير سند إلى مصادر معاصرة .

وصفوة القول أن ما ذكر حول نسب بني رسول للغساسنة هو محض ادعاء ليس له ما يدعمه ، وأن ذلك قد بدأ نسجه متأخرا بعد قيام الدولة ، وتوجيه من ملوك بني رسول أنفسهم . والمرجح أن ذلك تم في عهد السلطان الملك

المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول - ثاني سلاطين بني رسول (٦٤٧ - ٦٩٤هـ) الذي ألقت برسمه السيرة المظفرية - وهي من المخطوطات المفقودة - والتي نقل عنها الخزرجي .

واستنادا إلى كل ما تقدم أرى أن بني رسول لا يمتنون إلى أصل عربي ، وأن محاولة المصادر اليمنية المتأخرة نسبتهم إلى القساسنة يقصد بها اكساب حكمهم العنفة الوطنية . وعلى هذا فإنهم يرجعون إلى أصل تركاني ، وهو العنصر الذي كان يتكون منه ومن الأكراد معظم جيش صلاح الدين ، والذين توجهوا إلى مصر صحبة أسد الدين شيركوه في أواخر عصر الدولة الفاطمية ، أو ضمن الامدادات التي توالى تباعا على صلاح الدين لتدعيم سيطرته على مصر بعد القضاء على الخلافة الفاطمية .

٢ - التنبؤ بقيام دولة بني رسول :

أما عن الروايات التي وردت بشأن التنبؤ والتبشير بقيام دولة بني رسول ، فهي متعددة ومنسوبة إلى شخصيات متنوعة .

وأول هذه الروايات ما ورد منسوبا إلى الحارث الرائي الحميري (١) .

(١) كان ملك الحارث الرائي لليمن قبل ظهور النبي (صلعم) بنحو ستمائة عام . وكان معاصرا لعاصرين حارثة الأزدي - جد جفنة بن عمرو مؤسس دولة القساسنة بالشام - وقد ذكر الخزرجي أن الحارث الرائي كان محدثا - بفتح الدال المشددة - أي الذي يتحدث بمستقبلات الأيام ، ويتنبأ بما سيقع فيها من الأحداث ، فتثبت الأيام صدق تنبؤاته ، وقد نسب الخزرجي إليه قصيدة تنبأ فيها بمن سيملك اليمن من حمير بعده ، وما كان من تملك الحبشة لها ، =

فقد نسب إليه النبوة بظهور بنى رسول العباسية وقيام دولتهم في اليمن .
ويستدل على ذلك من بيت في القصيدة يقول فيه :

ويظهر راية المنصور فيهم . . . على غاء إذا نطقوا ولام^(١)

والبيت المذكور فيه تصريح - في شطره الأول - بإمام المنصور (نور الدين عمر بن علي بن رسول) ، وقد خصه بالإشارة والإشارة . أما الشطر الثاني ، فهو مبهم وغامض ، ولكن يمكن حل رموزه باستخدام حساب الجمل . (فأعلم) طبقا لهذا الحساب تساوى ستائة ، أما (اللام) فتساوى ثلاثين فيكون التفسير أن قيام دولة بنى رسول على يد المنصور (نور الدين عمر) في سنة ٦٣٠ ، وهو تاريخ استكمال مظاهر استقلاله بملك اليمن وضرب السكة باسمه^(٢) .

وثاني هذه الروايات ، ما ذكره الخزرجي منسوبا إلى نور الدين عمر مؤسس الدولة ، من أن غفريعا من الجن بشره بالملك^(٣) .

= ومن ملك بعدهم إلى ظهور الدعوة المحمدية ، والخلفاء الراشدين والأئمة والعباسيين ، وقيام بنى رسول بملك اليمن . وهذه القصيدة هي التي شرحها الخزرجي في كتابه ، المنصور في انتساب بنى الرسول ، (الخزرجي : العقود ج ٩ ص ٢ - ٦) .

(١) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٥٥ ، ٣ .

(٢) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٥ - ٦ .

(٣) قال الخزرجي ، ومما يروى من نور الدين عمر بن رسول قوله : دأببت ليلة من الليالي مهموما لمرض عرض لي ، فلما أخذت مضجعي ومضي نحو من شعار الليل ، سمعت دويقا في الهواء ، فرفعت رأسي ، وإذا غفريت يهرب

وثالث هذه الروايات، ينسبها الخزرجى إلى بعض الصالحين الذين بشروا نور الدين بالسلطنة وأن ملك اليمن سيظل في ذريته إلى آخر الزمان (١) .

ورابع هذه الروايات ، نقلها الخزرجى عن صاحب السيرة المظفرية ، وتتعلق أيضا بالتنبوء بقيام دولة بنى رسول واستمرارها إلى آخر الدهر (٢) .

== من الشواظ حتى حط نفسه عندي - وهو يلث وكأنه معصرة من عظمته - فقامت من مضجعى وأخذت أداة الماء فسكبتها في فيه . فلما اطمأن وزال عنده روعه قال ، أسفر وأبشريا أبا الخطاب بالملك من عدن ، إلى عيذاب ، ثم ذهب عنى (الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤٤ - ٤٥ المسجد ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ، العقد الفاخر الحسن ج ٢ لوحة ٦٦ د أ ، ، بانخرمة : تاريخ نقر عدن ج ٢ ص ١٧٥) .

(١) ذكر الخزرجى أن ثلاثة من الصالحين توجهوا إلى نور الدين هدر غندما كان أتابكا للمسيود ، فألقى أحدهم السلام عليه ، فرد عليه نور الدين ، ثم سأله الثانى : « أنت الأتابك وغير ذلك ؟ » فقال ، وما غير ذلك ، فعقب الثالث بقواه : « سلطان اليمن ، وملكها من ذريتك إلى آخر الزمان » . (العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤٥ ، المسجد ص ٢٢٥ ، العقد الفاخر الحسن ج ٢ لوحة ٦٦ د أ ، ، بانخرمة : تاريخ نقر عدن ج ٢ ص ١٧٥) .

(٢) تلخص هذه الرواية في أن شيوخين من مشايخ الصوفية الصالحين وأيا الملك المسيود عند دخوله اليمن بعد عودته من مصر ، وقبل سفره الأخير إليها . فسأل أحدهما الآخر عما إذا كان يرى ما يراه ، فاستفسر منه عما يراه ، فقال : « أرى شخصا إن سار ، سار العسكر جميعه ، وإن وقف ، وقف ==

وخامس هذه الروايات ، رواها الخزرجي أيضا ، وهي أن رجلا سمع هاتفا من الجن يبشر بزوال ملك الأيوبيين في اليمن (١) .

أما سادس هذه الروايات وآخرها ، فأخوذة عن الشيخ الصالح محمد بن أبي بكر الحكمي صاحب عواجة (٢) من بلاد وادي سهام ، الذي بشر نور الدين عمر بالملك (٣) .

مناقشة الروايات الخاصة بالتنبؤ والتبشير بقيام دولة بني رسول : -
ومناقشة هذه الروايات ، نجد أنه بالنسبة لتنبؤ الحارث الرائي في القصيدة التي نسبها الخزرجي إليه ، أن هذه القصيدة قد توقفت عند حد التنبؤ بملك المنصور (نور الدين عمر) ، وقد ذكر الخزرجي أن القصيدة « ربما

= العسكر جميعه ، فقال له لعل ذلك المسعود ، فقال له : بل هو الملك المنصور عمر بن علي بن رسول ، والملك في عقبه إلى آخر الدهر : (الخزرجي : العقود الأولوية ج ١ ص ٤٥ ، المسجد ص ٢٢٥) .

(١) انظر الرواية في الخزرجي : العقود ج ١ ص ٤٥ - ٤٦ ، المسجد ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ، العقد الفاخر الحسن ٢ لوحة ٦٦ ، أ .

(٢) عواجة ، بلدة من بلاد وادي سهام ، تقع إلى الشمال من مدينة الكندراء على خط عرض ١٥° شمالا وخط طول ٢٠° و ٤٣° شرقا تقريبا .

(EL - Khazrejiyy : The Pearl-Strings, vol. III, 3, p. 44, Note 255) .

(٣) الخزرجي : العقود الأولوية ج ١ ص ٤٦ ، المسجد ص ٢٢٦ ، ابن الديبع : قرّة العيون ورقة ٧٠ ب .

أنها أكثر من هذا، (١). ويبدو أنه استدرك أن وقوف أحداث التنبؤ عند هذا الحد قد يثير الشك حولها. ولو كان للتعميدة بقية لذكرها الخزرجي، وخاصة إذا ما كانت هذه البقية تتعلق بأحداث تالية لعصر نورالدين والخزرجي، مما يساعد على التأكيد من صدق هذا القول أو زيفه، إذا ما قورنت تنبؤاتها بما سيقع من أحداث بعد ذلك. ولكن ورود هذه القضية على يد الخزرجي متضمنة أحداث سابقة، ودون إسنادها إلى مصدر سابق لهذا العصر، لما يؤكد أنها من وضع الخزرجي لانفرادها بها.

أما الروايات الأخرى الباقية، فكلها تتعلق بالتبشير بقيام دولة بني رسول، وهذه الروايات جميعها تدخل في عداد الأساطير، وأم يكن الخزرجي منطقياً فيها، أو على الأقل لم يعمل على تدعيمها وإسنادها إلى الأصل الذي استقاها منه. ولو كان الخزرجي معاصراً لقيام الدولة لالتسنا له العذر باعتباره من المعاصرين، ولكنه متأخر عن هذا العصر بأكثر من قرن ونصف قرن. وهذا كله كافٍ لخلق جو من الشك حول هذه الروايات، خاصة وأن أحداً من المؤرخين السابقين له لم يذكر من ذلك شيئاً.

وهكذا تكون هذه الروايات - شأنها في ذلك شأن موضوع النسب - قد وضعت في عصر متأخر على يد الخزرجي من أجل إسباغ نوع من الشرعية على حكم بني رسول، وتأكيده وتدعيم دولتهم فيها.

(١) الخزرجي: العقود الأثرية ج ١ ص ٣.

٣ - ادعاء تنازل المسعود كنور الدين عمر :-

واستكمالا لنوعيات الروايات التي قصد منها إيجاد سند شرعى تستند عليه دولة بنى رسول التي أولاها الخزر جى عناية خاصة ، فقد ذكر أنه لما استقر رأى المسعود يوسف - آخر سلاطين الأيوبيين فى اليمن - على مناديتها إلى دمشق ليتولى عليها - بعدما استولى عليها أبوه عقب وفاة صاحبها المعظم عيسى ابن العادل الأيوبي (١) ، استدعى أتابكته نور الدين عمر ، وأبلغه بعزمه على السفر ، واستخلفه على نيابة اليمن (٢) ، وعهد إليه بالسلطنة بعد وفاته ، وأوصاه ألا يمكن أحدا من بنى أيوب من البلاد (٣) ، وقال له : فإن مت فأنت أولى

-
- (١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان - حيدر آباد الهند ١٩٥٨ - ج ٨ ص ٦٥٨ ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة ، مصور عن نسخة كوبرىلى بالآستانة ، ج ٢٧ ص ٤١ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٤٠٣ ، الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١٧٩ ، المقرئى : الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، نشر الشيال ١٩٥٥ ، ص ٧٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة سنة ١٩٣٥ ج ٦ ص ٢٧٢ ، الحنبلى : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب مخطوط - لوحة ٩٩ دأ .
- (٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ١٤٩ ، المقرئى : السالك ج ١ ص ٢٣٧ ، باخرمة : تاريخ نجر عدن ج ٢ ص ١٧٥ ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمان ص ٧٠ ، الكبسى : اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية ، مخطوط بدار الكتب رقم ٤١٦٣ تاريخ ، ورقة ٣٩ ب .
- (٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، القاهرة ١٩٥٦ ، ج ١ ص ٢٣٠ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٧٣ .

بملك اليمن من إخوتي ، لأنك خدمتني ، وعرفت منك النصيحة والاجتهاد -
وإن عشت فأنت على حالك ، وإياك أن تترك أحدا يدخل اليمن من أهلي ،
ولو جاءك الملك الكامل - والدي - مطويا في كتاب (١) . فإذا ألح عليك
أعلمتني حتى أجتمع أنا وعمي الأشرف عليه ونحاربه ونشغله (٢) .

ولوصحت رواية الخزرجي لكانت وصية شرعية باستخلاف المسعود
نور الدين عمر في حكم اليمن أثناء حياته ، ووثيقة بتنازله له عن ملك اليمن ،
وعهداً له بتقلد عرش السلطنة بعد وفاته ، وعلى هذا الأساس يتبرأ نور الدين
من تهمة اغتصاب ملك اليمن من الأيوبيين .

إلا أن المؤرخ بدر الدين محمد بن حاتم - وهو من أوائل من أرخ لبني
رسول - ذكر في كتابه (٣) ، أن الملك المسعود لم يعرض نيابة السلطنة على
نور الدين في بداية الأمر ، وأنه أراد استصحابه معه عندما قرر
التوجه إلى دمشق ، وطلب منه الاستعداد للرحيل معه ، ثم عاد
وعرض عليه البقاء في اليمن نائباً عنه عندما استعفى منها نائب صنعاء
جسام الدين أولو (٤) ، وبعد أن استعرض أرباب دولته وأعيانها وسائر خواصه ،

(١) القاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩٤ .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤاوية ج ١ ص ٤٠-٤١ ، ابن الديبع : بغية المستفيد
ورقة ١١ دأ .

(٣) السبط الغالي الثمن ورقة ٤٢ «أ» .

(٤) أدريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٢ .

واسعقر رأيه على نور الدين ، فاستخلفه على اليمن كله سهله ووعره وبحره وبره : وقال له : « تقف أنت نائبا حتى يصلك أمرا بتسليم البلاد لمن تتعين له ، ونلحقنا بعد ذلك إلى الديار المصرية » (١) .

وهكذا فإن رواية الخزرجي لا تستند إلى مصدر معاصر ، بل على العكس فإن ما ذكر ابن حاتم يقطع بأن نيابة نور الدين عن المسعود كانت لفترة مؤقتة إلى أن يصله من يحمل محله ، ثم يلحق بالملك المسعود ، وهذا مما يؤكد ضعف رواية الخزرجي كغيرها مما ذكره عن شرعية دولة بنى رسول .

والخزرجي - كمؤرخ - له مكانته المرموقة بين مؤرخي اليمن ، غير أنه فيما ذهب إليه من محاولات لإثبات شرعية ملك بنى رسول ، قد اختلق هذه الروايات تقربا إلى سلاطين تلك الدولة ، ثم توج محاولاته بما زعمه من تنازل نسبه إلى الملك المسعود ، وهذا الاختلاق يضعف رواياته ويضعه موضع الشك والاتهام ، لعدم تحريه الدقة فيما يتعلق بهذا الموضوع .

٤ - اعتراف الخليفة العباسي باستقلال نور الدين بملك اليمن : -

كان نور الدين يتوقع رد فعل مضاد من بجانب القوى الأيوبية بمصر بعد خروجه عن طاعتهم واستقلاله بملك اليمن ، خاصة وأن بلاد الحجاز كانت تابعة للأيوبيين (٢) ، وفيها حامية أيوبية كانت تشكل خطرا على دولته

(١) ابن حاتم : السمط الغالي الثمن ورقة ٤٢ « أ » .

(٢) القامح : العقد الثمين ج ١ ص ١٧٩ .

الناشئة . ولهذا السبب كان من الطبيعي أن يعمل على الحصول على تقليد بالسلطنة من الخليفة العباسي ، باعتبار أن هذا التقليد ضرورة يلجأ إليها السلاطين التابعين للخلافة لاكتساب الصفة الشرعية في حكمهم ، كما أنه بهذا التقليد سوف يجعل من دولته أمرا واقعا وحقيقة ملموسة . أضف إلى ذلك أن نور الدين عمر لم يقنع ببلاد اليمن فقط، بل تطالع إلى ضم بلاد الحجاز كذلك ^(١) ، مما يكسبه احترام العالم الاسلامي ، باعتباره حاميا حمى الحرمين الشريفين ، كما أنه يجعل من بلاد الحجاز حصنا أماميا ، تتوقف عنده الحملات الأيوبية وتعوق سيرها إلى اليمن ، ولهذا لم ينتظر نور الدين حتى تدامه القوات الأيوبية. بل أسرع - بعد أن علم بأن الملك الكامل قد جرد حملة سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٣٢ م إلى مكة تمهيدا لاسترداد اليمن ^(٢) - بإرسال جيش لمحاصرة الحامية وتطوير القوة الأيوبية بمكة ^(٣)، مما اضطرها إلى التوجه إلى ينبع للاحتما بها ^(٤) ، واستولت قوات نور الدين على مكة ، وتوالت

(١) باخرمة : تاريخ نجر عدن ج ٢ ص ١٧٨ .

(٢) ابن حاتم : السمط لوحة ٤٣ «أ» ، ابن الفوطي : الحوادث الجامعة والتجارب النافذة في المائة السابعة ، بغداد سنة ١٣٥١ هـ ، ابن الظهيرة : الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، الطبعة الثانية ١٩٣٨ ، ص ٣١١ .

(٣) ابن حاتم : السمط لوحة ٤٣ «أ» ، الخزرجي : العقود الزاوية ج ١ ص ٤٩ ، القامي : العقد الثمين ج ١ ص ١٧٩ ، ج ٣ ص ٣٩٥ .

(٤) الخزرجي : المسجد ص ٢٢٨ ، المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٤٤ .

الحملات من الجانبين (١) ، فتارة يستولي عليها وأخرى يستردها
الأيوبيون منه (٢) .

وفي سنة ٥٦٣١/١٢٣٤م أرسل نور الدين هدية عظيمة (٣) مع رسول من
أتباعه يقال له الشعموري (٤) إلى بغداد لطلب تشريف بالنيابة وتقليد بالسلطنة
من الخليفة العباسي المستنصر بن الظاهر (٥) . وعاد الشعموري بوعد بإرسال
المطلوب في موسم الحج صحبة الحاج العراقي إلى عرافات (٦) . ولهذا توجه
نور الدين لأداء فريضة الحج واستقبال التشريف والتقليد (٧) ، ولكنه

(١) ابن تغري بردي : حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ، نشر
Popper ، كاليفورنيا ١٩٣٠ - ١٩٣١ ص ٣٧٥ .

(٢) الكبسي : اللطائف السنية ص ٣٩ ب ، العرشي : بلوغ المرام ص ٤٤ ،
De Gaury (Gerald) : Rulers of Mecca, London, 1951, pp. 81-89.

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥٤ . المسجد ص ٢٢٩ ، ابن
الديبع : قرة العيون ورقة ٦٦ ب .

(٤) ابن جاتم : السمط ورقة ٤٣ ب .

(٥) الخزرجي : العقد الفاخر الحسن ج ٢ ورقة ٦٦ ب ، الفامي : العقد
الشمين ج ٣ ص ٣٩٥ ، ابن تغري بردي : حوادث الدهور ص ٣٧٥ ، يحيى
ابن الحسين : انباء الزمن ص ٧١ .

(٦) الخزرجي . العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥٤ ، المسجد ص ١٢٩ ، ابن
الديبع : قرة العيون ورقة ٦٦ ب .

(٧) ابن جاتم : السمط ورقة ٤٣ ب ، الخزرجي : العقد الفاخر الحسن
ج ٢ ص ٦٦ ب .

عاد إلى اليمن بعد أداء الفريضة لعدم وصول ركب الحاج العراقي في ذلك العام (١).

وفي سنة ٥٦٣٢ / ١٢٣٥ م وصل ركب الحاج العراقي بكسوة الكعبة إلى مكة (٢)، وفي صحبتهم رسول من الحسينيين يسمى مهنا (٣) حاملاً لرسالة من الخليفة إلى سلطان اليمن لا بلاغه أن التشریف والتقليد في طريقهما مع رسول آخر إليه عن طريق البحر من البصرة (٤). ووصل الرسولان إلى اليمن في وقت واحد (٥) وتقابلوا في مدينة الجند حيث كان نور الدين موجوداً آنذاك وتمت مراسم التقليد في مسجدھا، حيث ارتقى رسول الخليفة - ويدعى معالي - المنبر، وقال: «يا نور الدين، إن العزيز يقرئك السلام، ويقول: قد تصدقت عليك، ووليتك إياه، وألبسه الخلعة الشريفة على المنبر (٦)».

(١) كان العربان قد قطعوا الطريق وكسبوا الآبار فاشتغلوا باصلاحها مما فوت عليهم الحج واضطروا للعودة (ابن حاتم: السمط ورقعة ٤٣ ب، الخرجي: العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥٤، المسجد ص ٢٢٩، ابن الديبع: قرعة العيون ورقة ٦٦ ب).

(٢) الخرجي: المسجد ص ٢٢٩، العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥٤.

(٣) ابن حاتم: السمط لوحة ٤٣ ب.

(٤) الخرجي: المسجد ص ٢٢٩، العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥٥، العقد الفأخر الحسن ج ٢ لوحة ٦٦ ب، باخرمة: تاريخ نجر عدن ج ٢ ص ١٧٦.

(٥) ابن حاتم: السمط لوحة ٤٣ ب، ٤٤ دأ.

(٦) الخرجي: العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥٥، الفاسي: العقد الثمين

وهكذا استكمل نور الدين مظاهر استقلاله بحكم اليمن تحت السيادة العباسية ، وبتقليد من الخليفة فاكسب الصفة الشرعية في ملكه على البلاد ، دون باقي الروايات الأسطورية الأخرى ، السابق تنفيذها ، والتي كانت تستهدف تأكيد حكمه الوطني ، باعتباره من أصل يمنى ، واكتساب الصفة الشرعية لتنبؤ القدماء بملكه ، وتشير المعاصرين بدولته .

ثانياً — ظهور بنى رسول على مسرح الأحداث اليمنية قبيل قيام دولتهم : —

١ — أولوية بنى رسول في اليمن :

من الثابت أن بنى رسول قد توجهوا إلى بلاد اليمن في صحبة الأيوبيين ، بدليل اشتراك والدهم شمس الدين أبو الحسن على بن رسول في إحدى الحملات الأيوبية المتوجهة إلى تلك البلاد ، وصحب معه أولاده الأربعة ، بدر الدين الحسن — أكبرهم — وشرف الدين موسى ، وفخر الدين أبو بكر ، ونور الدين عمر وهو أصغرهم .

أما عن تاريخ وصولهم إلى اليمن ، فقد اختلف في تحديده ، فقد ذكر الخزرجي نقلاً عن صاحب السيرة المظفرية قوله ، أنه لما استوثق الملك لبني أيوب في مضر لم يزل معهم عصبة من بنى رسول لعلمهم بتقدم منصبهم في الملك ، وعلو همتهم وشدة بسالتهم وثبوت آرائهم ، فاجتمع رأي بني أيوب على أن يسلموا إليهم اليمن . فقال ذو رأيهم : إذا استقوون بها عليكم وينازعونكم في الشام . فاجمع رأيهم على تسييرهم إلى اليمن صحبة الملك المعظم نورانشاه بن أيوب ، فخرجوا صحبته بعد أن استحللهم له أخوه الملك الناصر (صلاح الدين) يوسف بن أيوب ، وأوصاهم بحسن صحبته والنصح

في مسأيرته وخدمته ، (١) .

وإذا كان بنو رسول قد بلغوا هذا القدر من المكانة والشهرة إلى حد أن صلاح الدين خشي منهم على دولته ، فيعدل عن فكرة إسناد إمرة الفتح إليهم ، ويسيرهم صحبة تورانشاه ، ويوصيهم به خيرا ، مع ما عرف عن تورانشاه من المكانة الكبيرة والخبرة الواسعة والقدرة الحربية الفائقة ، فإن عدم اعتماد تورانشاه عليهم ، وسكوت المصادر المعاصرة عن الإشارة إليهم أو إبراز دورهم خلال تلك الفترة ، لما يؤكد أن وصولهم إلى اليمن لم يكن ضمن حملة تورانشاه ، اللهم إذا كانوا قد اشتركوا في الحملة كجنود حاديين ، وهذا يتنافى والمكانة التي أسيغتها عليهم المصادر المتأخرة .

وإذا سلمنا بصحة ما ذكره الخزرجي ، فإن ذلك يعني أن نور الدين همر — مؤسس الدولة — وهو أصغر إخوته ، قد ظل في اليمن ٧٨ عاما منذ وصوله إليها حتى وفاته ، بخلاف ما كان قد بلغه من العمر وقت مجيئه ، ومع ذلك فقد كان من الممكن التجاوز عن ذلك لو أن لدينا ما يؤيد الرواية المذكورة ، وللأسف لم يرد في مصنفات مؤرخي اليمن المعاصرين ما يشير إلى ذلك من قريب ولا من بعيد ، كما أن هؤلاء المؤرخين لم يذكروا عنهم شيئا في سياق ما أوردوه من أحداث الفتح أو بعده ، كما فعلوا بالنسبة لغيرهم من البارزين من قادة الجند وممن أنابهم تورانشاه على البلاد والحصون وقت وجوده في اليمن أو بعد مغادرته لها .

(١) الخزرجي : العقود الأثرية ج ١ ص ٢٨ .

ولهذا فإننى أستبعد وصول بنى رسول إلى اليمن صعبة تورا نشاء
 ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م ، وأرى أنهم وفدوا إليها ضمن حملة طغتكين بن أيوب
 سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م. والدليل على ذلك ما ورد صريحا فى مؤلفات أخرى^(١)،
 منها ما هو للخزرجى نفسه^(٢). وعلى هذا يكون ما أورده الخزرجى فى
 كتابه العقود اللؤلؤية ، قد حرفه الناسخ ، ولم يتنبه محقق الكتاب أو مترجمه
 إلى ذلك^(٣).

ومما يمكن من شىء ، فقد كانت بداية ظهور بنى رسول على مسرح
 الأحداث اليمنية فى عصر السلطان الملك العزيز طغتكين بن أيوب ، حيث
 ذكرت المصادر أن على بن رسول قد تولى نائبا لطفتكين على مدينة حيس^(٤)

(١) ابن الديبع : قرة العيون ورقة ٦٥ ب .

(٢) الخزرجى : المسجد ص ٢٢٤ ، العقد النادر الحسن ج ٢
 لوحة ٤٢ ب .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٨ والترجمة الانجليزية
 والتعليقات التى قام بها Sir J. .W Redhouse بعنوان
 The Pearl-Strings ; A History of the Resuliyy Dynasty of
 yemen vol. III,1 p. 75.

(٤) حيس ، مدينة بتهامة ، تقع إلى الجنوب من زبيد ، على خط عرض
 ٥٥° ١٣' شمالا ، وخط طول ٢٨° ٤٣' شرقا . (El-Khazrejiyy ;)
 The Pearl - Strings, vol. III, 3, p. 34, Note 192.)

وأعمالها (١) ، وأنه بلغ من المكانة وحسن السيرة وأن نساء سيف الإسلام (طغتكين) لم يكن يحتجبن منه (٢) ، ومع هذه المنزلة ، تقف المصادر عند حد إمدادنا بهذا الخير طوال فترة حكم طغتكين .

فلما تولى المعز اسماعيل بن طغتكين ملك اليمن بعد أبيه ، اتسج مع أهل اليمن سياسة تقوم على البطش ، وأساء معاملته قادة الجند والنواب . فكان لهذه السياسة أثرها في فرار معظمهم والانضمام إلى القوى المعادية للأيوبيين في اليمن . ويستدل على ذلك مما ذكره صاحب السمط ، في حوادث ٥٩٤ هـ من أن بدر الدين الحسن بن علي بن رسول كان رهينة عن والده عند المعز (٣) الذي ظل محتفظاً به إلى نهاية عهده سنة ٥٩٨ هـ (٤) ١٢٠٢ م . فلما خلفه أخوه الناصر أيوب ، عاد الفارون إليه وعلى رأسهم الأتابك سيف الدين سنقر ، فولاه الناصر أتابكاً له وقام بأمر مملكته . فبذل سنقر جهداً كبيراً لاستعادة الاستقرار في البلاد ، وولى ثقافته على البلاد والجهون ، فكان لبني رسول الحظ الوافر من الثقة لديه ، فولى شمس الدين علي بن رسول علي بن حسن

(١) الأفضل الرسولي : العطايا السنوية لوحة ٣٠ ب ، الخزرجي : العقد الفاخر الحسن ج ٤٢ لوحة ٤٢ ب ، المسجد : ص ٢٢٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٥ ب .

(٢) الخزرجي : العقود الأولوية ج ١ ص ٣٣ .

(٣) ابن حاتم : السمط ورقة ٩ ب .

(٤) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ١٦ دأ .

حب^(١) سنة ٥٩٩ / ١٢٠٢ م فظل به حتى مات^(٢). كما ولى نضر الدين أبا بكر ابن علي بن رسول علي وصاب^(٣)، وبدر الدين الحسن بن رسول علي ريمة^(٤).

(١) حب قلعة منيعة بالقرب من مدينة لب بنواحي جبل بعدان، وتقع على خط عرض ٥٧° و ١٣° شمالاً، وخط طول ١٧° و ٤٤° شرقاً تقريباً (El-Khazrejiyy : op. cit., vol. III, 3, p. 44, Note 261.)

(٢) ابن حاتم : السمط ورقة ٢٢ ب (وكان مولد علي بن رسول في بلاد التركمان ، وكانت أمه من قبيلة منجك) الأفضل الرسولي : نزهة الميوت لوحة ٢٦٤ وأه ، (وفي الوقت الذي لم يتعرف الخزرجي على تاريخ وفاته ، مكتفياً بالقول بأنها كانت بناحية الخبالي) العقد الفاخر الحسن ، ٢ لوحة ٤٢ . (نبذة يحدد - في كتاب له آخر - تاريخ وفاته ، وأنها كانت في شهر صفر سنة ٦١٤) العقود اللؤلؤية ، ج ١ ص ٣٢ (وأن قبره في قرية عكار ، حيث بني عليه ابنه بدر الدين الحسن مسجداً) نفس المصدر والجزء ص ٦٦ (وأوقف عليه وقفاً جيداً ، ورتب فيه إماماً ومؤذناً وطلبة ومدرسا . وكان الوقف يقوم بكفاية الجميع منهم ، وإطعام الوافدين . وكان ذلك المسجد لا يزال موجوداً في عصر الخزرجي) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٤٩ .

(٣) وصاب ، جبل محاذي لزبيد ، وفيه عدة بلاد وقرى وحصون (باتوت : المجموع ج ٨ ص ٤٢٥ ، مرصد الاطلاع ج ٣ ص ١٤٣٩) وتقع إلى الشرق من زبيد فيما بين وادي زبيد ، ووادي رمح .

(Kay Yaman p. 247).

(٤) ابن حاتم : السمط ورقة ٢٢ ب (ريمة ، بلد معروف باليمن تقع إلى الشرق من مدينة بيت الفقيه ، وهي الجبال الواقعة بين وادي برع شمالاً وصاب جنوباً (الوهمي : اليمن الكبرى ص ١٧٠) .

والظاهر أن الأشراف الزيدية تمكنوا من انتزاع وصاب من فخر الدين أبي بكر ، بدليل أن الأتابك سنقر أعد حملة لاستردادها سنة ٦٠٤ هـ (١) / ١٢٠٧ م ، ولكن قبائل المنطقة ساندت الزيدية في التصدي لحملة ، ثم سارعوا للاعتذار له ، ودخلوا في طاعته خوفا من انتقامه (٢).

ولما توفي سنقر خلفه على الأتابكية بدر الدين غازي بن جبريل والي الحج (٣) ، فأنهج سياسة المعز ، وعمل على الفتك بأمراء الأجناد بالسهم (٤) ، وأخذ يتخلص منهم الواحد تلو الآخر . وكان بدر الدين الحسن بن علي ابن رسول من بينهم ، ولكن السهم لم يؤثر فيه ، وغلب عليه الأجل ، (٥) ، ثم نقله الملك الناصر من ريمة إلى حرص والهلية (٦) ، أما فخر الدين أبو بكر

(١) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٢٩ دأ .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٢٩ دب .

(٣) ابن عهد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٤٩ ب ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٧ .

(٤) ابن حاتم : السمط ورقة ٣٢ ب ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٧ .

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، الكسبي : اللطائف السنية ورقة ٣٦ دأ .

(٦) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٧ (حرص ، من أهم مدن شمال تهامة اليمن ، وتقع على الطريق بين زبيد ومكة ، على خط عرض ٢٠° ١٦' شمالا ، وخط طول ٤٣° تقريبا)

(El-Khazrejiyy : op. cit. vol. III,3 p. 174, Note. 2-5,)

ابن علي بن رسول ، فقد استمر في ولايته علي وصاب (١) .

فلما توفي الناصر أيوب سنة ٦١١ هـ / ١٢١٤ م أصبحت اليمن بغير سلطان ، وشملت الفوضى أنحاء البلاد (٢) ، طمع الامام الزيدى عبد الله بن حمزة في الاستيلاء على المناطق التابعة للأيوبيين مما هدد بزوال دولتهم (٣) . ولما كانت اليمن خالية من رجالات البيت الأيوبي ، فقد قامت الحشائون أم الملك الناصر بأمر الملك ، وظلت تترقب وصول أحد أمرائهم لتوليته ساططاً على البلاد (٤) . وفي نفس الوقت أرسلت بعض أتباعها إلى الحجاز في موسم الحج لتقصي أخبار مصر ، لعلمهم بنجاحون في التعرف على أحدهم هناك ، فتصادف وجود سليمان بن شاهنشاه الأيوبي (٥) في مكة ، فلما تأكدوا من نسبته

(١) ابن حاتم : السمط ورقة ٣٢ ب ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن

ص ٦٧ .

(٢) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٠٨ ، الذهبي : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٦ تاريخ ، ج ٢٧ ص ٤٥٣ ، الحنبلي : شفاء القلوب لوحة ٧٤ ب .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ورقة ١١ د أ ، العقيلي : الخلاف

السلياني ج ١ ص ١٨١ .

(٤) العيني : عقد الجمان ج ٥٢ ص ٢٧٩ .

(٥) هو سليمان بن سعد الدين شاهنشاه بن الملك المنصور تقي الدين عمر

ابن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب (ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٣٩ ، أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٠٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية -

استصحبوه معهم إليها ، فخلعت عليه وتزوجته ونعيبته ساطانا على اليمن (١) .

وقيل أن بنى رسول لعبوا دورا كبيرا في تنصيبه ، فقد ذكر ابن حاتم رواية نقلها عن حكاها من الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول ، قال : « كنت يومئذ أمير حررض والحلية ومعى صنوى نور الدين ... وكنت لا أسمع بمفارقة - ننتظر ما يكون من الأمر ، فجاءني من أهلكى أنه قد دخل حررض رجل في زى الفقراء ينتصب إلى بنى أيوب ، فأمرت بإحضاره ، وقلت نسأله ونبحثه عن نسبه ، فإن كان كما قد زعم فهو يكون السلطان . فحضر إلى وسأله فانتسب فعرفته ... وأقمناء ، وأقبناء بالملك المعظم ، ونشرنا له الدعوة من وقته وسرنا في خدمته ... حتى وصلنا به زبيد وقد صار ملكا ، (٢) .

أما ما يتعلق بموقف سليمان من بنى رسول ، فإنه قد أظهر في البداية ثقته بهم ، ثم لم يلبث أن انقلب عليهم لأسباب لم توضحها المصادر ، ذلك أنه قلد بدر الدين الحسن بن علي بن رسول واليا على صنعاء ، ثم بلغه - وهو في

= ج ١٣ ص ٦٨ ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٨١ ، العيني : عقد الجمان ج ٥٢ ص ٢٧٩ ، ابن الشحنة : روض المناظر في أخبار الأوائل والأواخر مطبوع على هامش الجزء التاسع من كتاب الكامل لابن الأثير - القاهرة ١٢٩٠ هـ ، ص ٥٥) .

(١) ابن واصل : مفسر الجروب ج ٣ ص ١٣٨ - ١٣٩ ، الشرقى : الخلاصة ج ٢ ص ١٢٤ دأ .

(٢) ابن حاتم : السمت ورقة ٣٤ دب ،

طريقه إليها - أن سليمان قد دبر له مكيدة للقبض عليه ، فتحول عن طريقه ،
ولجأ إلى حصن الدملوة^(١) ، وجاءه أخواه فخر الدين أبو بكر من البلاد
الوصائية ، ونور الدين عمر من ريمة . ولكن سليمان عاد فأمنه بعد أن توسط
في الأمر بعض ثقات سليمان ، وأعادته إلى ولاية صنعاء . فتوجه إليها بصحبة
أخيه نور الدين ، وكان الإمام قد استولى عليها ، فلما وصلها نور الدين
خرج منها الإمام^(٢) . أما فخر الدين فقد عاد إلى ولايته في وصاب .^(٣)

ولكن سليمان كان لا يزال يغمر الشر لبنى رسول ، إذ لم يكذب بدر الدين
يستقر في صنعاء حتى جهز له سليمان عسكريا للقبض عليه ، فأثار ذلك غضب
بدر الدين ، وأمرع بعسكره إلى تهامة لا اتخاذ إجراء مضاد . فلما وصل
إلى مدينة الكدراء^(٤) ، كان سليمان قد أعد حملة قلدها بنفسه للقضاء على

(١) ابن حاتم : نفس المصدر ، ورقة ٣٥ دأ ، الكبسى : اللطائف
السنية ورقة ٣٧ ب (الدملوة : قلعة حصينة على جبل الصلو جنوب شرق تهز
Kay : Yaman p. 305) ويضرب بامتناعه وحصانته المثل (القلقشندى :
صبح الأعشى ج ٥ ص ١٢) .

(١) الكبسى : اللطائف السنية ورقة ٣٢ ب .
(٢) ابن حاتم : السمط ورقة ٣٥ دأ .
(٣) الكدراء ، مدينة أنشأها الحسين بن سلامة مولى بني زياد في وادي
سهام (ابن الجاور : صفة بلاد اليمن ج ١ ص ٩٠ ، ابن عبد المجيد ، بهجة
الزمن ١١ ب ، الخزرجي : المسجد ص ١٢٣ ، باخرمه تاريخ نهر عدن ج ٢
ص ٥٩) وتمتع إلى الشرق من الحديدة .

بدر الدين ، ولكن الأخير انتصر عليه ^(١) ، ثم جرت بينها مفاوضات للصلح ، وتم عقد الصلح ، وبمقتضاه احتفظ بدر الدين بأحد كبار أتباع سليمان رهينة عنده ، ضمانا للوفاء بما تعهد به سليمان . وبالرغم من أن هذه الرواية قد أوردها ابن حاتم ، إلا أنه قال : « وعندي فيها توقف » ^(٢) .

وتستمر العلاقات السيئة بين الجانبين ، ففي رمضان ٦١١ هـ / يناير سنة ١٢١٥ م حدث خلاف بين سليمان وكبار أمراء أجناده ، ومنهم بدر الدين الحسن بن علي بن رسول ، فخرجوا عن طاعته وانتصرت جموعهم على تجريدة كان قد أرسلها سليمان في أثرهم ، ولجأ الفارون إلى مكتبة الامام عبيد الله ابن حمزة . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، فقد شاركهم فخر الدين أبو بكر ابن علي بن رسول الرغبة في الانضمام للامام ، مما شجع الامام على تجريد عدة حملات توجهت إحداها إلى مدينة المهجم ^(٣) وأشعلت فيها النيران ، وتوجهت حملة أخرى إلى عدن وأبين فتصدت لها الحامية الأيوبية في كل منهما . وهكذا قويت شوكة الامام وطمع في الاستيلاء على اليمن ^(٤) .

(١) ابن حاتم : السمط ورقة ٣٥ « أ » ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٨ .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٣٥ ب .

(٣) المهجم ، مدينة من أهم مدن تهامة بعد زيد ، وتقع في وادي سررد (صبح الأعشى ص ٥ ص ١٣) .

(٣) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٣٦ د .

(٤) ادريس عماد الدين : نزعة الأفكار ص ٤٨ .

وترتب على ذلك أن ساءت الأوضاع في اليمن ، وضعف سلطان سليمان ابن شاهنشاه وتفتت القوى الأيوبية ، وازداد نفوذ الإمام بانضمام الفارين من سليمان إليه ، مما أُنذر بالقضاء على الوجود الأيوبي فيها . ولهذا أصدر السلطان الملك العادل الأيوبي أمره إلى ابنه الكامل محمد صاحب مصر بتجهيز حملة إلى اليمن لإقرار الأمور فيها ، فأعد حملة بقيادة ابنه الملك المسعود يوسف ^(١) ، وتوجه معه أتابكه ومقدم عسكره جمال الدين فليت ، وكتب له أبوه إلى شمس الدين علي بن رسول ، وإلى باقي أمراء الأيوبيين في اليمن للعمل تحت إمرة وحسن صديقه ^(٢) . ووصل المسعود إلى زبيد في مستهل المحرم ١٢ هـ ^(٣) / مايو ١٢١٥ م ، وقبض على سليمان وأرسله إلى مصر ، فظل مقبلاً فيها إلى أن قتل شهيداً في موقعة المنصورة ٦٤٧ هـ ^(٤) / ١٢٤٩ م .

المهم أنه ما كادت الأخبار تصل إلى اليمن بقرب وصول المسعود ، حتى بادر سليمان

(١) الخزر جى : المسجد ص ٢١٣ ، العيني : مقد الجمان ص ٥٢ ص ٣٤١ ،
ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٤٩ ، محمد حسن : قلب اليمن ص ٣٨ .
(٢) الخزر جى : العقود اللؤلؤية ص ١ ص ٣٠ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، القاهرة سنة ١٩٤٨ ،
ص ٤ ص ١٧٤ ، ابن حاتم : السمط ورقة ٣٦ ب ، النويرى : نهاية الأرب
ص ٢٧ ص ١٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ص ٦ ص ٢٣٤ ، الشرفى :
الآلئ المضية ص ٢ ص ١٣٤ د أ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ص ٣ ص ٢٢٧ ، أبو القدا : المختصر
ص ٣ ص ١٢٢ ، المقرئى : السلوك ص ١ ص ١٨١ .

بالفرار من زييد (١) وتحصن في نعر (٢) . وفي نفس الوقت بادر أنباهه —
وفي مقدمتهم بدر الدين الحسن بن علي بن رسول وإخوته نور الدين عمر (٣)
وشرف الدين موسى وفخر الدين أبو بكر (٤) — إلى لقاء المسعود . فلما
وصلوا إليه أحسن استقبالهم وأكرمهم وخلع عليهم الخلع السنية ، وأنعم على
بدر الدين بفرجية وشربوش وقدم له حصانا بسرج ، بالإضافة إلى ألف
دينار ذهب ، وولاه على مدينة القحمة (٥) ، وولي نور الدين عمر على
صهبان (٦) ، فكانت هذه أول ولاية منفردة لنور الدين .

(١) العيني : عقد الجمان ح ٥٢ ص ٣٤٢ .

(٢) ابن حاتم : السمط ورقة ٣٦ دأ ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن
ص ٦٩ .

(٣) ابن حاتم : المصدر السابق ، نفس الصفحة ، يحيى بن الحسين : أنباء
الزمن ص ٦٨ .

(٤) الكبسي : اللطائف السنية ورقة ٣٧ ب .

(٥) القحمة ، مدينة هامة على وادي ذؤال ، اختطها الحسين بن سلامة
مولي بني زياد ، وكانت تعرف باسم المعقر (باخرمة : تاريخ نجر عدن ح ٢
ص ٦٠) ، وتقع على بعد خمسة أميال شمال بيت الفقيه على خط عرض
٣٨° ١٤' شمالا وخط طول ٢٤° ٤٣' شرقا (El-Khazrejiyy : op.

cit. vol. III, 3, p. 90 Note 541.)

(٦) ابن حاتم : السمط ورقة ٣٦ ب (وصهبان منطقة منسعة بالقرب
من ذي جبلة) الشرجي : طبقات الخوارج ص ٥١ .

وقيل أن المسعود كان يسعى إلى مفاوضة سليمان على أساس أن يقتسم
 البلاد فيما بينهما ، فيحتفظ سليمان بمنطقة الجبال ، وتكون منطقة تهامة
 للمسعود^(١) . وهنا يبرز دور بني رسول حيث قام بدر الدين الحسن باقناع
 المسعود بالعدول عن هذا الاتجاه ، ونصحه بالتوجه إلى تمز ، وإصدار
 الأمر إلى أمراء الأجناد فيها للقبض على سليمان . فلما كتب المسعود إليهم
 بذلك ، وهددهم إذا ما خالفوا أمره ، استجابوا له واعتقلوه وقيسوه
 وسلموه له^(٢) . وعلى هذا النحو ركز المسعود جهوده لاستعادة السيطرة
 الأيوبية على البلاد، ولم يمض عام حتى تمكن من تحقيق هدفه وتنفيذ خطته^(٣) ،
 وجاءته وفود القبائل من كل جهة مقسرة له بالطاعة ومعانة له الولاء^(٤) ،
 وقدموا إليه الرهائن دليلا على ذلك ، فأكرمهم المسعود وبذل لهم الخلع
 والأموال^(٥) .

-
- (١) ابن حاتم : السمعط ورقة ٣٦ ب . الخزرجي : العسجد ص ٢١٣ ،
 العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣١ ، الشرفي : اللآلئ الماضية ورقة ١٣٤ د أ ،
 يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٩ ، الكبيسي : اللطائف ص ٣٧ ب .
- (٢) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، الشرفي : نفس المصدر والصفحة ،
 يحيى بن الحسين : نفس المصدر والصفحة ، الكبيسي : اللطائف ص ٣٨ د أ .
- (٣) ابن حاتم : نفس المصدر : ورقة ٣٧ د أ .
- (٤) زبارة : أئمة الدين ص ١٤١ .
- (٥) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٣٦ ب ، يحيى بن الحسين : أنباء
 الزمن ص ٦٩ .

وفي جمادى الآخرة سنة ٦١٤ هـ / سبتمبر ١٢١٧ م أقام المسعود الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول استاذ داره ^(١) ، ثم ولاه على صنعاء في ربيع الأول ٦١٨ هـ ^(٢) / ابريل ١٢٢١ م . أما نور الدين فقد ولاه المسعود الحصون الوصائية ^(٣) ، ثم ولاه مكة سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م بعد أن انزعها المسعود من الشريف حسن بن قتادة ^(٤) ، فلما عاد إلى اليمن قام حسن بن قتادة بتنظيم صفوف أتباعه تمهيدا لاسترجاع مكة ، ولكن نور الدين لم يمهله ، وباغته بالهجوم على معسكره ، ومزق حشوده وأوقع به وبأتباعه الهزيمة . وتصادف وقتئذ أن كان المسعود قد أخذ يجهز للسفر إلى مصر لزيارة أبيه وتجديد العهد له ، فأرسل إلى نور الدين يستدعيه إلى اليمن ^(٥) . وكان المسعود قد أناب على اليمن حسام الدين أوائل ، وجعل بدر الدين الحسن بن علي بن رسول

(١) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٣٧ ب .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٣٨ دأ ، أدريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٠ .

(٣) الخزرجي : العقود المؤلوية ج ١ ص ٣٣ .

(٤) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٣٨ دأ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٢ ص ٥٥١ ، المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢١٣ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٢٩ ، حوادث الدهور ص ٣٧٤ العصامي : سبط النجوم العوالي في أنباء الأوئل والتوالي ، مخطوط بدار الكتب رقم ٥٣ م تاريخ ، ص ٤٧٨ ، الكبيسي : اللطائف ص ٣٩ دأ ، زيني دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٥ .

(٥) ابن حاتم : السمت ٣٨ دأ .

على صنعاء^(١) ، وقيل بل استخلف نور الدين عمر بن علي بن رسول عسلي
اليمن^(٢) . ولكن الأحداث التالية تؤكد القول الأول حسب ما
أوردته المصادر.

ومما هو جدير بالذكر أن حالة الاستقرار في البلاد كانت كاملة ، بحيث
يمكن القول بأن البلاد لم تشهد عهداً من الهدوء والاستقرار مثلما شهدته في
تلك الآونة ، والظاهر أن الفضل الأعظم في استقرار الأوضاع إنما يرجع
أساساً إلى وفاة الامام عبد الله بن حمزة في أول سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م .
وقد قام ابنه عز الدين محمد بمحمد عتسب^(٤) ، لأنه لم يكن قد بلغ بعد درجة الامامة

(١) ادريس حماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٠ ، ابن تغرى بردى :
المنهل الصافي ج ١ ص ٢٢٩ ، حوادث الدهور ص ٣٧٤ .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٣ ، المسجد ص ٢١٦ ،
باخرمة : تاريخ تغز عدن ج ٢ ص ١٧٩ ، الشرقي : اللآلئ المضيئة ج ٢
ص ١٣٤ .

(٣) المحلى : الحقائق الوردية ج ٢ ص ٤١٩ ، الخزرجي : العقود ج ١
ص ٣٣ ، الشرقي : اللآلئ المضيئة ج ٢ ورقة ١٣٤ ب ، الجندارى : الجامع
الوجيز لوحة ٧٣ .

(٤) الصعدي : مآثر الأبرار ص ٩٩ ب : ابن حاتم : السمط ٣٧ د ،
(يمثل الاحتساب عند الزيدية ما اصطلح على تسميته - عند الشيعة - بالداعي ،
وهي الدرجة السابقة على الامامة عندهم . وقد يصبح الرجل محتسباً ، ولكنه
لا يرقى إلى مرتبة الامامة ، ولا يصل إليها ، إلا باستيفاء شروطها المعتمدة) =

المعتبرة (١) عند أهل مذهبه (٢) ، فتحمل عبء النضال ضد القوى الأيوبية بعد وفاة أبيه ، ولكن لم تلبث أن انقسمت القوى الزيدية ، عندما أعلن يحيى ابن المحسن دعوته بالإمامة (٣) ، ودخوله في صراع ضد القوى الزيدية المعارضة التي تزعمها عز الدين محمد ابن الامام الراحل (٤) .

ولم تستمر الأوضاع المستقرة طويلا في اليمن ، فقد حدث ما عكر صفوه هذا الهدوء أثناء غياب المسعود في مصر ، إذ قام أحد الصوفية ، ويدعى مرغم

= انظر الهامش التالي (ولجامع علماء وقته على إمامته ومبايعته) . انظره دولة بنى أيوب في اليمن ص ١١٦ .

(١) يشترط في الامام الزيدى أن يكون فاطميا (من ذرية علي من فاطمة) ذكرًا حرا سليم الخواس والأطراف بالغًا عاقلًا لم يمارس الرذيلة ، وربما تقيا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، عالما مجتهدا حسن الدراية بتصرف الأمور ، عادلا سخيًا ، شجاعا مجاهدا ، وأن يخرج داعيا لنفسه . وهذا الشرط الأخير يخالف ما درجت عليه بنية فرق الشيعة الأخرى من سرية الدعوة ، وستر الامام (دولة بنى أيوب في اليمن ص ٢٠) .

(٢) الكبسي : اللطائف ٣٨ ، أ .

(٣) هو الداعى المعتضد يحيى بن المحسن بن المحفوظ بن محمد بن يحيى بن يحيى من نسل الامام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين أول إمام زيدى باليمن . وكان عالما مبرزًا ، قال عنه الامام عبد الله بن حمزة أن معه علم أربعة أئمة ، ولكن علماء الزيدية لم يجمعوا على إمامته وعارضوه (الكبسي : اللطائف ٣٨ ب ، الجندارى : الجامع الوجيز لوحة ٧٤) .

الصوفي بنشر دعوته ، باعتباره داع لمام حق (١) وأخذ يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢) حتى ذاع صيته واستجاب لدعوته الكثيرون ، وقام بتنظيم صفوف أتباعه استعدادا للاستيلاء على بعض المناطق اليمنية ، وسير أولى حملاته على حصن ذروان (٣) - من أعمال ذمار - في جمادى الآخرة سنة ٦٢٣ هـ (٤) / يونية ١٢٢٦ م . فلما توجه للاستيلاء عليها خرج نور الدين عمر بن علي بن رسول إليه - وكان موجودا بداخله ، ولكن نور الدين لم يستطع الصمود أمام حشوده ، وتراجع إلى الحصن واحتسب به . وتلاحقت جموع القبائل الموالية للصوفي إلى الحصن وحاصرت ، تمهيدا للاستيلاء عليه ، واتخاذ قاعدة للتوسع منه على حساب القوى الأيوبية . وهكذا كان لهذه الحركة الصوفية أسوأ الأثر على الأيوبيين في اليمن .

وأمام هذا الخطر ، بادر نور الدين بمراسلة حسام الدين لؤلؤ نائب

(١) الشرفي : اللآلى المضية ج ١ ص ١٣٤ ب (كان مرغم الصوفي ناسكا ، وكان في بداية أمره حائكا في بلاد عنس . وأول ظهور دعوته في جبل سحمر ، واستجابت لدعوته قبائل عنس وجذب وبنى سيف من بلاد يريم) ابن حاتم : السمط ص ٣٨ ب ، الخزر جي : العقد الفآخر ج ٧ ص ١٢٤ أ .

(٢) الخزر جي ، العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٣ - ٣٤ ، العقد الفآخر ج ٧ ص ١٢٤ د أ ، ، الشرفي : اللآلى المضية ج ٢ ص ١٣٤ ب .

(٣) ذروان ، حصن من حصون الحقل من أعمال ذمار ، إلى الجنوب

من صنعاء .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٣٨ د أ .

المسعود على الدين يطلب نجدة ، ولكن الأحوال كانت قد تطورت
عنده أيضا ، بما حال دون لإنجاده ، واكتفى بتشجيعه على الصمود
والاعتماد على نفسه ، وقال له : « ليس لك منا إلا الدعاء » (١) ، فاستنجد
نور الدين بأخيه بدر الدين في صنعاء ، وعندئذ وجد الأثراف الزيدية أن الفرصة
قد أصبحت مواتية لاستعادة مكانتهم ، فحشد من الدين محمد ابن الامام الراحل
جموعه وزحف بها إلى صنعاء (٢) .

وعلى الرغم من أن أخبار هذه الحشود قد وصلت إلى علم بدر الدين إلا
أنه : در إلى معاونة أخيه والعمل على تخليصه من الحصار . فرتب الأمور
في صنعاء ، وترك فيها حامية لمناوشة جموع الزيدية عند وصولها انتظاراً
لعودته ، وفي طريقه إلى ذروان اعترضته بعض القبائل « فقتلهم من آخرهم » (٣)
فكان لهذا الموقف أثره في إشاعة الرعب في قلوب القبائل المحاصرة لنور الدين ،
وكان ذلك كافياً لتفريق جمعهم ، ذلك أنه ما أن وصل إلى ذروان ، حتى
كانت القبائل الموالية للصوفي قد تركت حصار الحصن ووات الأدبار
وهنت عزيمته الصوفي وانقض أتباعه من حوله ، وظهر للناس كذب دعواه
وفساد مذهبه ، ففر بنفسه وأخذ يتنقل شربدا في البلدان حتى وافته منيته
في وصاب (٤) .

(١) ابن حاتم : السمط ص ٣٨ ب

(٢) ادريس عماد الدين : نزعة الأفكار ص ٥٠ .

(٣) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٣٩ د أ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٤ د أ .

أما الزيدية فقد زحفوا بحشودهم الكثيفة إلى صنعاء يتقدمهم عز الدين محمد بن الإمام ، وحطت جموعهم عند جبل عصر (١) . ومن الجدير بالذكر أن بني حاتم الذين كانوا يرتبطون بروابط ودية مع الأيوبيين توجهوا في جموع من قبائل همدان إلى صنعاء - على أثر خروج بدر الدين منها مددا لأخيه - دعما للحامية الأيوبية والوقوف معها أمام للقوى الزيدية الطامعة في الاستيلاء على المدينة (٢) . وتعاونت حامية صنعاء مع بني حاتم واشتبكت مع القوات الزيدية (٣) لشغلها وتعويق تقدمها إلى المدينة ، حتى يعود بدر الدين بحسن ابن رسول إليها . ونجحت هذه الخطة وعاد بدر الدين فور الانتهاء من مهمته . فوصل إلى صنعاء في اليوم الأول من القتال ، فكان لذلك أثره في رفع معنويات أهلها . ولم يمكث في المدينة طويلا إذ بادر بالخروج على رأس قواته إلى ميدان المعركة . وكانت الخطة تقضى بأن يتقدم بدر الدين للقتال وأن يراسط نور الدين قريبا من مسرح القتال ، لمتابعة تطوراتها ، ولإبعاد العنقوف إذا ما حدث وتراجعت بعض القوات لأي سبب من الأسباب (٤) . وكان بدر الدين قد

(١) الخزرجي : المسجد ص ٢١٧ ، العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٤ ، يحيى ابن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ (عصر ، جبل يقع إلى الغرب من صنعاء) الواسعي : البدر المزيل الحزن ص ٢٥ .

(٢) ابن حاتم : السمط ٣٩ ، أ ، ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٤ ، الشرفي : اللال المضيئة ج ٢ لوحة ١٣٥ .

(٣) الخزرجي : المسجد ص ٢١٧ ، يحيى ابن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ .

(٤) الخزرجي : المسجد ص ٢١٧ ، العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٥ ، يحيى ابن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ .

رتب أصحابه يمينه وميسرة وقلب ، ودار القتال وحى وطيسه ، وأبلى
الأشراف الزيدية بلاء عظيماً^(١) . فأخذ بدر الدين يحث أصحابه على
الاستبسال في القتال ، والتفت فيهم يميناً شمالاً ، وقال : « هي هي ، وكان هذا
شعاره في عسكره »^(٢) . فحمل الجند الأيوبي معه حملة رجل واحد^(٣) ،
وصمموا على الانتصار ، فمنعهم الله النصر والظفر ، وانهمزم جيش الأشراف^(٤)
ولم يبق منهم أحد ، وولوا مدبرين وقتل فيهم قتيلاً ذريعاً^(٥) ... ولم يزل
القتل والأمر فيهم إلى أن دخل الليل وغشيم الظلام ،^(٦) ، وأصيب الأمير
عز الدين محمد بن الإمام بفردة فشاب في عينه فعورت^(٧) ، ثم مرض بعد
ذلك ومات متأثراً بجراحه^(٨) . واستولى بدر الدين على جميع مآثره الأشراف

(١) القرني : اللالي المضية ج ٢ ص ١٣٥ د أ .

(٢) الخزرجي : المسجد ص ٢١٧ ، العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٥ ، يحيى
ابن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ .

(٣) زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٤٧ .

(٤) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ .

(٥) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥١ .

(٦) الخزرجي : المسجد ص ٢١٧ ، العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٥ ، يحيى
ابن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ .

(٧) ابن حاتم : السمط ص ٣٩ ب ، الخزرجي : العقد الفاخر الحسن
ج ٢ لوحة ١٤٩ د أ ، ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥١ .

(٨) الصعدي : مآثر الأبرار ، وزقة ٩٩ ب ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٤٨ .

من أموال ودواب وغير ذلك في ساحة المعركة^(١) .

٢ - فكتبة اولاد رسول في اواخر عهد المسعود :

كان الانتصار الذي أحرزه بدر الدين حسن بن رسول في موقعه عصر حاسماً ، لم يسمح بمثله فيما مضى^(٢) . وانهزم الأشراف الزيدية هزيمة نكراء سحقت قوتهم وعصفت بكيانهم ودمرت معنوياتهم ، فذلوا بعد عز ، وعمدوا إلى الانزواء إلى حين . وهكذا أبلى بنو رسول في القتال بلاء حسناً وأدوا واجبهم في هذه المعركة على أكمل وجه ، فارتفع بهذا النصر قدرهم ، وأثبتوا لليمنيين مقدرتهم في القضاء على القوى المناوئة ، وقمع كافة الحركات الداخلية المعارضة للوجود الأيوبي في اليمن .

وشاعت أخبار هذه الواقعة في أنحاء اليمن ، فقوى بها أمر بنو رسول^(٣) ، وأقيمت الأفراح احتفالاً بهذه المناسبة ، وتبارى الشعراء في الإشادة بها^(٤) . ومما يجدر بالذكر أن بدر الدين حسن الرسول أرسل إلى الملك المسعود في مصر برسالة يبلغه فيها بهذه الأحداث ، وأرفق بالرسالة أبيتانا نظمها له الأمير مدرك بن بشر بن حاتم^(٥) ، في ذكر المعركة ووصفها والفخر بما أحرزه

(١) ابن حاتم السمط ، ٤ ، د أ ، .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٣٩ ب .

(٣) الكبسي : اللطائف ص ٣٩ د أ ، .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ص ١ ص ٣٦ ، العقد للفاخر الحسن ص ٢ لوحة ١٤٩ د أ ، .

(٥) ادريس عباد الدين : نزهة الأفكار ص ٥١ ، ابن الديبع : قرة العيون

ص ٦٥ ب .

من انتصار باهر ، وجاء في نهاية القصيدة قوله :

ونحن متى شئنا دسرنا عدونا ولا نخذ حقدا دفينا ولا ضغنا
فلا زالت الأخبار منكم تسرنا كما سركم في مصر نخبكم عنا^(١)

فلما قرأت الرسالة والأبيات في حضور الملك الكامل بن العادل الأيوبي ،
سأل ابنه الملك المسعود عن مخاطبة بنون العظمة؛ فأخبره بأنه أحد أمرائه ، فقال
له : دهيئات ، والله ماهذه مخاطبة أمير بل مخاطبة ضد . فإن لم تذب عليه
وثب عليك ،^(٢) فاشتد خوف المسعود على اليمن من بني رسول ، وعقد العزم
على العودة إليها سريعا فكان وصوله إلى تعز في السابع من صفر ٦٢٤ هـ /^(٣)
يناير سنة ١٢٢٧ م . وقد تصادف أن كان حسام الدين أواؤ قد حشد بني
رسول لانتصاراتهم ضد الصوفي والأشراف الزيدية ، وفي نفس الوقت خشى
أن يكون محل سخط المسعود وانتقامه لتفككه عن تقديم العون لنور الدين
عندما حاصره الصوفي ، وعدم قيامه - بعد ذلك - بدور ما عندما تعرضت
صنعاء لهجوم الزيدية . ولذلك فأن عاد المسعود إلى اليمن حتى أسرع لمقابلتها ،
ووجه إلى بدر الدين حسن الرسولي إتهامات باطلة ، أشهد على صحتها بعض
أتباعه من الناقين على بدر الدين . وادعى بأن بدر الدين طلب تزويده بالمال

(١) ابن حاتم : السمط ورقة ٤٠ ب ، الخزرجي : المسجد ص ٢٢٠ ؛
العقود ١ ص ٣٨ - ٣٩ .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، ادريس عباد الدين : نزهة الأفكار
ص ٥١ .

(٣) ابن حاتم : المصدر السابق ص ٤١ ب .

فلما اعتذر د عاذ جوابه يقول : إذا لم ترسـ لوا الى الأوال نزات وأخذت
الحريم بمقاصهم (١) . وهذا كذا كان لهذه الدسيمة أثرها في تثبيت مخاوف
المسعود من أبناء رسول وصمم على تنفيذ ما أوصاه به والده الملك الكامل.

أما بنو رسول فإنهم ما أن بلغهم وصول الملك المسعود حتى أمرهوا للقائه
والترحيب بعودته (٢) . وإمكن المسعود لم يظهر ما عزم على اتخاذه معهم،
وتريث حتى تحين الفرصة المناسبة للتنفيذ ، وجاءت هذه الفرصة عندما أقام ولية
في مدينة الجند حضرها أبناء رسول مع غيرهم ، فاعتقلهم على السباط في الخماش
والعشرين من رجب سنة ٦٢٤هـ (٣) / ١٢٢٧ م ، وقيل في الخامس عشر منه (٤) .
وقيل بأنه لم يعتقلهم جميعا وإنما اكتفى بيدر الدين حسن ، وفخر الدين أبي
بكر وشرف الدين موسى (٥) ، أما نور الدين عمر فلم يكن بينهم (٦) ، لأن
المسعود كان قد كلفه بمهمة إلى عدن (٧) . وقيل إنما اعتقلهم جميعا ثم أطلق

(١) ابن حاتم : نفس المصدر والمنفعة .

(٢) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥١ ، الكسبي : اللطائف ٣٩٠ دأ .

(٣) ابن حاتم : السمط ورقة ٤١ ب ، ادريس عماد الدين : نزهة

الأفكار ٥٢ .

(٤) الخزرجي : المسجد ص ٢٢١ : العقود اللؤلؤية ١ ص ٣٩ .

(٥) الخزرجي : المسجد نفس المنفعة ، العقود : نفس الجزء والمنفعة ،
العقد الفاخر الحسن ٢ ص ١٤٩ ب ، الشرفي اللؤلؤية ٢ ورقة ١٣٥ دأ :

(٦) باخرمه تاريخ ثغر عدن ٢ ص ١٧٥ ، الكسبي : اللطائف ورقة ٣٩ أ .

(٧) ابن حاتم : السمط ورقة ٤١ ب ، ابن الديبع : قررة الميون ورقة ٦٥ ب .

نور الدين عمر فيما بعد^(١)، لما كان يربطه به من روابط المودة، إذ كان يأنس به، ويميل إليه، ويثق فيه دون باقي إخوته^(٢). ولهذا حظى نور الدين بمكانة كبيرة عنده، وقيل أن المسعود اعتذر إليه وطمأنه إلى أن هذا الإجراء مؤقت، وأنه سيعيدهم مرة أخرى^(٣). وفي قول آخر أن اعتقال أبناء رسول الثلاثة تم بإيعاز من نور الدين نفسه^(٤)، ومرجع ذلك أن المسعود كان يفكر في التوجه إلى مصر، وبحث ذلك مع نور الدين، وأعرب عن رغبته في استنابته على اليمن، ولكن نور الدين اعتذر عن عدم استعدادة لقبول ذلك خوفاً من إخوانه، فهم يكبرونه سناً ويفضلونه خبرة بأمور الحكم، وأبدى استحالة قيامه بإدارة شئون البلاد في وجودهم، لأنه بالضرورة سيكون خاضعاً لهم، منفذاً لرغباتهم بل وتحت إمرتهم. ولهذا قبض المسعود عليهم^(٥).

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية - ١ ص ٤٠، الفاسي: العقد الثمين

- ٣ ص ٣٩٤.

(٢) الخزرجي: العقد الفاخر الحسن - ٢ ص ٦٦ د أ، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة - ٨ ص ٧٣، ابن الديبع: بغية المستفيد ١١ د أ، بانخرمة: تاريخ نجر عدن - ٢ ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٣) ابن حاتم: السمطورقة ١٤ ب، ادريس عباد الدين: نزاهة الأفكار ٥٢.

(٤) الخزرجي: العقد الفاخر الحسن - ٢ ص ٦٦ د أ، ابن الديبع: بغية المستفيد ١١ د أ، بانخرمة: تاريخ نجر عدن - ٢ ص ١٧٥، وتعليقات Sir. J. W. Redhouse على كتاب العقود اللؤلؤية للخزرجي، The Pearl-Strings; A History of the Resuliyy Dynasty of Yemen, Vol. III, 3, P. 39 - 40, Note 224, P. 41, Note 235.

(٥) الخزرجي: العقود اللؤلؤية - ١ ص ٤٠، بانخرمة: تاريخ نجر عدن

- ٢ ص ١٧٥.

وأودعهم السجن ثم أرسلهم - تحت الاعتقال - إلى مصر^(١) . أما نور الدين فقد قرّبه ورفع مكانته وجعله أشعاز داره^(٢) وأتابك مسكره^(٣) .

ويوضح من كل ماسبق ، أن وصول بنى رسول إلى اليمن ، وإن كان قد تم في نطاق حملة الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م ، وأن طغتكين قد ولي أباهم على بن رسول على مدينة حيس وأعمالها ، إلا أن بروزهم على مسرح الأحداث اليمنية تم تدريجياً . فكان دورهم ثانوياً في عهد كل من المعز اسماعيل بن طغتكين وأخيه الناصر أيوب ، ثم احتلوا مكانة متوسطة منذ بداية عصر سليمان شاهنشاه ، أما في عهد المسعود فقد ازدادت مكانتهم وعظم قدرهم ، وخاصة بعد الانتصارات التي أحرزوها ضد القوى الخارجية على الحكم الأيوبي في اليمن . وكانت مكافأتهم أن نكبهم المسعود نتيجة الدسائس والسعايات التي وجهت ضدهم ، وأثارت مخاوف المسعود من مقامهم .

(١) الخزرجى: نفس المصدر والصفحة ، العقد الآخر الحسن ج ٢ ص ١٤٩ ب ، القاسمى : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩٤ ، ابن نغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن حاتم : السمط ورقة ٤١ ب ، ادريس عباد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٢ .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤٠ ، القاسمى : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩٤ .

٣ - دور نور الدين عمر بن علي بن رسول في التمهيد لقيام دولة بني رسول :

على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها بنو رسول في خدمة الدولة الأيوبية في اليمن ، وقيامهم بقمع الحركات الداخلية المناهضة لها ، والحفاظ على الكيان الأيوبي في اليمن ، فقد جزام المسعود يوسف بن الكامل الأيوبي جزاء سنار . أما أخوهم الأصغر نور الدين عمر ، فقد شفع له ما كان يقنسه وبين المسعود من مودة ومحبة ، فاصطفاه دون باقي إخوته ، وحباه بملازمته وأبقاه في خدمته . واستمر نور الدين يؤدي ما أسند إليه من أعمال بكفاءة بحكم كونه استادارا للمسعود وأتابكا لعسكره إلى أن اضطرت الظروف الملك المسعود إلى مغادرة البلاد . ففي ذي القعدة ٦٢٤ هـ / نوفمبر ١٢٢٧ م توفي عمه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، وخلفه ابنه الناصر داود ، فاستولى الملك الكامل على مملكته ومن جملتها بيت المقدس ونابلس ودمشق (١) . فلما علم المسعود بذلك ، طمع في الاستيلاء عليها لنفسه (٢) . وقيل أن أباه استدعاه لنفس الغرض (٣) ، فجهز لمغادرة البلاد واستدعى حسام الدين لؤلؤ

- (١) المقرئى : الذهب المسبوك ص ٧٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ص ٦٣٣ ، السيد الباز العربى : مصر في عصر الأيوبيين ص ١١٩ .
(٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ص ٨ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ص ١٣٣ ، ابن أبيك : كنز الدرر ص ٧ ، الفاسى : العقد السمين ص ١ ، الحنبلى : شفاء القلوب لوحة ٩٩ د أ .
(٣) ابن حاتم : السمع والسمع ورقة ٤٢ د أ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية ص ١٠٤ .

واليه على صنعاء ، وعرض عليه نيابة السلطنة ، فأبى اعتذاره عن تحمله
المسؤوليتها ، وأعرب عن رغبته في مغادرة اليمن بصحبته ، فلما استعرض
المسعود أرباب دولته وسائر البارزين ، استقر رأيه على استخلاف نور الدين
وأنابه عنه على اليمن ، وولي نجم الدين أحمد بن أبي ذكرى على صنعاء (١) .

غادر المسعود اليمن في ربيع الأول سنة ٦٢٦ هـ / (٢) فبراير سنة ١٢٢٩ م
ولكن مآل وصل إلى مكة حتى اشتد به المرض ، ولم يلبث أن توفي في الثالث
عشر من جمادى الأولى سنة ٦٢٦ هـ / (٣) أبريل سنة ١٢٢٩ م ، فكان آخر
ملوك بني أيوب في اليمن (٤) .

فلما علم نور الدين عمر بن علي بن رسول بوفاة الملك المسعود يوسف ،
طمع في الاستيلاء على ملك اليمن والاستقلال بحكمها ، ولكنه اجتهد في بداية
الأمر لظهور الولاء والاخلاص للأيوبيين ، وأرسل إلى الملك الكامل يعزبه

- (١) ابن حاتم : نفس المصدر والمنهج ، الخزرجي : المسجد ص ٢٢٦ ،
العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤٣ ، باخرمة : تاريخ نعر عدن ج ٢ ص ١٧٥ .
- (٢) ابن حاتم : السمط ٤٢ د أ ، الخزرجي : المسجد ص ٢٢٦ ، العقود
اللؤلؤية ج ١ ص ٤٣ ، باخرمة : تاريخ نعر عدن ج ٢ ص ١٧٥ .
- (٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٧٥ ، النويري : نهاية الأرب
ج ٣١ ص ٤٢ ، القاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ٣٥٤ ، المقرئ : الذهب
المسبولك ص ٧٨ .
- (٤) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٣٧ ، محمد حسن : قلب اليمن ص ٣٨ .

في وفاة المسعود، ويجدد ولائه للأيوبيين ويؤكد أنه لا يزال نائباً له ^(١)، وبعث إليه بالهدايا والتحف والأموال تعبيراً عن خضوعه له، فاعتبر الملك الكامل ذلك دليلاً على الطاعة والتبعية وحسن الولاء ^(٢)، وأطمأن إليه، ولم يقدم على عزله أو استبداله، وأقره نائباً عنه في حكم اليمن ^(٣).

والحقيقة أنه لم يكن في استطاعة الملك الكامل الاستغناء عن جزء من جيشه ليرسله مع نائب يختاره لحكم اليمن، إذ أن الظروف السياسية في مصر والشام لم تكن تسمح بذلك. فقد كان الصراع على أشده بين أفراد البيت الأيوبي في مصر والشام، إذ استقل كل منهم - عقب وفاة الملك العادل أبي بكر - بما تحت يده من الولايات التي يحكمها. ودخل الاخوة في صراعات عنيفة، وانقسموا فريقين، أحدهما بزعامة الملك الكامل، والثاني بزعامة أخيه المعظم فتفككت بذلك دولة الأيوبيين وتمزقت وحدتها التي بذل صلاح الدين الكثير. وهدد ذلك بتقويض أركانها، وأطمع الخوارج في التوسع بحسابها، وجدد آمال الصليبيين في الاستيلاء على المنطقة بعدما فقدوا كل أمل فيها.

وبدلاً من بذل الجهود لتوحيد دولة الأيوبيين واستعادة مجدها، لجأ كل من الملك الكامل والملك المعظم إلى التحالف ضد الآخر، الكامل مع فريدريك

(١) الفاسي: العقد الثين ج ١ ص ١٧٩، ابن تغري بردي: المنهل العسافي.

ج ١ ص ٢٣٠.

(٢) النويري: نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٤٢.

(٣) المقرئ: ج ١ ص ٢٣٧.

الثاني والمعظم مع الحوارازمية . وكاد الأمر أن ينتهي بموت المعظم، واستيلاء أخيه الكامل على ولايته ، ولـسكن الكامل كان قد اتفق مع فريدريك على التنازل له عن بيت المقدس ، ولم يعترض على تسليمه المدينة ، تنفيذاً لذلك الاتفاق ، رغم زوال الأسباب التي أدت إلى هذا التحالف ، وأنه لم يعد في حاجة إلى أية معونة أو مساندة من فريدريك ^(١) . وهكذا تورط الكامل بهذا التصرف الذي كان مثار سخط المسلمين لتفريطه في الأرض الإسلامية ^(٢) . فكان ذلك من الأسباب التي ثبّطت من عزيمة الكامل في إرسال خلف للمسيحود في اليمن ، اكتفاء بنور الدين الذي اطمأن إليه ، وثبته نائباً له على اليمن ضمناً لاستقرار جزئه من دولته .

استغل نور الدين عمر بن علي بن رسول ظروف الضعف التي كان يمر بها الأيوبيون ، وما حظى به من ثقة الملك الكامل وضمانه لجانبه ، فشرع في تحقيق مطامعه في الاستقلال بملك الين . وكان حكيماً فلم يتعجل التنفيذ ، بل أخذ يعمل على تحقيق هدفه مرحلياً ، وبدأ بإعادة تنظيم البلاد مستهدفاً عزل من كان يخشاهم من ولادة المدن والحصون ^(٣) ، وتولية من يثق في ولائهم من خاصته وأتباعه ^(٤) ، وقد طبق هذه السياسة بادی، ذي بدء في تهامة ، فلما

(١) المقرئی : السلوك ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٣ ، سعيد عبد الفتاح عاشور :

الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ص ١٠٦ وما بعدها .

Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 350 - 356.

(٢) المقرئی : السلوك ج ١ ص ٢٣١ ، جمال الدين الشيال : تاريخ مصر

الإسلامية ج ٢ ص ١١٦ .

(٣) الخورجى : المسجد ص ٢٢٦ ، القاسى : العقد الثين ج ٣ ص ٣٩٤ .

(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٣٠ ، باخرمة : تاريخ

نور عدن ج ٢ ص ١٧٥ ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ .

سيطر عليها وأقر قواعد الأمور فيها^(١) ، عزم على تأكيد سيطرته على بقية البلاد ، فتوجه إلى حصن تعز في شوال سنة ٦٣٩ هـ (٢) / سبتمبر سنة ١٢٣٩ م ، وأحكم عليه الحصار ، وشدد الخناق على حاميه حتى أنهم قواهم ، ثم أسند مهمة حصاره إلى فرقة من جيشه ، ومضى هو إلى عدن واستولى عليها ، وترك فيها نائبا من ثقائه^(٣) .

وواصل نور الدين حملاته من أجل استكمال السيطرة على البلدان اليمنية ، فزحف سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٠ م إلى منطقة الجبال^(٤) وتمكن من الاستيلاء على حصني التعكر^(٥) وخذد^(٦) ، ثم تقدم إلى صنعاء ، فلما بلغ ذلك نجم الدين

(١) الخرجي : المسجد ص ٢٢٦ ، باخرمة : تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ١٧٦ ، يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ص ٧١ .

(٢) ابن حاتم : السمط ورقة ٤٢ ب ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٥١ د أ .

(٣) ابن حاتم : السمط ٤٢ ب ، ادريس عماد الدين نزهة الأفكار ص ٥٣ .
(٤) الخرجي : المسجد ص ٢٢٦ ، العقود ج ١ ص ٤٦ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩٤ ، ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٣ ، باخرمة : تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ١٧٦ .

(٥) التعكر ، قلعة حصينة في مخلاف جعفر مطلة على مدينة ذي جبلة (ابن الجاود : صفة بلاد اليمن ج ٢ ص ١١٦) وكانت مقر ذخائر بني الصليحي . (الخرجي : المسجد ص ٨٦) قال عنها ياقوت بأنه لا يوجد في اليمن أحصن منها (معجم البلدان ج ٢ ص ٣٩٤) وتقع تقريبا على خط عرض ١٣°٥٣' شمالا وخط طول ٤٤°١٠' شرقا (El-Khazreijy: The Pearl - Strings, vol. III, 3, p. 44, Note, 258).

(٦) خدد ، حصن في مخلاف جعفر باليمن (ياقوت : معجم ج ٣ ص ٤٠٤) بالقرب من قلعة التعكر. (El-Khazreijy' op. cit; p. 44, Note, 259).

أحمد بن أبي ذكرى نائب الأيوبيين فيها ، لجأ إلى حصن براش^(١) وتحصن فيه^(٢) ، فساعد ذلك نور الدين على دخول صنعاء والاستيلاء عليها بدون مقاومة في ذى القعدة سنة ٦٢٧ هـ^(٣) / سبتمبر سنة ١٢٣٠ ، وولى عليهم ابن أخيه أسد الدين محمد بن بدر الدين حسن الرسول وعاذ نور الدين إلى حصن تعز لإحكام الحصار عليه حتى استولي عليه صلحاً سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م^(٤) .

ولم تهدأ نفس نور الدين ، إذ كان يسعى إلى استئزال ابن أبي ذكرى الذى تحصن في براش ، وكان يمثل أعظم الأخطار التى يمكن أن تهدده ، فقيه يتمثل الولاء لبني أيوب وتشكل القوة الباقية لهم في اليمن ، وإليه قد يلجأ حكام المدن والحصون الذين نحاهم نور الدين — وهؤلاء كانوا نواب

(١) براش ، حصن على جبل نغم إلى الشرق من صنعاء (نشوان بن سعيد الحميري: منتخبات من أخبار اليمن ج ١ ص ١٤٩) وعلى مسافة خمسة أميال منها (EL-Khazrejiyy : op. cit. p. 44. Note, 260.)

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب ، يحيى بن الحسين: أنباء الزمن ص ٧١ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ د أ .

(٤) ابن حاتم السمط ص ٤٢ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤٧ ، المسجد ٢٢٧ ، زيارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٤٩ .

الأيوبيين ومواليهم — عندما يساورهم الشك في صدق ولاء نور الدين ، ويتأكد لهم حقيقة مطامعه في الاستقلال لنفسه . ولهذا لم يكف ينتهي من الاستيلاء على حصن حب وبيت عز^(١) ويولي عليها من يمثله من أتباعه حتى سارع سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١ م إلى صنعاء ، فوصلها في رمضان ، وضرب الحصار على حصن براش ، ولم يجد ابن أبي ذكرى مفرأ من طلب الأمان ، فأمنه نور الدين وتسلم الحصن منه صلحاً^(٢) ، وأكرمته نور الدين ولم يتعرض له بسوء ، بل زاد في تقديره وزوجه من ابنته ، وولاه على مدينة المهجم^(٣) . أما صنعاء فقد جعلها إقطاعاً لابن أخيه أسد الدين محمد بن بدر الدين حسن بن علي بن رسول مدى حياته .

٤ — تحالف الزيدية مع فرق الدين ودخولهم في طاعته :-

استطاع نور الدين أن يستحوذ على معظم بلاد اليمن وحصونها ، وسيطر على مقاليد الأمور فيها ، وولي فيها نواباً ممن يثق فيهم من الموالين له . وكان عليه بعد ذلك أن يتفرغ للقوى الزيدية في شمال اليمن ، والعمل على السيطرة

- (١) ابن حاتم : السمط ٤٣ د أ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٥١ د أ ، الخزرجي : المسجد ص ٢٢٧ ، العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٦ ب ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٤٩ (بيت عز ، حصن في إقليم المناخي) Kay : Yaman, p. 2:6 (بالقرب من كوكبان) يحيى بن الحسين . غاية الأمان ج ١ ص ٧٠٥ ، ٧٣٩ .
- (٢) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ .
- (٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ د أ .

عليها، حتى إذا ما خلع طاعة الأيوبيين واستولى على ملك البلاد ضمن وحدة
اليمين تحت لوائه . وكان نور الدين رجلاً ذا دهاء لا يعمل الحرب (١) ، فلما
عزم على التوجه شمالاً لتحقيق هدفه ، تدخل بنو حاتم (٢) ، واستغلوا وجود
نور الدين في صنعاء سنة ٥٦٨هـ / ١٢٣١ م ، وسعوا في الصلح بينه وبين
الأشراف بنى حمزة الزيدية (٣) . وتكللت جهودهم بعقد لقاء بين نور الدين
والأشراف الزيدية تم في زمزم (٤) . وكان على رأس الوفد الزيدى الشريف
عماد الدين يحيى بن حمزة ، والأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة (٥) :

(١) الخزر جى : المسجد ص ٢٦٦ .

(٢) كان بنو حاتم في بداية أمرهم نواباً للصليبيين على صنعاء، ثم استقلوا
بها سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨ م في عهد الملكة الصليبية أروى بنت أحمد ، وتوالوا
على حكمها إلى أن استولى عليها الأيوبيون سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤ ، ثم استردوها
بعد عودة تورانشاه إلى مصر سنة ٥٧١هـ / ١١٧٦ م . ثم عادت صنعاء إلى
السيطرة الأيوبية سنة ٥٨٥هـ / ١١٩٠ م في عهد طفتكين بن أيوب، وعرضهم
عنها بصرف جامكية شهرية (انظر ، دولة بنى أيوب في اليمن ص ٣٩ - ٤١
٦٦ - ٧٠ ، ٩٩ - ١٠٢ - ١٠٧ ، ١١٥ - ١٤٥ ، ١٤٧ .

(٣) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ .

(٤) ادريس عماد الدين : نزعة الأفكار ص ٥٣ (زمزم ، من الحصون
الهامة في منطقة صنعاء (مرصد الاطلاع ج ١ ص ٥٨٧) ويقع على مسافة
نصف يوم إلى الشمال منها على خط عرض ٢٧ ° شمالاً وخط طول
٤٤ ° ٣٥ شرقاً تقريباً . (EL-Khazrejiyy : op. cit. p. 38, Note, 215)

(٥) الخزر جى : المسجد ص ٢٢٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب .

ومما يذكر أنه لما بدأت المحادثات بين الطرفين ركز بنو حمزة على تشجيع نور الدين على الاستقلال بحكم اليمن ، ونصحهوه بخلق طاعة بنى أبوب، وإعلان قيام دولته . وهكذا نكلت مساعى بنى حاتم بالنجاح ، وتم الصالح بين الطرفين^(١)، وتحالفا على المعاضدة^(٢) . وتعهد بنو حمزة بمعاونته إذا ما قام الأيوبيون بمحاولات خربية لاسترداد السيطرة على اليمن^(٣) . وضمانا لسريان الاتفاق ، واحترام نصوصه اتفق الطرفان على تبادل الرهائن بشرط أن تختار من بين الشخصيات الهامة . فرهن بنو حمزة الشريف صارم الدين داود بن عبد الله بن حمزة، وقدم نور الدين لهم ولده المظفر يوسف، وارتضى الطرفان أن يتولى بنو حاتم مهمة الاحتفاظ بالرهينتين في حصن ذمر^(٤) وما أن تم التوصل إلى هذا الاتفاق حتى خلق نور الدين على بنى حمزة الخلع العظيمة ، ووصلهم بمال كثير ، وأقطعهم ما كان بأيديهم من البلاد والحصون^(٥) ، باعتبارهم نوابا له عليها . أما بنو حاتم - الذين كان لهم الفضل في التوصل إلى

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ١٠ د أ ، ، العقود اللؤلؤية ج ١

ص ٤٧ - ٤٨ .

(٢) ابن حاتم : السمط ٤٣ د أ .

(٣) الخزر جى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤٧ .

(٤) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٤ .

(٥) ابن حاتم : السمط ٤٣ د أ ، ، الخزر جى : المسجد ص ٢٢٧ ، العقود

اللؤلؤية ج ١ ص ٤٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٦ ب ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٤١ .

هذا الصلح - فقد منحهم نور الدين د فوق ما كان لهم ، (١) .

ثالثاً - قيام دولة بنى رسول في اليمن على يد نور الدين :

١ - إعلان سقوط الدولة الأيوبية في اليمن :

بتام الصلح مع بنى حمزة أصبحت سيطرة نور الدين على البلاد كاملة تقريباً ، وأصبح في إمكانه استكمال تحقيق أهدافه بخلق طاعة بنى أيوب وإعلان سلطنته على البلاد . ومن الجدير بالذكر ، الإشارة إلى أن نور الدين كان على يقين من أن رحيل المسعود إلى دمشق كان نهائياً ، إذ كان قد أفضى إليه بعدم الرغبة في البقاء باليمن وأنه يؤثر الشام عليها ، وهو نفس ما حدث لتور انشاة عندما غادر اليمن لهدف مماثل ولم يعد . ولهذا كانت نيابة نور الدين من شأنها تهئية الجو الملائم للعمل في هدوء - وبعيد عن أى شك - على الاستقلال بالبلاد عندما تسنح له الظروف بذلك . وإذا كان اعتقال إخوته واحتجازهم بعدها في مصر ، كان بهدف ضمان استمرار ولاء نور الدين للدولة الأيوبية وبقاء اليمن في طاعة سلاطين بنى أيوب ، باعتبار أن المعتقلين كانوا بمثابة رهائن ، وأن نور الدين لن يقدم على الخروج عن الطاعة خوفاً على إخوته ، إلا أن ذلك الضمان كان في نفس الوقت من أكبر العوامل التي سهلت على نور الدين مهمته . فبالإضافة إلى أنه أدى إلى اطمئنان الأيوبيين له ، فإنه - من ناحية أخرى - أتاح له التخلص من منافسة إخوته ومطامعهم ، ولهذا فلم يهتم بما قد يصيبهم من سوء نتيجة استقلاله ، إذ أنهم لو ظلوا في اليمن لنأزعوه الملك ، لأنهم يكبرونه سناً ، ولن يتركوه يملك البلاد دونهم .

(١) ادريس حماد الدين : نزعة الأفكار ص ٥٤ .

وقد أثبتت الأحداث التالية صحة ما أشرنا إليه ، إذا أنه لما تم الإفراج عنهم في عهد خلفه المظفر يوسف بن نور الدين عمير ، لم يعاملهم ابن أخيه وعجل باعتقالهم حتى لا ينازعونه الملك .

وصفوة القول أن خطة نور الدين من أجل الاستقلال بملك اليمن ، كانت تقضي بالعمل تدريجيا ، وعلى مراحل من أجل تحقيق أهدافه ، بدأها بالتخلص من نواب الأيوبيين وإحلال أتباعه مكانهم ، وأتبعها باستكمال سيطرته على البلاد بالقضاء على المعارضة الداخلية المتمثلة وقتئذ في القوى الزيدية ، والعمل على تأمين حكمه وضمان استقرار الأمور له . وكان من الممكن أن يتأخر إعلان استقلاله بالحكم ، إذا ما قاومته القوى الزيدية وصمدت له ، ولكن التوصل إلى اتفاق بغير حرب مع بني حمزة ، وفر عليه الكثير من المصاعب التي كان من الممكن أن تقابله لو أنهم حاربوه ولم يدخلوا باختيارهم في طاعته .

وهكذا تمهدت الأمور لنور الدين باستقرار الأحوال في اليمن ، وسيطرته على ناصية الأمور فيها . ومن ناحية أخرى ، أسهمت الظروف التي كانت تمر بها الدولة الأيوبية في تحقيق أهدافه ، ولا تغفل بعد الدين وصعوبة موارثتها بالحملة من مصر في ظل تلك الظروف ، أضف إلى ذلك طبيعة البلاد الجبلية الصعبة . كل هذا كان كافيا لإقدام نور الدين على تنفيذ مخطمعه ، ففي أواخر سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٣١ م خلع طاعة بني أيوب وأعلن استقلاله بملك اليمن (١) . بعد عامين من العمل المخطط المتواصل ، واتخذ من مدينة تعز عاصمة

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٤٢ - ابن تغري بردي : النجوم

الزاهرة ج ٨ ص ٧٣ .

لدولته. وبقيام دولة بنى رسول سقطت دولة الأيوبيين في اليمن ، بعد حكم دام ما يقرب من ستين عاما (٥٦٩ - ٦٢٨ هـ / ١١٧٤ - ١٢٣١ م ، حكم منها نور الدين سنتين منفردا باعتباره نائبا لهم من ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م إلى أن أعلن استقلاله عام ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م .

٢ - استكمال مظاهر الاستقلال وتأمين الدولة الناشئة :

تمكن نور الدين من الاستقلال بملك اليمن ، وتلقب بالملك المنصور (١) ، ثم بدأ في العمل على استكمال مظاهر هذا الاستقلال ، ففي سنة ٦٣٠ هـ امر بضرب السكة باسمه ؛ كما أمر بأن يدعى له على المنابر في سائر أنحاء اليمن (٢) . وفي سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٤ م أرسل هدية للخليفة المستنصر بن الظاهر العباسي ببغداد (٣) ، وطالب منه تقليدا وتشريفا بالسلطنة والنيابة عنه (٤) ، طبقا لما جرت به العادة بالنسبة للملوك والسلاطين التابعين لدار الخلافة (٥) .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٤١ ، السكبي : اللطائف السنية ص ٣٩ ب ، العرشي : بلوغ المرام ص ٤٤ ، زيارة: أئمة الدين ج ١ ص ١٤٩ .
(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ١١٠ أ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥١ ، باخرمة : تاريخ نعر عدن ج ٢ ص ١٧٦ ، العقيلي : الخلاف السلجاني ج ١ ص ٢١٤ .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥٤ ، المسجد ص ٢٢٩ .
(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥٥ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩٤ - ٣٩٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٦ ب ، باخرمة : تاريخ نعر عدن ج ٢ ص ١٧٦ .

(٥) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ ، EL Kkazrejiyy : op cit.:

وبوصول التقليد والتشريف سنة ١٢٣٢ هـ / ١٢٣٥ م استلم نور الدين كافة مظاهر الشرعية للملكه واستقلاله بحكم اليمن .

والواقع أن الأمور لم تنته عند هذا الحد . فقد كانت هناك مخاطر خارجية وداخلية متنوعة مازال ماثلة أمام نور الدين .

فبالنسبة للمخاطر الخارجية ، فإن استقلال نور الدين بملك اليمن ، وفصلها عن الدولة الأيوبية ، من شأنه أن يعرضه لانتقام السلطان الملك الكامل محمد الأيوبي . وهذا ماحدث فعلا ، فقد أصبح نور الدين - من وجهة النظر الأيوبية - مغتصبا لجزء من هذه الدولة ، الأمر الذي اضطر معه السلطان الملك الكامل إلى تجهيز حملة في عام ١٢٢٩ هـ / ١٢٣٢ م لاستعادة السيطرة على بلاد اليمن . وكان نور الدين يتوقع ذلك ، ولهذا لم ينتظر حتى تداهمه قوات الأيوبيين ، وسارع في تجهيز حملة للحجاز - التي كانت مازال تابعة للأيوبيين ، ولهم فيها حامية عسكرية ، كما أنها تمثل المعبر البري الوحيد للحملة الأيوبية المتجهة إلى اليمن - واستطاعت قوات نور الدين دخول مكة والسيطرة عليها ، وانسحبت الحامية والقوة الأيوبية منها إلى ينبع للاحتباء بها (١) .

وباستيلاء نور الدين على مكة ، أصبح مشاركا للأيوبيين في بلاد الحجاز (٢) . وتحولت الحجاز على هذا النحو إلى خط دفاع أمان لليمن ،

(١) العاسي : العقد الثمين ج ٢ ص ٧٤١ ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٤٤ .

(٢) باخرمة : تاريخ نجران ج ٢ ص ١٧٨ .

فانتقل بذلك مسرح المعارك اليمنية الأيوبية إليها . وتوالت الحملات بين الجانبين (١) ، كل يعمل على تثبيت سيطرته على بلاد الحجاز .

أما بالنسبة للمخاطر الداخلية ، فقد كان نور الدين حريصا على عدم إتاحة الفرصة لظهورها على مسرح الأحداث الداخلية ، مستهدفا من ذلك تدعيم دولته واستقرار الأحوال الداخلية فيها . وكان بعيد النظر ، خبيرا بالتيارات الداخلية في دولته ، وكان يخشى أن تستنفذ الحسركات الداخلية المضادة كل جهوده ، مما يؤدي إلى نجاح القوات الأيوبية في الوصول لليمن والقضاء عليه . وهذا يفسر مبادرته لمهاجمة القوات الأيوبية في مكة ، والعمل على السيطرة على الحجاز تأمينا لليمن من المخاطر الخارجية .

ومن ناحية أخرى ، فإن انشغال نور الدين بالصراع ضد الأيوبيين خارج حدود اليمن ، واستمرار حملاته على الحجاز ، من شأنه إغراء القوى الداخلية للعادية المتمثلة في القبائل اليمنية الطامعة دائما في التحسّر من سيطرة للدولة للتمرد ، كما أنه من المحتمل أن يتمرد أيضا الناضخون من الجند أو رؤسائهم المواليين للأيوبيين ، وغيرهم من الطامعين من أمراء البيت الرسولي للاستيلاء على مقاليد الحكم ، وهؤلاء جميعا كانوا يمدّون في القوى الزيدية خير ملجأ ومعين .

وكانت تلك القوى العادية كثيرا ما تنشط كلها وجدت الظروف مهيأة

(١) القاسمى : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩٥ ، ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ٣٧٥ ، العرشي : بلاوغ المرام ص ٢٤ ، : De Gaury, (G.) Rulers of Mecca, P. 88. (ولمزيد من التفصيلات ، انظر الفصل الرابع) .

لذلك ، سواء عند ضعف القوى الحاكمة ، أو انشغالها في صراعات داخلية أو خارجية . وهي سمة تميزت بها بلاد اليمن دون كثير من مناطق العالم الاسلامي عبر تاريخها الطويل . وكانت طبيعة البلاد الجبلية الوعرة من أهم العوامل التي ساعدت على تفتت البلاد إلى أشلاء متناحرة في كثير من العصور . ولهذا رأى نور الدين ألا تشغله حروبه ضد الأيوبيين في الحجاز عن تلك القوى المتربعة للانقضاض على حكمه . ولكي لا يتيسح الفرصة لتكتلهم ضده ، لجأ إلى القيام بحملات دورية ، حتى لا تعرض سلامة دولته للخطر ، فبعد حملة الحجاز سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٢٢ م توجه إلى صنعاء واستولى على حصن بكر^(١) و كوكبان^(٢) وبراش^(٣) . وفي سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م تسلم بلاد علوان الجعدي في شرق اليمن^(٤) .

(١) بكر ، حصن من بلاد كوكبان إلى الشمال الغربي من صنعاء . (أئمة اليمن ج ١ ص ١٤٢) .

(٢) كوكبان ، جبل على مسافة يوم إلى الشمال الغربي من صنعاء (الواسمي : البدر المزيل للعز من ٢٥) يقع في أعلاه حصن كوكبان ، وهو حصن منيع .
(٣) الخزرجي : العقود الأولوية ج ١ ص ٤٩ ، العقد الفاخر الحسن ج ٢ ص ٦٦ أ .

(٤) الخزرجي : العقد الفاخر ج ٢ ص ٦٦ ب ، المسجد ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٦ ب (أما علوان فهو ابن عبدالله بن سعيد الجعدي المذحجي ، كان قد تغلب على حصون حجر ونواحيها في شرق اليمن وحصون العروسين ووعل ونهان وغيرها إلى الشرق من مدينة الجند (الخزرجي : العقود الأولوية ج ١ ص ١٣٨ ، وانظر أيضا تعليقات : Redhouse في The Pearl — Strings, Vol. III, 3, pp. 98—99, Notes, 599 — 608 =

٣ - الزيدية ونقض الصلح مع نور الدين :

سادت العلاقات الطيبة بين الزيدية ونور الدين بعد توصلهما إلى الصلح سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م ، وكان واضحا أن تأييدهم له وتحريره على الاستقلال ، كان بهدف أن تسوء العلاقات بينه وبين الأيوبيين ، فيستغل بنوحمة الزيديين فرصة الصراع المنتظر للانقضاض على دولة نور الدين . ففي سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م استولوا على المناطق التي كان نور الدين قد أقرم عليها ، وعملوا على التوسع ، معرضين بذلك وحدة الدولة واستقرارها للخطر . وقد بدأ الزيدية نقض الصلح عندما أرسل الشريف الزيدى يحيى بن حمزة بعض أتباعه للاستيلاء على كوكبان (١) ، ولكن حاميتها تصدت لهم وردتهم على أعقابهم ، وقضت على محاولتهم (٢) . فلما علم نور الدين بذلك غضب ، وجيز حملة تأديبية إلى منطقة البون (٣) - شمال صنعاء - لمطاردة بني حمزة ، وتمكنت من استرداد جميع

يرجع سبب محاربة نور الدين له ، أنه نعى إلى علمه أن علوان قد أرسل إلى الملك الكامل يطلب مساعدته في قتال نور الدين وإعادة اليمن للسيطرة الأيوبية (الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٣٩) .

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥٨ . المسجد ص ٢٣٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ د أ .

(٢) ابن حاتم : السمط ٤٤ د أ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥٨ ، المسجد ص ٢٣٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٧ د أ .

(٣) البون ، أرض لحمدان باليمن (نشوان بن سعيد الجعفي : منتخبات في أخبار اليمن ص ٦) على مسيرة يوم إلى الشمال من صنعاء (الواسعي : البدر المزيل للحزن ص ٥) على خط عرض ١٥° ٤٠' شمالا ، وخط طول ١٣° ٤٠' شرقا (EL — khazretijyy : op.cit., P. 50, Note, 293).

البلاد التي كان نور الدين قد أقرهم عليها في شمال اليمن^(١)، مقابل لهم على نقض الصلح^(٢).

ولم تقف مظالم الأشراف الزيدية عند هذا الحد، بل امتدت إلى مناطق أخرى؛ إذ استولوا على جبل منابر - وكان من المواقع الهامة المطلقة والمتحركة في مدينتي المهجع والمحالب - وقاموا بتحصينه^(٣)، وإعداده ليكون منطلقا للاستيلاء على غيره من المدن والحصون. وبما زاد من خطورة الموقف أن الحامية الموجودة مع نجم الدين بن أبي ذكرى - نائب نور الدين في مدينة المهجع - لم تكن كافية للتصدي لأي هجوم قد يشنه الأشراف بنو حمزة. ولذلك أرسل ابن أبي ذكرى لنور الدين يخبره بحقيقة الموقف، وحاول نور الدين التوصل إلى حل سلس معهم، وأرسل إلى الشريف يحيى بن حمزة يطلب منه تسليم حصن منابر مقابل تعويضه بحصن آخر وعشرة آلاف دينار^(٤)، ولكنه رفض واعتبر أنه سيطره على هذا الحصن قد أصبح شريكا لنور الدين في منطقة تهامة. وهكذا لم يجد نور الدين بدا من الحرب، فزحف من زبيد إلى المهجع^(٥).

(١) ابن حاتم: السمط ٤٤ د أ.

(٢) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٠.

(٣) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥٨، قررة العيون ٦٧ د أ.

(٤) ابن حاتم: السمط ٤٤ د أ، الخزرجي: العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥٩.

المسجد ص ٢٣٠، ابن الديبع: قررة العيون ص ٦٧ د أ.

(٥) ابن حاتم: نفس المصدر ص ٤٥ د أ.

في ستين ألف مقاتل^(١) ، ومما يدل على حصانة هذا الحصن ومناعته أنه لم يكتف بتلك القوة الكبيرة ، بل لجأ إلى سلاح المال لشراء ولاء القبائل ، وخاصة تلك التي اعتمد يحيى بن حمزة عليها ، وأنفق في ذلك أموالاً كثيرة^(٢) ، لهذا لم يكدر يصل حتى استقبلته القبائل وانضموت تحت لوائه ، كما تخلت جموع المواليين ليحيى بن حمزة عنه ، مما يسر لنور الدين مهمة استرداد جبل منابر من غير قتال^(٣) . وتسلم عدداً آخر من المدن والحصون مثل حجة والمخلافه وما إليها^(٤) . فلما عاد نور الدين إلى زبيد جاءه مندوبو الأشراف معتذرين عما حدث ، مقرين له بالطاعة^(٥) ، مسلمين له بما استرده منهم من البلاد ، وتم الصلح على ذلك^(٦) .

وهكذا يتضح أن محاولة الزيدية الاستيلاء على كوكبان ، ثم تحصينهم

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ دأ .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، الخرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥٩ - ٦٠ ، المسجد ص ٢٣١ .

(٣) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٤) الخرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥٨ و ٦٠ ؛ المسجد ص ٢٣٠ - ٢٣١ ، العقد الفاخر ج ٢ ص ٦٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٧ دأ ، باخرمة تاريخ نجر عدن ج ٢ ص ١٧٦ .

(٥) الخرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٦١ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٨ دأ ، .

(٦) ابن الديبع : قرة العيون ٦٨ دأ .

لجبل منابر ، كان يهدف السيطرة والتوسع ، وأنهم لم يكونوا جادين هندية دخلوا في طاعة نور الدين . وكان اختيارهم لهذه المواقف تجسيدا لتلك المطامع ، فحصن كوكبان بسيطر على جزء كبير من منطقة الجبال الشمالية بل ويهدد صنعاء نفسها ، وجبل منابر يتحكم في قسم كبير وهام من منطقة وسط تهامة ، مما يهدد بضياح المنطقة الساحلية الواقعة شمالها .

٤ - تثبيت سيطرة نور الدين على اليمن :

وفي إطار العمل على تدعيم واستقرار الأحوال الداخلية في اليمن ، قام نور الدين باتخاذ الحملات إلى العديد من المناطق ، ففي سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٩ م سير حملة إلى بلاد الشعر بساحل حضرموت فاستولت عليها^(١) . وفي العام التالي أرسل حملة أخرى إلى حضرموت ، ولكنها عادت دون تحقق أن هدفها ، وبعد أن أوقعت القبائل بها الهزيمة وقتلت قائدها وعددا من أفرادها^(٢) . وفي نفس العام استولى نور الدين على حصن الكيم^(٣) . واسترد في سنة ٦٣٨هـ / ١٢٣١ م حصن حلب - بالقرب من ثلا إلى الشمال من كوكبان^(٤) -

(١) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ د أ .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ص ١ ص ٦٤ ، المسجد ص ٣٣٣ ، العقد الفاخر الحسن ص ٢ ورقة ٦٦ ب ، ابن الديبع : قرة العيون ورقة ٦٨ ب (الكيم ، حصن من بلاد الحدا) زبارة أئمة اليمن ص ١ ص ١٦١ (إلى الجنوب من صنعاء وعلى الطريق الموصل بينها وبين مدينة ذمار) EL - Khazrejiyy: The Pearl - Strings, Vol. III, p. 53, Note, 315.

(٤) زبارة : أئمة اليمن ص ١ ص ١٦٢ .

من الشريف محمد بن يحيى بن حمزة (١) .

وواصل نور الدين تسيير حملاته السنوية ، فأغار على حصن السوا (٢) ويمين (٣) ومنيف (٤) . وكان قد غضب على عمار بن السبائي واليه عليهما ، ففعله سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤٣ م واستولى على حصونه (٥) وفي العام التالي استولى على حصن عتمة (٦) ، ثم تابع حملاته فتسلم في سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٤ م حصن حفاش (٧) . وفي سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٥ م استولى على حصن

(١) ابن حاتم : السمعط ورقة ٤٦ د أ .

(٢) السوا ، حصن على جبل صير من أعمال تعز (Kay ; yaman, p. 245) .

(٣) يمين ، حصن من حصون المعافر (الحجرية) إلى الشمال الغربي من عدن .
(بهجة الزمن ص ٤٥ د أ ، الخزرجي : المسجد ١٧٤) .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٦٧ (منيف حصن من حصون

مخلاف المعافر على جبل صير)

EL - Khazrejiyy : op. cit. p. 78, Note 459 :

(٥) الخزرجي : المسجد ص ٢٣٤ ، العقد الفاخر الحسن ج ٢ ص ٦٦ ب .

(٦) ابن حاتم : السمعط ورقة ٤٦ ب . (عتمة ، حصن من الحصون
المعدودة في اليمن ، ويضم أعمالا كثيرة ، ويعرف ببلد السلاطين ، وهم قوم
من سخولان ، قال عنهم الخزرجي ، بأنهم أهل رئاسة متألثة ومكارم مشهورة
(العقد الفاخر الحسن ج ٢ ص ٢٩ د أ) .

(٧) الخزرجي : المسجد ص ٢٣٦ ، العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٧١ ، العقد
الفاخر الحسن ج ٢ ص ٦٧ د أ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٨ ب . (وحفاش
من المعامل المشهورة على جبل باسمه قريب من ناحية الخلافة (الجندی : السلوك
ص ٣٧١) .

سماعة^(١) وبلاد خولان^(٢)، كما زحف إلى بلاد علوان الجحدرى الواقعة في شرق اليمن - في نفس العام - وطرده منها ، وكان الشريف الزيدى تاج الدين محمد بن يحيى بن حمزة قد جاءه في كثير من أتباعه لأمده ومعاونته ضد علوان ، فأعاد نور الدين إليهم حصون حجة وزادهم عليها مناطق أخرى مكافأة لهم على معاونتهم له^(٣) .

وفي سنة ٦٤٥ هـ / ١٢٤٨ م استولى نور الدين على جبل العوادر^(٤) ، ثم توجه إلى تهامة للقضاء على حركة التمرد التي قام بها المعازبة^(٥) . وهكذا سيطر نور الدين على جميع مناطق اليمن باستثناء عدد قليل من البلدان والحصون^(٦) .

(١) سماعة ، قلعة حميرية على جبل وصاب بالقرب من زيد

EL - Khazrejiyy : op. cit., p. 59, Note, 344 .

(٢) ابن حاتم : السمط ٤٦ ب ، الخزرجي : المسجد ٢٣٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٨ ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ١ ص ٤٢٦ .
(٣) ابن حاتم : السمط ٤٥ د أ ، .

(٤) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٤٧ د أ ، الخزرجي : العقود ١ ص ٧٤ ، المسجد ٢٣٧ ، العقد الفاخر ٢ ص ٦٧ د أ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٩ د أ ، (العوادر ، قبيلة تقيم على جبل سورك إلى الشرق من الجند)

EL - Khazrejiyy : op. cit, p 61, Note 352 .

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة (والمازية ، قوم يسكنون المنطقة الواقعة بين مدينة القرشية وزيد) الخزرجي : المسجد ٤٤٩ .

(٦) الخزرجي : العقود ١ ص ٧٣ ، المسجد ٢٣٧ ، العقد الفاخر الحسين ٢ ص ٦٧ د أ ، .

٥ - استغلال الشريف الزيدى أحمد بن الحسين الخلف القائم بن بنى رسول للدعوة للإمامة :

كان السلطان الرسولي نور الدين قد ولى ابن أخيه الأمير أسد الدين محمد ابن بدر الدين الحسن بن على بن رسول على صنعاء ، وذلك بعد أن استولى عليها في أواخر سنة ٩٢٧ هـ / ١٢٣٠ م من الأمير نجم الدين أحمد بن أبى ذكرى نائب المسعود (١) ، وظل أسد الدين ينوب عن عمه فى ولاية صنعاء ، منذ أعلن استقلاله باليمن عن الأيوبيين (٢) إلى أن تخلص من أكثر الأخطار الخارجية ، وأقر قواعد ملكه داخليا ، وعندئذ عزم على عزل ابن أخيه عن صنعاء (٣) ، وذكر ابن حاتم أن ذلك كان بإيعاز من زوجته - أم قطب الدين - التى أرادت أن يكون ابنها الفائز قطب الدين نائبا لأبيه على صنعاء بدلا من أسد الدين محمد بن الحسن (٤) ، وقيل إنما يرجع السبب فى رغبة نور الدين فى عزله إلى ما بلغه من أمور خوفته منه (٥) ، وأنه لهذا قرر عزله ، وتولية ابنه المظفر يوسف بدله (٦) .

(١) الخزرجى : العقد الفاخر ج ٢ ص ٦٧ د أ ، باخرمة : تاريخ نجر عدن

ج ٩ ص ١٧٨ .

(٢) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٤ .

(٣) ابن حاتم : السمط ٤٧ د أ .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ١٠ ب ، الخزرجى : للعقود الأولى

(٥) ابن حاتم السمط ٤٧ أ .

ج ١ ص ٧٤ ، المسجد ص ٢٣٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٩ د أ .

(٦) ابن عبد المجيد : نفس المصدر لوحة ٤٢ د أ ، باخرمة : تاريخ نجر

عدن ج ٢ ص ١٧٨ .

والقول بأن نور الدين كان يعمل على تولية ابنه المظفر، يحتاج إلى أسانيد تدعمه ، ذلك أن أم قطب الدين - واسمها بنت جوزة ابنة الأمير سيف الدين صنفرة الأتابك ، وزوجة المسعود يوسف بن الكامل - كان نور الدين قد تزوجها (١) بعد استيلائه على اليمن ٦٢٨ هـ / (٣) ١٢٣١ م ، وشغف بها وأنجب منها ولداه قطب الدين الفائق والمفضل ، وكانت تبذل قصارى جهدها لاستمالة نور الدين لولديها ، دون ابنه المظفر الذي كانت تعمل على إبعاده مع أنه أكبر أبنائه ، فكانت النتيجة أن تولي المظفر يوسف نائباً لأبيه على مدينة المهجم . وغضب المظفر لهذه المؤامرة التي دبرتها زوجة أبيه ، وعزم على التوجه إلى بغداد ليشكو إلى الخليفة المستعصم العباسي من أبيه الذي أقصاه وحلف العسكر للمفضل الذي يصغره في السن (٤) .

ومما يكن من شيء فإن نور الدين استدعى ابن أخيه أسد الدين عندما عزم على عزله ، وطلبه في أواخر ٦٤٥ هـ / ١٢٤٨ م بحجة أنه يريد أن يزوجه من ابنته . فلما وصله عرض عليه أن يعوضه عن صنعاء بلحج وأبين وحضرموت والشعر ، ولكنه رفض ، فعرض عليه راتباً سنوياً قدره خمسين ألف دينار، فرفض أيضاً وقفل عائداً إلى صنعاء (٥) . وقيل أنه لم يقابل عمه،

(١) الخزرجي : العقد الفائر ٢ ص ٦٦ د أ .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ١ ص ٤٧ ، المسجد ٢٢٧ ، ابن الديبع
قرة العيون ٦٥ .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ١ ص ٨٨ - ٨٩ ، المسجد ص ٢٤٦ ،
ابن الديبع : قره العيون ٧١ ب .

(٤) ابن حاتم : السمط ٤٧ د أ .

لأنه ما أن وصل حتى علم بما اعتمد عمه القيام به من عزله عن صنعاء ، فتخوف وفر هارباً في طريقه إلى صنعاء (١) بغير مقابلة عمه أو استئذانه . فأرسل نور الدين من بسبقة ويعترض عليه طريقه إلى صنعاء ، ولكنه عدل عن الطريق المعتاد وسار في طريق قفر (٢) ، ودخل صنعاء في أول عام ٥٦٤٩ / ١٢٤٨ م وهو غاضب من عمه ناغم عليه .

وفي سنة ٥٦٤٦ / ١٢٤٩ قام الشريف الزيدى أحمد بن الحسين القاسمى إماماً للزيدية باليمن (٤) ، ولما كان أسد الدين مغاضباً لعمه ويخشى انتقامه ، لهذا فقد أرسل إلى الامام يعرض الانضمام إليه والتحالف معه ضد عمه (٥) .

(١) الخزرجى : العقد الفاخر ج ٢ لوحة ٩٥ « أ » .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٥١ ب — ٥٢ « أ » ، الخزرجى : المسجد ص ٢٣٧ ، العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٧٤ — ٧٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٩ « أ » .

(٣) الخزرجى : العقد الفاخر ج ٢ لوحة ٩٥ « أ » .

(٤) هو الامام أحمد بن الحسين بن أحمد بن القاسم بن عبد الله بن القاسم ابن أحمد بن أبي البركات بن إسماعيل بن أحمد بن القاسم بن محمد بن القاسم ابن ترجمان الدين طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب ، (الخزرجى : طراز الزمن ج ٢ ص ٩٠ - ٩١ ، زيارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٥٢) وتمت إمامته بمصر ثلثاً في منتصف صفر سنة ٦٤٦ (ابن حاتم : السمط ٤٧ « أ » ، الخزرجى : العقد الفاخر ج ٢ ص ٦٧ « أ » ، العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٧٥ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٥٢ ب ، الخزرجى : العقد الفاخر

ج ٢ لوحة ٦٧ « أ » ، العقود ج ١ ص ٧٩ .

وهكذا أسهم أسد الدين بعمله هذا في فتح باب الصراع مع الزيدية من جديد،
بعد هدوء استغرق ثمانى عشرة عاماً منذ استقلال نور الدين بحكم البين -
باستثناء ما قام به بنو حمزة سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٣ م - فلما علم نور الدين بهذه
التطورات الخطيرة ، من قيام إمام وانضمام أسد الدين إليه ، تجهز في عسكر
كثيف وتوجه لمحاربتها (١) . فلما وصل إلى دمار - الواقعة إلى الجنوب من
صنعاء - في ربيع الأول ٦٤٦ هـ / ١٢٤٩ م ؛ أمر باستدعاء أسد الدين محمد بن
بدر الدين الحسن بن علي بن رسول من صنعاء ، وأرسل له ذمة وأماناً مع
أخيه فخر الدين أبي بكر بن الحسن الذي استطاع إقناعه بالتوجه معه إلى
عمه وتجديد العهد له ، والاعتذار له عما بدر منه ، وفعلًا عفا نور الدين عنه
وأكرمه وأقره علي صنعاء (٢) ، وتوجه الجميع إليها فوصلوها في الحادى
عشر من ربيع الآخر سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٩ م (٣) .

أما الإمام أحمد بن الحسين فقد كان يتابع - في حصن ثلا (٤) - تجهيز

(١) الخزرجى : العقود الأثرية ج ١ ص ٧٦ .

(٢) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار لوحة ٥٤ .

(٣) ابن حاتم : السمط ٤٧ ب (وذكر الخزرجى أن دخول نور الدين
إلى صنعاء كان في الحادى والعشرين من الشهر ، انظر العقود الأثرية ج ١
ص ٧٦ ، العقد الفخر ج ٢ ص ٦٧ « أ ») .

(٤) ثلا ، حصن منيع إلى الشمال من كوكبان (الواسعى : البدر المزيل
للحزن ص ٢٤) وهو على بعد ثلاث فراسخ من صنعاء (ابن الجاور : صفة
بلاد اليمن ج ٢ ص ١٩٣) .

الجملات للاغارة على المناطق الموالية للسلطان نور الدين ^(١) . ولهذا لم يكند نور الدين يستقر في صنعاء حتى عقد العزم على السير بقواته لمحاربة الامام والقضاء على دعوته قبل استفحالها ^(٢) ، فخرج من صنعاء في الثاني من جمادى الأولى سنة ٦٤٦ هـ / ١١٤٩ م ^(٣) ، وحط بقواته قرب سفح تلا، ودار قتال عنيف بين الجانبين ، شمل المنطقة ، وقتل من أتباع الامام سبعون رجلا ^(٤) .

وتابع نور الدين حملاته على المناطق الموالية للامام ، وانتقم منهم ، وأخرب وأتلف كثيرا من حصونهم ومزارعهم ^(٥) . وظل مقيما في صنعاء ما يقرب من عام كامل يجهز الحملات للاغارة على الامام وأعدائه من الزيدية والقبائل الموالية له ، فتارة يقود الحملات بنفسه ، وأخرى بتأييد ابن أخيه أسد الدين أو غيره من كبار أمراء الأجناد ^(٦) . وعلى الرغم من العنف والقسوة التي اصطنعتها قوات نور الدين مع الزيدية ، إلا أن القبائل الموالية

(١) زبارة : أئمة الدين ج ١ ص ١٥٤ .

(٢) زبارة : أئمة الدين ج ١ ص ١٥٣ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٥٢ «أ» .

(٤) الخزر جى : المسجد ص ٢٣٨ ، العقد الفاخر ج ٢ ص ٦٧ دأ ، (أما ما أورده الخزر جى في العقود الأولى ج ١ ص ٧٦ من أن عدد القتلى كان تسعون رجلا ، فيبدو أن ذلك تصحيف من الناسخ في الأصل المخطوط الذي اعتمده الناشر لطبع الكتاب) .

(٥) الخزر جى : العقود الأولى ج ١ ص ٧٧ ، ٨٠ ، المسجد ص ٢٣٨ -

٢٣٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٩ .

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٤٨ دأ .

للإمام لم تذعن بالطاعة للسلطان ، واستمرت مقاومتها العنيدة في مساندة الإمام ودعوته (١) . وأمام هذا الصمود الذي استغرق وقتا طويلا ، رأى نور الدين أن يعود إلى تعزيز لترتيب أمور دولته على أمل في جولة أخرى وغادر صنعاء في الثالث من ربيع الأول ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م (٢) . وتوجه معه ابن أخيه أسد الدين في وداعه إلى ذمار (٣) .

ومما يذكر أن الزيدية استغلت خروج أسد الدين من صنعاء وتغيبه في وداع السلطان ، وحاولت قواتهم الاستيلاء على صنعاء ، ولكن حاميتها صدتهم وردتهم عنها (٤) . كما قامت القبائل الموالية للإمام بقطع طريق العودة على أسد الدين ، ولكنه استطاع الوصول إلى صنعاء قهرا (٥) . واستمر ضغط الإمام وقواته على أسد الدين ، ولكن انقسام الزيدية بعد ذلك ووقوع الحرب بين الإمام وبنى حمزة خفف كثيرا من الخطر الذي تعرضت له صنعاء (٦) .

(١) زيارة : أئمة اليمن ج١ ص ١٥٥ .

(٢) ابن حاتم : السمط ٤٨ ب ، الخزرجي : العقد الفاخر ج٢ ص ٦٧ دأ .

(٣) الخزرجي : العقد الفاخر الحسن ج٢ ص ٩٥ دأ .

(٤) ابن حاتم : السمط العالي الثمن ورقة ٤٨ ب ، الخزرجي : العقود

اللؤلؤية ج١ ص ١ ، المسجد ص ٢٤٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٠ دأ .

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر والمنفعة ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية

ج١ ص ٨١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٠ دأ .

(٦) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص ٨١ ، المسجد ص ٢٤١ ، ابن

الديبع : قرة العيون ص ٧٠ دأ .

أما نور الدين فإنه ما كاد يواصل تقدمه جنوبي صنعاء حتى إعترضته قبائل تلك المنطقة مع عدد كبير من قوات الامام تقـسـد بعشرة آلاف رجل (١) ومائة وخمسين فارساً (٢) . فتصدى لهم نور الدين بعسكره وهزمهم في ربيع الآخر سنة ٦٤٧ هـ / يوليو - أغسطس ١٢٤٩ م ، وقتل منهم أكثر من ثلاثمائة رجل (٣) ، ثم واصل طريقه إلى تعز ، (٤)

٦ - مقتل السلطان نور الدين :

ظل نور الدين مقيماً في تعز إلى حلول عيد الفطر (٥) ، ثم تقدم بعده إلى مدينة المهجم ، وفي هذه الأثناء بلغه عودة علوان الجندري للعصيان مرة أخرى ، فعزم على السير لمحاربته والقضاء على حركته ، فغادر مدينة المهجم في شهر ذي القعدة ٦٤٧ هـ (٦) / فبراير سنة ١٢٥٠ م ، فلما وصل إلى مدينة الجند ونـب عليه مما ليـكـه ، وقتلوه في قصر الجند (٧) في ليلة السبت التاسع من ذي القعدة سنة ٦٤٧ هـ / ١٥ فبراير سنة ١٢٥٠ م (٨) .

(١) ابن حاتم : السمط ورقة ٨ ؛ ب .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٨١ .

(٣) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٤) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٥) ابن حاتم : السمط ٨ ؛ ب .

(٦) ابن حاتم : نفس المصدر ٩ ؛ أ ، .

(٧) زبارة : أئمة الين ص ١٥٨ .

(٨) ابن حاتم : السمط ورقة ٩ ؛ أ ، ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية

وقيل أن مقتله تم بمؤامرة دبها له أسد الدين ابن أخيه (١) الذي كان مهدداً بالغزل عن صنعاء ، وكان يتوقع أن يقصيه عمه عنها في يوم من الأيام ، ولهذا اتفق مع أخيه فخر الدين أبي بكر بن الحسن بن علي بن رسول ، ودبر الخطة معه ، واتفقا مع ممالك نور الدين على قتل ولي نعمتهم . وبذلك لهم الوعود البراقة والأموال الجزيلة (٢) ، حتى قيل أنهم كانوا قد عزموا على تنفيذ مؤامراتهم في صنعاء ، ولكنهم أرجأوا التنفيذ (٣) حتى تم لهم ذلك في مدينة الجند .

وهكذا مات نور الدين مقتولاً بيد ممالكه بعد ملك دام أكثر من ثمانية عشر سنة - خلاف فترة نيابته عن المسعود - قضائها في كفاح متواصل من أجل تدعيم استقلاله وترسيخ قواعد دولته وإقرار الأمن في ربوعها ، وتأمينها باستيلائه على الحجاز .

= ج ١ ص ٨٢ ، المسجد ص ٢٤١ ، العقد الفاخر الحسن ج ٢ ص ٦٧ د أ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩٨ ، ابن تغري بردى : حوادث الدهور ص ٣٧٥ ، المنهل الصافي ج ١ ص ٢٣٠ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٧٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ٧٠ د أ .

(١) الخزرجي : المسجد ص ٢٤١ ، العقود الأثرية ج ١ ص ٨٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ٧٠ د أ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ٥٢ د أ ، باخرمة : تاريخ نجران ج ٢ ص ٢٧٨ .

(٣) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ٥٢ ب .

الفصل الثاني

دولة بنى رسول بعد نور الدين

أولاً - عصر المظفر يوسف :

١ - الوضع المتفجر بعد وفاة نور الدين ومواف المظفر يوسف من الظالمين
في السلطنة من بنى رسول :-

أحدث مهنر نور الدين عمر بن على بن رسول هزة عنيفة في بلاد اليمن ،
وعرض دولة بنى رسول الناشئة للانهار ، فلم تكن الظروف مهيأة لإقامة
خلف له ، لعدم وجود أحد من أبنائه معه في مدينة الجند عند مقتله حتى يمكن
مبايعته بالسلطنة ، فابته الأكبر المظفر يوسف كان نائباً له في مدينة المهجم
وكان موجوداً فيها (١) آنذاك . أما ابنه المفضل قطب الدين ، فكان أبوه
قد ولاه على مدينة المحالب (٢) ، ولكنه آثر أن ينسب عنه فيها أحد أتباعه ،
وظل مقيماً في تعز مع والدته وإخوته (٣) .

-
- (١) ابن حاتم : السمط ص ٤٩ د أ ، ابن عبد الجيد : بهجة الزمن
ص ٥٣ د أ ، الخزرجي : العقد الفاخر الحسن ج ٢ ص ١٤٦ (ب) .
- (٢) المحالب ، مدينة في تهامة بالقرب من المهجم ، وتقع على خط عرض
٢٠° ١٥' شمالاً ، وخط طول ٣٠° شرقاً تقريباً . (El-Khazrejiyy : The
Pearl-Strings, Vol. III, 3, p. 50, Note, 294) .
- (٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٩ د أ ، .

وكان الموقف بعد مقتل نور الدين في الحق خطيراً ويهدد بالانقسام والتفتت ، فالمظفر يوسف كان يعتبر نفسه صاحب الحق الشرعي في السلطنة بعد أبيه باعتباره أكبر أبنائه أما نحر الدين أبو بكر بن الحسن بن علي بن رسول ابن شقيق نور الدين، فكان والياً على رمع^(١) ، وطمع في الاستيلاء على السلطنة ، في حين استغل أخوه أسد الدين مجد القرصة واستقل بولاية صنعاء وأخذ يعمل على مساندة أخيه^(٢) . أما المفضل قطب الدين بن نور الدين ، فقد كان يستند في حقه في السلطنة على ما قام به أبوه من تحليف العسكر له في حياته^(٣) . وبالإضافة إلى هذه المطامع كان الزيدية يتطلعون إلى تمكين نفوذهم في البلاد ، فقد تمكن الإمام الزيدى أحمد بن الحسين من السيطرة على المناطق الواقعة شمالي صنعاء مستهدفاً التوسع على حساب بنى رسول المتنافسين على السلطنة^(٤) . مما كان يهدد بزوال دولة بنى رسول .

وكان الموقف يحتم على المظفر يوسف - صاحب الحق الشرعي في السلطنة - أن يعتمدى لكل هذه المخاطر والأعمال على التخلص من منافسيه وتثبيت أركان عرشه . وتدل الأحداث على أن خطته كانت تهدف إلى تحقيق السيطرة على

(١) رمع ، وادى يقع إلى الشمال من وادى زيد : EL - Khazrejiyy :

op. cit. p. 23, Note, 117).

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٩ د أ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٣ د أ ، الخزرجي : العقد الفار

الحسن ج ٢ ص ١٤٦ (ب) .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٨٩ ، المسجد المسبوك ص

٢٤٦ ، العقد الفار ج ٢ ص ١٤٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٢ د أ .

أكبر مساحة ممكنة من البلاد ، مع عدم الدخول - بقدر الإمكان - في حرب مع أكثر من قوة في وقت واحد ، سعيا إلى التخلص من منافسيه كل على حدة . وهكذا شرع في تنفيذ هذا المخطط وغادر المهجم بعد أيام من مقتل أبيه متوجها إلى زبيد ^(١) ، لمواجهة خصومه الواحد تلو الآخر .

أ - صراع المظفر ضد أبناء عمه :

كان قتلة نور الدين قد انحازوا - مع بقية مماليكه - إلى فيخر الدين أبي بكر بن الحسن بن علي بن رسول ^(٢) ، وبايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك المعظم ^(٣) ، وعندئذ أسرع في جوعه للاستيلاء على زبيد ، ولكنه ما أن بدأ الحصار حتى قوبل بمقاومة شديدة من أهلها ، الذين - رغم اختلاف نواياهم - أجمعوا على عدم تمكينه من مدينتهم . إذ كان بعضهم يقاومون الحصار وفاء بالقسم الذي ارتبطوا به مع نور الدين لابنه المفضل ^(٤) ، في حين صمد الآخرون ومنهم الدار الشمسي - شقيقة المظفر التي كانت موجودة وقتئذ بزبيد - ^(٥) من أجل حماية المدينة حتى يصلهم المظفر يوسف . ومن الجدير

(١) ابن حاتم : السمط ص ٥١ (ب) ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٩٠ .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٨٨ ، العسجد ص ٢٤٥ ، العقد الفار ج ٢ ص ١٠٦ (ب) ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧١ (ب) .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٣ د أ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٨٨ ، العسجد ص ٢٤٥ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٥٢ د أ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٤٩ «ب» .

بالذكر أن الدار الشمسي قد لعبت دوراً كبيراً في تنظيم المقاومة والدفاع عن المدينة ، كما بذلت الأموال الكثيرة (١) كمبا لولاء سكان المدينة لأخيها المظفر يوسف (٢) ، وأرسلت إليه تستحثه على الإسراع لتسلم المدينة قبل سقوطها (٣) .

أما المظفر ، فقد بلغته تلك الرسالة بعد خروجه من مدينة المهجم . وكان قد كتب إلى رؤساء القبائل ومشايخ البلاد ولكل من استشعر منه ميلاً إليه ؛ وطلب منهم الاستعداد للملاقاته والسير معه ، وأتفق فيهم الأموال الكثيرة ، ونجح في لغراء أعداد كبيرة من الجند ورجال القبائل بالانضمام إليه (٤) .

وأعلن والي حرص - في شمال تهامة - الطاعة له ، وتبعه عدد آخر من ولاية منطقته ، وتوجه المظفر في هذه المجموع إلى زيد (٥) ، التي كانت قد تمكنت من الصمود رغم كثرة المحاصرين لها . وهكذا باءت محاولات فيخر الدين في الاستيلاء عليها بالفشل (٦) ، ولم يلبث أن فك الحصار عنها عندما

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٣ « أ » ، الجندي : السالك ص ٢٣٣ ، الخزرجي : العقد الفاخر ج ٢ ص ١٦٨ د أ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٤٥ ب .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٥٢ د أ .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٨٨ ، المسجد ص ٢٤٥ ، العقد الفاخر ج ٢ ص ١٤٦ ب ، ابن الديبع : قررة العيون ص ٧١ ب .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٣ د أ ، الخزرجي : المسجد ص ٢٤٦ - ٢٤٧ ، ابن الديبع : قررة العيون ص ٧٢ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٥١ ب .

(٦) الأهدل : تحفة الزمن ص ١٤٦ ب .

أقربت قوات المظفر منها ^(١) ، وغادرها بعسكره في طريقه إلى صنعاء للانضمام إلى أخيه أسد الدين محمد والعمل سويا للسيطرة على البلاد .

وبانسحاب فخر الدين أمكن المظفر يوسف أن يدخل زيد في موكب عظيم من غير حرب ^(٢) ، وذلك في غرة ذي القعدة ٦٤٧ هـ / ^(٣) فبراير ١٢٥٠ م ، وقيل في العاشر منه ^(٤) ، فاستقبل استقبالا حافلا ومدحه الشعراء ، وأقسم أهل المدينة وعسكرها بالولاء والطاعة له ^(٥) . ثم أنعم المظفر على رؤساء القبائل الذين ساندوه ، وأجزل العطاء لهم ولمن معهم ، وسمح لهم بالعودة بعد أن استقرت له الأمور في المدينة ^(٦) وبعد أن تخلص من مخاطر فخر الدين باعتقاله ، فقد كان المظفر قد أعد العدة لاعتراض طريقه إلى صنعاء ، وفي نفس الوقت قام بعض من معه من المماليك بمراسلة المظفر للدخول في طاعته ، فأمنهم المظفر واشترط عليهم القبض على فخر الدين أولا ^(٧) ، فاعتقلوه وقيدوه وساموه لآليه

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ح ١ ص ٩٠ ، المسجد ص ٢٤٧ ، ابن الديبع : قررة العيون ص ٧٢ ، أ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٣ ب .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٥٣ ب ، الخزرجي : العقد الفاخر ح ٢ ص ١٤٦ ب ، ابن الديبع : قررة العيون ص ٧٢ .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ح ١ ص ٩٢ ، المسجد ص ٢٤٨ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٥٣ ب .

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٥٣ ب .

(٧) ابن حاتم : السمط ص ٥٣ « أ » ، الخزرجي : العقد الفاخر ح ٢

ص ١٤٦ ب .

في مستهل ذي الحجة سنة ٦٤٧ هـ / مارس ١٢٥٠ م فيحفظ عليه (١) .

وباستيلاء المظفر على زبيد أصبح مسيطرا على تهامة بأسرها (٢) ، ولم يشأ في هذه المرحلة الاصطدام بأي من القوى الأخرى المنافسة ، وفضل العمل على السيطرة على أكبر قدر ممكن من المناطق التي لم يصل إليها نفوذ منافسيه ، حتى إذا ما تحقق له ذلك ، سهل عليه بسط سلطانه على بقية المناطق المحدودة الأخرى . وقد ساعده على ذلك وصول كثير من المكاتبات من مختلف المناطق بطلب الدخول سلميا في طاعته ، ومن هذه المكاتبات رسالة من والي عدن يطلب اليه فيها سرعة الوصول لتسلم المدينة قبل أن يسبقه إليها أجوه المفضل (٣) . ولهذا توجه المظفر إلى عدن فاستقبله واليها وأهلها استقبالا حافلا ، ودخلها في موكب عظيم في صفر ٦٤٨ هـ / مايو سنة ١٢٥٠ م (٤) . وتابع المظفر تقدمه فاستولى في نفس الشهر على المناطق والحصون المحيطة بـ عدن مثل الحج وأبين (٥) وحصون يمين ومنيف والسوا بالإضافة إلى حصون المعافر جميعها بغير قتال (٦) .

ب - صراع المظفر ضد أخيه المفضل قطب الدين :

كان السلطان نور الدين عمر قد قام في أواخر عهده — وبتأثير زوجته —

(١) ابن حاتم : السمط ص ٥٢ ب .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٣ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية .

ج ١ ص ٩٤ ، المسجد ص ٢٥٠ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٥٥ ب .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٥٦ د أ ، .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٥٦ د أ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ أ .

(٦) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٩٤ ، المسجد ص ٢٥٠ .

بنّت جوزة - بتحليف العسكر لابنها المفضل قطب الدين (١) ، واقصاها .
المظفر عن ولاية العهد بتوليته على مدينة المهجم . وهكذا يصبح هرش السلطنة
حقا للمفضل بعد أبيه ، وخاصة وأن أباه لم يعهد بولاية العهد لغيره ، فكان
لذلك أسوأ الأثر في نفس المظفر الذي كان يرى أن السلطنة حق طبيعي له
بعد أبيه باعتباره أكبر أبنائه . ولهذا فكر في التوجه إلى بغداد لعرض مطالبته
على الخليفة العباسي كي يتدخل لانصافه ، ولكنه عدل عن عزمه لوفاة أبيه .
المفاجئة (٢) ، وفصل البقاء للنضال حتى لا يتيح الفرصة بسفوره لأخيه أو غيره
من الطامعين للاستيلاء على السلطنة دونه .

أما المفضل ، فكان موجودا في تعز عندما بلغه نبأ مقتل أبيه ، فبادر
بالتحصن في قلعة المدينة بأهله وأتباعه (٣) . وكانت مجموعة من المماليك قد
وافته بتهمة عزعق مقتل أبيه ، والتمسوا منه أن يؤمنهم على أنفسهم وأن

(١) كان نور الدين قد تزوج بعد استقلاله بملك اليمن بأرملة المسعود يوسف
آخر الأيوبيين في اليمن والمعروفة ببنت جوزة ابنة سيف الدين سنقر الانابك
المعروف ، فأنجبت له ولديها المفضل قطب الدين والفائز أحمد . وكانت تعمل
على توريثها دون غيرها ، وتمكنت من التأثير عليه وأقنعتة بتحليف العسكر
لابنها المفضل حتى تضمن استمرار ملك اليمن في نسلها . (ابن عبد المجيد :
بهجة الزمن ص ٥٣ « أ » ، الجندي : السلوك ص ٢٤٣ ، الخزرجي : العقد
الفاخر ص ٢١٤٦ ب ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٣ د أ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٣ « أ » ، الخزرجي : العقود اللوؤية
ص ١٨٨ - ٨٩ ، المسجد ص ٢٤٦ ، ابن الديبع : قره العيون ص ٧١ ب .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٥٠ د أ .

يدخلوا في طاعته . والظاهر أن المفضل لم يطمئن إليهم ، ولهذا رفض مطالبهم ، فتوجهوا إلى زبيد وانضموا إلى فيخر الدين الذي كان يحاصرها (١) ، فلما استولى المظفر على زبيد واعتقل فيخر الدين ، انزعج المفضل وأتباعه فترك حامية في تعز لحمايتها (٢) ولجأ إلى حصن الدمولة لمناعته (٣) ، وأقام فيه يرقب الموقف إلى أن تواتيه الفرصة للسيطرة على البلاد . إلا أن المظفر كان يسلك معه ما يعرف اليوم (بالحرب النفسية) ، فكان يعتمد لإبلاغه أولاً بأول بكل ما يستولى عليه من مدن وحصون (٤) مستهدفاً تحطيم معنوياته وتدمير آماله في اعتلاء عرش السلطنة .

ولم يكف يتحقق للمظفر السيطرة على تلك المناطق ، وترجح كفته حتى تحول للقضاء على مناعة أخيه المفضل ، وتقدم إلى مخلاف المعافر شمالاً ، وبدأ بالاستيلاء على مدينة جببا (٥) ، فكانت أول بلدة يخطب له فيها من جبال اليمن (٦) . ومن هناك واصل زحفه إلى تعز (٧) . وكان المفضل قد أعد حملة

(١) ابن حاتم : السمط ص ٥٥ دأ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٥١ دأ .

(٣) الجندى : السلوك ص ٢٤٣ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٣ « أ » .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٥٦ ب .

(٥) جببا ، مدينة من مخلاف المعافر - بين الحسج والدمولة - وتقع على خط عرض ١٣° ١٣' شمالاً ، وخط طول ٤٠° ٤٤' شرقاً تقريباً

El-Khazrefiyy op. cit., p. 78, Note 261

(٦) الجندى : السلوك ص ١٩١ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية ص ١

ص ٩٤ ، المسجد ص ٢٥٠ .

(٧) ابن حاتم : السمط ص ٥٦ ب ، الجندى : السلوك ص ٣٠٢ ،

الخزرجى : العقد الفاخر ص ٢٣ ص ٣١ « أ » ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٩٠ « أ » .

لاعتراض طريقة اليها ، ولكن المظفر تمكن من إغراء أتباع أخيه ، ونجح في ضم مجموعة كبيرة منهم اليه ، وتفرق الباقون . وهكذا تمكن المظفر من الوصول إلى تعز وقام بمحاصرتها في ربيع الأول ٦٤٨ هـ / (١) يونيه ١٢٥٠ م . وانتهى الأمر بالاستيلاء عليها بخديعة في جمادى الأولى (أغسطس) من نفس العام ، بعد أن أمن واليها علم الدين سنجر الشعبي ومن معه (٢) . واتخذ المظفر من تعز مقرا بدلا من زبيد (٣) ، ليتمكن منها من استكمال السيطرة على ما يجاورها من المدن والحصون ، واستطاع في شهر رجب سنة ٦٤٨ / أكتوبر ١٢٥٠ م الاستيلاء على حصن حب (٤) وخدد بغير قتال (٥) .

وعلى الرغم من مناعة وقوة تحصينات حصن الدملوة الذي تحصن فيه المفضل بآله وأتباعه ، فقد حاصره المظفر في سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م . ولما كان من الصعب الاستيلاء عليه عنوة فقد بعث رسالة إلى أهل الحصن رغبتهم

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ دأ ، الخزر جى : العقود للأوثوية ح ١ ص ٩٤ ، العسجد ص ٢٥٠ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٥٧ دأ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ «أ» ، الخزر جى : العقود للأوثوية ص ٩٥ ، العسجد ص ٢٥١ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٥٧ ب .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ دأ ، الخزر جى : العقود للأوثوية ح ١ ص ٩٥ ، العسجد ص ٢٥١ ، ابن الديبع : قرّة العيون ص ٧٣ دأ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٥٧ ب .

فيها بالدخول في طاعته ، وتوعدهم إذا ما استمروا في ولائهم للمفضل (١) وأثبت هذا الأسلوب القائم على الترغيب والترهيب فعالية ، إذ استجاب له البعض وبعثوا إليه برسائلهم يؤكّدون فيها ولاءهم وطاعتهم له (٢) . واضطر المفضل بسبب ما عاناه من شدة الحصار ، وميل الكثيرين ممن معه إلى المظفر ، أن أخذ بمشورة والدته في فتح باب المفاوضة مع أخيه ، وتوات عنه والدته مهمة المفاوضة مع المظفر . وضمانا لعدم المساس بها ، أرسل المظفر بعض الرهائن للاحتفاظ بهم في الحصن حين عودتها . وكان من الطبيعي أن يوافق المظفر على الصلح (٣) ، ويستجيب لطلب زوج أبيه بجمع — أبن — إقطاعا للمفضل ، وموزع (٤) وحيس إقطاعين لأخيه الفائز أحمد (٥) . ويمكننا اعتبار هذا الاتفاق بمثابة هدنة بين الطرفين . وأيا ما كان الأمر ، فقد أقسم المظفر على عدم التعرض لأخويه بسوء ، وكدليل على حسن نيته أرسل ابنه وابنته وبرفقتها العواشي بأقوت رهائن بحصن الدملوة (٦) ، وعندئذ نزل المفضل

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦٠ ب .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٦١ دأ .

(٣) الخزرجي : العقود الأثرية ج ١ ص ١٠٠ ، المسجد ص ٢٥٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٣ ب .

(٤) موزع ، مدينة في تهامة على بعد ١٤ أو ١٥ ميلا من البحر إلى الشرق من ميناء الحما ، وتقع على خط عرض ٢٠° ١٣' شمالا وخط طول ٣٢° ٣٣' شرقا
El-Khazrefiyy : op. cit. p. 174. Note 952.

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ دأ .

(٦) الخزرجي : العقود الأثرية ج ١ ص ١٠١ ، المسجد ص ٢٥٦ .

والفائز من الحصن فاستقبلها المظفر وأكرمها وأقطعها ماتم الاتفاق عليه (١) ،
وتوجه المفضل إلى أبيه ولكنه لم يستطع البقاء فيها وقرر العودة إلى حصنه (٢) .

وكان المظفر يستهدف من إرسال الرهائن، أن يتمكنوا من تنفيذ ما خطه لهم بالاستيلاء على الحصن سلباً عن طريق استمالة المرتبين فيه (٣) . فلما تم لهم ذلك ، استغلوا فرصة نزول أم المفضل وولديها من الحصن (٤) ، وأوقدوا النار في قمته ، وهي إشارة اتفق معهم على القيام بها عند نجاح مهمتهم في السيطرة عليه (٥) . أما المفضل فلأنه عندما أيقن بضياع الحصن ، توجه إلى المظفر وطلب منه السماح له بالعودة إليه (٦) ، ولكنه لم يستجب لرجائه ، واستولى عليه في ذي القعدة سنة ٦٥٠ هـ / (٧) يناير سنة ١٢٥٣ م . وفرض

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦١ «أ» .

(٢) ابن حاتم : السمط ٦١ ب .

(٣) الجندي : السلوك ص ٢٤٣ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٣ دأ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٦١ ب .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية

ص ١ ص ١٠١ ، المسجد ص ٢٥٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٤ دأ .

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٦٢ دأ ، الجندي : السلوك ص ٢٤٣ ،

الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٣ دأ .

(٧) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ دأ ، الخزرجي : العقود

اللؤلؤية ص ١ ص ١٠٢ ، المسجد ص ٢٥٧ .

على المفضل وأخيه ووالدتها الإقامة في ذي هريم^(١) ، ثم أسكنهم مدينة حليس^(٢) .

٢ - موقف المظفر من الزيدية :-

أ - تدخل الزيدية في الصراع القائم بين بنى رسول :-

أثبت المظفر مقدرته فائقة في الاستيلاء على عرش السلطنة ، فعلى الرغم من تعدد التيارات المعارضة له ، فإنه أتقن التخطيط وأحسن التنفيذ وأحكمه ، ووفق في التخلص من جبهتين من جبهات المعارضة الأربعة ، وبقيت أمامه جبهتان يمثل إحداها ابن عمه أسد الدين محمد بن الحسن بن علي بن رسول ، ويمثل الأخرى القوى الزيدية بزعامه الامام أحمد بن الحسين .

أما أسد الدين محمد فكان دائم الخروج من طاعة عمه السلطان نور الدين^(٣) ، وقد اتهم بتدبير قتله بالاشتراك مع أخيه فخر الدين طمعا في الاستيلاء على البلاد^(٤) ، كما استقل بولاية صنعاء ، بينما استهدف أخوه فخر الدين الاستيلاء على زبيد واتخاذها قاعدة لاستكمال السيطرة على بقية البلاد . إلا أن إخفاقه في ذلك وما أعقبه من اعتقاله أضعف مركز أسد الدين في صنعاء ، لاسيما بعد أن تمكن المظفر من إحكام سيطرته على كثير من المناطق . وهكذا أصبح

(١) ذو هريم ، أحد أحياء تعز (ابن حاتم : السمط ص ٦٢ ، د١٠٠٠)

(٢) الجندي : السلوك ص ٢٤٣ ، الاهدل : تحفة الزمن ص ١٥٣ د١٠٠٠

(٣) انظر ما سبق ص ١٠٩ وما بعدها .

(٤) الخورجى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٨٢ ، المسجد ص ٢٤١ ، ابن

الديبع : قرة العيون ص ٧٠ د١٠٠٠

أسد الدين في موقف لا يحسد عليه، إذ كان المظفر يهدده من الجنوب والقوى
الزيدية من الشمال .

ومن الجدير بالملاحظة أن القوى الزيدية كانت قد أبدت تأييدها للدولة
الرسولية بادیء ذي بدء ، وكان لتعاونهم مع مؤسسها أعظم الأثر في إقامته
على الاستقلال بملك اليمن وسلطتها عن الدولة الأيوبية . وظلوا على ولائهم
لنور الدين متمسكين بهم له . ولم تلبث الأوضاع أن تغيرت في أواخر
عمره ، بعد أن أجمع الزيدية على إمامة أحمد بن الحسين وانضمت إليه القبائل
وقوى أمره وأصبح يشكل خطراً على دولة بني رسول . وقد اغتحم الإمام
فرصة الخلاف القائم بين السلطان نور الدين وابن أخيه أسد الدين واليه على
صنعاء ، فشن عدداً من الهجمات وهدد صنعاء نفسها عدة مرات ، واستولى على
عدد من المواقع التابعة لنور الدين شمالها ، وأخفقت محاولات نور الدين في
القضاء عليه أو التخلص من أخطاره (١) .

وعلى الرغم من الأخطار الكبيرة التي كانت تهدد دولة بني رسول في عهد
المظفر يوسف من جانب الزيدية في الشمال ، إلا أنه لم يكن في استطاعته تجاهل
خطر ابن عمه أسد الدين ، ولهذا رأى المظفر أن يواجه الخطرين معاً ، سيما
وأن الإمام الزيدى كان يهدد أسد الدين في نفس الوقت . وكان الإمام أحمد
بن الحسين قد ازداد أملاً في الاستيلاء على اليمن بعد مقتل نور الدين ، وأعد
للأمر عدته ، فلما تجمع لديه الكثير من القبائل زحف بهم إلى صنعاء ، وأرغم

(١) الخزر جى : المقود الأولى ج ١ ص ٧٥ وما بعدها ، المسجد ص

٢٣٧ وما بعده ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٩ ، وما بعده

والإمام أسد الدين علي مغادرتها في جمادى الأولى ٦٤٨هـ / (١) أغسطس ١٢٥٠م،
والالتجاء إلى حصن براش القريب منها للاحتباء به (٢)، فاستولى الإمام عليها
بغير حرب (٣). وتابع حملاته جنوباً واستولى على مدينة ذمار وما جاورها (٤)،
ثم عاد لمحصنة أسد الدين في حصن براش، واستمر محاصراً له ما يقرب من
عام (٥).

وقد هب الصراع بين أسد الدين والإمام للمظفر المجال لتوسيع رقعة
نفوذه، كما أتاح له الفرصة لاقرار الأمور في المناطق الخاضعة له. ومن الواضح
أنه على الرغم من ضخامة حشود الإمام العسكرية، إلا أنه لم يغامر بالتقدم
جنوب ذمار حتى لا يترك لأسد الدين الفرصة لاستعادة صنعاء أو قطع طريق
العودة عليه إليها.

وكنتيجة لاستمرار الحصار على أسد الدين في حصن براش، فقد
استقر رأيه على الدخول في مفاوضات للصلح مع الإمام، ليتخلص من هذا
الحصار ويتفرغ لمواجهة السلطان المظفر، ولهذا قام بإرساله شمس الدين أحمد
ابن الإمام عبدالله بن حمزة ليقوم بدور الوسيط في الصلح بينه وبين الإمام (٦).

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ج١ ص ٩٥، المسجد ص ٢٥١.

(٢) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٥٤ دأ.

(٣) ابن حاتم: السمط ص ٤٩ ب، الخزرجي: العقود اللؤلؤية ج١ ص ٩٥.

(٤) الخزرجي: المسجد ص ٢٥١.

(٥) ابن حاتم: السمط ص ٥٧ ب، الخزرجي: العقود اللؤلؤية ج١

ص ٩٦، المسجد ص ٢٥١.

(٦) الخزرجي: المسجد ص ٢٥٢، ابن الديبع: قرة العيون ص ٢٣ دأ.

تم الصلح استقبل السلطان ابن عمه استقبالا حسنا واجتنب به واكرمه وخرج له من الإنعام العظيم ما هاله واستغرق أهله ، وكثير تعجبه منه حتى قال : ليت شعري ، هل أبقي مولانا السلطان في خزائنه شيئا ؟ (١) .

وكان المظفر تدياسيا بارعا ، فعلى الرغم من تشككه في نوايا أسد الدين فإنه حرص على استخدامه لمصلحته ، وشغله في دوامه الصراع ضد الامام . ليتفرغ لأحكام سيطرته على البلاد من جهة ، وبقيصيه عن دائرة التنازع معه من جهة ثانية . ولهذا جهزه في حملة لاسترداد صنعاء ، وفشلت قوات الامام في اعتراض تقدمه إليها واضطر الامام إلى الانسحاب منها فدخلها أسد الدين واستعاد سيطرته عليها (٢) . وتعضيداً له توجه المظفر في أثره إلى صنعاء فوصلها في ذى الحجة سنة ٨٦٤هـ / (٢) فبراير - مارس سنة ١٢٥١م ، ثم غادرها في المحرم سنة ٨٦٤هـ / مارس ١٢٥١م في طريق عودته إلى تعز ، حيث تمكن أثناءها من الاستيلاء على حصن التعكر (٤) . في حين واصل أسد الدين حملاته ضد الامام .

وكان في الامكان أن يستمر ولاء أسد الدين للمظفر لولا ما استجد من أحداث أدت إلى عودته إلى العصيان ولما يمضى شهر واحد منذ دخل في طاعته .

(١) ابن حاتم : السمط ص ٥٨ دأ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٥٨ دأ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١

ص ٩٧ ، المسجد ص ٢٥٣ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ دأ .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٤ دأ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية

ج ١ ص ٩٧ ، المسجد ص ٢٥٣ .

وتفصيل القضية أن إخوة نور الدين الثلاثة الذين كان المفرد يوسف -
 الآخر الأيوبيين في اليمن - قد اعتقلهم وأرسلهم إلى مصر ، في منهم اثنين على
 قيد الحياة وهما بدر الدين الحسن بن علي بن رسول - والد أسد الدين -
 وأخوه فخر الدين أبو بكر ، ويبدو أنه قد تم الإفراج عنهما ، أو أنهما
 تمكنوا من الإفلات من معتقلهما بعد سقوط الدولة الأيوبية في مصر ، وتوجهها
 بحجة ركب الحاج المصري إلى مكة ، ومنها رحلا إلى اليمن فوصلها في
 آخر المحرم سنة ٥٩٤٩هـ / (١) أبريل ١٢٥١م .

وانفق وصولهما في فترة حرجة بالنسبة للمظفر الذي كان لا يزال يعمل
 على تثبيت أركان دولته ، وكان مجرد وجودهما في هذه الفترة الحاسمة يعني
 فتح باب جديد للصراعات التي كان المظفر في غنى عنها . فلم يكن من السهل
 أن يسلموا بزعامته ، إذ يحذوها الأمل في أن تؤول السلطنة إلى أحدهما ،
 وهكذا كان المظفر على يقين من أنهما لن يمكناه من تصريف الأمور منفردا ،
 لأن لم ينازعه كل منهما السلطنة ، فقد كان لكل منها دوره الهام في تاريخ اليمن
 قبل أن تنمو بعد شخصية أخيهما الأصغر نور الدين - والد المظفر - الذي
 قد يعزى إليه التحريض على اعتقالهما ، حتى لا ينازعه السلطنة . كل ذلك
 كان يشكل تهديدا خطيرا لعرش المظفر الذي صرف قسما كبيرا من طاقته في
 سبيل إفراده .

ويذكر العيني ، أن أبناء رسول أطلقوا من معتقلهم في مصر ، وأرسلوا

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص : ٥ د ، الخزرجي : العقود ج ١

لإلى اليمن لعزل سلطانها الرسول ، والقيام بحكم البلاد نوابا لسلطان مصر^(١) .
 وليس هناك ما يؤيد ذلك لأن وصول عمي المظفر كان من غير قوات لمساندتهم^(٢) .
 في القيام بهذا العمل . كما أن وصولهما اقترن بفترة حاسمة في تاريخ مصر
 تقع ما بين سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك ، وليس من شك في أن
 اليمن لم تكن واردة في حساب المماليك الذين شغلهم الأخطار الخارجية
 وقتئذ عن مجرد التفكير في شؤون اليمن . ثم أن العيني صاحب هذه الرواية
 قد انفرد بذكرها ، ولم يشر إلى المصدر الذي استقاها منه ، مما يجعل روايته
 موضع شك .

وأيا ما كان الأمر ، فقد كتم المظفر ما بنفسه من مشاعر الضيق والحنق
 على عميه ، وأمر نوابه بحسن تلقيهما عند مشارف اليمن^(٣) ، والسير في
 خدمتهما . أما هو فتوجه إلى مدينة حمص لاستقبالهما^(٤) ، وما أن وصل ركبهما
 حتى عجل بالقبض عليهما وأرسلهما معتقلين إلى تهر^(٥) حيث كان نخر الدين
 أبو بكر بن الحسن بن علي بن رسول حبيسا هناك^(٦) .

أنار هذا الإجراء الوقائي نائرة أسد الدين على المظفر ، ولهذا عزم على

(١) عقد الجمان مجلد ٥٣ لوحة ٣٢٩ .

(٢) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٩٧ ، المسجد ص ٢٥٣ ، ابن الديبع :
 قرة العيون ص ٧٣ ب .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٥٤ ، زبارة : أئمة اليمن ص ١٦٢ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٥٩ ب ، الخزرجي : العقود ج ١ ص ٩٨ .

(٥) الخزرجي : المسجد ص ٢٥٤ .

تجهيز حملة لتخليص أبيه وعمه فخر الدين ، ولكن المظفر كان قد اتخذ من وسائل الحيلة ما أرغم أسد الدين على العودة إلى صنعاء ^(١) . وعندئذ لم يبق أمامه بعد خروجه عن طاعة المظفر سوى العمل على مصالحة الإمام أحمد بن الحسين ، ونجح في التوصل إلى ذلك في سنة ٦٥٠ هـ ^(٢) / ١٢٥٢ م ، وكان من شروط هذا الصلح استيلاء الإمام على حصن براش مقابل مائة ألف دينار ^(٣) ، وعلى هذا النحو نشطت قوات الامام وأسد الدين في الإغارة على المدن والمعاقل التابعة للمظفر ^(٤) ، ولكن هذا النشاط لم يجد نقعا أمام استبسال قوات المظفر في القتال وصمودها الرائع ^(٥) .

ورأى المظفر أن يهادن الامام الزيدى مؤقتا حتى يتهيأ له المجال للتخاص من أسد الدين ، واستجاب الإمام للصلح على أن تكون له البلاد العليا ^(٦) .

(١) ابن حاتم : السمط ص ٥٩ ب .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ د أ ، الخزرجي : العقود ج ١ ص ١٠٠ ، المسجد ص ٢٠٦ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٦٢ د أ . (وذكر ابن عبد المجيد ومن نقل عنه أنه اشتراه بمائتي ألف درهم) بهجة الزمن ص ٥٤ د أ ، الخزرجي : العقود اللؤاوية ج ١ ص ١٠٠ ، المسجد ص ٢٥٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٤ د أ .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ د أ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٦٢ ب .

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٥٩ ب . Kay : Yaman, p. 230.

من إلى الشمال من صنعاء - فكان لذلك أثره في التضييق على أسد الدين . وفي نفس الوقت كانت العلاقات قد تدهورت بين أسد الدين والإمام ، لعدم وفاء الإمام بمعلم القيمة التي اشترى بها الحصن براش (١) . وهكذا لم يعد أسد الدين يأمن على نفسه من المظفر ومن الإمام معا ، ولذلك انسحب إلى منطقة شرق اليمن (٢) ، وبدأ أتباعه يتخللون عنه نتيجة اجتذاب المظفر لهم وأغرائهم بالأموال . فلما تفرقت جموعه وألقى نفسه وحيدا لا قوة له ، لجأ إلى علوان الجعدي . ولما كان علوان هذا يرتبط مع المظفر بروابط ودية ، فقد سعى إلى التوسط بين أسد الدين والمظفر ؛ ونجح في مسعاه وعفا المظفر عنه وأمنه (٣) ، ثم جهزه مرة أخرى إلى صنعاء - وكان الإمام قد انتزعها منه - فدخلها أسد الدين بدون مقاومة . وفي نفس الوقت خرج المظفر إلى صنعاء في شهر رجب سنة ٦٥١ هـ / (٤) سبتمبر ١٢٥٣ م . ومن هناك شن عدة حملات ضد الإمام وأتباعه ، ثم عاد بعدها إلى تعز (٥) حيث استولى في طريقه على حصن

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦٢ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٠٤ ، المسجد ص ٢٥٧ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٥٩ ب ، الخزرجي : المسجد ص ٢٥٨ ، العقد الناصر ٢ ص ٣١ و ٣٢ ، زيارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٦٣ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٦٠ د أ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٠٤ ، المسجد ص ٢٥٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٤ ب .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٠٦ ، المسجد ص ٢٥٩ .

(٥) ابن عبد الجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ ب .

أخروان (١) من حصون منطقة دمار (٢) .

ب - مصرع الامام الزيدى وآثره في تطوّر الأحداث :

لم يلبث الخلاف أن دب بين الامام الزيدى أحمد بن الحسين والأشراف من بني حمزة ، واشتد النزاع بينهما إلى حد أن بنى حمزة لجأوا إلى السلطان المظفر واستنصروه على الامام . وعلى هذا النحو رجحت كفة المظفر بانضمام أشراف بني حمزة إليه واستنصارهم به . ولم يتردد المظفر في اغتنام هذه الفرصة لمساعدة المعاونة لهم والعمل على سحق قوى الامام ، فأمدّم بأسد الدين من صنعاء (٣) في شهر ذى الحجة سنة ٦٥١ هـ (٤) / يناير سنة ١٢٥٤ م ، ووزعوا جميعا إلى صعدة لمحاربة الامام ، وأحكوا الحصار عليها حتى سقطت في أيديهم بعد شهر (٥) ، ورتب أسد الدين فيها حامية وعاد إلى صنعاء (٦) في

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦٣ د أ ، ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية

ص ١٠٦ ، ١٠٦ . المسجد ص ٢٥٩ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٦٣

(٢) الخزرجي : العقد الفأخر ص ٢ د أ ، .

(٣) ابن عبد الحميد : بهجة الزمن ص ٥٤ ب ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٦٤

Kay : op. cit. p. 231.

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٦٣ د أ ، ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ص

ص ١٠٦ ، المسجد ص ٢٦٠ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٦٣ ب ، ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ص

ص ١١١ .

(٦) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ص ١١٢ ، المسجد ص ٢٦٠ .

الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٦٥٢ هـ (١) / ٢ مايو سنة ١٢٥٤ م . وهكذا تمكن المظفر بمساعدة القوى المناهضة للإمام من بسط نفوذه على قسم كبير من المناطق الشمالية التي كانت تابعة له ، وشجعه ذلك على متابعة الحملات لنقويض أركان الإمامة .

وفي نطاق هذا الهدف أرسل المظفر إلى أسد الدين خزانة مالية في شعبان سنة ٦٥٢ هـ / سبتمبر ١٢٥٤ م للاتفاق منها على حملة ثانية كان قد أمره بالقيام بها بالاشتراك مع بني حمزة ضد الإمام ، وتخريب عدد من المواقع الموالية له (٢) وعلى الرغم من استعداد الإمام للتصدي لهذه الحملة إلا أن قواته لم تستطع الصمود ، ومنيت بهزيمة نكراء في رمضان سنة ٦٥٢ هـ / أكتوبر سنة ١٢٥٤ م (٣) . وقتل عدد كبير من أتباعه على رأسهم الفقيه الزيدي الشهير حميد بن أحمد (٤) . أما الإمام فقد نجح بمعجوبة بالفرار إلى أحد

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١١٤ ، المسجد ص ٢٦٢-٢٦٣ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٥ د أ .

(٣) الجندي : السلوك ص ٣٦٣ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ٢٣٠ ب .

(٤) كان حميد بن أحمد المحلي من كبار علماء الزيدية وفضلائها ، وله تصانيف الجامعة والرسائل المفردة إلى الملوك والعلماء ما ليس لغيره (بهجة الزمن ص ٥٥ د أ ، العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١١٥ ، المسجد ص ٢٦٣ ، قرة العيون ص ٧٥ ب ، أئمة اليمن ج ١ ص ١٦٦) ومن كتبه الشهيرة كتاب « الحدايق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية » في جزئين ، ضمنه أخبار ومناقب الإمام علي ابن أبي طالب وذريته وتراجم أئمة الزيدية منذ قيام إمامتهم إلى الإمام عبد الله ابن حمزة المتوفي سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م . وقد لقب حميد « بالشهيد » بعد مقتله في تلك الواقعة .

الحصون (١).

تقدم بنو حمزة - بعد مؤازرتهم لأسد الدين - إلى زبيد، فاستقبلهم المظفر وأكرم وقادتهم (٢) وأنعم عليهم بالهدايا والكسوات والخلع والخيل، وبلغ مقدار ما أنفقته فيهم مائتي ألف دينار (٣)، فكان ذلك دافعاً على الاستمرار في موالاته، ومشجعاً لهم على التعاون معه ضد الإمام (٤). كما كان لسياسة المظفر القائمة على الترغيب والترهيب أثرها في اجتذاب مزيد من العناصر الزيدية وحملها على الخروج عن طاعة الإمام، فقد اجتمع كثير من علماء الزيدية وطعنوا في أحقيته في الإمامة، وعابوا عليه وأنكروا كثيراً من تصرفاته (٥)، وأفتوا ببطان إمامته (٦).

(١) ابن حاتم: السمط ٦٤ دأ، الخزرجي: المسجد ص ٢٦٣، ابن الديبع: قرة العيون ص ٧٥ ب.

(٢) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٥٥ دأ، الخزرجي: العقود اللؤلؤية ١٠٠ ص ١١٥ - ١١٦، زبارة: أئمة اليمن ح ١ ص ١٦٧.

(٣) ابن حاتم: السمط ص ٦٥ ب.

(٤) ابن حاتم: السمط ص ٦٤ ب، الخزرجي: العقود اللؤلؤية ح ١ ص ١١٨، المسجد ص ٢٦٦.

(٥) الجندى: السلوك ص ٣٦٤، الأهدل: تحفة الزمن ص ٢٣١ دأ.

(٦) Kay: Yaman, p. 321.

(٦) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٥٥ دأ، الخزرجي: العقود اللؤلؤية ١٠٠ ص ١٢٢ ب، ابن الديبع: قرة العيون ص ٧٩ أ، أئمة اليمن ح ١ ص ١٦٧.

قام الإمام بمحاولة لحسم النزاع القائم بينه وبين علماء الزيدية ، وأرسل إليهم أحد كبار أتباعه - هو الشريف الزيدى ، الحسن بن وهاس - للاستماع لهم ومحااجبتهم والعمل على إقناعهم بالعودة إلى طاعة الإمام ، إلا أنهم تمكنوا من استمالته إليهم ^(١) . وأرسلوا يتحدون الإمام لينظرهم ويدافع عن نفسه ولكنه رفض ، فأفتوا بخلعهم لعدم صلاحيته للإمامة لأمر تحقوها عنه ، وكتبوا بذلك إلى جموع الزيدية في كافة أنحاء اليمن ^(٢) . وبايعوا الحسن بن وهاس إماماً للزيدية من بعده في رمضان سنة ٦٥٥ هـ / ^(٣) سبتمبر ١٢٥٧ م فكان لهذه التطورات أعظم الأثر في الإطاحة بمركز الإمام وزعزعة ثقة من تبقى من أتباعه . وهكذا أصبح في اليمن إمامين في وقت واحد ^(٤) - وهو ما يعرف بتعارض الأئمة - واقتضى الأمر انفراد أحدهما بالإمامة سلماً أو حرباً .

انتهز بنو حمزة فرصة الانشقاق الثاني في صفوف الزيدية ، وعملوا على

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٥ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ص ١ ص ١٢٣ ، ابن الديبع : قررة العيون ص ٧٦ د أ ، زيارة أئمة اليمن ص ١ ص ١٧٢ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٦٦ ب (وقيل أن امامته كانت في صفر ٦٥٦ هـ / فبراير سنة ١٢٥٨ م بعد مقتل الإمام أحمد بن الحسين بثلاثة أيام) زيارة : أئمة اليمن ص ١ ص ١٧٦ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٦٦ ب .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٦٦ ب .

تفسيق الجهود معهم لمحاربة الإمام^(١) وأمدم السلطان المظفر بمائة ألف درهم^(٢)، وتم اللقاء بينهم وبين الإمام في وادي شوابة^(٣) فتمكنت جموعهم من هزيمة الإمام والاحاطة به وقتله^(٤) في صفر ٦٥٦ هـ / (٥) فبراير ١٢٥٨ م، والتمثيل به والطواف برأسه^(٦). فلما وصل خبر مصرعه إلى المظفر سعد به كثيرا^(٧)، إذ تخلص من منافس خطير كان بإمكانه الإطاحة بدولته.

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٥ ب ، زبارة : أئمة اليمن ص ١٧٢ .
(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجي : نفس المصدر والصفحة .

(٣) شوابة ، من بلاد الجوف شرق اليمن (الجرافي : المقتطف ص ١٢٢) .
وقد وردت في العقود اللؤلؤية باسم «سواد» (ح ١ ص ١٢٤) أما الترجمة الانجليزية للعقود، فقد أوردتها Sir James Redhouse باسم «سوانه» (انظر ،
The pearl - Strings, vol. III, 1, p 149, vol. III, 3, p. 91.

(Note, 550) وصحتها «شوابة» (الخزرجي : المسجد ص ٢٦٧ ، ابن
الديبع : قرة العيون ص ٧٦ ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٤٤٤ ،
Kay : Yaman, p. 321 .

(٤) الجندي : السلوك ص ٢٦٤ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ٢٣١ ب .
الجرافي : المقتطف ص ١٢٢ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٦٦ ب ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٥ ب .
الخزرجي : العقود اللؤلؤية ح ١ ص ١٢٥ ، المسجد ص ٢٦٨ .

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٦٧ دأ ، زبارة : أئمة اليمن ح ١ ص ١٧٣ .
Kay : op - cit. p. 231 .

(٧) ابن حاتم : السمط ص ٦٧ ب ، ٦٨ دأ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية
ح ١ ص ١٢٥ ، المسجد ص ٢٦٩ .

أدرك أسد الدين محمد أن تخلص المظفر من الإمام أحمد بن الحسين ، ومصالحته للقوى الزيدية من شأنه أن يضعه في مأزق حرج وخطير ، فإنه كثيرا ما كان يستنصر بالزيدية في الأوقات التي تسوء فيها علاقاته مع السلطان . ثم أن المظفر كان قد خصص له قدرا سنويا من المال يصل إلى ستين ألف دينار . الاتفاق منها على حملاته ضد الزيدية . فلما تخلص المظفر من الإمام واصطنع الزيدية ، أقدم على تخفيض الخصاصات المذكورة إلى عشرين ألف دينار ، فكان ذلك من عوامل سيخته على المظفر ، ولهذا لم يتردد في شق عصا الطاعة من جديد . وبدأ في تثبيت سلطانه على منطقة صنعاء وأعمالها وتولية الخلفين له من أتباعه على المناطق الخاضعة لسيطرته ، كما بادر بالإغارة على الحصون المجاورة له والتابعة للسلطان (١) .

أما المظفر فقد عمد إلى سياسة المناصحة ، وأرسل إلى أسد الدين يعاتبه على هذا المسلك ويرغبه في مواصلة بذل الطاعة له . فلما أخفقت هذه الجهود خرج المظفر على رأس حملة كبيرة سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م مستهدفا القضاء على حركة أسد الدين (٢) . ومما يذكر أنه قام قبل الشروع في تنفيذ خطته بالكتابة إلى زعماء الزيدية لتأكيد الصلح معهم وضمان عدم تدخلهم في الصراع المقبل بينه وبين أسد الدين ، مما فوت على الأخير فرصة الاستعانة بهم ، ونجحت حملة المظفر على نحو تجاوز كل تقدير في الحسبان ، ودخلت قواته صنعاء في

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦٨ ب :

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٦٩ (أ) .

أول المحرم سنة ٦٥٨ هـ (١) / ١٨ ديسمبر سنة ١٢٥٩ م .

والظاهر أن المظفر قد تمكن من تسوية الأمور بينه وبين أسد الدين في أعقاب ذلك ، فقد ذكر المؤرخ المعاصر بدر الدين محمد بن حاتم أن أسد الدين لم يلبث أن طلب من المظفر تجهيزه في حملة للاستيلاء على حضرموت (٢) . ومن المعتقد أن أسد الدين إنما لجأ إلى ذلك خديعة للسلطان حتى يتهيأ له المجال للاعداد لجولة أخرى ضده ، ويستدل على ذلك من أنه عندما استجاب السلطان لطلبه بادر بالزحف إلى منطقة الجوف - إلى الشمال الشرقي من اليمن - بحجة دخول حضرموت من شمالها . ولكنه ما كاد يصل إلى الجوف حتى بدأ في تحريك بعض القبائل وتحريضها على الانضمام إليه ونبد الطاعة للمظفر ، ولكن هذه القبائل لم تستجب له وتآصرت على قتله (٣) ؛ فلم يجد مفرأ سوى الانضمام إلى بني حمزة الزيدية مستغلا في ذلك خلافهم آنذاك مع الحسن بن وهاس الإمام الجديد الذي كان قد أعد العدة لمحاربتهم ، وأسفرت الموقعة عن هزيمة الإمام ووقوعه أسيراً في يد أسد الدين (٤) .

(١) ابن حاتم: نفس المصدر والصفحة ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية

ص ١٣٠ .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن حاتم : السمت ص ٦٩ ب .

(٤) ظل الامام الحسن بن وهاس عند بني حمزة أسيراً مدة عشر سنوات

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٦ د أ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية

ص ١٣٠ ، المسجد ص ٢٧٢ ، الجرافي : المقتطف ص ١٢٢) وخلع

نفسه من الإمامه سنة ٦٦٨ هـ (زيارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٢٦) .

أما السلطان المظفر فقد اعتبر قبول بني حمزة لأسد الدين تحدياً له ونقضاً للصالح معه ، ولهذا قرر قتالهم ، فخرج على رأس حملة لمحاربتهم ، ولكن الشريف داود بن عبد الله - كبير آل حمزة - أسرع بثغاء السلطان والاعتذار له ، وتعمد بعدم السماح لأسد الدين بالمقام بينهم ، فقبل السلطان اعتذاره وتعمده (١) ، وتوجه إلى صنعاء لإقرار الأمور فيها ، فوصلها في ربيع الأول سنة ٦٥٨ هـ / فبراير سنة ١٢٦٠ م ، وولى عليها شمس الدين علي بن يحيى (٢) ورتب معه حامية (٣) ، وقفل مائداً إلى تعز (٤) .

وعلى الرغم من تخرج موقف أسد الدين - بعد تخلى بني حمزة عنه ، وأصبح مطارداً من السلطان لتكرار خروجه عن طاعته ، ومن بني وهاس لأقدامه على أمير الإمام الحسين بن وهاس - إلا أنه استغل فرصة رحيل المظفر من صنعاء وقام بمهاجمتها محاولاً الاستيلاء عليها (٥) ، ولكن حاميتها تصدت له وطاردته (٦) . وفي نفس الوقت أعد السلطان حملة بقيادة الأمير علم الدين سنجر الشبلي .

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦٩ ب .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٣١ ، المسجد ص ٢٧٢ .

ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٧ د أ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٦٩ ب .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٦ ب .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٦ ب ، الخزرجي : العقود

اللؤلؤية ج ١ ص ١٣١ .

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٧٠ أ .

لمطاردته (١) ، فالتجأ أسد الدين إلى بني حاتم في حصن ذمرمر ، ولكنهم لم يسمحوا له - رغم محاولاته المتكررة - بدخول الحصن ، تأكيداً لطاعتهم للسلطان (٢) ، فانفض أتباعه من حوله وتدهورت أحواله (٣) ، « حتى باع ثيابه » (٤) .

ولما ساءت حالة أسد الدين إلى هذا الحد ، طلب من بني حاتم التوسط بينه وبين السلطان ، كما أنه لم يتردد من جانبه في الكتابة للسلطان والتماس العفو والأمان (٥) ، فتظاهر السلطان المظفر في بادئ الأمر بعدم الاستجابة (٦) ، في الوقت الذي كان يترقق فيه للتخلص منه ، ولذلك لم يلبث أن وافق على عودته . فلما وصله بصحبة شمس الدين علي بن يحيى وإلى صنعاء قبض عليهم في شوال ٦٥٨ هـ (٧) / سبتمبر سنة ١٢٦٠ م ، وأمر باعتقالها في سجن تعز ،

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٦ ب ، الخزرجي : المسجد ص ٢٧٢ ، زيارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٧٩ .

(٢) ابن حاتم السمط ص ٧٠ د أ .

(٣) الجنسدي : السلوك ص ١٧٧ ، الخزرجي : العقد الفاخر ص ٢٥ ص ٥٧ « أ » .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٦ ب ، زيارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٧٩ .

(٥) الخزرجي : العقود اللاؤوية ج ١ ص ١٣١ المسجد ص ٢٧٢ .

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٧٥ « أ » .

(٧) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٦ ب . (كان شمس الدين علي

وبهذا أصبح أسد الدين سجيناً مع أخيه وأبيه وعمه (١). وهكذا تخلص السلطان المظفر نهائياً من أعظم المشاكل التي واجهته ، وتمثل في منافسة أفراد أسرته له ، وهي منافسة استمرت قرابة ثلاثة عشر عاماً حمل أسد الدين لواءها منذ أواخر ٦٢٥ هـ / ١٢٤٨ م إلى أن تم القبض عليه وسجنه في سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م .

ج - استمرار الخلافات بين الزيدية :

استقرت الأحوال الداخلية في اليمن بعد استشهاد الإمام أحمد بن الحسين سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، ووقوع خلفه الحسن بن وهاس سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م في قبضة بني حمزة ، ودخول الزيدية في طاعة المظفر بزعامه بني حمزة ، كما كان للقضاء على المنافسات الأسرية في بيت بني رسول أثره في تدعيم الاستقرار الداخلي في البلاد . وكان المظفر قد ولي الطواشي نظام الدين مختص على صنعاء (٢) خلفاً لواليتها المعتقل شمس الدين علي بن يحيى ، ثم أسند ولايتها لعلم الدين سنجر الشنقي في رمضان سنة ٦٥٩ هـ (٣) / أغسطس ١٢٦١ م . واطمأن

= ابن يحيى ميلاً لأسد الدين ، وكان من أكبر مشجعيه علي العصيان (الخزرجي : العقود الأولى ج ١ ص ١٣٢ ، المسجد ص ٢٧٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ٧٧ ، أ ،) (وكان المظفر يتظاهر بعدم معرفة شيء عن تصرفاته) الجندي : السلوك ص ١٧٧ ، الخزرجي : العقد الأخير ج ٢ ص ٥٧ ب .

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٦ ب .

(٢) الخزرجي : العقود الأولى ج ١ ص ١٣٢ ، المسجد ص ٢٧٥ .

(٣) الخزرجي : العقود الأولى ج ١ ص ١٣٣ زيارة : أئمة اليمن ج ١

ص ١٨٠ .

المظفر لذلك الهدوء الظاهري ، فعزم على أداء فريضة الحج (١) ، واستصحب معه بعض كبار بني حمزة (٢) .

إلا أن هذا الهدوء النسبي كان قصير الأمد ، ففي أثناء تواجد المظفر في الحجاز سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م كانت دعوة الشريف الزيدى يحيى بن محمد السراجي - في ناحية حضور (٣) - الإمامة (٤) ، فبايعه أهلها ، وكتب بدعوته إلى سائر مناطق الزيدية ، فاستجاب البعض لدعوته وأنشكرها الآخرون (٥) ، لارتباطهم ببيعة الإمام الأسير الحسن بن وهاب . فكان الاختلاف على إمامة يحيى السراجي أثره في تسهيل مهمة علم الدين سنجر الشامي - وإلى صنعاء - لحشد قواته لمحاربتهم والعمل على القضاء على دعوته ، وقد تمكن من إحراز بعض الانتصارات عليه في عدة مواقع (٦) ، وأرغمه على

(١) ابن حاتم : السمط ص ٧٠ ب ، المقرئ : الذهب المسبوك ص ٨٤ .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٣٤ ، المسجد ص ٢٧٥ .

(٣) حضور ، ناحية من نواحي كوكبان ، إلى الشمال من صنعاء (أئمة اليمن ص ١٥٥) .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٧١ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٣٦ ، المسجد ص ٢٧ ، العقد الفاخر ج ٢ ص ١٤٣ ب . (رأينا الإمام

يحيى بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن الحسن سراج الدين بن محمد بن عبد الله بن الحسين بن علي بن محمد بن جعفر بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، المعروف بالسراجي نسبة لجده سراج الدين) .
توبة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٨٠ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٧١ ب .

(٦) الخزرجي : العقد الفاخر ج ٢ ص ١٤٣ ب .

للفرار^(١)، ولكنه وقع في يد والي صنعاء فأمر بكبحه وسجنه^(٢) في أوائل سنة ١٢٦٠ هـ / (٣) ١٢٦٢ هـ . فقدد بكبحه شرطاً هاماً من شروط الإمامية . ومن الجدير بالذكر أن المظفر استاء كثيراً لقيام علم الدين بكبح الإمام . وكان يفضل الاكتفاء بسجنه^(٤) .

ولم يكن بنو حمزة مجمعين على بذل الطاعة والولاء للسلطان ، فبينما واصل الشريف عز الدين محمد بن الإمام عبد الله بن حمزة إعلان ولائه للمظفر ، كان أخوه صارم الدين داود يحمل لواء المعارضة له ، ويكتل الجهود ضده ، ويشجع الخارجين عليه ويقدم لهم العون ليتمكنوا من الصمود ، وقد بلغ به العداء للسلطان إلى حد أنه أقام الشريف الزيدى حسن بن محمد القطايري لإمامته ولكنه لم يوفق فيما ذهب إليه ، لمعارضة الزيدية لذلك^(٥) .

وفي نفس الوقت كان السلطان المظفر يسعى من جهته لاستقطاب للعاديين لصارم الدين داود ، وجهز سنجر الشعبي واليه على صنعاء في عدة حملات ضده .

(١) ابن حاتم : السمط ص ٧١ ب .

(٢) الجندى : السلوك ص ٣٦١ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ٢٢٩ و ٢٣٠ . الخزرجي : العقد الفاخر ص ٢ ، ١٢٣ ب ، زيارة : أئمة اليمن ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٧١ ب ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٧ و ٥٨ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ص ١٣٧ ، المسجد ص ٢٧١ . الجرافى : المقتطف ص ١٢٣ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٧١ ب .

(٥) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ص ١٤٥ ، المسجد ص ٢٧٧ .

يحيى بن عاصم ٦٦١ و ٦٦٤ هـ ، (١) وتمكن سنجر بفضل هذه الحملات من السيطرة على كثير من المناطق الخاضعة للزيدية في شمال جبال الين وشرقها (٢) ، ومع ذلك فقد وأصل صارم الدين داود تشجيع القلاقل ضد السلطان ، مثيرة بذلك الفتن والاضطرابات ، وتمكن من إشعال نار الفتنة في منطقتي حجة والخلافة ، واستطاع الناثرون - بفضل مساعدات الزيدية - الصمود في وجه قوات السلطان التي لم تتمكن من استعادة السيطرة على حجة إلا بصعوبة كبيرة في رمضان سنة ٥٦٦٥ هـ / مايو - يونية سنة ١٢٦٧ م أما الخلافة وحصونها ، فقد قضي السلطان على حركة العصيان فيها في ذى الحجة من نفس العام (٣) .

وقابع المظفر حملاته ضد الزيدية بلا هوادة لتمكين سيطرته التامة على البلاد . وحتى لا يترك لهم مجالا ينظمون فيه صفوفهم ، فاستولت قواته سنة ٦٦٦ هـ على صعدة وأخربتها وأتلفت ماحولها من المزارع (٤) . وواصل شن هجماته في العام التالي على بلاد وحصون الزيدية حتى أرقهم ، فطلبت هجوع الزيدية من الشريف الحمزي صارم الدين داود أن يفرج عن الإمام الحسن بن وهاس لتتوحد القوى الزيدية تحت لوائه ، فاستطاعت بذلك إحراز

- (١) ابن حاتم : السمط ص ٧٢ ب .
 (٢) ابن حاتم : السمط ص ٧٣ ب ، الخزر جي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٤١ ، المسجد ص ٢٧٧ .
 (٣) ابن حاتم : السمط ص ٧٤ دأ ، الخزر جي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٥٧ - ١٥٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٨ دأ .
 (٤) ابن حاتم : السمط ص ٧٦ دأ ، الخزر جي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٢٨ - ١٦٩ ، المسجد ص ٢٧٩ - ٢٨٠ ، زبارة : أئمة الين ج ١ ص ١٨٨ .

انتصار حاسم على قوات المظفر وردهم على أعقابهم^(١). ولكن الانقسام لم يلبث أن دب في صفوف الزيدية من جديد بسبب إصرار الامام على السير إلى صنعاء للاستيلاء عليها ، ومعارضة بني حمزة له وعدم تصويهم لرأيه في تلك الفترة . وقد أدى إصرار كل جانب على موقفه إلى تفريق الخوارج^(٢) . وانتهت السلطان فرصة هذا الانقسام وسير حملة بقيادة سنجر الشدي والى صنعاء إلى صعدة فتمكن من استعادتها في صفر سنة ٦٦٨ هـ / أكتوبر سنة ١٢٦٩ م . واضطر بنو حمزة إلى معارضة بذل الطاعة للسلطان وتم عقد الصلح معهم في شعبان من تلك السنة^(٣) .

استغل بنو حمزة فرصة الصلح لتنظيم صفوفهم وتقوية أنفسهم^(٤) خاصة وأن الامام الحسن بن وهاس كان قد خلع نفسه من الامامة سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م . وإذا كان عام ٦٦٩ هـ قد مر في هدوء ، فإن المظفر لم يلبث أن عاود توجيه حملاته سنة ٦٧٠ هـ إلى مناطق نفوذ الزيدية شمال جبال

(١) الخزرجي : العقود اللوآوية ج ١ ص ١٧٠ - ١٧١ ، المسند

ص ٢٨٠ - ٢٨٢ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٧٩ د .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٧٩ ب ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمان ص ٥٧

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٨٠ د ، الخزرجي : العقود اللوآوية ج ١

ص ٢٧٤ ، المسند ص ٢٨١ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٨٠ ب .

(٦) زيارة : أئمة الدين ج ١ ص ١٧٦ .

اليمن (١) ، في وقت خرج كان هؤلاء فيه بغير إمام مجتمعون حوله ، ولما فُشلت محاولاتهم لاقناع الحسن بن وهاس بالعودة إلى الإمامة ، اتفق رأي بعضهم على إقامة الشريف الزيدى إبراهيم بن تاج الدين (٢) إماماً لهم ، ولكنه لم يقبل إلا على أساس إجماع الزيدية على مبايعته ، فتم لذلك في ذي الحجة سنة ١٢٧٧هـ (٣) / يولييه سنة ١٢٧٢ م . وعلى الرغم من تحفظ البعض وإرجائهم المبايعة إلى ما بعد مناظرة العلماء له والتأكد من مدى صلاحيته للإمامة ، إلا أنهم أكرهوا على مبايعته (٤) . وعندئذ نشطت حركة الزيدية بقيادة الإمام إبراهيم بن تاج الدين ولم يكتف بالصمود في وجهه قوات المظفر بل طاردهم جموعه وأجلبتهم عن كثير من المواقع وهددت صنعاء نفسها ، مما اضطر السلطان المظفر للتوجه على رأس حملة كبيرة لاستعادة المناطق المحيطة بصنعاء (٥) ، وإعادة الأمن والهدوء للمنطقة . وقد نجح المظفر بالفعل فيما ذهب إليه ، فما كادت تصل طلائعه إلى

(١) الخـزرجى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٧٩ — ١٨٠ ، المسجد

ص ٢٨١ .

(٢) هو ، إبراهيم بن تاج الدين أحمد بن بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى ابن الناصر بن الحسن بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن أحمد الناصر بن الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين (زيارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٩٠) .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٨٢ « أ » ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمان ص ٢٠٢ ، الخـزرجى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٨٠ ، المسجد ص ٢٨٢ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٨١ ب — ٨٢ « أ » .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٨٣ (أ — ب) .

هذه المواقع حتى انسحبت القوات الزيدية شمالاً . فلما وصل المظفر إلى ذمار جنوبى صنعاء في شهر شعبان سنة ٩٧١ هـ (١) / فبراير ١٢٧٣ م ، قام بتجهيز علم الدين سنجر - والى صنعاء - فتولى قيادة عدة حملات متوالية على مناطق نفوذ الزيدية أسفرت عن قتل وأسر عدد كبير منهم ، واستولى علم الدين على كثير من الغنائم (٢) . وهكذا « تسوى علم الدين وتضعض الأشراف تضعضاً كلياً » (٣) . وتبوءت الحملات سنة ٩٧٢ هـ / ١٢٧٣ - ١٢٧٤ م حتى انعقد الصلح بين الجانبين (٤) .

وعاد الهدوء يرفرف من جديد على البلاد ، ولكن القوى الزيدية كانت تذهز الفرصة المواتية للعودة إلى المعصيان ، فقد حدث أن خرست حامية ذمار عن الطاعة لخلاف نشب بينها وبين والى صنعاء ، وتمكن بعض أفرادها من الاستيلاء على صنعاء في ربيع الآخر سنة ٧٤٠ هـ / (٥) سبتمبر ١٢٧٥ م ، واستعانوا بالامام ، فجاءهم في عدد كبير من أتباعه في شهر جمادى الأولى (٦) .

-
- (١) ابن حاتم : السمط ص ٨٣ ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٤٥٧ .
 (٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٨ د ، الخزر جى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٨٣ - ١٨٤ ، المسجد ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .
 (٣) ابن حاتم : السمط ص ٨٢ « أ » .
 (٤) ابن حاتم : السمط ص ٩٠ ب ، الخزر جى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٨٥ - ١٨٧ ، المسجد ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٩١ .
 (٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٨ د ، أ .
 (٦) الخزر جى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٩٠ ، المسجد ص ٢٨٤ -

وهكذا انتهت الفرصة الامام من جديد وطمع في السيطرة الكاملة على اليمن ،
والفضاء على بنى رسول (١) . ولكن لم يلبث أن جاءته الأنباء بمحرك المظفر -
في جموع جيشه - وأنه في طريقه للاستيلاء على ذمار (٢) ، فكان لذلك أثره
في اضطراب المنضمين من أنبىاع المظفر إلى الامام ، وأسرعوا بالعودة إلى
صنعاء لمراقبة تطورات الأحداث (٣) . في حين تعرضت القوات الزيدية لنقمة
المظفر وأصبحت لقمة سائغة لقواته التي حطت عليها كالبواشق وفتكت بها
فتكا ذريعا في جمادى الأولى سنة ٦٧٤ هـ / نوفمبر ١٢٧٥ م ووقع الامام في
أسر المظفر (٤) . وعندئذ تفرق الزيدية ومن والاهم في الأودية ، واستولي
السلطان على كثير من الغنائم (٥) ، وعاد المظفر إلى تعز ومعه الإمام أسيراً (٦)
ولم يزل معززا مكرما في سجنه حتى توفي في صفر سنة ٦٨٣ هـ / (٧)
ابريل ١٢٨٤ م .

وحاول الزيدية بعد هزيمتهم النكراء لإقناع الحسن بن وهاس بالعودة

-
- (١) ابن حاتم : السمط ص ٩٦ دأ .
(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٨ ب .
(٣) ابن حاتم : السمط ص ٩٧ دأ .
(٤) : ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٩ دأ ، زبارة : أئمة اليمن

ج ١ ص ١٩٣ .

- (٥) ابن حاتم : السمط ص ٩٧ دأ - ٩٨ دأ .
(٦) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٩ دأ .
(٧) زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٩٣ ، ٢٠١ .

للإمامة فلم يوافقهم^(١) ، فاجأوا إلى الشريف الزيدى المطهر بن يحيى فقباهما
تحت ضغط الشريف الحمزى صارم الدين داود^(٢) ، وبايعته جموع
الزيدية^(٣) . وكان المظفر حكيما ، فعرف كيف يزيد من حدة الخلاف في
صفوف الزيدية ، بتقريب جانب أو معاونة آخر على الاستمرار في معارضة
الامام ، كما عرف كيف يستغل تلك الانقسامات لمصالحته ، وعمل على تقريب
الشريف صارم الدين داود - الذي سبق أن ضغط على المطهر بن يحيى ليقبل
الامامة - وعقد معه صلحا سنة ٦٧٤ هـ / (٤) ١٢٧٥ م بعد وقت قصير من
مبايعة الامام الجديد .

وكانت قوات السلطان قد قامت بمحاصرة بعض حصون الزيدية ، ودار
القتال بينهم وبين قوات الامام ، ولكنه لم يسفر عن نتيجة حاسمة ، وتبع ذلك
انقضاء أتباع الامام من حوله^(٥) مما اضطره إلى ترك مساعدة المحصورين .

-
- (١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٩٧ ، المسجد ص ٢٨٩ .
(٢) ابن حاتم : السمط ص ٩٨ ب (الامام المطهر هو ابن يحيى بن
المرتضى بن المطهر بن القاسم بن المطهر بن محمد بن المطهر بن علي بن أحمد الناصر
ابن الامام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين) زيارة : أمة اليمن ج ١ ص ١٩٥ .
(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٩٨ ، المسجد ص ٢٨٩ .
(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٩٨ ، المسجد ص ٢٨٩ .
(وكانت مدة الصلح ثلاث سنوات) ابن حاتم : السمط ص ٩٨ ب .
(٥) ابن حاتم : السمط ص ٩٩ هـ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١
ص ٢٠٠ ، المسجد ص ٢٩٠ .

والانسحاب بمن بقي معه من أتباعه (١) : فكان بذلك قوات السلطان من السيطرة على هذه الحصون في رمضان سنة ٦٧٠ هـ / (٢) ديسمبر ١٢٧٧ م .

استقرت الأحوال بعد ذلك ما يقرب من عامين ، تخللها بعض المنازعات بين القوى الزيدية نفسها ، وكان كلما استقوى جانب لجأ الآخر إلى طاب مهواة السلطان المظفر ، فكان أحيانا يسعى للتوفيق بين الطرفين ، أو يكتفى بتقديم المساعدات المادية لمن لجأ إليه (٣) . وهكذا أضعفت القوى الزيدية نفسها بهذه المنازعات ، ولم تعد تشكل خطرا على بني رسول ، الأمر الذي ساعد المظفر على توجيه حملاته إلى ظفار - في عمان - والاستيلاء عليها سنة ٦٧٨ هـ / (٤) ١٢٧٩ م ، فارتفع بذلك شأن السلطان وتمكن من السيطرة على عدد من حصون الزيدية (٥) .

(١) لما عجز الامام عن مساعدة المحصورين سعى في المفاوضة وطالب بمبالغ مائة ألف دينار تمنا للانسحاب وترك مساعدة الموجودين في الحصون ، وانتهى الأمر بتسليمه ألفي دينار (ابن حاتم : السمط ص ٩٩ ب) .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٩٩ ب .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٩٩ ب .

(٤) انظر تفصيل ذلك في الفصل الرابع من الباب الثاني الخاص بالعلاقات الخارجية .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ١٠٥ د - ١٠٦ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢١٨ وما بعدها ، المسجد ص ٢٩٨ وما بعدها ، زيارة : أئمة الدين ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

استغل الشريف صارم الدين داود حادثة مقتل علم الدين سنجر الشعبي والى صنعاء سنة ٦٨٢ هـ / (١) ١٢٨٣ م وأسرع بمجموعه إلى صنعاء متوها بسهولة الاستيلاء عليها ما دامت بغير وال ، ولكن المؤرخ بدر الدين محمد بن حاتم تولى مهمة الذب عن المدينة والدفاع عنها وأعد هجومًا مضادًا مفاجئًا على قوات صارم الدين قرب مدينة حوث شال صنعاء وأوقع الهزيمة بقواته وشنت جموعه (٢) .

ونتيجة للمخاطر التي تعرضت لها صنعاء بعد مقتل واليها ، أناب المظفر واليها آخر هو فخر الدين بن فيروز وأمدّه بعض الدين بلبان الدويدار لمعاونته في قيادة الحملات والعمل على إصلاح الأحوال هناك . ثم أقطع صنعاء لابنه الملك الواصل (٣) نور الدين إبراهيم فوصلها في ربيع الأول سنة ٦٨٣ هـ / (٤) مايو

(١) كان علم الدين سنجر قد عقد اجتماعًا بقصر الإمارة في صنعاء ، ضم المؤرخ بدر الدين بن حاتم ، وأخاه علي وعمر بن سعيد قاضي صنعاء وغيرهم فتمهد القصر عليهم ومات الجميع ماعدا بدر الدين والقاضي (ابن حاتم : السمط ص ١٠٦ ب - ١٠٧ د ، الجندي : السلوك ص ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ٩ ص ٢٢٨ ، المسجد ص ٢٩٩ - ٣٠٠ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٩ ب ، النويري : نهاية الأرب ج ٣١ ص ٢٥ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان في ص ٤٥٨ ، زبارة : أئمة اليمن ص ١٨١ ، محمد عبد العال أحمد : الفتح الأيوبي لليمن ص ١٣٩) .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ١٠٧ د ، الجندي : السلوك ص ٤٧٢ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ١٠٧ ب ، الجندي : السلوك ص ٤٧٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٩ ب .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦١ د ، الخزرجي اللؤلؤية ج ١ ص ٢٣٥ ، المسجد ص ٣٠٠ .

١٢٨٤م • فكانت أيامه أياما حسنة خصبة رغدة ، وعدل فيها وأحسن وأجل ولم يقصر ، (١) .

وعلى الرغم من أن بني حمزة كانوا أصحاب الفضل في إمامة المطهر بن يحيى ، وأنه قبلها تحت ضغط الشريف صارم الدين داود إلا أنهم اختلفوا معه منذ توليه الإمامة ، ولهذا قام الشريف صارم الدين بعقد صلح منفرد مع السلطان ، فأدى ذلك بطبيعة الحال إلى تحمل الامام عبء الكفاح ضد السلطان . فلما زادت ضغوط قوات السلطان على الزيدية سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م ، وفقد صارم الدين كل أمل في قيام أى تعاون بينه وبين الامام المطهر ، وفشلت جهوده لإعادة الحسن بن وهاس للإمامة ، لجأ إلى إقامة ابن أخيه يوسف بن ابراهيم إماما للزيدية ، وكان قد قرأ شيئا من العلم ولم يكن يكمل للإمامة ولا لغيرها ، (٢) ، واتخذ من حصن تلا - الواقع شمالى صنعاء بالقرب من كوكبان - مقرا له ، فجهز جيشا ليتمكن من فك الحصار عن المناطق التي تحاصرها قوات السلطان . واشتبكت قواته مع مجموعة من جند المظفر كان يقودها المؤرخ بدر الدين محمد بن حاتم ، وتمكنت تلك القوات من تصيد بشر ابن حاتم - شقيق بدر الدين - وقتله في كمين نصبوه له (٣) . وطمع الامام يوسف بن ابراهيم في تحقيق النصر على قوات السلطان الرابطة شمالى .

(١) ابن حاتم : السمط ص ١٠٧ ب ١٠

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمان ص ٦١ د أ ، الخزر جى : المسجد ص

٢٠١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٩ ب ٧

(٣) ابن حاتم : السمط ص ١٠٧ د أ .

صنعاء (١)، فلما أخفقت جهوده وخشى أن يتسرب اليأس إلى أتباعه، عمد إلى الاغارة على بعض المناطق المتطرفة - لضعف حامياتها - واستولى على بعضها وقتل من وجده فيها (٢).

وتجدر الإشارة إلى أن تنصيب بني حمزة ليوسف بن إبراهيم إماماً أدى زيادة التوتر بين الزيدية وانقسامهم إلى معسكرين متعددين، أحدهما بزعامة الإمام يوسف وعمه الشريف صارم الدين، والثاني بزعامة الإمام مطهر بن يحيى. وأدى الصراع القائم بين الجانبين إلى استئصال الشريف جمال علي بن عبد الله - نيابة عن الإمام مطهر - بالملك الوراق بن المظفر في صنعاء (٣)، وتمكن بفضل مساعدة الوراق من التغلب على قوات الإمام يوسف بن إبراهيم مما أتاح الفرصة من جديد للسلطان لمواصلة شن هجماته على بني حمزة إلى أن استنفذ طاقاتهم (٤). ولجأ زعيمهم صارم الدين داود إلى مكتبة السلطان في ١٢٨٥ / ٥٦٨٤ م لطلب الصلح، وقد انتهى الأمر بعقد صلح بينهما (٥). غير أنه لم يلبث أن ارتبط بعلاقات طيبة مع الإمام المطهر بن يحيى (٦)، واتفق معه

(١) ابن حاتم: السمط ص ١٠٧.

(٢) ابن حاتم: السمط ص ١٠٨ د.أ.

(٣) ابن حاتم: السمط ص ١٠٨ د.أ.

(٤) زبارة: أئمة اليمن ص ٢٠٠ - ٢٠١.

(٥) ابن حاتم: السمط ص ١٠٩ د.أ، الخزرجي: العقود اللؤلؤية ج ١

ص ٢٣٩، المسجد ص ٣٠٢، ابن الديبع: قرة العيون ص ٨٠ د.أ.

(٦) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٤٦، المسجد ص ٣٠٢.

على مهاجمة قوات السلطان ناكثا بهوده له ، الأمر الذي دعا المظفر إلى تسيير قوة عسكرية هدفها تعزيز قوة وانه الوائق في صنعاء الذي أخفق في التصدي للفتوات الزيدية . فلما وصلت الامدادات التي أرسلها السلطان إلى صنعاء ، انضم الملك الوائق إليها ، ومع ذلك فلم تستطع تلك القوات إيقاف التيار الزيدى الجارف الذى استعاد قوته سبعا بعد استرداد مدينة صعدة (١) ، فكان ذلك نذيرا باضطراب أحوال المناطق الواقعة شمال صنعاء (٢) .

لضعف المظفر أمام قوة الزيدية إلى استدعاء لابنه الوائق لنفسه في مقاومة هذا الخطر ، وأقطع ابنه الملك الأشرف صنعاء مكانه (٣) . على أن الأشرف ما كان يصل صنعاء في جمادى الآخرة سنة ٦٨٦ هـ / يولييه ١٢٨٧ م حتى تقاطرت عليه جموع القبائل معلنة عن رغبتها فى الدخول فى طاعته ، فضمهم الأشرف إلى قوته ، وقاد حملة ضخمة لمحاربة الأشراف الزيدية ، فكان الموقف القبائل أتره فى انضمام عدد من زعماء الزيدية إلى الملك الأشرف الذى واصل تقدمه ووطى البلاد وطأة شديدة ، (٤) فبال ذلك الشريف صارم الدين

(١) زيارة : أئمة اليمن ص ٢٠١ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ١٠٩ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٠٦ ، العسجد ص ٣٥٣ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمان ص ٦٢ د ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٤٧ ، ابن التبييع ص ٨٠ د .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٤٧ ، العسجد ص ٣٠٣ ، ابن الديبع : قررة العيون ص ٨٠ ب .

داود وأضطر إلى الانسحاب بعسكره ، في حين سارعت القبائل المؤيدة له إلى
للدخول في طاعة الملك الأشرف رغبة أو رهبة . وواصلت جيوش الأشرف
تقدمها ، ولم ترد في تخريب ما كانت تقابله من عمران في المناطق التي ظل أهلها
على ولائهم للزيدية ، وتوالت انتصارات الأشرف على الزيدية وحاصروهم في
عدد من المواقع ، ومرة أخرى يعود الشريف صارم الدين إلى طلب
الصلح ، ولم يتردد الملك الأشرف في إجابته إليه ، بعد أن حققت
حملاته أهدافها . ولم يمض وقت طويل على توقيع هذا الصلح في جمادى الأولى
٦٨٧ هـ (١) / يونيو ١٢٨٨ م ، حتى أردف بصلح ثان عقد بعد شهر بين الإمام
المظفر بن يحيى والملك الأشرف بن المظفر (٢) ،

وما أن استقرت الأوضاع حتى استبدل السلطان المظفر ابنه الملك الأشرف .
بابنه الملك المؤيد الذي وصل إلى صنعاء في ذي القعدة سنة ٦٨٧ هـ (٣)
ديسمبر ١٢٨٨ م . والظاهر أن الزيدية لم يقبلوا بالأمر الواقع ، فقام فريق منهم
ببعض الحوادث ، وتبادل كل من الجانبين توجيه تهمة نقض الصلح إلى
الآخر (٤) ، وتبع ذلك قيام الجيوش السلطانية بمعاودة الحملات التخريبية
على المناطق الموالية للزيدية (٥) ، وازدادت أحوال البلاد سوءا ، وانشأ أهل

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٤٨ ، العسجد ص ٣٠٤ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ١١١ « أ » .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ١١١ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١
ص ٢٤٨ ، العسجد ص ٣٠٤ .

(٤) ابن حاتم السمط ١١١ ب ، ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص
٢٤٩ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢٠٢ .

(٥) ابن عبد المجيد : هجرة الزمن ص ٦٢ ب .

الثفاق والفساد ، « ووقع الاختلال في البلاد من نقييل صيد ^(١) إلى صعدة » ورفع كل مفسد رأسه ^(٢) . ولهذا بادر المظفر بتجهيز ولده الملك الأشرف في حملة لاقرار الأوضاع من جديد ، وكالمعتاد لم يكد يصل إلى صنعاء في ذي القعدة سنة ٦٩٣ هـ ^(٣) / سبتمبر ١٢٩٤ م ، حتى أطاعه كل عصي ودان له كل أبي . ولم يبق مؤالف ولا مخالف إلا وفاق إلى خدمته ^(٤) ، « ولم يتماك عرب البلاد أن مثلت إلى خدمته من شاحنات الأطوار وهلمسات الوهاد ^(٥) . فكان لذلك أثره في تهئية المناخ المناسب للاستقرار والتمهيد لصالح جديد بين الأشراف الزيدية كافة وبين الملك الأشرف نيابة عن أبيه ^(٦) وتم ذلك في أول المحرم ٦٩٤ هـ / ^(٧) ٢١ نوفمبر ١٢٩٤ . وهكذا خيم الهدوء

(١) النقييل . هو الممر الجبلي ، ويقع نقييل صيد جنوبي ذمار (الويسى البين الكبرى ص ١٧٩) ويعرف حالياً بنقييل سمارة وهو على خط عرض ١٧° ١٢' شمالاً ، وخط طول ٤٤° ٢٣' .

(EL - Khazrejiyy : op - cit. vol. III, 3, p. 142, Note, 978)

(٢) ابن حاتم : السمط ص ١١٢ ب .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٧١ ، المسجد ص ٢٠٨ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ١١٢ ب .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ١١٣ « أ » .

(٦) ابن حاتم : السمط ١١٢ ب ، الخزرجي : العقود ج ١ ص ٢٧٣ [

المسجد ص ٣١٠ - ٣١١ ، ابن الديبع : قسرة القيون ص ٨١ ب ، ربرة :

أئمة اليمن ج ١ ص ٢٠٥ .

(٧) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٤ « أ » .

من جديد وشمل أرجاء البلاد إلى وفاة السلطان المظفر يوسف في رمضان سنة ٦٩٤ هـ (١) / يولية ١٢٩٥ م بعد أن ملك أكثر من ست وأربعين عاما (٢).

أخيرا — الصراع على السلطنة بين أبناء المظفر وأحفاده :

١ - عهد الأشرف عمر بن المظفر :

كان السلطان المظفر قد أناب عنه في قيادة الحملات كل من أبنائه الأشرف عمر والوائ إبراهيم والمؤيد داود ، فأثبت الأشرف كفاءة نادرة وقـدرة فائقة . فلما طعن المظفر في السن وبلغ الخامسة والسبعين من عمره ، خشي حدوث الخلاف بين أبنائه على عرش السلطنة من بعده فاستقر رأيه على اختيار خلف له . وكان معجبا بشخصية ولده الأشرف ، لما أبداه من براعة في القيادة وحنكة في إدارة المعارك ، ولهذا خصه بخلافته على السلطنة ، وقلده أمورها (٢) قبل وفاته بمدة أشهر ، وحلف له العسكر (٤) ، وأصدر له تقاييدا بالسلطنة . قال ابن حاتم : دفعه له على الملك ونظم له مفرقه في السلك ، وقال : هذا ولي عهدى وصاحب أمرى في جندي ، ووارثه بعدى . وجمع اسمه معه في الخطبة والسكة ، ولم ينص على المساهمة والشركة . وكان التقليد الكريم...

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٤ ب ، ابن الفرات : تاريخه ج ١٦ ص ٤٧ دأ . (و ذكر ابن تغرى بردى والعيني وفاته في شهر رجب سنة ٦٩٤) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٧١ ، عقد الجمان مجلد ٥٦ لوحة ١١٣ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٤ ب ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٧٣ حوادث الدهور ص ٣٧٥ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ١١٤ دأ .

(٤) الجندي : السلوك ص ٤٥٥ .

سنة ٦٩٤هـ، (١) (١٩ مارس سنة ١٢٩٥ م)، ويستطرد
 ابن حاتم قائلا: «ثم انضافت الأوامر والنواهي، والحل والعقد والبسط
 والقبض في البر والبحر والأقاليم والسواحل والأمصار والحصون والثغر،
 وتدبير الحروب وتجهيز العساكر إلى مولانا السلطان الأعظم الملك الأشرف...
 ولم يكن إلى مولانا السلطان للملك المظفر... غير جلائل الأمور ومهانبها...
 واستمر الأمر لمولانا السلطان الملك الأشرف... وبعث والأمر إلى سائر البلاد
 وشاع ملكه في حاضر وباد، واشترأت قلوب الأولياء بولايته حبا، وعلقت
 قلوب الأعداء تخوفا ورعبا، وفرض العدل وسنه، ودانت له القبائل، وانقادت
 لأوامره واستكانت» (٢).

وفي نفس الوقت الذي أصدر فيه المظفر تقليده للأشرف، أسند ولاية
 حضر موت والشحر إلى ولده الثاني المؤيد داود (٣)، وكان قد استولى عليهما
 سنة ٦٧٨/٥ ١٢٧٩ م. وكان المظفر يعتقد أنه قد ضمن بهذا التصرف نوعا
 من الوفاق بين أبنائه بعد وفاته. غير أن ذلك لم يتحقق، فبعد وفاته أعد المؤيد
 سعيه وجمع حشوده لانتزاع السلطنة من أخيه الأشرف عمر (٤). وانضم إلى

(١) ابن حاتم: السمط ص ١١٤ أ - ب.

(٢) ابن حاتم: السمط ص ١١٤ ب.

(٣) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٦٤ ب، الخزرجي: العقود ح ١

ص ٢٧٥، المسجد ص ٣١٢، ابن الديبع: قرة العيون ص ٨١ ب.

(٤) ابن الفرات: تاريخه ح ١٦ لوحة ٥٣، الخزرجي: العقود الأولى ح ١

ص ٢٨٤، المسجد ص ٣١٧، ابن الديبع: قرة العيون ص ٨٠ أ.

سيفخرمه: تاريخ نقر عدن ح ٢ ص ٧٣.

المؤيد أخوه الملك المنصور أيوب والقاضي موفق الدين علي بن مجد اليعاقبي .
ومع ذلك فقد أرسل الأول إليه يحذره من التقدم^(١) ، وأبلغه الثاني بأن
الأشرف قد دس له من يتولى مهمة اغتياله^(٢) . ولكن المؤيد لم يلتفت لمسحة
التحذيرات والنصائح ، وواصل تقدمه إلى أبيه واستولى عليها . كما استولى
على حصن السمدان^(٣) لتنازل أخوه الناصر أيوب له عنه .^(٤) ثم سار إلى عك
واستولى عليها^(٥) ، ونقدم إلى الحج^(٦) .

أما الأشرف فقد ساءه خروج أخيه عليه ، وقر عزمه على محاربته ، فسير

(١) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ، ابن الديبع : قرة العيون
ص ٨٣ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٤ ب ، الخزرجي : المسجد ص ٣٩٧ .
(٣) السمدان ، من الحصون التي يضرب بحصانتها المنى (الخزرجي :
المسجد ص ٣٢٩) وليس بعد حصني التعكر وحب سواه (ابن عبد المجيد :
بهجة الزمن ص ٤٥ أ) ويقع بخلاف جعفر (الويسى المين الكبرى ص ٣٦٠)
بين الحج والدملة . (EL - Khazrejiyy : op. cit. vol. III, 3, p. 140, Note, 117.)

(٤) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ، ابن الديبع : قرة العيون
ص ٨٣ أ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٥ أ ، ابن الفرات : تاريخه ج ١
ص ٥٣ ب ، الخزرجي : المسجد ص ٣١٧ - ٣١٨ .

(٦) الجندي : السلوك ص ٢٢٢ ، الخزرجي : المقد الفاخر ج ٢ ص ٦٨ ،
الأهدل : تحفة الزمن ص ١٤٥ ب .

حملة بقيادة ابنه الملك الناصر (١) أتبعها بحشود أخرى يتلو بعضها بعضها (٢).
 إلى أن اشتبكت قواته مع قوات أخيه في معركة عنيفة جرت بقربة
 الدعيس (٣) في المحرم سنة ٨٦٩هـ/ (٤) نوفمبر ١٢٩٥م، انتهت بهزيمة
 المؤيد، (٥) مما اضطره إلى طلب الأمان فأمنه ابن أخيه الملك الناصر بن
 الأشرف، ولكنه اعتقله مع ولديه المظفر والظافر وعاد بهم مقيدين إلى أبيه
 الملك الأشرف، الذي كان قد توجه إلى مدينة الجوة (٦) لمتابعة أخبار المعركة
 وهو أصالة الامدادات لها. وعلى الرغم من المتاعب التي أثارها المؤيد، إلى أن
 الأشرف تأثر لاعتقال أخيه وولديه وبكى بكاء شديدا وأمر باكرامهم (٧).
 وعلى الرغم من انفراد الأشرف بالسلطنة بعد اعتقال أخيه المؤيد، فإن

(١) ابن عبد المجيد . بهجة الزمن ص ٦٦ أ.

(٢) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٢٨٦ ، المسجد ص ٣١٨ ، بانخرمة :
 تاريخ نجر عدن ج ٣ ص ٧٢.

(٣) الدعيس ، موضع بناحية عدن وأبين (بانخرمة : تاريخ نجر عدن ج ٢
 ص ٧٣) .

(٤) الجندي : السلوك ص ١٥٤ ، ٤٥٥ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٦ أ ، الأهدل : تحفة الزمن
 ص ١٥٨ ب ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢٠٧ .

(٦) الجوة ، مدينة بسفح حصن الدمولة ، وهي على مرحلة من مدينة
 الجند (الجندي : السلوك : ص ٨٠ ، ٤١٩) .

(٧) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٦ أ ، الخزرجي : العقود ج ١
 ص ٢٨٩ .

للعمر لم يمتد به طويلا ولم يلبث أن توفي بعد عام واحد فقط من هزيمة أخيه -
وخلال صده من خطرته ، وكانت وفاته في المحرم سنة ٥٦٩٦^(١) / نوفمبر ١١٩٦ م -
ولم تدم مدة حكمه أكثر من سنتين شغل في أولاهما بمحاربة أخيه المؤيد داود .

٢ - سلطنة المؤيد داود ، وتطير الأحداث الداخلية في عهده :

كانت وفاة الأشرف عمر مفاجئة ، ولم يكن معه وقت وفاته أحد من
أبنائه ، فابته الملك الناصر جلال الدين محمد كان نائبا له في مدينة القنطرة ، في
حين كان ولده العادل صلاح الدين في صنعاء^(٢) . ولعب القدر دوره في
اعتلاء المؤيد داود عرش السلطنة بعد أخيه الأشرف^(٣) ، فلقد أجمع من كانه
حاضرا من كبار رجال الأشرف وخاعمه على إقامة المؤيد سلطانا على اليمن .
مستهدفين بذلك إزالة ما بينه وبينهم من عدا ، يرجع إلى تأييدهم الأشرف في
حربه ضده ، وظنا منهم أنهم بمبايعتهم له سوف يحظون بثقتة ويحتفظون
بمكانتهم عنده . ولهذا توجهوا إلى المؤيد وأخرجوه من معتقله^(٤) ، وأبلغوه

(١) الجندي : السلوك ص ٤٥٥ ، الخزرجي : العقود ج ١ ص ٢٩٧ .

المسجد ص ٣٢٠ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٦ أ ، الخزرجي : المسجد ص ٣٢٠ .

ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٤ أ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم ج ٨ ص ١٠٩ ، ج ٩ ص ٢٥٣ ، المنذرين

ج ٣ ص ١٧٠ ، حوادث الدهور ص ٣٧٥ .

(٤) ابن تيمية : تاريخه ج ١ ص ٨٢٤ .

بوفاة أخيه فأبدى حزنه عليه ^(١)، ثم بايعوه بالسلطنة . وكان أول من بايعه
 صاحب حسام الدين حسان بن أسعد بن محمد موسى العمراني وزير أخيه الأشرف ،
 و فاجتمع به وحلف له الأيمان المغلظة واستخلف له الجند ^(٢) والأمراء وأعيان
 الدولة ^(٣) ، ورغب الناس إلى ملكه رغبة ما عليها من مزيد ، ^(٤) .

ولما اعتلى المؤيد العرش واستقامت الأمور له ، أرسل كتبه إلى جميع أنحاء
 اليمن ^(٥) . وجاء ولدى أخيه - الناصر جلال الدين محمد بن الأشرف وأخوه
 العادل - طائعين ، وبايعاه بالسلطنة فأمنهما وأكرههما ^(٦) ، وعمل على إزالة
 الخلافات التي كانت بينه وبينهما ، وصاهرهما فزوج ابنيه الظاهر عيسى والمظفر
 ضرغام الدين حسن ببنق أخيه الأشرف ^(٧) . ولكنه عمل على التخليص من
 رجال دولة أخيه ، وقرب أتباعه وثقاته وأسند إليهم المناصب الكبيرة ، ولهذا
 أقال حسان العمراني وزير أخيه رغم أنه كان صاحب الفضل في اعتلائه عرش
 السلطنة ، وجعل في الوزارة مكانه القاضي صاحب موفق الدين علي بن محمد

(١) ابن عبد المجيد : نفسه ص ٦٦ ب ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢٠٨ .

(٢) الجندى : السلوك ص ٣٦٤ .

(٣) الخزر جى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٩٩ ، المسجد ص ٣٢٢ .

(٤) ابن عيد المجيد : بهجة الزمن ص ١٠٧ أ .

(٥) الخزر جى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٩٩ ، المسجد ص ٣٢٢ .

(٦) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧١ ب ، الخزر جى : العقود ج ١

ص ٣٠١ ، المسجد ص ٣٢٤ .

(٧) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٨ أ .

ابن عمر اليجوي (١) في جمادى الأولى سنة ٨٦٦ هـ / فبراير ١٢٩٧ م ، وفوض إليه قضاء الأفضية كما قرب أخاه رضى الدين أبا بكر بن محمد بن عمر (٢) . ولم يترك المؤيد أمر المفسدين من المماليك فقبض عليهم وأودعهم سجن حصن الدملوة (٣) . ثم أقطع صنعاء لابنه المظفر ضرغام الدين ، أما الظافر عيسى فأقطعه القحربة والحازن (٤) .

وكان الزيدية أثناء ذلك يترقبون - منذ وفاة المظفر - الصراع الدائر بين السلطان الأشرف وأخيه المؤيد ، وتمكنوا خلال ذلك من الاستيلاء على بعض الحصون . فإسماءات الأشرف عمر وخلفه المؤيد وتمكن من السيطرة على مقاليد الأمور وانصاعت القبائل له ، رغب زعماء الزيدية في مصالحةه ، اكتساباً لوقت يتمكنون فيه من إعادة تنظيم صفوفهم إلى أن تحين لهم فرصة موالية ينقضون فيها على بني رسول ، ولذلك لما أن جاءتهم كتبه حتى سارعوا بإرسال التهنئة بالسلطنة وإعلان ولائهم له وعقد الصلح معه (٥) .

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٠ أ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٣٠٣ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٩ أ ، الخزرجي : العقود ج ١ ص ٣٠٣ ، المسجد ص ٣٢٥ .

(٣) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٣٠٤ ، المسجد ص ٣٢٦ م .

(٤) القحربة والحازن من وادي زبيد (باخرمة : تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ٧٤ : .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٧ أ ، الخزرجي : العقود للأؤاوية ج ١ ص ٣٠٤ ، المسجد ص ٣٢٦ ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٥ .

١ - صراعة مع أخيه المسعود :-

كان المسعود بن المظفر يتولى الأعمال السرديّة - بوادي سررد شمالاً
تريد - منذ عهد أخيه السلطان الأشرف عمر (١) ، فلما تولى المؤيد العرش
حقد عليه المسعود وطمع في انتزاع ملكه ، واسكنه عمل في نفس الوقت على
تخديعة المؤيد وإيهامه بولائه وإخلاصه له ، وأرسل إليه ابنه أسد الدين محمد
مها كرمه المؤيد وثبت أباه على إقطاعه (٢) . وانتهم المسعود هذه الفرصة وبادر
بإعلان العصيان في أواخر سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٧م مدفوعاً بمطامعه الشخصية في
عرش البلاد من جهة ، وبتشجيع من التف حول له من خصوم المؤيد عن أضيروا
بسلطنته من جهة أخرى (٣) . وزحف المسعود بحشوده إلى حرص الواقعة في
شمال تهامة ، فانضم واليها إليه ، وأصبح من كبار أعوانه ومشيريه ، ونشط
في حشد الرجال وانضم إليه عدد آخر (٤) .

عمل السلطان المؤيد على حسم مادة الخلاف سلمياً لبقاء على صلة الإخاء ،
وأرسل إلى أخيه المسعود يدعو له طاعته ، وأصدر له أماناً ، ونبهه على
إقطاعه ووعدته خيراً ، ولكن المسعود لم يستجب لندائه . وعندئذ أعد جيشاً
عهد بقيادته إلى أخيه المنصور أيوب وسير برفقته ولده الملك الظاهر عيسى

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٠ أ .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٠٥ ، المسجد ص ٣٢٧ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٢ أ .

(٤) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٢ ب ، الخزرجي : المسجد

ابن المؤيد ، وزود الحملة بثلاثة من القبيلة^(١) كان لاشتراكها في الحملة أكبر الأثر في إضعاف عزيمته المسعود الذي أدرك أن أنصاره إنما يجمعهم صوت ونفرتهم حصا^(٢) . وأيقن أنه لا يمكنه التصدي للحملة ، ولهذا أعلن الدخول في طاعة أخيه ، ولم يدخل في حرب معه ، ولكن المؤيد أمر باعتقاله هو وولده أسد الاسلام في حصن تمز وذلك في المحرم سنة ٦٩٧ هـ / سبتمبر ١٢٩٧ م . نظلا في الحيس قرابة عام ، أفرج عنهما بعده وأسكنهما في مدينة حيس^(٣) وقرر لهما جامكية وكذلك لحاشيتهما^(٤) .

وبتخلص المؤيد من منافسة أخيه المسعود ، تفرغ لإقرار الأوضاع في البلاد . وكانت الحملات الدورية التقليدية هي السياسة التي لجأ إليها ، كضرورة تحتمها طبيعة بلاد اليمن من أجل استمرار السيطرة المركزية . وبدأ بتجهيز ابنه المظفر ضرغام الدين إلى صنعاء ، فاستولى على حصن براش - إلى الشرق من صنعاء - وبعض حصون يريم^(٥) جنوبي ذمار ، كما أرسل حملة ثانية في

-
- (١) الخزرجي : العقود الأثرية ج ١ ص ٢٠٥ ، المسجد النبوي .
 ص ٣٢٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٥ ب .
 (٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٢ ب .
 (٣) الخزرجي : المسجد ص ٣٢٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٥ ب .
 زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢٠٨ .
 (٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٣ ، أ ، الخزرجي : العقود ج ١ ص ٣٠٩ .
 (د) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٣ ب .

شعبان سنة ٦٩٧ هـ / مايو ١٢٩٨ م إلى مأرب لتمكين سلطانه عليها والقيام ببعض الإصلاحات فيها ، (١) وثالثة إلى منطقة حجة حقة [هي الأخرى أهدافها (٢) . وهكذا أثبت المؤيد كفاءة في مواجهة المواقف الحرجة ، وقدرة على الضرب على أيدي العصاة والمتمردين .

ب - مواجهة تحركات الزيدية وقبائل الجعاف والمجاطم : أ

كان الزيدون قد تظاهروا بالطاعة للمؤيد ، وأكدوا ذلك بعقد صاحب معه . وعلى الرغم من وفاة الإمام مطهر بن يحيى عقيب ذلك في رمضان ٦٩٧ هـ (٣) / يونيو ١٢٩٨ م ، إلا أن ذلك لم يمنع تكتل القوى الزيدية لإظهار الخلاف على السلطان . ولكن المؤيد لم يتردد في مهاجمتهم ، وأسرع إلى صنعاء فوصلها في ذي القعدة (٤) ثم غادرها في ذي الحجة إلى منطقة الظاهر شمالها (٥) . وتفاديا للمخاطر توجهه وفد من زعماء الزيدية لتجديد الطاعة له ، وأبدوا استعدادهم للتعاون معه ضد من استمر على الخلاف من الزيدية ، فزودهم ببعض جنده واستولوا على مدينة صعدة (٦) . وفي نفس الوقت كان المؤيد يواصل

(١) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٣١٠ .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجي : المسجل

ص ٢٢٨ .

(٣) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٣١٠ ، زيارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢٠٨ .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٣ ب ، الخزرجي : المسجل

ص ٣٢٨ .

(٥) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة .

(٦) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٣١١ ، المسجل ص ٢٢٨ .

أعماله الحربية شمالى صنعاء ، فأغار فى المحرم سنة ٦٩٨ هـ / أكتوبر ١٢٩٨ م على بعض المدن والحصون وخرب بعضها بالمجانيق وأقام الحصار على البعض الآخر ، واستمر ذلك إلى أن تم التوصل إلى هدنة مدتها سبعة أشهر (١)

ويمدنا ابن أيبك منفرداً بسبب هام لخروج الزيدية عن طاعة السلطان الرسولى ، وإن كان لم يوضح المصدر الذى استقاه منه ، فيذكر أن السلطان كان يرسل إلى الزيدية عشرين ألف دينار سنوياً ، نظير التزامهم له بالطاعة وإقرار الأمن فى مناطقهم وحماية المسافرين والتجار العابرين فى حدودهم ، وعدم التعرض لأحد بسوء . ولكن الزيدية خالفوه لعدم كفاية هذا المبلغ . وطالبوه بزيادة المقرر السنوى إلى مائة ألف دينار ، وقالوا : « فإننا نحن عمارة البلد ، وبنا الصلاح والفساد ، فلما لم يستجب لهم خرجوا عن طاعته ، واضطر إلى زيادة المبلغ إلى ثلاثين ألف دينار بعد تمام الصلح معهم (٢) .

أما المصادر اليمنية فتؤكد أن المؤيد غمر الزيدية بعد عودتهم إلى الطاعة بالأموال الطائلة والخلع والكسوات . وأنه لما عاد إلى صنعاء فى ربيع الأول سنة ٦٩٨ هـ / ديسمبر ١٢٩٨ م توافد عليه جموع الأشراة الزيدية ومشائخ القبائل مجددين الطاعة له ، فاستصحبهم معه إلى تعز (٣) ومنها إلى زيد فدخلها فى جمادى الآخرة سنة ٦٩٨ هـ (٤) مارس ١٢٩٩ م . وكان الشريف الزيدى

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٤ ب ، الخزرجى : العقود ١ ص ٣١٥ ، المسجد ص ٣٢٩ .

(٢) ابن أيبك : كنز الدرر ٩ ص ٦٧ - ٦٩ .

(٣) الخزرجى : العقود ١ ص ٣١٥ ، المسجد ص ٣٣١ .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٥ ب - ٧٦ أ .

على بن عبد الله الحمزي - والد المؤرخ المني محمد الدين إدريس - ممن دخل في طاعة المؤيد ، وحظى بمكانة كبيرة عنده ، وأغدى عليه بسببها حتى قيل أن جملة ما حصل عليه من أموال - منذ وصوله مع السلطان إلى زبيد حتى عودته منها في شوال سنة ٦٩٨ هـ / يولييه ١٢٩٩ - تجاوز السبعين ألف دينار^(١)، حاشا الكساوي والطيول وغيرها^(٢)، ولكنه لم يلبث أن توفي بعد عودته^(٣)، وكان من كبار الأشراف وأهليان رؤسائهم . فلما توفي أجمع أهل بيته على تقديم ابنه محمد الدين إدريس مكانه^(٤) ، فاستمر على سياسة أبيه في موالاة السلطان المؤيد . وتأكيذاً لذلك بادر بتلبية طلب السلطان عندما استدعاه إليه فكان وصوله في ذي القعدة سنة ٦٩٩ هـ / يولييه ١٣١١ م ، وتلقاه المؤيد بالإجلال والإكرام ، وأصدر أوامره إلى أتاك عسكريه بألا يستفتح الميدان إلا الأمير المذكور (محمد الدين إدريس) مقدما على أعيان الأمراء ووجوه الدولة ، فكان كما رسم^(٥) . وترتب على بقاء محمد الدين إدريس في خدمة السلطان المؤيد ، تسام ما كان لديه من الحصون^(٦) ، وارتفاع مكانته

(١) كل دينار أربعة دراهم ، وكل درهم عشرة قرايط . (ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٦ د أ ، .

(٢) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٣١٨ ، المسجد ص ٣٣٢ .

(٣) الجندی : السلوك ص ٢٥٤ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٨ ب . (وكانت وفاته في جمادى الآخرة سنة ٦٩٩) العقود ج ١ ص ٣٢٤ ، المسجد ص ٣٣٤ .

(٤) زبارة : أئمة المين ج ١ ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٧ ب .

(٦) زبارة . أئمة المين ص ٢١٠ .

عند السلطان ، فتمنحه سبعة آلاف دينار ، وأغدق عليه الهدايا والتحف والملابس والماليك والخيول وغيرها ، وأقطع مدينة القحمة^(١) في المحرم سنة ٧٠٠ هـ / سبتمبر ١٣٠٠ م .

وباستقرار الأحوال في البلاد ، أقطع السلطان صنعاء لابنه المظفر ضرغام الدين ، فلما وصلها في شعبان سنة ٦٩٩ هـ / أبريل ١٣٠٠ م احتفل أهلها بمقدمه ، وزينوا المدينة ابتهاجا به ، ومن جهة أخرى - وفي إطار هذا الهدوء - أخذت المواكب السلطانية تجوب أنحاء البلاد ، وفي سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م تحرك المركب السلطاني إلى زبيد فدخلها في صفر ، ثم غادرها في الشهر التالي إلى المهجم - من أعمال وادي سررد -^(٢) فدخلها في احتفال بهيج^(٣) ، وأقام فيها إلى جمادى الأولى ، ثم عاد إلى زبيد^(٤) حيث واصل زيارته للمناطق المجاورة ، ثم توجه بعدها إلى تعز فوصلها في رمضان . وفي هذه الأثناء أنقطع ولده الملك الظافر عيسى صنعاء بدلا من أخيه المظفر ضرغام الدين^(٥) ، فأغار

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٨ د أ ، ، الجندي : السلوك ص ٢٥٤ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٨ ب .

(٢) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٣٢٦ ، العنجد ص ٣٣٥ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٨ د أ ، ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢١٠ .

(٤) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٣٢٧ ، العنجد ص ٣٣٦ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٨ ب .

(٦) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٧٩ أ .

(٧) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٣٢٨ .

في طريقة إلهيها على بعض القبائل لأموار بدرت منهم ، واستولى على كثير من
شيوخهم (١) . كما قام السلطان المؤيد بإرسال حملة إلى بلاد المعازبة لخروجهم عن
الطاعة وإخلاقهم بالأسن ، واصطنع معهم العنف حتى أذعنوا للطاعة وقدموا
الرهائن تأكيداً لولائهم (٢) .

وكان المؤيد دائم الحركة لا يكل ولا يمل ولا يدع مشكلة دون أن يتولى
في الحال حلها ، منعاً من تعقد الأمور . فقد كان المؤيد في مدينة الجند عندما
بلغه حدوث تغير من الزيدية ، فليجأ في البداية إلى مكاتبتهم لتهدئة النفوس
والعمل على إزالة أسباب الخلاف ، فلما أخفقت هذه المحاولة السامية أمر
عماد الدين إدريس بالتجهيز لمحاربتهم ، وعندئذ أسرعوا لإرضائه وقدموا
رهانهم إليه (٣) . ولكن ما أن خمدت هذه الحركة حتى وردت الأنباء بمخالفة
الأشراف السليمانيين - بمنطقة الخلاف السليمانى شمالى تهامة - وإقدامهم على قتل
نائب مدينة الراحة قرب حرض ، فوجه السلطان إليهم حملة بقيادة
عماد الدين إدريس انضم إليه فيها نائب حرض ، ونجحت هذه الحملة في
استرداد مدينة الراحة قهراً في شعبان سنة ٧٠١ هـ (٤) / إبريل ١٣٠٢ م ، وقتل

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٩ أ ، الخزر جى : المسجد ص ٣٣٧ .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة ، الخزر جى : العقود - ١ ص ٣٢٨ ، المسجد ص ٣٣٧ .

(٣) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٩ ب .

(٤) الخزر جى : العقود - ١ ص ٣٣٠ .

في هذه المعركة عدد كبير من الساجانيين ومن عاونهم (١) ، وطارت القوات السلطانية من فر منهم حتى أجبرتهم على الطاعة ورد ما استولوا عليه (٢) .

ومع بداية القرن الثامن الهجري (الرابع هجرى الميلادى) بايعت جموع الزيدية الشريف محمد بن الامام السابق المظفر بن يحيى اماما للزيدية ولقبوه بالمهدى (٣) . فكان ذلك نذيرا بهميان زيدى جديد ، ولذلك بادر المؤيد بالخروج فورا على رأس جملة إلى صنعاء ، ومنها واصل تقدمه شمالا إلى بلاد الظاهر (٤) ، وطاف بمنطقة الجبال الشالية ، وحاصر عددا من الحصون وضربها بالمجانيق . فلما استولى عليها (٥) ، أمر باصلاح ما تخرب منها ، وولى عليها الولاية وترك معهم فيها الحاميات المناسبة ، وعاد إلى صنعاء في أوائل سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م . وكنتيجة لتحرك الزيدية من جديد واستبعادهم تحت أيديهم (٦) ، لم يتردد المؤيد في حسم الفتنة ، وجرد عدة

(١) الخزرجى : المسجد ص ٣٣٧ .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٨٠ .

(٣) زبارة : أئمة اليمن ص ١٢٢ .

(٤) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٨٠ ب ، الخزرجى : العقود ص ١

ص ٣٣٩ ، المسجد ص ٣٣٩ .

(٥) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٨١ ب ، الجندى : السلوك ص ٤٥٦ .

(٦) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٨٣ أ - ب .

(٧) الخزرجى : العقود ج ١ ص ٣٢٧-٣٣٩ ، المسجد ص ٣٤٢-٣٤٣ .

(و) يذكر ابن عبد المجيد أن ما حدث تم بتشجيع بعض أتباع الساطان ومنهم بدر الدين محمد بن حاتم) بهجة الزمن ص ٨٣ ب .

حملات (١) تمكن بفضلها من استرجاع نفوذه على منطقة الجبال الشمالية إلى صعدة (٢) .

ومن الملاحظ أنه على الرغم من تجدد الخلاف من الزيدية ، ومناوشتهم للمؤيد بين حين وآخر (٣) ، إلا أن حركاتهم لم تكن جماعية منظمة ، مثلها كانت في عهد أبيه وجده ، ويرجع السبب في ذلك إلى تمكن السلطان المؤيد من استمالة عدد من الأشراف الزيدية ، مثل عماد الدين إدريس بن علي وأبيه من قبله . كما كان لإغداغه الأموال عليهم ، وتقربهم واستجابتهم له ، أثر كبير في ترحيب السلطان بهم وبالتالي دخولهم في خدمته ، ولم يتردد السلطان المؤيد في إسناد قيادة بعض الحملات إلى بعضهم . وهكذا انقسمت القرى الزيدية ، فريق منهم مؤيد للسلطان ، استخدمهم في القضاء على ماعداهم من المتمردين عليه ، أضف إلى ذلك أنهم ظلوا بغير إمام يجمع صفوفهم منذ وفاة الامام المطهر ابن يحيى سنة ٦٩٧ هـ (٤) إلى ٥٧٠١ / ١٢٩٧ - ١٣٠٢ م عندما أقسم الامام

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٨٤ ب ، زبارة : تحاف المهتدين

ص ٦٣ .

(٢) الخزرجي : العقود > ١ ص ٣٣٩ ، المسجد ص ٣٤١ ، زبارة :

أئمة اليمن > ١ ص ٢١٣ .

(٣) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٨٢ - ٨٤ ، ٩٢ ب ، ٩٧ ، ١٠٠ أ ،

١٠٣ ب - ١٠٤ أ ، الخزرجي : العقود > ١ ص ٣٥١ - ٣٥٢ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ،

٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ . المسجد ص ٣٤٦ - ٣٤٧ ، ٣٤٩ ،

٣٥١ - ٣٥٣ ، ٣٥٥ .

(٤) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٣ أ .

محمد بن المطهر^(١) . ومن الجدير بالذكر أن انقسام الزيدية استمر واضحا طوال عهد المؤيد ، ولم ينجح الامام أو غيره من كبار رجالات الزيدية في التوفيق بينهم أو توحيد كلمتهم ، مما أدى إلى ضعف مقدرتهم على المعارضة ، وساعد بالتالي على مجاح المؤيد في القضاء على حركاتهم المعككة ، وتبديد أحلامهم في الاستحواذ على المنطقة الواقعة شمال صنعاء ، والتي كانوا يتخذونها قاعدة لهم للقضاء على دولة بني رسول ، وفرض السيطرة الزيدية على بلاد اليمن بأكملها .

وفي الوقت الذي خفت فيه حدة حركات الزيدية المعادية للمؤيد قامت قبائل الجحافل والعجم^(٢) بإثارة الشغب في منطقة لحج ، فقام الأمير سيف الدين طغريل نائب المؤيد في لحج بالانغارة عليهم في جمادى الآخرة سنة ٧٠١ هـ^(٣) / فبراير ١٣٠٢ م ، وتمكن بعد قتل أكثر من سبعين من رجالهم ، من إعادتهم إلى الطاعة^(٤) . ولكن هذه القبائل كانت تتربص للعودة إلى العصيان ، وما أن قام السلطان سنة ٧٠٢ هـ بسحب سيف الدين طغريل من لحج لإسناد ولاية صنعاء إليه^(٥) ، وتولية الشريف عماد الدين لإدريس مكانه ، حتى وجدت

(١) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٣٣١ ، المسجد ص ٣٢٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٦ ب ، زيارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢١٢ ، أنحاف المهتدين ص ٦٢ .
(٢) الجحافل والعجم ، قبائل متجارة تقطن المنطقة الواقعة إلى الشمال ، والشمال الشرقي من لحج .

(El-Khazrejiyy op. cit. pp. 101, 154, Note, 653, 944)

(٣) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٣٣٠ ، المسجد ص ٣٣٨ .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٨٠ أ .

(٥) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

القبائل المذكورة الفرصة للثورة ، فأغار الوالي الجديد عليهم (١) ، وقام بمطاردتهم ، وانتهى الأمر بمعركة عنيفة بين الجانبين سنة ١٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م كادت الهزيمة تلحق في نهايتها بهاد الدين إدريس لإصابته في المعركة ، ولكنه استطاع رغم جراحه مواصلة القتال وإحراز النصر (٢) وقتل الكثيرين منهم وهابئة فلولهم .

ومما يذكر في هذا المجال أن هذه القبائل كانت تحصل على جامكية من المأمورين ، ومن المرجح أنه قد قرر لها منذ توليه السلطنة ، مكافأة على مناصرتهم له أثناء صراعه ضد أخيه الأشرف (٣) . فلما خرجوا عن الطاعة سنة ١٧٠٤ هـ / ١٣٠٢ م قطع الجامكية عنهم (٤) ، ثم أعادها إليهم سنة ١٧٠٥ هـ / ١٣٠٥ م بعد أن عادوا إلى السكينة وأقروا بالطاعة له (٥) . ولكن على الرغم من إغرائهم بإعادة الجامكية إليهم ، إلا أنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى العصيان مرة ثالثة في شوال سنة ١٧٠٦ هـ / أبريل ١٣٠٧ م ، وعانوا فسادا في المنطقة ، فتصدت لهم قوات السلاطان وهزمتهم وقضت على حركتهم وقتلت منهم نحو أربعين من رؤسائهم (٦) .

(١) الخزرجي : المسجد ص ٢٤٢ - ٣٤٣ .

(٢) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١٩٢ .

(٤) الخزرجي : المسجد ص ٣٥٢ .

(٥) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٣٦٧ .

(٦) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٩٨ ب ، الخزرجي : العقود ج ١

ص ٣٧٢ ، المسجد ص ٣٥٥ .

ج - تحالف الزيدية والآفة ضد السلطان ، وموقفهم :-

الأكراد ، هم البقية الباقية من عسكر الأيوبيين في اليمن ، وكانوا قد تجمّعوا بمائلاتهم في مدينة ذمار منذ بداية دولة بنى رسول ، وظلّوا مواليين لهذه الدولة ويشاركون في الحملات التي كان بنو رسول يعدونها ضد أعدائهم في الداخل . وترجع أسباب ثورتهم إلى ما بلغهم من اعتزام سيف الدين طغرل والى صنعاء القبض عليهم ، فتوجهوا إلى صنعاء سنة ٥٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م وقاموا بمحاصرة واليها في قصر الإمارة ، وطالبوه بالخروج إليهم لمواجهة بما هو منسوب إليه ، فاضطر نتيجة استمرارهم في حصاره إلى الخروج إليهم فقتلوه (١) في جماعة من أتباعه (٢) في ربيع الآخر سنة ٥٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م (٣) . فلما علم المؤيد جرد إليهم حملة للقضاء على ثورتهم ، ولكنهم التجأوا إلى حصن هران - من حصن - منطقة ذمار - فتبعتهم قوات المؤيد حتى مزقت صفوفهم (٤) ، واستمرت تطارد فلولهم بهدف استئصال شأفتهم (٥) . وكان من الطبيعي أن يسعى الأكراد إلى محالفة الزيدية - أعداء بنى رسول التقليديين - ليكونوا بدا واحدة على السلطان الرسولي ، فقام زعمائهم بمكانة الامام الزيدى محمد بن مطهر الذي لم يتردد في اغتنام الفرصة

(١) الجندى : السلوك ص ٤٥٦ .

(٢) الخزر جى : العقود ج ١ ص ٣٨٦ ، المسجد ص ٣٦٢ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ١٠٤ أ .

(٤) الخزر جى : المسجد ص ٣٦٣ ، زيارة : أئمة اليمن ص ٢١٤ .

(٥) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٠٩ ب .

فاستقدمهم ورحب بهم وضمهم إلى قوائمه ، وقويت بهم شوكته (١) ، وعاد
الأمير يرأوده في الاستيلاء على صنعاء ، ولكن حامية المدينة استطاعت الصمود
حتى وصل السلطان المؤيد إليها بنفسه (٢) ، للقضاء على الأكراد والوقوف
أمام مطامع الإمام الذي كان قد تمكن من السيطرة على مدينة صنعاء ، وأعاد
الاضطرابات بذلك إلى منطقة الجبال الشمالية (٣) .

ولم تكن كل القوى الزيدية تقرر تصرفات الإمام ، إذ لم يكف المؤيد بعزل
إلى صنعاء في شهر شوال سنة ٥٧٠ هـ / مارس ١٣١٠ م ، حتى جاءه عندد من
كبار الزيدية مجددين له الطاعة والولاء . وقام المؤيد بتجهيز حملة بقيادة ولده
المظفر ضرغام الدين لمحاربة الإمام ومن لاذ به من الأكراد ، فتمكن من
الاستيلاء على بعض الحصون وأحرز انتصارا على الإمام وأرغمه على الفرار
عن معه (٤) والتحصن ببعض جبال المنطقة ، وصاروا في أشد حال خوفا من
العسكر السلطاني (٥) ، وتوالت الحملات على الحصون التابعة للإمام ولم تترك
حتى أذعن بالطاعة للسلطان وقدمت الرهائن (٦) . أما الأكراد فقد اضطروا

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٠٤ ب ، الخزرجي : العقود
ص ٣٨٧ ، المسجد ص ٣٠٣ .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٠٥ أ .

(٣) ابن الديبع : قررة العيون ص ٨٧ ب ، زارة : أئمة الدين ص ٢١٥ .

(٤) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٢٨٨ ، المسجد ص ٣٦٢ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١٠٥ ب .

(٦) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٠٦ أ ، الخزرجي : العقود ج ١

ص ٣٩٣ ، المسجد ص ٣٦٤ .

بعد أن ساءت أحوالهم إلى مكاتبة السلطان وطلب عفو عنهم ، فاستجاب لهم .
وعادوا إلى الطاعة (١) في جمادى الآخرة سنة ٧١٠ هـ / أكتوبر ١٣١٠ م .
وقدموا له رهائن منهم (٢) .

أما الإمام فقد ظل الأمل يراوده في الاستيلاء على الحصون الواقعة إلى
الشمال من صنعاء ، ولم يكن من اليسير عليه تحقيق هذا الأمل دون مساعدته
الأكراد له ، فظل يغريهم منذ عام ٧١١ هـ بالعودة للانضمام إليه والخروج عن
طاعة المؤيد (٣) ، إلا أن السلطان بادر بإرسال حملة بقيادة إدريس عماد الدين
لإحباط هذا الحلف ، ولكن الإمام تمكن من هزيمة إدريس وأسرته في شعبان
٧١١ هـ (٤) / ديسمبر ١٣١١ م .

لم يبق إدريس في الأسر طويلاً ، إذ تمكن بعد أيام من الخلاص (٥) ،
وأعقب ذلك توصل طرفي النزاع إلى هدنة مدتها عام (٦) ، ولم تكد تفتتح
المدة حتى بعث الإمام رسالة إلى السلطان ، وتم التوصل إلى صلح مدته عشر

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٨ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢١٦ .

(٢) الخزرجي : المسجد ص ٣٦٥ .

(٣) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٠٦ .

(٤) الخزرجي : العقود ص ٢٩٧ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢١٦ .

(٥) الخزرجي : المسجد ص ٣١٦ .

(٦) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٠٧ ب ، الخزرجي :

المسجد ص ٢٦٧ .

سنوات (١) أخرى تبدأ من جمادى الآخرة ٧١٢ هـ (٢) أكتوبر ١٣١٢ م . فكان ذلك دافعا للاكتراد على ترك خدمة الامام ، وعندئذ اتجهت نية السلطان المؤيد إلى القضاء عليهم ، والتخلص من خطرهم . ولكنه لم يلبث أن صفح عنهم نتيجة توسط بعض المقربين إليه (٣) ، غير أنهم أثاروا فتنة أخرى في ربيع الأول سنة ٧١٣ هـ / يولييه ١٣١٣ م عندما أئتموا على قتل عدد من المماليك . ولكنهم ما أن علموا بقيام السلطان بإعداد حملة للقضاء عليهم ، حتى بادروا بإرسال بعض زعمائهم للاعتذار للسلطان عما بدر منهم ، فصفح السلطان عنهم بشرط ألا يعودوا إلى العصيان أو إثارة الشغب مرة أخرى (٤) .

د - حركة الناصر بن الأشرف :

كان السلطان المؤيد قد عمل - منذ خلف أخاه الأشرف في عرش السلطنة - على تسوية الخلافات مع أبناء أخيه ، وقربهم منه وأدناهم إليه وأكرم وفادتهم ، وظل أبناء الأشرف مطيعين لهممهم المؤيد ، غير أنه حدث سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م أن مرض السلطان المؤيد مرضا شديدا أشرف به على الموت ، فخشي الناصر جلال الدين محمد بن الأشرف أن يستولي أجد أبناء السلطان على السلطنة بعد وفاته ، ولهذا بادروا - بتعريض من قاضي القضاء جمال الدين محمد بن أبي بكر

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٠٨ ، زبارة : أئمة اليمن

ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٤٠١ .

(٣) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجي : المسجد ص ٢٦٨ .

(٤) زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢١٧ .

اليجيوى - بالكتابة إلى عدد من المناطق يدعورهم إلى الانضمام إليه وتأييده في الاستيلاء على السلطنة، ولجأ إلى جبل سوري^(١) قرب مدينة الجند وتحصن فيه. فلما علم السلطان المؤيد بهذه الثورة تجهز - رغم مرضه - وأسرع بالخروج على رأس حملة للقضاء على حركة الناصر، وظل محاصراً له حتى اضطره إلى طلب الأمان فأمنه السلطان وعفا عنه^(٢). أما قاضى القضاة فقد عزله السلطان^(٣) واعتقله في حصن تعز عقاباً له على تحريضه للناصر^(٤).

وأياً ما كان شأن تلك الحركات العدائية التي واجهت السلطان المؤيد أثناء فترة حكمه، فإنه استطاع لإحكام السيطرة على البلاد، ولم يتوان في القضاء على كل بادرة للخروج عن طاعته، وكانت قوائمه دائمة الحركة، مما أدى إلى حصر حركات الترد وسهولة مهمة القضاء عليها.

ويمكن القول بأنه على الرغم من الحركات الداخلية التي حدثت في عهده،

(١) جبل سوري، جبل حصين مطل على مدينة المهجم (ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١٤١ أ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٧٨) وهو إلى الشرق منها، ويقع على خط عرض ٣٠°١٣ شمالاً، وخط طول بين ٣٠°٤٠، ٤٠°٤٣ شرقاً. (EL-Khazrejiy : op. cit., p. 170, Note. 1173).

(٢) الخزرجي : المسجد ص ٣٧٨.

(٣) الجندى : السلوك ص ٢٧١، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٦٦ أ، الخزرجي : العقد الفأخر ج ٢ ص ١٦٠ ب، العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤١٨.

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١١٤ أ.

فقد نعمت البلاد خلال فترة حكمه - التي استمرت حوالي ست وعشرين عاما - بالهدوء والاستقرار النسبي الذي لم يتوفر به - هذه الدرجة لأسلافه من قبله . وكانت وفاته يوم الثلاثاء مستهل ذى الحجة سنة ٧٢١ هـ (١) / ٢٢ ديسمبر سنة ١٣٢١ م .

٥. إنشاء سلطنة المجاهد واضطراب اليمن في عهد : -

لما توفي السلطان المؤيد أجمع أمراء الدولة وأعيانها وعسكرها على سلطنة ولده المجاهد علي (٢)، وكان يبلغ من العمر وقتئذ خمسة عشر عاما (٣)، وكانت أحوال بلاد اليمن قد اضطربت بعد وفاة المؤيد (٤)، وتنافس أمراء بني رسول كل يريد الاستيلاء على عرش السلطنة، فساءت بذلك أحوال المجاهد وتقلص ملكه . كما تمرد الجند واستشرى عصيان القبائل، وزادت مطامع الزيدية، فكان

(١) الجندی : السلوك ص ٤٥٠ ، ابن عبد المجید : بهجة الزمن ص ١١٦ أ ، ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ج ١ ص ٢١٤ ، السبكي : طبقات الشافعية ج ٦ ص ١٠٣ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤٤٠ ، المسجد ص ٣٨٠ ، المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٢٣٤ ، العيني : عقد الجمان ، مجلد ٦١ ص ٣٥٢ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ج ٣ ص ١٧٠ ، حوادث الدهور ص ٣٧٥ .
(٢) العيني : عقد الجمان مجلد ٦١ ص ٣٥٢ ، الجندی : السلوك ص ٤٥٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٨ ب ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢٢ .

(٣) باخرمة : تاريخ نجر عدن ج ٢ ص ١٣٩ .

(٤) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ج ١ ص ٢١٥ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٥٤ ، المنهل الصافي ج ٣ ص ١٧٠ ، حوادث الدهور ص ٣٧٥ .

ذلك سبباً لاستمرار الفوضى في البلاد رغم المحاولات التي بذلها المجاهد وخلفاؤه
إلى نهاية الدولة (١) .

وترجع أسباب تلك الاضطرابات إلى سوء سياسة السلطان المجاهد ، فقد
قام بإقصاء أعوان أبيه وتقريب خاصته ، وبدأ بهزل نائب السلطنة وأتابك
العسكر جمال الدين محمد بن يوسف بن يعقوب ، وفوضها إلى شجاع الدين
عمر بن يوسف بن منصور (٢) ، وطامل أمراء الأجناد بمعاملة سيئة نفرتهم منه
وغيرتهم عليه . ولم ينته الأمر عند هذا الحد ، وإنما سيجلوا عليه عدة مواقف
جعلتهم يخشون على أنفسهم منه ، فقد قام في صفر سنة ٧٢٢ هـ (٣) / فبراير
١٣٢٢ م باعتقال ابن عمه الملك الناصر جلال الدين محمد بن الأشرف (٤) وكان
ذلك بإيعاز من نائب سلطنته شجاع الدين عمر بن يوسف (٥) ، لشائعة تنمق
باعترامه الخلف عليه سيما ، وقد سبق أن عصى المؤيد سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م .
كما كان لتصرف المجاهد بمنع وصول جثمان أبيه إليه في حصن تعز (٦) أثره .

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٩٤ - ٩٥ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١١٦ ب ، الخزر جي العقود ج ٢
ص ١ ، المسجد ص ٢٨٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٩ أ ، بالمخرمة :
تاريخ نغر عدن ج ٢ ص ١٣٩ .

(٣) الجندي : السلوك ص ٤٥٧ .

(٤) الخزر جي : العقود ج ٢ ص ١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٩ أ .

(٥) الخزر جي : المسجد ص ٢٨٧ .

(٦) بالمخرمة : تاريخ نغر عدن ج ٢ ص ١٣٩ .

في إثارة مشاعر السخط عليه . ومن الأمور التي أغضبت الجند ، أن العادة السلطانية جرت على أن يقوم السلطان - عند كل زيارة الحصن الدمولة - بالإنعام على كافة العسكر والمرتبين فيه ، ولكن المجاهد أبطل هذه العادة ، وأسك يده ولم ينعم على أحد منهم عند زيارته لهذا الحصن (١) . وفيما يلي عرض لأهم أحداث عصره .

١ - الصراع على العرش بين المجاهد وبين الظاهر ونائبه :-

كان المجاهد نفعه الحنكة السياسية والقدرة على إدارة شؤون البلاد ، وكان يفتقر إلى الخبرة ، مما جعله أسير حاشيته ومنفذ لما يشيرون به عليه . فكان اكل ذلك أثره السيئ على نفوس العسكر وأمرائهم الذين أيقنوا أنه لن يستقيم لهم أمر معه ، ولهذا قرروا الخلاف عليه والتجريح عن طاعته (٢) . وبدأت ثورتهم بقتل نائب السلطنة ومن كان معه كقاضي القضاة وغيرهما من كبار أعوان المجاهد (٣) . واتبعوا ذلك بالقبض على المجاهد نفسه (٤) في الثامن من جمادى الآخرة سنة ٧٢٣هـ (٥) / ٢٤ / يونيو ١٣٢٢م وعزلوه عن السلطنة وأقاموا عمه المنصور أيوب بن المنظر سلطانا على اليمن (٦) ، وسلموا

(١) الخزرجي : المسجد ص ٣٨٧ .

(٢) الخزرجي : المسجد ص ٢٨٧ .

(٣) الخزرجي : نفس المصدر والصفحة .

(٤) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٣ - ٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٨٩ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١١٠ ، ابن شاكر : فوات الوفيات

ج ١ ص ٢١٥ ، المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٢٣٨ .

(٦) الجندى : السلوك ص ٤٧ ، العيني : عقد الجمان مجلد ٦١ ص ٣٥٣ .

نظاميه المجاهد فسجنه في حصن تعز (١) . وحلفت العساكر المنصور أيوب ،
فأثبت فيهم الأُمَـرَـالَ الكبيرة وأغدقها عليهم وعلى غيرهم من العامة ، حتى بلغ
مقدار ما أنفق خلال فترة سلطنته القصيرة سبعمائة ألف دينار غير التشاريف
والإنعامات الكبيرة (٢) من الملابس والخيول وغيرها ، (٣) فحظى بحب الجميع
وقائدهم . كذلك كانت له الإشراف الزبديّة وهناؤه بالسلطنة وبذلوا له
الطاعة (٤) . وكان من أولى أعماله إطلاق سراح ابن أخيه الناصر جلال الدين
محمد بن الأشرف ، وكان المجاهد قد سجنه في عدن (٥) ، فأفعله المنصور
بمدينة القحمة (٦) .

وعلى الرغم من أن المنصور أيوب اختص أعوانه بالمناصب والإعطائات ،
وكنسب قلوب الجند بالهبات والعطايا ، فإنه لم يحترز أتباع المجاهد ، بل أبقام

(١) الجندي : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجي : المسجد ص ٣٨٨ ،
ابن الديبع : قرّة العيون ص ٨٩ أ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١١٧ أ ، باخرمة : تاريخ ثغر عدن
ج ٢ ص ١٤٠ .

(٣) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٤ - ٥ المسجد ص ٣٨٨ .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١١٧ أ .

(٥) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٣ ، المسجد ص ٣٨٧ ، زبارة : أنمة
الدين ج ١ ص ٢٢٢ .

(٦) الخزرجي : العقود ص ج ٢ ص ٤ ، المسجد ص ٣٨٨ ، ابن الديبع :
قرّة العيون ص ٨٩ أ - ب .

في خدمته ، فكانت سراياهم تسمى في الجند^(١) ، مما أتاح الفرصة لبعض غلمان
المجاهد لتنفيذ خطة والدته بتسليق حصن تعز ليلاً وذلك بالتآمر مع عبيد
الشر بخانه والطشتخانه ، الذين أدلوا إليهم الحبال ، بحيث تمكن أربعون منهم
من تسليق الحصن ليلة السادس من رمضان سنة ٥٧٢٢ هـ^(٢) / ١٨ سبتمبر ١٣٢٢ م ،
وفاجأوا المنصور أبوب علي حسين غرة واعتقلوه وأطلقوا سراح الساطان
المجاهد^(٣) . ونشلت جميع المحاولات التي بذلت لنصرة المنصور أبوب^(٤) .
وتعهد المجاهد بتأمين ممالك أبيه وكتب لهم العهود والذمم بحضور القاضى
والشهود وأعيان الدولة^(٥) .

وإذا كان المجاهد قد نجح في استرجاع الساطنة ، إلا أن الأمور لم تصف
له ، وواجهته عقبات كثيرة منها ، أن الظاهر أسد الدين عبد الله بن المنصور
أبوب كان قد استقر في حصن الدملة^(٦) وتمكن فيه منذ أيام أبيه المنصور

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١١٧ ب .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٣٨٨

ص ٤ - ٥ ، المسجد ص ٣٨٨

(٣) الجندي : السلوك ص ٤٥٧ العيني : عقد الجمان مجلد ٦٢ ص ٣٩٢

زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢٢٣ .

Playfair : A History of Arabia Felix. Bombay 1859, p. 90.

(٤) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٥ - ٦ ، المسجد ص ٣٨٩ .

(٥) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١١٨ أ ، ابن الديبع : قرة العيون

ص ٨٩ ب .

(٦) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٤ ، المسجد ص ٣٨٨ ابن الديبع : نفس

المصدر والصفحة :

أَيُوب، فلما استرد المجاهد عرشه واعتقل عمه المنصور أَيُوب، طلب منه مكاتبة ابنه الظاهر عبد الله لتسليم حصن الدملوة، ولكن الظاهر امتنع^(١) رغم تهديد المجاهد بقتل أبيه^(٢).

وهكذا بدأ دور جديد من أدوار الصراع الرهيب بين السلطان المجاهد وبين ابن عمه الظاهر وشرع المجاهد في تجهيز حملة بهدف الاستيلاء على حصن الدملوة والقضاء على عصيان الظاهر، ولكن هذه الحملة أرغمت على الانسحاب لضعف الحصن وصعوبة السيطرة عليه. ومن ناحية أخرى كان للصراع على السلطنة أثره في اضطراب أحوال كثير من المناطق. ويصف ابن عبد المجيد الأحوال بمخلاف جعفر وما قام به رؤساء القبائل وأنباغهم من أعمال بقوله: «وملكوا أملاك الملوك، ونهبوا (مدينة) جبلة وأخذوا جميع ما بها حتى حصر الجامع، واستفصوا الأبقار عند المنبر». ^(٣)

وانسعت دائرة الخلاف، وحدثت أمور لم يسبق حدوثها من قبل، ففي سنة ٥٧٢٣ هـ / ١٢٢٣ م انضم كثير من الجند إلى الظاهر بن المنصور أَيُوب، فأغدى عليهم الأموال وأكرمهم، وأعدهم لمقاتلة سلطانهم المجاهد بن المؤيد^(٤) وتمكن الظاهر بمساعدة هذه القوات من الاستيلاء على مدينة الجند في ربيع

(١) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ١١٨ أ، الخزرجي: العقود ج ٢ ص ٦، المسجد ص ٣٩٠، ابن الديبع: ص ٩٠.

(٢) العيني: عقد الجمان مجلد ٦٢ ص ٣٩٢.

(٣) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ١١٨ ب.

(٤) ابن عبد المجيد: نفس المصدر والصفحة.

الأول سنة ٧٢٢ هـ (١) / مارس ١٣٢٣ م. ثم وجههم الظاهر إلى تعز عاصمة دولة بني رسول ومقر حكم السلطان المجاهد ، وفشلت محاولة المجاهد في التصدي لهذه الحملة . وبذكر المؤرخ اليمني تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد ، أنه لم يكن الجيشان يشتبكان حتى نكس أتباع المجاهد رماحهم ، ونادوا بإظهارية . وانتظم العسكر بكامله ظاهرياً ، (٢) . ودخلت هذه القوات إلى مدينة تعز . ودخولاً معظمها ، وحاصرت السلطان المجاهد في قلعتها ، وأصبحت نهاية المجاهد . متوفرة على سقوط القلعة . ولكن المجاهد استطاع بوسائله الخاصة أن يضمن ولاء بعض المحاصرين للقلعة ، والاتفاق معهم على تسليم قيام حامية القلعة بمفاجأة القوات المحاصرة ، ونجحت الحطة واستطاعت الحامية أسر عدد من أمراء المماليك (٣) ، مما أدى إلى اضطراب القوات المحاصرة ، وانفكك الحصار . وعودة القوات إلى الظاهر (٤) . فبخلص المجاهد وعاصمته تعز من خطر محقق .

وعلى الرغم من إخفاق الظاهر في الاستيلاء على قلعة تعز ، وفشل قواته

(١) الجندي : السلوك ص ٤٥٨ .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١١٩ أ .

(٣) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة ، الجندي : السلوك ص ٢٤٢ ،

الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٢ ب .

(٤) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١١٩ ب ، الجندي : السلوك ص ٤٥٨

الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١٢ ، المسجد ص ٣٩٣ .

في الاحتفاظ بالمدينة، إلا أنه لم يتردد بعد عودة قواته إليه في إعادة تنظيمها حيث تمكنت من الاستيلاء على مدينة زبيد وذلك في أول رجب سنة ٧٢٣هـ (١) / ٦ يولية ١٣٢٣ م، واستباح بيوت أعوان المجاهد، وسلبت ما فيها من ثنائس (٢) وأصبحت الخطبة في تهامة للظاهر، وضربت السكة باسمه (٣).

أما المجاهد، فقد واصل محاولاته المستميتة للصمود أمام هذا الطوفان الجارف، فأرسل حملة في شهر رجب سنة ٧٢٣هـ (٤) / يولية ١٣٢٣ م لاسترداد مدينة زبيد (٥)، ولكن قوات الظاهر المسيطرة عليها نصبت لها، وتمكنت من هزيمتها، ووقع ثائدها أسيرا، بين قتل عدد كبير من أفرادها (٦). ونشط الموالون للظاهر، فتمكن والى الحج من الاستيلاء على مدينة عدن (٧) وأخرجها عن سيطرة المجاهد وذلك في شعبان ٧٢٣هـ (٨) / أغسطس ١٣٢٣ م وهكذا فشلت محاولات المجاهد، ونخرج موقفه « واستقرت المماكة كلها »

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٢٠ أ .

(٢) العيني : عقد الجمان مجلد ٦٢ ص ٣٩٣ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١٢٠ أ .

(٤) الخزرجي : العقود ٢ ص ١٣ ، المسجد ص ٣٩٦ .

(٥) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة ، العيني : عقد الجمان ، مجلد ٦٢ .

ص ٢٩٣ . Playfair : A History of Arabia Felix, p. 91 .

(٦) الجندي : السلوك ص ٤٦٠ ، العيني : عقد الجمان ، نفس المصدر والصفحة

(٧) العيني : نفس المصدر ص ٣٩٤ ، باخرمة : تاريخ نجر عسبدن ص ٢٠

ص ١٤٠ .

(٨) الجندي : السلوك ص ٤٦٠ ، ٤٧٠ ، ٤٧٣ ، الخزرجي : العقود ص ٢٠

ص ١٣ ، المسجد ص ٣٩٦ .

ظاهرة... ولم يبق مع السلطان الملك المجاهد غير حصن تعز^(١).

وعزم الظاهر على استكمال السيطرة على البلاد، والاجهاز على المجاهد والاستيلاء على عرش السلطنة والاستحواذ عليها لنفسه، ولذلك أرسل في شهر ربيع الأول ٧٢٤هـ / مارس ١٣٢٤م حملة إلى تعز لمحاصرة حصن المدينة وقطع المياه عنه، وتم حصار الحصن وضربه بالمنجنيقات، حتى بلغت كمية الأحجار التي ألقيت عليه أربعة آلاف حجر « وخربت تعز خراباً لا يتدارك وخلت أكثر بيوتها »^(٢) ولم يجد المجاهد سبيلاً إلى الخلاص. فاجأ الاستيلاء بكافة القوى، واستخدام المال لاستمالة القوى الداخلية. فاجاب له الزيدية وأكراد ذمار وأشراف الخلف السليمانى - شمالي تهامة - بالإضافة إلى بعض القبائل، وتوافدت عليه بجياداتهم. وعندما حاول الظاهر عرقلة هذه النجيدات اضطر إلى مصادمتها في معركة عنيفة في وادى جاحف - بالقرب من مدينة الكراء - أسفرت عن هزيمته^(٣) وركنت قواته إلى الفرار في العشرين من ذى الحجة سنة ٧٢٤هـ^(٤) / ٨ ديسمبر ١٣٢٤م ولادت بمدينة زيد. وهكذا كانت هزيمة الظاهر في وادى جاحف بداية لاستعادة المجاهد لقوته^(٥)

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٢ ب .

(٢) ابن عبد المجيد : ص ١٢١ ، الجندي : السلوك ص ٢٢٦ .

(٣) الخزرجى : العقود ص ٢ ، زيارة : أئمة اليمن ص ٢٢٤ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٩١ .

(٥) ابن شاكر : فوات الوفيات ص ١٠٥ .

ورجحان كمنته ، خاصة بعد نشوب الخلاف بين قوات الظاهر في زبيد وتبرم أهل المدينة منهم ولرغابهم على الخروج منها في ربيع الأول سنة ٧٢٥ هـ (١) / فبراير ١٣٢٥ م .

وكان من الطبيعي أن تستغل جماعة من المنتفعين الانتماء لزين فرصة هذا الصراع المريع ، الدائر بين المجاهد وابن عمه الظاهر عبد الله على السلطنة ، فيخادعون الجانبين ويستولون على جاميكة من كل منها (٢) ولهذا كان من مصلحتهم استمرار هذا النزاع ليتحقق لهم من ورائه مكاسب عديدة ، ولكن ما أن نجح المجاهد في استعادة نفوذه ، حتى بدأت القوى المؤيدة للظاهر تسعى إلى تحقيق مكاسب شخصية ، مستغلة الصراع القائم لمصلحتها ، ومن أمثلة ذلك أن والي الحج - وهو ابن الدويدار - قد توجه بما تجمع لديه من قوات الظاهر التي أرغمت على التخلي عن مدينة زبيد ، إلى مدينة عدن ممنيا نفسه بالاستيلاء عليها . فلما وصلها تظاهر له واليها بالطاعة ، وأقنعه بعدم دخول المدينة بكل جيشه حتى لا يتعرض للنهب ، والاكتفاء باستصحاب عدد من خاصته ، ولكنه ما كاد يدخل المدينة حتى غدر به والي عدن وقتله في ربيع الأول سنة ٧٢٥ هـ / فبراير ١٣٢٥ م ، مما أدى إلى نشبت القوات التي كانت تنتظره خارج المدينة (٣) .

(١) الخزرجي : العقود ٢ ص ٢٦ - ٢٧ ، المسجد ص ٤٠١ - ٤٠٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩١ ب .

(٢) الجندی : السلوك ص ٢٧١ ، الخزرجي : العقود ٢ ص ١٣ - ١٤ ، المسجد ص ٣٩٦ .

(٣) الخزرجي : العقود ٢ ص ٢٥ - ٢٦ ، المسجد ص ٤٠١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩١ أ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢٢٥ .

سواء كان خضعت كل من عدن وزبيد للمجاهد بغير كبير عناء ، وخطب له فيها ، وأبطلت الخطبة للملك الظاهر من منابر تهامة (١) . وأخذت الجوع في المروحة إلى طاعة السلطان المجاهد مما شجعه على زيارة المناطق التي أعلنت خضوعها لله ، بقصد تفقد أحوالها والعمل على إصلاح أوضاعها . وإقرار الأمور فيها (٢) . وكان مجرد طواف السلطان المجاهد سببا في تفكك القوى المعادية له (٣) ، ولم يبق أمام البقية الباقية من اتباع الظاهر من أمل سوى اللجوء إلى الناصر . ابن الأشرف والزامه بالقيام بالملك (٤) ، ولكن هذه المحاولة فشلت نتيجة لتتمكن المجاهد من اعتقال الناصر وسجنه ، نظل حبيسا إلى أن مات في شهر رجب سنة ٧٢٥ هـ (٥) / يونية ١٣٢٥ م .

كان السلطان المجاهد قد أرسل إلى السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون — عندما تخرج موقفه وعجز عن مقاومة منافسه الظاهر — لانجاده بقوة عسكرية . فانتفضا . على منافسة ابن عمه له ، وإقرار الأوضاع الداخلية في اليمن ، مقابل الولاء لناصر وذكر اسم السلطان الناصر في الخطبة على منابر اليمن . وتكررت

(١) الخزر جى : العقود > ١ ص ٢٨ ، المسجد ص ٣ ، ابن الديبع : حرة العيون ص ٩١ ب .

(٢) الخزر جى : العقود > ٢ ص ٢٩ - ٣ ، المسجد ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

(٣) الخزر جى : العقود > ٢ ص ٣ ، المسجد ص ٤٠٥ .

(٤) الخزر جى : العقود > ٢ ص ٢٨ ، المسجد ص ٤٠٤ ابن الديبع :

تقسيم المصدر ص ٩٢ أ ، باخرمة : تاريخ نعر عدن > ٢ ص ١٤٢ .

(٥) الخزر جى : العقود > ٢ ص ٣١ ، المسجد ص ٤٠٥ .

مطالبة المجاهد للنجدة إلى أن استجاب له السلطان المملوكي وأرسل الحملة المطلوبة (١). ولكنها وصلت بعد النجاح النسبي الذي أحرزه المجاهد ضد خصمه الظاهر. وكان لكبر حجم الحملة وعظم ما زودت به من آلات أعظم الأثر في تخوف السلطان المجاهد من إقدامها على السيطرة على اليمن، وقد انعكس هذا التخوف على موقف المجاهد من الحملة من حيث إساءته معاملتها. وتعمده منع إمداد الحملة باحتياجاتها الغذائية الضرورية، ووضع العراقيل أمامها وعدم الإفادة منها، في القضاء على الاضطرابات الداخلية، مما خلق أجوا من التوتر وعدم الثقة دعا قادة الحملة إلى الاستجابة لطلب المجاهد بالعودة إلى مصر بحجة أنه لم يعد في حاجة إلى مساعدة تلك القوات الكبيرة. فغادرت الحملة البلاد في شعبان ٧٢٥ هـ (٢) / يولية ١٣٢٥ م.

ما أن اطمأن المجاهد إلى خروج القوات المصرية، حتى بدأ جولة تفقدية لبعض المناطق، وكان الأمور قد استقامت له نهائياً، فزار مدينة الجند ثم توجه إلى لحج ومنها قصد عدن (٣)، ولكنه لم يستطع دخولها لمقاومتها.

(١) عن تفصيلات هذه الحملة، انظر الفصل الرابع، وأبو الفدا: المختصر ج ٤ ص ٩٧، النويري: نهاية الأرب ج ٣١ ص ٥٨ - ٦٠، المقرئ: السلوك ج ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٨، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٨٤، العيني: عقد الجمان مجلد ٦١ ص ٤٣٠، باخرمة: تاريخ تغر عدن ج ٢ ص ١٤٢ وما بعدها، ابن الديبع: قرة العيون ص ٩٢ - ٩٣.

(٢) الخزرجي: العقود ج ٢ ص ٢٣، المسجد ص ٤٠٨ - ٤٠٩، ابن الديبع: قرة العيون ص ٨٢ ب - ٨٣ أ.

(٣) الخزرجي: العقود ج ٢ ص ٢٤، المسجد ص ٤٠٩ - ٤١٠، العقلي: الفاخر الحسن ج ٢ ص ٣٨ أ، باخرمة: تاريخ تغر عدن ج ٢ ص ١٢٣.

الله وخروجها عن طاعته وموالاتها للظاهر ، فاضطر إلى أن يعرج على زيد^(١) ،
فوصلها في رمضان سنة ٧٢٥ هـ / أغسطس ١٣٢٥ م . وفي نفس الوقت توجه
الظاهر إلى عدن ودخلها^(٢) . ثم شغل المجاهد بتنظيم شؤون المناطق الموالية له
استعدادا لجولة أخرى ضد الظاهر ، فولى عليها المقربين له من نقاته^(٣) . فلما
تم له ذلك خرج على رأس حملة إلى عدن ، واشتبك مع قوات الظاهر في عدة
مواقع ، في شهر صفر ٧٢٦ هـ / يناير ١٣٢٦ م ، فخالفه النصر في بعضها ،
ولكنه اضطر إلى الانسحاب عندما بلغه أن الامام الزيدى محمد بن مطهر في
طريقه لمناصرة الملك الظاهر^(٤) . وظل السلطان المجاهد يتحين الفرصة
للخلاص من خطر الظاهر ، مع تجنب الصراع مع الامام الزيدى ، ثم وافته
الفرصة التي كان يتربص بها ، عندما غادر الامام عدن في طريقه إلى بلاده ، فأسرع
السلطان المجاهد لمحاربة الظاهر الذي لجأ إلى حصن السمدان^(٥) .
وبالتجاء الظاهر إلى حصن السمدان ركز السلطان المجاهد جموده للاستيلاء

(١) زيارة : أئمة اليمن ص ٢٢٦ .

(٢) الخزر جى : المسجد ص ٤١٠ - ٤١١ ، زيارة : أئمة اليمن ص ١

ص ٢٢٦ .

(٣) الخزر جى : العقود ص ٢ ص ٣٦ ، المسجد ص ٤١١ .

(٤) الخزر جى : العقود ص ٢ ص ٤٠ - ٤١ ، المسجد ص ٤١٢ ، ابن الديبع :

نفس المصدر ٩٣ أ ، زيارة : أئمة اليمن ص ١ ص ٢٢٦ .

(٥) الخزر جى : المسجد ص ٤١٣ ، العقد الفخر ص ٣٩ أ ، باخرمة :

تاريخ ثغر عدن ص ٢ ص ١٤٤ .

من حصن الدماية وذلك بهدف قطع خط الرجعة على الظاهر ، وفي نفس الوقت عمل المجاهد على استمالة حامية الحصن ، ونجح في ذلك ، وتمكن من الاستيلاء عليه في صفر سنة ٧٢٨ هـ / ديسمبر ١٢٢٧ م مقابل مبلغ ستة آلاف دينار^(١) . وكانت والددة الظاهر وأخته في الحصن فنقاما بالمجاهد إلى دار الإمارة في حصن تمز وتحفظ عليهما ، وقت وقوعهما - في يد المجاهد - في همة الظاهر ، وفقد القدرة على التصرف السليم ، فعندما أبدت بعض القبائل استهادهما للاستيلاء على حصن الدملوة وإعادته للظاهر ، رفض مدحهم بذلك أو الرجال وجنح إلى المسالمة^(٢) .

وكان المجاهد قد سير قوة في رمضان سنة ٧٢٧ هـ / يولية ١٢٢٧ م لمحاصرة عدن ، وتمكنت هذه القوة من الاستيلاء عليها في صفر سنة ٧٢٨ هـ / ديسمبر ١٢٢٧ م . وهو نفس الشهر الذي استولى فيه على حصن الدملوة - وصفاة القول أن المجاهد تمكن من التخلص من منافسات أمراء البيت الرسولي - بعد أن عقد الصلح مع الظاهر في المحرم سنة ٧٣٠ هـ^(٣) / أكتوبر ١٢٢٩ م -

(١) الخزرجي : العقود ٢ ص ٤٧ ، المسجد ص ٤١٤-٤١٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٣ ب ، بالخزمية : تاريخ نجر عدن ص ٢ ص ١٤٥ .

(٢) الخزرجي : العقود ٢ ص ٥٢ ، المسجد ص ٤٢ .

(٣) الخزرجي : العقود ٢ ص ٤٤ و ٤٨ ، المسجد ص ٤١٥-٤١٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٤ أ .

(٤) الخزرجي : العقود ٢ ص ٥٥ ، المسجد ص ٤٢٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٥ أ .

ولإذا كان الظاهر قد استمر مقبلاً في حصن السمدان كالمحصور^(١) ، فإن انقضاء أتباعه من حوله^(٢) جعله يستغيث بقاضي القضاة جمال الدين محمد ابن مؤمن ليتوسط له في طاب الأمان من السلطان المجاهد ، واستجاب المجاهد له وعفى عنه وعن أهله وحاشيته عفواً شاملاً ، فنزل الظاهر بناء على ذلك من حصن السمدان في شهر المحرم سنة ٧٣٤ هـ / سبتمبر ١٣٣٣ م برفقة قاضي القضاة ابن مؤمن ، ولكنه ما كاد يمثل أمام المجاهد حتى أمر باعتقاله وسجنه في حصن تعز حيث توفي في ربيع الآخر ٧٣٤ هـ^(٣) / ديسمبر ١٣٣٣ م . وقيل أنه مات مخنوقاً بتدبير المجاهد^(٤) .

٢ - أساليب المجاهد الانتقامية مع خصومه وقتلهم :

والحقيقة أن الظروف السيئة التي مر بها السلطان المجاهد كان لها أدنى الأثر في غرس بذور الشك في نفسه ، واستغل المقربون إليه ذلك للايقاع بالكثيرين ، فكان سريع الاستجابة للوشايات ، يأخذ بالظن ولا ينتظر حتى يتوصل إلى الحقيقة^(٥) . وكان يحكم التجارب المريرة التي تعرض لها ، فنيهاً

(١) الخزرجي : المسجد ص ٤٢٨ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٥ ، زيارة : أئمة الدين ج ص ٢٤٤ .

(٣) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٩١ ، المسجد ص ٤٢٨ - ٤٢٩ ، العقد

الفاخر ج ٢ ص ٣٩ ب ، باخرمة : ج ٢ ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٤) المقرئ ، السلوك ج ٢ ص ٣٧٦ ، ابن تغري بردي : النجوم ج ٩

ص ٣٠٢ ، المنهل الصافي ج ٣ ص ٤٢٠ .

(٥) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٣٦ و ٤٢ و ٥٥ و ٥٦ و ٥٧ و ٥٨

٦٢ و ٦٤ ، المسجد ص ٤١١ و ٤٢ و ٤٢٣ و ٤٢٥ و ٤٢٦ و ٤٢٩ و ٤٣٢ ،

ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٥ ب و ٩٦ أ .

في انتقامه خاضعة مع هؤلاء الذين ناصروا خصومه ، ولهذا كان إذا ظفر بهم
تفنن في التكميل بهم كحلا وقتلا وشنقا وتغريقا ، مع حرق دورهم وتخريب
قراهم واقتلاع زروعهم ^(١) ، ونادرا ما كان يعفو عن بعضهم أو يؤمنهم ولكن
إلى حين ^(٢) . واستخدم تلك الأساليب الانتقامية مع كل من وقع في يده من
أتباع الظاهر ^(٣) ، وكذلك كانت معاملته لنبائل المعازبة الذين انتهزوا فرصة
الصراع على السلطنة وخرجوا عن طاعته وتكرر تمردهم ولم يكتف بتخريب
مسكنهم وإحراقها وقتل الكثيرين منهم ^(٤) واستباحة ديارهم ، بل بالغ في
إذلالهم بأن ولي عليهم امرأة منهم يقال لها لينة عاطف ^(٥) فكان لذلك الأثر
في استزالهم .

(١) الخزر جى : العقود ح ٢ ص ٣٦ و ٤٢ و ٤٨ و ٥٠ و ٥٥ و ٦٩ ،
المسجد ص ٤١٠ - ٤١١ و ٤١٣ و ٤٢٠ و ٤٢٤ و ٤٢٦ و ٤٣٤ ، ابن الديبع :
قرة العيون ص ٩٣ ب و ٩٤ أ و ٩٥ أ و ٩٦ ب ، باخرمة : تاريخ نمر عدن
ص ١٤٥ .

(٢) الخزر جى : العقود ح ٢ ص ٥٠ و ٥٩ ، المسجد ص ٤١٩ و ٢٨ ،
ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٤ أ ، ٩٥ ب .

(٣) الخزر جى : العقود ح ٢ ص ٤٨ ، المسجد ص ٣١٦ ، ابن الديبع :
قرة العيون ص ٩٤ أ .

(٤) الخزر جى : العقود ح ٢ ص ٣٥ ، المسجد ص ٤١٠ - ١١ ، باخرمة :
تاريخ نمر عدن ح ٢ ص ١٤٣ .

(٥) الخزر جى : العقد الفاخر الحسن ح ٢ ص ٣٩ أ و ٤٠ ب ، زيارة :
أئمة اليمن ح ١ ص ٢٤٥ .

و كيفما كان الأمر فإن حملات المجاهد لاستكمال استرجاع بقية اليمن لم تتوقف بعد أن تخلص من خصمه الظاهر واستبدل العصاه والمتمردين ، ونجح في السيطرة على كثير من البلاد وأذعنت له القبائل وعاد المخالفون فيها إلى الطاعة طوعاً أو كرهاً (١) تجنياً للانتقامه .

وبعودة الاستقرار النسبي إلى بلاد اليمن عزم السلطان المجاهد على أداء فريضة الحج ، وكانت العلاقات بينه وبين أشرف مكة حسنة (٢) ، بدليل أن الشريف تقيبة ابن أمير مكة رميثة بن أبي نمنى قدم إليه باليمن ليكون في معيته إلى مكة (٣) . وخرج المجاهد من تعز في شوال سنة ٧٤٢ هـ / مارس ١٣٤٢ ومعه عدد كبير من قـوائمه (٤) ومر في طريقه على كثير من المقاطع اليمنية لتفقد أحوالها . واستقبله رميثة وأكابر أهل مكة عند مشارف الحجاز ، فأحسن المجاهد لقاءهم وأكرمهم وأجزل لهم العطاء (٥) وكان وصوله إلى مكة في الثاني

(١) الخزرجي : العقود > ٢ ص ٦٠ و ٦٥ و ٦٧ و ٨١ ، المسجد ص ٤٢٨ و ٤٣٢ و ٤٤٢ والعقد الفاخر > ٢ ص ٣٩ ب ٤ ، ٤٠ ب ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٥ ب ٩٦ ، باخرمة : تاريخ نعر عدن > ٢ ص ١٤٦ ، ١٤٧ ، زبارة : أئمة اليمن > ١ ص ٢٤٦ .

(٢) الخزرجي : العقد الفاخر > ٢ ص ٤٠ ب ، باخرمة : نفس المصدر . والجزء ص ١٤٧ .

(٣) الخزرجي : المسجد ص ٤٣٤ .

(٤) الخزرجي : العقد الفاخر > ٢ ص ٤٠ ب ، العقود > ٢ ص ٦٩ - ٧٠ .

(٥) باخرمة : نفس المصدر والصفحة .

من ذى الحجة (١)، وخلع على أميرى الركب المصرى والشامى وأكرمهم (٢).
ثم غادر مكة عائداً إلى اليمن بعد أن أدى فريضة الحج فى الثامن عشر من
ذى الحجة سنة ٨٤٢ هـ (٣) / ٢٥ مايو سنة ١٣٤٢ م ، فاستقبل فى طريق عودته
استقبالا حافلا فى جميع المراضع اليمنية التى صربها ، وكان وصوله إلى زبيد فى
الثالث من صفر سنة ٨٤٣ هـ (٤) / ٨ يولية ١٣٤٢ م ، ومنها توجه إلى تعز ،
وأنعم على كانه عسكريه وبشيء كثير من الذهب والنقضة وأعطاهم من الكساوى.
وخلع على قدر مراتبهم ، (٥).

أما عن الأمثلة الدالة على أساليبه الانتقامية مع خصومه، ما كان من مران مع
ابنه المؤيد ، فكان المجاهد قد أقطعه مدينة الجثة (٦) ولكن المؤيد كان بطمع فى
عرش السلطنة لنفسه ، فلم يلبث أن شق عصا الطاعة على أبيه احتجاجا عليه.
لتقديم أخيه الأصغر المظفر بن المجاهد عليه (٧) ولهذا استولى على مدينة المهجم.

(١) الخزرجى : العقود ٢ ص ٧٠ - ٧١ ، المسجد ص ٤٣٥ .

(٢) الخزرجى : المسجد ص ٤٣٦ .

(٣) الخزرجى : العقود ٢ ص ٧١ - ٧٢ .

(٤) الخزرجى : المسجد ص ٤٣٧ - ٤٣٨ ، العقد الفاخر ٢ ص ٤٠ ب .

(٥) الخزرجى : العقود ٢ ص ٧٣ - ٧٤ ، المسجد ص ٤٣٩ .

(٦) الجثة ، مدينة معروفة بين الكدراء والمهجم (العقد الفاخر ٢ ص

١٥٠ د أ) ونقع على خط عرض ١٥٢° شمالا ، وخط طول ٤٣° ٢٣' .

شرقا على وجه التقريب . (EL-Khazrejiy . op. cit, vol. III,

3, Note 1129).

(٧) الخزرجى : العقود ٢ ص ٧٧ ، المسجد ص ٤٤٠ ، ابن الديبع :

قرة العيون ص ٩٦ ب .

في رمضان سنة ٥٧٤٤ / يناير ١٣٤٤ م . فلما علم المجاهد أرسل حملة بقيادة . موفق الدين عبد الله بن علي البيهقي وزيره وقاضي قضااته ، ثم أردفه بحملة أخرى (١) ، وسعى قائدا الحملةين علي أخذ المؤيد باليمن وعدم الاشتباك في حرب معه ، وراسلناه وأقنعناه بالعودة إلى طاعة أبيه مع ضمان تأمينه (٢) ، وتوجهها به في آخر المحرم سنة ٥٧٤٥ / يونية ١٣٤٤ م إلى تعز ، ولكن أباه طابه وضربه ضربا مبرحا وحبسه ، فلم يلبث إلا قليلا ومات في سجنه (٣) .

وبالرغم من الأساليب الانتقامية التي كان يلجأ إليها السلطان المجاهد ، فإن ذلك لم يمنع بعض العناصر من التماس الأسباب للزوع - بين حين وآخر - للمصيان وإثارة الفلافل ضده . ففي ربيع الآخر سنة ٥٧٤٧ / يولييه ١٣٤٦ م . ثار بعض المماليك بسبب تأخر تفقاتهم ، واتفقوا على القبض على المجاهد (٤) . منتهزين فرصة وجوده في مصيفه على البحر بالقرب من زبيد في قاييل من عسكره . ولضمان نجاح حركتهم عملوا على ضم أحد أفراد أسرة بني رسول إليهم ، فاتصلوا بابن أخيه ، وهو الفاتر أبي بكر بن حسن بن داود ، الذي .

(١) الخزرجي : العقود ٢ ص ٧٦ ، المسجد : ص ٤٤٠ ، العقد الفاخر .
 ح ٢ ص ٤٠ ب ، ابن الديبع : قررة العيون ص ٩٦ ب ، بانخرمة : تاريخ نغر .
 عدن ح ٢ ص ١٤٧ .

(٢) الخزرجي : المسجد ص ٤٤٠ .

(٣) الخزرجي : العقود ٢ ص ٧٦ ، المسجد ص ٤٤٠ ، العقد الفاخر .
 ح ٢ ص ٤٠ أ ، ابن الديبع : قررة العيون ص ٩٦ ب ، بانخرمة : تاريخ نغر عدن .
 ح ٢ ص ٢٤٧ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢٤٦ .
 (٤) ابن الديبع : قررة العيون ص ٩٦ ب .

«امتنع عن الاشتراك معهم خوفاً من انتقام عمه ، وما زالوا به حتى أفتوه بخفاء خبر انضمامه إليهم إلى ما بعد نجاح مهمتهم في القبض على السلطان (١) . وكانت خطتهم تقضى بالتوجه إليه في آخر النهار والنظار بأنهم إنما قدموا للمطالبة بالجامكية ، وكان من الممكن أن تنجح المؤامرة لو لم يتوفر عنصر الخيانة ، فلقد أسرع من أبلغ السلطان بالمؤامرة ، فبادر السلطان المجاهد إلى اتخاذ الحيلة وغادر المصيف ، وفوت عليهم الفرصة ثم لم يلبث أن أمر بالقبض على الفائز ، فظل سجيناً في حصن تعز إلى أن مات (٢) . أما بقية أطراف المؤامرة من المماليك فقد انتقم منهم بطريقة المعنادة بالقتل والشق والتغريق (٣) .

٣ - نهاية المجاهد :-

عزم المجاهد على أداء فريضة الحج للسرة الثانية ١٢٧١هـ / ١٣٥١م فغادر مدينة تعز في شوال ، واستصحب معه والدته وابنه العادل . وكانت الأحوال في مكة قد تغيرت بعد وفاة الشريف رميثة بن أبي نعي إذ تمكن لابنه الشريف عجلان من الاستيلاء على مكة ، وحال وبين أخيه ثقبه بن رميثة - الموالي للسلطان المجاهد - فلما توجه المجاهد للحج صحبه الشريف ثقبه (٤) ، أشيع أن المجاهد سوف يقوم - بعد عودة ركب الحاج المصري - بالقبض على الشريف عجلان ، وسيولي أخاه ثقبه مكانه . وتطورت الأحداث وقام المصريون - بإيعاز من

(١) الخزر جى : العقود ج ٢ ص ٧٩ .

(٢) الخزر جى : المسجد ص ٤٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٦ .

(٣) الخزر جى : العقود ج ٢ ص ٨٠ ، بالمخرمة : تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ١٤٧ .

(٤) زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢٤٩ .

الشریف عجلان - بالقبض على المجاهد وتوجهوا به إلى مصر (١) ، وعادت أم المجاهد إلى اليمن ، وقامت بتدبير أمر المملكة (٢) وسعت في نفس الوقت في خلاص ولدها . ويذكر المقریزی أن أم المجاهد أقامت ابنه الصالح على البلاد ، ولكنها لم تلبث أن نحتته واعتقلته (٣) .

وكان من الطبيعي أن يحدث خبر القبض على المجاهد دويبا كبيرا في اليمن ، ويؤدي إلى نشوب بعض الاضطرابات ، فقد سارع بعض كبار رجال دولته إلى تعزيز للتباحث في الموقف حتى إذا ما استقر الرأي على إقامة سلطان جديد عمل كل منهم على أن يكون صاحب الفضل في اختياره ليكون الأقرب إليه وصاحب باب (٤) ، وأدى ذلك إلى قيام تنافس بين كل من الوزير موفق الدين عبد الله بن علي اليعقوب والطواشي أمين الدين أهيف والطواشي جمال الدين بارع ، ولكن الطواشي أهيف تمكن من القبض على منافسيه وأمر بشنقهما (٥) ، واستطاعت والددة المجاهد السيطرة على البلاد وقضت على عصيان القبائل التي خرجت عن الطاعة (٦) ، واحتفظت بعرش ابنها حتى عاد إلى البلاد .

(١) أنظر ذلك مفصلا في الفصل الرابع .

(٢) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٨٥ و ٨٨ و ١٨٨ ، المسجد ص ٤٩٥ و ٤٤٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٧ أ ، باخرمة : تاريخ نعر عدن ج ٢ ص ١٤٨ .

(٣) المقریزی : السلوك ج ٢ ص ٨٥٩ .

(٤) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٨٦ ، المسجد ص ٤٤٥ .

(٥) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٨٧ ، المسجد ص ٤٤٦ - ٤٤٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٧ ب .

(٦) الخزرجي : العقود ص ٩٩ ، المسجد ص ٤٤٨ و ٤٤٩ .

في ذي الحجة سنة ٧٥٢هـ^(١) / يناير ١٢٥٢ م. أما المجاهد فإنه ما أن استقر حتى بدأ في شن الهجمات على القبائل التي تجرات على الخروج عن الطاعة أثناء غيابه في مصر^(٢)، على أن شوكة هذه القبائل كانت قد اشتدت في كثير من مناطق اليمن وخاصة تهامة، مما استلزم تركيز الضغط عليها إلا أن معظم هذه الحملات أخفقت في القضاء على عصيانهم^(٣)، فتبادروا في فتنتهم وتجراؤا على المناطق المجاورة، حتى استولى الخراب على التهام كها ولم يبق إلا زيد وحرص^(٤)، ولم يك فيما بينها قرية مسكونة إلا قرى المفسدين^(٥).

وكانت قبائل المعازية والقرشيين من أشد القبائل ضراوة وتخريباً، واستمرت ثوراتهم عشر سنوات إلى أن دب الخلاف بين هاتين القبيلتين ووقعت الحرب بينهما. ونتيجة لتفوق المعازية آثار القرشيين العودة إلى طاعة السلطان المجاهد الذي أمدم ببعض عسكره، فمكنتهم بذلك من إيقاع الهزيمة بالمعازية. والانتقام منهم بإحراق بعض قراهم^(٦). وتبوءت الحملات بين الفريقين

(١) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٩٠ ، المسجد ص ٤٥٠ ، باخرمة : تاريخ
تغر عدن ج ٢ ص ١٤٨ .

(٢) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٩٢ و ٩٤ ، المسجد ص ٤٥٠ و ٤٥٠ .

(٣) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٩٢ - ٩٣ و ٩٥ و ٩٧ و ٩٩ - ١٠٦ ، المسجد
ص ٤٥١ و ٤٥٣ و ٤٥٥ و ٤٥٦ ، ٤٦٣ - ٤٦٤ ، ٤٧١ ، ابن الديبع : قرة
العيون ص ٩٨ .

(٤) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١١٤ .

(٥) الخزرجي : المسجد ص ٦٣ .

(٦) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١١٦ ، المسجد ص ٤٦٤ .

فكانت الغلبة للقرشيين^(١) ، فاضطر المعازبة إلى الدخول - بدورهم - في طاعة السلطان فمما عنهم^(٢) .

وتستمر الحركات المعادية ضد المجاهد حتى نهاية عهده، فقد طمع نور الدين محمد بن ميكائيل واليه على حرض في الاستيلاء على المنطقة الشمالية من تهامة^(٣) فأعلن العصيان في سنة ٧٦١ هـ / ١٣٦٠ م ، وخرج عن طاعة السلطان^(٤) ، واستعان بالقوى الزيدية ، وانضمت إليه كثير من القبائل^(٥) ، واستفحل خطره واستبد بالأمر في المنطقة^(٦) . وأعلن نفسه سلطاناً في صفر سنة ٧٦٢ هـ / ديسمبر ١٣٦١ م وانتسب إلى الرسول وادعى أنه حسيبي فاطمي^(٧) ، وضرب السكة باسمه^(٨) وخطب له في البلاد التابعة له ، واستطاع الاحتفاظ بالسلطنة في منطقتيه سنتين^(٩) .

-
- (١) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١١٧ و ١٢٠ ، المسجد ص ٤٦٥ و ٤٦٧ .
 - (٢) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١٢٢ ، المسجد ص ٤٦٨ .
 - (٣) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١١٠ - ١١١ ، المسجد ص ٤٦١ - ٤٦٢ .
 - (٤) باخرمة : تاريخ نجر عدن ج ٢ ص ١٤٩ .
 - (٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٤٥ .
 - (٦) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١١٤ ، المسجد ص ٤٦٣ - ٤٦٤ ، العقد المتأخر ج ٢ ص ١٤٠ أ ، باخرمة ج ٢ ص ١٤٩ .
 - (٧) زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢٥٠ .
 - (٨) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١٢٠ ، المسجد ص ٤٦٦ .
 - (٩) باخرمة : تاريخ نجر عدن ج ٢ ص ١٠٩ .
 - (١٠) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١٢٠ ، المسجد ص ٤٦٦ .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، وإنما ازداد الوضع خطورة بخروج الصالح
والعادل عن طاعة والدهما المجاهد (١) ، وأتبعهما ابنه الثالث المظفر سنة ٧٦٤ هـ
الذى استغلت بعض القبائل فرصة ثورته على أبيه ، وتجمعت حوله ، فطمع
في الاستيلاء على عدن (٢) ، وفشلت جهود السلطان في القضاء على حركة
المظفر (٣) ، ولم يعمر المجاهد بعد ذلك طويلاً إذ توفي في عدن في جمادى
الأولى سنة ٧٦٤ هـ (٤) / مارس ١٣٦٣ م .

وبعد - اليهن بعد المجاهد حتى نهاية دولة بني وسرل -

١ - المشكلات التى واجهت الأفضل عباس بن المجاهد ، وهولاء منها .

كانت الظروف مهيئة لسلطنة الأفضل ، فقد كان ثلاثة من إخوته ، وهم
الصالح والعادل والمظفر قد خرجوا عن طاعة أبيهم ، الذى شغل فى أواخر
أيامه بمحاربتهم ، وكان الأفضل فى صحبته أثناء مطاردته لهم . فلما توفي
استقر رأى كبار دولته على إقامة ابنه الأفضل ساطعاً على اليمن (٥) ، وقاموا

(١) الخزرجى : العقود ٢ ص ١١٩ ، المسجد ص ٤٦٦ ، باخرمة :

تاريخ ثغر عدن ٢ ص ١٤٩ ، زيارة . أئمة اليمن ١ ص ٢٥٤ .

(٢) باخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ١١ ص ٩١ و ١٤٥ ، حوادث الدهور

ص ٣٧٥ ، زيارة : أئمة اليمن ١ ص ٢٥٥ .

(٤) الخزرجى : العقود ٢ ص ١٢٤ و ١٢٧ ، المسجد ص ٤٦٨ و ٤٧١ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١ ص ٩١ ، المنهل الصافى

٣ ص ٥٠٣ ، حوادث الدهور ص ٢٧٥ ، ابن الديبع : فرة العيون ص ٩٩ أ .

باخرمة : تاريخ ثغر عدن ٢ ص ٤٩ ، ١٥٠ .

بما يبعثه يوم وفاة أبيه (١) .

لم يكن الأفضل أكبر أبناء أبيه ، ولكن ملازمته له في الوقت الذي خرج فيه إخوته عليه ، وتواجده معه عند وفاته ، كان من أهم العوامل التي ساعدته على أن يخلف أباه على العرش . ويرر الخزرجي ذلك بقوله « لم يكن في أولاد المجاهد - حاضرم وغائبهم - من هو أرشد منه ولا أعقل ، ولا أولي ولا أكل للأمر منه ، وإن كان فيهم من هو أكبر منه سنا :

فما الحداثة من حلم بمانمة . . . قد يوجد الحلم في الشباب والشباب (٢) ، وكيفما كان الأمر ، فقد تولى الأفضل عباس السلطنة في الوقت الذي لم يكن الاستقرار قد عرف طريقه للبلاد لفترة طويلة من الزمن . وكان على السلطان الأفضل أن يواجه عددا من المشكلات ، فهناك إخوته الثلاثة الذين تمردوا على أبيهم ، وهذا يعني فتح باب جديد للمنافسة على عرش السلطنة ، بالإضافة إلى مطامع ابن ميكائيل الذي كان قد أعلن نفسه سلطانا على منطقة شمال تهامة في أواخر عهد المجاهد ، هذا إلى جانب عصيان الكثير من القبائل ، والقوى الزيدية التي أفادت من حالة الفوضى وعدم الاستقرار ووسعت نطاق نفوذها حتى شمل جميع منطقة الجبال من صنعاء وما يليها شمالا . وقد وصف الخزرجي الأحوال الداخلية بقوله : « وكانت الأطراف مضطربة ، وقد انفتح في كل ناحية منها باب فساد » (٣) ، وكانت قبائل المعازبة والقرشيين والأشاعر في تهامة قد خرجوا عن طاعة الدولة ، وعاثوا في الأرض فسادا

(١) ابن الديبع : قرّة العيون ص ٩٨ ب

(٢) الخزرجي : العقود ح ٢ ص ١٢٧ ، المسجد ص ٤٧١ .

(٣) الخزرجي . العقود ح ٢ ص ١٢٧ - ١٢٨ ، المسجد ص ٤٧٢ .

وتابعوا الاغارة على مدن تهامة وقراما ونهبوها وخربوها وأحرقوا كثيرا منها ، حتى دجروها أهلها ، وأصبحت خرابا بغير سكان (١) ؛ ولم يأت عام ٧٥٨ هـ / ١٣٥٧ م حتى كان السلطان قد فقد سيطرته تماما عن وادي رمع (٢) ووادي سهام (٣) ومعظم وادي زبيد (٤) وعم الخراب معظم تهامة (٥) وفشلت المحاولات التي سبقت أن بذلها المجاهد للقضاء على ثورات العربان (٦) . ولم يعد عامرا غير مدينتي زبيد وحرص (٧) ولم يكن فيما بينهما قرية مسكونة غير قرى المفسدين (٨) .

أما ابن ميكائيل ، فقد انتهر فرصة وفاة السلطان المجاهد ، وبادر بتجهيز الحملات للسيطرة على مدينة زبيد (٩) . وقامت قواته بمحاصرتها في رجب سنة

(١) الخزرجي : العقود ٢ ص ٤ - ١٠٥ .

(٢) الخزرجي : العقود ٢ ص ١٠٦ ، المسجد ص ٤٥٨ - ٤٥٩ .

(٣) يقع وادي سهام إلى الشمال من وادي زبيد ووادي رمع .

El Khazrejiyy · op. cit p. 43, nate, 253.

(٤) الخزرجي : العقود ٢ ص ١٠٧ ، المسجد ص ٤٥٩ .

(٥) الخزرجي : العقود ٢ ص ١١٢ ، المسجد ص ٤٦٢ .

(٦) الخزرجي : العقود ٢ ص ١١٠ ، المسجد ص ٤٦٢ ، ابن الديبع :

قرة العيون ص ٩٨ دأ .

(٧) الخزرجي : العقود ٢ ص ١١٤ .

(٨) الخزرجي : المسجد ص ٤٦٣ .

(٩) الخزرجي : العقود ٢ ص ١٢٨ ، المسجد ص ٤٧٢ ، باخرمة :

تاريخ نعر عدن ٢ ص ١٠٥ .

٥٧٦هـ / أبريل ١٣٦٣ م ، ولكن أهلها استماتوا في الدفاع عنها ، وصمدوا أمام هجماته ، ففشلت بذلك محاولاته في تحقيق سيطرته على زبيد ، كذلك يرجع الفضل في صمود أهل زبيد إلى السياسة الحكيمة التي انتهجها أبو بكر بن علي بن مبارك وإلى المدينة الملقب بالناصر ، وكان هذا الرجل حقيقة بهذا اللقب ، إذ تمكن من اغراء أتباع ابن ميكائيل بالمال والهبات بهدف تشتيت قواته ، فلم تلبث أعداد كبيرة منهم أن انضمت إليه ، ونوافدت عليه ، فأحسن استقبالهم وكافأهم^(١) ، وأزعج ذلك قائدهم فانسحب بمن تبقى معه من قواته خشية أن يتخلى عنه الباقون أو يقع في كمين نصبه له وإلى زبيد^(٢) سيار قدسير السلطان الأفضل الامدادات لتصل تباعا إلى المحصورين^(٣) .

لم يكتف الأفضل بإحباط محاولات ابن ميكائيل بل عمل على التخلص نهائيا من خطره ، ففي سنة ٧٦٥ هـ سير قوة من أجناده تمكنت من إيقاع الهزيمة بـابن ميكائيل^(٤) وأطاحت بكل قواته^(٥) ، بحيث لم يبق له بعدها قائمة ، ولم يجد مبيدا من اللجوء إلى الامام علي بن محمد^(٦) ، وأخفقت جهوده في استعادة قواته

(١) الخزر جى : العقود ٢ ص ١٢١ ، المسجد ص ٤٧٢ .

(٢) الخزر جى : العقود ٢ ص ١٢٩ .

(٣) الخزر جى : العقود ٢ ص ١٢٨ ، المسجد ص ١٧٢ .

(٤) الخزر جى : العقود ٢ ص ١٣٠ ، المسجد ص ٤٧٣ ، ابن الديبع : سترة العيون ص ٩٨ ب .

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ٢ ص ٥٠٤ .

(٦) ابن الديبع : سترة العيون ص ٩٨ ب ، زبارة : أئمة اليمن ١ ص ٢٥٦ .

وسلطانه (١) ، وظل طريدا شريدا حتى توفي في ٧٧٩ هـ / (٢) ١٢٧٧ . وهكذا
وفق الأفضل في التخاص من خطر ابن ميكائيل ، وتمكن ، من وضع يده على
جميع ما كان بحوزته من البلاد (٣) .

واصل الأفضل نشاطه للقضاء على ثورات القبائل في تهامة ، وبدأ بالقرشيين .
فاستطاعت قواته إيقاع الهزيمة بهم في ذي القعدة ٧٦٥ هـ / أبريل ١٣٧٤ م .
وأُسفرت المعركة عن مقتل عدد كبير من مشاهير فرسان القرشيين ، وانتهاب
بلادهم ، مما اضطرهم إلى الإذعان للطاعة وطلب الأمان ، فاستجاب الأفضل
لهم ، وقدموا إليه الرهائن ضمانا لعدم عودتهم للمعيان (٤) . ثم تحول الأفضل
بحملاته إلى قبائل انعازة ، فسير أولى حملاته إليهم في شعبان ٧٦٦ هـ / أبريل
١٣٦٥ م ، وتتابع بعد ذلك قواته ، وتمكن من سحق قواتهم ، وانتقم منهم .
انتقاما شديدا (٥) وأجبرهم على الطاعة .

أما إخوة الأفضل المنافسين له ، - وكان المظفر من أنشطهم - فقد عمل
الأفضل على شل حركته بحملاته المتتابعة ، ولكن محاولاته باءت بالفشل (٦) .

(١) الخزرجي : العقود ح ٢ ص ١٣٤ ، المسجد ص ٤٧٦ .

(٢) الخزرجي : العقود ح ص ١٦٦ ، المسجد ص ٥٠١ .

(٣) الخزرجي : العقود ح ٢ ص ١٣ ، المسجد ص ٤٧٤ .

(٤) الخزرجي : المسجد ص ٤٧٥ - ٤٧٦ و ٤٧٨ .

(٥) الخزرجي : العقود ح ٢ ص ١٣٢ و ١٣٤ و ١٣٦ ، ابن الديبع : قرعة

العيون ص ١٠ أ - ب .

(٦) الخزرجي : العقود ح ٢ ص ١٣٢ و ١٣٥ ، المسجد ص ٤٧٦ .

وعلى الرغم من اخفائه في التخلّص من مشكلة إخوته إلا أنه قد نجح - خلال سنوات ثلاث - في تحقيق السيطرة على كثير من المناطق التي عجز أبوه من قبليه في بسط سلطانه عليها ، واستوسقت البلاد كلها في أسرع مدة ، وعمرت القرى والمدائن ، واتصل الناس بعضهم ببعض ، (١) . وتوافدت الوفود على الأفاضل معلنة ولاءها له ، واستقرت قواعد ملكه (٢) .

غير أن أعظم المشكلات التي واجهت الأفضل كانت تتمثل في قادة الزيدية الذين استغلوا فرصة الاضطرابات الداخلية التي واجهت سلاطين بني رسول في اليمن منذ أيام المجاهد ، وعملوا على تثبيت سيطرتهم على المنطقة الجبلية الواقعة شمالي صنعاء ، والاستيلاء على صنعاء نفسها في شهر شعبان سنة ٧٢٣ هـ (٣) / أغسطس ١٣٢٣ م ، وعلى عدد آخر من البلاد والحصون ، وكان لهذا التوسع أعظم الأثر في تقلص نفوذ دولة بني رسول . وعلى الرغم من عدم قيام المجاهد بأي عمل حربي ضد القوى الزيدية لانشغاله بالقضاء على منافسيه ، إلا أن الزيدية كانت تعمل على إثارة عوامل الاضطراب الدائم في دولة بني رسول ، وكان الامام لا يتوقف عن دعم خصوم السلطان (٤) وذلك ضمانا لاستمرار سيطرته ونفوذه على ما بيده من البلاد ، وتمكينه له على زيادة التوسع على حساب تلك الدولة المنهكة . غير أنه لم يسكد الامام على بن محمد يقين

(١) الخزرجي : العقود - ٢ ص ١٣٢ ، المسجد ص ٤٧٤ .

(٢) الخزرجي : العقود - ٢ ص ١٣٤ - ١٣٥ ، المسجد ص ٤٧٧ .

(٣) زيارة : أئمة اليمن - ١ ص ٢٢٤ .

(٤) الخزرجي : العقود - ٢ ص ٤٠ - ٤١ ، المسجد ص ٤١٢ .

أئمة الدين : قرة العيون ص ٩٣ ، أ ، زيارة : أئمة اليمن - ١ ص ٢٢٦ .

تخلص الأفضل من بعض خصومه حتى سعى إلى شغله بمشكلات جديدة .
فعمل على إمداد المظفر بن المجاهد - المنافس الأول للسلطان - بعدد كبير من
أتباعه سنة ٧٦٦ هـ / ١٣ : ١٣٦٥ م لمساعدته في الاستيلاء على - مدينة
حرض ، ولكن هذه الحملة لم تنجح في تحقيق أغراضها بسبب صمود حامية
المدينة في وجهها (١) ، فاضطر المظفر إلى إعادة تنظيم قواته وزحف في
جمادى الأولى سنة ٧٦٨ هـ / يناير ١٣٦٧ م إلى الشجر ، ولكنه أخفق للمرة
الثانية في الاستيلاء عليها (٢) .

وعلى الرغم من فشل المظفر - حليف القوى الزيدية - إلا أن هذه القوى
لم تفقد الأمل في خلق متاعب جديدة للسلطان الأفضل ، فاستغلت الخلاف
الناشب سنة ٧٧١ هـ / ١٣٦١ م . بين واليه على حرض وبين الأشراف السليمانيين
في تلك المنطقة . وبمجة مساندة أشراف حرض أرسل الامام جيشا استولى به
على تلك المدينة (٣) ، وتابعت القوات الزيدية زحفها جنوبا فاستولت على
مدينة المهجم والكداره والقحمة وغيرها (٤) ، ثم تقدمت إلى زبيد وحاصرتها
في جمادى الأولى ٧٧١ هـ / ديسمبر ١٣٦٩ م . وكان للانتصارات التي أحرزها
الامام أثرها في إنشاء الفوضى والاضطراب في زبيد ، واستغل بعض المفسدين
من أهل زبيد هذه الظروف المضطربة وأعملوا السلب والنهب في المدينة (٥) .

(١) الخزر جى : العقود ح ٢ ص ١٣٤ و ١٣٥ .

(٢) الخزر جى : المسجد ص ٤٧٦ و ٤٧٧ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٠ ب ، زبارة : أئمة الين ص ٢٥٧ .

(٤) الخزر جى : العقود ح ٢ ص ١٤٠ و ١٤١ .

(٥) الخزر جى : العسك ص ٤٨١ - ٤٨٢ .

واتصلوا بالقوات الزيدية المحاصرة لزبيد وانفذوا معها على موعد معين يفتحون لها فيه أبواب مدينتهم (١) ، وحاول هؤلاء المفسدين إقناع أهالي المدينة من فقهاء وتجار وغيرهم ، ولكن هؤلاء الأعيان تمكنوا من إقناعهم بالنسك بولائهم للدولة ، وقرروا الدفاع عن زبيد ، وعدم تمكين القوى الزيدية منها (٢) . وهكذا صمدت المدينة ولم يتمكن الامام من التغلب عليها (٣) .

وفي نفس الوقت سار السلطان الأفضل قوة بقيادة الطواشي أمين الدين أهيف تمكنت من التخلص من المفسدين الذين حاولوا تسليم مدينة زبيد ، وتتبع فلولهم قتلا وتشريدا (٤) ، كما تصدى الطواشي للقرشين الذي عاودوا العصيان وأرادوا الاستيلاء على زبيد وقضى على محاولتهم وهزمهم هزيمة نكراء في رمضان سنة ٥٧٧١هـ (٥) / أبريل ١٢٧٠ م . وواصل أمين الدين أهيف تقدمه ، وتنجح في تخليص مدينة المهجم من السيطرة الزيدية (٦) .

(١) الخزرجي : العقود ص ١٤٢ ، ابن الديبع : قررة العيون ص ١٠١ ، أ .

(٢) الخزرجي : العقود ص ٢ ص ١٤٢ ، المسجد ص ٤٨٣ و ٤٨٤ .

(٣) الخزرجي : العقود ص ٢ ص ١٤٤ - ١٤٥ ، المسجد ص ٤٨٥ .

ابن الديبع : نفسه ص ١٠١ ب ، زبارة : نفسه ص ٢٥٧ .

() الخزرجي : العقود ص ٢ ص ١٤٥ .

(٥) الخزرجي : العقود ص ٢ ص ١٤٦ ، المسجد ص ٤٨٦ .

(٦) الخزرجي : العقود ص ٢ ص ١٤٦ ، المسجد ص ٤٨٦ ، ابن الديبع :

قررة العيون ص ١٠٢ ، أ .

وتركزت جهوده في شمال تهامة إلى أن تمكن من إقرار الأمور فيها (١) .
وفي سنة ٧٧٢ هـ / ١٣٧١ م توفي الامام الزيدى المهدي على بن محمد ،
فاتفقت الزيدية على إقامة ابنه الناصر صلاح الدين محمد ، وتمت بيعته في صفر
سنة ٧٧٣ هـ (٢) / أغسطس ١٣٧١ م ، فواصل انتهاج سياسة أبيه في مناوأة
السلطان والاغارة على المناطق الموالية له . وفي سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م سیر حملة
كان هدفها الاستيلاء على مدينة الجند ، كما أرسل سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م حملة
أخرى للاستيلاء على زبيد وغيرها ، ولكن حملاته فشلت في تحقيق الهدف
الذي أرسلت من أجله (٣) .

وكيفهما كان الأمر ، فإن الأفضل لم يتقاعس عن مواجهة هذه المواقف
الحرجة أو يتردد في إعداد الحملات للقضاء على الفتن والثورات . ومن الملاحظ
أن السلطان الأفضل كان يكتفي بتجهيز الحملات ويهدد بقيادتها إلى كبار رجال
ذولته ، وأنه قلما قاد حملة بنفسه ، ولعل ذلك كان من أسباب عدم فاعلية تلك
الحملات .

واستمرت الأوضاع على هذا النحو من الاضطراب حتى وفاة السلطان
الأفضل بمدينة زبيد في شعبان ٧٧٨ هـ (٤) / ديسمبر ١٣٧٦ م ، ودفنه في تعز (٥) .

-
- (١) الخزر جى : العقود ص ١٥ و ١٥٤ و ١٥٦ ، المسجد ص ٤٨٩
و ٤٩٢ و ٤٩٤ ، ابن الديبع : نسخة ص ١٠٢ ب ، ١٠٣ أ .
(٢) زيارة : أئمة اليمن ص ١ ص ٢٦٠ ، تحاف المهتدين ص ٦٧ .
(٣) زيارة : أئمة اليمن ص ١ ص ٢٦٤ .
(٤) الخزر جى : العقود ص ٢ ص ١٥٧ ، المسجد ص ٤٩٥ ، ابن تغرى بردى :
المنجوم الزاهرة ص ١١ ص ١٤٥ ، حوادث الدهور ص ٣٧٦ ، ابن الديبع :
قرة العيون ص ١٠٣ ب ، زيارة : أئمة اليمن ص ١ ص ٢٦٥ .
(٥) زيارة : أئمة اليمن ص ١ ص ٢٦٥ .

٣ - حين رد الأشرف الثاني إسماعيل بن الأفضل عباس في القرار الأوضاع :
 بعد وفاة الأفضل عباس بايع رجال الدولة وعلماءها ابنه الأشرف الثاني
 سلطاناً على البلاد في شهر شعبان سنة ٧٧٨ هـ (١) / ديسمبر ١٣٧٦ م ، وأقسم
 الجميع على الولاء له (٢) . وحظيت سلطنته بتأييد كثير من العناصر . ويعبر
 الخزرجي عن ذلك بقوله : « وكانت الكتب من كل بلد تصل إليه ، والعرب
 من كل ناحية تفد عليه ، وهو يجيب عن كل كتاب بما يقتضي ، ويقابل كل
 واصل إليه بما يحب ويرضى ، حتى استوسقت البلاد دانيها رقاصها ، وأذعن
 البرية طائها وعاصيها » (٣) .

رأى الأشرف أن قبائل المعازبة يشكلون حركة ثورية واسعة النطاق ،
 وأن الزيدية مازالوا يقفون بالمرصاد لكل سلطان من بني رسول . وينتظرون
 الفرص المواتية للوثوب عليه والتحالف مع خصومه ، ولذلك قرر أن يبدأ
 بالمعازبة ، واعد الحملات التأديبية للقضاء على تمردهم . ففي سنة ٧٨٠ هـ /
 ١٣٧٨ م أرسل حملة كبيرة بقيادة وزيره القاضي تقي الدين عمر بن أبي القاسم
 ابن معبد إلى بلاد المعازبة ، وقتلهم وضيق الخناق عليهم وشتتهم (٤) . وفي

(١) بانخرمة : تاريخ نعر عدن ج ٢ ص ٣٠ .

(٥) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١٥٧ ، المسجد ص ٤٩٥ ، ابن الديبع :

قرة العيون ص ١٠٣ ب .

(٦) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١٦٤ ، المسجد ص ٤٩٩ .

(٤) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١٦٦ - ١٦٧ .

العام التالي شنت القوات السلطانية عليهم المحجيات وحاصرتهن ، حتى « لم يكن لهم مهرب إلا البحر فدخلوه ففرق منهم طائفة وسلم الباقون ، واستسلم أناس منهم وأسروا آخرون (١) » . وعلى الرغم من هذا الأسلوب التآديبي العنيف الذي استخدمه الأشرف مع الممازبة ، إلا أن هؤلاء استطاعوا التجمع مرة أخرى ، وأغاروا على مدينة القحمة ، واستدرجوا إلى المدينة الأمير سيف الدين بشتك إلى كين نصبه بعضهم له ، وقتلوه مع عدد من أتباعه في شوال سنة ٧٨١ هـ (٢) / يناير ١٣٨٠ م . ولم يجد السلطان أمام اشتداد وطأة الممازبة ، واستمرار خروجهم من الطاعة ، من التوجه بنفسه على رأس حملة إليهم في شوال ٧٨٢ هـ / يناير ١٣٨١ م ، ولكنهم ما أن علموا بأخبار هذه الحملة حتى بادروا بالتعلق برؤوس الجبال ، فنهب الجند بلادهم وأحرقوها (٣) ، وظلت القوات السلطانية تترصد لهم ، وتتابعت الإغارات عليهم كلما بدرت منهم بادرة عصيان ، للبطش بالعاصمين والمارقين منهم ومن غيرهم من القبائل وإرغامهم على الطاعة وتسليم الرهائن (٤) . ومع ذلك فلم تنجح سياسة العنف في استئصال

(١) الخزر جى : العقود - ٢ ص ١٦٨ ، المسجد ص ٢٠٥ ، زيارة : أئمة اليمن - ١ ص ٢٦٩ .

(٢) الخزر جى : العقود - ٢ ص ١٦٩ ، المسجد ص ٥٠٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٤ ب .

(٣) الخزر جى : العقود - ٢ ص ١٧١ ، المسجد ص ٥٠٤ .

(٤) الخزر جى : العقود - ٢ ص ١٧٦ و ١٧٧ و ١٧٨ و ١٧٩ و ١٨١ و ١٨٥ و ١٨٦ و ١٩٤ و ٢٠١ و ٢٠٦ و ٢١٥ و ٢١٩ و ٢٤١ - ٢٥١ و ٢٥٦ و ٢٦١ و ٢٦٧ و ٢٦٨ - ٢٦٩ ، المسجد ص ٥٠٩ و ٥١٣ و ٥١٤ و ٥١٩ و ٥٢٤ و ٥٣١ .

هذه القبائل، إذ أنها لا تلبث أن تعود إلى التمرد كلما أتيحت لها الفرصة لذلك .
 أما بالنسبة للزيدية ، فمن الواضح أن سلاطين بني رسول قد تحاشوا —
 منذ عهد المجاهد — الدخول بقدر الإمكان في صراع ضدهم ، في الوقت الذي
 لم يكن الامام الزيدى يموت فيه أى فرصة تمنح له للتوسع على حساب الدولة
 الرسولية إلى حد تجاوزت فيه هذه التوسعات صنعاء جنوباً ، وفيها يتعاقد
 بموقف القوى الزيدية من سلطنة الأشرف الثانى ، فقد اتمم منذ البداية بالمراقبة
 والترصد المقرون بالحدز حتى تنجلي الأمور ، واستغلال كل فرصة مواتية
 للتحرك ضد السلطان وتأييد خصومه ، ودعمهم بالمال والسلاح والتواطؤ .
 معهم ما أمكنهم ذلك . وعلى هذا النحو نشهد الامام الزيدى يتمتع فرصة
 غضب الأشرف الثانى على وزيره وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد النظارى
 واقصائه له من الوزارة بعد فترة قصيرة من اسنادها إليه سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م .
 حتى قام الامام بمراسلته واستدعائه ، وأحسن استقباله وأكرمه (١) . وكان من
 الطبيعى أن تتوتر العلاقات بين الزيدية والسلطان بسبب ذلك ، وتنازم الأمور
 عندما يقدم السلطان على قتل رسوله إلى الامام فى ذى القعدة سنة ٧٨٦ هـ /
 ديسمبر ١٣٨٤ م بتهمة إفشاء أسرار كان السلطان قد استأمنه عليها (٢) .
 واتخذ الامام هذا الحدث ذريعة للتحرك ، وزحف فى حشود كثيفة قاصداً تعز ،
 وذلك فى شعبان سنة ٧٨٧ هـ / سبتمبر ١٣٨٥ م ، فأسرع السلطان إلى مغادرة
 زبيد إلى تعز لاقاذاها . فلما علم الامام بذلك توقف بمدينة ذى جبلة من مخلاف

(١) العقود ٢ ص ١٧٣ ، المسجد ص ٥٠٦ .

(٢) الخزر جى : العقود ٢ ص ١٨٠ ، المسجد ص ٥١٠ ، ابن الديبع :

قرة اعيون ص ١٠٥ ب .

جعفر واكتفى بنهبها وعاد إلى قواعده دون أن يحقق هدفه (١) . ثم أخذ في إعادة تنظيم أتباعه ، واختيار ولائهم له وافصاء المتذبذبين منهم والمنقلبين ، والانتقام من الخارجين عليه منهم (٢) . وهذه التنظيمات الجديدة تمكن من السيطرة على كثير من المدن والقرى والحصون القريبة من صنعاء (٣) .

وفي سنة ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م خرج الامام في جيش كبير إلى عدن ، ولم يصادف في طريقة إليها أى أثر لمقاومة . ودارت بينه وبين أهل عدن وحاميتها معارك طاحنة في ذى القعدة ٧٨٩ هـ / نوفمبر ١٣٨٧ م لقى فيها منهم مقاومة عنيفة ، اضطرته إلى رفع الحصار والعودة ، خاصة بعد ما أصيب عسكره بوباء مات بسببه الكثيرون منهم (٤) .

ولا يتوقف الامام عن توجيه الحملات وشن الهجمات على المناطق التابعة للسلطان في الفترة من سنة ٧٨٩ إلى ٧٩٣ هـ / ١٣٨٧ - ١٣٩١ م ، ففي العام التالي توجه على رأس جيش الى مدينة حرض في شال تهامة . ولكن للسلطان الأمرع بإرسال حملة مضادة (٥) ، لم يكد الامام يعلم بها حتى انسحب بقواته (٦)

(١) الخزرجي : العقود ٢ ص ١٨٣ ، المسجد ص ٥١٢ .

(٢) الخزرجي : العقود ٢ ص ١٩٢ و ١٩٣ ، المسجد ص ٥١٨ ، ابن الديبع : قره العيون ص ١٠٦ دأ .

(٣) زبارة : أئمة المن ١ ص ٢٧٣ .

(٤) الخزرجي : العقود ٢ ص ١٩٣ - ١٩٤ ، المسجد ص ٥١٩ .

(٥) الخزرجي : العقود ٢ ص ١٠٤ .

(٦) الخزرجي : العقود ٢ ص ١٩٥ ، المسجد ص ٥١٩ .

وتحول إلى مدينة المحالب ، ولكن واليها تصدى له وأرغمه على الانسحاب (١) وظل الامام ينتهز الفرص لمهاجمة السلطان ، وقد واثته الفرصة عندما قام السلطان باستدعاء نوابه في شمال تهامة ، وخروج هؤلاء إليه بمعظم قواتهم في ربيع الأول سنة ٧٩١ هـ / مارس ١٣٨٩ م ، وأرسل بعض قواته تعاونها بعض القبائل المتمردة ، اللإغارة على منطقة شمال تهامة ، وتخريب مدنها . وعلى أثر ذلك خرج الامام بنفسه على رأس قوة من أتباعه ، ومهاجم حرض والمهجم والمحالب وتمكن من السيطرة عليهما ، ويبدو أنه استخدم العنف في هجماته ، فأثار بذلك الذعر في قلوب سكان المنطقة (٢) . وأمام هذا الخطر أعد السلطان حملة كبيرة وجهها إلى الزيدية ، وأردفها بامدادات متواصلة ، وتمكن السلطان بذلك التحرك السريع من تخليص تهامة (٣) من السيطرة الزيدية . ويذكر الخزرجي أن الامام قام بإرسال ثلاثة من أتباعه إلى السلطان وفقاً لهم السلطان بالقبول وأعم عليهم (٤) ولم يوضح الخزرجي الغرض من هذه السفارة ، ولكن يبدو أن سعى الامام لتحسين علاقاته مع السلطان كان يهدف أن يؤدي إلى وقف الحملات المتتالية التي دأب السلطان على توجيهها ضد الزيدية ، وهكذا نجح في إيهام السلطان بولاء زائف ليطمئن هذا من ناحيته ، وعندئذ يمكنه أن يضرب ضربته في غفلة من السلطان . وهذا يفسر خروج الامام على رأس حملة إلى زيد وقيامه بمحاصرتها في جمادى الآخرة ٧٩١ هـ /

(١) الخزرجي : العقود ٢ ص ١٩٧ ، المسجد ص ٥٢٠ .

(٢) الخزرجي : العقود ٢ ص ٢٠١ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢٧٤ .

(٣) الخزرجي : العقود ٢ ص ٢٠٢ ، المسجد ص ٥٢٣ .

(٤) الخزرجي : العقود ٢ ص ٢٠٥ .

يونيه ١٣٨٩ م ، وعمل خلال الحصار على الاتصال بكثير من أجناد المدينة
الضمان موالاتهم له ، ولولا صمود أهل زيد واستقامتهم في الدفاع عن مدينتهم ،
السقطت المدينة - في يسر وسهولة - في أيدي الزيدية ، ولكن الامام اضطر
إلى رفع الحصار والانسحاب (١) ، خاصة وقد بلغته أنباء عن وصول حملة
مضادة ، يمكنها التعاون مع حامية المدينة في تطويق قواته ، ولهذا بادر الامام
إلى فك الحصار وعاد أدراجه خوفا من الهزيمة (٢) .

وللحد من خطورة الامام خرج السلطان الأشرف إلى ذي جبلة ، ومنها
خف في حشوده في شهر رمضان سنة ٧٩١ هـ / أغسطس ١٣٨٩ م لمطاردة الامام
وقواته ، ولولا وصول مدد إليه في الوقت المناسب لمضى بـزيمة نكراء بسبب
موالات بعض القبائل التي اعتمد عليها من أهل المنطقة للامام ، ومع ذلك فقد
اضطر الامام الى الانسحاب إلى ذمار لاعادة تنظيم قواته . وفي شوال ٧٩١ هـ /
سبتمبر ١٣٨٩ م جرد الامام حملة على تهامة ، توجهت في البداية إلى حرص
ومنها إلى المحالب (٣) ، ولكن والى المحالب ما كاد يعلم بخبر هذه الحملة حتى أعد
العدة لمواجهة ، ولم ينتظر حتى يحيط أتباع الامام بالمدينة ، بل بادر بالتجهز

(١) الخزرجي : العقود ٢ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، المسجد ص ٥٢٤ ،
ابن الديبع : قررة العيون ص ١٠٦ أ .

(٢) الخزرجي : العقود ٢ ص ٢٠٧ ، ابن الديبع : قررة العيون ص ١٠٦ ،
زبارة : أئمة اليمن ١ ص ٢٧٤ .

(٣) الخزرجي : العقود ٢ ص ٢١٠ ، المسجد ص ٥٢٦ ، ابن الديبع :
قررة العيون ص ١٠٦ ب .

والخروج لملاقاتهم ، وكنت قواته لهم في الطريق ، وفاجأهم وألحقوا
الخراب بهم ، وقتلوا منهم عددا كبيرا على رأسهم قائد الحملة (١) . ولم تفت هذه
الحملة في عضد الامام ، ذلك أنه خرج في ربيع الأول سنة ٧٩٢ هـ / فبراير
١٣٩٠ م على رأس حملة للاغارة على بعض الحصون التابعة للسلطان في منطقة
الشوافي ، ولكنه قوبل بمقاومة عنيفة أجبرته على العودة (٢) .

وفي شهر صفر ٧٩٣ هـ / يناير ١٣٩١ م زحف الامام بقواته إلى منطقة
جبل بندان (٣) من بلاد الشوافي وسكن قبائل المنطقة استدرجته إلى كمين
نصبوه له وقواته ، وتمكنوا من التغلب عليه وقتل الكثير من أتباعه فانسحب
بنقله إلى ذمار (٤) . غير أنه لم يلبث أن أعاد تنظيم قواته وأغار على بلاد بني
شاور بالقرب من ذمار في شهر رجب سنة ٧٩٣ هـ / يونيو ١٣٩١ م ، وأعمل
فيها النهب والقتل والتخريب (٥) . وكان في الامكان أن يستمر الامام في
سياسته العدائية نحو السلطان لولا أن الموت لم يمهله طويلا ، فقد توفي بصنعاء
في ذي القعدة سنة ٧٩٣ هـ / أكتوبر ١٣٩١ م ، فقد حدث له أثناء عودته من
هذه الحملة أن هاجت بغلته والقتته عنها ، فتعلقت قدمه بركابها فازدادت نفورا

(١) الخزر جى : العقود ٢ ص ٢١١ ، المسجد ص ٥٢٧ ، زيارة :
أئمة اليمن ١ ص ٢٧٤ .

(٢) الخزر جى : العقود ٢ ص ٢١٤ - ٢١٥ ، المسجد ص ٥٢٩ .

(٣) الخزر جى : المسجد ص ٥٣٢ .

(٤) الخزر جى : العقود ٢ ص ٢١٩ ، المسجد ص ٥٣٢ .

(٥) العقود ٢ ص ٢٢١ ، المسجد ص ٥٣٣ .

وسحبته معها في مكان وعمر ، ولم يتمكن رجاله من تخليصه منها إلا بعقرهه فأقام متألماً حتى توفي متأثراً بهذه الإصابة (١) .

وكان لوفاة الامام الناصر صلاح الدين أثره في إضعاف القوى الزيدية . وحدوث انقسام خطير في صفوفهم . فقد رأى البعض مبايعة إبنه علي بالامامة في حين رأى غيرهم إمامة أحمد بن يحيى المرتضى ، وبايع كل من الفريقين بالامامة من كان يميل إليه ، ومن ثم بدأ صراع صير بين الامامين من أجل الانفراد بالامامة (٢) . واستمر الصراع بينهما إلى أن وقع الامام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى أسيراً في يد الامام المنصور علي بن صلاح الدين سنة ٧٩٤ هـ / ١٣٩٢ م . ولم يمض وقت طويل حتى قام إمام آخر هو الهادي علي بن المؤيد بن جبريل سنة ٧٩٦ هـ (٤) / ١٣٩٤ م ، وازداد الخطين بلة أن تمكن الامام الأسير من الفرار سنة ٨٠١ هـ (٥) / ١٣٩٩ م ، وانضم إلى الامام الجديد الهادي ضد الامام المنصور (٦) ، واشتد الصراع على هذا النحو بين الفريقين .

-
- (١) الخزرجي : العقود ٢ ص ٢٢٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٧ أ ، زيارة : أئمة اليمن ١ ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .
 (٢) زيارة : أئمة اليمن ١ ص ٢٨١ .
 (٣) زيارة : نفس المرجع الجزء ص ٢٨٠ .
 (٤) زيارة : نفس المرجع والجزء ص ٢٨٥ .
 (٥) زيارة : نفس المرجع والجزء ص ٢٨٩ .
 (٦) زيارة : نفس المرجع والجزء ص ٢٩٠ .

وفي خضم هذا الصراع الزيدى استطاع عدد من القبائل التخلص من التبعية للقوى الزيدية (١). وبدأت هذه القبائل تتقرب إلى السلطان الأشرف وتوافد مشايخهم وعدد من أشرف الزيدية على السلطان ، ففي المحرم سنة ٧٩٤ هـ / ديسمبر ١٣٩١ م توجه الشريف المهدى بن عز الدين الحمزى والشريف شمس الدين سليمان بن يحيى إلى السلطان ، كما قدم إليه الشيخ شمس الدين على بن الرياحى الشرجى في شهر ربيع الأول سنة ٧٩٤ هـ / فبراير ١٣٩٢ م على رأس وفد من أهله ، فأكرمهم السلطان وخلع عليهم (٢). وفي شهر جمادى الأولى وصل شيخ الجحادر — من قبائل مذحج — في جمع من أتباعه ، كما وصل أيضا الشريف الزيدى أبو الفضائل الهدوى ، وتواترت القبائل من كل ناحية ، (٣). وفي شهر ربيع الأول سنة ٧٩٥ هـ / يناير ١٣٩٣ م جاءه أشرف جهران (٤) ، كما قدم الشريف صلاح بن على بن مطهر الحسنى إلى السلطان في رجب ٧٩٧ هـ / أبريل ١٣٩٥ م ، وتنازل للسلطان عن حصن ذروان ، فأنعم عليه وكساه ومنحه أربعين ألف درهم (٥). وفي رمضان ٧٩٧ هـ / يونيو ١٣٩٥ م وصل الشريف عماد الدين يحيى بن أحمد الحمزى (٦) ،

(١) زيارة: أئمة اليمن ج ١ ص ٢٨٣ .

(٢) الخزرجى : العقود ج ٢ ص ٢٢٧ ، المسجد ص ٥٣٥ ، ٥٣٦ .

(٣) الخزرجى : العقود ج ٢ ص ٢٣٠ ، المسجد ص ٥٣٧ .

(٤) الخزرجى : العقود ج ٢ ص ٢٤٢ ، المسجد ص ٥٤٤ .

(٥) الخزرجى : العقود ج ٢ ص ٢٧٣ ، المسجد ص ٥٥٥ ، ابن الديبع :

قرة العيون ص ١٠٧ أ - ب ، زيارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢٨٧ .

(٦) العقود ج ٢ ص ٢٧٤ - ٢٧٥ ، المسجد ص ٥٥٦ .

فأحسن السلطان استقبال الجميع وخاع عليهم الخلع السنية .

وهكذا وبدون كبير عناء تهيأت أحوال اليمن للاستقرار ، وأصبح السلطان الملك الأشرف صاحب الكلمة النافذة في البلاد ، وتحسنت العلاقات بينه وبين الإمام المنصور على بن صلاح الذي أرسل في جمادى الآخرة ٧٩٩ هـ / مارس ١٣٩٧ م للسلطان هدية نفيسة (١) . واستمرت حالة الهدوء تسود البلاد حتى نهاية حكم الأشرف الذي توفي في تعز ليلة الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ (٢) / أكتوبر سنة ١٤٠٠ م ؛ بعد حكم دام قرابة ربع قرن (٣) .

(١) الخزرجى : العقود ج ٢ ص ٢٨٩ ، المسجد ص ٥٦٤ ، زيارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢٨٧ .

(٢) الخزرجى : العقود ج ٢ ص ٢١٦ ، المسجد ص ٥٨٠ ، ابن تغرى بردى : المنهل العسافى ج ١ ص ٥٢٢ - ٥٢٣ ، ج ٢ ص ٥٠٤ ، النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥ ، حوادث الدهور ص ٢٧٦ ، زيارة : أئمة اليمن ص ٢٩٢ . (لقد أنهى الخزرجى كتابه العقود للأؤوية ، ، المسجد المسبوك ، بتاريخ السلطان الأشرف الثانى إلى سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م ، ولم يذكر من تاريخ اليمن شيئا بعد هذا التاريخ بالرغم من وفاته بعد ذلك بتسع سنوات أى سنة ٨١٢ هـ . وما يذكر أن ناسخ كتاب المسجد المسبوك - نسخة مكتبة البلدية بالاسكندرية - قد أضاف بقية تاريخ بنى رسول إلى نهاية دولتهم وذلك نقلا عن ابن الديبع ، وبمقارنة هذه الإضافة بما كتبه ابن الديبع اتضح أنها منقولة عن كتاب « بغية المستفيد في أخبار مدينة زيد » .

(٣) المعينى : عقد الجمان مجلد ٦٦ ص ١٦٧ .

٣ - عهد السلاطين الضعاف ونهاية الدولة :

٤ - عهد الناصر أحمد بن الأشرف اسماعيل :

كان السلطان الأشرف قد عقد - قبل وفاته بأيام - البيعة بالسلطنة لابنه الناصر أحمد ، وعمل الناصر منذ توليه عرش السلطنة على القضاء على حركات العصيان التي شملت معظم بلاد اليمن ، وإقرار الأوضاع فيها ، فبدأ بالاستيلاء على بعض الحصون التي خرج ولاتها عن طاعته ، كما وجه حملاته إلى بلاد المعازبة فسارع هؤلاء بطلب الأمان فأمنهم (١) ، ولكنهم تظاهروا بالطاعة اكتساباً للوقت إذ لم يلبثوا أن عادوا إلى العصيان ، فعادت قوات السلطان إليهم وقتلت وشردت عدداً كبيراً منهم . وكان انتقام الناصر شديداً بحيث قضى على مقاومتهم ، فركنوا إلى الهدوء (٢) .

ونشط الناصر بعد ذلك في توجيه الحملات ضد العصاة والمتمردين ، فاستولى في شوال سنة ٨٠٣ هـ ، مايو ١٤٠١ م على حصن المهور - أحد حصون وادي سهام - فساعد ذلك على إحكام السيطرة على منطقة سهام . كما استولى في أول عام ٨٠٤ هـ (٣) / أغسطس ١٤٠١ م على حصن ريمة (٤) .

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ ، بغية المستفيد ص ٧٥ .

(٢) الخزرجي : المسجد ص ٥٨٣ ، قرة العيون ص ١١٠ ، بغية المستفيد ص ٧٦ .

(٣) الخزرجي : المسجد ص ٥٨٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ ، بغية المستفيد ص ٧٦ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٥٥٩ .

(٤) ريمة ، حصن يقع إلى الشمال من وضاب . إلى الجنوب من جبال برع (الويسى : اليمن الكبرى ص ١٧٠) .

وفي ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م وجه حملة إلى بلاد المقاصرة (١) وقتل منهم جمعا كبيرا ونهب بلادهم وخرّبها، ثم استولى على مدينة دثينة (٢) قهراسنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م. وفي سنة ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م قاد إحدى الحملات ضد والي جازان — في شمال تهامة — الذي شق عصا الطاعة، فلما وصل إلى المدينة ألفها خالية. قد تركها واليها وأهلها خوفا من تنكيله بهم. فأقام عدة أيام بها، جاءه في أثناءها رسول واليها يطلب الأمان فأمنه (٤)، فلما وصل إليه أرسله إلى زيد (٥) وولى واليا آخر على المدينة، فلما عاد السلطان إلى زيد تشفع بعض علماء زيد وصلحائها لديه، فاستجاب لهم وأعاد صاحب جازان إلى ولايته بعد أن خلع عليه وأعطاه عشرين ألف دينار ومحمسين عبدا بالإضافة إلى الهدايا والتحف (٦). وكان السلطان الناصر قد توجه من جازان إلى مدينة حلي، وكان واليها

(١) المقاصرة، قبائل تقيم إلى الشمال من وادي سهام.

(٢) دثينة، بلدة من بلاد الجحافل (الجندي: السلوك ص ٤٤٤، الخزرجي).

(٣) العقود ١٠٨ ص ١٥٨) وتقع إلى الشمال من الحج

EL - Khazrejiyy : op. cit, vol. III, 3, p. 104, Note, 653, 654.

(٤) ابن الديبع: قرّة العيون ص ١١٠ أ، بغية المستفيد ص ٧٦، يحيى بن الحسين: غاية الأمان ص ٥٦٢.

(٥) يحيى بن الحسين: نفس المرجع والصفحة.

(٦) ابن الديبع: قرّة العيون ص ١١٠ أ-ب، بغية المستفيد ص ٧٦.

(٧) الخزرجي: المسجد ص ٥٨٤، ابن الديبع: قرّة العيون ص ١١٠ ب، بغية المستفيد ص ٧٧.

موسى بن أحمد بن عيسى الحرّامى قد انفرد بولايتها بعد مقتل أخيه (١) ،
 فأسرع لمقابلة السلطان قبل اقتراب ركبه من مدينة حلى حاملاله الهدايا والتحف
 الثمينة (٢) ، مجددا له الولاء والطاعة . ولما كان لزاما على مدينة أن تتحمل
 تمييز معسكر السلطان وجيشه أثناء إقامتهم فيها ، واضعف إمكانياته تقدم
 مستمطفا السلطان ، وقال له : « إن هذه البلد ضعيفة لا تطيق وطأة مولانا
 السلطان » فاستجاب له السلطان بعد أن ألزمه بتقديم عدد من الخيول كل
 عام (٣) .

ويذكر ابن حجر (٤) أنه قامت حروب بين موسى والى حلى وقبائل
 كنانة (٥) ، فانتهر شريف مكة هذه الفرصة واستولى على حلى ، ولجأ
 واليها إلى السلطان الناصر أحمد ، فأرسل هذا إلى الشريف حسن بن عجلان أمير
 مكة يطلب منه ترك حلى وعدم التعرض لواليها ، فاستجاب لطلبه (٦) .
 وهكذا تمكن السلطان الناصر أحمد من أن يسيطر على الموقف في اليمن ،

(١) ابن حجر : أنباء الغمر - مخطوط - ج ١ ص ٧٥٥ ، العيني : عقود
 الجمان مجلد ٦٦ ص ١٩٦ .

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٦٣ .

(٣) الخزرجى : المسجد ص ٥٨٤ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٧٦-٧٧ .

(٤) أنباء الغمر ج ١ ص ٧٥٥ .

(٥) بنو كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس ، وديارهم باليمن وبجحات
 مكة (القلقشندي : قلائد الجمان ص ١٢٤) .

(٦) ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ص ٧٥٥ .

وسكنت الاضطرابات فيها لفترة تزيد على خمس سنوات (١) لم تحدث بعدها إلا حوادث قليلة متفرقة . حتى كانت سنة ٥٨١٨ / ١٤١٥ م عندما خالف أهل وصاب فقام السلطان بإخماد ثورتهم واستولى على حصونهم (٢) .

وفي سنة ٥٨٢٠ / ١٤١٧ م أغار الإمام علي بن صلاح الدين على بني طاهر نواب السلطان في رداع (٣) ، فأمرع السلطان لنجدتهم ، وتمكن من التغلب على الإمام ، وقتل عددا كبيرا من أتباعه ، وتذبح قلوبه إلى وادي خبان (٤) . وواصل السلطان الناصر حملاته التأديبية إلى بلاد العجالم شمالى لحج ، ومنها إلى أبين ودثينة ثم عدن ، وقفل عائدا بعدها إلى تمز فزريد (٥) .

وفي عهد الناصر قامت عدة محاولات ضده من أجل السيطرة على الحكم . وأولى هذه المحاولات ، تلك التي قام بها ضده أخوه حسين بن الأشرف ، إذ استطاع الاستيلاء على مدينة زريد سنة ٥٨٢٢ / ١٤١٩ م ، وأعان نفسه سلطانا على البلاد (٦) ، وتلقب بالظافر . ولكن السلطان الناصر تمكن من اقتحام زريد

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٦٣ .

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٦٤ .

(٣) رداع ، مخلاف باليمن من بلد بني عبس

(٤) (EL - Khazrejiyy : op . cit . p . 83 , Note , 50) إلى الجنوب

الشرقي من ذمار .

(٥) وادي خبان ، إلى الشمال من جبل بعدان .

(٥) الخزرجي : المسجد ص ٥٨٥ ، ابن الديبع : قرية العيون ص ١١٠ بـ

١١١ أ ، بغية المستفيد ص ٧٧ - ٧٨ .

(٦) العيني : عقد الجمان مجلد ٦٨ ص ٤٨٨ .

والدخول إليها قهرا وقبض على أخيه حسين وسجنه في حصن تعز ، ولكن حسين لم يلبث إلا قليلا حتى استولى على حصن تعز ، فأقام السلطان الناصر عليه الحصار حتى تمكن من القبض عليه مرة أخرى ، وعهد لأخيه الظاهر بكبحه ، فقام بسمل عينيه . وقد استنكر ابن الديبع هذا التصرف باعتباره وصمة عار يندى لها الجبين في تاريخ أسرة بنى رسول ، وندم الناصر على ذلك ولام أخاه لتسرع في تنفيذ أمره الذى أصدره له ساعة غضب (١) .

ومن المحاولات التى وقعت في عهد الناصر لاقصائه عن السلطنة ، حركة محمد بن أبى القاسم نجاح الأشعرى ، الذى سخر أمواله الكثيرة لانزاع العرش السلطاني من صاحبه الشرعى . فتوجه إلى مدينة زبيد وتمكن من الاستيلاء عليها في ربيع الأول ٨٠٦ هـ (٢) / ١٤٠٣ م ، ولكنه لم يحتفظ بالمدينة غير يوم واحد ، إذ لم يأت صباح اليوم التالى حتى كان قد تم القضاء عليه وقتله . فصارت حركته مثالا بين العامة فيقولون : « ملك نجاح ساعة وراح » (٣) .

استمر حكم السلطان الناصر أحمد أربعة وعشرين عاما وثلاثة أشهر ، تمكن بفضل حملاته من الحفاظ على عرشه وإقرار الأحوال في البلاد (٤) . وقد وصفه

(١) الخزرجى : المسجد ص ٥٨٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١١ أ ،

بغية المستفيد ص ٧٨ ، بانخرمة : قلادة النجر ص ٣ ص ١١٠٤ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١١ ب .

(٣) الخزرجى : المسجد ص ٥٨٦ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٧٩ .

(٤) الخزرجى : المسجد ص ٥٨٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١١ ب .

— ١١٢ أ ، بغية المستفيد ص ٨ .

ابن تغرى بردى ، بأنه كان من شرار بنى رسول ، وأن البلاد قد خرب معظمها
فى عهده لظلمه وعسفه وعدم سياسته وتدبيره (١) . وكانت وفاته فى جمادى
الأولى سنة ٨٠٧ هـ / (٢) ابريل ١٤٢٤ م .

ب — عن المنصور عبد الله بن الماصر احمد واتخوه الأشرف الثالث
إسماعيل : —

تولى المنصور عبد الله السلطنة بعد وفاة أبيه (٣) ومع أنه كان صغير السن ،
إلا أنه استطاع فرض هيئته وتثبيت سلطانه على البلاد ، ويذكر ابن الديبع
أنه كان ذا رأى وتدبير لسياسة المملكة على صغر سنه (٤) . ولكنه لم يعمر
طويلا ، إذ كانت وفاته فى ربيع الآخر ٨٣٠ هـ (٥) / فبراير ١٤٢٧ م . بعد
حكم لم يدم أكثر من ثلاث سنوات .

خلف الأشرف الثالث إسماعيل أخاه المنصور عبد الله على عرش بنى رسول ،
وكان هو أيضا صغيرا عندما تولى السلطنة ، ولهذا فقد قام بتدبير أمور المملكة

(١) ابن تغرى بردى : المنهل العياقي ، المجلد الأول ج ١ ص ١٣٣ .

(٢) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، حوادث
الدهور ص ٧٧ ، الدليل الشافى ص ٨ ب ، الخزر جى العنجد ص ٥٨ ؛
ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٢ أ ، بغية المستفيد ص ٨٠ .

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل العياقي ج ١ ص ١٢٣ ، ج ٣ ص ٥١٤ ،
الدليل الشافى ص ٨ ب .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٢ أ .

(٥) الخزر جى : العنجد ص ٨٧ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٠ .

الله جماعة من أعيان دولته (١) . ولكن الخلاف لم يلبث أن دب بين القائمين بأمر الدولة ، وواجهت دولة بني رسول مشاكل عويصة ساعدت على اضمحلال الدولة وعجلت بانتهيارها السريع . فقد ترتب على خروج كثير من النبائل عن الطاعة ، وقيامهم بأعمال السلب والنهب ، أن انتشرت الفوضى في البلاد ، في نفس الوقت الذي ازدادت فيه المحن والقحط والجذب (٢) ، فتجراً الناس على سلطانهم ، وانتهى الأمر بقيام جماعة من المماليك والعبيد بالقهض على السلطان وخلعه عن العرش (٣) ، وانتهبوا قصره في جمادى الآخرة سنة ٨٣١ هـ / مارس ١٤٢٨ م ، بعد عام وشهرين من ولايته (٤) .

ج - عهد الظاهر يتيمى بن الأشرف اسماعيل بن العباس :

بعد خلع الأشرف ، استقر رأى الثوار على إقامة عمه الظاهر يتيمى ، وكان «الظاهر سجيناً منذ أيام أخيه الناصر أحمد ، فأخرجه الثوار من سجنه وبايعوه سلطاناً على البلاد ، فأمر بالتحفظ على ابن أخيه المخلع في حصن الدملوة ، فأقام فيه سجيناً حتى وفاته (٥) .

وكان الظاهر يستشعر بالأخطار التي تحيط به ، خاصة من قبل العناصر

(١) الخزرجى : المسجد ص ٥٨٨ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٠ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٢ ب .

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ص ٣ ض ٥١٤ ، حوادث الدهور

ص ٣٧٦ .

(٤) الخزرجى : المسجد ص ٥٨٨ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٠ .

(٥) الخزرجى : المسجد ص ٥٨٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٢ ب ،

بماخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٠٤ .

التي هزلت سلفه ، ولكنه لم يتسرع في التخاصم منهم ، وترك حق واتته الفرصة ، وعندئذ لم يتردد في التذليل بهم ، وتبعهم قتلاً ونشريداً^(١) . كما عمل على التخلص من كبار رجال سلفه ، وعلى رأسهم الوزير القاضي شرف الدين إسماعيل بن عبد الله العلوي وأسرتهم ، فهادهم واستولى على أموالهم وشردهم^(٢) .

وفي سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٣٠ - ٣١ م خرج عدد من العبيد بمدينة المحالب عن طاعة السلطان وتوجهوا إلى بلاد الواعظات بالقرب من المحالب ، واتخذوها قاعدة لشن الهجمات على مدن تهامة وقراها ، فأسرع السلطان الظاهر إلى مدينة المهديم ليكون قريباً من مسرح المأرك ، ويعمل من هناك على إقرار الأوضاع ، ولكن محاولاته لم تقض على هؤلاء المتمردين . ولحسن حظ السلطان اضطر العبيد إلى الاشتباك مع قبائل المنطقة ، وقد ساعدت هذه الاشتباكات على التخلص من العبيد ، بعد أن قتل فيما أوداداً كثيرة منهم^(٣) ، ونزبت مدينة المحالب واشعلت فيها النيران^(٤) .

ولم تستقر الأحوال في منطقة تهامة ، فقامت انتصارات معظمها .

(١) الخزرجي : المسجد ص ٥٨٨ ، ابن الديبع : بنية المستفيد ص ٨١ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٦٧ - ٥٠٨ .

(٢) الخزرجي : المسجد ص ٥٨٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٣ أ ، باعمرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٠٥ .

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٦٨ - ٥٦٩ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٤ أ .

وتغلبت القبائل على ناحية حرص ، وقام أهل سهام بالخروج عن الطاعة ، وأخربوا وأحرقوا مدن الكدراء والقحمة ونشال في منطقة سهام (١) . كما عاد القرشيون إلى العصيان ، وكثرت للنين والاضطرابات (٢) . وتعذر على السلطان الظاهر القضاء على هذه النين إلى أن وافته المنية في شهر رجب سنة ٨٤٢ هـ / يناير ١٤٣٩ م .

د - عهد الأشرف الرابع اسماعيل بن الظاهر يعقوب :

تولى الأشرف السلطنة بعد وفاة أبيه بإجماع كبار رجال الدولة وأهل الحل والعقد (٤) . واتبعت الأشرف سياسة تقوم على الحزم والتشدد مع القبائل (٥) وتوالت حملاته التي باشرها بنفسه للقضاء على عصيان هذه القبائل ، إلى حد أنه انبأ بالجنون ، لاقدامه وشدة بأسه وجراته (٦) . ويذكر

(١) يحيى بن الحسين : فاية الأمانى ص ٥٦٩ .

(٢) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٢ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٥ .

(٣) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٥ ب ، بغية المستفيد ص ٨٥ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٠٩ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ٥١٩ ، حوادث الدهور ص ٣٧٦ .

(٤) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٥ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٠٩ .

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ٥١٩ ، حوادث الدهور ص ٣٧٦ .

(٦) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٦ أ ، بغية المستفيد ص ٨٦ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٠٩ .

يحيى بن الحسين أنه كان شاباً تغلب عليه رأى الجهل والسفه ، فسفك
الدماء ، وأثار الفتن العظمى ، (١) .

ورغم اضطعاه العنف مع الثوار ، فإن هجمات القرشيين والمعاوية
تزايدت ، ودارت بينه وبينهم مواقع عديدة سنة ٨٤٣ هـ / ١٤٣٩ م ، تبادل
فيها معهم النصر والهزيمة ، ولكن معظمها انتهى بهزيمة قواته ، وسقوط
الكثير من أجناده بين قتلى وأمرى (٢) ، الأمر الذي نستدل منه على مدى
عما وصلت إليه دولة بني رسول من ضعف ، وعدم قدرة الحكومة المركزية
على مواجهة ثورات القبائل التي كانت تستهدف القضاء عليها . وبلغ من
قوة القبائل أنها استطاعت التغلب على السلطان وجيشه في معركة ضيعة دارت
بينها في ذي القعدة سنة ٨٤٣ هـ / أبريل ١٤٤٠ م ، ولم يعمد فيها عسكره
إلا قليلا ، وفر السلطان بنفسه بأعجوبة (٣) في عدد يسير من خاصته (٤) .

وبسبب تخرج موقف السلطان الأشرف أمام الهزائم المتكررة التي منى
بها ، واستفحال خطر القبائل تظاهر بالرغبة في إزالة أسباب ثورتهم ، ودعاهم

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٧ .

(٢) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٣ ، ابن الديبع : قررة العيون ص ١١٦ أ -
ب ، بغية المستفيد ص ٨٦ - ٨٧ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٧٨ -
٥٧٩ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٠٨ .

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٧٩ .

(٤) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٣ ، ابن الديبع : قررة العيون ص ١١٦ ب ،
بغية المستفيد ص ٨٧ .

إلى ولاية أقامها في قرية بيت الفقية شمال زبيد في جمادى الأولى سنة ٨٤٥ هـ / سبتمبر ١٤٤١ م بقصد التناغم معهم ، حضرها جماعة من مشاهير المعازبة ومشايخهم ، فلما جلسوا إلى السباط أمر بضرب أعناقهم ، فقتل منهم أربعة من رجلا ، وتمكن الباقيون من الفرار (١) .

ولم تضع هذه الجريمة الشعاع حداً لثورات القبائل التي استمرت بغير هوادة دون أن يتمكن من إخمادها أو التخفيف من حدتها (٢) إلى أن توفي في شوال سنة ٨٤٥ هـ (٣) / فبراير ١٤٤٢ م .

هـ - سلطنة المظفر الثاني :

كان المظفر يوسف ثنائي بن عمر بن إسماعيل بن العباس الرسولي ، قد لازم منطقة وصاب خوفاً من ابن عمه الأشرف الرابع ، ولما توفي أجمع أهل الحل والعقد على إقامة المظفر الثاني سلطاناً على اليمن خلفاً للأشرف ، لما كان يتحلى به من العدل وحسن السيرة (٤) . ولكن الدولة كانت قد قطعت شوطها

(١) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٤ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٧ ،
ياخزيمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٠٩ ، ص ١١١٣ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٦ ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى
ص ٥٧٩ .

(٣) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٦ ب ،
ياخزيمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٠ .

(٤) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٧ أ ،
بغية المستفيد ص ٨٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٧٩ .

كبيراً نحو الانهيار ، ولهذا فقد شملت عمده الفوضى والاضطراب (١) منذ اليوم الذي تولى فيه السلطنة . فلم يكده يعنى العرش حتى خرج عليه جماعة من جنده بزعماء قائدهم يشبك الخصاصكى ، وأقاموا أحد أبناء رسول وهو محمد بن اسماعيل ابن عثمان بن الأفضل عباس سلطاناً على البلاد في المحرم ٨٤٦ هـ / مايو ١٤٤٢ م ولقبوه بالمفضل ، وجعلوا من زبيد مقراً له ، فعمل المفضل هذا على اجتذاب القبائل الثائرة - وخاصة الممازية والقرشيين - إلى جانبه ، فاستدعاهم إلى زبيد وأنفق فيهم الكثير من الأموال ، ووزع عليهم الخيل والسلاح ، فازدادوا بذلك قوة على قوة (٢) . ولكن السلطان المظفر الثانى أرسل حملة بقيادة بعض كبار قادته تمكنت من اقتحام مدينة زبيد والقبض على المفضل في الثامن من ربيع الآخر سنة ٨٤٦ هـ (٣) / ١٦ أغسطس ١٤٤٢ م وأرساله معتقلاً إلى تعز (٤) ، أما أهل زبيد فقد أرسل المظفر إليهم منشوراً بالأمان قرى في جامعتها (٥) . وعمل على الانتقام من الممايك المخالفين الذين أقاموا الأفضل سلطاناً ، فتمكنت قواته من التغلب عليهم وقتل قائدهم يشبك الخصاصكى (٦) .

(١) ابن تفرى بردى : حوادث الدهور ص ٣٧٦ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٨ ، بامخرمة : قلادة النحر ج ٣

ص ١١١٣ .

(٣) بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٠ و ١١١٣ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٠ .

(٥) الخزر جى : المسجد ص ٥٩٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٧

ب ، بغية المستفيد ص ٨٩ .

(٦) الخزر جى : المسجد ص ٥٩٥ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٨ ،

بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٣ .

وعاقب السلطان من استمر على عصيانه منهم بقطع جامكيته ، فأدى ذلك إلى قيامهم بنهب غلال الأراضى المحيطة بزبيد (١) ، واشعالهم نار الفتنة ، وحدوا على البحث عن يتعاون معهم من بنى رسول ، حتى عثروا على أحدهم فى مدينة حديس وهو الناصر أحمد بن الظاهر بن يوسف بن عبد الله بن المجاهد ، فولوه ساطاناً بزبيد فى جمادى الآخرة سنة ٨٤٦ هـ / أكتوبر ١٤٤٢ م بحجة أن المظفر لم يعد قادراً على القيام بأعباء الحكم وأنه لا يصلح للسلطنة (٢) .

وزادت سطوة المماليك مرة أخرى ، إذ تجمعوا فى شهر رجب ٨٤٦ حول قصر زبيد وانفقوا على نهب المدينة ، فانتشروا ينهبون ويقتلون ويشيرون الرعب والفرع فى المدينة دون أن يتجرأ أحد على التصدى لهم (٣) . ومن ناحية أخرى استغل جماعة من أهل زبيد خروج الناصر أحمد بن الظاهر إلى وادى زبيد فى شعبان سنة ٨٤٦ هـ (٤) / ديسمبر ١٤٤٢ م ، وأقدموا على إغلاق أبواب المدينة فيما عدا باب واحد لم يتمكنوا من إغلاقه بسبب قيام أصحاب الناصر بحراسته . وكان هؤلاء القوم يهدفون من وراء إغلاقهم أبواب المدينة أن يمنعوا الناصر من العودة إلى زبيد تخلفها من الأخطار التى قد تلحقهم

(١) باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٠ .

(٢) الخزرجى : المسجد ص ٥٩٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٧٧ ب ، بغية المستفيد ص ٨٩ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٠ و ١١١٣ .

(٣) الخزرجى : المسجد ص ٥٩٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٧ ب ، بغية المستفيد ص ٨٩ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٣ .

(٤) باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٠ .

بسببه ، ولكنهم لم يلتموا أن اضطروا إلى الفرار عندما اكتشفت محاولتهم .
أما الناصر فقد أسرع بالعودة ، وانتبعت المدينة بأمره نهبا شبيها وقنل ،
أهلها أعداد كبيرة ، حتى « أصبحت زبيد حصيدا كأن لم تغن بالأمس » (١) ،
وتفرق أهلها » (٢) .

ولم تمدنا المصادر بما قام به السلطان المظفر الثاني ضد تلك الحركات التي
قام بها المماليك المعمدون الذين استبدوا واستفحل خطرهم وعانوا في البلاد
الفساد . ويبدو أنهم لم يحققوا أهدافهم من إقامة الناصر أحمد بن الظاهر ،
ولهذا عزلوه في ربيع الأول سنة ٨٤٧هـ / يولية ١٤٤٠ م ، وأخرجوه من
زبيد (٣) .

و - المسعود صلاح الدين أبو القاسم بن الأشرف وسقوط دولة بني رسول :
لم يخلع المماليك السلطان الناصر أحمد بهدف هزمهم على العودة لطاعة
السلطان المظفر الثاني وإنما ليقبضوا سلطانا آخر ينافسون به المظفر ، فأقاموا
المسعود صلاح الدين أبو القاسم بن الأشرف سلطانا في زبيد في ربيع الأول
٨٤٧هـ / يولية ١٤٤٣ م . وكان المسعود - وقت اختياره - صغيرا لم يبلغ
الثالثة عشر من عمره ، لهذا كان الواجبة التي عمل المماليك من ورائها ضد

(١) باخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١١٠ و ١١١٤ .

(٢) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٨ .
يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٥٨٠ .

(٣) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٦ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٠ .
باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٠ .

المظفر ، وبدأوا نشاطهم تحت رايته بالتوجه إلى عدن واستولوا عليها في ذى القعدة سنة ٨٤٧ هـ^(١) / فبراير ١٤٤٤ م . ثم توجهوا إلى لحج وكان فيها بنو طاهر ، الذين كانوا بدورهم يطمعون في الاستبداد بملك اليمن . وكان بينهم زيادة ضعف بنى رسول ، لينهل عليهم القضاء على دولتهم . ولهذا لم يقاوم بنو طاهر المسعود وقواته وتركوا لهم لحج فدخلها المسعود وأتباعه سنة ٨٤٨ هـ^(٢) / ١٤٤٤ م .

ولم يلبث المسعود أن زحف بقواته إلى تعز سنة ٨٥٠ هـ / ١٤٠٦ م ودخلها ، وكان المظفر متحصنا بقلعتها فأحكم المسعود الحصار عليه حتى يش من النجاة ، فاستجعد بنوا به بنى طاهر ، فجاءه الشيخ عامر بن طاهر على رأس حملة تمكنت من إجبار المسعود على ترك الحصار ومفادرة تعز ، وذلك في رمضان سنة ٨٥٢ هـ^(٣) / أكتوبر ١٤٤٨ م والتوجه إلى عدن^(٤) . أما المظفر فقد أعد حملة قادها وبصحبته بنى طاهر إلى لحج ، ودارت بينهم وبين المسعود وقواته معركة في ذى القعدة ٨٥٢ هـ / يناير ١٤٤٩ م ، قتل فيها عدد من أتباع المسعود^(٥) . ولكن يبدو أن المسعود استطاع بعد ذلك إرغام المظفر على

(١) ابن الديبع : قرّة العيون ص ١١٨ أ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٤ .

(٢) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٧ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٠ .

(٣) باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٤ .

(٤) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٧ ، ابن الديبع : قرّة العيون ص ١١٨ أ ، بغية المستفيد ص ٩١ .

(٥) باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٥ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٥٨٣ .

التغلب على السلطنة ، ذلك أن المصادر تذكر أن المسعود تسلم حصن تعز في سنة ٨٤٥ هـ (١) / ١٤٥٠ م . ولم يرد ذكر للمظفر في المصادر بعد ذلك إلى نهاية الدولة .

ويبدو أن الممالك الساخطين لم يرق لهم انفراد المسعود بالسلطنة ، لذلك أقاموا سلطانا آخر هو المؤيد حسين بن الملك الظاهر بن الأشرف ، وذلك في شعبان سنة ٨٤٥ هـ (٢) . فلما علم المسعود بتولية المؤيد توجه على رأس حملة إلى زيد في رمضان ٨٥٥ هـ / أكتوبر ١٤٥١ م ، وأقام الحصار عليها ، ولكنه اضطر - عندما أحس بالخيانة في صفوف قواته - إلى العودة إلى تعز (٣) ومنها إلى عدن (٤) . أما بنو طاهر فقد نشطوا لتنفيذ أطماعهم في الاستيلاء على السلطنة ، وتقدموا في المحرم سنة ٨٥٨ هـ / يناير ١٤٥٤ م إلى عدن ، حيث دارت بينهم وبين المسعود عدة معارك خارج المدينة أسفرت عن انتصار بنى طاهر في بعضها وهزيمتهم في البعض الآخر ، وانتهى الأمر بتدهور أحوال المسعود ، ولم يعد مسموع الكلمة ، وأصبح مصورة له الخطبة

(١) الخزر جى : المسجد ص ٥٩٨ ، ابن الديبع : قررة العيون ص ١١٨ ب ، بغية المستفيد ص ٩٢ .

(٢) الخزر جى : المسجد ص ٥٩٨ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٢ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٥ .

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٤ .

(٤) الخزر جى : المسجد ص ٥٩٨ ، ابن الديبع : قررة العيون ص ١١٨ ب ، ١١٩ أ ، بغية المستفيد ص ٩٢ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٢ و ١١١٥ .

السكة لا غير،^(١) في عدن ، مما اضطره إلى التخلي عن السلطنة في السادس من جمادى الآخرة سنة ٨٥٨ هـ^(٢) / ٣ يولية ١٤٥٤ م.

أما السلطان المؤيد حسين فإنه ما أن علم بتنازل المسعود وخروجه من عدن ، حتى طمع في الاستيلاء عليها ، ونجح في ذلك ودخلها في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ٨٥٨ هـ^(٣) / ٢١ يولية ١٤٥٤ م فتوجه بنو طاهر إلى عدن في جيش كبير وتمكنوا من الاستيلاء عليها في الثالث والعشرين من رجب وأمنوا المؤيد وحددوا إقامته ، ثم سمحوا له بالتوجه إلى زيد ومنها إلى مكة^(٤) .

وهكذا قويت شوكة بني طاهر واستولوا على البلاد ، واستحوذوا على مقاليد الأمور وأقاموا دولتهم على أنقاض دولة بني رسول التي عمرت بها يقرب من مائتين وثلاثين عاما .

(١) باخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١١٥ .

(٢) الخزر جى : المسجد ص ٥٩٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٨ ب ، ١١٩ أ ، بغية المستفيد ص ٩٢ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٥ .

(٣) باخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١١٥ - ١١١٦ .

(٤) باخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١١٢ .

100

100

100

الفصل الثالث

دولة بني طاهر

أولاً :- الأوضاع السياسية عند قيام دولة بني طاهر :-

١ - نسب بني طاهر :-

تعتبر دولة بني طاهر - في حقيقتها - امتداداً لدولة بني رسول ، ذلك أن الطاهريين استغلوا كونهم نواباً للرسوليين ، وانتهزوا حالة الضعف والانقسام التي مرت بها الدولة الرسولية في منتصف القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ونجحوا في تأسيس دولتهم سنة ٨٥٨ / ١٤٥٤ م .

وينسب بنو طاهر إلى الفرع الأموي من قريش (١) ، ويقال أنهم من نسل الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٢) . وقد نسبهم ابن تقي بردي إلى قبائل القرشية في اليمن (٣) . ويعتبر موضوع النسب بصفة عامة من أهم

(١) باغرمه : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٢١ ، ١١٢٧ ، الشبلي اليمني : السنن الباهر بتكميل للنور السافر في أخبار القرن العاشر - مخطوط رقم ٢٠٣٣ تاريخ تيمور بدار الكتب المصرية - ص ١٩٩ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٥٨٦ ، العرشي : بلوغ المرام ص ٤٦ .

(٢) باغرمه : نفس المصدر والمصنفات ، الشبلي اليمني : نفس المصدر هو المصنف .

(٣) ابن تقي بردي : حوادث الدهور ص ٣٧٣ و ٣٧٦ .

ما ركز على إثباته بعض حكم اليمين، بهدف إضفاء الصفة الشرعية على حكمهم. ومن أهتم بذلك الأمـر إسماعيل بن طغتكين - أحد سلاطين الأيوبيين في اليمين (١) - وتبعه في ذلك بنو رسول (٢)، وهو أمر لم يثبت صحته.

أما عن نسب بنى طاهر إلى الأمويين، ولحقاقهم بأعقاب عمر بن عبد العزيز، فأمر لم تثبته المصادر العربية، بل يثير لدينا الشك والارتياب؛ لعاملين، الأول: أن العباسيين عملوا على استئصال الأمويين، وبصفة خاصة في البلاد التي خضعت لسيطرتهم، وكانت بلاد اليمين في جملة مناطق نفوذهم، وكان يتولاها نواب من قبلهم حرصوا - كغيرهم من نواب العباسيين في الولايات الأخرى - على التخلص من بقايا البيت الأموي.

أما العامل الثاني: فإن المصادر التي أوردت النسب الطاهري لم تلق أى ضوء على كيفية وصولهم إلى اليمين، وتاريخ هذا الحدث، أو ذكر شيء من أخبارهم قبل القرن التاسع الهجري.

أما رواية ابن تغرى بردى في نسبة بنى طاهر إلى قبائل القرشية، فغير قائمة على أى أساس لعدة أسباب منها، أن بنى طاهر كانوا يسكنون مدينى المقرانة وجبن بمخلاف رداع - الواقع إلى الجنوب الشرقى من ذمار - في حين أن قبائل القرشية كانت قد استقرت بأسفل وادى رمع (٣) بمنطقة تهامة إلى الشمال من زبيد، وإليهم تنسب قرية القرشية في تلك المنطقة (٤). وهكذا.

(١) انظر، محمد عبد العال أحمد: دولة بنى أيوب في اليمن، الفصل الخامس.

(٢) انظر ما سبق ص ٣٩ وما بعدها.

(٣) الشرجى: طبقات الخواص - طبع مصر سنة ١٣٢١هـ - ص ٧٨.

(٤) الخزر جى: العقد الفاخر الحسن ج ٢ ص ١٥٠ أ.

يتضح اختلاف مضارب كل منها في الوقت الذي استقرت فيه القبائل في مناطق محددة . يضاف إلى ذلك أن قبائل القرشية كانت من أكثر قبائل البني اضطراباً أيام بني رسول ، ومن المستبعد أن يطمئن بنو رسول إلى الطاهريين أو يعتمدون عليهم إذا ما كانوا فعلاً من قبائل القرشية . ثم أن ثورات القرشيين استمرت في عهد بني طاهر ، وبذل سلاطين تلك الدولة جهوداً كبيرة لإخمادها ، فلو أن بني طاهر كانوا ينتسبون حقيقة إلى القرشية لما أقدم هؤلاء على الثورة عليهم .

وهكذا يتضح أن انتساب بني طاهر إلى بني أمية أو إلى قبائل القرشية اليمنية لا يقوم على أساس . وأياً ما كان الأمر ، فإن بني طاهر يمنيون ، اشتغلوا بزراعة القوة (١) واهتموا بالتجارة واحترفوها (٢) .

٢ - ظهور بني طاهر ودورهم في انصرافات بني سلاطين بني رسول :-

لم يرد ذكر بني طاهر في المصادر العربية إلا ابتداء من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، أي عند بدء دخولهم في خدمة بني رسول . وبالتدريج أصبحوا بعض الشهرة إلى أن أصبحوا أمناء سلاطين بني رسول على التجارة ووكلاء عنهم في عدن (٣) ، ونواب لهم في خلاف رداع وهي

(١) القوة نوع من النبات يستخدم في الصباغة (ابن تغري بردي : حوادث الدهور ص ٣٧) .

(٢) باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١١ ، تاريخ نجر عدن ج ١ ص ١٢٠ .

(٣) الخزرجي : المسجد ص ٥٨٥ ، ابن الديبع : قررة العيون ص ١١٠ ب بغية المستفيد ص ٧٧ . باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٥٨ ، الجرافى : المختصر ص ٨٢ ، الواسع : تاريخ اليمن ص ١٨٨ .

منطقة هامة ، إذ كانت تعتبر خط دفاع أمانى ضد التوسع الزيدى جنوبى ذمار ، فلقد تعرضت تلك المنطقة سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م لآغارات الامام الزيدى على ابن صلاح الدين ، وذلك منذ بداية سلطنة الناصر أحمد بن اسماعيل بن العباس الرسول . ونظراً لضعف دولة بنى رسول ، لم يتمكن نائبهم الشيخ على بن طاهر من الصمود فى وجه الامام ، ووافق على التنازل له كرها عن احدى القلاع الهامة فى منطقة رداغ ، ولكن ما أن قتل الامام عائداً الى ذمار ، حتى نكث بنو طاهر عهدهم معه ، فعاد الامام اليهم واتبع معهم سياسة تقوم على العنف ، فأخذ يخرب بلادهم ويدمر ممراتهم ، ولم يتصرف عنها إلا بعد أن وفد بنو طاهر عليه واعتذروا له عما بدر منهم (١) .

وكان الشيخ معوضة (٢) بن تاج الدين - جند بنى طاهر - معاصراً للسلطان الناصر أحمد الرسول ، وتشير المصادر إلى انضمام بنى طاهر بسلاطين بنى رسول وتعاونهم معهم وارتباطهم بهم ، فى سنة ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م وفد الشيخ طاهر بن معوضة على السلطان الناصر أحمد الرسول ، فأكرمه (٣) وأنعم

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٥٨ - ٥٥٩ .

(٢) هو معوضة بن تاج الدين بن محمد بن سعيد بن عامر ، ويرفع بعض المؤرخين نسبه إلى وهب بن منبه بن حرب القرشى الأموى . (الكبرى : اللطائف السننية ص ٢٢٨ ، الجرافى : المختطف ص ٨٢) . وكانت وفاته فى جمادى الأولى سنة ٨١٢ هـ / أكتوبر ١٤٠٩ م (الجزرعى : المسجد ص ٥٨٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ ب ، بغية المستفيد ص ٧٧ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٥٧) .

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٦٣ .

عليه وعلى من جاء بصحبته . والظاهر أن السلطان استوثق من ولاء طاهر
وبنيه له ، فاعتمد عليهم في إقرار الأوضاع بمدينة للقرانة وما إليها من خلاف
رداع ، وأسند إليهم مهمة التصدي للقوى الزيدية التي تطمع في التوسع
جنوبي دمار . فلما أغار الامام الزيدى على بن صلاح الدين مرة أخرى على
مدينة المقرانة سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م خشي بنو طاهر الهزيمة وسارعوا إلى
الاستنجاد بالسلطان الناصر أحمد ، وتمكنوا - بمعاونته - من التصدي للامام
ولإيقاع الهزيمة بقواته ^(١) ، ومطاردة علولة إلى وادي خبان الواقع إلى الشمال
الشرقي من مدينة لب ^(٢) .

ويستمر ولاء بني طاهر لبني رسول ، ويستمر أيضا توافدهم على تعز
عاصمة الرسولين ، ففي سنة ٨٣٥ هـ / ١٤٣١ - ٢٢ م مثل الشيخ على بن
طاهر بين يدي السلطان الظاهر يحيى بن الأشرف إسماعيل الرسولي ، فحظى
عنده بمثل ما كان يحظى به أبوه من الأكرام والإناهم . وتوطدت الصلات
بينها بزواج هذا السلطان من ابنة الشيخ طاهر بن معوضة ^(٣) ، ومن ثم
أخذ نفوذ بني طاهر في الازدياد وبرز دورهم ، وأسهموا بنصيب كبير في
الأحداث التي وقعت في أواخر حكم الرسولين .

ففي سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م تولى المظفر يوسف بن المنصور عمر بن الأشرف

(١) الكبش : اللطائف السنية ص ٢٥٩ .

(٢) الخزرجي : المسجد ص ٥٨٥ ، ابن الديبع : قررة العيون ص ١١٠ ب
بغية المستفيد ص ٧٧ ، باخرمة : قلادة النحوي ج ٣ ص ١١٥٨ .

(٣) الخزرجي : المسجد ص ٥٨٩ ، ابن الديبع : قررة العيون ص ١١٣ ب
بغية المستفيد ص ٨٠ .

الرسولي السلطنة ، ولكن لم يلبث بعض من تابعه من المماليك أن خرجوا عن طاعته وتآمروا عليه ، وأقاموا في المحرم سنة ٨١٦ هـ / مايو ١٤٤٢ م سلطاناً آخر في زبيد لمنافسته ، هو المفضل بن أسد الدين محمد بن إسماعيل بن عثمان ابن الأفضل الرسولي (١) ، وعندئذ أصدر السلطان المظفر أوامره إلى الشيخ علي ابن طاهر بالتصدي لهذه الحركة ، فتوجه على رأس قوة كثيفة إلى زبيد ، وأرغم الثوار على العودة إلى الطاعة بل واضطروهم إلى اعتقال سائطانهم المفضل بن أسد الدين وتسليمه إلى السلطان المظفر (٢) تجنباً لما قد يصيرون من عقاب السلطان الشرعي .

وما كاد المماليك المتمردون ثقة المظفر بهم ، حتى قاموا بتدبير مؤامرة جديدة ، ولم يمض وقت طويل حتى عادوا إلى العصيان وأقاموا في جمادى الآخرة سنة ٨٤٦ هـ / (٣) أكتوبر ١٤٤٢ م سلطاناً آخر هو أحمد بن الظاهر بن يوسف بن عبد الله الرسولي ، ولقبوه بالناصر . ويدور أنهم تعجلوا في تنصيبه سلطاناً ، ذلك أنهم خلعوه في ربيع الأول سنة ٨٤٧ هـ / يولييه ١٤٤٣ م ، وأقاموا مكانه في نفس الشهر المسعود صلاح الدين بن الأشرف بن الناصر الرسولي ، فبدأ بالاستيلاء على عدن في ذي القعدة سنة .

(١) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٥ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٨ ، الكبسي : اللطائف ص ٢١١ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٧ ، باخرمة : قلاده الحجر ص ٣٠ ص ١١٠ و ١١٣ .

(٣) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٧ ب ، بغية المستفيد ص ٨٩ .

٥٨٤٧ هـ / فبراير ١٤٤٤ م . واضطر السلطان المظفر إلى الاستمالة إلى بني طاهر لوضع حد لهذه الحركة ، وأرسلهم في جموع أتباعهم المرابطة في لحج ومراقبة تطورات الأحداث عن كثب ، غير أن بني طاهر وإن كانوا يظهرون الولاء للسلطان المظفر ، إلا أنهم كانوا يخططون بدورهم للاستيلاء على ملك بني رسول مستغلين الظروف الصعبة التي كانت تلك الدولة تمر بها آنذاك ، من الانقسام والتفتت وعدم ولاء الجند ، مما أدى إلى ضعف هؤلاء السلاطين وانكماش ظلهم من مناطق كثيرة ، وقيام العلामعين والمتنافسين على عرش السلطنة (١) .

أما المسعود فقد رأى في وجود قوات المظفر بقيادة بني طاهر في لحج ، خطرا يهدده في عدن ولهذا قرر مواجهتهم بنفسه ، فخرج على رأس حملة في ٥٨٤٨ هـ / ١٤٤٤ م ، وتمكن من انتزاع لحج منهم (٢) . وهكذا بدأت كفة المسعود ترجح ، وطمع في التخلص من السلطان المظفر ، فزحف إلى تعز في سنة ٥٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م وحاصره في قلعتها ، فلما طال عليه الحصار أستنجد ببني طاهر ، فقدموا لنجده (٣) وأرغموا المسعود على فك الحصار عنه في سنة ٥٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م وتعقبوا فلوله وطاردوه إلى عدن (٤) ، ودارت بين الجانبين في ظاهر تلك المدينة عدة معارك لم تسفر عن نتيجة حاسمة . فلما فشل

(١) با مخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٤ ، الكبسي : اللطائف السنية

ص ٢١٢ .

(٢) با مخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٣) با مخرمة . نفس المصدر والصفحة ، الكبسي : نفس المرجع والصفحة .

(٤) با مخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١١٥ .

بنو طاهر حائدين إلى قاعدتهم حاول المسعود من جديد الاستيلاء على تعز ،
ونجحت محاولته أخيراً ، وتمكن من الاستيلاء على المدينة وقلمتها في سنة ٨٤٤هـ /
١٤٥٠ م بعد أن فر المظفر منها (١) .

وهكذا أثبت المسعود قدرته في السيطرة الجزئية على بعض المناطق ،
وركز قواه على للتخلص من السلطان المظفر ، تمهيداً للانفراد بملك بني
رسول ، متناسياً بذلك أن الممالك الذين أقاموه كانوا يستهدفون من وراء
توليته مجرد استمرار التنافس بين بني رسول على عرش السلطنة ، وعدم
إتاحة الفرصة لانفراد أحدهم بالملك ، وهو أمر استغله بنو طاهر لتحقيق
مخططاتهم في الاستيلاء على البلاد وإقامة دولة باسمهم .

٣ - سقوط دولة بني رسول :

أصبح مماليك بني رسول يشكلون أكثر العناصر خطورة على الدولة ،
فقد قويت شوكتهم وأصبحوا يتحكمون في عزل السلاطين وتنصيبهم ، وكان
لا يهمهم سوى استمرار سيطرتهم والقضاء على الجهود الرامية لإقرار
الأوضاع في اليمن . فلما أحسوا بمقدرة المسعود واحتمال نجاحه في السيطرة
الكاملة على البلاد ، أقاموا في شعبان سنة ٨٥٥هـ / سبتمبر ١٤٥١ م سلطاناً ثالثاً
هو المؤيد حسين بن الظاهر الرسولي . فأدى ذلك إلى زيادة التنافس بين
السلاطين الثلاثة على العرش ، فبادر المسعود للتخلص من هذا التنافس الجديد
قبل أن يستفحل أمره ، ولكنه اضطر إلى العودة إلى عدن عندما أحس بعدم
ولاء عسكره له (٢) ، فلما أماد تنظيم قواته تحول مرة أخرى إلى مواجهة

(١) باخرمة : نفس المصدر والصفحة ، الكبسى : نفس المرجع والصفحة .

(٢) باخرمة : نفس المصدر والصفحة .

مفسكر المظفر ممثلا في بني طاهر (١) .

وكان بنو طاهر قد تجوزوا بدورهم للاستيلاء على عدن ، فتصدى
المسعود لهم وبادرهم بالقتال في الحج في أوائل سنة ٨٥٨ / ١٤٥٤ م ، ولكن
المعركة لم تسفر عن أى نتيجة حاسمة ، واضطر المسعود للعودة إلى عدن
بسبب الاضطرابات التي نشبت بين فرعى قبيلة يافع من آل أحمد وآل كلد
المقيمين فيها ، فقد اختل صمام الأمن بسبب ذلك ، وتعرضت بيوت التجار
والأغراب في عدن للسلب والنهب ، وكان آل كلد يؤلقون السواد الأعظم
من سكان المدينة ويسيطرون عليها من الداخل ، فلما أحس آل أحمد بسطوة
آل كلد وازدياد خطرهم ، لجأوا بحكم سيطرتهم على حصون المدينة
وأسوارها إلى الانتقام من بني كلد ، وذلك بأن استغلوا فرصة قيام بني
طاهر بحصار عدن ، واتصلوا بهم وتحالفوا معهم وتعهدوا لهم بتدليل مهمة
الاستيلاء عليها ، واشترطوا عليهم مقابل ذلك ضمان الاحتفاظ بمكانتهم والعمل
على تخليصهم من أعدائهم آل كلد وإخراجهم من عدن . فلما استولى بنو
طاهر - بمعاونة آل أحمد - على عدن في رجب ٨٥٨ (٢) / يولية ١٤٥٤ م قام
الطاهريون بتأمين أهلها ، وأمهلوا آل كلد ثلاثة أيام ليغادروا المدينة .

(١) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٧ - ٥٩٨ ، ابن الديبع : قرة العيون

ص ١١٨ ب - ١١٩ ، بغية المستفيد ص ٩١ - ٩٢ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٩ ، بغية المستفيد ص ٩٣ ، بانخرمة

قلادة النحر ج ٢ ص ١١٢١ ، الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ١٩٩ ، الكبسي :

الطائف السنية ص ٢٢١ .

وأباحوا دم من يبق منهم بعد انقضائها ، فتنفرق آل كلاب وتوجه معظمهم إلى
الشحر ولجأ الباقون إلى زيلع وبربرة وغيرها (١) .

وكان المسعود قد وفق في الخروج من عدن قبل أن يحتلها بنو طاهر ،
وانتهى به الأمر إلى خلع نفسه من السلطنة (٢) . وكان السلطان المؤيد
حسين بن الظاهر يحيى قد تمكن من دخول عدن أثناء محاصرة بني طاهر
لها ، وبعد خروج المسعود منها ، وظل متعباً بها حتى استولى بنو طاهر عليها ،
فأحسنوا إليه ورتبوا له راتباً ، وحددوا إقامته ، ثم سمحوا له بمغادرة عدن
بعد أن اشترى منه ما معه من خيل وسلاح ومحتاج (٣) . فلما خرج المؤيد
قصد زبيد ، وأصبح وليس له من أمر السلطنة إلا اسمها ، في حين استبد
المماليك بأمر السلطنة .

وكان لسيطرة هؤلاء المماليك على زبيد أكبر الأثر في الإضرار بأهلها
واستئثارهم عليهم ، وحتى يمكن التخلص من خطرهم قام بعض أعيان المدينة

(١) باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٦ .

(٢) لما خرج المسعود من عدن استجار بأحد الصالحين وأقام عنده ، ثم
جاءه بعض المماليك وطلبوا منه التوجه معهم إلى زبيد ، فلما استوثق منهم
دخل المدينة معهم في رمضان ٨٥٨ هـ ، ولكنه لم يبق بها طويلاً ، فقد غادرها
في آخر شوال ، وخلع نفسه ثم رحل إلى مكة . (ابن الديلم : قرة العيون
ص ١١٩ ب ، بغية المستفيد ص ٩٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص
٥٨٥ ، والكسبي : اللطائف السنية ص ٢٢١) .

(٣) ابن الديلم : قرة العيون ص ١١٩ أ ، بغية المستفيد ص ٩٣ ، باخرمة :
قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٦ ، الكسبي : اللطائف السنية ص ٢٢١ .

بمكة المجاهد علي بن طاهر في عدن وإعلان تأييدهم وولائهم له ، وقد كان ذلك مبررا أصحطه ابن طاهر للتحايل على الاستيلاء على زبيد بغير حرب ، واتفق مع الأمير الدين زين جياش بن سليمان السنبلي على الخروج من عدن على هيئة المطرود منها ، حتى يسهل عليه الدخول إلى زبيد دون إثارة شكوك المماليك فيه ، باعتباره من أعداء بني طاهر ومطاريدهم فتوجه الأمير جياش أولا إلى مدينة موزع ^(١) ، وشرع في مكانة ممالك زبيد ، وعرض خدماته عليهم للتعاون ضد الطاهريين ، فاستقر رأي غالبيتهم على السماح له بدخول زبيد ، وتظاهر جياش لهم بالولاء وحسن المشورة حتى أمنوا له ، ووثقوا فيه ، ولكنه كان يضممر في قرارة نفسه تمزيق شملهم والوقية بينهم ، ونجح في استمالة عدد منهم إلى بني طاهر ^(٢) ، وعندئذ أرسل إلى المجاهد علي ابن طاهر يستحثه على الحضور فلم يتردد في ذلك ، ولما عمل على مخادعة ممالك زبيد ، وتوجه في شوال سنة ٨٥٩هـ / سبتمبر ١٤٥٥م إلى تعز ، وهناك أدركه حشد كبير من القرشيين للانضمام إليه والدخول في خدمته ، فأكرمهم ووعد بمكافأتهم وواصل تقدمه بهم إلى زبيد . فلما علم ممالكها بمقدمه سقط في أيديهم وفر عدد كبير منهم من المدينة ^(٣) . وكان الأمير جياش قد أعلن

(١) تقع بلدة موزع على مسافة ١٥ ميلا تقريبا إلى الشرق من ميناء المخا .
(EL-Khazrejiyy : The Pearl Strings, vol. III, 3, p, 147.
Note, 952.)

(٢) يحيى بن الحسين غاية الأمانى ص ٥٨٦ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٩ ، بغية المستفيد ص ٩٤ - ٩٥ ،
الكبسي : اللطائف ص ٢٢٢ .

أن المدينة قد آلت للملك المجاهد الطاهري ، فكان لتصرفه هذا أكبر الأثر في إثارة ما تبقى من الممالك وزعمائهم الذين توجهوا إليه واستنكروا عليه ذلك ، ولكنه تشدد معهم ، وقام أهوانه بقتل أحد زعمائهم وإلقاء رأسه إلى الممالك المتجمهرين حول الدار ، واحتقل عددا آخر منهم ، ففرق الباقون وآثروا النجاة بأنفسهم خارج المدينة ^(١) ، وتم ذلك يوم الجمعة ثاني أيام عيد الأضحى الموافق ١١ ذى الحجة سنة ٥٨٥٩ / ٢٣ نوفمبر ١٤٥٥ م ، فأصبحت الخطبة على منابر زيد في ذلك اليوم للسلطان الظاهر عامر الثاني بن طاهر ^(٢) . في حين كانت خطبة العيد في اليوم السابق للسلطان المؤيد ^(٣) . واستمرت الخطبة للظاهر عامر الثاني رغم كونه أصغر من أخيه المجاهد علي ^(٤) ، ودانقادت له العربان وذلت له الأقران ، ودانت له العباد وأمنت به البلاد . وانقمع به المفسدون ، ^(٥) .

وهكذا استطاع بنو طاهر إقامة دولتهم على أنقاض دولة بني رسول . وكان لحالة الضعف والتفشي التي كانت تمر بها دولة بني رسول أثرها في

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٧ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٠ ب ، بغية المستفيد ص ٩٥ - ٩٦ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٧ ، وص ١١١٩ ، الكبسى : اللطائف ص ٥٨٨ .

(٣) تمكن المؤيد من مغادرة اليمن إلى مكة ومنها توجه إلى مصر حيث أكرمه السلطان إبنال ورتب له مراتبا يقوم بها ككلمائه في مكة ، فرحل إليها وأقام بها بقية عمره . (باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٢) .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٨ .

(٥) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٦ ، باخرمة : نفس المصدر ص ١١١٧ .

سقوط تلك الدولة التي استمر حكمها مائتين وثلاثين عاماً، تضافرت قرب نهايتها الأسباب، التي عجلت بانتهيارها، فمن صراع حول عرش السلطنة وتمرد القبائل على الدولة، وخروج مهاليك بني رسول عن الطاعة، ومحكمهم في إقامة السلاطين وعزلهم، وتشجيعهم التنافس على العرش. هذا بالإضافة إلى القوى الزيدية المتربصة للانقضاض على الحكم القائم، وقد أتاح لها هذا الاضطراب فرصة النجاح في السيطرة على المنطقة الممتدة من دمار وصنعاء جنوباً إلى صعدة وماليتها من جبال اليمن شمالاً. وكان في الامكان أن تقدم الامامة الزيدية ببسط نفوذها على بلاد اليمن وإقامة حكم زيدى كامل فيها، لولا تفرق كلمتها ونشوب الصراع بين زعمائهم حول الوصول للامامة والانفراد بها.

وهكذا فقد استنفذ اشتغال بني رسول في القضاء على حركات التمرد والعميان، ومواجهة المناوئين لسلطانهم من بني قرايم كل طاقاتهم المادية والمعنوية، والتهم كثيراً من الأموال للاتفاق على تلك الحروب الداخلية، وكانت الموارد الضعيفة للدولة، وخاصة ما يتعلق بعائد ميناء عدن من الرسوم الجبركية تسمح بالاتفاق على تلك الحملات المتوالية، إلا أن ازدهار جدة نتيجة وصول السفن التجارية إليها رأساً، لم يلبث أن أضعف من شأن ميناء عدن لتحويل السفن عن الرسو فيها، وأطاح بالموارد الرئيسي لدخل بني رسول، فكان ضياعه سبباً في زيادة ضعفهم وعجزهم عن الاتفاق على الجند الذين فقدوا الولاء للدولة. واستغل بنو طاهر هذا العجز أحسن استغلال، وتمكنوا في نهاية الأمر من الاستقلال بملك اليمن.

ثانياً : قيام الدولة الطاهرية :

١ - سلطنة الظاهر عامر لاول واخيه المجاهد على بن طاهر :
يرجع الفضل في قيام دولة بني طاهر إلى الجهود الكبيرة التي بذلها

الأخوان الظافر عامر الأول والمجاهد علي بن طاهر ، فقد قلما بقيادة أتباعها وتوليا عملية الاستيلاء على ملك بني رسول ، وأسسوا دولتهما على أنقاضها ، وقلما بأمر السلطنة شريكين في الحكم . إلا أن الظافر عامر استأثر بالخطبة والسكة دون أخيه رغم كونه الأصغر ، ويبدو أن ذلك قد تم برضاء أخيه الأكبر المجاهد علي . وقد ظل الأمر على ذلك إلى سنة ٥٨٦هـ (١) ١١٥٩ - م عندما أعلنت الخطبة للمجاهد علي وضربت السكة باسمه (٢) في جميع أنحاء الدولة برضاء أخيه الأصغر الظافر عامر أيضا (٣) .

ومن الملاحظ أن المصادر لم توضح أسباب اشتراك الأخوين في السلطنة ، وانفراد الظافر عامر بأمر الخطبة والسكة في بداية الدولة ، أو سبب تحولها للمجاهد منذ عام ٥٨٦هـ . وأغلب الظن أن الهدف من اشتراكهما في السلطنة يرجع إلى حرص بني طاهر على تجنب وقوع صراعات حول عرش السلطنة بين الأخوين ، إذ أن هذا التنافس كان من أهم الأسباب في انهيار دولة أسلافهم . ونعتقد أن إعلان الخطبة والسكة للظافر عامر رغم كونه الأصغر قد ترجع إلى الدور الكبير الذي قام به في تأسيس دولة بني طاهر ، أو لأنه كان صاحب فكرة الاستيلاء على ملك بني رسول . وأيا ما كان الأمر فإن اشتراكهما في الحكم كان ضرورة حتمتها الظروف لتجنب المنازعات على عرش السلطنة وضمان تدعيم أركان الدولة الناشئة . ومن الأدلة التي تثبت حرصهما

(١) باخرمة : قلادة النجر ج ٣ ص ١١٢١ .

(٢) الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٢٣ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ ، بغية المستفيد ص ١٠٠ .

على ذلك، الخلاف الذي وقع بين الأخوين الشريكين في سنة ٨٦٨/ ١٤٦٣ م بسبب اضطهاد الظافر عامر للشريف علي بن سفيان وإلى زيد، وعزله وتولية أخيه عبد الملك بن طاهر مكانه، دون التحقق من صحة مانسبه أهل زيد إليه (١). أو في قول آخر بسبب قيام المجاهد علي بعزل أخيه عبد الملك عن ولاية زيد وإعادة الشريف علي بن سفيان إليها، ولجوء عبد الملك إلى أخيه الظافر عامر شاكيا من أخيه المجاهد، فأثار ذلك غضب المجاهد واستيائه فأبدى زهده في السلطنة رغم أنه صاحب الخطبة والسكة، وانهزم ترك البلاد (٢). وتوجه إلى الساحل ليستقبل سر كبا إلى بلاد الحجاز، ولم يعدل عن رأيه إلا بعد أن ألح عليه أعيان مدينة زيد وفقماؤها بالبقاء، كما سارع أخوه الظافر عامر بالتوجه إليه وطيب خاطره واسترضاه، حتى عدل عن قراره، وهكذا يتضح مدى حرص المجاهد علي على تفادي المنافسات والصراعات، فرغم كونه الأكبر سنا وصاحب الخطبة والسكة، إلا أنه أثر مغادرة البلاد وعدم الدخول في صراعات أسرية حرصا على وحدة كيان الدولة وضمان استمرار تماسكها.

٣- الأحوال الداخلية عند قيام دولة بني طاهر :

ورث بنو طاهر بلادا تسودها الفوضى والاضطرابات وتمزقها الفتن الداخلية والانقسامات الدائمة فالامامة الزيدية، تمكنت من استغلال ظروف الضعف

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٣ ، بغية المستفيد ص ١٠٣ - ١٠٤ ،

بناجرمة : قلادة النحر ج ٢ ص ١١٢٨ .

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٩٦ .

والانحلال التي سادت بلاد اليمن أيام بني رسول واستطاعت السيطرة على
قسم كبير من البلاد يمتد من ذمار وصنعاء جنوباً إلى صنعاء وما يليها من جبال
اليمن شمالاً . ولولا الصراعات التي نشبت بين القوى الزيدية حول الإمامة
وقيام أكثر من إمام في وقت واحد ، وتفكك تلك القوى ، لأمكنها تثبيت
سيطرتها الكاملة على البلاد . ومن ناحيته أخرى فقد جنحت أعداد كبيرة من
القبائل إلى إعلان عصيانها والخروج عن طاعة بني طاهر ، واستغاثت بما كان
يحوزتها من البلاد ، وتجاوزت ذلك إلى الاغارة على ما حولها من المناطق
وقطع الطرق وأعمال الحلب والنهب وإثارة الفوضى في ربوع اليمن ، وكانت
معظم هذه القبائل النائرة في منطقة تهامة إلى الشمال من زيد (١) ، ومنها
المهازبة والقرشيين وبني حفيص ، هذا بالإضافة إلى القلائل التي كانت تقيم في
بعض القبائل في مناطق أخرى من البلاد .

وحق يتمكن بنو طاهر من إقرار الأوضاع الداخلية ، فقد كان يحول
عليهم التصدي لحركات تلك القبائل والقضاء على ثوراتها ، ولهذا الهدف نشط
الطاهريون في إعداد الحملات التي ركزت بشكل خاص على القبائل المقيمة
شمالاً من زيد (٢) . ورغم تعدد هذه الحملات وتواصلها ، فلم تكن ذات فعالية
كبيرة ، ولم تؤد إلى السيطرة الكاملة الثابتة (٣) .

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٧ .

(٢) ابن الديبع : نفس المصدر والصفحة .

(٣) لمزيد من التفاصيل عن تمرد القبائل ، انظر القسم الثاني من هذا الفصل ص ٢٨٧ وما بعدها .

سواءاً ما كان الأمر . فقد عمل سلاطين بني طاهر على توطيد أركان دولتهم ،
 وبذلوا العديد من المحاولات للسيطرة على البلاد والقضاء على حركات الترد
 الداخلية فيها ، فبدأوا بالاستيلاء على عدن وتمز وزيد وما بينهما من المناطق
 كما سبق ذكره . ثم استولوا في ذى القعدة ٨٥٨ هـ على حصن التعكر (١) ،
 وأعلنت بعض القبائل ولاءها لهم ، وعمن وفد على بني طاهر بعد استيلائهم
 على عدن الشيخ يحيى بن عمر الثاقي صاحب مدينة الحديدة ، فبعد أن
 تأكدوا من ولاءه وأقسم لهم على الطاعة (٢) ، كلفه السلطان المجاهد على
 بالتوجه إلى منطقة بيت الفقيه شمالي زبيد وزوده بالأموال الطائلة ليسخرها
 في استمالة قبائل المنطقة ، ويضمن بذلك ولاءهم لبني طاهر (٣) .

وحرص بنو طاهر على تجنب الوقوع في منافسات على العرش بين أمراء
 البيت الطاهري ، ولذلك نلاحظ أن السلطان الطاهري كان يستصحب معه
 أمراء أسرته في معظم حملاته أو في جولاته التي كان يتفقد فيها المناطق التي
 كان يتوجه لزيارتها (٤) .

كما لم يتوان بنو طاهر في الضرب بشدة على أيدي العابثين ، ففي المحرم

(١) باخرمة : قلادة النجر ج ٣ ص ١١١٦ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٤ .

(٣) ابن الديبع : نفس المصدر ص ٩٤ - ٩٥ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣١ ، ١٣٤ ب ، بغية المستفيد

ص ٩٧ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، باخرمة : قلادة النجر ج ٣ ص ١١٢٨ ، ١١٣٠ ،

١١٣٢ ، ١١٤٠ ، ١١٦٧ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٩٣ ، ١١٩٦ .

سنة ٥٨٦١هـ / ديسمبر ١٤٥٦م استولى أحمد الثوار وبدعى ابن لبين على حصن تعز ، فأرسل السلطان المجاهد على حملة إلى تعز تمكنت من استعادتها ، ووقع ابن لبين أسيرا وقتل خمسين من أتباعه (١) ، كذلك اهتم بنو طاهر بتأمين الطرق والقضاء على المفسدين وتبديد شتمهم والتخلص من أخطارهم (٢) .

٣ - وقف صاحب الشجر من قيام دولة بنى طاهر :

خضعت بلاد الشجر لليمن منذ استيلاء السلطان المظفر يوسف الثاني سلاطين بنى رسول عليها (٣) ، فلما ضعفت دولتهم خرجت تلك البلاد عن حكمهم ، واستقرت السلطة فيها لقبيلة كندة (٤) . وبسقوط دولة بنى رسول وقيام الدولة الطاهرية ، قام الطاهريون بطرد آل كندة اليافعين من عدن ، فرحل معظمهم إلى الشجر وأغروا صاحبها أبادجانة محمد بن سعيد بن فارس الكندى بالاستيلاء على عدن ، وأرشدوه على مواضع يعرفونها بسهولة على قواته اقتحام المدينة منها . فجهز أبو دجانة في تسعة مراكب (٥) وأبحر

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ أ ، بغية المستفيد ص ٩٨ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٢٥ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ ، بغية المستفيد ص ١٠١ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٢٧ .

(٣) انظر تفصيلات استيلاء المظفر على الشجر في الفصل الرابع ،

(٤) صلاح البكرى : تاريخ حضرموت السياسى - القاهرة ١٩٥٦ - ج ١ ص ٩٠ .

(٥) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٨ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٢٥ .

بها من بلده في شهر ربيع الآخر سنة ٨٦١ هـ / مارس ١٤٥٦ م . وعلى الرغم من تكتيمه الشديد على تحركاته بهدف مفاجأة المدينة والاستيلاء عليها دون مقاومة ، فقد تسرب خبر الحملة وتسلسل لقيف من الموالين لجنبي طاهر والمعادين لأبي دجانة في قارب من ميناء الشجر خفية في الليل ، ويمكنوا من الوصول إلى عدن قبل وصول الحملة ، وأبلغوا الأمر إلى واليها الشريف علي بن سفيان الذي لم يكن متوفرا لديه وقتئذ العدد الكافي من الجند لمواجهة الموقف ، ولهذا بادر بالكتابة إلى النظار عامر والمجاهد علي يستحثهما لانقاذ المدينة (١) . ومبالغة منه في الحيلة أسرع بالتأهب لمقاومة الحملة إلى حين وصول الامدادات . فلما وصل أبو دجانة أمام عدن تعرضت سفنه لعاصفة عاتية تسببت في تحطيم اثنتين منها (٢) .

أما السلطان النظار عامر بن طاهر فقد أسرع في جموع جيشه إلى عدن ، فاطمان بوصول أهله ، وفي نفس الوقت تسرب اليأس إلى نفس أبي دجانة واستقر عزمه على القبول بسفنه ، ولكن لسوء حظه فقد عبثت الرياح بسفينته وجرفتها إلى الشاطئ ، فتلقته قوات بني طاهر وأسرت أبا دجانة وابن

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ ب ، باخرمة . قلادة النحر ج ٣ ص ١١٢٥ ، صلاح البكري : تاريخ حضرموت السياسي ج ١ ص ٩٣ ، سعيد عرض باوزير : صفحات من التاريخ الحضرمي - القاهرة ١٣٧٨ هـ ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٨ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٢٥ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٥٨٨ .

أخيه ومن كان بسفيته من أتباعه (١) وكان من بين الأسرى أحد زعماء
يا فاع من آل كلد ويدعى مبارك الشافى اليا فاعى ، فقتله أعداؤه آل أحمد بعد
أن اتهموه بتحريض أبى دجانة على غزو عدن (٢) .

وكان أبو دجانة قد أناب عنه أمه (بنت مباشر) ، وكانت امرأة كاملة
ذات حزم وعزم ، فقامت بأمر البلاد أثناء غيابه خير قيام ، ويروى أنها أبدت
اعتراضها على الحملة ، ولكنه لم يأخذ برأيها . فلما وقع فى الأسر حزنّت عليه
كثيراً ، وحزمت أمرها وتوجهت بنفسها إلى عدن سعياً فى أمر إطلاقه مقابل
الغنازل عن الشجر ابنى طاهر ، وكان ذلك من حسن طالعهم ، فقد جاء أبو
دجانة الاستيلاء على عدن ، فقدد بلاده وعرشه وحبياته ، ذلك أن السلطان
الظافر عامر وافق على العرض الذى تقدمت به أم أبى دجانة ، فأمر بإطلاق
إبنها من السجن ، ولكنه استبقاهما فى عدن حتى تم تسليم الشجر لنائب بنى
طاهر ، ثم أذن لهما بالعودة ، وقيل أن أبا دجانة لم يخرج من عدن إلا
مسموماً (٣) .

ودخلت الشجر على هذا النحو فى فلك الدولة الطاهرية ، وأسند بنو

(١) أنكبسى : اللطائف السنية ص ٢٢٣ ، محمد بن هاشم العلوى : تاريخ الدولة
الكنيرية - القاهرة ١٩٤٨ - ص ٢٩ ، حمزة على إبراهيم لقمان : تاريخ عدن
وجنوب الجزيرة العربية - القاهرة ١٩٦٠ - ص ١١١ .

(٢) ابن الديبع : قرّة العيون ص ١٢١ ب ، بغية المستفيد ص ٩٨ ، باخرمة
قلادة النحر ج ٣ ص ١١٢٥ .

(٣) باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٢٥ .

طاهر ولا يثما إلى الأمير جياش بن السنبلي سنة ٨٦٣ هـ / ١٤٥٩ م الذي دخلها نيابة عن بني طاهر في ذي القعدة من تلك السنة (٢) ، واستمرت تحت حكم بني طاهر حتى سنة ٨٦٦ هـ عندما تمكن أحد إخوة أبي دجانة من الاستيلاء على الشحر وطرد نائب بني طاهر منها (٣) ، ولم يلبث أن تحكم في طريق الملاحة ، وأخذ يهتض المراكب المتجهة إلى عدن (٤) . وأثارت تلك الاضطرابات نائرة السلطان الظافر عامر فتجهز بنفسه في حملة كبيرة لتأديبه ، ومما يذكر أن أبحر الجبال التي استخدمت لحمل أنقلاها يقدر بإثنى عشر ألف دينار ، وقد سلكت الحلة الطريق البري الساحلي في صفر ٨٦٦ هـ / نوفمبر ١٤٦١ م ، فلما اقتربت من الشحر فر صاحبها ، وتمكن السلطان من استرجاعها (٥) . ولما دخلتها قواته استباححت المدينة ونهبها ، ولم تكف عنها إلا بعد أن أمر السلطان بذلك . أما الأسرى ، فقد أرسلهم السلطان في السفن إلى عدن ، فلما أقر الأوضاع فيها أناب بها أحد أتباعه ، وعصده بيدر بن عبد الله الكثيري صاحب ظفار وخضرموت (٦) . وكان آل كثير - وهم

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٩ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٠ .

(٣) باخزيمة : نفس المصدر والجزء ص ١١١٨ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٩١ .

(٥) باخزيمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٩ ، الكبسى : اللطائف السنية

ص ٢٢٣ .

(٦) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ ، بغية المستفيد ص ١٠٢ .

باخزيمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١٠٢٧ .

من همدان - ينقمون على أسرة أبي دجانة الكندي منذ انقراضهم الشحر منهم -
سنة ٨٣٨ هـ (١) / ١٤٣٤ - ١٤٣٥ م .

٤ - مقتل السلطان الظافر عامر وانفراد أخيه المتجهد علي بالسلطنة :

أبدى بنو طاهر نشاطا حروبيا ملحوظا لمذ نفوذهم على صنعاء وما يليها شمالا ، بهدف القضاء على سيطرة الإمامة الزيدية عليها (٢) . ولم يتردد السلطان الظافر عامر في اغتنام الفرص المواتية لتحقيق هذا الهدف ، ففي ذي القعدة ٨٧٠ هـ / يونية ١٤٦٦ م خرج من عدن على إثر دعوة تلقاها من صنعاء يرض فيها أصحابها استعدادهم لمساعدته في الاستيلاء عليها ، وعلى الرغم من تحذير أخيه المجاهد علي له من هذه المغامرة وتخويفه من الوقوع في مكيدة ربما يكون أهل صنعاء قد دبروها للإيقاع به ، إلا أنه لم يأخذ بتحذيره . فلما وصل إلى صنعاء حملت القوات الزيدية عليه قبل أن يستعد للقتال ، فانهزم عسكره ، وثبت هو في قلعة من خلصائه حتى سقط صريعا في السابع من ذي القعدة سنة ٨٧٠ هـ (٣) / ٢١ يونية ١٤٦٦ م . ودوى خبر معرسته في الآفاق ، وكان له أعظم الأثر في اضطراب البلاد وفي تحريك مطامع القبائل المتمردة ، سيما

(١) صلاح البكري : تاريخ حضرموت السياسي ج ١ ص ٩٠ ، محمد بن هاشم العلوي : تاريخ الدولة الكثرية ص ٢٩ .

(٢) انظر تفصيلات الصراع بين بني طاهر والإمامة الزيدية في نهاية هذا الفصل ص ٣١٣ وما بعدها .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٤ أ ، بغية المستفيد ص ١٠٧ .
ياغرمه : فلاة البحر ص ٣ ص ١١٢٩ .

للقبائل الضاربة بمنطقة تهامة ، وزاد ذلك من ثقل التبعات الملقاة على عاتق رالي
زبيد الذي بذل جهودا هائلة لاقرار الأوضاع في البلاد .

كان الساعلمان المجاهد على إبان تلك الأحداث مشغولا بحصار حصن حبي
بمخلاف بعدان ، وقد أحكم حصاره على الحصن إلى حد أنه قطع المـيرة
والأقوات عن أهله حتى أشرفوا على الملك جوعا (١) ، فاضطروا إلى تسليمه
إليه في رجب ٨٧٠ هـ / فبراير ١٤٦٦ م ، وما أن تحقق للمجاهد ذلك حتى
قتل عائداً إلى عدن (٢) فلما بلغه فيها خبر مقتل أخيه غادر عدن إلى منطقة
رداع ثم رحل منها إلى ذي جبلة ومنها إلى زبيد ، وذلك بعد نجاح واليهما في
تهمة الأوضاع في تهامة وتخفيف حدة التوتر في المنطقة (٣) .

وفي عهد المجاهد اضطربت قبائل تهامة فاضطروا إلى تجريد الحملات لانحداد
حركاتهم التي استمرت تحتدم طوال عصر الطاهريين . وقد واصل الساعلمان
المجاهد حملاته ضد تلك القبائل ، كما قام بحملات تنمذ فيها بلاده إلى أن توفي
في العاشر من ربيع الآخر سنة ٨٨٦ هـ (٤) / ١١ يولييه ١٤٧٨ م ، بعد حكم دام

(١) ابن الديبع : قره العيون ص ١٢٤ أ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٧ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان

ص ٦٠٠ .

(٣) ابن الديبع : قره العيون ص ١٢٤ ب ، بغية المستفيد ص ١٠٨ .

بانخرمة : قلادة النجر ج ٣ ص ١١٢٩ .

(٤) ابن الديبع : قره العيون ص ١٢٨ أ ، بغية المستفيد ص ١٢٤ .

بانخرمة : قلادة النجر ح ٣ ص ١١٤١ الشبلي اليمني : السنا الباهر

ص ٢٠٠ ، ٢٠٢ .

ربيع قرن ، قضى نصفه الأول شريكاً لأخيه الظافر عامر ، وانقرض في النصف الثاني بعرش السلطنة وقد تجنب - طوال عهده - الاصطدام بالقوى الزيدية .
 موقع بإقرار الأوضاع في البلاد وإخماد حركات القبائل المتعددة .

١٤١٨ - الدولة الظاهرية بعد المجاهد :

١ - سلطنة المنصور عبد الوهاب بن داود بن طاهر :

خص المجاهد علي بن طاهر ابن أخيه عبد الوهاب بن داود برعايته لما توسم فيه من كفاية ومقدرة ، فأدناه إليه ورفع منزلته ، واختاره ولياً لعهد قبل وفاته بست سنوات ، ففي المحرم ٨٧٧ هـ / يونيو ١٤٧٢ م مرض المجاهد علي مرضاً شديداً أشرف منه على الموت ، فاستدعى ابن أخيه عبد الوهاب بن داود وعهد إليه بأمر البلاد من بعده ، ولكن المجاهد لم يلبث أن تماتل الشفاء (١) وامتد به للأجل ست سنوات أخرى . فلما توفي في ربيع الآخر ٨٨٣ هـ / يولية ١٤٧٨ م أجمع بنو طاهر على تولية عبد الوهاب بن داود - تنفيذاً لعهد المجاهد له - ولقبوه بالمنصور . وكان سلاطين بني طاهر يحرضون على تأكيد سيطرتهم على عدن خشية أن تخرج عن طاعتهم فيفقدون بذلك مورداً رئيسياً من موارد دولتهم طالما حرصوا على بقائه وتنميته ، ولهذا السبب بادر المنصور عبد الوهاب على أثر مبايعته بالتوجه إلى عدن (٢) ، فوصلها بعد ثلاثة أيام من وفاة عمه (٣) . ولما كان دخول عدن لا يتم إلا

(١) ابن الديبع : قررة العيون ص ١٢٦ ، ١٢٨ ب ، بغية المستفيد ص ١١٥ ، باخرمة : قلادة النجر ج ٣ ١١٣١ و ١١٣٧ .

(٢) باخرمة قلادة النجر ج ٢ ص ١٢٣٤ .

(٣) ابن الديبع : قررة العيون ص ١٢٨ ب ، بغية المستفيد ص ١٢٧ .

باعتصم بريح خاص من السلطان بسبب حرص بني طاهر الشديد وخوفهم من الاتهامات والصراعات على العرش بين أفراد أسرهم ، وفي نفس الوقت لم يكن والي عدن قد علم بوفاة المجاهد واستخلاف المنصور عبد الوهاب ، ولهذا عمد السلطان الجديد إلى تجنب هذا الموقف ، وأبرز إذنا بدخولها كان قد وقعه السلطان المجاهد له قبل وفاته بقليل ، للسماح له بدخول عدن لاستقبال السفن الواردة ، وتجهيز البضائع الصادرة ^(١) . فلما استقر بالمدينة اجتمع بواليهما وكبار رجالها وأهل الحل والعقد فيها وأخبرهم بوفاة عمه واعتلائه عرش السلطنة فبايعوه ، ولم يلبث أن غادرها بعد أن دبر أمورها وقرر قواعدها وسار بالناس سيرة جميلة وفرق في العسكر أموالا جزيلة وكساوى جميلة ، ^(٢) .

٢ - التنافس على عرش السلطنة :

حرص بنو طاهر منذ قيام دولتهم على عدم الدخول في منازعات على الملك ، ولذلك اشترك الأخوان الظافر عامر والمجاهد علي في عرش السلطنة ولهذا السبب أيضا كان الدخول إلى أية مدينة محظورا بغير إذن مسبق من السلطان ، كما كان السلطان يستصحب معه رجالا الأسرى إذا توجه على رأس حملة ، أو خرج لتفقد أحوال بلاده ، حتى لا يهيم لأحد منهم انتزاع الملك منه أثناء غيابه . وقد نجحت هذه السياسة في فترات اشتراك الظافر عامر والمجاهد علي في الحكم .

(١) بانخزمة : قلادة البحر ص ٣ ص ١١٤١ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠ ب ، بانخزمة : قلادة البحر ص ٣ .

فلما توفي الظافر عامر الأول ، واستقل أخوه الأكبر المجاهد علي بالملك واصل تنفيذ هذه السياسة . ويبدو أن السلطان المجاهد لم يخلف عقبا ، ولذلك عهد بالملك من بعده إلى عبد الوهاب بن داود ابن أخيه ، مما أثار سخط بعض أبناء السلطان الظافر عامر بن طاهر الذين كانوا يرون أنهم أحق بالسلطنة منه ، باعتبار أن أباهم كان شريكا للمجاهد في الملك . وهم على هذا النحو أصحاب الحق الشرعي في وراثة الملك عن أبيهم سيما أن المجاهد لم يكن له عقب .

ومع أن أبناء الظافر عامر قد امتثلوا لعهد عمهم ، وابعروا المنصور عبد الوهاب بن داود بالسلطنة ، إلا أن ذلك لم يتم عن اقتناع ، فقد عز عليهم أن تخرج السلطنة منهم فقرروا النكت ، واستغلوا فرصة توجه المنصور عبد الوهاب إلى عدن لإقرار الأوضاع فيها ، والعمل على تأكيد سيطرته على البلاد ، حتى شق يوسف بن الظافر عامر عصا الطاعة ، وأعلن الخروج على السلطان الجديد (١) ، ولم يلبث أن استقل بحكم مدينة زبيد واتخذها قاعدة له طمعا في استكمال السيطرة على بقية البلاد والاستيلاء على عرش السلطنة ، ثم أقدم على إبطال الخطبة في زبيد للسلطان المنصور عبد الوهاب ، وجعلها لبني طاهر عامة (٢) ، واستعد لمواجهة السلطان ، فرتب المقاومة على سـور المدينة وأرغم أهلها على حمل السلاح والدفاع عنها ، وهددهم بالانتقام إذا حازلوا الانتفاض عليه والخروج عن طاعته . فلما علم السلطان المنصور

(١) باخرمة : قلادة التحرر ج ٣ ص ١١٣١ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٧ .

عبد الوهاب بذلك أسرع بالتوجه إلى زبيد، فوصلها في جمادى الأولى سنة ٨٨٣هـ / أغسطس ١٤٧٨ م، وبدأ بالسعى لاقناع يوسف بن عامر بالعدول عن الخلاف والعودة إلى طاعته، ولكن ذلك لم يزد إلا تمسكا بالخلاف (١).
 ثم أنه أقدم على الاستعانة بمماليك زبيد لمواجهة الموقف، فأمر بخروجهم للدفاع عن المدينة من الخارج إذا ما اقتربت قوات السلطان من السور ولكن المماليك أسرعوا بمجرد خروجهم بالتوجه إلى معسكر السلطان، وأعلنوا انضمامهم إليه، فلم يراى يوسف ذلك خرج في أثرهم من المدينة لإعادتهم (٢) ولكن أهل زبيد أغلقوا باب المدينة، وصاح صائحيهم بالطاعة للملك المنصور عبد الوهاب، ولم يتمكنوا يوسف بن عامر من العودة إليها. وكان يوسف قد شحن حصن قوارير بالقرب من زبيد بالطعام وال السلاح، فأراد التوجه إليه والتحصن فيه، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليه لشدة الظلام، وخشى أن يقع أسيراً ويتعرض لانتقام السلطان، فنصح به بعض أتباعه بالتوجه إلى السلطان والاعتذار له والدخول في طاعته، فسار بمن معه تجاه معسكر السلطان، فلما اقترب اضطرب المعسكر ظناً منهم أنه إنما جاء لحرب. ولكن لم تكن قلوبهم إلا بعد ما أعلن أنه إنما قدم طائعا للسلطان، وأظهر ندهه عما بدر منه (٣).

أما السلطان المنصور عبد الوهاب، فقد استقبل ابن عمه يوسف بن عامر

(١) ابن الديبع: قرة العيون ص ١٢٩ أ، بغية المستفيد ص ١٢٧، باخرمة: قلادة النحر ج ٣ ص ١٩٤٢.

(٢) ابن الديبع: قرة العيون ص ١٢٩ أ، بغية المستفيد ص ١٢٨، يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٦١٠.

(٣) ابن الديبع: قرة العيون ص ١٢٩ ب، بغية المستفيد ص ١٢٨، باخرمة: قلادة النحر ج ٣ ص ١٩٤٢، يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٦١٠.

استقبالا حسنا ، ولم يزد عن مجرد معانفته برفق ، وكفل له الاعطاشان وأنزله
 بمخيم أخيه أحمد بن عامر الذي ظل على ولائه للسلطان . فلما كان صباح اليوم
 التالي ، الثاني عشر من جمادى الأولى ٥٨٨٣ / ١١ أغسطس ١٤٧٨ م دخل
 الجميع مدينة زبيد ^(١) ، وهناك أقبلت وفود القبائل معربة عن ولائها للسلطان ،
 فأجزل لها العطاء ^(٢) . وأقام فترة في زبيد لإقرار الأوضاع فيها .

لم يطمئن يوسف بن عامر ، وتوجس خيفة من انتقام السلطان ، ولهذا طابح
 السماح له بالخروج من زبيد ومغادرة اليمن ، ولم يوافق السلطان إلا بعد إلحاح من أحمد
 بن عامر - أخى يوسف - الذى كانت له عند السلطان منزلة رفيعة . وخرج
 يوسف من زبيد فى الثالث عشر من جمادى الأولى ٥٨٨٣ / ١٢ أغسطس
 ١٤٧٨ م وركب لحدى السفن إلى الحجاز ، فأقام مكرا ما لدى الشريف محمد
 ابن بركات أمير مكة ^(٣) . وحاول يوسف أثناء مقامه فى مكة الحصول على
 مساعدة شريفها للاستيلاء على اليمن ، ولكن الشريف لم يوافق على ذلك ^(٤) .

(١) ابن الديبع : قررة العيون ص ١٢٩ ب ، باخرمة : قلادة النحر ص ١١٣٤ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٨ ، باخرمة : قلادة النحر ص ١١٤٢ .

(٣) ابن الديبع : قررة العيون ص ١٢٩ ب ، بغية المستفيد ص ١٣٠ .
 باخرمة : قلادة النحر ص ١١٤٢ .

(٤) الكبسى : اللطائف السنوية ص ٢٢٦ .

ولعل هذا الموقوف من أمير مكة أياسه من نصرته، فقد ظل يوسف بن عامر يراوده الأمل للوصول إلى العرش، ولهذا السبب قرر العودة إلى اليمن، وتم ذلك في سنة ٨٨٤ هـ / ١٢٧٩ م. وخوفه من السلطان المنصور عبد الوهاب اتصل ببني حفيص^(١) الزيديين^(٢) الثأرين على أبي طاهر واستجار بهم، فأكرمه زعيمهم الشيخ أحمد بن أبي الغيث وزوجه بإبنته، فلما علم السلطان بذلك توجه على رأس حملة إلى بلاد بني حفيص شمالاً إلى زييد، واستصحب معه أحمد بن عامر - أخا يوسف بن عامر - ولم يلجأ السلطان إلى القتال إلا بعد أن أخفق في تسوية الخلاف، ودارت المعركة في ذي القعدة سنة ٨٨٤ هـ^(٣) // يناير ١٤٨٠ م، فتمكن بنو حفيص من قتل أحمد بن عامر. فلما علم أخوه يوسف بمقتله انضم إلى المعسكر السلطاني طلباً لثأر أخيه من بني حفيص، وانتهت المعركة بهزيمة بني حفيص ومقتل عدد كبير منهم، وعاد يوسف بن عامر مع السلطان المنصور عبد الوهاب إلى زييد ومنها إلى تعز^(٤). والظاهر أن يوسف ظل يسعى إلى السيطرة على العرش، إذ صدر الأمر بإعتقاله في سنة ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م بحجة عدم ولائه، وظل سجيناً بمدينة رداع^(٥).

(١) عن ثورات بني حفيص الزيديين انظر فيما يلي ص ٣٠٠.

(٢) الزيدون قبائل - خلاف أتباع المذهب الزيدي - ويقطنون المنطقة الواقعة شمالاً إلى زييد في مدينة الزيدية المعماه باسمهم، وما حولها.

(٣) بانحرمة: قلادة النجر - ص ١١٣٤.

(٤) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ١٣٠ - ١٣١، بانحرمة: نفس المصدر

ص ١١٦٣، يحيى بن الحسين: غاية الأمان ص ٦١١.

(٥) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ١٣١، بانحرمة: نفس المصدر

حتى توفي في سنة ٨٩٠ هـ (١) / ١٥٠٢ م .

ولكن وفاته لم تضع حداً لمحاولات أبناء الظافر عامر بن طاهر للاستيلاء على العرش ، ففي جمادى الأولى سنة ٨٩١ هـ / مايو ١٤٨٦ م قام إبراهيم بن عامر بمحاولة أخرى ، ولما كسبها باءت بالفشل وانتهى أمره بالقبض عليه وإيداعه سجن رداع قبل أن يستفحل أمره (٢) .

وهكذا كرس المنصور عبد الوهاب جهوده للقضاء على منافسات خصومه التي بدأت في عهده ودافع عن عرشه ، وجهد الكثير من الحملات للقضاء على الحركات الداخلية المعادية . ولم تفت عزيمته حتى توفي بمدينة جبن من بلاد رداع ليلة السابع من جمادى الأولى سنة ٨٩٤ هـ (٣) الموافق ٨ إبريل ١٤٨٩ م .

٣ - عهد انتفاور عامر الثاني :

كان المنصور عبد الوهاب بن داود بن طاهر قد عهد بالملك من بعده لابنه صلاح الدين عامر . فلما توفي المنصور بوجع ابنة عامر سلطاناً على البلاد ، ولقب بالسلطان الظافر . فلما تمت بيعته بدأ في ترتيب أمور دولته ، وأخذ يطوف في أنحاء بلاده ليتفقد أحوالها ويقر الأوضاع فيها (٤) .

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٠ أ .

(٢) ابن الديبع : بغية ص ١٤٢ ، باخرمة : نفس المصدر ص ١١٦٦ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٣ أ ، باخرمة : نفس المصدر ص ١٣٧ و ١١٦٨ ، الشبلي : السنا الباهر ص ٢٠٠ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٣ ب - ١٣٤ أ ، بغية المستفيد ص ١٤٩ ، باخرمة : قلادة النحر ص ٣ ص ١١٦٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٦١٥ - ٦١٦ .

وكان أبناء الظافر عامر الأول يطعمون في الاستيلاء على السلطنة منذ انتقلها من المجاهد على إلى ابن أخيه عبد الوهاب بن داود . وكان لاستمرار السلطنة في أعقاب عبد الوهاب بن داود ممثلة في الظافر عامر الثاني أعظم الأثر في قيام كل من عمر ومحمد وعبد الله أبناء الظافر عامر الأول بالثورة على السلطان الجديد ، وقامت جموع أتباعهم وغيرهم من الناقين بنهب مدينة جبن من بلاد رداح ، واستولوا على حصنها . ولم يتردد الظافر عامر الثاني في التحرك ، فخرج في جمادى الأولى سنة ٨٩٤ هـ / أبريل ١٤٨٩ م على رأس حملة ضخمة للقضاء على ثورتهم (١) . فلما علم عبد الله بن عامر بقرب وصوله ، سخرج من مدينة جبن في مجموعة من أتباعه ، وقام السلطان بحصار حصن جبن مما يقرب من شهرين ، إلى أن تم التوصل إلى عقد صلح مع عمر ومحمد ابني عامر على أن يقطعها السلطان إقطاعات حدداها بالإضافة إلى جامكية سنوية قدرت بأربعين ألف دينار (٢) .

قام السلطان يرفع الحصار عن مدينة جبن بعد عقد الصلح وتسوية الخلافات مع أبناء الظافر عامر الأول ، ولكنه ما أن رحل عنها لتفقد بعض المناطق حتى يبلغه قيام أبناء عامر بن طاهر بنقض الصلح ، وخروج محمد بن عامر على رأس حملة للاستيلاء على تعز ، فلقى مقاومة عنيفة من أهلها ، وباءت حملته بالفشل (٣) .

(١) بالخزنة : قلادة النحر ص ٣٠٠ ١١٦٨ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٥٠ ، بالخزنة : قلادة النحر ص ٣٠٠

ص ١١٦٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١٦

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٤ ب ، بغية المستفيد ص ١٥١ ،

يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١٦

كما أسرع السلطان لمواجهته ، ووقعت بينه وبين السلطان معركة ضارية في رمضان سنة ٨٩٤ هـ / أغسطس ١٠٨٩ م ، أسفرت عن هزيمة ابن عامر ومقتل خمسمائة وأربعين رجلا من أتباعه ، وغنم السلطان كثيرا من الأموال والعتاد^(١).

لم يهتأ السلطان بانتصاره ، إذ سرعان ما انضم عبد الباقي بن محمد بن طاهر إلى الثوار ، وخرج على رأس حملة ثانية إلى عدن في رمضان سنة ٨٩٤ هـ / أغسطس ١٠٨٩ م ، ومعه مجموعة من السلام الخشبية ليستخدمها رجاله في احتحام أسوارها^(٢) . ولكنه لم يستطع الاقتراب بقواته من الأسوار لشدة مقاومة القائمين بالحراسة عليها . وفي نفس الوقت استشعر محمد بن عبد الملك بن داود والى عدن وابن عم السلطان بالخطر لعدم توفر العدد الكافي من الجند للدفاع عن المدينة ، ولهذا انتهر فرصة وجود السفن التجارية بميناء عدن ، وكانت تضم حراسا مسلحين ، فاستعان بهم ورتبهم للدفاع عن المدينة^(٣) ، وقد قبل أصحاب السفن قيام رجالهم بهذه المهمة خوفا من أن تعرض بضائعهم للنهب في حالة سقوط المدينة في أيدي المجمعين . فلما أحس والى عدن بنجاحه في الدفاع عن المدينة ، أعد العدة وخرج من عدن لمحاربة عبد الباقي وأتباعه وتمكن من إيقاع الهزيمة به وأسر عدد كبير من أتباعه ، سجن بعضهم وقام بكحل الباقين^(٤) ، أما عبد الباقي بن محمد بن طاهر فقد أفلح في النجاة

(١) بالمخرمة : قلادة النحر ص ٣ ص ١١٦٩ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستنير ص ١٠٢ .

(٣) بالمخرمة : قلادة النحر جزء ص ١١٦٠ .

(٤) بالمخرمة : نفس المصدر والملاحظة .

(١) نفسه .

أما زبيد فقد كان يتولاها الأمير محمد بن عيسى البغداني ، وكان معظم
عساكره زبيد خليف من أجناد يذهبون إلى المدن التي استولى عليها عبد الله
ابن عامر ، ولذلك فقد كانوا يميلون إلى عبد الله بن عامر تجنباً لانتقامه من
ذويهم إذا ما ساءلوا أعداءه ، ضده ، وبجح هؤلاء الجنود في ضم أحمد بن محمد
المعروف بالمقرطس شيخ دار الضرب بزبيد إليهم ، وكان الوالي البغداني متزوجاً

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٥ أ ، بغية المستفيد ص ١٥٢ ،
يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٦١٧ . (لم يأمن عبد الباقي على نفسه بعد
الجزيرة ، ففر إلى ساحل إفريقية الشرق في شعبان سنة ٨٩٧ هـ / يونيو ١٤٩٢ م ،
فلما علم السلطان الظاهر الثاني أرسل إلى المجاهد بن سعد الدين أحد أمراء
ممالك الطراز الإسلامي يطالب منه التحفظ عليه وإعادته ، فقام هذا بالقبض
عليه . وحدث أثناء وجوده هناك أن أغار صاحب الحبشة على ابن سعد الدين
فاشترك عبد الباقي في الجهاد وقام بدور كبير في مساندة قوات المسلمين .
فاكرمه ابن سعد الدين ولم يتعرض له بسوء ، وسمح له بالسودة إلى اليمن ،
فلجأ إلى قبائل يافع واستقر عندهم) بالخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٧٢ ،
(وظل متجاً هناك حتى تم اعتقاله وسجنه في جمادى الآخرة سنة ٩٠٣ هـ /
يناير ١٤٩٨ م) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٢ أ ، الفضل المزيدي على بغية
المستفيد - مخطوط مصور يدار الكتب رقم ٩٠٨٧ تاريخ - ص ٣٣ أ ،
بالخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٨٧ . (فظل سجيناً إلى أن عفا السلطان
عنه سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م وأخرجه مع إبراهيم ومحمد ابني عامر) ابن الديبع :
قورة العيون ص ١٥٥ أ . (عندما اضطربت أحوال البلاد داخلية وتعرضت
سلاخزوات الجراكسة من ناحية أخرى) .

من أخت المقرطس الذي كان يحكم المصاهرة مقربا من هذا الوالي يدخل عليه وقتما شاء بغير استئذان ، فاستغل المقرطس هذه الصلة وتآمر على قتله (١) تمهيدا للاستيلاء على زيد لعبد الله بن عامر . ففي الثاني عشر من رمضان سنة ٨٠٤ هـ / ٩ أغسطس ١٤٨٩ م دخل المقرطس وبصحبه رجلين من أتباعه على الوالي الذي لم يكن عنده وقتئذ إلا خادمه الذي اعتاد ملازمته ، فلما هم المقرطس بالانقضاض عليه أشار البعداني إلى خادمه فضرب المقرطس بالسيف ضربة قطع بها عضده ، ونجا الوالي وتمكن من قتل المقرطس وزملايه والقبض على شركائهم (٢) . وعلى إثر ذلك أرسل الوالي إلى السلطان يبلغه بحبر المؤامرة ويطلب إليه إمداده بقوة عسكرية عوضا عن الحامية التي لم يعد يأمن جانبها . وتأمينها للموقف استعان بأهل وصاب فأمدوه بخمسمائة رجل إلى أن وصلته الامدادات من السلطان ، فأنعم على أهل وصاب وكافأهم وأعادهم مكرمين إلى بلدهم (٣) .

لم تتوقف المنازعات في سنة ٨٩٥ هـ / ٤٩٠ م ، وخاصة بعد أن تمكن أبنائه عامر بن طاهر من السيطرة على بعض الحصون والمناطق (٤) ، ودارت بينهم وبين السلطان الظافر الثاني عدة معارك انتصر السلطان في معظمها (٥) . وكان

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٥ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٥٣ ، بانخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١٣٨ .

و ١١٦٩ — ١١٧٠ .

(٣) ابن الديبع : نفس المصدر ص ١٥٤ ، بانخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٧٠ .

(٤) بانخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٥) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٥٦ ، بانخرمة : نفس المصدر ص ١١٧١ — ١١٧٢ .

عبد الله بن عامر أكثر إخوته نشاطاً فقد نجح في الاستيلاء على حصن جبن،
ولكن السلطان بادر بمحاصرته في ربيع الأول سنة ٨٩٥ هـ / يناير ١٤٩٠ م،
ونشبت بينهما عدة معارك قتل فيها عدد كبير من المتمردين، غير أن عبد الله
ابن عامر تمكن من الفرار بأهله وأمواله إلى رباط قريب من مدينة جبن،
ينشدد فيه المنعة والأمان، ويتخذ مركزاً يثبت منه الغارات على أطراف معسكر
السلطان أثناء قيامه بحصار مدينة جبن (١)، فلما تعددت إغاراته لم يجد
السلطان بداً من الإغارة على الرباط وانتهاك حرمة، فاختار من كل قبيلة
من القبائل الموالية له جماعة وأمرهم بقتل كل من يجذوه بالرباط دون الإقدام
على نهبه. وعلى هذا النحو تمكن من إيقاع الهزيمة بعبد الله بن عامر الذي
تمكن من النجاة مرة أخرى. وغنم عسكر السلطان كثيراً من الغنائم،
ولكن السلطان أمرهم برد ما استولوا عليه، ما عدا ما يعاق بالثوار من
بنى طاهر (٢).

وواصل السلطان حصاره لحصن جبن إلى أن تسلمه في جمادى الأولى
سنة ٨٩٥ هـ / مارس ١٤٩٠ م بعد أن أصدر أماناً لجميع المحصورين فيه (٣)،
وبر السلطان بوعدة معهم فيها عدا والده يوسف بن عامر، فقد تحفظ عليها

(١) باخرمة: نفس المصدر ص ١١٧١.

(٢) ابن الديبع: نفس المصدر ص ١٥٦ - ١٥٧، باخرمة. نفس المصدر
والصفحة.

(٣) ابن الديبع: قرة العيون ص ١٣٩ أ، يحيى بن الحسين: غاية
الأماني ص ٦١٧.

باعتبارها المحرصة على إشعال نار هذه الفتنة (١) .

وعلى الرغم من نجاح السلطان في إحباط الثورة ، إلا أنه واصل مطاردة
زعمائها خوفاً من تجدد ثورتهم وتمكن في نهاية الأمر من القبض عليهم . فعفى
شوال سنة ٨٩٦ هـ / أغسطس ١٤٩١ لم حاصر محمد بن عامر ، وتمكن في أول
نذى الحجة من اعتقاله وإيداعه سجن رداع واستولى على ما كان بيده من
الحصون (٢) .

أما عبد الله بن عامر فكان قد أرسل عبداً له إلى تعز في مهمة فاكشف
أمره ، ولما قبض عليه في شوال سنة ٩٠٥ هـ / مايو ١٥٠٠ م دل على نخبه
سيده فسهل بذلك عملية اعتقاله . وقيل أنه كان مختبئاً بإحدى قرى وادي
مكسب — بالقرب من مدينة يفرس من أعمال الحجرية — فتعرف عليه حداد
وأبلغ عنه شيخ الناحية الذي تمكن من اعتقاله ، وتوجه به إلى تعز بناء على
أمر السلطان ، ولما تأكد السلطان من القبض عليه أرسل له قميصاً وعمامة
ورداً آمناً له ، واستقبله لدى وصوله إلى تعز إستقبالاً حسناً ، ولكنه لم
يلبث أن اعتقاله وقيده (٣) وأودعه سجن رداع (٤) فظل سجيناً فيه حتى توفي

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٦ أ ، بغية المستفيد ص ١٤٧ ، باخرمة :
قلادة النحر ج ٣ ص ١١٧١ .

(٢) باخرمة : نفس المصدر ص ١١٧٢ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى
ص ٦١٩ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيّد على بغية المستفيد ص ٣٥ أ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٣ ب ، الفضل المزيّد ص ٣٥ ب ، باخرمة :
نفس المصدر ص ١١٨٨ .

في شوال سنة ٩٠٧ هـ / (١) إبريل ١٥٢٠ م . وباعتقاله انتظم ولاء أبناء الأسرة للسلطان الظافر عامر الثاني (٢) . ولهذا تفرغ للقضاء على حركة القبائل الخارجة عن الطاعة ، وتمكنت قواته من فرض السيطرة على البلاد وتوالت وفود القبائل عليه للاعراب له عن الطاعة والولاء ، فأجزل لهم السلطان العطاء (٣) .

وهكذا صرف السلطان الظافر عامر الثاني جهوده للتخلص من المنافسين له من أسرته ، كما بذل جهدا كبيرا للقضاء على ثورات القبائل ، ولم يشغله ذلك على العمل لبسط نفوذه على المناطق التي كان أئمة الزيدية يسيطرون عليها ، حتى تحقق له الاستيلاء على صنعاء وعلى كثير من المدن والحصون الواقعة إلى الشمال منها . ويمكننا القول بأن دولة بني طاهر بلغت في عهده أقصى اتساع لها .

وكان لظهور الخطر البرتغالي في المحيط الهندي والبحر الأحمر في عهد السلطان الظافر عامر الثاني ، كما كان لموقفه المعادي من الحملات التي أرسلها السلطان الغوري لمحاربة البرتغاليين أثره في تحول القوات المغلوكية عن مهمتها الأساسية ، إلى القيام بغزو اليمن والتوغل إلى صنعاء ، ومقتل السلطان الظافر عامر

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٦ أ ، الفضل المزيدي ص ٣٧ ب ، باخرمة :

نفس المصدر ص ١٨٠ أو ١١٩٠ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٤ أ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيدي ص ٣٧ أ .

الثاني في إحدى معاركه ضد المماليك عند صنعاء في الثالث والعشرين من ربيع
الآخر سنة ٩٢٣ هـ / (١٥ مايو ١٥١٧ م .

٤ - الموقف بعد مقتل السلطان الظافر عامر الثاني -

تدهورت الأحوال في البلاد ولزددت سوءاً بعد مقتل السلطان الظافر
عامر بن عبد الوهاب فقد نشط أئمة الزيدية لاستكمال السيطرة على بلاد اليمن
كما اضطرت القسوات الجراكسية إلى الاستقرار في اليمن بعد أن أعلن قائدهم
الولاء للفتاح العثماني السلطان سليم ، الذي أجهز على دولة الجراكسة ،
واستولى على الشام ومصر ، ودخلت الحجاز في طاعته .

أما فيما يتعلق ببني طاهر ، فيجدر القول بأن دولتهم سقطت بمقتل السلطان
الظافر عامر بن عبد الوهاب في سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م ، على الرغم من احتفاظ بعض
أمراء الأسرة ببعض المناطق وأهمها عدن ، ومن العجب أن يستمر التنافس
والصراع بين بقايا بني طاهر رغم كل تلك المخاطر التي كانت تستوجب تكتل
جهودهم ووحدة صفوفهم لإحياء دولتهم . وعلى الرغم من وفاة السلطان
الظافر في ربيع الآخر سنة ٩٢٣ هـ ، فقد استمرت الخطبة في عدن باسمه إلى
الجمعة الأولى من عام ٩٢٤ هـ . وكان أحمد ابن السلطان القتيل هو القائم بالأمر
والنهي في مدينة المقرانة ببلاد رداع ، كما كان مرجان بن عبد الله الظافري
يقوم بتنفيذ أوامره ، ولكنه لم يبدأ في إعلان الخطبة له في عدن إلا ابتداء

(١) العبدروسى : النور المسافر ص ١١٨ ، الشبلى اليمنى : السينا الباهر ص
١١٩ و ٢٠٤ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٩ . (أزيد من التفصيلات
انظر ، الفصل الخامس) .

من الجمعة الثانية من سنة ٥٩٢٤هـ / يناير ٨ ١٥٠٠م ، ولم يقدر لهذه الخطبة أن تستمر
له أكثر من جمعتين لوفاته (١)

وهكذا أصابت الكوارث دولة بني طاهر وعصفت بهم الزوابع والنكبات.
ولكن من بقى منهم لم يعتبر بكل هذا ، ولم يسع إلى نضاف الجهود لاستعادة
أركان تلك الدولة المنهارة ، وإنما انساقوا وراء أطماع الملك ، فخرهم تيسار
التنافس . فلما توفي أحمد بن الظافر عامر الثاني في أوائل سنة ٥٩٢٤هـ ، اتفق
أهل الحل والعقد في مدينة المقرانة على مبايعة عامر بن عبد الملك بن داود
وخطب له في عدن بأمر واليها مرجان الظافري ، كما خطب له أيضا في
البلاد التي ظلت تحت سيطرة بني طاهر كالمقرانة ورداع ولاب وذى جبلة (٢)
ولكن لم يمض وقت طويل حتى خرج أحمد بن محمد بن عامر بن طاهر عن
طاعته واستقل بحكم مدينة رداع ، فسير إليه عامر بن عبد الملك قوة أوقعت
به الهزيمة ، فتحصن بقلعة المدينة ، وقام جنود عامر بنهب المدينة وتخريب
مزرعاتها ، فاضطر أحمد بن محمد بن عامر إلى طلب الدخول في طاعة عامر بن
عبد الملك وعقد صلح معه ، وأقام في المقرانة إلى أن توفي عامر بن عبد الملك
مسموما في آخر رمضان ٥٩٢٥هـ (٣) / سبتمبر ١٥١٩م .

وعلى الرغم من اتفاق أهل الحل والعقد في مدينة المقرانة على تولية أحمد
ابن محمد بن عامر بن طاهر السلطنة بعده ، إلا أنه لم يحظ بتأييد الأهلية

(١) بانخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١٢٠٧ .

(٢) بانخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ٢٠٧ .

(٣) بانخرمة : نفس المصدر ص ١٢٠٨ .

مرجان الظافري والى عدن الذى : « لم تطلب نفسه بما يعتقه » ، ولكنه لم يمكنه فى الظاهر إلا موافقة الجماعة (١). وكان مرجان يخشى أن ينتزع بنو طاهر عدن منه ، ولهذا حرص على عدم تمكينهم منها ، وتمايل على إختلاق الشا كل وشغلهم بحلها وتوريطهم فى حروب تصرفهم من قاعد عدن ، فأرسل مرجان إلى أحمد بن محمد بن عامر يغريه بمحاربة القوات المملوكية الموجودة فى مدينة تعز . ولإخفاء نواياه قام بإمداده ببعض القوات تعززا له ، فلم تتمكن قوات أحمد بن محمد بن عامر فى معركة مع المماليك حول تعز ، وكاد أن يحرز النصر عليهم ، انسحبت الفرقة التى أرسلها مرجان من ميدان المعركة وخذات أحمد بن محمد بن عامر وتركته فى قلبه من أتباعه ، مما أدى إلى هزيمته ، ولم يتمكن من الفرار إلا بعد عناء (٢) . ولم يكتف مرجان الظافري بذلك ، وإنما أخذ يثب الأموال بين القبائل التى كانت تؤيد أحمد بن محمد بن عامر حتى تخلت عنه (٣) .

واستمر مرجان الظافري يعمل على تقويض البقية الباقية من بنى طاهر كما سعى إلى إشعال التنافس بينهم من جديد ، فأظهر ميله إلى أحدهم وهو عبد الملك بن محمد بن عبد الملك ، واجتمع به خارج عدن سنة ٩٢٦ هـ / ٥٢٠ م وبايعه ، ووعده بالسماح له بدخول عدن بعد القيام بمحاربة أحمد بن محمد بن عامر والتخلص منه (٤) . وهكذا يتضح لنا أن السيطرة على عدن كانت

(١) باخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٢) باخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٣) باخرمة : نفس المصدر السابق ص ١٢٠٩ .

(٤) باخرمة : نفس المصدر ص ١٢١٠ .

في حد ذاتها الفيصل لإثبات المقدرة على استحقاق السلطنة ، بحيث أصبحت القبائل لا تنقاد لأحد من بني طاهر إلا إذا كان مسيطرا على تلك المدينة . متصرفا في أمورها ، يذخاها متى شاء دون أن يعترضه واليها . ومن الجدير بالذكر أن الرسوم المتحصلة على التجارة في عدن لم تعد تكفي لمجرد مواجهة الاعباء الخاصة بها والدفاع عنها فبعد أن كان السلطان يعتمد على جزء من مواردها ، لجأ الوالي مرجان الظافري إلى الاستيلاء على مغل الحج ليستعين به في مواجهة متطلباته (١) ، واتسمت تصرفاته بالتحكم المطلق في عدن وأصبح صاحب الأمر النهى فيها ، ولهذا كان يخشى دخول أحد أفراد البيت الطاهري إليها خوفا على مركزه . وقد حاول عبد الملك بن محمد بن عبد الملك دخول المدينة ، ولكن مرجان كان يسوف ويماطل ، ولم ييأس عبد الملك ، فما زال يكتبه ليأذن له في الدخول إليها والمقام فيها ولو لأيام يتمكن خلالها من تجهيز لقائته غريمه أحمد بن محمد بن عامر ، وأخير أسمح له مرجان بدخولها في ربيع الأول سنة ٩٢٧ هـ / فبراير ١٥٢١ م ، وتظاهر مرجان بالاحتفال بمقدمه ولكنه كان يترصده ويحصى عليه حركاته ، ويثبت حوله العيون ، فكان لا يدخل إليه أحد من الناس إلا وعلم به مرجان (٢) . وكان عبد الملك يعلم بهذا الحصار الذي فرضه عليه مرجان ، ورغم ذلك كان عبد الملك يمهّد لضم العسكر إلى صفه ، وأسفرت جهوده عن استماله قبائل يافع إلى طاعته . فلما فطن مرجان إلى ذلك أخذ يطالب عبد الملك بالخروج من عدن للتخلص من أحمد بن محمد بن عامر ، ولكن عبد الملك كان يعتذر بقلّة ماله من المال للنفقة ، واستكمال تجهيز العدد اللازم من الجند لمحاربة منافسه ، وكان عبد الملك يرمى من وراء

(١) بانخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١٢١٠ .

(٢) بانخرمة : نفس المصدر والصفحة .

ذلك أن يمدد مرجان بالعسكر الذى يستطيع استخدامه فى محاربة مرجان نفسه وانزاع عدن منه .

وندم مرجان الظافرى على سماحه بدخول عبد الملك إلى عدن ، وأدرك أنه تورط فى هذا الأمر ، وأحس بنواياه العدوانية ، وعندئذ أخذ يدبر اغتياله أثناء قيامه بالصلاة بالمسجد ، ولكن عبد الملك اكتشف المؤامرة ولم يتوجه للصلاة ، وأصبح محتما عليه مواجهة مرجان ومحاربته تمهيداً للسيطرة على عدن (١) .

وتتوقف المصادر عن متابعة الأحداث الداخلية بعدن التى انحصرت فيها بجايا بنى طاهر . وأياً ما كان الأمر فقد استطاع عبد الملك الاستيلاء على عدن بعد وفاة مرجان سنة ٩٢٧هـ (٢) / ٥ / ١٥٢١ م ، ثم أعقبه عليها عامر بن داود آخر بنى طاهر فيها (٣) ، وهو الذى انتهز فرصة مرور سليمان باشا العثماني سنة ٩٤٥ / ١٥٣٨ م فى طريقه إلى الهند لمحاربة البرتغاليين وأعلن ترحيه به ، وفتح له أبواب عدن ، ولكن سليمان أمر بشنقه (٤) ، واستولى منه على عدن غدرا . فكان ذلك سبباً فى تقور أهل الهند منه ، وامتناعهم عن معاونته ضد القوى البرتغالية (٥) .

(١) باخرمه : نفس المصدر ص ١٢١١ .

(٢) العيدروسى : النور السافر ص ١٣٢ .

(٣) العيدروسى : نفس المصدر ص ٢٠٢ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٨٤ .

(٥) النهروالى : البرق اليماني فى الفتح العثماني - الرياض ١٩٦٧

وابعا - الثغور الداخلية في عرب بنى طاهر :

لم تقتصر المصاعب التي واجهت سلاطين بنى طاهر على الصراعات التي خضت بينهم وبين الطامعين من أمراء أسرهم في السلطنة ، وإنما تعرض حكامهم لكثير من حركات العصيان واحتدمت الثورات في مناطق متعددة من بلاد اليمن ، ففي الجنوب ثارت قبائل يافع ، وفي تهامة رفعت قبائل القرشية والمعازبة وبني حميص لواء العصيان ، وتسببت في الاضطرابات التي شغلت الطاهريين لفترة طويلة من الزمن ، وفي منطقة الجبال تكررت ثورات الحيشي ، كما اشتد الصراع بين بنى طاهر والإمامة الزيدية .

ولما كانت معظم تلك الثورات قد استمرت طوال حكم هذه الدولة ، لذلك كان من الأفضل إعداد دراسة موضوعية لها لبيان المراحل المتكاملة لكل منها .

١ - موقف قبائل يافع من بنى طاهر :

كانت غالبية قبيلتي آل أحمد و آل كلاً - اليافعيين تنزل في عدن ، وقد بلغ التنافس والتنازع فيما بينها أقصاه في أواخر عهد دولة بنى رسول ، فأدى ذلك إلى انهدام الأمن وشيوع المتهمة والاضطراب في عدن ، وتعرض بيوت للتجار والأغراب فيها للسلب والنهب ، ولم يسلم من ذلك إلا من دخل في حماية إحدى القبيلتين نظير ما تقرره عليه من مال . فكان شيخ القبيلة التي ينتصرون بها ، يبحث نفراً من أتباعه ، يرابطون على سطح الدار ويرشقون بالحجارة من يحاول الاقتراب منها ، ويرغمونه على الفرار . وكان آل كلاً يسيطرون على المدينة من داخلها وينتشرون في أحيائها ، في حين كانت سيطرة آل أحمد على حصون المدينة وأسوارها . فلما تفوق آل كلاً عليهم وغلبهم على أمرهم ، استبقوا

الحصار الذي فرضه الطاهريون على عدن سنة ٨٥٨ هـ / ١٤٥٤ م ، وعمدوا إلى الاتصال بهم ، وعرضوا عليهم تقديم ضروب العون والمساعدة تسهيلا لمهمة الاستيلاء على عدن (١) ، لقضاء العهد برفع منزلاتهم وطرد آل كلد من عدن بعد استيلاء بني طاهر على المدينة .

وتنفيذا لهذا الاتفاق انطلق المجاهد على بن طاهر مع زعماء آل أحمد فأدخلوه عدن مع جمع من عسكره من سور الجبل ليلة الثالث والعشرين من رجب سنة ٨٥٨ هـ / ١٩ يولية ١٤٥٤ م ، وما أن تم لبني طاهر ذلك حتى دقوا الطبول ليلا ، ورددوا صيحتهم « بالنصر للمشايخ بني طاهر » . فلما سمع آل كلد ذلك أيقنوا بالهلاك ، وتركوا بيوتهم وقضوا الليل خارجا حائرين ، فلما أدركم الصباح وفتحت أبواب عدن ، دخل الظافر عامر بن طاهر مع باقي عسكره ، وأعلن الأمان لأهلها ، باستثناء آل كلد فقد أمهلهم ثلاثة أيام الرحيل من عدن ، تحل له بعدها دماءهم . فتفرق آل كلد شذرا مذر ، منهم من خرج إلى زالس وإلى بربرة وإلى سائر بر العجم وخرج غالبهم إلى الشحر ، (٢) .

عسى أن تواتيهم الفرصة لينتقموا لأنفسهم من بني طاهر .

وفي الشجر التف من وصلها من آل كلد حول صاحبها أبا دجانة محمد بن سعيد بن فارس الكندي ودخلوا في خدمته ، واكتسبوا ثقته ، ثم أخذوا يغرونه بغزو عدن ، ويدللون له مهمة الاستيلاء عليهم ، مستغلين في ذلك

(١) بالمخرمة : قلادة الشجر ج ٣ ص ١١١٥ .

(٢) بالمخرمة : قلادة الشجر ج ٣ ص ١١١٦ .

درايتهم بعورات المدينة التي يمكن عن طريقها اقتحامها في يسر وسهولة دون أن يصادفوا مقاومة من ناحية تلك المنافذ . وما زالوا به يهونون عليه أمر فتحها وبدفعته إلى ذلك . فلما اقتنع برأيهم وعزم على توجيه حملته ، انضم آل كلد إليها ، غير أن أخبار تلك الحملة تسربت إلى عدن ، وانتهت بالفشل ووقوع أبو دجانة وعدد من أتباعه في أسر السلطان الظافر عامر الأول^(١) ، من بينهم أحد زعماء آل كلد اليافيين المحرضين لمصاحب الشعير على غزو عدن ، فتسلمه أعداؤه آل أحمد وقتلوه^(٢) .

ومما لا شك فيه أن نجاح بني طاهر في طرد آل كلد اليافيين من عدن وتشريدهم لهم من جهة ، ثم فشل محاولة هؤلاء باتفاق مع صاحب الشجر في توجيه ضربة لبني طاهر بالاستيلاء على عدن من جهة ثانية ، كان لذلك أعظم الأثر في إضعاف آل كلد واستكانتهم لفترة طويلة ، إلى أن أتاحت لهم الفرصة للانتقام . فقد تولى الظافر عامر الثاني السلطنة بعد وفاة أبيه السلطان المنصور عبد الوهاب بن داود بن طاهر سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٩ م ، فقوبلت سلطنته بمرضعة شديدة من أبناء الظافر عامر الأول بن طاهر . وكان لتلك المعارضة أثرها القوي في إثارة القوى المعادية لبني طاهر ، وكان من الطبيعي أن ينضم بنو يافع إلى المعارضين للسلطان الظافر عامر الثاني ، تأييداً لعبد الله بن عامر

(١) الكهسي : اللطائف السنية ص ٢٢٣ ، محمد بن هاشم العلوي : تاريخ الدولة الكثيرية ص ٢٩ ، حمزة على إبراهيم لقمان : تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ص ١١١ .

(٢) ابن الديبع : قرّة العيون ص ١٢١ ب ، بغية المستفيد ص ٩٨ ، بأخرمة : نقس المصدر ص ١١٢٥ .

ابن طاهر . فكتب الظافر الثاني إلى واليه في عدن يأمره بطرد من بقي في عدن من يافع انتقاماً منهم على نصرتهم لأعدائه ، فطرد وإلى عدن حوالي خمسمائة منهم (١) . وواصل السلطان سياسته الانتقامية منهم ، ولم يتردد في مهاجمتهم وانزاع ما بأيديهم من حصون . ثم دارت معركة كبيرة بين الجانبين في ربيع الأول سنة ٨٩٨ هـ / يناير ١٤٩٣ م انتصرت فيها قوات السلطان وقتلت من يافع أكثر من مائة وأسرت مثل ذلك العدد واستولت على عدد من حصونهم (٢) .

وترقب علي تجدد عصيان يافع ، ومناهضتهم للسلطان ونصرتهم للطامعين في السلطنة من آل طاهر (٣) ، أن عازد الظافر عامر الثاني الاغارة عليهم . ودارت بينهم معركة كبيرة في جمادى الآخرة سنة ٩٠٣ هـ / يناير ١٤٩٨ م انهزمت فيها يافع هزيمة نكراء (٤) واستولى السلطان الظافر عامر على بلادهم وحصونهم دون كبير عناء . ولم يكن منهم أمر متعب بعد ذلك مع كثرتهم واتساع بلادهم ودعائهم العريضة . وكان استفتاح بلدتهم من أسهل الفتوح فدخلوا عليه وأذم عليهم ، فتأبوا من الخلف نوبة نصوحاً ، وسار منهم جماعة تحت ركابه ، (٥) ، أما عبد الباقي بن محمد بن طاهر الذي كان لاجئاً عندهم ، فقد

(١) باخرمة : نفس المصدر ص ١١٦٨ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٨ ب ، بغية المستفيد ص ١٦٤ - ١٦٥ ، باخرمة : نفس المصدر ص ١١٧٢ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٢٠ .

(٣) باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٧٢ .

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيّد ص ٣٢ ب - ٣٣ أ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٢ أ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٨٧ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٢٤ .

لممكن اعتقاله وأمر السلطان بسجنه (١) فظل سجيناً حتى عفا عنه سنة ٨٩٢/هـ (٢)

٠ م ١٥١٥٠

٢ - ثروات قبائل القرشية :-

استقرت قبائل القرشية (٣) في منطقة تهامة شمالى مدينة زيد ، وكانت القرشيون وجيرانهم المعازبة من أكثر قبائل اليمن ميلاً إلى الثورة وجنوحاً إلى الاضطراب منذ أيام بنى رسول ، كما كانوا من العوامل الرئيسية فى سقوط الدولة بنى رسول ، فلما استولى بنو طاهر على ملك اليمن ، عملوا على مهادنة تلك القبائل ، واجتهدوا فى استرضائها . ولهذا السبب لم يتردد القرشيون فى الدخول فى طاعة بنى طاهر والتعاون معهم فى بداية دولتهم ، وليس أدل على ذلك من انضمامهم إليهم واشتراكهم معهم فى حملتهم التى استهدفت الاستيلاء على مدينة زيد من بقايا بنى رسول سنة ٨٨٥٩ / ١٤٥٥ م . وكان من الطبعى أن يقتحم القرشيون معهم المدينة ويقوموا بأعمال السلب والنهب فيها ، وقد يروى أن السلطان المجاهد على بن طاهر كان قد أذن لهم بنهب المدينة لقاء منصرتهم له ، غير أنهم ما كادوا يشرعون فى انتهاكها حتى تجمع أهل زيد وصدوا

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٢ أ ، الفضل المزبد ص ٣٣ أ ،
بباخرمة : نفس المصدر والصفحة . (وكان عبد الباقي بن محمد طاهر قد نزل إلى
ساحل إفريقيا الشرق خوفاً من السلطان ، فلما عاد إلى اليمن لجأ إلى يافع واستقر
عندهم) انظر ما سبق ص ٢٧٦ هامس ١ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٥ أ .

(٣) إليهم تنسب قرية القرشية على بعد فرسخ من مدينة زيد (ابن المجاور :

مصفحة بلاد اليمن ج ٢ ص ٢٨) .

لهم وتغلبوا عليهم ، وقتلوا عددا منهم ، وطاردوا البساقين وأرغموهم على
الفرار من المدينة (١) . وأعقب تلك الهزيمة التي منى القرشيون بها ، وفاة
شيخهم العبديق بن محمد غراب في نهاية عام ٥٨٦٠ / ١٤٥٦ م ، وتسببت
وفاته في إضعاف شوكتهم (٢) .

ولم يكن بنو طاهر غافلين عن حركات القرشيين وثوراتهم ، فأخذوا
يحصون عليهم حركاتهم تمهيداً للقضاء عليهم . ويبدو أنه ظهر للسلطان المجاهد
على منهم ما أغضبه ، لذلك قرعهم على أن يمنع عنهم النفقة التي كان قد قررها
لهم ، وأقدم في سنة ٥٨٦٢ / ١٤٥٨ م على اعتقال جماعة من زعمائهم ، فقيدهم
وحبسهم في مدينة المقرانة (٣) . والظاهر أن ذلك الإجراء لم يكن كافياً
لإجبارهم على الطاعة ، أو أنه أثار ثارتهم ، بدليل قيام السلطان المجاهد في
العام التالي بالقبض على جماعة أخرى منهم في مدينة زبيد ، ومصادرتهم بعشرين
ألف دينار (٤) .

وما زال بنو طاهر يتشددون مع القرشيين ويترصّدون حركاتهم .

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٠ ب ، بغية المستفيد ص ٩٦ ، يحيى
بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٧ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٨ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣
ص ١١١٨ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ ب ، بغية المستفيد ص ٩٩ ، باخرمة :
قلادة النحر ج ٣ ص ١١٢٦ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ ، بغية المستفيد ص ١٠٠ ، يحيى
بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٩ .

...وتمكنوا - لفترة طويلة - من كبح جماحهم ، حتى كانت سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م
عندما تحالفوا مع قبائل المعازبة وشقوا عصا الطاعة على السلطان المجاهد ،
وشنوا الغارات على قرى وادي زبيد ، الأمر الذي أطمع غيرهم من القبائل في
التدبير للاستيلاء على مدينة زبيد . ولكن أهل المدينة استسلموا في الدفاع عنها
حتى واقتهم لإمدادات السلطان من عدن وقضت على حركات تلك القبائل (١) .

ومع ذلك فإن عزيمة القرشيين وروحهم القتالية لم تنفث ، وأخذوا يتحينون
الفرص للثورة ، ولم تلبث محاولاتهم أن تجددت في صفر سنة ٨٧٨هـ / يوليو
١٤٧٣م ، ولكن والى زبيد استطاع القضاء على تمردهم واعتقل عددا منهم
وأرسلهم إلى السلطان في تعمر (٢) ، كما قام يوسف بن عامر ابن أخي السلطان
المجاهد على بالقضاء على محاولة أخرى للتمرد حدثت في ربيع الأول سنة
٨٨٢هـ / يونيو ١٤٧٧م ، وأمر بقتل أحد زعمائهم لما نسب إليه من تحريض
لهم على التمرد (٣) . وهكذا ضعف أمرهم واستنفذت قواهم ووهنت عزائمهم
ولم يعودوا يشكلون أي خطر على بني طاهر .

٣ - ثورات قبائل المعازبة :

المعازبة من قبائل تهامة ، وتقع منازلهم إلى الشمال من زبيد ، وكانوا مثل
جيرانهم القرشيين مصدر متاعب كثيرة لحكام اليمن منذ أيام بني رسول . فلما
قامت دولة بني طاهر حاول سلاطينهم اجتذاب المعازبة وكسب قلوبهم وحملهم

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٤ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٦ ب ، بغية المستفيد ص ١١٧ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٧ ب ، بغية المستفيد ص ١٢٢ .

على الطاعة ، فأرسل إليهم السلطان المجاهد على يدعوهم إلى التعاون معه والكف عن أعمال السلب والنهب، فلما لم يستجيبوا له توجه في شهر المحرم سنة ٨٦٠هـ / ديسمبر ١٤٥٥ لمحاربهم (١) . وكان قد أرسل في الوقت ذاته الشيخ يحيى بن عمر الثاقبي صاحب الحديدة إلى ناحية مدينة بيت الفقيه بالقرب من موطن المعازبة، وأمدّه بكثير من الأموال لاستخدام عرب المنطقة وضمان ولائهم (٢) . فلما توجه السلطان المجاهد على لمحاربة المعازبة انضم إليه صاحب الحديدة بمن تجتمع معه، كما شاركه القرشيون في تلك الحملة. وكانت قبائل المعازبة من القوة بحيث استطاعت الصمود وكادت تحقق النصر، لولا ثبات السلطان في ساحة المعركة إلى أن تحقق النصر له وأنزل بالمعازبة هزيمة نكراء (٣) .

أسكنت هزيمة المعازبة هذه نائرتهم لمدة عام ، ولكن جموعهم لم تلبث أن حاودت الإغارة على مدينة فحال (٤) الواقعة شمالي زبيد، واشتبكت مع حاميتها في المحرم ٨٦١ هـ / ديسمبر ١٤٥٦ م، وقتلت عددا من أفرادها واستولت

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٠ ب ، بغية المستفيد ص ٩٧ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٤ - ٩٥ ، بالخزمره : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٦ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٠ ب ، بغية المستفيد ص ٩٧ .

(٤) نقع فحال على وادي رمع بين زبيد وبيت النقيه، وهي على خط عرض

٢٥° ١٤' شمالا ، وخط طول ٢٥° ٤٣' شرقا . (EL- Khazrejiyy : op

cit Vol. 3, p. 73, Note, 424.)

وهي المدينة المعروفة الآن بالحسينية (زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢٥١)

على بعض الخيول (١)، فأسرع المجاهد على للانتقام، فلما وقع القتال وكادت الهزيمة تلحق بالمعازبة، بادروا إلى طلب الصلح والدخول في طاعة السلطان وقدموا له ستين رأساً من الخيل (٢).

وتظاهر المعازبة بالطاعة بحكم ضيقهم، إلى أن استعادوا قوتهم، ولكن والي زبيد لم يمهلهم، وأغارت قواته على بلادهم في جمادى الآخرة سنة ٨٦٣هـ / مايو ١٤٥٩م واستولت على مواشيهم (٣). فاضطروا إلى التظاهر من جديد بالطاعة والولاء وقدموا للسلطان عدداً من الخيول سنة ٨٦٥هـ (٤) / ١٤٦١م.

ومع ذلك لم تخمد ثورات المعازبة، ولم تفتتح حركاتهم، ففي ذي القعدة سنة ٨٦٨هـ / يولييه ١٤٦٤م عادوا مرة أخرى إلى السلب والنهب وأغاروا على قرية التحيثا (٥)، وقتلوا عدداً من أهلها (٦). ولم يمكنوا بعض أتباع السلطان من مزاوله عملهم في بلادهم، وتصدوا لهم وقتلوا جماعة منهم في ربيع

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ أ ، بغية المستفيد ص ٩٨ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ ب ، بغية المستفيد ص ٩٩ ، يحيى

ابن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٨ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ ، بغية المستفيد ص ١٠٠ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ .

(٥) التحيثا إحدى قرى زبيد، وتقع إلى الغرب منها على خط عرض

١٢° ١٤' شمالاً، وخط طول ٣١° ٤٣' شرقاً .

(EL - Khazrejiyy : op. cit, p. 3.6, Note, 1585.) .

(٦) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٦ .

الأول سنة ٨٦٩هـ / نوفمبر ١٩٦٤ م . فبادر السلطان بغزو بلادهم والانتقام منهم وتمكن جيشه من قتل عدد كبير منهم ، كما وقع بعضهم في الأسر (١) وتمكن والي زبيد من القبض على شيخهم محمد بن يوسف وعاد به مقيدا إلى زبيد في جمادى الأولى سنة ٨٦٩هـ (٢) / يناير ١٩٦٥ م ، غير أن بعض المقربين للسلطان تشنعوا فيه عند السلطان المجاهد على حق أطلقه (٣) . وقد استهدف السلطان من وراء ذلك امتصاص نفقة المعازبة ، ووضع حد لثوراتهم ، ولكن حسن النية التي أبدتها السلطان نحوهم لم تغير من الأمر شيئا ، إذ لم يلبثوا أن أغاروا في آخر ذي الحجة سنة ٨٦٩هـ / أغسطس ١٩٦٥ م على قرية الشبارق الواقعة إلى الشرق من زبيد وأعملوا السلب والنهب فيها ، ولم تهدأ ثأرتهم حتى خرج والي زبيد على رأس حملة في ربيع الأول سنة ٨٧٠هـ / أكتوبر ١٩٦٥ م للقضاء على تجمعاتهم ، وأسفرت الحملة عن قتل عدد كبير منهم والاستيلاء على الكثير من أموالهم ومواشيهم (٤) .

كان لمقتل السلطان الظافر ناصر الأول بن طاهر أثناء حصاره لصنعاء سنة ٨٧٠ / ١٩٦٦ م أعظم الأثر في ازدياد مطامع المعازبة وغيرهم من القبائل اليمنية ، وعلى الأخص قبائل تهامة ، مما ألقى عبئا كبيرا على عاتق والي زبيد الذي تصدى لمقاومة حركات المعازبة وغيرهم ، وصمد أمامهم إلى أن جاءه

(١) ابن الديبع: نفس المصدر والصفحة .

(٢) ابن الديبع: نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن الديبع : قررة العيون ص ١٢٣ ب .

(٤) ابن الديبع : قررة العيون ص ١٢٣ ب ، بغية المستفيد ص ١٠٧ ،

بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٢٩ .

السلطان المجاهد علي في ربيع الأول ٨٧١هـ / أكتوبر ١٤٦٦م في قوة من العسكر
اشتبكت مع المعازبة بالقرب من مدينه بيت النقيه شمالى زبيد وانتصر عليهم ،
وتابع فلولهم قتلا وأسرا ، وغنم منهم الكثير ، واستمر يطاردهم حتى أذعنوا
للاطاعة وسلموا له اثنين وخمسين فرسا (١) .

وأخذ السلطان المجاهد يترصده حركات المعازبة ويسعى لإخمادها أولا بأول ،
فقام في أوائل سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م بشن الإغارات عليهم وقتل عدد منهم (٢) .
وفي سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م شدد السلطان هجماته على المعازبة ، وأغار عليهم
ثلاث مرات وقضى على عدد كبير منهم ، ونهب بلادهم نهبا شنيعا (٣) ، وسقط
في مقدمة الفتى شيخ المعازبة الشيخ عبد الله بن حسن العنبري ، وترتب على
مصرعه عودتهم إلى الطاعة وتسليم عدد من الخيول دليلا على الولاء والطاعة (٤) .
ولكن هذه الطاعة كانت قصيرة الأمد ، فلم يابث المعازبة أن باغتوا بعض رجال
السلطان الذين ظلوا في بلادهم لمباشرة بعض الأعمال فيها ، وغدروا بهم
في سنة ٨٧٦هـ / ١٤٧١م ، فأثار ذلك غضب السلطان الذي سار إليهم حملة
قادية تمكنت من إيقاع الهزيمة بهم وقتل عدد كبير منهم ، فأضطروا للعودة

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٤ ب ، بغية المستفيد ص ١٠٨ ،
بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٢٩ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠٣ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٩ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٤ أ ب ، بغية المستفيد ص ١١٢ ، ١١٣ ،
بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٣٠ - ١١٣١ .

(٤) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٣ .

إلى الطاعة (١) .

وفي شوال سنة ٥٨٧٩هـ / فبراير ١٤٧٥م قام والي زبيد بالاغارة على المعازبة ، وقتل أعدادا منهم ، كما قام بنهب بيوتهم واستولى على مواشيهم (٢) . وكان سلاطين بني طاهر يعتمدون على والي زبيد لإقرار الأوضاع بمنطقة تهامة ، ومحاربة القبائل النائرة بها . ففي سنة ٥٨٩٠هـ / ١٤٨٩م قاد والي زبيد حملة للقضاء على عصيان المعازبة (٣) ، ثم أتبعها السلطان بحملة أخرى في شعبان ٥٨٩٥هـ / يونيو ١٤٩٠م أحكت الحصار عليهم ، وأرغمتهم على بذل الطاعة وتسليم تسعين فرسا . ولكن لم تكد قوات السلطان تفعل عائدة حتى عاودوا عصيانهم ففاجأهم تلك القوات مرة ثالثة ، وقتلت منهم أكثر من أربعين رجلا (٤) . بالإضافة إلى ضحايا المعركتين السابقتين . لم تفت تلك الهزائم في عضد المعازبة ، فعلى الرغم من ذلك كله تواصلت تلك القبائل ثورتها وانشقاقها ، الأمر الذي دعا السلطان إلى الخروج بنفسه على رأس حملة سنة ٥٨٩٦هـ / ١٤٩١م لاستئصالهم (٥) .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٦ ، بغية المستفيد ص ١١٥ ، يحيى ابن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠٥ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٧ أ ، بغية المستفيد ص ١١٨ - ١١٩ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٣٢ .

(٦) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٥ أ ، بغية المستفيد ص ١٥٣ .

(٧) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٦ ب ، بغية المستفيد ص ١٥٨ ، باخرمة : نفس المصدر ص ١١٧١ .

(٨) باخرمة : نفس المصدر ص ١١٧٢ .

فدعس بلادهم وسحق قوتهم وأباد عددا كبيرا منهم وانتقم منهم شر انتقام (١). ولم يكتف بذلك بل عهد إلى والي زبيد بمواصلة الغارات عليهم، فتوجه الوالي في شعبان سنة ٥٨٩٦ هـ / يونيو ١٤٩١ م لمحاربتهم، فتصدت له قواتهم، وكاد الوالي أن ينتصر عليهم وتمكن من قتل نحو ستين من رجالهم، إلا أنهم تمكنوا من إعادة تنظيم صفوفهم وحملوا عليه حملة قوية وتمكنوا من تطويقه وقتله (٢). فلما علم السلطان الظافر عامر الثاني بذلك، خرج في سنة ٥٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م على رأس حملة وأحكم عليهم الحصار وأرغمهم على الازعان له بالطاعة، فقدموا للسلطان أربعين فرسا لإثباتا لولائهم له (٣).

ولقد تميزت قبائل المعازبة بالعناد والتمرد المستمر، فلم يتمكن بنو طاهو رغم حملاتهم المتعددة على مواقعهم من إخماد ثوراتهم. فلم يمض عامان على استئصال السلطان لهم حتى عاودوا العصيان، واضطر السلطان الظافر عامر الثاني إلى القيام بحملة على بلادهم سنة ٥٨٩٩ هـ / ١٤٩٤ م فأباد منهم جمعا. ونهب أموالهم ومواشيهم (٤). وتكررت الاغارات عليهم خلال تلك السنة (٥) لعدم وفائهم بما التزموا به للسلطان.

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١٨ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٧ أ - ب ، بغية المستفيد ص ١٦٠ .
بإحزمة : فلاة النحر ج ٣ ص ١١٢٩ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٨ أ ، بغية المستفيد ص ١٦٣ ، يحيى بن الحسين . غاية الأمانى ص ٦٦٩ .

(٤) بإحزمة : نفس المصدر ص ١١٧٢ وراجع، ابن الديبع : بغية المستفيد .
ص ١٦٨ يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١٨ .

(٥) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٧٢ .

وفي شعبان ٩٠٣ هـ / مارس ١٤٩٨ م تابع السلطان حملاته على بلاد المعازبة
فتمكنت قواته من قتل وأسر عدد كبير منهم (١) . وأدت تلك الحملات إلى
الحد من ثوراتهم وإنهاء قواهم . وبالتدريج خفت حدة تلك الثورات التي
اعتمدوا القيام بها ، ولم تعد تحدث إلا على فترات متباعدة . ففي شعبان ٩٠٨ هـ /
غیرایز ١٥٠٣ م عاد المعازبة إلى الخلاف وقاموا بأعمال السلب والنهب في المناطق
المجاورة لهم . ولكن سرعان ما هدأت حركتهم قبل وصول عسكر السلطان
إليهم ، وقاموا برد ما استولوا عليه ، فعفا السلطان عنهم (٢) . ولكنهم شقوا
عضا الطاعة من جديد . بعد عام واحد ، وتعرضوا للقوافل المارة ببلادهم
وقطعوا الطريق عليها ، فتوجه والي زبيد على رأس حملة لإقرار الأمن في
منطقتهم ، فلما علموا بالحملة تركوا قراهم ولادوا بالأودية والشعاب ، فانتهمت
القوات ديارهم ودوابهم وألقى القبض على بعضهم ، فأمرعوا إلى طلب الصلح
وتقديم الرهائن (٣) . ومنذ ذلك الحين خمدت ثوراتهم ولم يصدر عنهم ما يعكر
الصفو ، إذا ما استثنينا محاولتين قاموا بهما في عامي ٩١٧ ، ٩١٩ هـ (٤) (١٥١١
و ١٥١٣ م) لم تسفر أى منها عن شيء .

٤- ثروات بنى حفيص الزيديين:

ليس المقصود بالزيديين هنا اتباع المذهب الزيدي ، وإنما بنى بهم القبائل
التي كانت تنزل في تهامة تجاه جزيرة كمران ، حيث تقع مدينة الزيدية - المسماه

(١) ابن الديبع : الفضل المزيدي على بغية المستفيد ص ٣٣ أ .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيدي ص ٣٨ ب .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيدي ص ٣٩ أ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٠ أ ، ١٥١ ب .

باسمهم - وما حولها . ويعتبر بنو حفيص من رؤسائهم ، وهم من أتباع المذهب السني ، ولا يمتنون للمذهب الزيدي بصلة .

لم يكن لبني حفيص الزيديين ذكر فيما أثير من شغب وتمرد أيام بنو رسول ومقابليهم . ويبدو أنهم ظلوا مسالمين طائعين لبني طاهر الذين خلفوه بنو رسول في السلطنة . ففي سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٣ م وفد جماعة منهم بتقديم بعض مشايخهم ، منهم أحمد بن أبي الغيث بن حفيص ومجد بن القاسم ، على بلاط السلطان الطاهري المجاهد علي ، فأكرمهم السلطان وأنعم عليهم (١) .

واستمر بنو حفيص الزيديين على ولائهم لبني طاهر فترة طويلة . ولم نتمكن من المصادر بأسباب تحولهم إلى العصيان ، ونعتقد أن الدافع الأساسي الذي دعاهم إلى هذا التحول إنما يرجع إلى تأثيرهم بحركات العصيان والتمرد التي اشتهر بها جيرانهم القرشيون والمعاوية . ففي سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م توجه والي زيد علي رأس حملة لمحاربة بني حفيص ، وهاجمهم في الثامن عشر من رجب (٢١ يناير) وقتل زعيمهم أبا الغيث (٢) بن مجد بن حفيص في جماعة من أهله وأتباعه يزيدون على الثلاثمائة (٣) واستولي على بعض قراهم وترك فيها حامية ترابط فيها (٤) . ولكن ما أن غادر والي زيد بلادهم متوجها إلى مقره ،

(١) ابن الديبع : قررة العيون ص ١٢٣ أ ، بغية المستفيد ص ١٠٣ .

(٢) بالخزعة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٣٢ .

(٣) ابن الديبع : قررة العيون ص ١٢٥ أ ، بغية المستفيد ص ١١٠ ، ينجي .

ابن الحسين : غاية الأمان ص ٦٠٤ .

(٤) بالخزعة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٣٠ .

حتى تمكن أحمد بن أبي الغيث من الاستنجاد ببعض القبائل المجاورة ، وبادر بمهاجمة الحامية في رمضان من نفس العام ، وقام بقتل عدد كبير منهم ، وأرغم الباقون على الفرار ، واستعاد بنو حفيص الزيديين ما فقدوه من بلادهم (١) . فلما علم السلطان بذلك أسرع في إرسال حملة في المحرم سنة ٨٧٥ هـ / يولية ١٤٧٠م بقيادة ابن أخيه عبد الوهاب بن داود وبصحبته الشريف علي بن سفيان والي زبيد للانتقام من بني حفيص ، ودارت بين الطرفين معركة عنيفة لقي فيها الشريف علي بن سفيان مصرعه . وقاوم بنو حفيص واكنهم انهزموا في النهاية وقتل منهم عدد كبير فأذعنوا للطاعة (٢) .

والظاهر أن السلطان المجاهد علي بن طاهر رأى اصطناعهم ، فعندما توجه أحد رؤسائهم وهو عز الدين بن حفيص بعد المعركة إلى زبيد ومثل بين يدي السلطان ، أحسن استقباله وخلع عليه وعلى من جاء معه وأنعم عليهم . ومنحهم اثني عشر ألف دينار لاستخدامها في استمالة القبائل المحيطة بهم للسلطان . غير أن بعض القبائل لم يكن من مصلحتها أن يسود الاستقرار المنطقة ، فاعترضوا طريق ابن حفيص عند عودته إلى بلاده في ربيع الأول سنة ٨٧٥ هـ / سبتمبر ١٤٧٠م ، واستولوا على مامعه . فلما علم السلطان المجاهد بذلك توجه على رأس حملة الانتقام من تلك القبائل والقضاء على تمردهم (٣) .

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١١ ، باخرمة : قلادة النحر ح ٣ ص ١٢٠ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٢ ، باخرمة : قلادة النحر ح ٣ ص ١٢٠ - ١١٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠٤ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٢ - ١١٣ ، قرة العيون ص ١٢٥ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠٤ .

وتتوزع المملكات مسرة أخرى ، ويتوجه السلطان المجاهد على رأس حملة كبيرة إلى بلاد بنى حنيفس ، فلما اقترب منها جاءه أحمد بن أبي الغيث ابن حنيفس حاملا المصحف الشريف على رأسه ومثفعا بالماء والاصالحين لطلب الأمان ، فعفا السلطان عنه (١) . ومما يذكر أن أخاه على بن أبي الغيث كان معتقلا في زبيد منذ أوائل سنة ٨٧٦ هـ (٢) / ١٤٧١ م ، فلما صفيح السلطان عن أحمد بن أبي الغيث استتابه عنه على بلاده وأشرك معه عزالدبن ابن محمد بن أبي القاسم بن حنيفس ، وترك معها بعض جنده وعاد في رجب سنة ٨٨٠ هـ / نوفمبر ١٤٧٥ م إلى زبيد (٣) . واستمر بنو حنيفس على ولايتهم لبنى طاهر ، فعندما أرسل السلطان المجاهد بن أخيه يوسف بن عامر إليهم في شعبان سنة ٨٨١ هـ / نوفمبر ١٤٧٦ م ، استقبلوه استقبالا حسنا وقدموا إليه المقررات السنوية التي اشترطها السلطان عليهم (٤) . كما جاءته وفود القائل بحدة للطاعة فاستقبلهم وأجازهم بالجوائز السنوية (٥) . وانتظم بنو حنيفس في الطاعة وأرسلوا ما عليهم من مقررات سنة ٨٨٢ هـ (٦) / ١٤٧٧ م .

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٩ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣

ص ١١٣٢ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٥ ، قره العيون ص ١٢٦ أ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٠ ، قره العيون ص ١٢٧ .

(٤) ابن الديبع : قره العيون ص ١١٧ أ .

(٥) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢١ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣

ص ١١٤٠ .

(٦) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٣ ، قره العيون ص ١٢٧ ب .

فلما تولى السلطان المنصور عبد الوهاب بن داود السلطنة ، وخرج ابن عمه يوسف بن عامر عن طاعته ، انتهى به الأمر إلى الالتجاء سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م إلى بني حفيص للاحتواء بهم وتزوج بابتزعيمهم أحمد بن أبي الغيث (١) ، مما أساء العلاقات من جديد بينهم وبين السلطان الطاهري المنصور عبد الوهاب . ولهذا توجه على رأس حملة للقضاء على عصيان ابن أخيه والانتقام من بني حفيص لمناصرتهم له . فلما وصل السلطان إلى مشارف بلادهم عمل في البداية إلى السعي لعقد الصلح وتصفية الأمور سلمياً ، ولم يكن بني حفيص أبوا أن يسلموا غريمه يوسف بن عامر إليه ، فغضب السلطان واشتبك معهم في قتال عنيف ، أبدى فيه بنو حفيص شجاعة وصموداً لا نظير لهما ، وتمكنوا من قتل أحمد بن عامر — أخى يوسف — وكادت المعركة تنتهي لصالحهم ، لولا انضمام يوسف بن عامر إلى القوات السلطانية ، وقيامه بدور كبير حتى أمكن التغلب على بني حفيص في ذي القعدة سنة ٨٨٤ هـ / يناير ١٤٨٠ م وقتل أكثر من أربعمائة منهم (٢) ، وعاد يوسف بن عامر مع السلطان إلى زبيد ، ولكن السلطان لم يلبث أن أمر باعتقاله سنة ٨٨٥ هـ (٣) / ١٤٨١ م .

أما بنو حفيص فقد عادت قوات السلطان الإغارة عليهم في سنة ٨٨٥ هـ ،

(١) ابن الديبع : قرّة العيون ص ١٢٩ ب .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣ — ١٣١ ، بانخرمة : قلادة النحر .

ج ٢ ص ١١٢٤ و ١١٦٣ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٠ — ١٣١ ، قرّة العيون ص ١٣٠ أ .

بانخرمة : المصدر ص ١١٦٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٦١١ .

واشعلت النيران في قراهم وقتلت عددا آخر منهم^(١). وفي العام الثاني وجه السلطان حملة كبيرة اليهم ، ولكنهم بادروا بالدخول في الطاعة ، وعند عودة الحملة إلى زبيد توجه معها عدد من رؤساء بني حفيص ومعهم أولاد زعيمهم أحمد بن أبي الغيث لتركهم رهائن لدى السلطان ضمانا لعدم العودة إلى العصيان^(٢). غير أن أحمد بن أبي الغيث خشي تجديد الخلاف من قبيلته مما يعرض أولاده للخطر ، لذلك ترك بلاده وفر بمن تبقى من أسرته وحاشيته ، واستقر بمدينة أبي عريش بمنطقة جازان شمال تهامة ، فترة من الزمن ثم عاد متخفيا إلى مدينة الزيدية^(٣). فلما علم السلطان بذلك أرسل إليه قوة في سنة ٥٨٨٧ / ١٤٨٢م تمكنت بعد عناء شديد من اعتقاله وجملة إلى زبيد وأدخلوه على جبل ذابلا مقيدا حاسر الرأس في مستهل ذي القعدة سنة ٥٨٨٧^(٤) / ديسمبر ١٤٨٣م .

ويدوا أن هذا التصرف الشائن أثار حفيظة قبيلته واعتبرته وصحة عار

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٢ ، قرة العيون ص ١٣٠ أ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٤ ، قرة العيون ص ١٣٠ ب ،
بأخرمة : نفس المصدر ص ١١٦ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٧ ، قرة العيون ص ١٣١ أ ، بأخرمة :
نفس المصدر ج ص ١١٣٥ ، ١١٦٥ .

(٤) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٧ ، بأخرمة : نفس المصدر ص ١١٦٥
ظل أحمد بن أبي الغيث سجيناً في حصن تعز حتى توفي في ربيع الآخر سنة
٥٨٨٩ / مايو ١٤٨٤م ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٩ ، بأخرمة : قلادة
النحر ج ص ١١٣٥ و ١١٦٦ .

لظمت جبينها ، لذلك ثار بنو حفيص في صفر ٨٨٨ هـ / مارس ٨٨٣ م على الحامية المرابطة في بلادهم ، وتمكنوا من قتل بعض أفرادها ، وأجبروا الباقين على الفرار . فكان لذلك رد فعل عنيف لدى السلطان المنصور عبد الوهاب ، فأمر والي زبيد بالتوجه على رأس حملة انتقامية ضد بنى حفيص ، ولم يلبث أن توجه بنفسه على رأس حملة أخرى ، وأمر بنهب بلادهم وأحرق إحدى قراهم وانتقم منهم شرا انتقام ، ورتب في بلادهم حامية كبيرة وعاد إلى زبيد (١) .

واستمر السلطان المنصور عبد الوهاب يواصل ضغوطه العسكرية ضد بنى حفيص ، فأرسل حملة أخرى في شوال سنة ٨٩٠ هـ / أكتوبر ١٤٨٥ م بقيادة ابنة عامر لمحاربة ، الزمعة الباغية منهم ، فقام بمحاصرتهم وقطع موارد المياه عنهم حتى أذعنوا للطاعة (٢) ، وسلبوا مائة وثلاثين فرسا وأربعين جملا بالإضافة إلى أربعين ألف دينار (٣) . وتعمد السلطان بموالاه بنى حفيص وغيرهم من قبائل تهامة بالحمولات ، ففي شعبان ٨٩١ هـ / أغسطس ١٤٨٦ م أنفذ حملة كبيرة إليهم ، وقد بالغ قائددها قاسم بن وهبان في تحصيل المقررات المفروضة عليهم ، فتكاتفوا ضده وأوقعوه في كمين نصبوه له وقتلوه في جماعة من عسكره (٤) . فلما علم السلطان ، سير إليهم قوة بقيادة عمر بن عبد العزيز للانتقام لمقتل ابن

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٧ ، بامخرمة : قلادة النجر ج ٣

ص ١١٦٦ .

(٢) ابن الديبع : قرعة العيون ص ١٣١ ب .

(٣) ابن الديبع : بغية ص ١٤١ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٦٦ .

(٤) ابن الديبع : بغية ص ١٤٢ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٣٧ و

١١٦٦ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٦١٤ .

جوهان . فلما وصلت القوات إلى المنطقة جنحت تلك القبائل إلى المسألة تجنبها
 للقتال ، وسلمت كل قبيلة ما عليها من مقررات ، فأرسل بها عمر بن عبد العزيز
 إلى السلطان (١) . وبقي في قلة من أتباعه في بلاد بني حفيص لإقرار الأوضاع
 فيها ، فانتبه هؤلاء فرصة لإنشغاله وفاجأوه في جمادى الأخرى سنة ٨٩٢هـ /
 مايو ٤٨٧م فخرج منهمزما من بلادهم ، وأرسل يبلغ السلطان بتفاصيل
 الحادث ، فتجهز في جيش كبير وعزم على الانتقام من بني حفيص ، فلما وصل
 إلى بلادهم وجدهم قد غادروها خوفاً من إنتقامه ، فأمر بدم دورهم وإحراقها
 إنتقاماً منهم (٢) وغاد السلطان بعد ترك عمر بن عبد العزيز واليا على بلاد بني
 حفيص وأمدّه بتميزات جديدة في ذى القعدة سنة ٨٩٢هـ (٣) أكتوبر ٤٨٧م .
 ورغم ذلك عاد بنو حفيص إلى المعيان مرة أخرى ، فتوجه السلطان إليهم في
 العام التالي ، فاضطروا إلى الطاعة وتسليم ما ألزمهم به من المال والخيل (٤) .

فلما توفي السلطان المنصور وخلفه ابنه الظاهر عامر الثاني ، عاد بنو
 حفيص إلى التمرد ، فأرسل الظاهر معظم مسكره بقيادة محمد بن عيسى البهتاني
 والي زبيد لمحاربتهم ، فانتخن فيهم وأرغمهم على الانصياع للطاعة هم وغيرهم من
 قبائل تهامة ، ويدّوا أن السلطان أراد معاملتهم بالبن فظهر رضاه عنهم
 وأفرج عن رهائهم ، أبناء أحمد بن أبي القيث وأنعم عليهم وكساهم ، ثم

(١) ابن الديبع : بغية ص ١٤٣ ، قرّة العيون ص ١٣٢ أ ، يحيى بن الحسين :

نخبة الأمانى ص ٦١٤ .

(٢) ابن الديبع : قرّة العيون ص ١٣٢ أ ، بغية ص ١٤٤ ، بامخرمة :

نفس المصدر ص ١١٦٦ — ١١٧ .

(٣) بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٦٧ .

(٤) ابن الديبع : المستفيد ص ١٤٦ ، قرّة العيون ص ١٣٢ ب .

ردهم إلى بلادهم ، بعد أن أقسموا له على الطاعة ، وقدموا رهائن آخرين .
 تأكيداً لطاعتهم له ووفاء بما أقسموا عليه من عدم الخلف^(١) ، وفي عام ٩٠٥ هـ /
 ١٤٩٠ م أرسلوا إليه ما كان مفروضاً عليهم من مقررات^(٢) . ويبدو أيضاً
 أن بنى حفيص عاودوا الخلف بعد عام واحد ، بدليل توجه السلطان الظاهر
 حاصر الناني للأغارة على بلادهم في صفر سنة ٨٩٦ هـ / ديسمبر ١٤٩٠ م ، فلما
 اقترب منها سارع جماعة من زعمائهم ، لاستقباله ولكنه أمر باعتقالهم لاتهامات
 وجهت إليهم^(٣) .

وترتب على سياسة القمع والعنف التي اتبناها بنو طاهر مع بنى حفيص أن
 فقدوا القدرة على الخلف والعصيان وجنحوا إلى الطاعة - مرغمين - لبنى
 طاهر ما يقرب من عشر سنوات ، إلى أن تجددت غارات الطاهريين عليهم
 وعلى القبائل المجاورة لهم في جمادى الأولى ٩٠٥ هـ / ديسمبر ١٤٩٩ م ، وفتكوا
 بهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، حزوا رؤوس بعضهم ودخلوا بها إلى زييد^(٤) .
 فخيم الهدوء على أثر تلك الغارة من جديد على المنطقة . ولم تزودنا المصادر
 بأخبار عن حدوث تمرد منهم لفترة تزيد عن خمسة عشر عاماً . ولكن الأمور
 تغيرت بعد ذلك ، ففي سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م كان الخطر البرتغالي قد بلغ مداً

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٤٧ - ١٤٨ ، قرّة العيون ص ١٣٣ أ ،
 بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٦٨ .

(٢) ابن الديبع : قرّة العيون ص ١٣٦ ب .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٦٥ ، قرّة العيون ص ١٣١ أ ، بامخرمة :
 نفس المصدر ص ١١٢ .

(٤) ابن الديبع : الفضل المزد ص ٤ ب .

تعمدت الأحوال في اليمن نتيجة لموقف السلطان الطاهري من الحملات المملوكية التي أرسلها السلطان الغوري لمقاومة البرتغاليين في المياه الهندية ، ومنع خطرهم عن البحر الأحمر ، فاستغلت القبائل اليمنية المعادية للطاهريين امتناع السلطان الظافر الثاني عن التعاون مع القوات المملوكية ، وأغارت جيوشهم على ما بلغ أكثر من ستة آلاف رجل ومائة فارس على مدينة الضحى الواقعة جنوب مدينة الزيدية ، ولكن إليها استطاع — بما لديه من قوات قليلة — الممهدى لهم وألحق الهزيمة بهم^(١) ، وفي نفس الوقت أسرع السلطان بإرسال حملة بقيادة ابنه عبد الوهاب لإمداد حامية الضحى ، فلما وصلها أسرع مشايخ بني حفيص إلى المثلول بين يديه متعهدين بتأدية ما يقرره عليهم غير أنهم لم يثبتوا على الطاعة ونقضوا عهدهم فاستؤثفت الغارات عليهم واعتقل زعماءهم وأجبروا على الطاعة^(٢) . ولكن ما أن بدأ الغزو المملوكي لليمن حتى أسرع بنو حفيص وغيرهم من قبائل تهامة إلى التعاون الكامل مع تلك القوات فكابة في بني طاهر^(٣) ، فكان لتعاون تلك القبائل أثره في إلحاق الهزائم المتكررة بالسلطان الطاهري وقواته والقضاء على دولته^(٤) .

- (١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٤ أ ، الفضل المزيدي ص ٥٣ ب ،
بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٩١ ، يحيى : غاية الأمانى ص ٦٤٢ .
- (٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٤ أ - ب ، الفضل المزيدي ص ٥٤ أ ،
بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٩٣ .
- (٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٦ أ ، بامخرمة نفس المصدر ص ١١٩٨ .
- (٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٦٠ أ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١٢٠٤ ،
الشبللي اليمني : السنا الباهر ص ٢٠٤ .

٥ - ذوات الحبشي :-

والحبشي ، هو عباس بن الجلال بن عبد الباقي ، وهو ممن رفع لواء التمرد والعصيان في منطقة الجبال على السلطان المجاهد علي بن طاهر ، وقام في ذي الحجة سنة ٨٦٩ هـ / أكتوبر ١٤٥٧ م بالاستيلاء على الخلافة من بلاد ذي جبلة بمنطقة اليمن الأوسط . وكان لابد للسلطان الطاهري من مواجهة تلك الثورة ، فزحف بجموع كثيفة من قواته إلى مدينة ذي جبلة وأقام هناك إلى ربيع الأول ٨٦٢ هـ / يناير ١٤٥٨ م مراقبا الموقف ، إلى أن تبأت له الفرصة للاغارة على الحبشي والتغلب عليه وقتل عدد كبير من أتباعه (١) . وواصل السلطان حملاته على منطقة نفوذ الحبشي وتمكن في ذي القعدة من نفس العام من الاستيلاء على عدد من الحصون التي كانت تحت سيطرته (٢) . وتوقفت حملات السلطان بضع سنوات ثم استؤنفت في جمادى الآخرة سنة ٨٦٦ هـ / مارس ١٤٦٢ م لاستعادة بعض الحصون التي كان الحبشي قد سيطر عليها (٣) . وقد وفق المجاهد في إخماد حركته ، وأرغمه على طلب الدخول في الطاعة ؛ وقبل طلبه وتم التوصل إلى الصلح في أواخر ٨٦٨ أو أوائل ٨٦٩ هـ / ١٤٦٤ م وأنعم

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ ب ، بغية المستفيد ص ٩٩ م
بأخزمة : قلادة النحر ج ص ١١٢٦ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٩ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٥٨٩ م ، الكبسي : اللطائف ص ٢٢٣ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٣ ، قرة العيون ص ١٠٣ ب ،
بأخزمة : نفس المصدر ص ١١٢٦ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٩٥ م .

عليه (١) .

وقد أثبتت الأحداث أن الدخول في الطاعة كانت وسيلة تلجأ إليها القبائل لتخفيف ما كان يصيبها من تفكيك السلطان بأفرادها ، فهي بمثابة هدنة مؤقتة تقبلها القبائل النائرة إلى أن تستعيد قواها أو تتاح لها الفرص للثورة من جديد . ويبدو أن عباس الحبشي أثر الجنوح إلى الطاعة ، ولكن أخاه إدريس بن الجلال الحبشي هو الذي بدأ بالعصيان في هذه المرة في سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م ، فاضطر السلطان المجاهد إلى السير إليه في شعبان سنة ٨٧٧هـ / يناير ١٤٧٢م لمحاصره في حصن خدد بمنطقة ذي جبلة . ولكن الحصار لم يؤد إلى نتائج حاسمة وعاد السلطان إلى زبيد (٢) . ولم يلبث أن عاد إلى المنطقة ذاتها من جديد بعد شهرين ، ووقعت بينه وبين إدريس الحبشي هدنة وقائع كان النهر فيها للسلطان المجاهد على ، الذي تمكن من الاستيلاء على عدة حصون (٣) . ولم يجد بنو الحبشي بدا من العمل على التوصل إلى الصلح والعودة إلى الطاعة فقم لهم ذلك في ربيع الأول سنة ٨٧٨هـ / يولييه ١٤٧٤م ، وتوجه الشيخ إدريس بن الجلال الحبشي مع السلطان ودخل في ركابه إلى تعز (٤) .

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٦ ، بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٢٨ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٦ ، بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٣١ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٦ .

(٤) ابن الديبع : نفس المصدر ص ١١٨ ، قرة العيون ص ١٢٦ ب ، بامخرمة نفس المصدر ص ١١٢٢ .

استقرت الأوضاع بين الجايين عدة سنوات تجددت بعدها رغبة بني طاهر في استعادة الحصون التي كانت بحوزة الجيشى ، وخاصة حصن خدد باعتبارها من المعاقل المنيعة والمهمة لتحكمه فيما حوله من المناطق ، ولهذا توجه السلطان على رأس حملة كبيرة ، وحاصر ذلك الحصن في ذى القعدة سنة ٨٨٢هـ / فبراير ١٤٧٨م - وكان ادريس الجيشى قد لجأ إلى حصن الحضراء القريب من حصن خدد ، فبدأ السلطان بحاصره كذلك ، وأمر بضربه بالمنجنيق حتى خرب معظمه مما اضطره إلى طاب الأمان من السلطان وتسليم ما بحوزته من الحصون (١) .

وبدو أن الجيشى استطاع استغلال الصراع الذى دار بين السلطان المنصور عبد الوهاب ومنافسيه من بني طاهر ، وتمسك من استعادة بعض الحصون ومن بينها حصن خدد ، فاضطر السلطان المنصور إلى إحكام الحصار على هذا الحصن واستعادته في ربيع الثانى سنة ٨٨٦هـ / يونيو ١٤٨١م والاستيلاء على ما وجدته فيه من عدد وذخائر (٢) .

ثم استقرت الأحوال بعد ذلك في تلك المنطقة ، وخشى أهلها انتقام بنى طاهر إذا ما نجحده عهدياتهم ، ولهذا أرسل أهل بعدان - في تلك المنطقة - إلى السلطان الظافر عامر الثانى بن عبد الوهاب عقب توليه عرش السلطنة سنة

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٣ ، قررة العيون ص ١٢٠ ب ، بامخرمة

نفس المصدر ص ١١٣ و ١١٤١ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٣ ، قررة العيون ص ١٣٠ ب ، بامخرمة .

نفس المصدر ص ١١٦٤ .

١٤٠٩/٥٠٩ م يبلغونه بوقوع اضطراب في بلادهم ويطلبون منه سرعة الحضور لإقرار الأوضاع فيها (١).

٦ - الصراع الزيدى المملوكى فى عهد بنى طاهر :

تعتبر الإمامة الزيدية من أقوى القوى المعارضة للسلطات الحاكمة فى الين ، فأدلة كانوا يهدفون دائماً إلى السيطرة الكاملة على البلاد ، لذلك كان الصراع مستمرا بينهم وبين السلطات الحاكمة . غير أن الأمر كان يتوقف بصفة عامة على مدى قوة الدولة القائمة ، فكلما أثبتت مقدرتها على السيطرة والتحكم فى البلاد ، كلما انكمشت القوى الزيدية والتزمت الهدوء ، فى الوقت الذى كانت تهدد نفسها لمعارك مقلية ، فكانت تدخر قواها لفرصة موالية تثبت فيها وتتوسع على حساب القوى الحاكمة المنهارة . خاصة فى المناطق التى يشكل أتباعهم فيها أغلبية كبرى كصنعاء وما يليها شمالاً من جبال الين .

وكان الصراع والتنافس بين بنى رسول على عرش السلطنة فرصة مناسبة استغلها الأئمة للسيطرة على منطقة صعدة والاستقلال بحكمها ، والتوسع تدريجياً فى المناطق التى تليها جنوباً ، بحيث تمكنوا من الاستيلاء على صنعاء ، ومد نفوذهم جنوباً إلى دمار وما حولها قرب نهاية عصر الدولة الرسولية .

والحقبة أنه لولا الانقسامات والمنازعات بين قوى الزيدية حول الإمامة وقيام أكثر من إمام فى وقت واحد ، وتنافس الأئمة وقيام الحرب بينهم من أجل الانفراد بالإمامة ، لكان فى استطاعتهم استكمال السيطرة على بلاد الين ووراثة ملك بنى رسول .

(١) بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٦٩ .

ومع قيام دولة بني طاهر شغلت القوى الزيدية بالصراعات والحروب فيما بينها (١)، واستغل بنو طاهر حالة التصدع في الكيان الزيدى، وشملوا على التقرب من الأطراف المتنازعة - كل على انفراد - واجتهدوا في توسيع شقة الخلاف واستمرار القتال فيما بينها مما يؤدي في النهاية إلى إضعافهم واستنزاف قوتهم (٢). وفي نفس الوقت عمل بنو طاهر على تجنب الدخول في صراع مباشر ضد الزيدية، والتفرغ لتكريس الجهود لتوطيد دعائم دولتهم، ولذلك نلاحظ أنه ما كاد الامام الناصر يغير سنة ٨٦٢/١٤٥٨ م على مخلاف رداع - إلى الجنوب الشرقي من ذمار - حتى عمل بنو طاهر على تلافى التصادم معه، وسعوا إلى مسالته وتمكنوا بالفعل من التوصل إلى عقد صلح معه (٣). إلا أن الامام لم يلبث أن أغار مرة أخرى في رجب أو شعبان سنة ٨٩٣ هـ/ مايو أو يونيو ١٤٥٩ م، الأمر الذي دعا بنو طاهر إلى التصدي له، وتمكنت قواتهم بقيادة الأمير جياش بن سليمان السنبلى من إيقاع الهزيمة به وقتل جماعة من أتباعه وإجباره على العودة (٤).

وفي رمضان سنة ٨٩٤ هـ/ يونيو ١٤٦٠ م أغار الإمام مرة أخرى على رأس قوة كبيرة على بلاد رداع، فتوجه السلطان الظافر عامر الأول بن طاهر لمقاتلته، وبادره الحرب قبل أن يتهياً للقتال، وعلى الرغم من ذلك فقد تمكن

(١) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٥٨٧.

(٢) يحيى بن الحسين: نفس المرجع ص ٥٨٨.

(٣) ابن الديبع: قرة العيسون ص ١٢٠ ب، بامخرمة: قسادة النحر ج ٣ ص ١١٢٦، الكهسى: اللطائف السنية ص ٢٢٣.

(٤) يحيى بن الحسن: غاية الأمانى ص ٥٨٩.

الإمام من الانتصار في النهاية، وأسفرت المعركة عن مقتل محمد بن طاهر - أخى السلطان - في جماعه من أتباعه، كما قتل وأسر عدد من أتباع الإمام (١).

ونتيجة الإغارات المتعددة التي شنها الإمام الناصر محمد على مناطق نفوذ الطاهر بن طمعاً في التوسع على حسابهم، توجه السلطان الظافر عامر بن طاهر على رأس حملة كبيرة سنة ٥٨٦٥ / ١٤٦١ م إلى دمار - وكانت وقتئذ تابعة للإمام - فقادها الإمام إلى صنعاء ولم يلتفت إلى محاربة الظافر (٢)، واضطر والى دمار للخروج إلى معسكر السلطان وتقديم فروض الطاعة والولاء له وطلب الأمان لأهل المدينة خوفاً من تعرضها للنهب والتخريب، فاستجاب له السلطان ودخل المدينة بمسحوقته بغير حرب في شهر رجب من ذلك العام، ولم يتعرض العسكر السلطاني لأهل دمار بأي سوء. فلما أفر السلطان الأوضاع فيها أناب ابن أخيه على بن تاج الدين عنه وعاد إلى رداع، حيث وفدت عليه جموع القبائل مؤيدة طائفة (٣).

وفي سنة ٥٨٦٦ / ١٤٦١ م خرج السلطان الظافر عامر الأول على رأس حملة إلى الشمر وترددت الشائعات آنذاك حول هلاكه ومن معه عطشا في الصحراء. فانتهمز الإمام الناصر محمد تلك الفرصة وزحف بقواته إلى دمار.

(١) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ١٠٠، باخرمة: قلادة النعرج ص ٣٣ ص ١١١٨ و ١١٢٦، يحيى بن الحسين: غاية الأمان ص ٥٨٩، الكلبسي: اللطائف السنية ص ٢٢٣.

(٢) يحيى بن الحسين: نفس المرجع ص ٩٠.

(٣) يحيى بن الحسين: نفس المرجع والصحة.

واستولى عليها (١) . وقد صادف ذلك عودة السلطان من حملة الشجر ، فلما علم بسقوط دمار أسرع بقواته إليها ، وقام في نفس الوقت بمكانة قادة الزيدية المناوئين للناصر محمد وحرضهم على محاربتة ، مستهدفا شغل الإمام الناصر في جبهتين ، ونجحت خطة الظافر على نحو لم يكن في الحسبان ، فلم يكدر بمسار إلى دمار حتى كان الإمام قد تركها لمعيرها ، وتوجه إلى حصن هران الواقع بالقرب من دمار وتحصن فيه ، مما اضطر أهل دمار إلى تسليم مدينتهم للظافر بالأمان ، فأمنهم (٢) ودخل مدينتهم في رجب سنة ٨٦٦ هـ (٣) / أبريل ١٤٦٢ م ثم لم يلبث أن خرج بعسكره لمحاصرة الإمام في حصن هران (٤) ، فلما اشتد عليه الحصار جنح إلى الصلح وعرض تسليم الحصن ، مقابل اعتراف السلطان بسيطرته على المناطق الواقعة شمالي نقيز يسلم شمالي دمار ، ولكن السلطان لم يوافق (٥) على ذلك الشرط واستمر محاصرا للإمام . غير أن الإمام تمكن من التخلص من الحصار، إذ خرج سرا في بعض خاصيته من الحصن وتوجه إلى صنعاء ، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليها إذ اعترضته بعض القبائل ووقامت بأسره (٦) وعرضت تسليمه إلى السلطان الظافر عامر الأول ، ثم تراجعت عن ذلك تحت تأثير أحد فقهاء الزيدية وتم تسليمه إلى الإمام المطهر بن محمد بن

(١) يحيى بن الحسين: نفس المرجع ص ٥٩ ، الكبسي: اللطائف السنية ص ٢٢٣

(٢) يحيى بن الحسين: غاية الأمان ص ٥٩٢ .

(٣) باخرمة: قلادة النعز ج ٣ ص ١١١٩ .

(٤) ابن الديبع: قرة العيون ص ١٢٢ أ - ب ، بغية المستفيد ص ١٠١ .

١٠٣ ، باخرمة: نفس المصدر ص ١١٢٧ .

(٥) يحيى بن الحسين: نفس المرجع ص ٥٩٢ .

(٦) الكبسي: اللطائف السنية ص ٢٢٣ .

سليمان (١) فظل سجيناً عنده إلى أن توفي في سنة ٨٦٨ هـ (٢) / ١٤٦٣ م.

وفي صنعاء انقسم الرأي العام الزيدى بين مؤيد للإمام المطهر بن محمد ومعارض له، إلا أن محمد بن الإمام الناصر الأسير تمكن - رغم تخوفه من الإمام المطهر - من الاحتفاظ على صنعاء، ورأى أنه قد أصبح بين شقي رحى، يحاصره من الجنوب السلطان الظافر، ومن الشمال الإمام المطهر، ولم يكن في مقدوره مقاومة هاتين القوتين، في الوقت الذي كان في صنعاء عدد من المؤيدين لسيطرة المطهر على صنعاء. ولما كان محمد بن الإمام الناصر معادياً للإمام المطهر فقد سعى إلى الانتقام منه وتخليص والده من أسرته، ولذلك رأى أن يسلم مدينة صنعاء للسلطان الظافر حتى يتحقق له بذلك وقرع الصدام بين الإمام والسلطان، ويتمكن عن طريق ضرب فريقين من أن يحقق نفعا لنفسه. وبالفعل قام بمراسلة السلطان الظافر وتم الاتفاق معه على تسليم المدينة مقابل خمسين ألف دينار (٣). ودخل السلطان بقواته صنعاء في شوال سنة ٨٦٦ هـ / يولية ١٤٦٤ م وولى عليها ابن أخيه عبد الوهاب بن دارد، وترك معه فيها حامية كبيرة (٤).

وبذلك توسع بنو طاهر واشتد ملكهم، واستقروا في هذا العام على

(١) ابن الديبع: قرة العيون ٢٢ أ، بغية المستفيد ص ١٣ أ، باخترمة: نفس المصدر والصفحة، يحيى بن الحسين: نفس المرجع والصفحة.

(٢) يحيى بن الحسين: نفس المرجع ص ٥٩٤ و ٥٩٥.

(٣) يحيى بن الحسين: غاية الأمان ص ٥٩٤.

(٤) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ١٠٣، قرة العيون ص ١٤ ب، باخترمة: قلادة النجر ج ٣ ص ٢٧ - ١٠١.

كثير من اليمن ، (١) . وكان السلطان يتردد على صنعاء لتفقد أحوالها ، ففى شوال ٨٦٧ هـ / بولبة ١٤٦٣ م توجه إليها ودخل فى احتفال كبير ، وأقسام بها فترة ، عمل خلالها على إقرار الأوضاع فى المنطقة (٢) ، ثم غادرها بعد أن أناب فيها الأمير محمد بن عيسى البعداني (٣) .

بدأ محمد بن الناصر يستشعر مشاعر الضيق والضغط بعد أن أخفق فى خطته ، ولم يتحقق الصدام الذى كان يرجوه بين الامام المظفر والسلطان ، والظاهر أنه عير عن تلك المشاعر بدليل أن السلطان الظافر عاصر الأول بأدر بالكتابة إلى واليه على صنعاء يأمره بتدبير الحيلة لإرسال محمد بن الناصر إليه حتى يضمن عدم قيامه بتدبير الاستيلاء على صنعاء . وفطن ابن الناصر إلى ما يدبره ضده ، فأرسل يستدعى أحد كبار أعوانه ويدعى محمد بن عيسى شارب الأسدي (٤) ، واتفق وصول صاحبه هذا إلى صنعاء أثناء غياب واليهما - فى معظم جيشه - لتفقد بعض المناطق التابعة له (٥) . فلما وصل محمد بن عيسى شارب ليلاً نادى أتباعه على الحراس ليفتحوا باب المدينة للأمير محمد بن عيسى ، فحسبوه والى صنعاء لتشابه الأسماء ، وبذلك تيسر له دخول المدينة على

(١) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٥٩٤ .

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المرجع والصفحة .

(٣) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٥٩٥ .

(٤) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٥٩٦ - ٥٩٧ ، الكبسى : اللطائف

السنية ص ٢٢٤ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٣ ب ، الكبسى : اللطائف السنية

ص ٢٢٤ .

أنه واليها واستولى عليها في المحرم ٨٦٩ هـ / سبتمبر ١٤٦٤ م. فلما علم الوالي الخليلي بما حدث عاد إلى دمار ومنها إلى المقرانة (١).

أما السلطان الظافر عامر الأول فقد غضب غضبا شديدا لفقد صنعاء بهذه الصورة، وبادر على الفور بالتوجه على رأس جيش جرار لاستعادتها، ولكن محمد بن الامام الناصر آثر أن يصالحه على مال التزم بتأديته لآليه (٢). وقيل بل اضطر السلطان إلى فك الحصار عن المدينة والعودة، لرغبة بعض قادته وجنده في قضاء عيد الأضحى مع أهلهم (٣). وقد يكون لهذا القول نصيب من الصحة، ذلك أنه لم يلبث أن عاد ثانية في آخر المحرم سنة ٨٧٠ هـ / سبتمبر ١٤٦٥ م لمحاصرة صنعاء، وقامت قواته بهجمات تخريب واسعة النطاق حولها (٤).

ومن الجدير بالذكر أن الصراع بين الزيدية على الإمامة كان قد بلغ ذروته، فالإمام المظهر كان يسعى للقضاء على محمد بن الامام الناصر، وفي سبيل ذلك لم يتردد في التعاون مع الظافر وأرسل ابنه من كوكبان في مجموعة من الجند لآليه لمعاونته في الاستيلاء على صنعاء. وكان والي تلات - بانقرب من كوكبان - يظهر ولاءه للإمام المظهر في حين كان يطن غير ذلك، فاستغل

(١) بالخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٢٨ - ١١٢٩ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٦ ، قرّة العيون ص ١٢٣ ب ،

بالخرمة : نفس المصدر ص ١١٢٩ .

(٣) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٥٩٨ .

(٤) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٧ ، قرّة العيون ص ١٢٤ أ .

فرصة خروج ابن الإمام المطهر في غالبية العسكر من كوكبان وطمع في الاستيلاء عليها واعتقال الإمام ، ثم كتب إلى محمد بن الناصر في صنعاء يخبره بذلك ، فأمدّه بمجموعة من الجند ، وتمكن بفضلهم من دخول كوكبان ومحاصرة الإمام في داره . ودارت معركة عنيفة بين الجانبين انتهت بهزيمة صاحب نلا وأسرّه ومصرع جميع أتباعه . وكان ذلك الوالي قد أرسل دقبة دخوله كوكبان إلى محمد بن الناصر يبلغه باستيلائه عليها فدقت الطبول بالبشرى في صنعاء . وعندئذ خشى ابن المطهر على أبيه ، فأمدّه السلطان الظاهر الأول بتجريدة من عسكره ، فلما وصلوا إلى نلا شربوا في تخريب جانب كبير منها ، ثم تحولوا إلى كوكبان ، واكتنهم غادوا إلى السلطان بعد أن أطمأنوا على سلامة الإمام المطهر ، أما السلطان فإنه لم يلبث أن فك الحصار عن صنعاء (١) مكتفياً بما قامت به قواته من تخريب ماحول المدينة من مناطق زراعية (٢) .

توجه السلطان الظاهر عامر الأول إلى عدن ، ولكنه ما كان يصل إليها حتى لحقته رسائل من صنعاء يطلب مرسلوها منه العودة إليها ووعدوه بنهرته ومساعدته في الاستيلاء عليها . فأسرع مروراً إليها في حشد كبير ، فوصلها على حين غفلة من أهلها في ذى القعدة سنة ٨٧٠ هـ / يونية ٤٦٦ م . ولكنه لم يكن مستعداً للقتال اعتماداً على ما وعده به أهل صنعاء . ولهذا لم يستعص على قوات محمد بن الناصر بقيادة محمد بن عيسى شارب التغلب عليه وهزيمته وسقوطه صرباً في جملة كبيرة من عسكره يوم الاثنين السابع من ذى القعدة .

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٩٩ .

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٠٠ .

سنة ٨٧٠ هـ (١) / ٢١ يونيو ١٤٦٦ م . وغنم أهل صنعاء كميات هائلة من الغنائم ، حتى « استغنى الفيلس » (٢) .

ومما يذكر أن السلطان المجاهد على كان قد حذر أخاه المظفر من الاعتماد على ما يصله من أهل صنعاء ، إذ قد يكون ذلك مكيدة منهم لإيقاعه في كمين أعدوه له ، ولكن السلطان الظافر عامر الأول لم يسر نصيحة أخيه احتيما ، فلما قتل وهزمت قواته ، اضطربت أحوال اليمن ، وبذل السلطان المجاهد على جهودا مضنية من أجل إعادة الاستقرار إلى البلاد (٣) . وشغل بذلك ، وأعرض عن مواصلة الحرب ضد الزيدية (٤) ، مما أتاح الفرصة لمحمد بن الناصر أن يطعن من ناحية بني طاهر فترة طويلة من الزمن ، وأن يتمكن - من ناحية أخرى - من الصمود أمام الحملات التي كان الإمام المطهر يجهزها للاستيلاء على صنعاء (٥) . ولكن محارلات الإمام لم يكتب لها النجاح ، على الرغم من قيامه بالاستيلاء على مدينة ذمار (٦) ، التي استمر يسيطر عليها ، وكانت وفاته بها في شهر صفر سنة ٨٧٩ هـ (٧) / يونيو ١٤٧٤ م .

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٧ ، قررة العيون ص ١٢٤ أ .

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠١ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٨ ، قررة العيون ص ١٢٤ ب ،
باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٢٩ .

(٤) الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٢٥ .

(٥) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠٣ .

(٦) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠٣ .

(٧) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٠٦ .

لم يفته للصراع بين الزيدية بوفاة المطهر بن محمد بن سايجان ، فقد قام ابنه عبد الله محتسباً - والاحتساب عند الزيدية مرحلة سابقة للإمامة ومؤهلة لها - وبدأت مرحلة جديدة من التنافس على الإمامة ، فقد قام الشريف الزيدى محمد بن يوسف بن صلاح الدين المرتضى بالدعوة لنفسه بالإمامة . كما قام عز الدين ابن الحسن بن علي بن المؤيد إماماً ، ولكنه تخلى عنها ، ثم لم يلبث أن قام بتجديد دعوته مرة أخرى . واجهت الزيدية على مباحثته فيما عدا أهل صعدة الذين تمسكوا بإمامة محمد بن يوسف (١) ، أما صنعاء فكانت تحت سيطرة محمد بن الإمام الناصر . وعلى هذا النحو من التفكك والانقسام والتنافس وما اقترن به من صراع حربي ، أخذت الزيدية تنحدر نحو اضمحلال محتوم (٢) .

ويمكن القول بأن الفترة التي انفرد فيها السلطان المجاهد على بالسلطنة بعد مقتل أخيه الظاهر عامر الأول اتسمت بزهة المجاهد في مناجزة الزيدية ، وظل الأمر كذلك حتى أواخر عهد السلطان المنصور عبد الوهاب ، عندما استعاد مدينة ذمار في شهر رمضان سنة ٨٨٩ هـ / سبتمبر ١٤٨٤ م ، وأرغم صاحبها عبد الله بن الإمام المطهر على الفرار منها (٣) والاحتباء بصنعاء ، فأحسن محمد بن الناصر استقباله رغم ما بين أسرتيهما من عداوة (٤) .

(١) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٠٦ - ٦٠٧ .

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٠٨ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٤٠ ، بانحصرمة : نفس المصدر

ص ١١٦٦ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١٤ .

ويبدو أن أهل ذمار كانوا قد خرجوا عن طاعة السلطان المنصور عبد الوهاب،
ومالوا إلى القوى الزيدية، وسوروا مدينتهم ودعموا تحصيناتها^(١)،
والظاهر أن انشقاقهم حدث في بداية سلطنة الطاهر عامر الثاني، بدليل أنه
خرج في قوة من عسكره إلى ذمار في ذي القعدة سنة ٨٩٥هـ / سبتمبر ١٤٩٠م،
وظل يحاصرها إلى أن تمكن من تدمير جانب من سورها، ومن خلاله نجح في
افتحام المدينة وفتحها عنوة في السابع من ذي الحجة سنة ٨٩٥هـ / ٢٢ أكتوبر
١٤٩٠م، ووافق على تأمين أهلها بشرط أن يستكملوا تخريب سور مدينتهم.
ثم أناب السلطان أحد ثقاته في ذمار وغادرها بعد أن أقر الأوضاع فيها^(٢).

أما الزيدية، فقد استمر الانقسام والتصدع في صفوفهم، ففي رجب سنة
٩٠٠هـ / أبريل ١٤٩٥م توفي الإمام عز الدين بن الحسن بن علي بن المؤيد،
فقام بأمر الإمامة من بعده ابنه الحسن. وفي شهر ذي القعدة من نفس العام
كانت دعوة الشريف الزيدى محمد بن علي الوشلى السراجى بالإمامة^(٣) معارضا
بذلك الإمام الحسن بن عز الدين والإمام محمد بن يوسف، وكان من الطبيعي
أن تنشب الحرب بين تلك القوى حتى يتمكن أحدهما من الأفراد بالإمامة.
ثم لم تلبث كفة الإمام الوشلى أن أخذت في الرجحان^(٤)، فبدأ في التحرش

(١) ابن الديبع: قرة العيون ص ١٣٩ ب - ١٣٧ أ، يحيى بن الحسين:

نفس المرجع ص ٦١٨.

(٢) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ١٥٩، باخرمة: ق-لادة النجر ج ٣

ص ١١٧١.

(٣) يحيى بن الحسين: نفس المرجع ص ٦٢١ - ٦٢٢.

(٤) باخرمة: نفس المصدر ص ١١٨٥، يحيى بن الحسين: نفس المرجع

ص ٦٢٣.

بني طاهر ، ففي سنة ٥٩٠٢ / ١١٩٦ م قام بتحريض أهل ذمار للخروج عن طاعة بني طاهر (١) ، وواصل الإمام الوشلي نشاطه بالإغارة سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م على البلاد الخاضعة لسيطرة بني طاهر ، ولكن القوات الطاهرية بقيادة علي بن محمد البعداني تمكنت من مفاجأة قواته والالتفاف حولها وتطويقها مما أحدث ارتباكاً في صفوفه ، وسهل للقوات السلطانية الانتصار عليه (٢) . فلم ينج إلا بنفسه (٣) .

ثم سادت فترة من الهدوء أعقبها خروج السلطان الظافر الثاني بنفسه على رأس جيش ضخم إلى صنعاء ، وقيامه بمحاصرتها في شعبان سنة ٩٠٧ هـ / (٣) فبراير ١٥٠٢ م وقذفها بالمنجنيق . فلما اشتد الحصار على صنعاء استنجد أهلها بالإمام الوشلي وبمحمد بن حسين الحمزي المعروف بالبهال (٤) ، صاحب صعدة ، فأسرعا في جموع كبيرة لتجديدهم . فلما علم السلطان الظافر عامر الثاني بأمر تلك النجدة ، أرسل حملة بقيادة محمد بن علي البعداني لاعتراض طريق تلك

(٦) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤١ أ ، الفضل المزيّد ص ٣١ ب ، باخرمة : نفس المصدر ص ١١٨٧ .

(٧) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٢ ب ، باخرمة : نفس المصدر ص ١١٨٨ ، يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٢٤ .

(٨) ابن الديبع : الفضل المزيّد ص ٣٤ أ .

(٩) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٥ ب - ١٤٦ أ ، الفضل المزيّد ص ٣٧ ب ، باخرمة : نفس المصدر ص ١١٩٠ .

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٢٨ - ٢٩٠ ، الكبش : الاطراف ص ٢٢٩ .

الإمدادات والقضاء عليها أو إرغامها على العودة ، ولكن البعداني لم يستطع
 الصمود أمام تلك الحشود الضخمة واضطر إلى العودة منهزمًا إلى السلطان (١)
 فلما أحس السلطان الظافر الثاني بتخرج موقفه بوصول النجيدات وصعوبة
 الانسحاب ، أبدى استعدادًا للصالح ، إلا أن زعماء الزيدية اشتراطوا شروطًا
 لم يقبلها ، فقرر العودة وقام بإحراق أمةاله (٢) حتى لا تعوق انسحابه ، ولا
 يتركها ليعتمد منها أعداؤه . فلما بدأ بالانسحاب في المحرم سنة ٥٩٠ هـ / بولية
 ١٥٠٢م تصور زعماء الزيدية أن الفرصة قد سحبت لهم لإيقاع الهزيمة به ،
 وتبعوا قواته ، ولكن السلطان تمكن من التغلب عليهم ، ووصل إلى دمار
 دون أن يتسبباً لخصومه الإيقاع به (٣) .

أما محمد بن الناصر صاحب صنعاء ، فقد رحب بالامام الوشلي ومحمد بن
 حسين البهال عند دخولهما المدينة ، ولم يتردد في الاعتراف بإمامة الوشلي ، الذي ظل
 مع البهال في صنعاء عدة أيام ثم عاد كل منهما بعدها إلى بلده (٤) . ولم يلبث محمد
 ابن الناصر أن توفي في شعبان سنة ٥٩٠ هـ / (٥) فبراير سنة ١٥٠٣ م ، فقام

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٥ ب ١٤٦ ، أ ، باخرمة : قلادة النحر
 ج ٣ ص ١١٩٠ ، الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٣٠ .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ١١٢ أ ، غاية الأمانى ص ٦٢٩ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٥ ب ١٤٦ ، أ . الفضل الزيدى ص ٣٨ أ
 باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٩٠ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٢٩ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٦ ب . الفضل المزيدي ص ٣٨ ب ، باخرمة
 نفس المصدر ص ١١٨٢ و ١١٩١ .

أخوه أحمد بن الناصر بحكم صنعاء به (١).

وعلى الرغم من الصراع الدائر بين القوى الزيدية ، إلا أن تهديد السلطان الطاهري بالاستيلاء على صنعاء وحدهم ، وتوافدت جموعهم لحمايتها ونصرة أهلها . ولما كانت صنعاء من أهم مدن اليمن ، وعن طريقها يفتح الطريق أمام بني طاهر لاستكمال السيطرة على الجزء الشمالي من أقاليم الجبال ، فقد أعد السلطان الظافر عامر الثاني عدته لتجهيز حملة أخرى على صنعاء ، فلما توافدت جموع القبائل عليه توجه إليها في ربيع الأول سنة ٩١٠ / أغسطس ١٥٠٠م وحاصرها وضربها بالمنجنيقات (٢) . وتكاثفت الزيدية للدفاع عن صنعاء وجاء الإمام الوشلي ومحمد بن حسين البهال صاحب صعدة في جموع كشيقة لمحاربتها . وكان السلطان الظافر قد وضع تلك النجيدات في الحسبان ، وقام بتقسيم جيشه إلى قسمين ، الأول ومهمته حصار صنعاء ، والثاني - بقيادته - وهدفه مواجهة القوات الزيدية القادمة لنجدة صنعاء ، فدارت بين الجانبين معركة من أعنف المعارك التي وقعت في عصر دولة بني طاهر ، أنتصر فيها السلطان الظافر الثاني انتصارا حاسما في رمضان سنة ٩١٠م ، فبراير ١٥٠٥م .

(١) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٢٩ ، الكبسى : اللطائف السنية

ص ٢٣٠ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٧ أ ، بامخرمة : قلادة النحور ص ١١٩٢ . (ويقال أن قوات الظافر عامر الثاني قد زادت على مائة وسبعين ألف رجل من بينهم ثلاثة آلاف فارس) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٤٠ ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٣٣ ، الكبسى : اللطائف ص ٢٣٠ . (لأن هذا الرقم مبالغ فيه كثيرا إذا ما قورن بتعداد القوات التي استخدمها بنو طاهر في حروبهم الداخلية الأخرى) .

وقتل فيها عدد كبير من قوات الإمام وصاحب صعدة ووقع الإمام الوشلي أسيرا (١)، وغنم بنو طاهر كثيرا من الغنائم. أما محمد بن حسين البهال فقد تمكن من الأفلات والفرار بأعجوبة بعد أن تكبد خسائر جسيمة (٢).

وفيما يتعلق بالقوات التي كانت تحاصر صنعاء، فقد واصلت مهمتها، وانتفض أهل صنعاء فرصة المعركة الدائرة بين السلطان والإمام وأغاروا على القوات المرابطة حول المدينة بهدف فتح ثغرة تمكنهم من إمداد القوات المشتبكة مع السلطان، أو إتاحة الفرصة لها لدخول المدينة للاحتواء والتحصن فيها. إلا أن القوات السلطانية المحاصرة لصنعاء تمكنت من التصدي لهم وأوقعت الهزيمة بهم، ودوت هزيمة الإمام الزيدى ووقوعه في الأسر دويا هائلا في صنعاء، وخاف أهلها من أن يتعرضوا للعنف إذا ما قام السلطان بفتح المدينة عنوة. ولذلك طلبوا منه تأمينهم، فلما وافق قاموا بفتح أبواب المدينة فدخلها بقواته

(١) ابن الديبع: قرة العيون ص ١٤٧ ب، الفضل المزيدي ص ٤٠ ب،
بامخرمة: نفس المصدر ص ١١٩٢، العيدروسى: النور السافر ص ٥٣، يحيى
ابن الحسين: نفس المرجع ص ٦٣٣، الكيسى: اللطائف السنية ص ٢٣٠:
(وكانت وفاة الإمام الوشلي فى صنعاء فى ذى القعدة سنة ٩١٠هـ / أبريل
١٥٠٥م. ويقال أنه مات مسوما بسجنه فيها) إبراهيم بن القاسم بن المؤيد:
طبقات الزيدية - مخطوط بمكتبته الإمام يحيى بهمنعاء - ص ٢٠٠ أ، يحيى
ابن الحسين: نفس المرجع ص ٦٣٤.

(٢) كانت وفاة البهال فى بلدة صعدة فى رجب ٩١٥هـ / أكتوبر ١٥٥٩م
(ابن الديبع: قرة العيون ص ١٤٩ ب، الفضل المزيدي ص ٤٩ أ، بامخرمة: نفس
المصدر ص ١١٨٥-١١٩٩).

واستولى عليها في الساع من شوال سنة ٥٩١٠ هـ^(١) . كما تمكن من الاستيلاء على كثير من الحصون القريبة منها^(٢) . فلما أفر الأمور في مدينة صنعاء أناب فيها الفقيه محمد النظاري وأنعم على القبائل التي اشتركت معه في القتال وسمح لأفرادها بالعودة^(٣) . أما صاحب صنعاء الشريف أحمد بن الناصر فقد أرسله السلطان في المحرم ٥٩١١ هـ / يونيو ١٥٠٥ م إلى تعز فأقام فيها مجللاً مكرماً مع أهله وحشمه^(٤) إلى أن توفي سنة ٥٩١٢ هـ^(٥) .

ولم يلبث أمر الزيدية أن ضعف بعد تلك الضربة التي وجهها إليهم السلطان الظافر عامر الثاني بن عبد الوهاب ، وكان لابد من شخصية قوية تجمع شمل القوى الزيدية من جديد ، خاصة بعد أسر الإمام الوشلي ووفاته ، وتتمثل تلك الشخصية في الإمام يحيى شرف الدين^(٥) الذي أقيمت له الدعوة بالإمامه

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٧ ب - ١١٨ أ ، الفضل المزيدي ص ٤٠ ب - ٤١ أ ، بامخرمة : قلادة النحر ص ١١٩٢ .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيدي ص ٤٠ ب ، يحيى بن الحسين : نفس المراجع ص ٤٤ ب ، الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٣١ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيدي ص ٤١ أ .

(٤) بامخرمة : قلادة النحر ص ١١٩٢ .

(٥) يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٦٣٥ ، الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٣١ .

(٦) هو الإمام المتوكل على الله رب العالمين يحيى شرف الدين بن شمس الدين بن الإمام المهدي لدين الله أحمد بن يحيى المزيدي (غاية الأمان) بن أحمد بن المزيدي بن مفضل بن منصور بن مفضل بن الحجاج بن علي بن يحيى =

في جمادى الآخرة سنة ٥٩١٢هـ / أكتوبر ١٥٠٦م غير أنه لم يحظ بإجماع كامل من العناصر الزيدية (١) في بداية الأمر، ذلك أنه لم يقم بدور فعال في مقاومة القوات الطاهرية التي استطاعت السيطرة سنة ٥٩١٧هـ / ١٥١١م على حصون تلال وحضور و كوكبان .. إلى الشمال الغربي من صنعاء .. كما استولت على بعض المناطق الأخـرى التي كانت تحت السيطرة الزيدية (٢) . ولم تفلح المحاولات التي قام بها الزيدية ، ففي عام ٥٩١٩هـ / ١٥١٣م قضى والى صنعاء على مؤامرة قام بها بعض أهل صنعاء للفتك به وإتزاز صنعاء (٣) منه .

وهكذا بلغت دولة بنى طاهر أقصى إتساع لها في عهد السلطان الظافر عامر الثاني ، غير أنه يؤخذ عليه نقصه في مواجهة البرتغاليين الذين إزداد خطرهم في المحيط الهندي والبحر الأحمر . ومن المعروف أنه شغل ببعض الجولات التنقيرية في أنحاء كثيرة من بلاده ، فقد زار في سنة ٥٩٢٠هـ / ١٥١٤م كل من مدينة إب وذى جبلة من اليمن الأوسط (٤) ، ثم توجه إلى صنعاء مما

ابن القاسم بن يوسف بن أحمد بن الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين (الكسبي : اللطائف ص ٢٣١ ، العصامي : سمط النجوم العوالي - مخطوط بدار الكتب رقم ٥٦٦٤ تاريخ - ج ٤ ص ٤٣٠) .

(١) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٣٥ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥ ، الفضل المزيدي ص ٤٨ ب - ٤٩ أ ، باخرمة : نفس المصدر ص ١١٩٣ ، يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٣٨ ، الكسبي : اللطائف السنية ص ٢٣٣ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيدي ص ٥٢ أ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى

ص ٦٤٠ .

(٤) باخرمة : نفس المصدر ص ١١٩٧ .

أطمع أشراف صعدة بالفتك به ، فقد وفد عليه فى صنعاء بعض رؤسائهم وعرضوا عليه الحضور إلى صعدة لیتسلمها منهم ، ولكنه أرسل معهم نائبة عنه للقيام بتلك المهمة والإقامة فيها مع حامية أعدها معه ، وفى طريقهم إلى صعدة أوقعوهم فى كمين كانوا قد أعدوه للسلطان ولم يتخلصوا منه إلا بعد أن وصلتهم نجدة من السلطان ، فعادوا إلى صنعاء (١) .

أما من الخطر البرتغالى فيبدو أن السلطان الظافر عامر الثانى كان قد ترك فى بادئ الأمر مهمة التخاصص منه للدولة المملوكية ، ولكنه غير موقفه تجاه المماليك ، ولم يكتف بعدم التعاون معهم أو الامتناع عن إمدادهم بالمؤن ، وعدم السماح لهم باستخدام بعض الموانئ بسواحل اليمن ، بل وقف منهم موقفا عدائيا ، مما أدى إلى تحول الحملة المملوكية الثانية عن هدفها فى محاربة البرتغاليين واستدراجها إلى غزو اليمن والقضاء على دولة بنى طاهر بقيل آخر سلاطينها الظافر عامر بن عبد الوهاب فى ربيع الآخر ٩٢٣هـ / إبريل ١٥١٧م . وهذا ما سوف نتعرض له فى الفصل الأخير .

(١) ابن الديبع : قررة العيون ص ١٥٣ أ - ب ، الفضل المزيّد ص ٥٢ ب .
يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤ .

الباب الثاني

العلاقات الخارجية

الفصل الرابع : العلاقات الخارجية في عصر بني رسول.

الفصل الخامس : العلاقات الخارجية في عصر بني طاهر.



الفصل الرابع

العلاقات الخارجية في عصر بني رسول

أولاً - في عصر نور الدين عمر بن علي بن رسول :-

ارتبطت بلاد اليمن - منذ بداية الاسلام - بالدولة الاسلامية ، كولاية لمن ولاياتها ، ولهذا كانت علاقاتها الخارجية ترتبط ارتباطاً وثيقاً وبصفة أساسية بعاصمة الخلافة . أما علاقاتها بالولايات الإسلامية أو الدول الأخرى ، فكانت تتم من خلال الخلافة القائمة . وكان ولاية اليمن يتم تعيينهم أيام الخلفاء الراشدين والأمويين وبني العباس ، بمعرفة الخليفة . ومع ضعف الدولة العباسية تحولت تبعيتها تدريجياً إلى تبعية إسمية تتمثل في الخطبة والسكة .

ومع بدء نشاط الشيعة وانتشار حركتهم ، كانت بلاد اليمن مؤثلاً لتلك الحركة المناهضة للعباسيين ، فلما قامت الدولة الفاطمية في إفريقية ، وانتقل مقرها إلى مصر ، استطاع علي بن محمد الصليحي إقامة الدولة الصليحية - الاسماعيلية - كدولة تدبّر بالولاة للخليفة الفاطمي بمصر ، في حين ظلت الدويلات اليمنية السنية الأخرى ، كدولتي بني زياد وبني نجاح من بعدها ، تابعتين إسمياً لخلافة بغداد .

وبقيام الدولة الأيوبية على أنقاض الدولة الفاطمية في مصر ، أرسل صلاح الدين أخاه توران شاه إلى اليمن سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م على رأس حملة للاستيلاء عليها ، من أجل القضاء على بقايا النفوذ الشيعي وضم اليمن إلى ركبه

للتحرر العربي للجهاد ضد الصليبيين ، وتأمين حدود الدولة الأيوبية بالسيطرة على المنفذ الجنوبي للبحر الأحمر . وأصبحت بلاد اليمن الموحدة منذئذ تابعة للأيوبيين ، وتدين بالولاء للخليفة العباسي من خلال تلك التبعية . ومع أن حكامها الأيوبيين تمتعوا بقدر كبير من حرية التصرف ، إلا أن بلاد اليمن ظلت تشكل جزءاً أمن الدولة الأيوبية حتى وفاة المسعود يوسف بن الكامل الأيوبي سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م .

١ - موقف الأيوبيين من محاولات بني رسول السيطرة على الحجاز :-

وباستقلال نور الدين عمر بن علي بن رسول - نائب المسعود - بملك اليمن سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م دخلت بلاد اليمن في طور جديد من العلاقات العدائية مع الأيوبيين في مصر ، وأصبحت تلك العلاقات المتدهورة تمثل السمة المميزة للعلاقات اليمنية الأيوبية منذ بداية استقلال نور الدين باليمن وانسلاخها عن الدولة الأيوبية .

ولما كانت بلاد الحجاز - التابعة وقتذاك للأيوبيين - هي المعبر البري بين مصر واليمن ، فقد أصبحت محور الصراع بين هاتين القوتين . ومن ثم تحول هدف الأيوبيين من محاولة استرداد بلاد اليمن إلى العمل على استمرار تبعية بلاد الحجاز لهم ، بعد أن نجح نور الدين في نقل مسرح المعارك ليهاتأمننا لسلامة دولة .

وتراجع صلة نور الدين عمر بن علي بن رسول ببلاد الحجاز إلى أيام المسعود يوسف الأيوبي ، الذي كان قد استولى على مكة في سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م

وأصبحت تابعة له (١) ، وأتاب عنه فيها نور الدين عمر بن رسول (٢) وترك معه حامية من ثلاثمائة فارس (٣) . وقد حاول شريف مكة حسن بن قتادة استعادة نفوذه وسيطرته على مكة ، ولكن نور الدين باغته بالهجوم قبل أن يستكمل استعداداته . وهزمه وشتت جموعه وقتل من أتباعه عددا كبيرا ، وولى الشريف حسن الأدبار أمام نائب المسعود (٤) . وظل نور الدين يتوب عن المسعود في مكة حتى سنة ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م عندما استدعاه المسعود حينما اعتمر

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٨٩ - ١٩٠ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٢٤ ، ابن أبيك : درر الشيجان ص ٥٢٨ ، النويري : نهاية الأرب ج ١٧ ص ٢٣ ، أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ١٣٨ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٠ ، ابن الوردي : تاريخه ج ٢ ص ١٤٤ ، الخزرجي : المعتمد ص ٢١٦ ، العقد الفارص ج ٢ ص ١٩٤ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٢ ص ٥٥١ ، ج ٤ ص ٣٥٤ ، المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢١٣ ، الذهب المسبوك ص ٧٧ - ٧٨ ، العيني : عقد الجمان ج ٥٢ ص ٤٣٣ ، الشرفي : اللآلئ المضيئة ج ٢ ص ١٣٤ ب ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ ، الطبري : الأرج المسكي في الساريخ المسكي ، مخطوط بدار الكتب ، ص ٤٧ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٧٢ ، زيني دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٥ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩٣ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٢٩ ، حوادث الدهور ص ٣٧٤ ، المعصامي : سمط النجوم العوالي ص ٤٧٨ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٧٢ ، زيني دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٥ .

على السفر إلى مصر لزيارة والده الملك الكامل مجد ، فأنا به مع إخوته على الزين
إلى أن يعود من مصر (١) . ولما استقر رأى المسعود على ترك اليمن سنة ٦٢٦ هـ /
١٢٢٩ م ليتولى دمشق وأعمالها بعد وفاة عمه المعظم عيسى واستيلاء والده
الملك الكامل مجد عليها (٢) ، ولي نور الدين عمر على حكم اليمن نيابة عنه (٣) .
ولكن المسعود لم يكد يصل إلى مكة - في طريقه إلى مصر - حتى وافته المنية .
أحسن نور الدين استغلال فرصة وفاة المسعود لمصلحته ، وعمل على
اكتساب ثقة الملك الكامل ، ولهذا أسرع بتجهيز الأموال والهدايا والتحف
وأرسلها إليه ، تعبيرا عن إخلاصه في نيابته عنه في حكم اليمن (٤) . ونجح

(١) ابن عبد الحميد : بهجة الزمن ص ٥٠ ، الخزر جي : المسجد ص ٢١٦ .
العقود اللوائية ج ١ ص ٣٣ ، العقد الفاخر ج ٢ ص ١٤٩ ، العقد الثمين ج ٣
ص ٣٩٣ ، المقرئى : الذهب المسبوك ص ٧٨ ، ابن تغرى بردى : المنهل
الصافي ج ١ ص ٢٩ ، باخرمة : تاريخ نغر عدن ج ٢ ص ١٧٥ ، يحيى بن الحسين :
أنباء الزمن ص ٧٠ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٥٨ ، الفاسى : العقد
التمين ج ١ ص ١٧٩ ، ابن أبيك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٠٠ ، الذهبي : سير
أعلام النبلاء ج ١٣ ص ٤٠٢ ، المقرئى : الذهب المسبوك ص ٧٨ ، ابن تغرى
بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٧٢ ، الحنبلى : شفاء القلوب ص ٩٩ أ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٤٩ ، الخزر جي : المسجد ص ٢٢٢ .
العقود اللوائية ج ١ ص ٤٣ ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٣٧ .

(٤) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١٧٩ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافي

ج ١ ص ٢٢٠ .

نور الدين في إقناع الملك الكامل بطاعته ووفائه له ، فحظى بثقته وأبقاه نائباً له على بلاد اليمن ^(١) . وقد ساعد على ذلك أن الدولة الأيوبية كانت تحتاز فترة عصبية من تاريخها ، فالصراع كان على أشده بين الملك الكامل وإخوته ، مما أدى إلى ضعف الدولة وزيادة المطامع الخارجية فيها ^(٢) .

وإذا كان نور الدين قد نجح في اكتساب ثقة الملك الكامل ، فإنه نجح أيضاً في إخفاء مطامعه في الاستقلال باليمن ^(٣) ، مما ساعده على العمل تدريجياً في تنفيذ تلك المطامع ، وبدأ خطته بالعمل على إحكام السيطرة على البلاد ، فقام بعزل من يخشاه من ولاية المسعود ^(٤) ، وولي على المدن والحصون من يثق فيهم من أتباعه ^(٥) . فلما تم له ما أراد ، جاءه الأشراف الزيدية ودخلوا في طاعته وأغروه بخلع طاعة الأيوبيين والاستيلاء على اليمن ، وتحالفوا معه على تأييده ومساندته ضد الأيوبيين ^(٦) . وما أن استكمل تلك المرحلة الأولية حتى أقدم على إعلان استقلاله بملك اليمن أواخر عام ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م ^(٧) .

(١) النويري : نهاية الأرب ج ١٧ ص ٤٢ .

(٢) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٥٥ ، العيني : عقد الجمان مجلد ٥ ص ١٧٩

Wiet : L' Egypte Arabe, pp . 354 - 359 .

(٣) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ٣٧٥ .

(٤) الخزرجى : المسجج ص ٢٢٩ ، القاسى : العقد ج ٣ ص ٣٩٤ .

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل ج ١ ص ٢٣٠ ، باخرمة : تاريخ ثغر عدن

ج ١ ص ١٧٥ ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ .

(٦) الخزرجى : العقود الأثرية ج ١ ص ٤٧ .

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٤١ ، النويري : نفس المصدر =

كان نور الدين يقدر عواقب ما اجتراً على القيام به ، والمخاطر التي قد
تهدده من قبل القوى الأيوبية في مصر ، بعد أن أصبح في نظرهم مغتصباً
لجزء من دولتهم . ولهذا يادر بالعمل على تأمين دولته وحمايتها من الحملات
الأيوبية المنتظرة . ولما كانت بلاد الحجاز هي المعبر الوحيد للجيوش الأيوبية
القادمة برا من مصر ، فقد تبين له أن استمرار تبعية الحجاز للأيوبيين يشكل
خطراً دائماً على دولته ، لسهولة خطراً وصول الحملات والإمدادات الأيوبية عن
طريقها إلى اليمن ، وهذا إلى جانب وجود حامية أيوبية قوية مرابطة
فيها (١) . ولذلك كان يتحتم على نور الدين - حماية لدولته - أن يعمل على
إزالة الأخطار التي تهدده من ناحية الحجاز ، وذلك بالاستيلاء على تلك
البلاد ، أو على الأقل نقل مسرح المعارك إليها ، ونحويلها إلى خط دفاع أمانى
اليمن . ولا شك أن استيلاء نور الدين على بلاد الحجاز وسيطرته عليها من
شأنه أن يؤدي إلى امتداد نفوذه واتساع رقعة دولته ، وارتفاع مكانته في
العالم الإسلامي باعتباره حامي الحرمين الشريفين .

وبدخول نور الدين في صراع سافر ضد الأيوبيين ، يبدأ دور جديد من
التنافس على الحجاز ، فعلى الرغم من أن الظروف الصعبة التي كانت تمر بها
الدولة الأيوبية لم تكن تسمح بتوجيه الحملات لاسترداد اليمن ، إلا أن إقدام
نور الدين على انتزاع الحجاز من السيطرة الأيوبية ، قد وضعه - في اعتبار
الأيوبيين - في مصاف القوى المعادية لهم كالصليبيين والخوارجية . وهذا

= والجزء ص ٤٢ ، العرشي : بلوغ المرام ص ٤٦ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١
ص ١٤٩ .

(١) القاسبي : العقد الثمين ج ١ ص ١٧٩ .

يتقصر الأسباب التي حملت الملك الكامل الأيوبي على التحرك لمواجهة مطامع نور الدين عمر بن رسول ، فبدأ في تجهيز الحملات لضمان استمرار تبعية الحجاز له ، ووضع حدود لمطامع نور الدين واستعادة اليمن إلى الكيان الأيوبي . وكانت أولى تلك الحملات التي أرسلها الملك الكامل ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م إلى الحجاز بقيادة شجاع الدين طغتكين لتدعيم الحامية الأيوبية فيها وتمكينها من الصمود أمام مطامع نور الدين (١) .

أما نور الدين فإنه لم ينتظر حتى تدهامه القوات الأيوبية ، ورأى أن يحاربهم خيراً وسيلة للدفاع ، فبادر - بمجرد علمه بتجهيز الحملة الأيوبية - بإرسال أول حملة له بقيادة أحد كبار أتباعه ويدعى ابن عبدان وأرسل معه الشريف راجح بن قتادة (٢) - وكان من الموالين له من أشرف مكة - وأمدّها بكثير من الأموال لانفاقها على أهل مكة ضماناً لولايتهم (٣) . ومن ناحية أخرى عقد طغتكين قائد الحملة الأيوبية اجتماعاً بكبار رجالات مكة وأعيانها واستحلفهم على الوقوف بجانبه ومناصرته والإخلاص له ، وأثفق فيهم نفقة كبيرة . ولكن أهل مكة لم يلبثوا أن مالوا إلى اليمينين بمجرد مراسلة الشريف راجح بن قتادة لهم وتذكيرهم بالمعاملة الحسنة التي عاملهم بها .

(١) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ أ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ١ ص ١٧٩ ، ج ٢ ص ٣٩٥ ، شفاء الغرام ج ٢

ص ٢٠٠ ، باخرمة : ثغر عدن ج ٢ ص ١٧٦ .

(٣) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٤٣ أ ، الخزرجي : العقود ج ١ ص ٤٩ ،

المسجد ص ٢٢٨ ، ابن الديبع : قوة العيون ص ٦٦ أ ، يحيى بن الحسين :

أنبياء الزمن ص ٧١ .

نور الدين أبام ولايته على مكة من قبل المسعود^(١) . ولهذا لم يجد طفتكين بدلاً
 - أمام خذلان أهل مكة له - من الانسحاب بقواته (٢) إلى نخلة ومنها إلى
 ينبع حيث انتهى له أن يتحصن مع حاميتها الأيوبية (٣) . وكتب إلى الملك
 الكامل يبلغه بتطورات الموقف (٤) . أما القوات اليمنية فقد استطاعت
 الاستيلاء - في يسر وسهولة - على مكة في ربيع الآخر سنة ٥٦٢٩ / يناير
 ١٢٣٢ م بغير حرب لخروج قوات الأيوبيين منها (٥) .

ولم تكد الأنباء تصل إلى الملك الكامل باستيلاء قوات نور الدين بن
 رسول على مكة والتجاء القوات الأيوبية إلى ينبع حتى أسرع بتسيير حملة
 إلى الحجاز بقيادة فخر الدين بن شيخ الشيوخ (٦) وزوده بتسليحات إلى

(١) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٥٠ ، المسجد ص ٢٢٨ ، القاسي : العقد
 الثمين ج ١ ص ١٧٩ ، ج ٣ ص ٣٩٥ .

(٢) ابن أبيك : درر التيجان ص ٥٥٩ ، الأرج المسكى في التاريخ
 المسكى ص ٤٧ .

(٣) القاسي . العقد الثمين ج ٢ ص ٧٤٠ ، المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٤٤ .
 العصامي : سمط النجوم العوالي ص ٤٧٩ .

(٤) الخزرجي : العقود المؤؤوبة ج ١ ص ٥٠ ، المسجد ص ٢٢٨ .
 المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٤٤ .

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٤٣ ب ، القاسي : العقد الثمين ج ٢
 ص ٧٤١ ، شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٠٠ ، المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٤٤ .

(٦) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٤٣ ب ، الخزرجي : العقود ج ١ ص ٥٠ .
 المسجد ص ٢٢٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب ، ابن ظهرة : الجامع
 الخفيف ص ٣١١ .

كل من الشريفين أبي سعد صاحب ينبع وشيخة أمير المدينة يأمرها بالتعاون مع الحملة (١) . وغادرت الحملة مصر ، في عسكر لا يقابل كثرة ، (٢) إلى مكة ، فوصلها في رمضان سنة ٦٢٩ هـ (٣) / يونية ١٢٣٢ م . ورأى ابن عبدان منفاجأة القوات الأيوبية ، فخرج بقواته من مكة وبصحبه الشريف راجح بن قتادة ، والتجملت قواته مع قوات الأيوبيين في معركة انتهت بهزيمة ومقتله واستيلاء الأيوبيين منه على مكة (٤) ، وانتقام ابن شيخ الشيوخ من ساعد ابن عبدان من أهل مكة لخذلانهم شجاع الدين طغتكين وانضواء سفالييتهم لقوات صاحب اليمن (٥) .

لم يرض نور الدين بهزيمة قواته ، ولهذا عجل بإرسال جيش كثيف لإمداد الشريف راجح بن قتادة (٦) — الذي كانت قد تجمعت لديه شتات

(١) القاسى : العقد الثمين ج١ ص ١٧٩ ، ج٣ ص ٢٩٥ ، باخرمة : تاريخ ثغر عدن ج٢ ص ١٧١ .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن أبيك : درر التيجان ص ٥٦٠ ، كنز الدرر ج٢ ص ٣٠٩ ، المقريزى : السلوك ج١ ص ٢٤٤ .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج١ ص ٥٠ ، العسجد ص ٢٢٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب ، باخرمة : تاريخ ثغر عدن ج٢ ص ١٧٦ ، الطبرى : الأراج المسكى فى التاريخ المكى ص ٢٧ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ : القاسى : شفاء الغرام ج٢ ص ٢٠٠ .

(٦) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج١ ص ٥٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب ، باخرمة : تاريخ ثغر عدن ج٢ ص ١٧٦ ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ .

ما تبقى من جيش ابن عبدان - وأمدّه نور الدين بخزانة عظيمة من المال .
 للاتفاق منها على العسكر^(١) . وبفضل تلك الإمدادات وما احتشد لديه من
 فلول ابن عبدان زحف الشريف راجح إلى مكة فاستولى عليها^(٢) بغير قتال .
 في صفر سنة ٦٣٠ هـ^(٣) / نوفمبر ١٢٢٢ م ، بعد أن انسحبت عساكر
 الأيوبيين منها^(٤) .

واستبد الغضب بالملك الكامل عندما بلغته أخبار تنكيل ابن شبيخ الشيوخ
 بأهل مكة ، وبلغ من غضبه عليه أن استدعاه وعزله^(٥) . ولما وصلته الأنباء
 باستيلاء قوات نور الدين على مكة ، جهز حملة من سبعمائة رجل بقيادة
 علاء الدين آق سنقر الزاهدى توجهت إلى ينبع في شوال ٦٣٠ هـ^(٦) / ١٢٣٣ م .
 ومن هناك تقدمت في طريقها إلى مكة ، وقبل أن تصلها كان الشريف

(١) الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩ ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٤٩ .

(٢) ابن القوطي : الحوادث الجامعة ص ٤٢ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩ .

ص ٧٤٠ ،

De Gaury : Rulers of Mecca, p. 88.

(٣) ابن أبيك : درر التيجان ص ٥٦٠ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف

ص ٣١١ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج ٢ ص ٧٤١ .

(٥) ابن حاتم : السمع ص ٤٣ ب ، الخزرجي : العقود الواثقة ج ١ ص ١٠٠ .

ص ٥٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب .

(٦) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٤٤ ، المصامى : سمط النجوم العوالي

ص ٤٨٠ .

راجع قد خرج عنها ، فدخلها الزاهدي بغير قتال (١) ، وأحسن إلى أهلها (٢) ، وحج بالناس (٣) ، ثم ترك فيها حامية أيونية بقيادة قطب الدين ابن مجلى الذى حل محل ابن شيخ الشيوخ (٤) .

أما السلطان نور الدين ، فقد عمد إلى إعادة تزويد الشريف راجح ابن قتادة بالأموال ليستخدمها في تجميز مالدیه من عسكر الدين (٥) . وبفضل تلك الأموال أمكنه أن يزحف بقوة كثيفة إلى مكة فدخلها بعسكره (٦) في الخامس من ذى القعدة سنة ٦٣١ هـ / ٢ أغسطس ١٢٣٤ م ، بعد أن خرج منها ابن مجلى وحاميته . وهكذا تذبذب ميزان النصر والهزيمة بين صاحب الدين الرسولى وصاحب مصر الأيوبي ، ولكن كفة الدين لم تلبث أن رجحت . ومن الجدير بالذكر أنه لم يخرج في تلك السنة سوى ركب الحاج البقي (٧) .

(١) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣١١ .

(٢) ابن النوطى : الحوادث الجارية ص ٤٢ .

(٣) القاسى : العقد الثمين ج ٢ ص ٧٤٠ — ٧٤١ .

(٤) ابن أيبك : درر التيجان ص ٥٦٠ ، كنز الدرر ج ٧ ص ٣١٣ ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٤٥ ، العصامى : سمط النجوم العوالى ص ٤٨٠ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ ب ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٤٩ ، باخرمة : تاريخ نعر عدن ج ٢ ص ١٧٦ .

(٦) الخزرجى : العقود ج ١ ص ٥٤ ، المسجد ص ٢٢٩ ، القاسى : العقد ج ٢ ص ٣٩٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب .

(٧) ابن أيبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣١٤ ، درر التيجان ص ٥٦١ .

٢ - علاقة نور الدين بن رسول بالخلافة العباسية :

لم يقنع نور الدين بالسيطرة على بلاد اليمن فحسب ، وإنما نازع الأيوبيين نفوذهم على الحجاز . ولهذا عمل على استكمال شرعية حكمه بالحصول على اعتراف الخليفة العباسي به ، فقام بتجهيز هدية عظيمة أرسلها في سنة ٥٦٣١هـ / ١٢٣٤م إلى الخليفة العباسي المستنصر بن الظاهر ، طالباً تشريفه بالنيابة والتقليد بالسلطنة ^(١) ، فاستجاب الخليفة ووعده بإرسال المطلوب صحبة ركب الحاج العراقي في موسم الحج إلى عرفات ^(٢) . ولذلك توجه نور الدين في تلك السنة لأداء فريضة الحج واستقبال التشريف والتقايد ^(٣) . ولكن ركب الحاج العراقي لم يصل في ذلك العام ، لفوات الوقت في إصلاح الآبار على امتداد الطريق الموصل من بغداد إلى مكة ، بعد أن خربها عربان المنطقة ، فلما تم الفراغ من إصلاحها كان قد فاتهم وقت الحج ^(٤) ، مما اضطرهم للعودة إلى العراق . وترتب على ذلك بطبيعة الحال أن قفلس نور الدين عائداً إلى اليمن .

(١) الخزرجي : العقود ص ٥٤ ، المسجد ص ٢٢٩ ، العقد الفاخر ج ٢ ص ٦٦ ب ، القاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٢٩٥ ، ابن تغري بردي : حوادث الدهور ص ٢٧٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ .

(٢) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٥٤ ، المسجد ص ٢٢٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ ب ، الخزرجي : العقد الفاخر ج ٢ ص ٦٦ ب .

(٤) ابن حاتم : السمط ، ص ٤٣ ب ، الخزرجي : العقود ج ١ ص ٥٤ ، المسجد ص ٢٢٩ ، ابن الديبع : نفس المصدر ص ٦٦ ب .

وفي العام التالي صاحب رسول من قبل الخليفة ركب الحاج العراق ،
حامل رسالة (١) توجه بها بعد موسم الحج إلى اليمن لا بلاغ صاحبها بأن
التشريف والتقليد قد تم إرسالها من البصرة عن طريق البحر (٢) . وما كاد
التشريف والتقليد يصلان إلى اليمن برفقة رسول الخليفة حتى أقيمت مراسم
التقليد (٣) . وهكذا استمد نور الدين صلاحياته من الخليفة العباسي مباشرة ،
كما أكسب حكمه المصنفة الشرعية باعتباره تابعا للخلافة العباسية .

ومن الجدير بالذكر أنه لما توجه نور الدين إلى مكة سنة ٤٦٣١هـ / ١٢٣٤م
للاستقبال التشريف والتقليد المنتظر وصولها من بغداد ، شك الشريف راجح
ابن قتادة في الأمر وتجنب لقيامه ، كما أنه لم يؤد فريضة الحج في ذلك العام
خوفا منه (٤) . فغضب نور الدين من هذا التصرف (٥) ، ولم يعد الشريف
راجح إلى مكة إلا بعد مغادرة نور الدين لها (٦) . وترجع أسباب تخوف
الشريف راجح إلى ما كان بينه وبين إخوته من خلاف ظن الشريف أن
نور الدين هو الذي تسبب فيه وحرص عليه كقائمة الخلع راجح عن نيابته

(١) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٢) الخزرجي : المسجد ص ٢٢٩ ، العقد الفاخر ج ٢ ص ٦٦ ب ، باخرمة :
تاريخ نجر عدن ج ٢ ص ١٧٦ .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤٥ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩٥ .

(٤) ابن حاتم : السمع ص ٤٣ ب ، الخزرجي : المسجد ص ٢٢٩ .

(٥) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤٤ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩٥ .

(٦) الفاسي : نفس المصدر ج ٢ ص ٧٤١ ، ابن الذبيح : قرة العيون

له على مكة ، ولكن نور الدين أنكر ما نسبته الشريف راجح إليه (١) .

٣ - استمرار الصراع بين بنى وسول والأيوبيين حول الحجاز ، وما أسفر عنه من نتائج :

رأينا كيف بدأ التنافس بين الساطان نور الدين والساطان الكامل عهد حول السيطرة على الحجاز ، وكيف تبودات الحملات بينهما واستمرت إلى حد أنه كلما استولى أحدهما على مكة ، سارع الطرف الآخر بإرسال حملة لتهديم قواته حتى تصبح قادرة على استردادها (٢) ، إلى أن استقر الأمر في مكة لصالح نور الدين في سنة ٦٣١ هـ . وقد أثار ذلك ثائرة الملك الكامل فسير في العام التالي حملة قوامها خمسة مائة فارس (٣) بقيادة أسد مالايكه (٤) ودو أسد الدين جفري (٥) وبصحبته أربعة من أمراء الأجناد أحدهما يدعى وجه السع والثاني البندق والثالث ابن أبي زكريا والرابع ابن برطاس . فلما علم نور الدين بأمر تلك الحملة قبل وصولها ، بادر بإرسال مدد للشريف راجح

(١) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٥٥ ، المسجد ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ، ابن تغري .

بردى : المنهل للصافي ج ٤ ص ٢٩٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ أ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩٥ ، ابن تغري بردى : حوادث

الدهور ص ٣٧٥ ، العرشي : بلوغ المرام ص ٤٤ ،

De Gaury : Rulers of Mecca. p. 88 - 89 .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ أ .

(٤) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٢٥٠ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ ب ، باخرمة : تاريخ نعر عـدن ج ٢

ص ١٧٦ .

بقيادة ابن النصيري ، وأمره بالتصدي للحملة الأيوبية والصحود في وجههم ،
واجبارها على العودة دون تحقيق مساعيها في الاستيلاء على مكة . ودلى الرغام
من وصول المدد اليمني قبل مجيئ القوات الأيوبية ، إلا أن الشريف راجح
لم يتمكن من التصدي لها بسبب عدم استكمال استعداداته (١) ، واضطر إلى
الخروج من مكة وافساح الطريق أمام القوات الأيوبية لتدخل مكة من غير
قتال (٢) في رمضان سنة ٦٣٢ هـ (٣) / مايو ١٢٣٥ م .

وبذلك تخرج موقف الشريف راجح وابن النصيري ، إذ أصبحا يتحملان
تبعة إخفاقها في التصدي للأيوبيين ، وعدم تنفيذ الخطة التي أمرها السلطان
بتنفيذها ، ولهذا توجهوا إلى اليمن لإطلاع السلطان على حقيقة الموقف (٤) .
فقام بأعداد حملة أخرى في سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م بقيادة الشهاب بن عبدان -
وهو ابن قائد الحملة اليمنية الأولى - وزوده بالمال الكافي (٥) ، للاتفاق
على الحملة . وانضم إليه الشريف راجح بن قتادة ، فلما اقتربت الحملة اليمنية من
مكة فاجأها أسد الدين جفريل خارجها بالهجوم وتمكن من التغلب على
عسكر اليمن وأسر الشهاب بن عبدان قائد تلك الحملة وأرسله معتقلاً -

-
- (١) الفاسي : العقد الثمين ١ ص ١٧٩ - ١٨٠ ، ٣ ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .
(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٤ أ ، ابن أبيك : درر التيجان ص ٥٦١ .
كنز الدرر ٧ ص ٣٩٦ .
(٣) الفاسي : العقد الثمين ٢ ص ٣٩٨ ، المقرئ : السلوك ١ ص ٤٥٠ .
(٤) الخزرجي : العقود الأولوية ١ ص ٥٥ ، المسجد ص ٢٢٩ .
المقرئ : السلوك ١ ص ٢٥٠ .
(٥) ابن الدثبع : قرة العيون ص ٦٧ أ .

إلى مصر (١) .

وكان من المتوقع بعد فشل حملة الشهاب بن عبدان أن يقوم السلطان
تتور الدين على النحو الذي اعتاده بتوجيه حملة أخرى للاستيلاء على مكة ،
إلا أن الأمر اختلف هذه المرة عن المرات السابقة ، بسبب انشغاله وقتذاك
بإقرار الأوضاع الداخلية باليمن ، نتيجة لخروج زعماء الزيدية عن طاعته
واستقلالهم بالمناطق التي كان قد أقرهم عليها ، ولهذا لم يتمكن من إرسال
حملة لا تزاع مكة من الأيوبيين . وقد ساعد ذلك الموقف على استمرار سيطرة
الوالي الأيوبي أسد الدين جفرييل على مكة إلى سنة ٦٣٥ هـ / (٢) ١٢٣٨ م .
وما أن انتهى نور الدين من إقرار الأوضاع في اليمن ، حتى شرع في
تجهيز حملة من ألف فارس (٣) قادها بنفسه إلى مكة (٤) ، فلما اقترب من

(١) ابن حاتم : السمط ص ٤٥ ب ، ابن أبيك : درر التيجان ص ٥٦٢ ،
كنز الدرر ج ٧ ص ٣١٨ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٥٥ ،
المسجد ص ٢٢٩ ، الفاسي : العقد الثمين ج ١ ص ١٨٠ ، ج ٢ ص ٧٤١ -
٧٤٣ ، ج ٣ ص ٣٩٦ ، المقرزي : السلوك ج ١ ص ٢٥٣ ، باخرمة : تاريخ
قفر عدن ج ٢ ص ١٧٦ .

(٢) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٠٠ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف
ص ٣١١ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٥ ب ، الخزرجي : العقود ج ١ ص ٦١ ،
المسجد ص ٢٣٢ ، الفاسي : العقد الثمين ج ١ ص ١٨٠ ، ج ٣ ص ٣٩٦ ،
شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٠١ ، باخرمة : نفس المصدر والصفحة ، العصامي :
سمط النجوم العوالي ص ٤٨٠ ، العقيلي : الخلاف السابق ج ١ ص ٢١٥ ،

De Gaury : Rulers of Mecca, p. 88 .

(٤) المقرزي : السلوك ج ١ ص ٢٥٥ .

مشارفها ، أسرع الشريف راجح بن قتادة لاستقباله والانضمام إليه والاستئناس
في الحملة (١) . ورأى نور الدين أن من الخير له تمزيق صفوف أعدائه بشراهة
ولا هم ، ولهذا لجأ إلى استمالتهم بالمال ، وبذلك الوسيلة أصبح في إمكانه
إحداث انقسام في صفوف الأيوبيين ، فقرر لكل من ينضم إليهم ألف
دينار وفرس وكسوة ، فقال إليه بعضهم (٢) . فلما أحس أسد الدين جفري
بخطورة الموقف ، تخلص من أنفاله فأحرقها (٣) وغادر مكة بقواته (٤) ،
فدخلها نور الدين بقواته معتمرا في رجب سنة ٦٣٥ هـ (٥) / فبراير ١٢٣٨ م .
ورتب فيها حامية من مائة وخمسين فارسا (٦) تحت امره اثنين من أتباعه .

-
- (١) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٦١ . المسجد ص ١٣٢ ، القاسي : العقد
الشمين ج ١ ص ١٨٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٨ أ .
(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٥ ب ، الخزرجي : العقود ج ١ ص ٦١ ،
المسجد ص ٢٣٢ ، باخرمة : نفس المصدر والمنبعة .
(٣) ابن حاتم السمط ص ٤٥ ب ، الخزرجي : العقود ج ١ ص ٦١ ،
المسجد ص ٢٣٢ ، القاسي : العقد ج ٣ ص ٢٩٦ .
(٤) العيني : عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ٢٠٧ .
(٥) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٦٢ ، المسجد ص ٢٣٢ ، القاسي : العقد
ج ٣ ص ٣٩٦ ، شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٠١ ، العصامي : سمط النجوم العوالي
ص ٤٨٠ ، العقيلي : الخلاف الساجي ج ١ ص ٢١٥ .
(٦) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣١١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص
٦٨ أ ، باخرمة : نفس المصدر والمنبعة .

هما ابن الوليدى وابن التعزى ، وقفل عائدا إلى اليمن (١) .

أما القائد الأيوبنى أسد الدين جفريل ، فقد انسحب إلى مدينة الرسول ، فلما وصلها علم بخبر وفاة الملك الكامل مجد الأيوبنى ، فعاد بهسكروه إلى مصر (٢) مما أدى إلى استمرار سيطرة نور الدين عمر بن رسول على مكة ، ولم تتعرض حاميته فيها لأية مخاطر طويلة الفترة التى تلت وفاة الملك الكامل (سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٨ م) حتى بداية سلطنة ابنه الصالح نجم الدين أيوب (سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م) ولكن الصالح بعد أن تغاب على المشاكل التى صادفته ، وتمكن من اعتلاء عرش السلطنة الأيوبية واقصاء أخيه العادل ، لم يتردد فى صرف جانب من اهتمامه لاسترداد السيطرة الأيوبية على بلاد الحجاز ، فأرسل فى سنة ٦١٧ هـ / ١٢٤٠ م حملة من ألف فارس (٣) عهد بقيادتها إلى الشريف شيحة بن هاشم بن مهنا أمير المدينة الذى تمكن من انتزاع مكة من الحامية اليمنية بغير قتال (٤) .

(١) الخزرجى : العقود ج ١ ص ٦٢ ، المسجد ص ٢٢٣ ، الفاسى : العقد ج ٣ ص ٣٩٦ ، شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٠١ .
(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٥ ب ، الخزرجى : العقود ج ١ ص ٦٢ ، المسجد ص ١٢٣ . (كانت وفاة السلطان الملك الكامل فى ٢١ رجب ٦٣٥ هـ / ٩ مارس ١٢٣٨ م) ابن أيبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٣٠ .
(٣) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣١٢ ، ابن الديبع : قره العيون ص ٦٨ ب ، باخرمة : تاريخ نجر عدن ج ٢ ص ١٧٧ ، العصامى : سمط النجوم العوالى ص ٤٨٠ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ أ ، الخزرجى : العقود ج ١ ص ٦٢ ، المسجد ص ٢٢٣ ، الفاسى : العقد الثمين ج ٢ ص ٧٤٢ ، ج ٣ ص ٣٩٦ ، المقربى : السلوك ج ١ ص ٢٥٥ .

وكان نور الدين يعلم مدى الضعف الذي وصلت إليه الدولة الأيوبية ،
وقد قرى ذلك من عزمه على التمسك بالسيطرة على مكة والاحتفاظ بنفسه
فيها ، وفي سبيل تحقيق تلك الغاية قرر انفاذ حملة في نفس العام عهد بقيادتها
إلى كل من ابن النصيري والشريف راجح بن قتادة ، فلما علم الشريف شيحة
بإقتراب الحملة اضطر إلى مغادرة مكة فدخلها الجيش المينى واستولى عليها (١) .
لم يجد الصالح نجم الدين أيوب بدا من العمل على حسم الموقف برمته ،
لهذا فكر في توجيه حملة إلى بلاد اليمن للاستيلاء عليها ، ومن ثم تخلص بلاد
الحجاز تلقائياً له . ويؤكد هذا ، نص أورده النويرى (٢) ، جاء فيه أن
الصالح أصدر أوامره في التاسع من ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ / ٢٨ سبتمبر
١٢٤٠ م بتجهيز زردغانه وشوانى وحراريت إلى القلزم بقصد التوجه رأساً
إلى بلاد اليمن والاستيلاء عليها (٣) ، ولكن الظروف حالت دون الاستمرار
في التنفيذ ، فأوقف أمر الحملة إلى اليمن لكتفاء بالإمدادات التي أرسلها إلى
الشريف شيحة والتي مكنته من استعادة مكة في ذى القعدة سنة ٦٣٨ هـ /
مايو ١٢٤١ م من الحامية اليمنية (٤) ، وتولي الشريف شيحة أمر الحج في

-
- (١) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ أ ، الفاسى : العقد الثمين ج ٢ ص ٧٤٢ ،
ج ٣ ص ٢٩٦ ، شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٠١ ، ابن الديبع : قررة الميون ص ٦٨
بالمخرمة : تاريخ نقر عدن ج ٢ ص ١٧٧ .
(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٧١ .
(٣) العيني : عقد الجمان ج ٥٣ ص ٢٣٨ .
(٤) النويرى : نفس المصدر والصفحة . وانظر ، الطبرى : الأراج المسكى
في التاريخ المسكى ص ٤٧ .

ذلك العام (١) .

وهكذا ظلت السيطرة على مكة يتناوبها بنو رسول مرة والأبويون مرة أخرى ، إلا أن الحملة التي قادها نور الدين بنفسه سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤٢ م تعد خاتمة الحملات المتبادلة بين الجانبين والتي استمرت أكثر من عشر سنوات لتحقيق السيطرة على الحجاز . ويرجع سبب خروج نور الدين بنفسه على رأس تلك الحملة إلى أنه كان قد بعث الشريف راجح على رأس قوة من عسكره لاستعادة مكة ، غير أن الأخبار وردت إلى الشريف راجح بأن الصالح أيوب أرسل مددا لتعريض حمايته بمكة (٢) . وأدى ذلك إلى توقف الشريف راجح عن مواصلة السير بحملته ، وأرسل إلى السلطان نور الدين لإبلاغه بحالية الأمر . فرأى أن يتولى بنفسه قيادة الحملة المقبلة إلى مكة (٣) . فلما وصلت أنباء تلك الحملة الضخمة إلى مسامع الشريف شحنة خرج بالقوات الأيوبية من مكة (٤) فدخلها ابن رسول في جيشه الكبير في رمضان سنة ٣٩ هـ (٥) مارس ١٢٤٢ م .

(١) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ أ ، الخزرجي : المسجد ص ٢٢٤ ، العقود ج ١ ص ٦٥ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٢٩٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٨ ب .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ أ - ب الخزرجي : العقود ج ١ ص ٦٨ ، المسجد ص ٢٣٥ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٨ ب .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ ب ، باخرمة : تاريخ نجر عدن ج ٢ ص ١٧٧ .
(٤) الخزرجي : المسجد ص ٢٣٥ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج ٢ ص ١٦١ و ٢٤٢ ، ابن ظهير : الجامع الغايف ص ٣١٢ .

وما أن استولى نور الدين على مكة في تلك المرة ، حتى عمل على تدعيم سيطرته على الحجاز ، فشرع في منع وصول الامدادات الأيوبية لاهلها ، وتمكين قبضته على البلاد . وكانت ينبع من المعامل التي يحتفظ الأيوبيون فيها بحامية لهم ، ومن ثم كانت القوات الأيوبية التي ترغب على الدخلى عن مكة تلوذ - في كثير من الأحيان - بها إلى أن تصلهم الامدادات من مصر . ولهذا السبب قرر نور الدين الاستيلاء على ينبع - القاعدة الرئيسية للأيوبيين في الحجاز - ليمنعهم مستقبلا من تهديد ساطعانه في الحجاز . ولهذا عمل على استمالة الشريف أبي سعد صاحب ينبع ، واشترى قلعة المدينة منه ثم أمر بتخريبها^(١) . وهكذا استطاع نور الدين - بعد أن نجح في الاستقلال بملك اليمن - أن

(١) عن مطامع الخوارزمية والصليبيين في تلك الفترة ، انظر ، المقريزي : السلوك ج ١ ص ٢٢١ وما بعدها ، ابن تغرى بردى : النجوم ح ٦ ص ٢٢١ وما بعدها ، العيني : عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ٢٢٠ وما بعدها ، جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الاسلامية ج ٢ ص ١٢١ ، سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ص ١٢٣ ، الامبراطور فردريك الثاني والشرق العربي - المجلة التاريخية المصرية مجلد ١١ سنة ١٩٦٣ - ص ٢٠٦ ، السيد الباز العريفي : مصر في عهد الأيوبيين ص ١٢٧ .

Weit : L' Egypte Arabe, pp. 352, 355, 360 , 372 - 378.
Kantarowicy : Fredric the Second, pp. 185, 187, Stevenson:
The Crusaders in the East, p. 314, Grousset: Histoire des
Croisades, vol. III, p. 231. Runciman: A History of
Crusades, vol. III, pp. 169, 181, 216, 226 - 227.

يشغل الأيوبيين عن الوصول إلى اليمن وذلك بالدخول في منافسة معهم حول الحجاز . وكان للظروف القاسية التي كانت تمر بها الدولة الأيوبية أثرها في تسهيل مهمة نور الدين ، فالصراع بين أمراء البيت الأيوبي في مصر والشام على السلطنة بلغ أشده ، واستنفذ جانبا ضخما من قوى الأيوبيين ، يضاف إلى ذلك انشغالهم بالخطر الذي يهددهم من جانب الخوارزمية والصلبيين ، مما صرفهم عن التطلع إلى مشكلات تعد ثانوية بالقياس ب تلك الأخطار . وترتب على ذلك كله توقف الحملات الأيوبية الموجهة إلى مكة ، الأمر الذي أتاح للفرصة لنور الدين لبسط نفوذه وسيطرته على بلاد الحجاز .

والواقع أن الصراع اليمني الأيوبي حول الحجاز اتسم بصلابة عزم نور الدين بن رسول وإصراره على الاحتفاظ بتبعية مكة لسيطرته ، فكان كلما تمكنت القوات الأيوبية من استعادتها ، قام بتدعيم قواته إلى الحد الذي تصبح فيه قادرة على الاستيلاء عليها مرة أخرى . ولهذا تتابعت الحملات من الجانبين ودارت المعارك بين قوات صاحب اليمن من ناحية وقوات المملك الكامل ثم ابنه الصالح نجم الدين أيوب من ناحية أخرى ، وتناوب كل من الفريقين السيطرة عليها . وكانت معظم المعارك ينقمصها الحسم ، فالإمدادات الأيوبية كانت تستغرق وقتا طويلا لتصل إلى الحجاز ، في حين كان لقرب بلاد اليمن من الحجاز أعظم الأثر في تسهيل مهمة الجانب اليمني المنافس ، فكانت تزود قواتها بالإمدادات المتتابعة ، هذا إلى جانب الجهود التي كان الشريف راجع ابن قتادة يبذلها لاستخدام الكثير من أعراب الحجاز ، مما ساعد على تحقيق التفوق العددي في كثير من الأحيان . ومع ذلك فإن إعداد أى حملة مضادة كان يتم على أساس تقديرات القوة التي تركها الجانب الآخر لحماية مكة . ومن الملاحظ أنه لم يحدث أتمال بين قوات الطرفين داخل مكة ، إذ كلما أحسست

الحامية المراقبة في مكة بترب وصول حملة مضادة عمدت إلى الانسحاب من مكة والتخلي عنها في معظم الأحوال ، فتدخلها قوات الطرف الآخر بغية حرب ، وربما اشتبكت معها في قتال يتم عادة خارج مكة ، تعظيما من الجانبين المتحاربين لحرمتها .

٤ - أعمال نور الدين عمر بن علي بن رسول في مكة :-

كان نور الدين مصلحا من كبار المصلحين ، اهتم بأعمال البر والتعمير في مكة منذ أن كان يتولاها نيابة عن المسعود بن الكامل ، ففي سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م قام بهارة المسجد الذي اعتمدت منه السيدة عائشة رضى الله عنها (١) وهو مسجد الهليلجة - نسبة إلى شجرة هناك - الذي بنى في التنعيم (٢) ، كما عمر دار الخليفة أبي بكر في زقاق الحجر (٣) . وفي سنة ٦٣١ هـ / ١٢٢٤ م - أثناء صراعه ضد الأيوبيين - أرسل إلى الشريف راجح بن قتادة بقتاديل من الذهب والنفضة ليعلقها بالكعبة بدلا من تلك التي استباحها بنو قتادة أثناء صراعهم ضد أخيه الشريف راجح (٤) .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١ ص ٧٢ ، حوادث الدهور ص ٣٧٤ ، المنهل الصافي ج ٤ ص ٢٦٧ .

(٢) الترمذى - روالى : الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ٤٥٤ ، محمد حسين هيكل : في منزل الوحي ص ٢٦٥ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ج ٨ ص ٧٢ ، حوادث الدهور ص ٣٧٤ ، المنهل الصافي ج ٤ ص ٢٦٧ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٤٤ أ ، الخزر جى : العقود ج ١ ص ٥٥ ، المسجد ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٤ ص ٢٩٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٧ أ .

ولما استقرت مكة تحت سيطرته سنة ٩٣٩ هـ / ١٢٤٢ م قام بعدة إصلاحات فيها ، فأبطل المكوس والجبايات والمظالم ^(١) ، وكتب بذلك مربعة علقته على زمزم في مقابلة الحجر الأسود ^(٢) ، كما أنشأ المدرسة المنصورية - نسبة إليه - بجزار مدرسة الزنجيلي في الجانب الغربي من المسجد الحرام ^(٢) ، كما عمر رباطاً بمكة ^(٤) .

وقبل عودة نور الدين إلى اليمن ، استناب علي مكة بمملوكه فيخر الدين ليأس الشلاح ^(٥) ، وجعل الشريف أباسعد بن علي بن قتيادة بالوادي مساعد لعسكره ، وظل نواب نور الدين علي مكة أكثر من سبع سنوات كانت كلها - علي حد قول مؤرخي اليمن - سني خير علي أهلها ، فبنوا الدور وعمرؤا القصور ، واقتنت نسائهم الحلى من الذهب والفضة . وكان نور الدين يبعث إليهم كل عام بالمصدقات ^(٦) ، كما قام نوابه علي راحة الحجيج وخاصة بالنسبة للشخصيات البارزة ، ففي سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٤ م ، توجهت

(١) الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩٧ ، شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٢٧ ، ابن تغري بردي : حوادث الدهور ص ٢٧٥ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ ب ، الخزرجي : العقود ج ١ ص ٦٩ ، المسجد ص ٢٢٥ ، يا مخزومة : نغردن ج ٢ ص ١٧٨ .

(٣) ابن تغري بردي : المنهل ج ٤ ص ٢٦٩ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ ب ، الخزرجي : المسجد ص ٢٠٩ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ ب ، الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٠١ .

(٦) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجي : المسجد ص ٢٣٦ .

والدة الخليفة المستعصم بالله العباسي لأداء فريضة الحج ، فاستقبلها فيخر الدين
بالشلاح نائب السلطان نور الدين وقام على خدمتها ، كما أرسل إليها السلطان
هدية عظيمة (١) .

ومن أشهر الأحداث التي وقعت في عهده ، تلك الرياح العاصفة التي هبت
على مكة في سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م (٢) وأدت إلى نزاع بكسوة الكعبة
وتزيينها ، وأصبحت الكعبة بغير كسوة ، وزال عنها شعار السواد ، فكان
تلك فألا على زوال الدولة العباسية (٣) . فلما حاول نائب صاحب اليمن
كسوتها ، منعه شيخ الحرم العفيف منصور بن منعة البغدادي ، ولم يسمح له
بكسوتها ، بحجة أن ذلك لا يكون إلا من مال الخليفة ، وقام شيخ الحرم
بافتراض مبلغ ثلاثمائة دينار اشترى بها ثيابا من القطن وصبغها باللون الأسود
وركب عليها الطرازات القديمة وكسا بها الكعبة (٤) بعد أن كانت تكسى

(١) ابن خاتم : نفس المصدر والصفحة ، الخرجي : نفس المصدر
والصفحة .

(٢) ذكر القامعي هذه الحادثة سنة ٦٤٣ هـ في حين أورد أنه وجدها بخط
الميورقي سنة ٦٤٤ هـ (تحفة الكرام - مخطوط منصور بدار الكتب رقم
١٣٨١٣ ج - ص ٤٧ أ) وكذلك أوردتها العيني في حوادث سنة ٦٤٤ هـ
مؤيدا بذلك الميورقي (عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ٢٨٥) .

(٣) قال العيني بأن هذه الكسوة كانت قد عتقت ، لأنها لم تجد منذ عام
٦٤٠ هـ لعدم وصول ركب الحاج العراقي من قبل الخليفة (عقد الجمان
مجلد ٥٣ ص ٢٨٥) .

(٤) العيني : نفس المصدر والصفحة ، الرشيدى : حسن الصفا والآبهاج
مخطوط بدار الكتب رقم ٥٥٨٧ تاريخ ص ٤١ .

يالدنياج الأسود (١) .

ولقد حافظ نور الدين بن رسول على تبعية مكة له ، واستمر يقيم عليها
نوابه حتى وفاته (٢) في التاسع من ذي القعدة سنة ٦٤٧ هـ (٣) ١٣ / فبراير
١٢٥٠ م . وكان نور الدين قد استعجاب في أواخر عهده لأحد أتباعه وهو
شمس الدين محمد بن المسيب ، وولاه على مكة في سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٩ م بدلا من
فخر الدين إياس السلاج ، وكان ابن المسيب قد ألزم له بأداء مبلغ مئتين من المال
ومائة من الخيل سنويا (٤) ، بالإضافة إلى تكفله بالنفقة على مائة من الجنود (٥) .
ولكنه لم يكند يصل إلى مكة حتى طمع في الاستبداد بأمرها ، وأساء إلى
سيده بما قام به من إعادة الجبايات والمكوس التي كان السلطان نور الدين قد
أسقطها عن أهل مكة ، واقتلع النائب المربعة الخاصة بذلك ، والمثبته قبالة
الحجر الأسود (٦) . ولم يتوقف عند هذا الحد وإنما استولى على ما كان

(١) الفاسي : تحفة الكرام ص ٢٧ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٢٩٧ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف

ص ٣١٢ ، باخرمة : تاريخ نجر عدن ج ٢ ص ١٧٨

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٩ ، الخزرجي : العقود ج ١ ص ١٠٠

٨٢ - ٨٣ ، المسجد ص ٢٤١ - ٢٤٢ ، الفاسي : العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩٨

ابن تغري بردي : حوادث الدهور ص ٣٧٥ ، المنهل الصافي ج ١ ص ٢٣٠

ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٠ ب .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٤٧ ب .

(٥) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٧٧ ، المسجد ص ٢٣٩

ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٩ ب .

(٦) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٠١ .

يرسله ساططانه من صدقات إلى فقراء مكة . وبني لنفسه حصنا على جبل أبي قبيس واخفى نخلة ، وجمع أموالا طائلة ، وامتنع عن الإتيان على الجند ، فتفرقوا عنه ، وعاد معظمهم إلى اليمن . واستغل الشريف أبو سعد حسن بن علي ابن قتادة فرصة ما قام به ابن المسيب وانتقله في شهر ذي القعدة ٦٤٧ هـ (١) / فبراير ١٢٥٠ م ، واستولى على ماله من أموال وغيرها . ولما ظهر بمظهر الولاء والاخلاص لسلطان اليمن . استحضر شيخ الحرم وأعيان مكة والمجاورين وأشهدهم بأنه لما قام بهذا العمل لتأكده من اعزاز ابن المسيب الخلفاء والحرب بما تجمع لديه من الأموال إلى العراق ، وتعهد الشريف أبو سعد بالتحفظ على ماصداقه منه حتى يأتيه أمر السلطان نور الدين فيقوم بتنفيذ ما يأمره به . غير أن الأنباء لم تأت أن وردت بمقتل نور الدين (٢) .

١١١١ : العلاقات اليمنية مع مصر والحجاز في عهد المظفر يوسف :-

١ - استغلال بني قتادة بفتح مكة :

ساعات الأحوال الداخلية في اليمن بعد مقتل نور الدين عمر بن علي بن رسول ، وشغل ابنه المظفر يوسف في حروب داخلية ، بذل فيها قصارى جهده للمظفر بالسلطنة ، والدفاع عن عرشه ضد الطامعين فيه ، فصرف قسما كبيرا من جهوده في التخلص من منافسيه من بني رسول ، والقضاء على

(١) الفاسي: نفس المصدر ج ٢ ص ٢٣٧ ، الطبري : الأراج المسكي في التاريخ المكي ص ٤٨ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٧ ب ، الخزرجي : العقود ج ١ ص ٧٨ ، المسجد ص ٢٣٩ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ج ٣ ص ٥٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦١ ب .

المطامع الزيدية ، والعمل لتمكين سطوته على البلاد (١) .

وفي مصر ، فشلت المحاولات الأيوبية المتكررة للاحتفاظ ببلاد الحجاز ، نتيجة لانقسام البيت الأيوبي في مصر والشام ، واشتداد النزاع فيما بينهم ، وتحالف أمراء الأيوبيين في الشام ضد الملك الكامل الذي اضطر بدوره إلى التحالف مع الصليبيين . وقد أتاح ذلك الفرصة لتلك القوى المعادية للعمل على تحقيق مطامعها في السيطرة على أجزاء من الدولة الأيوبية ، مما ترتب عليه تصدع بناء تلك الدولة ثم انهيارها وسقوطها في النهاية في سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م ، وقيام دولة المماليك البحرية على أنقاضها .

وقد اشتغل سلاطين دولة المماليك البحرية بالعمل على تثبيت سيطرتهم والدفاع عن دولتهم الناشئة ضد القوى المعادية في الداخل والخارج ، كما كان لاستفحال الخطر المغولي في أعقاب سقوط الخلافة العباسية في بغداد في صفر ٦٥٦ هـ / فبراير ١٢٥٨ ، ومصرع الخليفة المستعصم بالله ، وتهديد هولاكو ببلاد الشام ومصر ، أكبر الأثر في تخرج موقف السلطان المملوكي ، إذ وقع عليه عبء مواجهة ذلك الخطر الداهم . وقدر للسلطان المظفر قطز بانتصاره

(١) انظر ما سبق ص ١١٧ وما بعدها .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٩٧ ، ابن أبيك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٨٦ ، المقريزي : السلوك ج ١ ص ٢٧١ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٩٧ .

على قوى المغول في عين جالوت في سنة ٥٨٨ هـ / ١٢٦٠ م (١) أن يزيح هذا الخطر نهائياً عن الشام ومصر ، ويخلص البلاد من مصير تهس كان من الممكن أن يقترن بمصائر الدول الإسلامية الآسيوية التي اجتاحتها جحافل المغول .

وفيما يتعلق بمكة ، فمن المعروف أن إمرتها ظلت في بني هاشم إلى ولاية الشريف مكث بن عيسى بن فليته الحسني (٢) ، ثم انتقلت بعد وفاته في سنة ٥٩٧ هـ إلى الشريف أبي عزيز قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم الحسني (٣) . وتتابع بنو قتادة على حكم مكة إلى أن استولى عليها المسعود ابن السكامل صاحب اليمن في سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م ، وعندئذ خرجت مكة عن حكم بني قتادة ، وأصبحت تابعة للتوى المسيطرة عليها - مصر أو اليمن -

(١) ابن أبيك : كنز الدرر ج ٨ ص ١٧ ، المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٤٠٢ و ٤٢٦ ، ابن تغري بردي : النجوم ج ٧ ص ٥٠ و ٧٦ و ٨١ ، العيني : عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ٣١٤ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ١٨٣ .

(٣) الفاسي : نفس المصدر ج ٢ ص ٥٤٩ ، شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٨ - ١٩٩ ، المقرئزي : السلوك ج ١ ص ١٦٢ حاشية ٢ ، القلقشندي : صيغ الأعيان ج ٤ ص ٢٦٧ - ٢٧٥ ، Hogarth : History Arabia , p . 82 ,

Wensinck : Art . Mecca & Katada in ENC . of Islam .

(ويذكر الفاسي أن ولاية مكة آتت إلى قتادة سنة ٥٩٧ هـ على ما ذكره الميورقي ، وفي سنة ٥٩٨ هـ على ما ذكره الذهبي في العبر ، أو سنة ٥٩٩ هـ حسب رواية ابن محفوظ) العقد الثمين ج ٤ ص ١٨٣ ، شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٩ .

وتولى لامرتها نواب من قبل القوى المسيطره الى أن استقرت تبعيتها لبني رسول سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤٢ م ، وظل نواب نور الدين بن رسول يمثلونه فيها حتى وفاته في سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م ، عندما أقدم الشريف أبو سعد حسن بن علي بن قتادة على اعتقال ابن المسيب والاستئثار بإمرتها بعد أن بلغه نبأ مقتل صاحب اليمن نور الدين بن رسول . ومما لاشك فيه أن الظروف التي كانت تمر بها كل من اليمن ومصر كان لها أثرها العميق في تشجيع بني قتادة على الاستقلال بمكة وما يليها جنوباً ، في حين سيطر الحسينيون أشرافه المدينة على الجزء الشمالي من الحجاز (١) .

وباستقلال الشريف أبو سعد حسن بن علي بن قتادة بإمرة مكة ، بدأت المنافسات بين بني قتادة على إمارتها ، فتوجه الشريف جواز بن حسن بن قتادة إلى الملك الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي صاحب دمشق وحلب وطلب مساعدته ضد خصومه ، في مقابل ذكر اسمه في الخطبة ، وأمدّه الناصر يوسف بمحملة تمكن بفضلها من الاستيلاء على مكة (٢) في شوال سنة ٦٥٩ هـ (٣) / نوفمبر ١٢٥٣ م ، وقتل واليها الشريف أبا سعد (٤) . وما أن تم

(١) Bukhardt : Travels in Arabia , vol . II , p : 277 .

(٢) ابن تغري بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ٩ .

DeGaury ; op . cit . pp . 86 , 92

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٦٣ أ ، الخزرجي : العقود ج ١ ص ١٠٦ ، ابن تغري بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ٥٥ .

(٤) ذكر القاسي أن مقتل أبي سعد حدث في شعبان وقيل في رمضان .
(شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٠١) .

له ذلك حتى نكث بعده لصاحب حلب ، وخطب لصاحب اليمن المظفر يوسف (١) . ومع ذلك فلم يقدر له الاستمرار في حكم مكة ، إذا استطاع الشريف راجح بن قتادة - حليف بني رسول - انتزاع ولايتها منه (٢) في ذي الحجة سنة ٦٥١ هـ (٣) / يناير ١٢٥٤ م . إلا أن ابنه غانم بن راجح لم يلبث أن خرج عليه وتمكن من الاستيلاء منه على مكة في ربيع الأول (٤) ٦٥٢ هـ / أبريل ١٢٥٤ م ، وذلك بتعريض من الشريفين لأدريس بن قتادة وأبي نعيم ابن أبي سعد بن علي بن قتادة ، فلما نجح في تنفيذ خطتها وأزاح أباه عن الحكم ، تأمرأ عليه وانتزاعها منه واشتركا معا في حكمها (٥) .

وهكذا عمل أشرف مكة - وعلى الأخص بعد سقوط الخلافة في بغداد - على تثبيت سيطرتهم والاستقلال بحكمها ، وقد بلغ من سطوتهم أنهم لم يذكروا اسم الخليفة العباسي على منابر مكة بعد إحياء الخلافة في مصر على يد الظاهر بيبرس (٦) .

(١) ابن تغري بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ٩ ، زيني دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٧ .
De Gaury : Rulers of Mecca , p . 92 .

(٢) القاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٠١ .

(٣) القاسي : نفس المصدر والعمدة .

(٤) الخزرجي : العقود ج ١ ص ١١٥ ، المسجد ص ٢٦٣ ، القاسي : العقد الثمين ج ٢ ص ٧٤٢ ؛ شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٠١ ، زيني دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٧ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٦٥ ب ، القاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٠٢ .
الطبري : الأراج المسكى ص ٤٨ .

(٦) Arnold : The Caliphate, pp' 100 - 101 .

كان للصراع الفاتم بين أشراف مكة ، واضطراب الأحوال فيها ، أثره العميق في قيام المظفر يوسف - بعد أن تخلص من مشاكلكه الداخلية - بإرسال حملة من ثلاثمائة فارس بقيادة مبارز الدين بن برطاس إلى مكة في ذي القعدة سنة ٦٥٢ هـ / ديسمبر ١٢٥٤م لإقرار الأوضاع فيها وإعادة لها إلى سيطرة بني رسول . فلما علم الشريفان إدريس وأبو نعيم بذلك استعجدا بالشريف جواز ابن شبيحة صاحب المدينة وخرجوا في خمسمائة فارس لمقاتلة ابن برطاس (١) ، ولكن المعركة التي دارت بين الطرفين خارج مكة انتهت لصالح ابن برطاس وهزيمة الأشراف ومقتل عدد كبير من أتباعهم ، واستولى ابن برطاس على مكة وحج في ذلك العام بالناس (٢) .

فلما انتهى موسم الحج كان الأشراف قد تمكنوا من حشد جموع كثيفة زحفوا بها سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥م إلى مكة وحاصروا ابن برطاس فيها ، وتمكنوا من دخولها من جهة الجبال المحيطة بها (٣) . وكاد النصر يتحقق للمرة الثانية لابن برطاس لولا أن تفرقت قواته وانشغلت بالغنائم ، مما أتاح الفرصة لانتصار الأشراف ، ووقوع ابن برطاس أسيراً ، فافتدى نفسه بخمسة آلاف دينار وعاد إلى اليمن (٤) .

ويغلب على الظن أن السلطان المظفر قد وفق بعد ذلك في إقامة قاعات

(١) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٢) الخزرجي : العقود ج ١ ص ١١٥ ، العسجد ص ٢٦٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ ب .

(٣) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٩٩ - ١٢٠ ، العسجد ص ٢٦٦ .

(٤) الخزرجي : العقود ج ١ ص ١٢٠ ، العسجد ص ٢٦٦ ، ابن الديبع :

قرة العيون ص ٦٧ ب ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ج ١ ص ٩٣ - ٩٤ ،

De Gauy : op. cit., p. 92.

طيبة مع أشرف مكة ، ذلك أنه لما استولى التتار على بغداد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وقضوا على الخلافة العباسية فيها ، تولى المظفر يوسف سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م أمر الحرم الشريف (١) وعمارته وإقامة منائره وخدمته ، والانفاق على قورمته (٢) .

وفي سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م توجه السلطان المظفر يوسف لأداء فريضة الحج (٣) في حشد كبير من أهل اليمن وأعيانها ، فلما اقترب من مكة فر الشريهان أدريس وأبونمي خوفا منه ، فدخلها المظفر حاسر الرأس متمرا (٤) في الرابع من ذي الحجة (٣٥ أكتوبر) ، ونزل في المدرسة المنصورية التي أنشأها أبوه (٥) . واغتنم فرصة وجوده بمكة ليقوم ببعض أعمال البر والإحسان ، فتصدق بأموال طائلة (٦) ، وقد بلغ من كثرتها أن شملت جميع أهل مكة والحبييج على اختلافهم ، كما أنعم علي أدل الحرم والحاج المصري بصفة خاصة (٧) ، وقام بغسل الكعبة بنفسه وطيبها ونثر عليها

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦٨ ب .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٢٨ ، المسجد ص ٢٧١ .

(٣) الذهبي : تاريخ الاسلام ج ٣١ ص ١٥٥ .

(٤) الخزرجي : العقود ج ١ ص ١٣٤ ، المسجد ص ٢٧٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٧ ب .

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٧٠ ب .

(٦) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ٩ ، ٢ .

Jomier : Le Mahmal et la Caravane, p. 80.

(٧) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٧١ أ ، الخزرجي : العقود ج ١ ص ٣٤ .

٣٥٠ . المسجد ص ٢٧١ .

الذهب والفضة (١) . وكسا الكعبة ، فكان أول من كساها بعد سقوط
 الخلافة العباسية ببغداد (٢) ، وتكرر قيامه بكسوتها في سنوات أخرى (٣) ،
 إذ أرسل في سنة ١٢٦١هـ / ١٢٦٣م كسوة الكعبة وأخرى للضريح النبوي (٤)
 كما قام في سنة ١٢٦٦هـ / ١٢٦٨م بتحلية باب الكعبة بالذهب والفضة على يد
 نجم الدين حسن بن التزى (٥) ، ثم كسا الكعبة مرة ثالثة في سنة ١٢٧١هـ /
 ١٢٧٣م على يد قاسم بن محفوظ (٦) .

٤ - تطور العلاقات اليمنية المصرية بين المظفر يوسف وناظر جيهرس :

ارتفعت مكانة السلطنة المملوكية في العالم الاسلامي بما حققته من انتصار
 ساحق على قوى التتار في عين جالوت ، وبمناسبة ذلك الانتصار قام المظفر
 بقطر بإرسال كتبه إلى سلاطين المسلمين يبشرهم فيها بانتصار المماليك للساحق

(١) الفاسي : نفس المصدر والجزء والصفحة ، المقرئ : الخطط ح ١
 ص ٢٠٢ ، الذهب المسبوك ص ٢٨٤ .

(٢) الفاسي : نفس المصدر والجزء والصفحة ، تحفة الكرام ص ٢٧ ب ،
 المقرئ : الخطط نفس الجزء والصفحة ، الذهب المسبوك نفس الصفحة .

(٣) الفاسي : تحفة الكرام ، نفس الصفحة .

(٤) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٧٢ أ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ح ١
 ص ١٤١ ، المسجد ص ٢٧٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٧ ب .

(٥) ابن حاتم نفس المصدر ص ٧٦ أ ، الخزرجي : العقود ح ١ ص ١٦٩ ،
 المسجد ص ٢٨٠ .

(٦) الخزرجي : العقود ح ١ ص ١٧٤ ، المسجد ص ٢٨٣ .

على التتار ، وكان السلطان الرسولي من بين من أرسل لهم قطز بالبشارة ^(١) .
 فلما تولى بيبرس عرش السلطنة المملوكية سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م كتب
 بذلك إلى الملوكة وفي جملتهم المظفر يوسف صاحب اليمن ^(٢) . وكان الظاهر
 بيبرس يحظى باحترام سلطان اليمن وتعظيمه لما عرف عن دوره البطولي في
 عين جالوت ، فكان ذلك من بين الأسباب التي جعلت السلطان الرسولي يسعى
 إلى توثيق علاقته السياسية بمصر ، ويتجلى ذلك من أحد موافقه ، فعندما
 حج في سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م حدث عندما حان وقت الوقوف بعرفات أن أمر
 بأن ترفع أعلامه مضمونه إلى أعلام مصر ، فلما اعترض بعض أتباعه وطلب من
 المظفر تقديم أعلامه رفض قائلاً : « أتراني أؤخر أعلام ملك كسر التتار
 بالأمس » ^(٣) . فكان ذلك التصرف من المظفر فاتحة لصفحات جديدة من

(١) القلقشندي : صبيح الأعشي ص ٧٠ - ٣٦٠ - ٣٩٢ ، أحمد مختار
 العبادي : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام - بيروت ١٩٦٩ - ص
 ٢٦٩ - ٢٧١ . (ويذكر القلقشندي أن الملك المظفر قطز أرسل كتاباً بالبشارة
 بهزيمة التتار إلى صاحب اليمن ، وهو يومئذ المنصور ، غير أن السلطان
 المنصور وهو نور الدين عمر بن علي بن رسول توفي سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م
 قبيل سقوط الدولة الأيوبية في مصر بعدة أشهر ، ولم يعاصر المماليك ،
 ويرجع سبب وقوع القلقشندي في هذا الخطأ إلى أخذه هذا الكتاب من
 أفواه بعض الناس . وقد يقصد بالمنصور السلطان المظفر يوسف إذ أن من
 ألقابه (أبو المنصور) .

(٢) العيني : عقد الجمان ص ٥٤٨ - ٤٥٨ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٧١ أ ، الخزرجي : العقود ص ١٤٨ - ١٣٤ ،
 المسجد ص ٢٧٥ ، العبادي : نفس المراجع ص ١٦٨ .

العلاقات الودية مع دولة المماليك في مصر ، وبدأت منذئذ السفارات والهدايا
تتردد بين البلدين ، ففي سنة ١٢٦٤ هـ / ١٢٦٦ م وصلت رسالة اليمن إلى مصر
« بمراكب موسقة » (١) . كما وصلت هدية أخرى إلى مصر في سنة ١٢٦٦ هـ /
١٢٦٨ م تشتمل على تحف كثيرة (٢) من الخيل والفيلة والحمر الوحشية (٣) ،
وغير ذلك مما جرت به العادة كالمسك والعنبر والنفثيات وغيرها ، فقبالت
الهدية ، وأعطى رسول صاحب اليمن من الرسوم المستحقة على ما كان معه من
البهار (٤) .

ومما يروى بمناسبة تلك الهدية الأخيرة ، أن والده السلطان المظفر
أرسلت - مع هدية ابنها - كمية من البهار لانفاق قيمتها على المجاهدين ، وأمر
ببهرس يديعها . ويذكر ابن الفرات أن السلطان اشترى بجزء من قيمتها جملة
من المنجنيقات عندما عزم على الغزو ، واستخدم المتبقى في فدية بعض
الأسرى (٥) . فلما تم إرسال المظفر للعودة ، جهز السلطان ببهرس مهمهم
سنجقا وخامة وشعار السلطنة إلى المظفر الرسول (٦) ، كما أرسل إليه - بناء

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ١١ ص ٩٦ أ ، وانظر
المقريزي : السلوك ج ١ ص ٥٤٣ .

(٢) عقد الجمان : ج ٥ ص ٥٤٥ ، مجد جمال الدين سرور : دولة بني
قلاوون في مصر ص ١٢٩ .

(٣) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٥٦٣ .

(٤) ابن الفرات : نفس المصدر ج ١٠ ص ١٢ ب .

(٥) ابن الفرات : المصدر والجزء والصفحة .

(٦) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٥٦٣ - ٦٥٤ ، العيني : نفس المصدر
والمجلد والصفحة .

على طلبه - قميصه أمانا له ، بالإضافة إلى بعض آلة الحرب . وكتب إليه قائلا : « قد سيرنا لك آلة السلم والحرب مما لاصق جسدنا في مواطن الجهاد . وأرسل إليه بعض الطيور الجارحة ، ورسم بأن يكاتب بالمقام العالي المولوى السلطاني ، وكاتبه السلطان ، بالملوك » . وتوجه رسوله إلى اليمن بالمكاتبات والهدايا صالحة رسل اليمن العائدين سنة ٨٦٦ / ١٢٦٨ م (١) .

وبينما كانت الصلوات الودية تزداد وثافة يوما بعد يوم بين بنى رسول والماليك ، كانت الصراعات تشتد والحروب تتقدم بين الأشراف من بنى قتادة منذ استعادة سيطرتهم على مكة سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م واستقلالهم بحكمهم عن اليمن ومصر ، وترجع أسباب تلك الصراعات إلى مطامع زعماء بنى قتادة ورغبة كل منهم في الانفراد بإمرتها (٢) ، مما أدى إلى عدم استتباب الأمن وانتشار الفوضى في ربوع الحجاز ، وتعرض أهل مكة والمجاورين للنهب والقتل ، ولم يسلم من ذلك الحجاج والتجار (٣) وخاصة في واسم الحج .

ومما كان يزيد الموقف اشتعالا ، استئثار الشريف الحاكم بالسلطة ، واستحواذه على الهبات والأموال وعائدات الضرائب ، وغير ذلك من

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك - ١٢ ص ١٢ ب ، (وما يذكر أن رسول يبرس توفي في اليمن بعد أن قام بتسليم المكاتبات والهدايا) ابن حاتم : السمع ص ٧٦ أ ، الخزرجي : العقود ج ١ ص ١٦٩ ، المسجد ص ٢٨٠ .

De Gaury : Rulers of Mecca, ١p. 93, 94, 100

(٢)

De Gaury : op. cit., p. 99 .

(٣)

الموارد التي كانت تحصل في موسم الحج أو على مدار السنة ، في حين كانت
 رغبة الأشراف من أهل بيته أن يلتزم بمشورتهم ، ولا يتصرف في أمر إلا
 بموافقتهم ، وأن يقتسم موارد البلاد معهم . ولهذا كان الخارجون على
 شريف مكة — من أسرته — يعمدون إلى الاستعانة بالقوى المحيطة ، سواء
 في مصر أو اليمن أو العراق (١) أو الخفصيين بتونس (٢) ، وطلب المعونة
 العسكرية منهم ليتمكنوا من الوصول إلى الحكم ، في مقابل التلويح بذكر
 اسم من يساعدهم في الخطبة على المنابر ، كوسيلة الاغراء (٣) مما أدى إلى
 تورط تلك الدول في دائرة الصراعات ، وبالتالي فساد علاقاتها فيما بينها (٤) .

والأمثلة على ذلك كثيرة تقتصر هنا على ما يتعلق بالعلاقات اليمنية المصرية ،
 التي لم نلبث أن تأزمت نتيجة للصراع بين أشراف مكة . فقد كان الشريفان

(١) الفاسي : شفاء الغرام ص ٢ ص ٢٢٦ .

(٢) أحمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى ص ١٩٣ - ١٩٥ ،

دراسات في تاريخ المغرب ص ١٢٩ .

(٣) الفاسي : نفس المصدر والصيغة

De Gaury : op. cit., pp 94 - 95 .

(٤) لقد باخ من شدة الصراعات واستمرارها بين أشراف مكة وما يتعرض
 له المسلمون من أضرار بسببها أن فكر أحد سلاطين المماليك في القضاء
 نهائيا على الأشراف واستئصال شأفتهم . ولكن العلماء تصدوا له وأقنعوه
 بالعدول عن ذلك لما للأشراف من شرف الانتساب إلى الرسول باعتبارهم

من سلالته . (المقرئى : السلوك ص ٢ ص ٣٢٩ ،

De Gaury :

op. cit., p. 100) .

إدريس بن قتادة وأبو نعيم بن أبي سعد بن علي بن قتادة شريكين في حكم مكة منذ استوليا عليها سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م. وفي سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م تمكن أبو نعيم من طرد شريكه وانفرد بحكم مكة (١)، وأرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يبرر فيها موقفه من إدريس، مدعياً أنه إنما لجأ إلى هذا التصرف عندما تأكد له ميل لإدريس إلى سلطان اليمن، وأنها - أي الشريف إدريس والسلطان المظفر - تحاملا على دولة السلطان الملك الظاهر (٢).

وقد تكون رسالة أبي نعيم سبباً مباشراً توجه الظاهر بيبرس إلى الحجاز في سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م. إذ لم يكن ذلك في برنامجه على الإطلاق، بدليل أنه لم يصرح بذلك لدى خروجه من القاهرة في طريقه إلى الكرك، وأغلب الظن أن تلك الرسالة وصلت به بعد خروجه من القاهرة، إذ لم يلبث أن خرج من الكرك إلى الشوبك ومنها سلك طريقه عبر سيناء إلى الحجاز (٣). فلما وصل إلى مكة، كان الشريف أبو نعيم قد صالح شريكه إدريس وأعادته معه إلى الإمارة (٤). فلما وصل الظاهر بيبرس استقبلاه استقبالا حافلا.

(١) القاسمى : شفاء الغرام - ٢ ص ٢٠٢ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك - ١٢ ص ٤٥ ب ، العيني : عقد الجمان مج ٤ ص ٥٥٤ .

(٣) أبو الفدا : المختصر - ٤ ص ٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية - ١٣ ص ٧٥٤ ، ابن حبيب : درة الأسلاك في دولة الأتراك - مخطوط رقم ٦١٧ ح : بدار الكتب - ١ ص ١٢١ ، المقرئى : السلوك - ١ ص ٥٨١ ،

De Gaury : Rulers of Mecca, p. 93 .

(٤) القاسمى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

وسجل بيبرس أثناء مقامه بالحجاز كثيرا من أعمال البر والخير ، وتصدق
 بكثير من الأموال وأنعم بالكساوى على أهل الحرمين (١) ، وخاصة أمراء
 الحجاز باستثناء أميرى المدينة لقرارها عند وصوله إلى الحجاز وتجنبها استقباله
 خوفا منه (٢) كما عمل على إزالة الخلافات القائمة بين شريفى مكة (٣) وكتب
 لكل منها منشورا بالاشتراك فى الولاية (٤) ، وخصص لها عشرين ألف درهم
 سنويا نظير العمل على تيسير الحج وعدم فرض أى مكس على الحجاج .
 وعدم التعرض للتجار ، وأن تكون الخطبة والسكة باسمه . وسلم الأوقاف
 الموقوفة على الحرم فى مصر والشام لنوابها (٥) ، وعين معها - وبناء على
 طلبها - نائبا له فى مكة ، يكون الحل والعقد على يديه (٦) ، وقام بالإضافة

(١) المقرئى : السلوك نفس الجزء والصفحة .

(٢) القاسى : نفس المصدر والجزء ص ٢٤٠ ، المقرئى : نفس المصدر
 والجزء والصفحة .

(٣) De Gaury : op. cit. p. 93 .

(٤) المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ٥٨٢ .

(٥) المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ٥٧٩ ، سعيد عاشور : العصور
 المملوكية ص ٢٣٠ ،

Jomier : Le Mahmal et la Caravan e Egyptienne, p. 210 .

(٦) المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ٥٨٢ . (يبدو أن شريفى مكة
 قصدا من وراء وجود نائب للسلطان معها ، ضمان عدم تجديد النزاع بينهما
 وأن يأمن - من جهة أخرى - بتواجده معها ، مطامع منافسيها ، واكتسب
 ثقة السلطان ورضائه عنها من جهة ثالثة) .

إلى ذلك بكسوة الكعبة (١) ، وهكذا استرجعت مصر سيادتها على الحجاز وأصبح تنصيب وعزل ولاتها من اختصاص السلطان المملوكي .

ولم يغفل بيبرس ما نقل إليه من تدخل المظفر الرسولي في شئون الحجاز ، فأرسل إليه كتابا ينكر عليه فيه ما بلغه عنه من تصرفات - وبما ورد في ذلك الكتاب قوله : « سطرتها من مكة المشرفة ، وقد أخذت طريقها في سبع عشرة خطوة » ، (ويعني بالخطوة المنزلة) وقال له ، إن الملك هو الذي يجاهد في الله حق جهاده ، ويبذل من نفسه في الذب عن حوزة الدين . فإن كنت ملكا فأخرج والتق بالتتار (٢) .

ومن الواضح أن خطاب بيبرس اتسم بالقوة والتجريح ، فقد أكد فيه حدود مصر وسلاطينها في الذب عن الإسلام والجهاد في سبيل الله ، وتحمل عبء الدفاع عن أراضي الإسلام ضد غزوات الطامعين والأعداء . أو فيما يتعلق بما نسبته أبو نعيم أبي المظفر يوسف ، فمن المعتقد أنه كان محض افتراء ، قصد بونعيم به إفساد مائلا على العلاقات اليمينية المصرية من تحسن ، وإدخال الطرفين في صراع يمانل ماحداث حول الحجاز في أواخر العصر الأيوبي ، ليحقق لأشراف مكة الحصول على مكاسب من الجانبين إذا ما قامت الحرب بينهما . ويؤيد هذا الرأي ، ما سبق أن أوضح من أمثلة

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٥٧ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام - بيروت ١٩٧٢ - القسم الأول ص ١٥٢ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدولة والملوك ج ٢ ص ٦٣ أ ، المقرئى : السلوك

تعبير عن تعظيم السلطان المظفر للسلطان بيبرس ، عندما رفض تقديم الأعلام
اليمنية على أعلامه في عرفات عند قيامه بالحج سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م (١) ، لا شيء
إلا تقديرا لجهاده في سبيل الاسلام .

وتضمنت المصادر عن الإشارة إلى رد الفعل الذي أحدثته رسالة بيبرس
لدى المظفر ، ويغلب على الظن أنه لم يسكت على تلك الاتهامات وأنه كتب
إلى بيبرس موضحا له الموقف ، بما يؤكده عدم صحة ما نقله الشريف أبو محمد
إليه ، أو أنه استطاع - بما عرف عنه من ذكاء وتبصر بالأمور - الحفاظ على
العلاقات الودية مع بطل من أعظم أبطال الإسلام ، كما أنه ليس من مصابحته
ولا من صالح بلاده أن يعرض بلاده لمخاطر الغزو الخارجي ، في وقت كان
الخطر الزيدى قد اشتد في الداخل .

ويذكر الخزرجي (٢) أن المظفر أرسل إلى مهمل خمسمائة فارس ، مشاركة
من بلاده في الجهاد ضد الصليبيين مع تحمل كافة نفقاتهم (٣) ، هذا بالإضافة
إلى ما كان يرسله إلى سلطان مهمل من صنوف الهدايا والتحف (٤) . غير
أن الخزرجي - لم يحدد تاريخ إرسال تلك القوة . وإذا سلمنا بصحة ذلك الخبر
الذي انفرد به الخزرجي لعدم إشارة المصادر المصرية المعاصرة إليه - فن المرجح
أن ذلك تم ردا على كتاب بيبرس ، وإثباتا لحسن نوايا المظفر ، ثم حفاظا على
العلاقات الودية بين القطرين الشقيقين ، هذا بالإضافة إلى الرغبة الصادقة في

(١) انظر ما سبق ص ٣٦٧ .

(٢) الخزرجي : العقود - ١ ص ٢٧٩ ، المسجد ص ٣١٤ .

(٣) ابن الدبيح : قرة العيون ص ٨٢ أ .

(٤) الخزرجي . العقود - ١ ص ٢٧٩ ، المسجد ص ٣١٤ .

مشاركته أهل مصر في الجهاد ضد البغاة والعداة من المغول والفرنجة على السواء .

ونستدل أيضا على عودة العلاقات الودية بين اليمن ومصر من تلك السفارات والهدايا المتبادلة بين البلدين . فابن الفرات يذكر أن سفارة يمنية وصلت إلى القاهرة في ذى الحجة من سنة ٦١٩ هـ / يولية ١٢٧١ م بحملة بالهدايا والتحف الثمينة وغيرها (١) ، وتكرر ذلك منه سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٧٦ م وكان الظاهر ييمرس يرحب بتلك السفارات ، ويعمل من جانبها على الرد عليها ، فيأمر بتجهيز الهدايا السنوية وإرسالها صحبة رسل اليمن لدى عودتهم إلى بلادهم (٢) .

ومن مظاهر تحسن العلاقات اليمنية المصرية تجاوز الصلات السياسية إلى تبادل الخبرات بين اليمن ومصر في كافة المجالات المعروفة وقتئذ ، منها على سبيل المثال الاستجابة لما طلبه الساطعان المظفر الرسولي من الساطعان الظاهر ييمرس بشأن إرسال طيب إلى اليمن للاستعانة به في انقضاء على وباء ظهر بمدينة ظفار من بلاد عمان (٣) .

(١) ابن الفرات : نفس المصدر والجزء ص ٨٣ ، المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ٥٩٥ ، محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ص ١٢٩ ، سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٣٢ .

(٢) ابن الفرات : نفس المصدر ص ١٣ ، ص ٣٠ ، المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ٦٢١ .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ١ ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

ومن الجدير بالذكر أن العلاقات الودية التي سادت بين اليمن ومصر تجاوزت حدود البلدين ، فقد استغل يكونو أملاك ملك الحبشة (١٢٧٠ - ١٢٨٥ م) الصداقة القائمة بين المظفر الرسولي والسلطان بيبرس ، وأرسل رساله سنة ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م إلى السلطان المظفر بكتب موجهة إلى السلطان المملوكي بيبرس ليتولى المظفر بدوره إرسالها إلى مصر تأييدا لطلبه لإرسال مطران من مصر إلى الحبشة المرتبطة بالكنيسة المصرية . وكان أول ما فعله المظفر أنه حجز رسل ملك الحبشة لديه وكتب مع رسالة ملك الحبشة رسالة يخبر فيها الظاهر بيبرس بالأمور^(١) . وقد تعهد صاحب الحبشة في رسالته لبيبرس بإرسال الهدايا وأنه سيأبى كل ما يطلبه السلطان الملك الظاهر بيبرس ويرسله إلى السلطان المظفر ليتولى بدوره إرساله إلى مصر ، ضمانا لعدم تعرض المطلوب للنهب مثلما حدث في مرة سابقة^(٢) .

ويتضح مما سبق أن العلاقات اليمنية المصرية في عهد المظفر الرسولي والظاهر بيبرس كانت في جملتها طيبة ، وقد حرص المظفر على استمرار ارتباطه بتلك العلاقات الودية مع خلفاء بيبرس .

٣٠ - سياسة المماليك في البحر الأحمر وأثر ذلك على العلاقات مع اليمن :

اهتم سلاطين المماليك بعد أن استقرت دعائم دولتهم بشئون البحر الأحمر ،

(١) ابن عبد الظاهر : تشرىف الأيام والعصور - القاهرة ١٩٦١ - ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك - ص ١٦ أ - ١٧ أ ، القلقشندي : صبيح الأعشى - ص ٤٠ - ٤٢ .

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام - ص ٢٩٣ - ١٢٤ ، ابن أبيك : كنز الدرر - ص ١٨٧ - ١٨٩ .

هم هدف بسط نفوذهم السياسى والاقتصادى والدينى على الدول المطلة على سواحلها ، وتأمين الملاحة فيه بقصد انعاش الحركة التجارية ، وحماية المقدسات الاسلامية وتيسير الحج على المسلمين .

ومن المعروف أن البحر الأحمر كان يعد منذ أقدم العصور الطريق البحرى الرئيسى الذى يربط الشرق تجاريا بالغرب ، والشريان الحيوى الهام المتحكم فى التجارة العالمية عبر حقبة التاريخ . وكان التنافس قائما منذ القدم بين هذا الطريق وطريق بحر عمان (الخليج الفارسى) على وجه الخصوص فتزداد أهمية أحدهما على حساب الآخر ، وفقا للظروف القائمة والقوى المتعصبة فى كل منها .

فمع قيام الدولة العباسية ، كان طبيعيا أن تزداد أهمية طريق الخليج باعتباره أقرب الطرق المائية المؤدية إلى ساحل الابله فرضة البصرة ، حيث تحمل السلع عبر المجرى المائية فى دجلة والفرات إلى دار الخلافة والمراكز التجارية بالعراق ، ولكن هذا الطريق أخذ يفقد أهميته تدريجيا منذ أن فقدت الخلافة العباسية هيبتها ، وسرى الضعف فى كيانها ، وبوجه خاص بعد أن افتقدت مصر الأمن بانتشار القرصنة فيه ، مما ساعد على استعادة البحر الأحمر لمكانته الملاحية . ومن الجدير بالذكر أن استئناف النشاط البحرى فى البحر الأحمر ، وجه اهتمام المسؤولين فى مصر إلى أهمية تأمين الملاحة فيه ، حماية للتجارة وحفاظا على سلامة المسافرين فيه من الحجاج إلى بر الحجاز . وليس أدل على ذلك من اهتمام الفاطميين بتخصيص أسطول من خمس سفن المراقبة بميناء هيداب لحماية مراكب الكارم من اغارات القراصنة (١) .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٤ ، السيد عبد العزيز سالم :

تاريخ البحرية الاسلامية ص ١٥٧ - ١٥٨ .

وبقيام الدولة الأيوبية ازداد الاهتمام بالبحر الأحمر كمسند أساسي من سياسة صلاح الدين . ومن أجل توحيد الجبهة الإسلامية ، وإحكام السيطرة على البحر الأحمر ^(١) ، استولى صلاح الدين على اليمن سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م ^(٢) . كما فرض سيطرته على الحجاز ، واستولى على قلعة أيلة التي كان الصليبيون قد اتخذوا منها قاعدة لانتهاك حرمة المقدسات الإسلامية ، فكانت للقلعة يستولى على أصلها ، ومشاعر الله يسكنها غير أهلها ، ^(٣) . فلما كانت المحاولة الصليبية التي قام أرناط بها بهدف الاعتداء على المقدسات الإسلامية سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م استطاع صلاح الدين اتخاذ الاجراءات التي أدت إلى إحباط تلك المحاولة الدنيئة . وواصل الأيوبيون جهودهم بعد صلاح الدين لإحكام السيطرة على البحر الأحمر ، فكانت قطع أسطولهم تمخر عباب هذه البحر إلى الحجاز واليمن وغيرهما ^(٤) .

ومع قيام دولة المماليك البحرية في مصر ، شغل أول سلاطين تلك الدولة

(١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٢٨ .

(٢) عن الفتح الأيوبي ، انظر ، عهد عبد العال : دولة بني أيوب في اليمن .

(٣) أبو شامة : الروضتين ص ١٠٤ - ٢٤٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ص ٢٨٦ - ٤٩٣ .

(٤) أبو شامة : ص ٣٩ - ٣٧ ، الذهبي : دول الاسلام ص ٦٦ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ص ٦٤٨ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٣٠٣ ، الخزرجي : المسجد ، ص ١٨٨ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٤٨٨ ، النويري : نهاية الأرب ص ٣١ ص ٤٠ ، المقرئ : السلوك ص ٧٤ - ٧٦ .

بالعمل على تثبيت أركانها ، والتخلص من الأخطار الخارجية التي كانت تهددها ، لاسيما خطر التتار الذين اجتاحتوا دار الاسلام وأسقطوا الخلافة العباسية ببغداد سنة ١٠٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، وهددت جميعاً بلاد الشام ومصر (١) .

ويمكننا القول بأن انتصار المماليك الحاسم على قوى التتار في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ (٢) / ١٢٦٠ م وتوقف المد المغولي وانحساره في أعقاب ذلك الانتصار ، كان من أهم العوامل التي رفعت من قدر دولة المماليك البحرية في العالم الاسلامي . ثم تبوأ تلك الدولة مكانتها المرموقة وتقدم مركزها ، ولم تلبث أن تزعمت العالم الاسلامي منذ وفق السلطان الظاهر بيبرس في احياء الخلافة العباسية بالفاخرة . وقد أصدر الخليفة العباسي تقليدا للظاهر بيبرس بالبلاد الاسلامية وما ينضاف إليها (٣) ، وهي : « الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكريّة والحجازية واليمنية والقراتية وما يتجدد من »

(١) المقرئى : السلوك ١ ص ٤٠٩ - ٤١ ، ابن تغرى بردى : النجوم ص ٧٥ ، سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ص ٣٠ ، العصر المماليكى ص ٢٧ ، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ص ٢١٨ .

Browne ; A litrary History of Persia, vol. II, p. 43, D'Ohsson: Histoire ds Mongols, vol. III, pp. 256-257, Streck (M.) ENC. of Islam, art. Baghdad, Barthold : ENC. of Islam, art. Hnslagu

(٢) المقرئى : السلوك ١ ص ٤٣٠ - ٤٣١ ، سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٣٤ ، العصر المماليكى ص ٣٥ - ٣٥ . الأيوبيون والمماليك ص ٢٢٢ ، الحركة الصليبية ص ٢٨ ص ١١٢٧ .

(٣) المقرئى : السلوك ١ ص ٤٥٠ .

الفتوحات ، (١) .

وعلى هذا النحو يمكننا القول بأن المماليك كانوا قد شغلوا عن الاهتمام بالبحر الأحمر ومشكلات مكة والمطامع اليمنية في الحجاز ، لفترة ركزوا خلالها على الصراع مع بقايا البيت الأيوبي من جهة ، وبالجهاد المقدس ضد التتار والمرنج من جهة ثانية ، وشجع التقليد الخليفي للسلطان المملوكي القيام بواجبه في السيطرة على الحجاز ، وحماية الحرمين الشريفين وتيسير الحج ، وهذا ما قام الظاهر بيبرس بتحقيقه عندما قام بأداء فريضة الحج سنة ١٠٧٧ هـ / ١٢٦٩ م حيث تمكن من استعادة مكانة مصر في تلك البلاد . كما كان عليه أن يبسط سيطرته على اليمن أو على الأقل يربطها برابطة الولاء لدولة المماليك في مصر ، ويتمثل ذلك في العلاقات الطيبة التي سادت بين مصر واليمن في عهد كل من بيبرس والمظفر . وكان على الظاهر بيبرس لتحقيق تلك السياسة أن يسيطر على البحر الأحمر ، ويجعل منه بحيرة مملوكية ، وأن يعمل على تأمين موانئه وسواحله ، لتنشيط الحركة التجارية فيه ، وشرع في تنفيذ تلك السياسة بإعادة طريق الحج البري عبر سيناء (٢) ، وسلك بنفسه ذلك الطريق لأداء فريضة الحج سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م ، ثم عمد إلى تأمينه من

(١) المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ٤٥٤ .

(٢) كان هذا الطريق قد بطل استخدامه طوال فترة الحروب الصليبية ، واستعمل طريق عيذاب بدلا منه . (جاستون فييت : المواصلات في مصر في العصور الوسطى ص ١٨ - ٥٠ ، أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية في مصر والشام ص ٢٦٣ ،

طريق تعمیر قلعة السويس (١) ، لتكون قاعدة حربية للدفاع عن حدود مصر الشرقية ، ومنطلقا للحملة إلى بلاد الحجاز إذا ما استدعت الأحوال ذلك .

ومن الجدير بالذكر أن إعادة استخدام طريق سيناء لم يتم على حساب ميناء عيذاب (٢) فقد وجه لكل منها نصيبه من الاهتمام ، وحرص على تأمين طريق عيذاب البرى المؤدى إلى مكة عبر البحر الأحمر ، من غارات البدو والبيجة سكان المنطقة ، عن طريق حملاته المتواصلة عليهم ، إلى أن أعاد الأمن لى السالكين عبره . وإلى جانب تأمين الطريقين البريين ، عمل بيرس على

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٢ .

(٢) كان ميناء عيذاب من أهم الموانئ المصرية فى البحر الأحمر ، وذلك بالرغم مما كان يعانيه المسافرون فيه من مخاطر ، إلا أنه كان أكثر أمنا ، ويؤدى إلى ساحل الحجاز واليمن (كتاب الاستبصار ص ٨٧ ، ابن جبير : الرحلة - تحقيق حسين نصار - ص ٢٧ وما بعدها) وكانت عيذاب قد أصبحت - منذ العصر الفاطمى - المركز الرئيسى لتجارة الهند واليمن والحبشة . (المقرئى : الخطوط ج ١ ص ٣٥٦ ، السيد عبد العزيز سالم . البحرية الإسلامية ص ١٥٦) وعلى الرغم من العودة إلى استخدام طريق سيناء ، فإن ميناء عيذاب لم يفقد أهميته إلا بعد انتعاش ميناء الطور بعد سنة ٥٧٨/١٣٧٨ م . (القلقشندى : صبح الأمشى ج ٣ ص ٢٤٣ و ٤٦١ و ٤٦٨ - ٤٦٩ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام ص ١٥٧) وانتهى أمر عيذاب تماما عندما قام السلطان برسباى بتخريبها سنة ٨٣٠/١٤٢٦ م .

(Depping (G.B.) : Histoire du Commerce entre le levant et l'Europe, Paris, 1830, T.I, pp. 53 54).

تأمين الملاحة في البحر الأحمر، فانتهاز فرصة تعرض صاحبي سواكن ودهلك للتجار في سنة ٨٦٢/١٢٦٤م، واستنكر بادی، ذی بدء هذا العمل منها^(١)، ثم لم یتردد بعد ذلك بعامین فی تسيير حملة إلى سواکن تمكنت من الاستيلاء عليها وإقرار الأمور فيها^(٢)، ونستدل بما ذكره المقریزی علی أن هذه المدينة ظلت خاضعة لمصر بدلیل أنها واصات دفع الزكاة فی سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م. أما جزيرة دهلك، فقد عمل حکامها علی التقرب إلى الممالیک وتحسين علاقاتهم معهم تجنباً لمطامع بنی رسول فی الیمن^(٣).

واستكمالاً لإحكام السيطرة علی البحر الأحمر أرسل الظاهر بیبرس أسطولا^(٤) من خمس سفن إلى میناء عیذاب لتأمين الملاحة فی هذا البحر علی النحو الذی كان معمولاً به أيام الفاطمیین.

وهكذا أصبح البحر الأحمر بحيرة مصرية، وبفضل ذلك أمکن سیاسیا

(١) المقریزی : السلوك ج١ ص ٥٠٦.

(٢) Rene Bassot : Art. "Dahlak" in the ENCY. of Islam.

(٣) Lane-Poole ; The History of Egypt. p. 264.

(٤) ومما یذكر أن الممالیک اهتموا بدور صناعة السفن، وقام الظاهر بیبرس ببناء دار الصناعة فی سنة ٨٦٧/١٢٧٢ وتبعه الأشرف خلیل الذی أنشأ أسطولا قویاً سنة ٨٩٢/١٢٩٣م، ثم الناصر محمد بن قلاوون الذی أنشأ أسطولا آخر سنة ٨٧٠/١٣٠٣ واستمر اهتمام الممالیک بعد ذلك بأمر البحيرة. (المقریزی : السلوك ج١ ص ٦٠١، المخطط ج٢ ص ١٩٤ - ١٩٥، المبادئ : البحرية ص ٢٢٠).

(٤) القلقشنندی : صبیح الأعشی ج٣ ص ٥٢٤.

مد النفوذ المصري إلى الأراضي الوانعة على سيفه ، كما أمكن من الناحية الدينية ، السيطرة على الحجاز وحماية المقدسات الإسلامية وتسهيل تأدية فريضة الحج للمسلمين ، ومن الناحية الاقتصادية ، أدت سيطرة مصر على البحر الأحمر وتأمين الملاحة فيه إلى انتعاش التجارة الشرقية ، وجنت مصر من وراء ذلك مكاسب ضخمة .

٤ - دور اليمن في ازدهار طريق البحر الأحمر :

كان موقع اليمن الاستراتيجي في الركن الجنوبي الغربي من جزيرة العرب وتحكمها في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، أعظم الأثر في قيامها بدور رئيسي وبارز في تجارة هذا البحر . وكانت عدن أهم ثغور اليمن وأعظم مركز تجاري في المحيط الهندي ، فهي المرسى الرئيسي لبلاد اليمن^(١) ، تتردد عليها سراكب الهند^(٢) والسند والصين^(٣) وكرمان وفارس وعمان^(٤) . وعلى الرغم من قدم عدن في التاريخ العربي ، إلا أن أهميتها في الإسلام

(١) ابن بطوطة : تحفة النظار - مصر ١٩٣٨ - ص ١٥٩ ،

Kammerer : La Mer Rouge, T.I, p. 66.

(٢) أبو الفدا : تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ ، ص ٧٨ .

(٣) ابن الوردي : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، القاهرة ١٣٠٩ ،

ص ٥٦ .

(٤) الدمشقي : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، لينزج ١٩٢٣ ،

ص ٢١٦ .

بدأت تنضج منذ قيام دولة بني زياد^(١) حيث أخذت في الازدهار ، وأصبحت مقصد أهل اليمن ومنتجماً لهم ، فأقبلوا على الاستقرار فيها وتعميرها ، وقصدتها مراكب الهند والصين^(٢) . وعلى الرغم من حصانتها الطبيعية ، فإن بني زريع^(٣) حرصوا على تدعيمها بسور^(٤) ، وأصبحت لذلك من أمنع البلاد وأحصنها^(٥) ، ولم يكن لعدن مدخل إلا من جانب واحد^(٦) . فإما خضعت لدولة بني أيوب ، قام عثمان الزنجبيلي نائبهم على عدن بإنشاء أسوار أخرى في مواضع متعددة منها^(٧) . كما اهتم بميناء عدن وحرص على تدعيم وتنظيم

(١) حكمت دولة بني زياد اليمن من سنة ٤٢٤ هـ إلى ٤٠٩ هـ / ٨١٩-١٠١٨ م
(٢) انظر ، عمارة : تاريخ اليمن ص ٢ وما بعدها ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١١ وما بعدها ، باخرمة : تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ٢١٥ ، عهد عبد العال أحمد : دولة بني أيوب في اليمن ص ١٠ وما بعدها ،

Kay : Yaman, p. 255

- (٢) باخرمة : تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ٩ .
(٣) كانت دولة بني زريع في عدن (٤٦٧ - ٥٦٩ هـ / ١٠٧٥ - ١١٧ م)
انظر ، محمد عبد العال أحمد : دولة بني أيوب في اليمن ص ٢٥ وما بعدها .
(٤) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ج ١ ص ١٢١ ، باخرمة : تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ١٠ .
(٥) ابن الأثير : : الكامل ج ١١ ص ١٧٨ .
(٦) ابن بطوطة : الرحلة ج ١ ص ١٥٩ .
(٧) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ج ١ ص ١٢٨ ، باخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١٠ و ١٤ و ٤٧ - ٤٨ .

العمل فيه ، فانتعشت الحركة التجارية واستقر الأمن في المدينة . وأدى ذلك إلى زيادة العمران المدني وانتعاش الحركة التجارية في الأسواق وتدفق الراغبون في سكناها من مختلف المناطق^(١) ، ويعبر ابن الجاور عن ذلك بقوله : وغالب سكان البلد عرب مجمعة من الاسكندرية ومصر والريف والعجم والفرس وحضارم ومقادشة وجبالية وأهل ذبحان وزبالع ... وحجوش . وقد التأم إليها من كل بقعة ، ومن كل أرض ، وتمولوا فصاروا أصحاب خير ونعم^(٢) . . . ، بخلاف الوافدين الذين كانت إقامتهم قاصرة على فترة الموسم التجارى فيما بين أغسطس وابريل من العام التالى^(٣) .

وكان النظام المتبع في ثغر عدن لاستقبال المراكب ، أن يقدم موظف يطلق عليه « الناظور » برصد المراكب القادمة من أعلى الجبل^(٤) . فإذا رست

(١) ابن الجاور : نفس المصدر والجزء ص ١٣٠ ، باخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١٠ و ١٤ - ١٥ ، ٤٩ .

(٢) ابن الجاور : نفس المصدر والجزء ص ١٣٤ ، باخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٥٤ .

(٣) Hunter : An Account of British Settlement - of Aden. pp. 41 43.

(٤) كان الناظور يقوم برصد المراكب القادمة ، وقت الشروق والغروب حيث يساعد شعاع الشمس المعتد على سطح الماء على الرؤية ، فإذا ملاح له شئ على صفحة الماء قام بقياس ذلك ورصده يعود معه . فإذا كان طائرا تحرك عن موضعه ، أما إذا ظل ثابتا مستقيما تأكد له أنه مركب ، وعندئذ يصبح بأعلى صوته « هيرا » - وهي صيحة يقصد بها الإعلان عن وصول مركب ليتم الاستعداد لاستقبالها - فإذا صدقت رؤيته منح دينار =

المراكب في الميناء. تقدم نائب السلطان إليها ، وقام أحد موظفي الدewan بتفتيش الرجال بدقة ، أما النساء فقد كانت تخصص لتفتيشهن امرأة (١) ، ثم يتم تفريغ جمولة السفن ونقلها إلى القرصة (٢) . ويصف ابن المجاور ما كان يعانيه التجار عند وصولهم إلى عدن من متاعب ، فيقول : « وخرج الإنسان من البحر كخروجه من القبر ، والقرصة كالمحشر ، فيه المناقشة والمحاسبة والوزن والعدد ، (٣) وكان يبع تلك البضائع يتم عن طريق دلال ، متسايل

من كل مركب ، ولذا كان غير ذلك عوقب بالضرب . فإذا اقتربت المركب استقبلتها السنابك وصعد موظفوا الميناء إليها لمعرفة اسم الناقوذة والسند النادم منه ، وحصروا أسماء التجار وبيان ما تحمله المركب من أصناف ، وتعود السنابك بالبيانات للوالى ، ومن ثم ينتشر المبشرون في المدينة لتبشير أهل من وصل . (انظر ، ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ، ج ١ ص ١٣٨ - ١٣٩ : بالمخرمة : تاريخ نهر عدن ج ١ ص ٥٦ - ٥٨) .

(١) كانت عملية التفتيش يتم في المراكب ، وكان المفتش يتولى تفتيش الرجال واحدا واحدا ويصل التفتيش إلى العمامة والشعر والكمين وحزة السراويل ، وتحت الأباط والضرب على الحجرة واللايتين . أما النساء فكانت تمتد يد المعجوز في أعجازهن و (ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ج ١ ص ١٣٩ ، بالمخرمة : تاريخ نهر عدن ج ١ ص ٥٨) .

(٢) القرصة ، هي المكان الذي كان يتم فيه فحص البضائع الواردة ، وتقدير العشور عليها (بالمخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١٤) .

(٣) ابن المجاور : نفس المصدر ص ١٢٨ ، بالمخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٤٨ .

بموجب دلائل نقدية وأحياناً عينية ، بواقع ١٪ من قيمتها يتحملها المشتري (١) .
 فإذا ماتم البيع وعزم التجار على السفر كان لزاماً عليهم الحصول على تصريح
 بالمفادرة من الوالى بعد التأكد من خلوصهم من المديونية ، مع التزام ضمان
 يتحمل ماقد يظهر عليهم بعد ترك البلاد ، فإذا لم يتوفر الضامن نودى في
 المدينة للاعلان عن سفر المعلن عن اسمه ، حتى يتقدم من له ديون عليه
 بالاستخلاصها ، ثم يسمح له بالسفر بعد سدادها أو لعدم وجود ديون عليه (٢) .

وكان يتم تحصيل العشور بميثاء عدن إلى جانب رسوم أخرى ، كرسوم
 المفرضة والشواني وغيرهما . وكانت الرسوم تختلف من سلعة لأخرى ، كما كانت
 بعض السلع الضرورية تعفى من العشور (٣) .

وكان الاهتمام الشديد بتأمين التجارة والعمل على اجتذاب السفن إلى
 عدن ، دافعاً على القيام بإرسال الشواني لحراسة السفن التجارية في المحيط
 الهندي وحمايتها وتأمينها من لغارات القراصنة . والأيوبيون في اليمن هم أول
 من سن هذا التقليد ، إذ لم تكن الشواني تستخدم قبلهم لهذا الغرض . فلما فتح
 تورا نشاه بن أيوب اليمن ، احتفظ بما كان معه من شواني ، كما كان يتم

(١) بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٦٧ ،

Huart (C.) : Histoire des Arabes T: I, p 115 .

(٢) ابن الجاور : نفس المصدر والجزء ص ١٤٦ ، بامخرمة : نفس المصدر

الجزء ص ٦٧ .

(٣) انظر ، ابن الجاور : نفس المصدر والجزء ص ١٤٠ وما بعدها ،

بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٥٨ - ٦٣ .

الاحتفاظ بعد ذلك بمعظم ما كان يصلهم منها بصحبة الإمدادات الأيوية لليمن^(١) وكان سيف الاسلام طغتكين بن أبوب أول من أمر بانقاذ الشوانى إلى المحيط لحماية التجار من القراصنة (٢) .

ويبدو أن تلك الشوانى توقفت بعد ذلك عن القيام بمهامها ، مما أدى إلى تعرض السفن التجارية للاخطار ، كما حدث سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٥ م عندما توقفت السفن عن الوصول إلى عدن ، الأمر الذى دعا الأتابك سنقر - نائب الأيوبيين فى اليمن - إلى القيام بتجهيز الشوانى مرة أخرى سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٦ م لتأمين السفن ، وقد بلغت تلك الشوانى فى جولاتها بالمحيط حتى بلديات قلعات حيث تمكنت من إعادة الأمن فى طريق السفن إلى عدن (٣) . ولم تكن السلطات الأيوية فى اليمن تفرض رسوما إضافية على السفن التجارية أو التجار مقابل ما كانت تتكلمه من نفقات الحراسة ، باعتبار أن حراسة تلك السفن كان يدخل فى نطاق الواجبات الملقة على حكومة اليمن . واستمر ذلك إلى أيام المسعود يوسف آخر الأيوبيين فى اليمن ، والذى قام سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م بفرض رسم اضافى لتغطية ما تنفقه الدولة عليها بواقع ١٠٪ من قيمة العشور فكان مقدار المحصل من التجار نظير هذا الرسم يتراوح ما بين الخمسين والستين .

(١) ابن حاتم : السمط ص ٣ ب ٣٦ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٤٨ أ - ب ، النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ص ٤٠ ، الخزرجى : العسجد ص ١٨٩ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٤ - ٧٦ ، ابن أيبك : درر التيجان حوادث سنة ٦١١ ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٨ ، ٥٤ .
(٢) ابن الجاور : صفة بلاد اليمن ج ١ ص ١٤١ ، بامخرمة : تاريخ نجران عدن ج ١ ص ٦١ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٢٨ ب .

ألف دينار سنويا . واستمرت تلك الرسوم تفرض على التجار إلى أن بطل استعمال الشواني في سنة ١٢٢٥ هـ / ١٢٢٨ م ، وبطل معها ما كان يفرض من رسوم بسببها (١) .

وكانت عدة السفن التجارية التي تصل إلى نجر عدن في أواخر العهد الأيوبي في اليمن تتراوح ما بين سبعين وثمانين مركبا ، بلغ مقدار العشور المحصلة عن بعضها ثمانين ألف دينار . وكانت تلك الأموال المحصلة ترسل سنويا من عدن إلى السلطان في نجر في أربع خزان تحتوى كل واحدة منها على ما يقدر بمائة وخمسين ألف دينار أو يزيد (٢) . في حين لم تتجاوز كل منها في عهد الصليبيين المائة ألف دينار (٣) .

وإذا كان نجر عدن قد اجتذب كثيرا من السفن التي تمرر المحيط الهندي (٤) فقد بدأت أهميته تقل منذ بداية دولة بني رسول ، نتيجة للسياسة

(١) ابن الجاور : صفة بلاد اليمن ص ١ ص ١٤١ - ١٤٢ ، بانخرمة : تاريخ شهر عدن ص ٦١ - ٦٢ .

(٢) ابن الجاور : نفس المصدر والجزء ص ١٤٤ و ١٤٥ ، بانخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٦٥ .

(٣) عمارة : تاريخ اليمن ص ٤٨ ، ابن الجاور : صفة بلاد اليمن ص ١ ص ١٢٤ - ١٢٢ ، بانخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٤١ ، العرشي باوغ المرام ص ٢٧ ، الواسعي تاريخ اليمن ص ١٦٥ .

(٤) ابن الجاور : نفس المصدر والجزء ص ١٤٤ و ١٤٥ ، بانخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٦٥ .

التي انتهجها نور الدين عمر بن رسول ، الذي احتكر عمالة شراء السلع التجارية
بالأسعار والأوزان التي يحددها ، ثم يتولى نوابه بيعها بأثمان باهظة وأوزان
تنقص عن تلك التي اشتراها بها ، فحقق بذلك أرباحاً طائلة ، في حين تكبد
التجار خسائر جسيمة^(١) ، فكان ذلك دافعا للتجار على التحول عن عدن إلى
طريق الخليج ، كما تأثرت التجارة من ناحية أخرى بظروف الصراع الذي
نشبت بين نور الدين والأيوبيين في مصر ، مما كان له أعمق الأثر على حركة
تجارة العبور في البحر الأحمر .

فلما تولى المظفر يوسف السلطنة بعد أبيه في اليمن ، اهتم منذ اللحظة
الأولى بأمر عدن ، وقام بزيارتها في صفر سنة ٦٤٨ هـ / مايو ١٢٥٠ م ، وذلك
على الرغم من أنه لم يكن قد استكمل بعد السيطرة على بلاده ، ويغلب على
الظن أنه رفع بعض المظالم عن التجار ، بدليل أنهم حملوا إليه الكثير من الهدايا
والتحف والأموال . ومما يذكر أن متحصلات ثغر عدن التي تسلمها المظفر
يوسف من واليها بلغت خمسمائة ألف دينار^(٢) .

وعلى هذا النحو بدأت عدن تزدهر من جديد في عهد المظفر الرسولي^(٣)
كما أثمرت جهوده التي بذلها من جانبه في تدعيم الجهود التي قام بها السلطان
الظاهر بيبرس لتأمين الملاحة في البحر الأحمر ، مما عاد بالفائدة على دولتيهما .

(١) ابن المجاور : نفس المصدر والجزء ص ١٤٧ - ١٤٨ ، باخرمة :
نفس المصدر والجزء ص ٦٨ .

(٢) ابن حاتم : السط ص ٥٦ أ .

(٣) Lewis (Bernard) : Egypt and Syria, (The Cambridge

History of Islam - Cambridge, 1970,) p. 224 .

وكان من الطبيعي - في الوقت الذي كان المظفر يعمل فيه على تنمية
نفر عدن وازدهاره - أن يهتم بتأمين الملاحة ، وأن تتمم علاقته بالدول البحرية
والتجارية الآسيوية بالصدقة والود . ويشير ابن حاتم إلى قيام المظفر الرسولي
بإرسال سفارة وهدايا جليلة إلى فارس سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م ، ولكن الرياح
عصفت بالسفن وألقت بها إلى ساحل ظفار فاستولى سلطانها سالم بن إدريس
الجبوضي عليها وعلى حمولتها من البضائع والهدايا ، ووقع السفير ومن كانه
يرافقه من التجار أسرى فأساء سالم معاملتهم^(١) .

وقد حاول المظفر بادی ذی بده حل المشكلة سامياً ، وكتب بذلك إلى
سلطان ظفار ، ولكن المحاولة باءت بالفشل ، بل أن سلطان ظفار تمادى في
عدائه وسير حملة بحرية للاغارة على عدن . ولهذا السبب اضطر المظفر - أمام
تهديات سلطان ظفار - إلى اصطناع القوة الانتقام منه وضمان سلامة الملاحة .
وعدم التعرض للسفن التجارية بسوء ، وأرسل حملتين ، اشتبكت أولاهما مع
قوات ظفار ، أما الثانية فقد استولت على الشجر وتزوج صاحبها عن طاعة
المظفر ، وموالاته لسلطان ظفار^(٢) .

غير أن الحملات البرية أثبتت عدم فاعليتها في تحقيق نصر حاسم ، أو القضاء

(١) ابن حاتم : السمط ص ١٠٠ ، الخزرجي : المقسود ج ١ ص ٢٠٨ ،
المسجد ص ٢٩٠ ، ابن الديبع : قره العيون ص ٧٨ أ ، باخرمة : تاريخ نفر
عدن ص ٢ ص ٨٦ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ١٠٠ ب ، الجندي : السلوك ص ٤٥٤ ، باخرمة
نفس المصدر والجزء ٨٤ ، زبارة : أنمة اليمن ص ١ ص ١٩٩ .

على مطابع سلطان ظفار ، لبعده المسافة . لذلك اهتم المظفر بالحملة البحرية وأصدر أوامره إلى وإلى عدن لعمارة الشواني والمراكب والطرائد الموجودة والعمل على إصلاحها (١) ، كما أنشأ عددا آخر (٢) ، ثم توجه السلطان بنفسه إلى عدن لتفقد الاستعدادات البحرية وتجهيز المراكب (٣) وأبحرت السفن من نهر عدن في نفس الوقت الذي خرجت فيه حملتان بريتان أخريان ، إحداهما تقدمت عبر الطريق الساحلي الموازي للحملة البحرية . أما الحملة البرية الثانية ، فقد توجهت عن طريق منطقة الجوف شمال شرق اليمن لتتجه من هناك جنوبا عبر حضرموت إلى ظفار . وقد أسفرت هذه الحملات عن هزيمة سلطان ظفار وقتله ، وأسر وقتل الكثير من أتباعه ، واستولى المظفر على ظفار في رجب ١٢٧٨ هـ (٤) نوفمبر ١٢٧٩ م ، وأقطعها لابنه الواتق نور الدين إبراهيم (٥) كما ولي ابنه المؤيد داود على حضرموت والشحر (٦) .

- (١) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٢٠٩ ، المسجد ص ٢٩٢ .
 (٢) ابن حاتم : السمط ص ١٠١ أ ، النويري : نهاية الأرب ج ٣١ ص ٤١ .
 (٣) ابن حاتم : السمط ص ١٠١ أ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٩٩ .
 (٤) ابن حاتم : السمط ص ١٠١ أ - ١٠٤ ب ، الجندي : السلوك ص ٤٥٤ .
 ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٩ ب - ٦٠ أ . الخزرجي : العقود ج ١ ص ٣١٠ - ٣١٢ ، المسجد ص ٢٩٢ - ٢٩٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٨ ب - ٧٩ أ .

- (٥) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٢٦٨ ، المسجد ص ٣٠٥ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢٠٥ .

- (٦) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٣ أ - ٦٤ ب ، الخزرجي : العقود ج ١ ص ٢٧٥ ، المسجد ص ٣١٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨١ ب .

وأحدث استيلاء المظفر الرسولي على ظفار دويًا هائلًا ، عبر عنه الخزرجي بقوله : « ارتعدت الأنظار القصبة هيبة الساطان وامتلات من خوفه قلوب ملوك فارس وأصحاب الهند والصين لما رأوا من علو همته وعظيم نغمته ، فأرسل صاحب عمان بهديته فرسين ورمحين إلى الأمير شمس الدين أزدسر [نائب الساطان الرسولي] وهو يومئذ في ظفار ، ووصلت هدايا صاحب الصين ، ووصل [رسول] صاحب البحرين إلى زبيد» (١) .

ولا نشك في أن هذا الانتصار كان من العوامل الهامة لاستقرار الأمن في المحيط الهندي ، ودافعا على زيادة الإقبال على عدن ، بعد أن أصبح سلطان اليمن المسيطر على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية إلى عمان ، مما هدد الطريق التجاري عبر بحر عمان (الخليج الفارسي) وقلل من أهميته ، وزاد بالتالي من أهمية البحر الأحمر ، وأدى إلى زيادة النشاط الملاحي فيه .

٥ - العلاقات اليمنية المصرية بعد أحياء الخلافة العباسية في مصر :-

عمل بنو رسول على الارتباط بالخلافة العباسية في بغداد ، والحصول على تقليد من الخليفة بالاعتراف بملكهم ، بذلك كإجراء حتمي إشرعية حكمهم ، وهو أمر اعتاده سلاطين الولايات والمناطق الأخرى ، وحرصوا عليه باعتبارهم فوايا عن الخليفة العباسي في الحكم .

ولهذا حرص نور الدين عمر - مؤسس دولة بني رسول - على الحصول على تقليد من

(١) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٢١٣ ، وقارن ، المسجد ص ٢٩٥ ،

ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٩ أ .

الخليفة في بغداد ، وعلى هذا الأساس ارتبطت دولته بالولاء للخلافة العباسية^(١) . كما عمل على اكتساب رضا الخليفة عليه فأرسل إليه الهدايا ، ولم يترك مناسبة إلا وعمل على إظهار ولائه للخليفة اكتساباً لتأييده مثلما حدث عندما اتهم قرصة قيام والده الخليفة بأداء فريضة الحج سنة ١٢٤٤ / ٥٦٤٩ م وأرسل إليها الهدايا الجليلة ، ولم يدخر نائبه في مكة جهداً في القيام على خدمتها وراحتها^(٢) . وبلغ من مكانة الخليفة العباسي وقدره عند بني رسول ، أنه لما قام نور الدين في أواخر عهده بتخليف العسكر لابنه المفضل ، غضب المظفر يوسف ابن الأكبر ، وعزم على التوجه إلى الخليفة العباسي ليشكو إليه تفضيل أبيه نور الدين لأخيه الأصغر عليه ، وليتمكن من الحصول على حقه الشرعي في السلطنة عن طريق الخليفة نفسه . ولكن مقتل نور الدين المفاجيء - حال دون توجه المظفر إلى بغداد بعد أن أصبح يحتمل عليه أن يكافح في سبيل الاستيلاء على هذا الحق بالقوة^(٣) ، ومع ذلك فما أن استطاع المظفر التخليص من منافسيه وخفت حدة التوتر في اليمن ، حتى بادر بالعمل للحصول على تقليد منه وتشريف بالنيابة عن الخليفة ، وأرسل لهذا الغرض سفارة إلى بغداد سنة ١٢٥١ / ٥٦٤٩ م ، ولم يتردد الخليفة العباسي في إجابته إلى طلبه^(٤) ، وأمر بكتابة منشور بذلك أرسله إليه مع خلعة وأربعين ألف دينار^(٥) ، فلما وصل

(١) انظر ما سبق ص ٣٤٤ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ ، الخزرجي : المسجد ص ٢٣٦ .

(٣) انظر ما سبق ص ١٢٣ .

(٤) زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٦٣ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٣ ب .

رسول الخليفة إلى المظفر ألبسه الخلع وقرأ عليه منشور الخليفة . وعاد الرسول إلى بغداد مزودا بالهدايا والتحف التي أعدها المظفر للخليفة (١) .

ومن الجدير بالذكر أن الخليفة المستعصم العباسي كتب إلى المظفر بأمره بالقضاء على الإمام الزيدى أحمد بن الحسين (٢) ، والظاهر أن المظفر استغل ذلك ليثبت ولائه للخليفة ويظهر كفايته في القضاء على القوى المعادية للعباسيين ، وتمثلها في اليمن قوى الزيدية ، ولهذا تضمن كتابه الذي أرسله إلى الخليفة تفاصيل تتعلق بما بذله من جهود للقضاء على قوة الامامة الزيدية (٣) .

وبسقوط الخليفة في بغداد ، وقيام الظاهر بيبرس بإحيائها في القاهرة ، أصبح السلطان بيبرس - بموجب تقليد الخليفة له - صاحب الحق الشرعى في حكم البلاد التي نص عليها التقليد ومن بينها اليمن (٤) . وهذا يعنى أن بلاد اليمن قد تحولت من الاستقلال إلى التبعية المباشرة لسلطان مصر المملوكي ، وهو أمر لن يقبل به سلاطين بني رسول ، بعد أن قاموا بجهود كبيرة في سبيل الاستيلاء على اليمن والاستقلال بحكمها ، بل وامتد نفوذهم إلى الحجاز ، وتدعم ملكهم بتقليد من الخليفة العباسي المستنصر ثم المستعصم من بعده ، واكتسبوا بذلك الصفة الشرعية من خلافة بغداد . ولهذا فإن إغفال خليفة

(١) الخزرجى : العقود ج ١ ص ٩٩ - ١٠٠ ، المسجد ص ٢٥٥ .

(٢) الخزرجى : العقود ص ٩٩ ، المسجد ص ٢٥٥ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٢ ص ١٨١ ، زبارة أئمة اليمن ص ١٦٣ .

(٤) انظر ما سبق ص ٣٧٩ .

القاهرة لحقهم ، وإضافه اليمن إلى ملحقات السلطنة المملوكية . لم يقابل بالرضا
من السلطان المظفر الرسولي .

وعلى الرغم من ذلك الموقف ، فقد تحسنت العلاقات اليمنية المصرية ،
ويرجع ذلك إلى ما أصبح يتمتع به السلطان المملوكي من قوة مكنته ، ليس
فقط من الصمود أمام جحافل المغول ، وإنما تحقيق الانتصارات الساحقة عليها
وعلى غيرها من القوى المعادية كالصليبيين ، مما أكسب سلطان مصر تقدير
واحترام السلطان الرسولي المظفر الذي بلغ من احترامه وتقديره له أن روض
مشورة بعض خواصه بتقديم الأعلام اليمنية على أعلام السلطان بيبرس ؛ وقال
كلمته المشهورة : أنراني أؤخر أعلام ملك كسر القطار بالأمس ، وأفندم
أعلامي لحضوري ، (١) .

وهكذا ، وتناديا للمخاطر التي قد تهدده من قبل دولة المماليك ، عمل
السلطان المظفر يوسف على تحسين العلاقات مع السلطان بيبرس اكتسابا
لتأييده ، وقد تجاوزت العلاقات حد تبادل السفارات والهدايا ، إلى قيام الظاهر
بيبرس سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م بإرسال أمان إلى المظفر ضمانا لعدم تعرض
المماليك لبلاده ، كما أرسل إليه سنجقا وخلعة وشعار السلطنة (٢) . « ورسم

(١) الخزرجي : العقود ج ١ ص ١٣٤ ، أحمد مختار العبادي : قيام دولة
المماليك ص ١٦٨ .

(٢) ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ٨٩ ، أحمد مختار
العبادي : نفس المرجع ص ١٩٠ .

أن يكاتب بالمقام العالي المولوى السلطانى » . (١) وذلك على الرغم من أن
سلاطين المماليك كانوا ينكرون على ما عداهم التلقب بالسلطنة (٢) .

وكان المظفر حريصا على إظهار ولائه للسلطان المملوكى درءا للمخاطر
التي قد تهدد عرشه وبلاده من ناحيته ، ولهذا استمرت علاقات الود بينه وبين
السلطان سيف الدين قلاوون ، وعمل المظفر على تدعيمها ، ولم يتردد في مهاداته
وموادعته ، ففي سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م وصلت سفارة السلطان المظفر إلى
مصر بهدية نفيسة ، فقبلها قلاوون ، كما استجاب لطلب المظفر في أمان (٣) ،
أمر قلاوون بكتابتة على قميصه ووقته هو وابنه الملك الصالح ، وبما ورد
فيه : « إنا دعون له ولأولاده ، مسالمون من سالمهم ، معا دون من عاداهم ،
ناصرين من نصرهم ، خاضعون من خذلهم . لا نرضى له ولأولاده إلا ما رضينا
لأنفسنا ، وإنا لا نقبل في حقه سعاية ساع ولا قول واش ولا تناله منا مضرة .
مدى الدهر وأعمارنا ، مادام ملازما لشروط مودتنا » (٤) .

وعلى الرغم من تمسك سلاطين بنى رسول بالدعاء لخليفة بغداد ، وعدم

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ١٢ ص ١٢ ب ، الغيني :
عقد الجمان مج ٥ ص ٥٤٥ .

(٢) انظر ما سبق ص ٣٦٦ وما بعدها .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٠٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥
ص ٣١ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٢٧٩ أ .

(٤) بيارس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٢٣ أ - ب ، محمد جمال الدين
سرور : دولة بنى قلاوون ص ١٣٠ ، سعيد عاشور : العمر المماليكى ص ٢٣٣ .

ذكر خليفة القاهرة عند الدماء على منابر اليمن (١) ، فلم يكن سلاطين
الماليك على استعداد لخوض معارك لهذا السبب ، طالما تمسك بنور رسول
يقدم ما التزموا به من أموال وهدايا سنوية ، تتأكد بها المودة بين الجانبين (٢) ،
وهكذا فلم يكن ليشار موضوع الخطبة إلا عندما تتأزم العلاقات نتيجة امتناع
سلاطين اليمن عن إرسال ما اعتادوه من هدايا وأموال (٣) .

وأيا ما كان الأمر فقد استمرت رسل المظفر يوسف في التردد على السلاطان
المنصور قلاوون بالمهدايا والسحب ، ففي سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م أرسل المظفر
إلى قلاوون هدايا نفيسة متنوعة من تحف الهند والصند واليمن (٤) ، تشمل
على الخيول العربية الأصيلة ، وفيل وكر كدن وعدد من البغاوات ، وعلى
ثلاث قطع كبيرة من العود الذي يبلغ من ثقل القطعة الواحدة منها أن كان
يحملها رجلان ، بالإضافة إلى الكثير من الرماح والسيوف وأصناف البهار
والأفمشة وغيرها من التحف . فقبل قلاوون الهدية وأنعم على الرسل (٥)

(١) انظر ، الخزرجي . العقود الأولوية ج ١ ص ٦٩ ، العامري : غربال
الزمان ، حوادث سنة ٦٥٦ هـ ، أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب
والأندلس ص ١٣٢ . Arnold : The Caliphate, p. 87 :

(٢) القلقشندي : صبح الأعشي ج ٥ ص ٢١ ، ج ٧ ص ٣٤٠ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٨ ص ١٥٢ - ١٥٨ ، القلقشندي : ج ٦

ص ٤٢١ - ٤٢٦ ؛ ج ٧ ص ٣٤٨ - ٣٥١ ، ص ٣٦٣ - ٣٦٥ .

(٤) ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعصور ص ١١٧ .

(٥) ابن القرات : تاريخ الدول والملوك ج ١٥ ص ٢٢ أ ، النويري :

نفس المصدر ج ٢٩ ص ٢٨٥ ب .

بالخلع وأرسل معهم في مقابل ذلك هداياه إلى السلطان المظفر (١).

ومن الجدير بالذكر أن المظفر لم يترك فرص الانتصارات المملوكية على الممغول والصليبيين وغيرهم تمر دون أن يبعث بهانيه إلى السلطان المملوكي (٢)، كما حرص السلطان المملوكي بدوره على السكتابة إلى صاحب اليمن مباشرة بانتصاراته وفتوحاته (٣) أو رادا على تهاني سلطان اليمن (٤).

غير أن العلاقات الودية التي سادت بين مصر واليمن لم تلبث أن انتابها الغم بعد وفاة المصور قلاوون، إذ توقف المظفر عن مهاداة صاحب مصر، الأمر الذي أثار غضب الأشرف خليل بن قلاوون عليه، فأرسل إليه سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م كتابا شديد اللهجة صريحة أحد تجار الكارم عنفه فيه وهدده « وعرض له بأشغالها باللهو والطرب » وختمه بقوله : « لأخرجن اليمن عن عيذك وأقل من مال إليك أو الالك ». وعنون الرسالة بعبارة : « يصل إلى الخارجى باليمن ». كما أمر التاجر أن يحذره باستعداداته لتجهيز حملة إذا لم يأتته من السلطان المظفر كتاب يعتذر له فيه ، ويعود إلى إرسال ما اعتاده من الهدايا مرة أخرى . إلا أن المظفر لم يقبل تلك الرسالة منذ طالع عنوانها ، وردها إلى

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٢٩ .

(٢) ابن عبد الظاهر : نفس المصدر ص ١٤٤ .

(٣) ابن عبد الظاهر : نفس المصدر ص ١٨٦ - ١٨٩ ، الفيومى : نثر الجمان

نقى تراجم الأعيان - مخطوط بدار الكتب رقم ١٧٤٦ تاريخ - ج ٢ ص ٣٢٢ ،

القلقشندي : ج ٧ ص ٢٥٣ - ٢٥٧ ، ٢٦٠ - ٢٦٢ ، ص ٣٦٦ - ٢٧٠ .

(٤) القلقشندي : ج ٧ ص ٣٤٤ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧

للتاجر بحجة أنها ليست موجهة إليه ، وطلب منه في تمك البحث عن الخارجى المقصود لتوصيلها إليه أو القيام بردها إلى مرسلها في حالة عدم الاهتداء إليه . فقام التاجر بمشافهة السلطان بفتحوى الرسالة . فرد عليه المظفر بقوله : « هذه كلام قز غلب عليه الجهل »^(١) . ولم يلبث المظفر أن توفي سنة ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م ، ولم يعمر ابنه الأشرف وخليفته في السلطنة طويلا إذ توفي سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م .

ثالثا : العلاقات اليمنية المصرية بين سلاطين بنى رسول — بعد المظفر — وبين سلاطين دولتى المهاليك البحرية والجراسمة : —

١ - فى عهد المؤيد داود الرسولى : —

تدهورت العلاقات اليمنية المصرية بعد وفاة المنصور قلاوون ، إلى حد أن السلطان الأشرف خليل بادر بالرحيل إلى قوص فى أوائل سنة ٦٩٢ هـ / ٢٩٢ م ، قبل إرسال خطاب التهديد إلى المظفر الرسولى ، وأمر بتجهيز حملة لغزو اليمن^(٢) . وألظاهر أن العلاقات لم يطرأ عليها أى تحسن فى عهد الأشرف بن المظفر ، ذلك أن السلطان المملوكى المنصور حسام الدين لاجين أمر هو الآخر بتجهيز حملة فى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م لفتح اليمن ، ولكن قدر لها ألا تتم^(٣) كسابقته لعدم امتداد سلطنة كل من الأشرف

(١) العيني : عقد الجمان مج ٥٦ ص ٨١ .

(٢) ابن عبد الظاهر : تشرىف الأيام والعصور ص ٢٧٢ ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٨٣ .

(٣) ابن أبيك : كنز الدرر ج ٨ ص ٣٩٦ .

خاييل ولاجين ، والحقيقة فإن إحساس سلطان اليمن بضعف السلطنة المملوكية بعد قلاوون ، وانشغال المماليك بالتنافس على السلطنة ، كان دافعا للسلطان الرسولي على التوقف عن ارسال هداياه إلى هؤلاء السلاطين الضعاف.

وعلى الرغم من احتمال استمرار العلاقات العدائية بين اليمن ومصر إلى بداية سلطنة المؤيد داود الرسولي ، فإن هذه العلاقات كانت تبدو وكأنها أخذت في التحسن منذ سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية ، سيما بعد أن أثبت مقدراته بالانتصار على التتار في موقعة مرج الصفر سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣ م. فلما وصل رسل الناصر محمد بالبشرى إلى اليمن ، استقبلهم السلطان المؤيد الرسولي وأعيان دولته استقبالا حافلا ، ودقت الطبول تبهيرا عن الفرحة والسرور بهذا النصر ، وتبارى الشعراء في التغني به وبالغ السلطان في إكرام السعراء والإغعام عليهم ، وأرسل معهم كتابا يهنئ فيه السلطان المملوكي^(١).

ونستدل من الأحداث أن بنى رسول كما واصلوا يعملون على إظهار ولائهم للسلطان المملوكي ويخطبون وده طالما كان قويا ، ولكن علاقاتهم بمصر لانبث أن يسودها الفتور في عهد السلاطين الضعاف ، فطوال عصر المظفر يوسف في اليمن إلى نهاية حكم المنصور قلاوون في مصر ، سادت العلاقات الودية بين البلدين ، ولكنها لم تلبث أن تآزمت بعد وفاة قلاوون بضعف مركز سلاطين المماليك إلى نهاية القرن الثامن الهجري ، ونشوب الصراع حول السلطنة ، التي أصبحت مطمعا لكثير من أمراء المماليك منذ أيام سلطنة

(١) الخزر جى : العقود ج ١ ص ٣٤٨ - ٣٤٩ ، المسجد ص ٣٤٧ - ٣٤٨ ،

ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٨٦ ب - ٩٨٧ أ .

الناصر محمد الأدي، ولهذا استخف المؤيد الرسولي به وقطع عنه الهدايا التي اعتاد سلاطين بني رسول إرسالها بصفة دورية إلى مصر ، ولم يكتف بذلك بل أساء إلى التجار المصريين الذين اتفق وجودهم بعدن ، وترتب على ذلك أن توجهت رسل الناصر بن قلاوون بكتب التهديد والوعيد إلى السلطان المؤيد الرسولي (١) ، كما قام الخليفة المستنكفي العباسي (٧٠١ - ٧٤٠ هـ / ١٣٠٢ - ١٣٣٩ م) بإرسال خطاب له يستنكر عليه فيه تصرفاته ، ويلومه عليها ، ويأمره بإرسال الهدايا المقررة (٢) .

وتشير المصادر اليمنية إلى أن المؤيد أعد سفارة إلى مصر في سنة ٧٠٤ هـ ، ولكنه أجل إرسالها عندما بلغته أخبار بسيطرة المايك على سلطانهم وعيبتهم به (٣) . غير أنه لم يلبث أن أرسل الهدايا في نفس العام . وبإغ من كثرة ما اشتملت عليه من أصناف أن نقلها استوعب مركبتين ، كما أن مثل تلك الهدية كان يتم إرسالها كل عامين أو ثلاثة (٤) ، وأن ذلك كان له أعمق الأثر في نفس السلطان المملوكي الذي تشير المصادر اليمنية إلى اغتباطه البالغ وتكرمه لرسل صاحب اليمن (٥) .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٨ ص ١٥٢ - ١٥٨ ، المقرئزي : السلوك

ج ٢ ص ٧ ، القلقشندي : صبح الأعشى : ج ٦ ص ٤٢١ - ٤٢٦ .

(٣) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

(٤) الخزرجي : العسجد ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٥) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٣٦٧ ، العسجد ص ٣٥٢ .

ولكن يبدو أن المصادر اليمنية قد بالغت كثيراً في تقييم تلك الهدايا .
فالمصادر المصرية تشير إلى أن الهدية التي وصلت إلى مصر سنة ١٢٠٥ هـ /
١٣٠٥ م ، كانت دون المعتاد ، وأنها لم تحظ بقبول السلطان الناصر (١) ،
وأنارت غضبه فأعاد رسل اليمن بغير جواب (٢) . ولم يلبث أن أرسل رسله
إلى المؤيد بالتهديد بفزو بلاده ، إذا لم يتم بإرسال الهدية المقررة كالمعتاد (٣) .
ولكن المؤيد الرسول لم يعبأ بذلك « ولا أجاب عن الكتاب بشيء » (٤) .
ولم يكتف بذلك بل بالغ في تحديه للسلطان الناصر محمد (٥) ، فقام بتحرير
شريف مكة علي العصيان ، وعمل على كسب وده عن طريق إرسال الأموال
إليه ليقدّم اسمه في الخطبة قبل سلطان مصر (٦) ، كما قام بمنع الكارم (٧) .

وأمام موقف المؤيد وتحديه ، أمر السلطان الناصر سنة ١٢٠٧ هـ / ١٣٠٧ م

(١) النويري : نهاية الأرب - ٣٠ ص ١١٥ ، الفيومي : نثر الجمان - ٣
ص ٨٠ ، المقرئ : السلوك - ٢ ص ٢٠ - ٢١ ابن تغري بردى : النجوم
الزاهرة - ٨ ص ٢١٧ .

(٢) النويري : نفس المصدر والجزء والصفحة ، الفيومي : نفس المصدر
والجزء والصفحة .

(٣) ابن تغري بردى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) المقرئ : نفس المصدر والجزء ص ٢١ .

(٥) ابن تغري بردى : نفس المصدر والجزء ص ٢٢٦ .

(٦) المقرئ : نفس المصدر والجزء ص ٣٢ - ٣٣ .

(٧) الخزرجي : العقود - ١ ص ٣٧٤ ، المسجد ص ٣٥٦ .

بتجهيز حملة لغزو بلاد اليمن ، وبدأت الاستعدادات لتلك الحملة بإنشاء
المراكب تجهيزها ، ولكن العلماء والقضاة وذوى المصاحبة من التجار
أقنعوا السلطان بضرورة الكتابة للمؤيد أولا (١) ، وتأجيل الحملة انتصاراً
لما تأنى به الرسل من أخبار (٢) . وهكذا فلم يكتب لتلك الحملة أن تخرج من
مصر (٣) وخاصة نتيجة لاضطراب الأحوال الداخلية في البلاد (٤) وتنازل
الناصر محمد عن السلطنة للمرة الثانية لصالح يبرس الجاشنكير في شوال سنة
٥٧٠٨ هـ / مارس ١٣٠٩ م . ويذكر العيني أن الناصر محمد بن قلاوون أرسل
رسولاً آخر إلى اليمن سنة ٥٧٠٩ / ١٣١٠ م وذلك في بداية سلطته الثالثة ، في
محاولة لعودة العلاقات مع اليمن إلى سابق عهدها ، ولكن الرسول توفي عقيم

(١) القلقشندي : نفس المصدر ج ٦ ص ٤٢٢ - ٤٢٦ .

(٢) النويري : نفس المصدر والجزء ص ١٧٠ ، النعماني : نفس
المصدر والجزء ص ٨١ ب - ٨٢ أ ، المقرئ : نفس المصدر والجزء
ص ٢٧ - ٢٨ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٥٤ ، ابن الجوزي : تاريخ ابن
الوردى ج ٢ ص ٢٤٥ - ٢٥٦ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٧٣
المسجد ص ٢٥٦ ، ابن تغري بردي : النجوم ج ٨ ص ٢٦٦ ، ابن الديبع :
قوة ص ٨٧ أ .

(٤) يبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٢٣ ، محمد جمال الدين
سرور : دولة بني قلاوون ص ١٣٣ ، سعيد عاشور : العصر المملوكي
ص ٢٣٣ .

(٥) المقرئ : السلوك ج ٤ ص ٤٤ وما بعدها .

وصوله إلى قوص ، في طريق عودته إلى القاهرة (١) .

وهكذا كان للصراع بين أمراء المماليك وتحكمهم في الناصر محمد ،
سواء عزاله السلطنة مرتين ، أثره في تشجيع المؤيد الرسولي على انتهاز تلك
السياسة ، والدليل على ذلك أنه ما أن عاد للناصر محمد إلى العرش للمرة
الثالثة (٢) ، وتمكن من إقرار الأوضاع ، حتى توافدت رسل صاحب اليمن
سنة ٧١١هـ / ١٣١١م إلى القاهرة بالهدايا والتقادم ، فقبلها الناصر وأكرم الرسل
بأنعم عليهم بالخلع المناسبة (٣) ، ووزع تلك الهدية على الأمراء والأكابر
والأصاغر (٤) ، وتوالت الهدايا اليمنية على الناصر محمد في سنة ٧١٢هـ (٥) ،
كما وصلت هدية أخرى سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م ، وجيز الناصر بدوره الرسل
بما جرت به العادة من الهدايا (٦) . وفي سنة ٧١٦هـ / ١٣١٦م وصلت هدية
أخرى عن طريق عيذاب ، لكن هربان المنطقة قطعوا الطريق على الرسل
وانتهبوا ما معهم (٧) ، الأمر الذي دعا الناصر إلى تجهيز حملة لتأديب عرب

(١) العيني : عقد الجمان مج ٥٨ ص ٢٠٢ .

(٢) المقرئ : نفس المصدر والجزء ص ٧٢ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٢٥٦ .

(٤) المقرئ : نفس المصدر والجزء ص ١٠٧ و ١١١ .

(٥) ابن دقاق : الجوهر الثمين في سير الملوك والسلطين - مخطوط بدار

الكتب المصرية رقم ١٤٩٢ تاريخ تيمور - ص ١١٥ .

(٦) العيني : عقد الجمان مج ٦٠ ص ٥٦ .

(٧) النويري : نفس المصدر والجزء ص ٣١٤ .

(٨) الفيومي : نثر الجمان ج ٣ ص ١١٤ ب .

عذاب والانتقام منهم ، والعمل على استرداد ما استولوا عليه (١) . ويشير
العيني (٢) إلى خبر وصول سفارة أخرى سنة ٥٧١٨/١٣١٨م ، ولكن السلطان
المملوكي أمر بردها ففرقت المركب التي استقلها السفير اليمني ، ولكنه تمكن
من النجاة لاستخدامه قارباً كان على سطح المركب (٣) . ولم يزودنا العيني
بتفسير للأسباب التي دعت الناصر إلى رد المركب بالهدية ، وقد يكون ذلك
لعدم عودة الاستقرار في منطقة عذاب .

أما آخر تلك الهدايا التي بعث المؤيد الرسولي بها إلى مصر فكانت سنة ٥٧٢٠ (٤) .
١٣٢٠م ، ولم يعمر المؤيد بعسدها طويلاً إذ توفي سنة ٥٧٢١/١٣٢١م .
وبوفاته انتهت مرحلة تذبذبت فيها العلاقات اليمنية المصرية ما بين العداء ومه
صحيحة من تهديد صاحب مصر واستعداداته لغزو اليمن ، إلى تحسن نسبي في
في تلك العلاقات ، اقتصر في معظمه على إرسال الهدايا إلى مصر بصفة غير
منتظمة .

٢ - في عهد المجاهد الرسولي :

اتسمت سلطنة المجاهد علي بن المؤيد داود علي اليمن منذ بدايتها بكثير

-
- (١) النويري : نفس المصدر والجزء ص ٣٢٧ - ٣٣٨ ، المقرئ : نفس
المصدر والجزء ص ١٤٥ و ١٦٢ .
(٢) العيني : نفس المصدر والمجلد ص ١٤٧ .
(٣) العيني : نفس المصدر والمجلد ص ١٤٧ .
(٤) القيومي : نفس المصدر والجزء ص ١٢٥ أ ، المقرئ : نفس المصدر
والجزء ص ٢٧ .

الاضطرابات الداخلية (١) ، ولذلك تعتبر فترة حكمه من أسوأ الفترات التي مرت بها بلاد اليمن ، فقد نازعه عمه المنصور أيوب بن الأشرف السلطنة واعتقله واستولى عليها منه ، ولكن المجاهد لم يلبث أن تمكن من استعادة ملكه وقام بدوره باعتقال عمه . ولكن الظاهر عبد الله ابن عمه المنصور أيوب عمداً إلى التحصن في حصن الدملوة المنيع وواصل ما عجز عنه أبوه المنصور ، واستطاع السيطرة على معظم البلاد حتى لم يبق للمجاهد سوى حصن تعز الذي أصبح محصوراً فيه (٢) . فلما عجز المجاهد عن استعادة السيطرة على البلاد ، ولم يجد أمامه من يخلصه لجأ إلى مراسلة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ووفدت رسالته إلى البلاط المملوكي في سنة ٥٧٢٤ هـ / ١٣٢٤ م ليستنصر بصاحب مصر (٣) ، ويطلب معونته العسكرية لتثبيت سلطنته.

(١) انظر ، الجندي : السلوك ص ٥٧ وما بعدها ، النويري : نهاية الأرب ص ٣١ وما بعدها ، أبو الفدا : المختصر ص ٤٤ وما بعدها ، ابن عبد المجيد : بركة الزمن ص ٩٦ وما بعدها ، ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ص ١٥٠ ، السبكي : طبقات الشافعية ص ٦٠٣ ، الخزرجي : العقود ص ٢ وما بعدها ، المسجد ص ٣٨٧ وما بعدها ، العقد الفارح ص ٣٩ وما بعدها ، المقرئ : السلوك ص ٢٣٤ و ٢٣٨ ، العيني : عقد الجمان ص ٦١ ، ابن نوري : النجوم ص ٩٠ ، المنهل ص ٣٠ ، حوادث الدهور ص ٣٧٥ . الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٢ ب وما بعدها ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٩ وما بعدها ، باخرمة : تاريخ نجر عدن ص ٢٩٩ وما بعدها ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢٢٢ .

Playfair : A History of Arabia Felix or Yemen , pp . 90 - 91 .

(٢) أنظر ما سبق ص ٨٩ وما بعدها .

(٣) المقرئ : السلوك ص ٢٠٥٤ .

ولإقرار الأراضاع الداخلية في بلاده (١) . واشترط على نفسه نظير ذلك شروطاً منها ، أن يذكر اسم السلطان الناصر في الخطبة على منابر اليمن (٢) . ولكن السلطان الناصر اعتذر لرسول المجاهد عن عدم إمكان تلبية طلبه (٣) ؛ بسبب تفرق عساكر مصر في الشام والنوبة ، ولكنه وعد بتقديم المساعدة عندما تسنح الظروف بذلك (٤) ، والظاهر أنه لم يستجب لطلبه لبعد بلاد اليمن ، وكثرة النفقات التي تستلزمها الحملة إليها . أو أنه رأى أن استمرار تلك الأوضاع المضطربة في اليمن من شأنها إضعاف دولة بني رسول داخليا ، وفي ذلك ضمان لكف سلاطينها عن التدخل في شؤون الحجاز ، وما يتبع ذلك من التوقف عن تأليب أشراف مكة على السلطنة المملوكية ؛ بالإضافة إلى ضمان عدم زيادة نفوذ اليمن التجاري . وربما أحجم عن الدخول في تلك المفامرة لعدم تأكده من جدية الطلب أو عدم الحاجة إلى تلك المعاونة العسكرية .

ومما يمكن من أمر فقد عاود المجاهد الاستنجد بمصر سنة ٧٢٥ هـ / (٥)

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١١ ص ٩٤ ، المنهل ج ٤ ص ١٠١ ،
القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢ .
(٢) العيني : مقد الجمان ج ٦٣ ص ٤٣٠ .
(٣) المقرئى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٤) العيني : نفس المصدر والمجلد ص ٤٣١ .
(٥) النيو مى : نثر الجمان ج ٣ ص ١٨٤ ب ، الخزرجى : العقد الفاخر
ج ٢ ص ٣٩ ، المقرئى نفس المصدر والجزء ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ، باخرمة :
تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ١٤٣ .

١٢٢٥ م ، وعمل هذه المرة على إغراء السلطان المملوكي وترغيبه بكثرة أموال اليمن^(١) ، وأمام هذا الإلحاح وما صاحبه من شروط والتزامات قطعها المجاهد الرسولي على نفسه ، استجاب الناصر محمد رغبة في كسب ولاء السلطان الرسولي لسلطين مصر ، وتبين له أن الحملة بتجهيزاتها ستكون - بعد وصولها لليمن وإقرار الأوضاع فيها - دليلا على قوة مصر وعظم إمكاناتها ، وقدرتها على ضرب أى محاولة يقوم بها سلطان اليمن للخروج عن طاعته والولاء لمصر ولهذا أصدر السلطان الناصر أوامره بإعداد الحملة^(٢) بقيادة الأمير بيبرس الحجاب . وكانت الحملة تتكون من ألف فارس^(٣) وألف راحلة^(٤) ، هذا إلى جانب ما زودهم السلطان به من الأموال والأزواد والعتاد وغير ذلك مما يستلزم حمله على اثنين وعشرين ألف حمل^(٥) . وغادر بيبرس ورفاقه من كبار الأمراء والعشروات والمقدمين وأعيان الحاققة والمماليك السلطانية^(٦) القاهرة

- (١) النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ص ١٨٧ ، ابن خلدون : العسير ج ٥ ص ٤٣١ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٧٨ .
(٢) النيويمى : نثر الجمان ج ٣ ص ١٨٤ ب ، ابن دقاق : الجواهر الثمين ص ١١٧ ، المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٦٠ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ج ٩ ص ٧٨ (وذكر الفيومى ، أن عدتهم ألف وخمسة وسبعون فارسا) نثر الجمان ج ٣ ص ١٨٥ ب . (أما الخزرجى فقد ذكر أنهم كانوا ألفين بالإضافة إلى ما ذكره صاحب النجوم من الفرسان) انظر المسجد ص ٤٠٧ .

(٤) الخزرجى : العقود ج ٢ ص ٣٢ .

(٥) الخزرجى : المسجد ص ٤٠٧ .

(٦) ابن أبيك : كنز الدرر ج ٩ ص ٢٥٠ ، المقرئى : السلوك ج ٢

ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

في ربيع الآخر سنة ٧٢٥ هـ / مارس ١٣٢٥ م ومعه عدة تشاريف لملك اليمن وأمرأه الحجاز وغيرهم من مشايخ العربان^(١) بالإضافة إلى ما حمله من الرسائل لأمرأه الحجاز لتسهيل مهمته والقيام بخدمة الحملة ، فلما وصل إلى مكة دخوله معتمرا في جمادى الأولى^(٢) (ابريل) ، وأقام بمكة حتى وصلته مراكب الغلال من مصر إلى جدة^(٣) ، وأرسل كتب الأمان إلى العربان وأهل مدينة حلي بنى يعقوب ، وأشرف الخلف السليمانى ، موضعا فيها التزامه بما أوصاه السلطان به من حسن معاملتهم وعدم التعرض لهم ولأموالهم^(٤) . ولم يقم ييسرس في مكة طويلا إذ غادرها بعد عشرة أيام من وصوله إليها^(٥) في طريقه إلى اليمن فوصل إلى مدينة حلي^(٦) ومنها سار إلى حرص . وكان ييسرس قد بعث بكتاب إلى المجاهد عن طريق البحر^(٧) حمله إليه رسوله

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ج ٩ ص ٧٩ . المنهل ج ٤ ص ١٠١ .

(٢) الفيومى : نثر الجمان ج ٣ ص ١٨٦ أ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٤) الفيومى : نثر الجمان ج ٣ ص ١٨٦ أ .

(٥) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٦) الفيومى : نثر الجمان ج ٣ ص ١٨٦ أ - ب (لما وصلت الحملة إلى حلي دهش أهلها عندما شاهدوا العساكر وقد طلبت وليست السلاح - وهم الأهالى بالفرار ولم يطمئنون حتى أكدوا الأمان لهم ، وأن العسكر لن يقرّبوا شيئا من بضائعهم إلا بشئنه . ومما يذكر أنهم حملوا إلى ييسرس مائة رأس من الغنم وخمسمائة إردب من الذرة على سبيل الهدية فردّها إليهم ولم يقبلها منهم) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٦٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم ج ٩ ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٧) الفيومى : نثر الجمان ج ٣ ص ١٨٦ أ .

كافور الشبلى الذى عاد من مضر صحيفة الحملة (١) . وكانت الأخبار قد وردت إلى بيمرس بخوف أهل زبيد من التعرض لبطش عسكر مصر وأنهم لذلك عادوا إلى طاعة المجاهد ، كما بلغه أن المجاهد موجود فيها (٢) . أما السلطان المجاهد ، فقد استشعر بنذر الخطر عندما بلغه عظم القوة المملوكية القادمة وضخامتها ، وقد ظهر ذلك جليا في رده على الرسالة التى بعثها إليه بيمرس .

والكن بيمرس أعاد الكتابة إليه يطمئن قلبه (٣) . وتم وصول الحملة إلى زبيد في رجب ٧٢٥ هـ / يونيه ١٢٧٥ م ، فخرج السلطان المجاهد في أعيان دولته وعسكره لاستقبالها (٤) ، فترجل له أمراء الحملة وساروا في

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٢) الفيومى : نثر الجمان ج ٣ ص ١٨٦ ب ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة .

ج ٩ ص ٨٥ .

(٣) الفيومى : نثر الجمان ج ٣ ص ١٨٦ ب . النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ص

١٨٧ .

(٤) الخزرجى : العقود ج ٢ ص ٣٢ ، المسجد ص ٤٠٧ .

(٥) الفيومى : نفس المصدر والجزء ص ١٨٧ أ (يتفق كل من المقرئى وابن

تغرى بردى على أنه لما وصل المجاهد بجنده لاستقبال الحملة ، سخر العسكر المصرى من عسكره لكونهم عراة ، سلاحهم الجريد والخشب ، وسيوفهم على أذرعهم مشدودة ، ويقاد للامير منهم فرس واحد . وقد بلغ من سوء حالة السلطان أن شوهه وعلى رأسه عصاية ملونة فوق العمامة ، وقد رعب المجاهد عندما شاهد العسكر المصرى بالة الحرب ، حتى أنه هم أن يترجل لأمرام الحملة فمنعه قائدها ، وترجل له ومن معه من الأمراء المصريين واصطف العسكر الواصل صفين وسار الأمراء في خدمة السلطان وأكرموه وأركبوه في الوسط) . السلوك ج ٢ ص

خدمته إلى خيمة فخمة نصبوها له ، وألبسوه خلعة فاخرة (١) وكنفتاه (٢)
 زركش وحياسة ذهب (٣) أرسلها السلطان الناصر محمد بن قلاوون إليه ،
 بالإضافة إلى عمامة بعدن (٤) .

= ص ٢٦٦ ، النجوم ٩ ص ٨٥ (وليس من شك في أن سوء أحوال
 العسكر المينى إنما يرجع إلى حالة الفوضى والاضطراب التى انتشرت فى بلاد
 المين وقتئذ) .

(١) للخزرجى : العقود ٢ ص ٣٢ ، المسجد ص ٤٠٧ ، ابن تغرى
 بردى : المنهل ٤ ص ١٠٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٢ .

(٢) الكنفته أو الكلفة أو الكلوة أو الكاوتة ، نوع من غطاء الرأس ،
 استحدثه الأيوبيون بمصر وكانت من الجوخ الأصفر ، وتلبس بغير عمامة .
 فلما كان عصر السلطان قلاوون أضاف لبس الشاش عليها ، وفي عهد الأنشرف
 خليل بن قلاوون استحدث الكلوة الزركش أو المزركشة (السلوك ١
 ص ٢٩٢ ، ص ٨٣٠ هامش رقم ١ فى كل ، القلقشندي : صبح الأعشى ٤
 ص ٣٩ — ٤٠) .
 Dozy : Suppl . , T. 2 , P. 453

(٣) المقرئى : السلوك ٢ ص ٢٦٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ٩
 ص ٨٥ . (والحياسة ، من المنطقة أو الحزام ، تشد فوق الأقبية ، وكانت
 معظمها من الفضه المطلية بالذهب فى هذا العصر وربما جعلت من الذهب
 الخالص ، وقد ترصع باليشم ، ولا ترصع بالجواهر إلا فى خلع السلطان
 الأ كابر أمراء المين (القلقشندي : صبح الأعشى ٤ ص ٤٠) .

Dozy : op . cit . p . 618

(٤) الخزرجى : العقود ٢ ص ٣٢ ، المسجد ص ٤٠٧ ، ابن تغرى
 بردى : المنهل ٤ ص ١٠٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٢ ب . =

وبينما يؤكد كل من المقرئى وابن تغرى بردى دخول المجاهد بالجملة إلى زبيد وسط مظاهر الفرحة بوصولها (١) ، يذكر المؤرخ النجنى الخزرجى أن الحملة عسكرت تجاه باب الشبارق خارج المدينة من الشرقية . وتميل إلى ترجيح رواية الخزرجى ، ذلك أن القول ببقاء القوات المملوكية خارج مدينة زبيد ، يتفق مع موقف المجاهد وتصرفاته التى كان يحكمها تخوفه المفاجئ من وجود تلك القوات الكبيرة فى بلاده ، وخشيته من الأهداف البعيدة التى قد تستهدفها الحملة ، كاستيلاء على البلاد ، والإطاحة بهرشه ، ويؤيد ذلك الخطاب الذى أرسله المجاهد ليعرس واعترف له فيه بأنه « سقط فى يده وندم على طلب العسكر وخاف على نفسه » (٢) . ويضاف إلى ذلك أن المجاهد لم يكذب مستقبل الحملة حتى سارع بالتوجه إلى تعزيز تاركها الحملة فى معسكرها ، معتذرا عن عدم إمكان استصحاب الحملة معه ، بأن الطريق لا يسعهم إذا ما توجهوا معه دفعة واحدة (٣) . هذا إلى جانب كثير من المواقف الأخرى التى قصد بها المجاهد وضع العراقيل أمام الحملة لإرغامها على العودة ، فهو لم يقم - بعد استئصال الحملة - يبحث الخطوات التى ينبغى اتخاذها لتؤدى مهمتها التى قدمت - بناء على طلبه -

= (والمنذبة، هي لحرف الشال الذى يحيط بغطاء الرأس وتسمى منه) الفيروز أبادى : القاموس المحيط) .

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٦٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ج ٩ ص ٨٥ .

(٢) للقيومى : نثر الجمان ج ٣ ص ١٨٦ ب - ١٨٧ أ .

(٣) الخزرجى : العقود ج ٢ ص ٣٣ ، المسجد ص ٤٠٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢ ب .

من أجلها، كما أنه لم يوفر لـعسكرها ما يلزم من الإغاثات رغم احتجاج بيبرس، وذلك بحجة خراب البلاد^(١). وفي نفس الوقت منع أهل زبيد العسكر من دخول المدينة أو إمدادهم بالآقوات والعلوفات اللازمة^(٢)، ثم أن نائب تعز قام بحجز الرسل الذين بعثهم بيبرس - بناء على موافقة المجاهد - إلى الظاهر عبد الله المنافس للسلطان^(٣). وبالإضافة إلى ما سبق، أنه لما توجهت القوات بعد ذلك إلى تعز، لم يسمح المجاهد لهم بدخول المدينة^(٤).

وقد كان لموقف المجاهد أثره في اعتزام قائد الحملة على سرعة انجاز مهمته، وبادر بإرسال الرسل إلى الظاهر عبد الله المتحصن بقلعة الدمولة، يحملون إليه كتاب السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي يحذره فيه من عواقب خروجه عن الطاعة، ويأمره بالامتثال له^(٥). وصحبهم الشريف عطيفة أمير مكة عيناً للمجاهد يبلغه بحقيقة الموقف، وما إذا كان الهدف من ذلك الاتفاق مع الظاهر عبد الله ضد المجاهد. ومع أن هذا الإتصال تم بعلم المجاهد بدلائل أنه أرسل هو الآخر كتاباً مع الرسل إلى الظاهر يحثه فيه على الطاعة^(٦)،

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٢) المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٣) الفيومى : نشر الجمان ص ١٨٧ أ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٦٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم ج ٩ ص ٨٦ .

(٥) الخرنجى : المسجد ص ٤٠٨ ، الفيومى : نفس المصدر والجزء

ص ١٨٧ ب .

(٦) المقرئى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

إلا أن ما أشيع عن قيام الظاهر بإقتناع الرسل بأحقية في السلطنة وطلب مساعدتهم ، وأنه أمددهم بكثير من الأموال وأغراهم بالقبض على المجاهد^(١) ، زاد من تحريف المجاهد ، وجعله يتجاذى في وضع العقبات أمام الحملة ، ويسعى لإخراجهم من اليمن . فبمروافقته وتدييره وتواطئه ، أقدم أهل جبل صبر - المطل على تعز - على قطع المياه عن الحملة ، وأغاروا على معسكرهم ونهبوا ما وصات إليه أيديهم . فلما قام العسكر المملوكي بمطاردتهم ، حاول المجاهد منهم فلم يستجيبوا له ، ولكنهم اضطروا للعودة إلى معسكرهم بعد أن بلغهم ما يديره المجاهد لإحراق المعسكر ونهبه^(٢) .

كان ذلك موقف المجاهد من الحملة التي أعدت بناء على طلبه ، ونتيجة الحاجة ، لمعاونته وتثبيت ملكه ، وهو موقف ساقه إليه سوء تدييره ، وخوفه من استيلاء الحملة على بلاده ، وقد يكون هذا الموقف المتحرج جاء نتيجة تدمير خصوم المجاهد الذين يظهرون له لإخلاصهم ، في الوقت الذي يعملون فيه على التخلص منه بزجه في صراع مباشر مع قادة الحملة والسلطان المملوكي ، ذلك أن تخوف المجاهد لم يكن له ما يبرره ، فقد كان عليه أن يقوم أولاً بالوفاء بما ألزم به وقرره على نفسه من النفقة على الحملة وتوفير القوات الضروري لأفرادها ، والوفاء اللازمة للدواب^(٣) ، فلما أخل بذلك واشتكى

(١) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٣٢ ، المسجد ص ٤٠٨ ، ابن تغري بردي : المنهل ج ١ ص ١٠٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٢ .

(٢) المقرئزي : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٨٦ .

(٣) الفيومي : نثر الجمان ج ٣ ص ١٨٧ ب ، أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٩٧ .

قائد الحملة من قلة المؤن اعتذر المجاهد له ووعد بتدبيرها (١). ثم عادو قائد الحملة مطالبة المجاهد بتدبير الأقوات بعد أن تعرض جنده للجوع والدواب للموت، فلما اعتذر كالمعادة طلب إليه أن يأمر الناس بأن تباع للجند مايحتاجون إليه، ولكن المجاهد قال: «ما عندي إلا ما أناخذونه بسيوفكم» (٢). وإذا ما سلمته بأن المجاهد قد سلك هذا المسلك تجاه الحملة، ليدفعها إلى الجلاء عن بلاده، حفاظاً على استقلالها، فإن هذا التحدى للسافر لم يكن له ما يبرره، ذلك أن قائد الحملة لم يكن مزوداً بتعليمات من سلطانه بالقبض على المجاهد أو تهريب بلاده أو العمل الاستيلاء عليها (٣). إلا أن قائد الحملة اضطر إلى توفير الاحتياجات الضرورية لعسكره ولو استلزم ذلك استخدام القوة، بعد أن تعرض الجند للجوع، والخيول للمهلك. فلما توجه بعض العسكر لشراء احتياجاتهم، وامتنع الناس عن البيع لهم واعتدوا عليهم، عمد الجند إلى قهر المزروعات الممتدة حول تعز. ومع ذلك، فقد كانوا ينجحون إلى السلم، فكلما وجدوا من يبيعهم الطعام اشتروه منه مقابل دفع الثمن (٤). وبهذه السياسة أحبط قادة الحملة المملوكية خطة المجاهد في حملهم على العودة قبل أن ينفذوا مهمتهم. ولم يجد المجاهد أمامه سوى إيجاد ذريعة يتعلل بها لاجلاء العسكر.

(١) المقرئى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن تفرى بردى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٢) الفيومى : نشر الجمان ج ٣ ص ١٨٧ ب .

(٣) الفيومى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) الخورجى : للعقود ج ٣ ص ٣٣ ، المسجد ص ٤٠٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٢٩٢ .

المملوكي . أو تدبير مكيدة يتخلص بها من الحملة بأكملها ، فطلب تقسيم
العسكر إلى مجموعات وتوزيعهم على المناطق المختلفة في عدن ولحج وأبين وصبيا
ومخلاف جمعفر ومواقع أخرى متفرقة^(١)، وكان طبيعيا ألا يقبل قائد الحملة
هذا الطلب لما يتوفر فيه من سوء النية، هذا إلى جانب أن توزيع فرق الحملة على هذا
النسب يمزق قوتها ويفتت وحدتها ويعرض العسكر إلى أشلاء يمكن إبادة
بسهولة . فلما أعلن رفضه كتب المجاهد إليه بطلب مغادرة البلاد لانتماء
مهمتهم ، وأنه لم تعد هناك حاجة لبقائهم^(٢)، وقال : « وإن كان السلطان
[الناصر] قد رسم لكم بالإقامة فالأمر إليه، وإن كان إنما أرسلكم لنصرتي فارجموا
إلي، أيراب السلطان^(٣) . وامتنع تماما عن الوفاء للحملة بما كان قد التزم به
في كتابه للسلطان الناصر محمد بن قلاوون . وقت أن طلب مساعدته ، واعتذر
بأن جميع أموال بلاده محفوظة في حصن الدملوة الذي يسيطر عليه منافسه
الظاهر عبد الله ، فأشهد بغير قضاء تعز على هذا الموقف ، وبأن المجاهد
طالب إليه العودة بالحملة إلى مصر^(٤) .

وفي شعبان سنة ٧٢٥ هـ / يوليو ١٣٢٥ غادرت القوات المملوكية تعز^(٥)

(١) النيومى : نفس المصدر والجزء ص ١٨٨ أ .

(٢) الخزر جى : العقود ج ٢ ص ٢٣ ، العسجد ص ٤٠٩ ، ابن الديبع :
قرة العيون ص ٩٣ أ .

(٣) النيومى : نفس المصدر والجزء ص ١٨٨ ب .

(٤) النيومى : نفس المصدر والجزء والصيغة ، النقرى : السلوك ج ٢
ص ٢٩٨ ، ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٨٧ .

(٥) الخزر جى : العقود ج ٢ ص ٣٤ ، العسجد ص ٤٠٩ ، ابن الديبع :
قرة العيون ص ٩٠ أ .

في طريقهم للعودة ، فكان وصول القوات إلى القاهرة في ذى القعدة من نفس العام (١) ، فاستقبلهم السلطان الناصر في القلعة وخلع عليهم. ولكنه لم يلبث أن غضب على بيبرس وسجنه لاتهامه - بغير دليل - بالاستيلاء على أموال من صاحب اليمن وغيره ، ولتقاعسه - أمام تصرفات المجاهد - في الاستيلاء على اليمن (٢) .

أما السلطان المجاهد الرسولي ، فيبدو أنه خشي انتقام السلطان المملوكي ، فعمد إلى إزالة ما ترسب في نفس السلطان من عوامل الاستياء من تصرفاته نحو عسكريه ، فأعد - في نفس العام - هدية نفيسة بعث بها في ذى القعدة إلى مصر (٣) . ووصلت إلى البلاط المملوكي في ربيع الأول سنة ٧٢٦ هـ / فبراير ١٣٢٦ م ، فأكرم السلطان علي الرسول كسابق عادته (٤) ، وكانت عودة تلك السفارة إلى اليمن في ذى القعدة ٧٢٦ هـ / سبتمبر ١٣٢٦ م ، أي بعد مضي عام كامل ، بهدية من ثلاثين مملوكا (٥) . ومن العجيب أن المصادر المصرية لم تشر

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢١ ص ١٨٥ ، ابن أيبك : كنز الدرر ج ٩ ص ٣٥٠ ، المقرئ : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٨٧ ، أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٩٧ وما بعدها .

(٢) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٢٦٨ و ٢٦٧ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٨٧ ، ج ١٠ ص ١٠١ .

(٣) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٣٦ ، العقد الفاخر ج ٢ ص ٣٩ أ ، باخرمية : تاريخ نغر عدن ج ٢ ص ١٤٣ .

(٤) الفيومي : نثر الجمان ج ٣ ص ٢٠٦ أ

(٥) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٣٦ ، العقد الفاخر ج ٢ ص ٣٩ أ ، باخرمية : نفس المصدر والجزء ص ١٤٤ .

إلى رد الفعل لدى الناصر محمد بن قلاوون من مسلك المجاهد الرسولي إزاء الحملة ، ولا نشك في أن الناصر استاء من موقف المجاهد، ولكنه لم يكشف عن استيائه ، واكتفى بمعاينة قائد حملته لتقاعسه عن واجبه في احتلال اليمن وردا على تحديات السلطان الرسولي ، وتأديبها له على موقفه السيء من الحملة التي كانت تستهدف مساعدته .

وتوقف المصادر عن إمدادنا بالمعلومات عن العلاقات اليمنية المصرية إلى سنة ٧٣٠ هـ / ١٢٣٠ م، ففي شوال من تلك السنة (يولييه) وصلت هدية المجاهد الرسولي إلى مصر ، ومن بينها فيلين، ولكن السلطان الناصر لم يحسن استقبال الرسل ، وعنفهم وأمر بسجنهم لتعرض سلطانهم لسفارة هندية^(١) كانت في طريقها إلى مصر واستيلائه على الهدية ، وإقدامه على قتل الرسول الهندي^(٢) ، مما أدى إلى وصول سفارة هندية أخرى عن طريق بغداد سنة ٧٣١ هـ / ١٣٣١ م .

(١) يذكر أن هدية صاحب الهند كانت « هدية عظيمة لم يرسل مثلها الملك قبله » ، وأنها لما وصلت إلى ثغر عدن قتل الرسول الواصل بها باتفاق من الملك المجاهد (وتم الاستيلاء) على تلك الهدية بأكملها وأن الذي أهدها المجاهد ... هو شيء يسير من جماتها ، (نشر الجمان ج ٣ ص ٢٥٥ ب ، ٢٦٢ ب .)

(٢) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ١٠١ ، السلوك ج ٢ ص ٣٢٢ ، الشوكاني : البدر الطالع ج ٢ ص ١٨٠ . (كان ملك الهند المقصود هو سيفيات الدين أولوغ خان محمد بن جنان بن طغلق (٧٢٥ - ٧٥٢ هـ) السلوك ج ٢ ص ٣٢٢ حاشية ١ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٣٣ (K.W.) zettresteen =

ومن الجدير بالذكر أن الإمام الزيدى انتمز فرصة تدهور العلاقات بين السلطان المجاهد الرسولى والسلطان المملوكى الناصر محمد ، وأرسل سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣٢ م رسولا إلى مصر^(١) ، ويشكو من المجاهد ، ويعدد مطالبه ، ويطلب إمداده بقوة عسكرية للقضاء على بنى رسول ، وفى مقابل ذلك وعد بتقديم بعض ما يتم الاستيلاء عليه إلى السلطان المملوكى ، ولكن الناصر أحاط بقوله ، أنه لا رغبة لنا فى السلب وأن النصر تكون لله خالصة^(٢) .

وتوضح الرسالة التى بعثها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون مبادئ تدهور العلاقات المصرية اليمينية وقتئذ ، إذ أرسل إلى المجاهد يتهم عليه ويستعزى به ، ويهدده بإرسال الجيوش إلى بلاد اليمن ، لتقويم أودعها ، وتمكين شديها ، وإقامة أمر الملك فيها ، وحسم مادة الفساد عن نواحيها ، وتطمين البلاد ، وإقامة الرعايا من الأمن فى أوطانهم ؛ ... فإن اليمن وغيره فى يمينه ، وهى محسوبة من أعداد ما كنا المحروسة ، ... ولا بد من النظر فى أمرها ، وإعمال الفكر فى إزاحه ضررها ، وتجريد العساكر المنصورة ، ... فإن المملكة المذكورة نالت عليها المدد ، ومضى عليها الأبد ، وهمة من فيها إلى الله مصروفة ، وعلى الذات موقوفة ، وأحكام الجهاد عندهم مرفوضة ، حتى كأن الجهاد ... على غير وجوب ، وكأن ما أعد الله من الأجر عليه إنما

= Beitrage zur Geschichte der Mamluken Sultane (Leiden, 1919), p.183, Lane - Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p.310.

(١) الفلقشيدى : صبيح الأشيخ ج ٥ ص ٥٢ .

(٢) الفلقشيدى : تنبيه المضل ج ٧ ص ٣٣٧ وما بعدها .

يريد به الذين يكتزون الذهب ... وتفرقت الأموال وما جند الله فيما احتبوا عليه من ذلك سهم ولا نصيب ، ... وأهم الأمور عندنا أمر الغزاة ... وهذه المملكة اليمنية قد اجتمع فيها من الأموال ما يربى عن الحصر والحد ، ويزيد عن الاحصاء والعد ، لا يتفق منها شيء في الجهاد ، ولا يعد منها مصروف إلا بما لا نحمد عاقبته في المعاد ، قد صيد عنها جند الله الذين ينفقونها سرا وجهرا ويستنزلون بها أرواح أعداء الله على حكم سيفوفهم قسرا وقهرا ، وأبيحت لمن تأبى الجهاد جانبا ، ورضي باللهو صاحبا ، واغتنى السلاح لغير يوم البأس ، واعتنى بارتباط الجياد بطرا ورياء الناس ... (١)

وظل التوتر يسود العلاقات بين مصر واليمن ، ولم يطرأ أى تحسن دلى تلك العلاقات ، لاطمئنان المجاهد بعد أن قضى على منافسه ابن عمه الظاهر عبد الله (٢) ، واستقر له الأمر في اليمن دون منافس وتصوره أنه ليس في مقدور مصر المملوكية غزو اليمن ، لانشغال سلطانها بالحروب ضد التتار الذين عرف عددهم وجلدهم ، والفرنج الذين طال وكثر في عداوة الإسلام أبدهم ومددهم ، والأرمن الذين هم أكثر الطائفتين - في الظاهر وفاقا - وأشد القتتين في الباطن نفرا وفاقا (٣) . وإذا اطمأن المجاهد إلى ذلك توقف عن إرسال الهدايا التي اعتاد سلاطين بني رسول ارسالها إلى مصر ، وعمل في نفس الوقت

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٤٤ وما بعدها .

(٢) القليوبى : نشر الجمان ج ٣ ص ٢٨٥ ب ، المقرئى : السلوك

ج ١ ص ٣٠٦ ،

Pluyfair : A History of Arabia, p. 9 .

(٣) القلقشندي : نفس المصدر والجزء ص ٣٥١ .

على توثيق العلاقات مع أشرف مكة ، وأغدق الأموال عليهم إلى حد أن اسمه أصبح يذكر في الخطبة بمكة بعد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (١) بدلا من السلطان أبي سعيد ملك العراق (٢) . وعلى هذا النحو سادت العلاقات الودية بين المجاهد وبين الشريف رميثة أمير مكة الذي لم يتردد في أن يعهد إلى ابنه الشريف ثقبه بأن يكون في صحبته عندما عزم على أداء فريضة الحج في سنة ٧٤٢ هـ (٣) / ١٣٤٢ م ، كما خرج الشريف رميثة وأكابر أهل مكة لاستقبال المجاهد عند مشارف مكة ، فخلع السلطان الرسول عليهم وأجزل لهم العطاء (٤) . ومن الجدير بالذكر أنه عمر مدرسة بمكة في الجانب الجنوبي من الحرم (٥) وخلع على أميرى الركب المصرى والشامى ، وأبدى رغبته في أن يكسو الكعبة ، ولكن أشرف مكة لم يمكنوه من ذلك ، خوفا من انتقام السلطان المملوكي . وسخر أشرف مكة أنفسهم لخدمة المجاهد ولم يدخروا وسعا لتوفير حمايته خشية أن يتعرض له المصريون بسوء (٦) .

وفي سنة ٧٥١ هـ / ١٣٥١ م توجه المجاهد الرسول للحجاز لتأدية فريضة

(١) ابن بطوطة : الرحلة - ص ١٠٠ .

(٢) ابن بطوطة : الرحلة - ص ١٠٢ ، العيني : عقد الجمان ج ٣ -

ص ٢١٠ .

(٣) الخزرجى : المسجد ص ٤٣٤ .

(٤) الخزرجى : العقود - ص ١٠٧ ، المسجد ص ٤٣٥ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة - ص ١١ ، المنهل - ص ٤٤٤ .

١٠٤٤ .

(٦) الفاسي : شفاء الغرام - ص ٢٤٧ .

الحج للمرة الثانية (١)، وبرفقته الشريف ثقبه بن رمينة (٢) - وكان لاجئاً عند المجاهد لانفراد أخيه عجلان بإمرة مكة - فلما اقترب موكب المجاهد من مكة أشيع أنه ينوى الاستيلاء على مكة، والقبض على الشريف عجلان وتنصيب أخيه ثقبه مكانه، والقيام بكسوة الكعبة بعد انتهاء موسم الحج وعودة ركب الحاج المصري (٣)، فأسرع الشريف عجلان وأبلاغ أمير الحج بالأمر (٤). ولهذا السبب لم يسمح المصريون للمجاهد أو سلاح دارينته بالسير بسلاحهم في مكة، ولم يتمكنوه من حمل الفاشية (٥). واتفق الشريف عجلان مع أمير الحاج المصري على رصد تحركات المجاهد تمهيداً لاعتقاله، ثم منحت الفرصة للوات، المملوكية في منى، فتمكنوا من هزيمة العسكر اليماني (٦)

(١) المقرئى : الذهب المسبوك ص ١١٤، ١١٦، ابن الدبيع : قررة العيون ص ٩٧ أ .

(٢) الخزرجى : العقد الفاخر ص ٢ ص ٤٠ ب ، باخرمة : نغر عدن ص ١٤٧ ، زبارة أئمة اليمن ص ١ ص ٢٤٩ .

(٣) الخزرجى : العقود ص ٢ ص ٨٣ - ٨٤ ، المسجد ص ٤٤٤ ، ابن نغرى بردى : المنزل ص ٤ ص ١٠٤ ، القلقشندى : صبح الاعشى ص ٥ ص ٣٢ .

(٤) ابن نغرى بردى : النجوم ص ١٠ ص ٢٢٦ .

(٥) المقرئى : السلوك ص ٢ ص ٨٣١ .

(٦) الفاسى : شفاء الغرام ص ٢ ص ٢٤٧ ، ابن نغرى بردى : النجوم ص ١٠

ص ٢٢٦ - ٢٢٧

ولم يجد المجاهد بداً من طالب الأمان والاستسلام^(١) حقناً للدماء ومراعاة
لحرمة المكان والزمان^(٢) واشترط عليهم عدم التعرض لأحد من الناس بسوء،
وسلم نفسه إليهم فأكرموه وسار معهم وسط مظاهر الترحيل والتعظيم، راكباً
بغلة إلى محطتهم، وهم يتزجلون بين يديه حتى أنزلوه في خيمة أقيمت خصيصاً
له، وسمح له باصطحاب وزيره الأمير فخر الدين زياد بن أحمد الكاملى^(٣)،
ونحفظوا على المجاهد وتوجهوا به معتقلاً إلى مصر^(٤)، فوصلها في العشرين
من المحرم سنة ٧٥٢ هـ / ١٨ مارس ١٣٥١ م، وسلطانها يومئذ الناصر حسن
ابن محمد بن قلاوون (٧٤٨ - ٧٥٢ هـ / ١٣٤٧ - ١٣٥١). فلما مثل المجاهد
بين يديه قبل الأرض ثلاث مرات، وكان الأمراء قد قيدوه عندما هموا
بالدخول به على السلطان، فأمر بفك قيده وأكرمه^(٥) وأحسن إليه وأجرى

(١) المقرئى : السلوك ، ص ٨٣٢ ، ابن تغرى بردى . النجوم ، ص ١٠٠
ص ٢١٧ .

(٢) الفاسى : شفاء الغرام ، ص ٢٠٧ .

(٣) الخزرجى . المقسود ، ص ٢٠٧ ، المسجد ، ص ٤٤٣ ، ابن الديبع :
قرة العيون ، ص ٩٧ .

(٤) الخزرجى : العقد الفاخر ، ص ٢٠٧ ، ابن تغرى بردى : المنهل
، ص ١٠٢ ، العيى : عقد الجمان مج ٩٣ ص ٩٠ ، باخرمة : نقر عسدى
، ص ١٤٨ .

De Gaury : op. cit. p. 101 .

(٥) الخزرجى : العقد الفاخر ، ص ٢٠٧ ، الفاسى : نفس المصدر
والجزء ، ص ٢٤٨ ، باخرمة : نفس المصدر والصفحة .

له الرواتب السنوية ، وأنزله بالأشرفية بالقلعة (١) وتخصيص له من يتولى خدمته (٢) . وقد استجاب الناصر حسن لشهادة بعض كبار أمراء المماليك ووافق على الإفراج عن المجاهد مقابل ٥٠ ألف دينار ، يتولى دفعها فدية له أو ربما كان هذا المبلغ لتغطية نفقات الحملة التي سبق أن جردها الناصر محمد بن قلاوون بناء على طلبه ولمساعدته في القضاء على منافسه ، أو تهويضا عن الهدايا التي كان قد توقف عن إرسالها إلى مصر ، أو التي كان قد بعث بها صاحب الهند وسطا عليها أتباعه . وكان في إمكان السلطان المجاهد اقتراض هذا المبلغ من تجار الكارم (٣) ، على أن يتم تسديدها لهم بعد عودته . ولكن الأمراء توسطوا لدى السلطان حتى أعفاه من المال ، وأذن له بالعودة إلى بلاده عن طريق الحجاز (٤) بعد أن التزم بإرسال المقررات السنوية التي التزم

(١) الأشرفية ، هي الإيوان المعروف بدار العدل بقلعة الجبل ، أنشأها المنصور قلاوون ، وجدها ابنه الأشرف خليل ، وعرفت باسمه . ثم أعاد الناصر محمد بناءها ، وزاد فيها قبة جليلة وأعمدة عظيمة ورتبها ونصب فيها سرير الملك ، وصنعه من العاج والأبنوس ، ورفع سمك الإيوان وجعل أمامه رحبة فسيحة مستطيلة ، وجعل بالإيوان بابا سريرا من داخل القصر . (انظر المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٠٦ ، وج ٣ ص ٣٤٠ ، وما بعدها ، السلوك ج ٢ ص ٢٨٩ حاشية ٥ ، ابن تهرى بردى : النجوم ج ٩ ص ٢٦ حاشية رقم ٢ ، عبد الرحمن زكى : قلعة صلاح الدين وما حولها من الآثار - القاهرة ١٩٧١ - ص ٥٤ - ٥٥ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٨٣٦ - ٨٣٧ .

(٣) ابن تهرى بردى : النجوم ج ١٠ ص ٢٢٩ .

(٤) القاسى : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢١٨ ، المقرئى : نفس المصدر والجزء

ص ٨٣٧ - ٨٣٨ .

بنو رسول بإرسالها إلى مصر (١) ، تعبيراً عن ولائه وطاعته . وأكرم السلطان حسن وفادته ، وخلع عليه وأجزل له العطاء ، كما أمدّه أمراء المماليك بكثير من الأموال ، واقترض من تجار الكارم (٢) واشترى عدداً من المماليك وكثيراً من الخيل والجمال (٣) .

فلما تجهز المجاهد للسفر عهد السلطان حسن للأُمير قشتمر شاد الدواوين بمصاحبته في سفره ، ومراقبة تصرفاته والإبلاغ عن المريب منها (٤) . وخرج المجاهد من القاهرة في صفر ٧٥٢ هـ / أبريل ١٣٥١ م ، فلما وصل الدهناء من وادي بنع ، وظن أنه أصبح بعيداً عن دائرة نفوذ السلطان المملوكي ، تطاول عليه ، واتسمت تصرفاته بالإساءة إليه (٥) . فصدرت الأوامر بالتوجه به إلى الشام واعتقاله بحصن الكرك (٦) ، فظل مقبلاً فيه إلى أن شفّع له نائب

(١) المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ٨٣٩ ، ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ٨٣٨ .

(٣) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ص ٢٢٩ .

(٤) المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ٨٣٩ .

(٥) المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ٨٤٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٠ ص ٢٦٤ .

(٦) الخزرجى : العقد الفار ج ٢ ص ٤٠ ، القلقشندي : صبيح الأئشى ج ٥ ص ٣٧٢ ، باخرمة : تاريخ نعر عدن ج ٢ ص ١٤٨ .

القلعة (١) لدى السلطان الصالح بن محمد بن قلاوون ، الذي كان قد اعتلى
دست السلطة في جمادى الآخرة سنة ٥٧٢هـ (٢) / أغسطس ١٣٥١ م . فغادر
المجاهد حصن الكرك وزار القدس والخليل (٣) في طريقه إلى القاهرة فوصله
في شعبان من نفس السنة فخلع السلطان الصالح عليه ، كما أرسل له الأمراء
بتهنئة كثيرة ، وتوجه إلى بلاده عن طريق عيذاب (٤) ، فوصل إلى اليمن
في ذي الحجة سنة ٥٧٢هـ / يناير ١٣٥٢ م حيث استقبل استقبالاً عظيماً .
وأقيمت بمناسبة عودته الاحتفالات والزيارات (٥) .

وبمجرد وصول المجاهد بادر بالكتابة إلى السلطان المملوكي يبلغه بتجهيز
التقدمات لإرسالها ، وأنه قام بسداد ما كان قد اقترضه من التجار ، وقدم عددًا
من التسهيلات للمراكب التجارية (٦) غير أنه منعهم من الإرساء في جدة انتقامًا
من أمراء مكة (٧) . أما الهدية التي أشار إليها في كتابه ، فقد أرسلها صديقه

(١) ابن تغري بردي : المنهل > ٤ ص ١٠٣ .

(٢) المقرئزي : نفس المصدر والجزء ص ٨٤٣ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام > ٢ ص ٢٤٨ ،

De Gaury : op. cit. P. 101 .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية > ٢ ص ٤٠ ، ابن تغري بردي : النجوم

> ١٠ ص ٤٦٤ ، المقرئزي : السلوك > ٢ ص ٨٥٢ ،

De Gaury : op. cit. p. 101 .

(٥) الخزرجي : العقود اللؤلؤية > ٢ ص ٨٩ - ٩٠ ، المسجد ص ٤٤٩ -

٤٥٠ ، المقد الفآخر > ٢ ص ٤٠ ، ابن تغري بردي : المنهل > ٤ ص ٣٠١

باخرمه : تاريخ نعر عدن > ٢ ص ١٤٨ .

(٦) المقرئزي : السلوك > ٢ ص ٨٠٧ ، ابن تغري بردي : النجوم > ٠ ص ٢٦٥ .

(٧) المقرئزي : السلوك > ٢ ص ٨٦٧ و ٨٨٨ ، الفاسي : شفاء الغرام > ٣

ص ٢٤٨ ، الطبري : الأراج المسكي ص ٤٩ .

ابنه الناصر أحمد (١) ، فلما وصلت الهدية إلى عيذاب أرسل متبولى قوص
إلا بلاغ السلطان ، واتخذت الاجراءات لاستقبال السفارة (٢) ، وبلغ مقدار
منصرف على الوافدين منذ وصولهم إلى عيذاب حتى دخولهم القاهرة في الحادى
والعشرين من ربيع الآخر سنة ٧٥٤ هـ / ٢٦ مايو ١٣٥٣ م ما يقرب من مائتى
ألف درهم (٣) ، حاشا الخلع وخمسمائة درهم يومياً ، عدا الضيافات التى أقامها أمراء
المماليك لهم (٤) . غير أن الهدية لم تحظ بالقبول عند استعراضها ، إذ كانت
هدية المؤيد داود للناصر محمد بن قلاوون تضم حوالى ألفى شاش (٥) . وعاد

(١) أرسل المجاهد صهبة ابنه الناصر كل من القاضى فتيح الدين عمر بن محمد
ابن الخطباء والأمير شمس الدين على بن حاتم والطواشى نظام الدين خضر الذى
توفى في عيذاب ، فأرسل المجاهد بدله الطواشى صفى الدين الرضوانى ، ولكنه
لم يدرهم إلا بعد دخولهم مصر . (الخزرجى : العقود ج ٢ ص ٩٣ ، المسجد
ص ٤٥١ ، ابن الديبع : قررة العميون ص ٩٨ أ) .

(٢) المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ٨٨٦ .

(٣) المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ٨٩٣ .

(٤) المقرئى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) عرضت الهدية فى بداية الأمر على الأمير طاز بالميدان ، ثم مثل الرسل
بهديتهم بين يدى السلطان وكانت تضم ستين رأساً من الرقيق - كانوا فى
الأصل ثلاثمائة ، مات الباقون فى أثناء الطريق - ومائتى شاش ، وأربعمائة
قطعة صينية ، ومائة وخمسين نافجة مسك (وعاء من الجلد) وقرن زباد (مكحلة)
بها الزباد وهو نوع من الطيب لمداداة الزكام) وعدة تفاصيل ، وخمسين
قنطاراً من القفل ، وغير ذلك من الأصناف كالزنجبيل والعنبر والأفاوية ،
بالإضافة إلى فيل واحد . كما أرسل هدايا أخرى لبعض كبار أمراء المماليك
(المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٨٩٢ - ٨٩٣) .

الناصر بن المجاهد بعد أربعة أشهر إلى بلاده (١) .

وفي سنة ٥٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م أرسل المجاهد هدية أخرى إلى مصر ضحية الطواشي صفى الدين جوهر الرضواني ، ولكن تلك الهدية لم يقدر لها الوصول لغرق السفينة بفعل الشعاب المرجانية في البحر الأحمر (٢) . ويستدل بما ذكره الخزرجي أن سفارة أخرى أرسلها المجاهد في عام ٥٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م أو العام السابق عليه ، ذلك أن الرسل عادوا إلى اليمن في ربيع الآخر ٥٧٦٣ هـ / فبراير ١٣٦٢ م ، وبصحبتهم بعض أمراء المماليك ، فأحسن المجاهد مقابلتهم (٣) . وهذا يدل على عودة العلاقات الطيبة بين اليمن ومصر ، ويغلب على الظن أنه المجاهد حرص - إلى نهاية عهده - على مداراة مصر (٤) .

واستمرت العلاقات الودية سائدة بين اليمن ومصر في عهد الأنضل عباسي.

(١) ذكر المقرئ أن الناصر أحمد أخذ معه عند عودته وكثيراً من الصنائع والمخايلين (المتخصصين في لعبة خيال الظل) والمتشعبين (أى أصحاب المندرة على إظهار الأشياء على غير أشكالها) والمساخر وأرباب الملاهي ، وشما عديدة قامت عليه بأموال جزيلة . وأنعم عليه السلطان والأمراء بغير نوع من الهدايا والتحف السنية ، وألبسوه الخلع الجليلة ، وبالغوا في إكرامه وجهزوا له ما يحتاج إليه من المراكب ، وكتب إلى ولاية الأعمال بإكرامه فسار في البحر ، (المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٩١٦ - ٩١٧) .

(٢) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١٠١ ، العسجد ص ٤٥٦ .

(٣) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١٢١ ، العسجد ص ٤٦٧ .

(٤) التلغشندي : أصبح الأعشى ج ٣ ص ٣٢ .

الرسولى ، وكان على عرش مصر آنذاك السلطان الملك الأشرف شعبان ،
فأرسل السلطان الرسولى إليه سفارة فى سنة ٧٦٧ هـ (١) / ١٢٦٦ م ، وصلت
إلى مصر مزودة بالهدايا والتحف ، فاستقبلها السلطان الأشرف وأنعم على
المرسل (٢) وأعادهم إلى بلادهم — حاملين الهدايا إلى سلطانهم (٣) وأشار
المقرئى إلى هدية يمنية أخرى توجه أحد الأمراء لاستقبالها سنة ٧٧١ هـ (٤) /
١٢٧٠ م كما وصلت هدية أخرى سنة ٧٧٥ هـ (٥) / ١٣٧٤ م وبقي أعضاء
تلك السفارة إلى سنة ١٧٧ هـ / ١٢٧٦ م وعادوا إلى اليمن محملين
بالهدايا والتحف (٦).

٣ - العلاقات اليمنية المصرية بين بنى رسول وسلاطين المماليك الجراكسة :

عاصر السلطان اليمنى الأشرف الثانى اسماعيل بن الأفضل الرسولى قيام
دولة المماليك الجراكسة فى مصر. وجاء قيام تلك الدولة فى وقت كانت
العلاقات اليمنية المصرية فيه يسودها الوئام والود . وكانت مصر فى تلك الظروف
تحرص على تنمية العلاقات الطيبة من أجل تسهيل تجارة العبور فى البحر

(١) الخزرجى : العقود ج ٢ ص ١٣٤ ، المسجد ص ٤٧٦ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٢٧ .

(٣) الخزرجى : العقود ج ٢ ص ١٣٥ ، المسجد ص ٤٧٧ .

(٤) المقرئى نفس المصدر والجزء ص ١٨٧ .

(٥) الخزرجى : العقود ج ٢ ص ١٥٢ ، المسجد ص ٤٩١ ، المقرئى
نفس المصدر والجزء ص ٢٢٢ .

(٦) الخزرجى : العقود ج ٢ ص ١٥٤ ، المسجد ص ٤٩١ .

الأحر (١) . وقد عمل السلطان الأشرف الثاني على توطيد أواصر الصداقة والمودة مع السلطان المملوكي الظاهر برقوق ، وتبادل معه الرسل والهدايا تعبيراً عن الصلات الحسنة التي تربط بينهما الدولتان (٢) . فبعث السلطان

(1) Pilote (E.): L' Egypte au Commencement du Quinzieme Siecle, p. 42 .

(٢) أرسل السلطان برقوق إلى السلطان الأشرف الثاني الرسول هدية في سنة ٧٨٧ هـ / ١٣٨٥ م . (الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١٨٢ ، المسجد ص ٥١١) . وأتبعها في العام التالي بهدية أخرى برفقة عدد من صنّاع الحرير السكندريين للعمل في اليمن . (الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١٨٦ ، المسجد ص ٢٥١) وثالثة في العام التالي (الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١٩٣ ، المسجد ص ٥٢٨) ورابعة سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م . فيها من أصناف المأكول والمشروب والملبوس والمشموم ، ومن التحف شيء كثير . ومن الخيل والبغال وکلاب الصيد وسباع الطير ما يستحسن ويستطرف شيء كثير ، (الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١٩٨ ، المسجد ٥٢١) . وفي سنة ٨٠٠ هـ / ١٣٩٩ م وصلت هديتان من مصر إلى اليمن كانت الأولى في صفر ، استقبلها السلطان الأشرف الثاني بنفسه في مدينة زبيد ، فكان يوم وصولها يوماً مشهوداً . وتضمنت الهدية ثلاثين مملوكاً واثنى عشر رأساً من الخيل « بسروج مفرقة وآلة حسنة ، وعدة جوار من الروميات والأرمينيات ، وطبيب ماهر من يهود مهسر . ومن الملبوس والمشموم والمطعم شيء كثير لا يحصى تحت الحصر الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٢٩٤ - ٢٩٥ ، المسجد ص ٥٦٦) أما الهدية الثانية فكانت في ذي الحجة سنة ٨٠٠ هـ / أغسطس ١٣٩٨ م (الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٥٦٩) ، وفي سنة ٨٠١ هـ وصلت هدية أخرى : الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٣٠٢ ، المسجد ص ٥٧٠) ، أما آخر تلك الهدايا فوصلت إلى اليمن سنة ٨٠٣ هـ (الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٣٠٧ ، المسجد ص ٥٧٤) وكان السلطان برقوق قد أرسلها قبل وفاته في شوال سنة ٨٠١ هـ / يونية سنة ١٣٩٩ .

الأشرف بالنفيس من الهدايا إلى السلطان الظاهر برقوق (١) . ونشير المصادر إلى حرص السلطان برقوق على تأكيد الروابط الودية مع السلطان الرسولي ، فكانت هداياه تصل سنويا إلى اليمن منذ عام ٧٨٧ هـ (٢) / ١٣٨٥ م حتى هدية سنة ٨٠٢ هـ (٣) ١٤٠٠ م ، التي أرسلها السلطان برقوق قبل وفاته سنة ٨٠١ هـ . ومما يذكر أن هدايا الظاهر برقوق وردت إلى اليمن سنة ٨٠٠ هـ / ١٣٩٩ م مرتين (٤) . وكان السلطان الأشرف يوالي بدوره مهادة السلطان المملوكي ويتبادل معه الهدايا (٥) وقد بلغ من مكانه السلطان برقوق لدى

(١) انقلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٧٢ - ٧٦ .

(٢) انظر الصفحة السابقة ، هامش ٢ .

(٣) الخزر جى : العقود ج ٢ ص ٣٠٧ ، المسجد ص ٥٧٤ .

(٤) الخزر جى : العقود ج ٢ ص ٢٩٤ - ٢٩٥ ، ٩٩٩ ، المسجد .

ص ٥٦٦ ، ٥٦٩ .

(٥) أرسل السلطان الأشرف هدية جليلة إلى الظاهر برقوق ٧٩٨ هـ / ١٣٩٦ م .

(الخزر جى : العقود ج ٢ ص ٢٨٣ ، المسجد ص ٥٦٢) وكان وصولها إلى مصر سنة ٧٩٩ هـ صحبة التاجر الكارمي برهان الدين المحلي الذي تردد بالهدايا بين الجانبين عدة مرات ، واشتملت الهدية على عدد من العبيد والطواشيشة والجواري ، وسيف محلي بالذهب ومرصع بالعقيق ، وحياصة (حزام) بهواميد عقيق مكملة بفصوص كبيرة من اللؤلؤ ، ووجه فرس من العقيق ، ومراة هندية محلاة بالفضة ومرصعة بالعقيق ، وعشرة براشم (براقع) للخيل ، وعدد من الرماح ، وشطرنج من العقيق الأبيض والأحمر ، ومراوح مصفحة بالذهب ، ومن المسك ألف مثقال ، ومثلة من العنبر الخام ، وسبعين أوقية زباد ، وغير ذلك من العود والصندل ، وبراني من الشهد (نوع من الرياحين) ،

السلطان الرسولي أنه لما وصل الخير لليمن بوفاة في المحرم سنة ٨٠٢ هـ /
سبتمبر ١٣٩٩ م (كانت وفاة الظاهر برقوق في شوال سنة ٨٠١ هـ / يونية
١٣٩٩ م) أقيمت صلاة الغائب على روحه بجامع زيد يوم الجمعة الثالث من
المحرم سنة ٨٠٢ هـ ، وأمر السلطان الأشرف بقراءة القرآن على روحه لمدة
سبعة أيام في كل من زيد وتعز وعدن (١) .

وتستمر العلاقات الحسنة بين اليمن ومصر بعد برقوق ، ويتبادل سلطان
كل منهما الهدايا مع الآخر ، ففي سنة ٨١٩ هـ / ١٤١٦ م أرسل السلطان
الناصر أحمد بن الأشرف الرسولي هدية تحتوي على الكثير من الشاشات الأرز
والملابس الحريرية ، وغير ذلك من الحرير والصيني والعود واللبان والصندل
وسروج الخيل من العقيق بأطراف ذهبية ، وقطاط الزباد فلما عرضت تلك
الهدية على السلطان المؤيد شيخ وقرى له كتاب صاحب اليمن أنعم على
الرسول كجاري العادة (٢) ، وأعاد الرسل مكرمين إلى اليمن ، حاملين معهم
هدية إلى سلطانهم (٣) . وتكررت الهدايا بين الجانبين في عامي ٨٢٠ هـ (٤) /
١٤١٧ م ، و ٨٢٢ هـ (٥) / ١٤١٩ م .

= ومن الحرير الخيام والبهار والأنطاع والصيني وتنفذ اليمن الشيء الكثير .
(ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ١٨ ص ٩٧ أ - ب ، المقرئ : السلوك
ج ٣ ص ٨٧٤ - ٨٧٥ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٦٦ - ٦٧) .

(١) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٣٠٦ ، المسجد ص ٥٧٢ .

(٢) المقرئ : نفس المصدر ج ٤ ص ٣٤٥ .

(٣) المقرئ : نفس المصدر والجزء ص ٣٦٧ .

(٤) المقرئ : نفس المصدر والجزء ص ٣٩٥ .

(٥) المقرئ : نفس المصدر والجزء ص ٤٧٩ .

وأبما - العلاقات اليمنية مع الدول التجارية الآسيوية وساحل إفريقيا

الشرقى ، وأثرها في ازدهار تجارة عدن والبحر الأحمر :-

كان للجهود التي بذلها سلاطين الممالك في مصر ، وخاصة الظاهر بيبرس ، لتأمين الملاحة في البحر الأحمر ، وما قام به السلطان المظفر يوسف الرسولي سلطان اليمن للقضاء على القرصنة في المحيط الهندي ، وتأمين وصول السفن التجارية إلى عدن ، أعظم الأثر في ازدهار حركة التجارة العالمية في عدن والبحر الأحمر .

وقد واصل سلاطين بني رسول اهتمامهم بتنشيط حركة التجارة، وعملوا على توطيد العلاقات مع الدول ذات المصالح التجارية في آسيا وإفريقية . وإحساساً بأهمية بلاد اليمن ، وموقعها الهام على طريق التجارة العالمية ، وضماناً لسلامة التجار ، لجأت الدول التجارية إلى الارتباط بعلاقات الود مع البلاط الرسولي ، وتوافدت رسلهم بالهدايا النفيسة إلى اليمن ، حتى أصبحت عدن قبلة الوافدين وماتقى السفارات (١) ، من الصين والهند وسيلان وقاليقوت (٢) وفارس وعمان والبحرين والحبشة ودول الطراز الاسلامي (٣)

(١) Lewis (Bernard) : Egypt and Syria (The Cambridge History of Islam, 1970). Vol I, p 223.

(٢) قاليقوت ، ميناء ومركز تجارى هام لتجارة التوابل والأحجار الكريمة وغيرها ، وتقع على ساحل ملابار على الشاطئ الغربى للهند ، وسلاطنتها يعرف بالسامرى ، وبقيصدها كثير من الجاليات من مصريين ويمنيين وأحباش وآراك وفارس وبحرانيين وصينيين وغيرهم (ابن بطوطه : تحفة النظار ج ٢ ص ١١٥ - ١١٦)

(٣) انظر ما بلى ص ٣٨ وما بعدها.

ساحل إفريقية الشرقية وغيرها .

١ - مع الدول الآسيوية :-

٢ - مع الصين :-

وفي سنة ٩٧٨ هـ / ١٢٧٩ م وفدت رسل الصين بالهدايا إلى السلطان المظفر .
يوسف الرسولي^(١) . وتوطدت العلاقات بين البلدين حتى أن السلطان المظفر .
عندما علم بامتناع ملك الصين عن السماح بختان أبناء المسلمين في بلاده أرسل
إليه هدية وكتب إليه يسأله السماح لهم وعدم الاعتراض على عملية الختان ،
فاستجاب له^(٢) . وعلى الرغم من أن المصادر لم تزودنا بمعلومات كافية عن
أخبار العلاقات مع الصين ، إلا أن استمرار حركة التجارة ينمض - في حد
ذاته - دليلاً على استمرار تلك العلاقات الطيبة . ففي سنة ٨٢٣ هـ / ١٢٠٠ م
وصل رسول الصين إلى السلطان الناصر أحمد الرسولي وقدم إليه كميات من
الهدايا والتحف بلغت من الكثرة أنها وصلت على ثلاث مراكب كبيرة ،
وقد قدرت قيمتها بعشرين لكا^(٣) من الذهب ، أي ما يوازي مليون دينار .
فاستقبل السلطان الناصر السفير ورحب به وبالغ في إكرامه ، وأرسل صحبته
كتاباً وهدية جليلة لملك الصين ، ويذكر مؤرخو الصين أنها دخل رسول ملك
الصين على السلطان الرسولي لمقابلته ، لم يقبل الأرض بين يديه ، بل قال له ،

- (١) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٢١٣ ، المسجد ص ٩٩٥ ، ابن الديبع :
هجرة العيون ص ٧٩ أ . (ويشير الدكتور أحمد دراج إلى أن السنة التي وفدت
عليها السفارة لم تعرف على وجه التحديد) ايضاحات جديدة ص ١٩٢ .
(٢) الخزرجي . العقود ج ١ ص ٢٧٩ ، المسجد ص ٣١٤ .
(٣) اللك - كما هو وارد في المعجم الوسيط - يساوي مائة ألف دينار .

سيدك صاحب الصين يسلم ويوصيك بالعدل في الرغبتة » فقال له السلطان :
« مرحبا بك ونعم المجيء جئت (١) .

ويبدو أن تلك السفارة الصينية كانت تستهدف أن يعدل سلطان الصين
سياسته تجاه التجار فيحسن إليهم ويخفف من حملته عليهم ، إذ أنه كان قد
أجحف بالتجار وجار عليهم وتعسف معهم (٢) ، الأمر الذي دعا الكثيرين منهم
إلى مقاطعة عدن (٣) .

ب - مع الهند :

أما الهند ، فقد توافدت رسلها بالهدايا الجليلة في سنوات متفرقة ، ففي
سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م جاء رسول صاحب الهند إلى السلطان نور الدين عمر
ابن رسول ، قبل وفاته بعدة أيام وتنبأ بدنو أجله (٤) ، كما وصلت رسل الهند
مرة أخرى في سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م بعد أن فتح السلطان المظفر الرسولي بلاد
ظفار (٥) ، وتكرر مجيء هؤلاء الرسل في عهد المؤيد في سنوات ٧٩٨ هـ (٦) .

(١) الخزرجي : المسجد ص ٥٨٥ - ٥٨٦ ، ابن الديبع : قرة العيون
ص ١١١ أ ، بغية المستفيد ص ٧٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٩٥ .
(٢) بالخزعة : تاريخ نعر عدن ج ١ ص ١٢ ، أحمد دراج : ايضاحات
جديدة عن التحول في تجارة البحر الأحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجري -
محاضرات الجمعية التاريخية ١٩٦٨ - ص ١٩٣ .

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٦٥ .

(٤) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٨٣ ، المسجد ص ٢٤١ .

(٥) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٢١٣ ، المسجد ص ٢٩٥ .

(٦) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٢٨٥ ، المسجد ص ٥٦٢ .

٨٠٠ هـ (١)، ٨٠٢ هـ (٢). (١٣٩٦ ، ١٣٩٨ ، ١٤٠٠ م). تعبيراً عن العلاقات
الودية التي كانت تربط الهند باليمن . غير أن الأمور لم تثبت أن تدهورت
عند عهد المجاهد نتيجة اعتراضه لاحدى السفارات الهندية المتجهة إلى مصر ،
وإستيلائه على الهدايا وإقدامه على قتل الرسل (٣) .

وفي عهد الأفضل بن المجاهد وصل رسل صاحب كنباية والسند في سنة
١٣٦٧ هـ / ١٣٦٧ م بخيلين بالتحف والهدايا التي اشتملت شتل شجر الفل الاحمر
والاصفر والازرق (٤) .

كذلك عمل صاحب سيلان على تدعيم علاقاته مع اليمن فأرسل في سنة
٨٠٠ هـ / ١٣٩٨ م هدية إلى السلطان الأشرف بن الأفضل ، وتضمن كتابه -
وهو عبارة عن ورقة من الذهب الخالص - بيانات الهدية التي كان من جملتها
القميصة والتحف وشتل الأشجار ، فأكرم الأشرف على الرسول السيلاني بخمسة
ممن جياذ الخيل ، وكسوة فاخرة (٥) .

ج - مع قاليقوت :-

أما قاليقوت فقد أرسل صاحبها سنة ٧٧٠ هـ / ١٣٦٩ م إلى السلطان

- (١) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٢٩٧ ، المسجد ص ٥٦٨ .
- (٢) الخزرجي . العقود ج ٢ ص ٣١٠ ، المسجد ص ٥٧٦ .
- (٣) انظر ما يلي ص ٤٤٦ وما بعدها .
- (٤) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١٣٥ ، المسجد ص ٤٧٧ ، ابن الديبع :
شجرة العيون ص ١٠٠ ب .
- (٥) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٢٩٧ ، المسجد ص ٥٦٨ ، ابن الديبع :
شجرة العيون ص ١٠٨ ب .

الأفضل بن المجاهد هدية تحتوي على الكثير من غرائب الأشجار والطيور^(١) كما أرسل تجار قاليقوط هدايا وكتابات إلى السلطان الأشرف بن الأفضل الرسولي سنة ٧٩٥ هـ / ١٣٩٣ م يعلنون ولائهم له ويستأذنه في السماح لهم بالخطبة له على منابر بلادهم . وكانت الخطبة لديهم قبل ذلك لصاحبي دلهي وهرمز معا . فوافق الأشرف على مطالبهم ، وأنعم على الرسل وأكرمهم^(٢) .

كما توافدت سفارات أخرى من كل من فارس^(٣) وعمان والبحرين وغيرها من دول آسيا^(٤) .

٢ - مع سواحل العدو الإفريقية :-

ارتبطت بلاد اليمن مع الحبشة وساحل إفريقيا الشرقية بعلاقات سياسية وحضارية موعلة في القدم لا مجال هنا للتعرض لجذورها ، ولا يهملها هنا سوى ما يتعلق بالفترة التاريخية الواقعة في نطاق هذه الدراسة . فقد اتخذ العرب من الساحل الشرقي لإفريقية مجالا للهجرة والتجارة ، واستقرت أعداد هائلة منهم ، وتكاثرت في المنطقة الساحلية ، وبمرور الزمن انتظمت تلك الجماعات

(١) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١٣٩ ، المسجد ص ٤٨٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٠ ب .

(٢) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٢٤٤ - ٢٤٧ ، المسجد ص ٥٤٥ .

(٣) ابن حاتم : السميط ص ١٠٠ أ - ب ، الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٢٠٧ - ٢٠٨ ، المسجد ص ٢٩٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٨ أ .

(٤) الخزرجي : العقود ج ١ ص ٢١٣ ، المسجد ص ٢٩٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٧٩ .

في إمارات عرفت باسم « الطراز الاسلامي » ، وهي تسمية أطلقت عليها بحكم امتدادها على الشريط الساحلي ، فكانت بمثابة الطراز ^(١) الفاصل بين البحر الأحمر والمناطق الداخلية .

ويضم لإقليم الطراز سبع ممالك على رأس كل منها ملك ، ولكل منها جيوشها الخاصة بها ^(٢) وهذه الممالك هي : -

١ - أوفات أو جبرت ، ومن مدنها زيلع ^(٣)

٢ - دوارو ، وتقع الى الجنوب من أوفات ^(٤)

٣ - أراييني ، وتقع الى الشمال الشرقي من بحيرة صابا ^(٥)

٤ - شرعا ، وتقع الى الغرب من أوفات ^(٦) .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٤ .

(٢) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار - مخطوط بدار الكتب رقم ٨ معارف عامة م - ج ٥ ص ١٠٣ أ .

(٣) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ج ٥ ص ١٠١ أ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٥ .

(٤) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ج ٥ ص ١٠٢ أ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٧ .

(٥) ابن فضل الله العمري : نفس المصدر والجزء ص ١٠٣ ب ، القلقشندي : نفس المصدر والجزء ص ٣٢٧ .

(٦) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ج ٥ ص ١٠٢ ب .

٥ - هدية ، وتقع جنوبي أوقات ، وملوكها أقوى وملوك الدويلات الإسلامية السبعة (١) .

٦ - بالي ، وهي لا تقل قوة عن أوقات (٢) .

٧ - دارة ، وتقع إلى الجنوب الغربي من بحيرة صانا ، وهي أضعف بمالك الطراز (٣) .

وكان ملوك دويلات الطراز السبعة ، يدينون بالولاء والطاعة للملك الحبشة ويحملون إليه مقررات سنوية محددة (٤) . وكان من جملة اختصاصه إقامة الملوك وتنصيبهم ، فإذا اتفق أن مات أحد ملوك الطراز أو غيرهم ، لا يجوز أن يخلفه أحد من أهله بغير موافقة الحطى واختياره لأنهم كانوا كالنواب له (٥) وأمرهم راجع إليه (٦) . وكان ملوك الحبشة يضغطون شعوب الممالك الإسلامية الخاضعة لهم ، ويحاربونهم كلها ويجندوا إلى ذلك سبيلا . وقد نشط

(١) ابن فضل الله العمري : نفس المصدر والجزء والصفحة ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٧ .

(٢) ابن فضل الله العمري : نفس المصدر والجزء ص ١٠٣ أ .

(٣) ابن فضل الله العمري : نفس المصدر والجزء والصفحة ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٩ .

(٤) ابن فضل الله العمري : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) ابن فضل الله العمري : نفس المصدر والجزء ص ١٠٣ أ .

(٦) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٢ .

المسلمون في الحبشة ابتداء من القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) عندما استشعروا ضعف ملك الحبشة وازدياد قوتهم (١).

وكانت الحبشة - في الفترة التي نحن بصدد دراستها - قد اتجهت بثقلها إلى مصر لارتباطها كنفسيا ببطارقة الاسكندرية ، وذلك أن بطريق القبط بمصر كان يتولى مسئولية تعيين مطران الحبشة من بين طائفة الأقباط اليعاقبة . وكان لهذا المطران حرق الاشراف على الشئون الدينية في الحبشة، كما أنه لم تكن تصح ولاية ملك الحبشة الا بتنصيب المطران له (٢).

وعلى الرغم من الصلات الحبشية المصرية المباشرة ، إلا أن نجاشي الحبشة كان يضطر في بعض الأحيان إلى التلويح إلى سلطان اليمن ومهاداته كلما تأزمت الأمور بينه وبين سلطان مصر ، وليتوسط السلطان الرسولي له لدى السلطان المملوكي ، ففي سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م وفد سفراء الحبشة على البلاط النيني برسالة من ملك الحبشة يكونون أملاك يطلب إلى السلطان المظفر الرسولي التوسط له عند السلطان الظاهر بغير من لارسال مطران من مصر . وفي سنة ٧٧٠ هـ / ١٢٦٨ م أرسل النجاشي سيف أرعد بالهدايا والتحف إلى السلطان الأفضل بن المجاهد الرسولي (٣) ، ولم توضح المصادر الهدف من إرسال هذه السفارة . علما بأن للعلاقات الحبشية المصرية كانت متوترة آنذاك ، كما كان ملك الحبشة قد اشتدت وطأته على مسلمي الطراز الإسلامي في ذلك الوقت .

Budge : A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia (١)
(London, 1928) vol. I, p: 288 .

(٢) المقرئزي : الامام ص ٤ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٠٨ .

(٣) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ١٢٩ .

وعلى هذا الأساس يمكن أن نستنتج أن هذه السفارة كانت تستهدف . أولاً : ضمان عدم تدخل اليمن في الصراع الدائر مع مسلمى الطراز ، وثانياً : ضمان استمرار التبادل التجارى المباشر مع اليمن .

غير أن ما تعرض له المسلمون بممالك الطراز من قتل وتشريد وتخريب ديار نتيجة لاشتداد أعمال العنف والحملات التى شنّها عليهم ملك الحبشة (١) ، أدى إلى فرار الكثيرين منهم إلى اليمن احتفاء بها أو طلباً لاجدات سلاطين بنى رسول . ففي سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م توجه ابننا سعد الدين أبى البركات محمد بن صبر الدين - من ملوك دويلات الطراز الإسلامى - إلى اليمن للاستنجاد بالسلطان الرسولى الناصر أحمد ، فأكرمها ووعدّها بمدايد العون لها (٢) . ولكن الظروف التى كانت تمر بها اليمن لم تمكن الناصر من بذل العون العسكرى لها . ويذكر المقرئى أنه أعطاها ستة خيول عادا بها إلى بلدها (٣) ، وقاما بإعادة تنظيم صفوف أتباعها لمحاربة ملك الحبشة . وفي سنة ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م عاد مرة أخرى مهزومين إلى الناصر أحمد فأكرمها (٤) ، وأمدّها بمائتى فرس بفرسانهم ، وما يلزمهم من آلات الحرب ، وتابعهم بالإمدادات حتى قويت شوكتهم (٥) .

(١) Budge : A History of Ethiopia, vol. p. I, p. 285

(٢) الخزرجى : المسجد ص ٥٨٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ ، بغية المستفيد ص ٧٧ .

(٣) المقرئى : الأمام ص ٢٣ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٦٥ - ٥٦٦ .

(٥) الخزرجى : المسجد ص ٥٨٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١١ ، أ - ب ، بغية المستفيد ص ٧٩ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٣٠١ .

ونستدل مما سبق أن اليمن عملت على مد يد المساعدة لمسلمي الطراز الإسلامي ، مما كان له أثره في تأمين التجارة مع ساحل افريقية الشرق ، حيث كانت ترد إلى موانئها متاجر الهند وغيرها ، أو تصدر منها منتجات المنطقة^(١) .
والحقيقة أن دول الطراز كانت تسيطر بفضل موانئها زبلع وتاجورة ومصوح وغيرها في البحر الأحمر على حركة التجارة في شرق إفريقيا ، وتحكمت في الطرق المؤدية إلى الداخل^(٢) بحيث كانت لا تصل التجارة إلى الحبشة أو تخرج منها إلى الساحل إلا عن طريقهم .

٣ - مظاهر اهتمام سلاطين بني رسول بشؤون عدن والتجارة البحرية مع الهند :-

وإذا كان سلاطين بني رسول قد حرصوا على توطيد العلاقات مع العديد من الدول على النحو الذي أوضحناه ، فإنهم قد عملوا من ناحية أخرى على تشجيع التجار للوصول إلى عدن . فقام المظفر الرسولي بإرسال الشواني في المحيط الهندي للقضاء على القرصنة وتأمين الملاحة في طريق السفن المتجهة إلى عدن . ونهيج خلفاؤه نهجه في الاهتمام بأمر هذا الثغر ، نزاره المؤيد داود الرسولي سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٩ م ، واستقبله التجار في عدن استقبالا حافلا ، وتباروا في تقديم الهدايا والتحف له ، ولكنه شكرهم وأعاد إليهم ما قدموه .

(١) Trimingham : Islam in Ethiopia (London, 1952) p. 32

(٢) سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى - المجلة التاريخية ج ١٤ سنة ١٩٦٨ - ص ٥ .

James : Routenis of Abyssia, pp. 2 - 10.

ووضع عليمه وأجرى على واخلد الهند على جارى عادتهم وأمر بإكرام النواخذة
والنصار المتردين إلى الشفر، (١).

ومع بداية عهد المجاهد بن المؤيد الرسولى مرت بلاد اليمن بحالة من الفوضى
والاضطراب لم تشهد لها مثيلا من قبل (٢)، فكان لتلك الحقبة أثرها الكبير
على عدن وتجارها، فقد استبد النواب بالمدينة أثناء الصراع الدائر بين المجاهد
وابن عمه الظاهر عبد الله، وجوعرت عدن من كل من الجانبين المتناقصين عدة
مرات (٣) باعتبارها مصدر الدخل الكبير الذى يمكن الاعتماد عليه لتغذية
الصراع ماديا. وظل الأمر كذلك حتى استقر الأمر أخيرا فيها للمجاهد
الرسولى (٤). ولهذا كان اهتمام المجاهد كبيرا بشفر عدن، فتدود عليه لإقرار
الأوضاع فيه (٥). وبلغ من اهتمامه به وكثرة تردده عليه أن أتى فى عدن

(١) الخزرجى: العقود ج ١ ص ٣١٩-٣٢١، المسجد ص ٣٣٧-٣٣٤،
بناخمة: تاريخ نقر عدن ج ٢ ص ٧٦، أحمد دراج: المضاحات جديدة
ص ١٩١.

(٢) انظر ما سبق ص ١٨٥ وما بعدها.

(٣) الخزرجى: العقود ج ٢ ص ١٣ و ١٩ و ٢٣ و ٢٥ و ٣٤ و ٣٥ و ٤٠-
٤٣ و ٤٤ و ٤٧ و ٤٩، المسجد ص ٣٩٦، ص ٣٩٨ و ٤٠١ و ٤١٠ و ٤١١-
٤١٣ و ٤١٥ و ٤١٧، العهد الفاخر ج ٢ ص ٣٨ ب، ٣٩ أ ب، ابن الديبع:
نقرة العيون ص ٩٣ أ-، ٩٤ أ ب، بناخمة: تاريخ نقر عدن ج ٢
ص ١٣٩-١٤٠ و ١٤٣ و ١٤٥ و ١٤٦.

(٤) الخزرجى: العقود ج ٢ ص ٥٢، المسجد ص ٤٢١-٤٢٢.

(٥) الخزرجى: العقود ج ٢ ص ٧٨ و ٨١، المسجد ص ٤٢٠؛ ٤٢٢،
بناخمة: تاريخ نقر عدن ج ٢ ص ١٤٧.

أثناء إحدى زياراته لها سنة ٧٦٤ هـ (١) / ١٠٦٣ م .

ولم يفتقر عزيم الأفضل بن المجاهد من بعده في الاهتمام بتنشيط حركة التجارة في عدن في سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م توجه إلى عدن ، وتنفذ أحوال التجار فيها ، ونشر العدل ، وأنعم على النواخذ وأبطل كثيرا مما أحدثه العمال ، وصار التجار تذكره بالجميل ونائله الجوزيل إلى كل ناحية في البر والبحر ، (٢) .

وحذا السلطان الأشرف بن الأفضل الرسولي حذوابيه وجده ، فتوجه إلى عدن سنة ٧٨١ هـ / ١٣٧٩ م ، وأبطل من المكوس المحدث شيئا كثيرا ، (٣) . كما زارها مرة أخرى في سنة ٧٩٣ هـ (٤) / ١٣٩١ م .

وهكذا استطاع سلاطين بني رسول المحافظة على مكانة عدن التجارية ، فقدموا الكثير من التسهيلات للتجار ، وعملوا على تخليصهم من المظالم التي أنزلها بهم نوابهم في عدن . كما كان لعلاقاتهم بالدولة التجارية أثرها في استمرار الحركة التجارية في عدن والبحر الأحمر .

(١) الخزرجي : العقود ٢ ص ١٢٣ ، المسجد ص ٤٦٨ ، المقد الفاضل ٢ ص ٤٠ ب ، باخرمة : نقر عدن ص ١٤٩ .

(٢) الخزرجي : العقود ٢ ص ١٤٤ ، المسجد ص ٤٩٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٣ .

(٣) الخزرجي : العقود ٢ ص ١٧٠ ، المسجد ص ٥٠٣ ، باخرمة : تاريخ نقر عدن ٢ ص ٢١ ، أحمد دراج : ايضاحات جديدة ص ١٩٢ .

(٤) الخزرجي : العقود ٢ ص ٢٢١ ، المسجد ص ٥٣٣ .

خامسا : تجارة العبور وموقف مصر واليمن منها :

١ - (ج) رد مصر في المحافظة على تجارة البحر الأحمر :

كان لتدهور العلاقات بين مصر واليمن ، وخاصة منذ أيام المؤيد الرسولي يوما تبع ذلك من الإجحاف بمصالح التجار في ميناء عدن أثره في استشارة السلطان المملوكي . وقد تجاوز الموقف مجرد استنكار تلك الأعمال ، وأرسال الاحتجاجات شديدة اللهجة ، إلى التلويح باستخدام القوة وإعداد الحملات العسكرية لوضع الأمور في نصابها ، والعمل على تأمين التجارة ، ولإلزام السلطان الرسولي بالانتظام في إرسال المقررات التي ألزم بها أسلافه لسلطان مصر (١) . غير أن بني رسول ازدادوا تسلطا على التجار ، واعتصموا السفنارات المارة بعدن في طريقها إلى مصر ، مما أغضب حكومات دول تلك السفنارات ، فاضطرت إلى إرسال رسائلها عن طريق الخليج الفارسي تجنباً للسرور بعدن .

ففي سنة ١٢٨٣/٥٦٨٢م أرسل حاكم سيلان سفراءه إلى مصر عن طريق الخليج ، وأوضح في كتابه رفضه التعامل مع سلطان اليمن ، وأوضح للسلطان قلاوون المنتهجات التي تشتتر بها بلاده من محاصيل وصناعات وتحف وغيرها ، وعرض عليه الارتباط المباشر مع مصر تجارياً (٢) ، واستعداداته

(١) انظر ماسبق ص ٤٠٠ وما بعدها .

(٢) يبرس الدوادار : زبدة الفكرة - ٩ ص ١٤٢ ب - ١٤٣ أ ،

Heyd (W.) : Histoire du commerce du levant au Moyen age .

T. I, pp. 424 - 46 ; Lane - Pool : A History of Egypt .

p. 281 .

لإرسال عشرين مراكبا سنويا ، ولكنه ضامنا لسلامة تلك الشحنات طلب أن يرسل السلطان رسولا إليه (١) ، وأن يبعث بآخر إلى عدن ، خوفا من أن يتعرض اليعنيون فيها لتلك السفن (٢) .

وإذا كانت المصادر لم تشر إلى موقف السلطان المملوكي من ذلك العرض ، إلا أنه يمكن القول أن السلطان قلاوون أصدر عدة أوامر تستهدف تأمين التجارة وحسن معاملة التجار ، مع منح تسهيلات كبيرة لترغيب التجار للوصول إلى الموانئ المملوكية ، وبدأ بإصدار تعليماته إلى نظار النصارى بأمرهم بعدم الإجحاف بالتجار وحسن معاملتهم والعمل على تسهيل الأمور لهم (٣) . ثم أتبع ذلك بمنشور أمان أصدره عام ٦٨٧هـ / ١٢٨٨ م وسيره مع التجار لينشروه في كافة البلاد التي يصلون إليها (٤) . ويهدف هذا المنشور إلى ترغيب تجار الصين والهند والسند واليمن والعراق والعجم والروم وغيرهم للتوجه ببضائعهم إلى الديار المصرية والشامية ، مؤكدا لهم استعدادهم لتأمينهم على أموالهم وأنفسهم ، ضامنا لهم حسن المعاملة والعدل ورعاية مصالحهم (٥) .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧١٣ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٧٧ - ٧٨ ، مجد جمال الدين مرور : دولة بنى قلاوون ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٣) القلقشندي : نفس المصدر ج ١١ ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٤٢ .

(٥) القلقشندي : نفس المصدر ج ١٣ ص ٣٤٠ - ٣٤٢ ، سعيد عاشور : مصر في عصر المماليك البحرية ص ٢١٠ .

Lewis (Bernard) : Egypt and Syria, p. 223 .

ووردهم بتقديم كافة التسهيلات ، مع إتاحة الفرصة لمن يرغب في الإقامة منهم ، في تحقيق الراحة ورغد العيش ، وطلب منهم الاستملاك من جانب الممالك الصغار (١) .

ويبدو أن هذه التجارة - تجارة الممالك - قد تأثرت بسيطرة المغول على الطريقين الآسيويين ، طريق الخليج والعاريق الذي يمر آسيا ، مما جعل السلطان المملوكي يركز الاهتمام على جلب الممالك باعتبار ذلك مطلباً أساسياً وملحاً تفرضه حاجة السلطنة المملوكية لزيادة عدد الجيش وتقويته بالعناصر الجديدة ، وتوطيداً لدعائم السلطنة وضماناً لاستمرار احتفاظها بقوتها .

لم تهتم المصادر ببيان رد الفعل الذي أحدثته هذا المنشور ، كما أنه ليس لدينا إحصائيات عن الرسوم المتحصلة من التجارة قبل إصدار المنشور أو بعده حتى يمكن أن نتبين منها مدى نجاح تلك السياسة . فغير أنه من المرجح أن النجاح كان ضئيلاً وغير ملموس لاعتبارات أخرى معاصرة يمكن إجمالها في النقاط الثلاثة الرئيسية الآتية :

أولاً ، تتعلق بالجهود التي بذلها المغول لانعاش الطريقين التجاريين الآسيويين .

وثانياً ، تختص بتماوان الفرنج مع المغول لاتفاق مصالحهما في القضاء على تجارة البحر الأحمر .

وثالثاً ، ترتبط بسياسة الممالك تجاه التجار ، وخاصة الفرنج ، وإزهاقهم بالرسوم الجمركية .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى - ج ٣ ص ٣٤٠ - ٣٤٢ .

فابتداء من أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) بدأ النشاط يدب في الطريق البري الآسيوي ، وازدهرت الحركة التجارية فيه نتيجة لقيام أباطرة المغول بتأمينه ، بحيث أصبح السالك في هذا الطريق مطمئنا على نفسه وماله . كما قام المغول بمنح تسهيلات كبيرة للتجار ، وأقيمت لهم الفنادق على الطريق للراحة ، وخففت عنهم أعباء الرسوم الجركية ، وسمح للتجار - ومنهم الفرنج - بالتنقل داخل الامبراطورية . وفي الموانئ إلى هرمز وقاليقوت وكولم وموانئ الصين نفسها . وهو أمر لم يكن سلاطين مصر يسمحون به لغير المسلمين ، أما تجار الفرنج فكان الممالك يحددون تحركاتهم في إطار محدود لدواعي الأمن ، ومنعا من تحقيق الاتصال التجاري المباشر بينهم وبين أسواق التجارة الشرقية . زد على ذلك أنه لم يكن لهم والمسيحيين عامة حق الإبحار في النيل أو البحر الأحمر (٢) . تأمينا للمقدسات الاسلامية في الحجاز كما اقتصر السماح للسفن العربية ... كسفن مصر واليمن والأقاليم الاسلامية على الساحل الشرقي لإفريقية ... بالملاحة في البحر الأحمر (٢) .

فلما تمكن المغول من تأمين الطرق المارة بالمناطق التي يسيطرون عليها ، عملوا على تنشيط حركة التجارة فيها ، كما عمل لبلخانات فارس على استعادة مكانة طريق الخليج الذي كانت حركة الملاحة فيه قد تأثرت . بسبب ازدياد

Thenaud (J) : Le voyage d' Outre Mer de Jean thenaud, (١)

p. 4 .

Neibuhr: Voyage en Arabie et en d' autres pays, T. I, (٢)

pp, 208 - 212 .

خطر القراصنة (١). فبعد أن تمكن الإيلخانات من تطهير الخليج من القراصنة وتأمين الملاحة فيه ، اتبعوا سياسة جرمية مغربة (٢) ، وأعفوا بعض الأصناف من تلك الرسوم (٣).

وقد وجد الصليبيون - في التعامل التجاري مع المغول عبر الطريقين المشار إليهما - فرصة لفرض الحصار الاقتصادي على مصر تنفيذًا للقرارات البابوية (٤) التي تجددت بعد سقوط عكا في أيدي المماليك سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م (٥) ، وعجز القوى الصليبية عن استعادتها . ومن ثم تحسّلوا إلى التعاون مع القوى المغولية للقضاء على تجارة البحر الأحمر (٦) . وهكذا تطورت الحروب الصليبية إلى حرب اقتصادية بمقاطعة الموانئ المملوكية ، وتعاون الفرنج - وخاصة الجنوبيين - مع الخان أرغون لتحويل التجارة إلى الخليج الفارسي ، وذلك بإرسال بعض السفن في سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م عبر

(١) أحمد دراج : ايضا حات جديدة عن التحول في تجارة البحر الأحمر

ص ١٨٧ - ١٨٨ ،

Wilson : The Persian Gulf , pp. 82 - 87 .

Heyd : Histore, de Commerece T. 2, p. 118 .

(٢).

Heyd : op . cit., p. 132 .

(٣).

Thenaud : Le voyage; p, 4 .

(٤).

(٥) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٢٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة

ج ٨ ص ٥ وما بعدها ، محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ص ٢٤٢ .

سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٧٤ ، الأيوبيون والمماليك ص ٢٦٣ ،

مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٣ .

Heyd : op. cit. T. 2, p. 35 .

(٦)

الخليج الفارسي - بالاشتراك مع الجنوبيين - إلى المحيط الهندي لفرض الحصار على عدن، واعتراض السفن التجارية المتجهة إليها، وإجبارها على الدخول إلى الخليج، وبذلك يتم قطع الطريق المصري إلى الهند عبر البحر الأحمر^(١). ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، وإنما امتد التفكير إلى إنشاء عدد من السفن لاستخدامها في نقل البضائع الشرقية من مصادرها رأساً إلى الخليج الفارسي، مع منع السفن الأخرى من التوجه إلى عدن. وتنشيط الحركة التجارية في الخليج عمل الإبلخان المغولي على إنشاء ميناء جديد بدلاً من هرمز لمقاومة الزيادة في الحركة التجارية^(٢).

والواقع أن السياسة البحرية التي اتبعتها الممالك كان لها أبعاد أخرى بالإضافة إلى أهمية البحر الأحمر، وساعد على انعاش الطريق التجاري عبر الخليج، التفضيل التجاري، وخاصة الفرنج، استخدامه والتعامل مع المغول، خاصة بعد استيلاء الممالك على عكا، وارتفاع الرسوم البحرية في الموانئ المملوكية بحيث بلغ ما يسدده تجار الفرنج من رسوم ما يصل مقداره ثلثي قيمة البضائع

Ferrand (G.) Une Navigation Européenne dans

(١)

l'Océan Indien au 14^{ème} siècle (J. Asiat. 1922, T. 20) p.

309, Pratiannu (G.I.) : Recherches sur le Commerce

Genois dans la Mer Noire au 13^{ème} Siècle (paris, 1929)

p. 188, Lewis (Bernard) : Egypt and Syria. (Camb. Hist. of Islam) vol. I, p. 223 .

Heyd : op. cit. T. 2, p. III.

(٢)

أحياناً^(١) ، مما كان مثار احتجاج هؤلاء التجار ودافعاً لهم على ترك التعامل مع الموانئ المملوكية ، والتوجه إلى الطرق التجارية التابعة للمغول لما يلاقونه من تسهيلات كبيرة لديهم .

وأمام خطر انهيار التجارة الشرقية في البحر الأحمر ، اضطر السلطان المملوكي إلى تعديل سياسته بهدف استعادة النشاط التجاري مرة أخرى . فقام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بإغراء التجار الفرنج والبنادقة بوجه خاص على العودة إلى التعامل مع الموانئ المملوكية^(٢) ، فكان للتسهيلات التي منحها لهم وللجنوبيين أثرها في كسر الحصار الاقتصادي الذي فرضته البابوية على مصر^(٣) .

أما مغول فارس ، فقد عمل الناصر محمد على توجيه ضربة لهم والانتقام منهم ، لموقفهم العدائي من المماليك ، وتحالفهم مع الصليبيين لضرب مصر اقتصادياً . فحاربهم السلطان الناصر وانتصر عليهم بالقرب من حمص في سنة ٥٦٨١هـ / ١٢٨٢ م .

ومن الجدير بالذكر أن السلطان محمد بن طغلق^(٥) ، انتهز فرصة العداء القائم بين المماليك ومغول فارس وأرسل سنة ٧٣١ هـ / ١٣٣١ م سفارة سرية

(١) Heyd : op. cit., T. 2, p 25 .

(٢) Heyd : op. cit., T.2 p. 40 Wiet : L' Egypte / rabe, (٢)

p. 501 .

(٤) Heyd: op. cit , T. 2 p 49 .

(٣) ييريس الدوادار : زبدة الفكرة - ص ٩١٣ ب ، محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ص ١٦٣ .

(٥) هو السلطان غياث الدين أولوغ خان محمد جينا بن طغلق (٧٢٥ - ٧٥٢هـ) .
النويري : نهاية الأرب - ص ٣١ ص ١٥ .

إلى الناصر محمد بن قلاوون ، عن طريق الخليج الفارسي ^(١) ، تفاديا لاعتراض السلطات اليمنية لها ^(٢) . ورغم أن المصادر لم تشر إلى أسباب تلك السفارة ، وما أسفرت عنه من نتائج ، إلا أنها قد تكون من أجل التحالف مع المماليك ضد إيلخانات فارس ، والقيام بعمل عسكري مشترك للقضاء على دولتهم ^(٣) . غير أن ذلك جاء في فترة كانت العلاقات فيها بين المماليك والدولة الإيلخانية قد تحسنت ، وخاصة في عهد الإيلخان بوسعيد ^(٤) . أضف إلى ذلك أن اشتراك المماليك في مثل هذا العمل من شأنه أن يؤدي - بعد القضاء على دولة الإيلخانات - إلى زيادة نشاط التجارة في طريق الخليج ، وهذا لا يتفق ومصلحة السلطنة المملوكية ، التي كانت تعمل على زيادة النشاط التجاري للبحر الأحمر على حساب الطرق التجارية الأخرى ، وهو ما بدت بشائره في الظهور بعد وفاة الإيلخان بوسعيد سنة ٥٧٣٧/١٣٣٥م . واضطراب الأحوال الداخلية في بلاده من بعده ، وشمل خلفائه في استعادة الأمن لهذا الطريق ^(٥) .

(١) المقرئى : السلوك ٢ ص ٣٣٣ .

(٢) انظر ماسبق ص ٤٣٧ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ١٤٠ - ١٤١ .

Lane - Poole : A History of Egypt, p. 310 .

(٤) انظر المقرئى : السلوك ٢ ص ٢٠٩ و ٢١٢ ، محمد جمال الدين سرور :

نفس المرجع ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٥) المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ٤٠٤ - ٤٠٦ ، محمد جمال الدين

سرور . نفس المرجع ص ٢١٢ - ٢١٣ .

Howorth : A History of Mangols, vol III, pp. 634 - 640 .

Browne : A Literary History of persia, vol : III, pp.

57 - 58 .

٢ - تدهور ميناء عدن وإحلال ميناء جدة مكانته في حركة التجارة العالمية :-

ليس من شك في أن سلاطين بني رسول بتأمينهم لحركة الملاحة في المحيط الهندي ، وارتباطهم مع الدول التجارية في آسيا بعلاقات ودية كان تدهور حركة التجارة في عدن فأسهموا من ناحيتهم في انتعاش تجارة البحر الأحمر العالمية . على أن تدهور علاقاتهم بسلاطين مصر ابتداء من عهد المؤيد بن المظفر وإجحاثهم بمصالح التجار وإرهاقهم لهم بالضرائب ، وتحديدهم للسلطنة المملوكية باعتراض السفارات الواصلة إلى عدن في طريقها إلى مصر ، وإقدامهم على انتهاب الهدايا وقتل الرسل ، وقيامهم بتجريد أشرف مكة على الخروج عن طاعة السلطنة المملوكية ، ومنعهم للسفن من التوجه إلى جدة ، أو شحن المراكب التجارية بالمقاتلة بحجة حمايتها من طغيان أشرف مكة (١) ، كل ذلك كان من شأنه أن يهدد أمن التجارة في البحر الأحمر ، ويتناقض مع ما كانت يبذله سلاطين المماليك من جهود لتأمين حركة التجارة ، والاحتفاظ بازدهار هذا الطريق وتنشيط حركة للتجارة العالمية فيه ، والقضاء على منافسة الطرق التجارية الأخرى .

وقد واصل سلاطين اليمن اضطناع سياستهم التعسفية مع التجار ، وهي سياسة ازدادت حدتها مع بداية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) فقد أساء السلطان الناصر أحمد الرسولي إلى التجار حتى أرغمهم على الفرار من عدن ، والالتجاء إلى جدة والهندومليبار ، تخلصا من المظالم التي كانوا يتعرضون

(١) العامي : العقد الثمين ج ١ ص ١٧١ .

لها . فانتقم الناصر الرسولى منهم باستصفاء ما لهم من أموال وأمالك في عدن^(١) . وأيا ما كان الأمر ، فقد تأثر مركز عدن التجارى بسبب تلك الإجراءات ، ودهورت أحوال تلك المدينة وانقطعت المراكب الواصلة إليها من الهند وغيرها^(٢) . ويمكن القول بأن سفارة ملك الصين التى وصلت في سنة ٨٢٣ هـ / ١٤٢٠ م إلى اليمن ، كانت تستهدف لإقناع الناصر أحمد بحسن معاملة التجار^(٣) .

على أن تمادى السلطان الرسولى في سياسته كان دافعا لأحد تجار قالقوط ويدعى الخواجه ابراهيم ، وكان من كبار التجار الذين يترددون بمراكبهم على عدن ، بالقيام بمحاولة جريئة تعتبر بداية لمرحلة هامة في تاريخ تجارة البحر الأحمر ، وكان هذا التاجر قد حصل عليه جور في ولاية عبد الرحمن ابن جميع على عدن ، وذلك آخر أيام الناصر بن الأشرف^(٤) ، ولهذا قرر هدم التوجه إلى عدن ، وواصل سنة ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م تقدمه إلى باب المندب . متجاوزا عدن ، وتوجه رأسا إلى جدة ، فلما أرمى بمراكبه فيها ، قام شريفه مكة حسن بن هجلان بمصادرة ما معه من بضائع^(٥) ، وباعها لصالحه وبالأسمار التى حددتها للتجار^(٦) . ولكن ما حدث لم يفت في عضد التاجر

(١) باخرمه : تاريخ نجر عدن ج ١ ص ١٢ ، قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٣ .

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٦١ .

(٣) انظر ما سبق ص ٤٣٥ - ٤٣٧ .

(٤) باخرمه : قلادة النحر ج ٣ ص ١٠١٠٣ .

(٥) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٦٨١ ، أحمد دراج : ايضاحات جديدة

ص ١٨٧ .

Wiet : L'Egypte Arabe, p. 573.

(٦)

الهندي ، وصمم على الاستمرار في بذل محاولاته ، وعاد في العام التالي ، ولكنه في هذه المرة توجه إلى سواكن ودهلك غير أنه لم يكن أسعد حالا من المرة السابقة ، ولقد نفس المصير (١) . ورغم كل ذلك فقد كرر التاجر ابراهيم محاولته للمرة الثالثة سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢ م ، وأراد تجربة التعامل مع ميناء يشع ، ولكن الأمير قرقاص الشعباني - أحد أمراء الألوف - أقنعه بالرسو في جدة ، فتوجه إليها في مركبين ، فعومل معاملة حسنة رغبته في العودة إليها مرة أخرى في العام التالي بأربعة عشر مركبا (٢) .

وكانت محاولات التاجر ابراهيم فرصة سانحة استغلها السلطان المملوكي برسباي ، للتعامل مباشرة مع تجار الشرق ، وهو نفس التخطيط الذي سبق أن عرضه حاكم سيلان على السلطان برقوق سنة ٦٨٢ هـ ، وما أعقبه من قيام هذا السلطان بإصدار منشوره المعروف سنة ٦٨٧ هـ ، لتغيب التجار في الوصول إلى الموانئ المملوكية (٣) وهو ما تحقق على يد التاجر ابراهيم بعد قرن ونصف قرن من الزمان .

ومها يكن من شيء فقد أدرك برسباي أهمية وصول السفن الهندية إلى ميناء جدة ، وعمل على تحصيل الرسوم المستحقة على تلك البضائع لخزائمه ، وخشية أن يتعرض شريف مكة لتلك الرسوم ، أرسل برسباي قوة مملوكية

(١) المقریزی : السلوك ج ٤ ص ٦٨١ ، أحمد دراج : إيضاحات جديدة

ص ١٨٧ .

(٢) المقریزی : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) أنظر ما سبق ص ٤٤٦ - ٤٤٨ .

يرافقها سعد الدين بن المرة لتحصيل المكوس المستحقة على تلك السفن^(١). وكان نجاح التاجر الهندي ابراهيم في محاولاته للتعامل مع ميناء جدة ، حافظا له للارصول لاليها بأعداد أكثر من السفن ، فقام بتشجيع تجار الهند على عدم التعامل مع عدن وجمع نحو سبعة وعشرين مركبا وصل بهم عام ٨٢٩ هـ / ١٤٢٦ م إلى جدة^(٢) ، كما اقتدى به تجار هرمز وغيرهم بحيث بلغت عدة المراكب التجارية التي وصلت إلى جدة في ذلك العام أربعين مركبا^(٣) . فازدهرت جدة وأصبحت بندرا عظيما^(٤) ، كما أصبح « نظر جدة وظيفة سلطانية ، يخلع على متوليها ،^(٥) ، ويختص هذا الناظر بتحصيل الرسوم الجركية ، والعودة بها بعد الموسم إلى القاهرة ، وقد بلغ مقدار تلك المكوس أكثر من سبعين ألف دينار ، سوى ما لم يحمل »^(٦) .

(١) المقرئى : نفس المصدر والصفحة .

(٢) بانخرمة : قلادة المنخر ج ٣ ص ١١٠٣ .

(٣) الفامى : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢١٠ ، المقرئى نفس المصدر والجزء

ص ٧٠٧ - ٧٠٨ .

(٤) المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ٦٨١ ، ابراهيم على طرخان :

مصر في عصر المماليك الجراكسة ص ٨٨٦ ، ٨٨٨ .

Wiet : op. cit. pp. 574 - 76, Lane - Poole : op. cit. p. 340

(٥) الجزرى . درر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة -

مخطوط رقم ٣٧ م بدار الكتب - ص ٢٩٢ .

(٦) المقرئى : نفس المصدر ج ٤ ص ٧٠٧ - ٧٠٨ ، وذكر ابن شاهين

أن متحصلها مائتا ألف دينار (زبدة كشف الممالك ص ١٤) .

أما عدن فقد بطل أمرها « إلا قليلا » (١) ، وفي محاولة لاستعادة مكانة عدن التجارية ، قام المنصور عبد الله الرسول بإزالة المظالم ، والعمل على التخفيف عن كاهل التجار ، ولكن تلك المحاولة لم تؤد إلى عودة السفن للتعامل مع عدن (٢) . وبلغ من ضعف تلك المدينة أن توجهت إليها سفينتان صينيتان في سنة ٨٣٥ هـ / ١٤٣٢ م فلم يتيسر تصريف حمولتهما من البضائع ، مما اضطر قائد السفينتين إلى مراسلة ناظر جدة - سعد الدين بن المرة - فأذن له في التقدم إلى جدة . بعد أن وافق السلطان برسباي على ذلك (٣) . فكانت تلك هي المرة الأولى التي وصلت فيها السفن الصينية (الجنوك) إلى البحر الأحمر ، وبداية التعامل المباشر مع الصين (٤) .

ويرجع سبب اقبال السفن على جدة إلى تلك المحاولة التي بذلت السلطان الرسولي الظاهر يحيى لاستعادة مكانة عدن التجارية ، إذ أصدر أوامره إلى نائب عدن بتجهيز السفن وشحنها بالمقاتلة والسلاح لرصد المراكب الهندية عند باب المندب ، ومنعها من واصلية الإبحار إلى جدة وإجبارها على التوجه إلى عدن ، فلما ظفروا ببعضها دخلوا بها عدن تحت التهديد وقامت السفنات

(١) المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ٦٨١ .

(٢) بالخرقة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٠٣ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٨٧٢ - ٨٧٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم

١٤٣ ص ٣٦٢ .

(٤) De La Roncière (ch) : Le decouverte de l'Afrique (٤)

au Moyen Age, T.II, p. 118, Lewis (B.) Egypt and Syria, p. 224.

اليمنية بمصادرة حمولاتها من البضائع (١) . وقد أثار هذا التصرف السلطان برسبي الذي وجد في إرغام السفن على استخدام ميناء عدن ضياعا للمبالغ الطائلة التي تدفقت على خرائته نتيجة وصول مراكب الشرق مباشرة إلى جدة ، ومن ناحية أخرى اعتبر هذا التصرف من السلطان الرسولي تحديا شخصيا له ، ولذلك سارع بتهديد السلطان الرسولي باحتلال بلاده ، فلما أحس الظاهر الرسولي باستمدادات السلطان المملوكي لاستخدام القوة (٢) ، أمرع بالتخلي عن محاولاته ، وتعمد بعدم التعرض للسفن مرة أخرى نارا كالحا حرية الرسو في الموانئ التي تختارها (٣) .

ومن أجل الحفاظ على المركز التجاري الجديد لميناء جدة ، فرض السلطان برسبي حصارا اقتصاديا على عدن ، بما يضمن عدم رسو السفن فيها أو التعامل التجاري مع اليمن ، فقد أصدر سنة ٨٣٨ هـ / ١٤٣٥ م مرسوما يقضي بمصادرة البضائع اليمنية المصدرة من عدن إلى جدة مع تجار يمنيين ، ومضاعفة العشور على تلك البضائع إذا وردت عن طريق اليمن مع التجار الشاميين أو المصريين (٤) .

وهكذا أقفرت عدن وانخفضت متحصلات سلطاتها من الرسوم الجركية (٥) ، ذلك أنه كلما قلت أهمية عدن زادت معها أهمية جدة التي أصبحت من أهم موانئ التجارة العالمية ، في حين أهملت عدن وتعرضت للخراب خاصة بعد

(١) باخرمة : قلادة البحر ج ٣ ص ١١٠٥ .

(٢) ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١٣٧ .

(٣) المقریزی : السلوك ج ٤ ص ٩٣٩ .

(٤) Heyd: op, cit T.2, p. 445 .

(٥) المقریزی : نفس المصدر والصفحة .

تحتراقها في سنة ٨٤١ هـ (١) / ٣٧١ م - ٣٨ ، ففقد بنو رسول بذلك موردا
 هاما طالما أعانهم على مواجهة المشكلات الاقتصادية والعسكرية التي اعترضتهم
 طوال حكمهم ، فكان لانهميار اقتصاد بنى رسول أثره الكبير في ضعف
 دولتهم م (٢) وسقوطها سنة ٨٥٨ هـ / ١٤٥٤ م .

(١) المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ١٠٢٢ .

(٢) المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ١١٥٣ .

الفصل الخامس

العلاقات الخارجية في عصر بني طاهر

استطاع بنو طاهر - بحكم كونهم نوابا لبني رسول - استغلال الظروف السيئة التي كانت تمر بها دولة بني رسول ، وتمكنوا من الاستيلاء على حكم اليمن من بعدهم . أما فيما يتعلق بالملاقات الثمنية الخارجية في عهدهم ، فقد انتهج سلاطين تلك الدولة سياسة انطوائية تجنبنا للدخول في صراعات خارجية ، وفي وقت كانوا يحتاجون فيه إلى مضاعفة الجهود والتركيز لتوطيد دعائم دولتهم وتحقيق سيطرتهم الكاملة على اليمن .

أولا :- العلاقات بين اليمن والحجاز :

سادت العلاقات بين اليمن والحجاز في أواخر عهد دولة بني رسول بسبب إقدام أشرف مكة على نهب التجار والحجاج اليمنيين^(١) . ولذلك عمد تجار اليمن إلى التوجه بسفنهم إلى ميناء ينبع تفاديا للأضرار التي كانوا يتعرضون لها في ميناء جدة^(٢) . ولما كان تحول السفن من جدة إلى ينبع من شأنه أن يفقد الشريف حسن بن عجلان أمير مكة قدرا كبيرا من الرسوم الجمركية، لذلك لم يتردد هذا الشريف في بذل قصارى جهده لتأمين التجار ، كما تعهد بحسن معاملتهم . والظاهر أنه نجح في ذلك ، فلم يلبث أن عاد هؤلاء

(١) القاسي : العقد الثمين ج ٢ ص ٣٢ ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ .

ج ٤ ص ٦٩ - ٧٠ .

(٢) القاسي : العقد الثمين ج ٢ ص ٤٦٦ .

التجار إلى استخدام ميناء جدة من جديد^(١) . غير أن تلك السياسة لم ينجح لها أن تستمر ، فقد توترت العلاقات مرة أخرى نتيجة لاستيلاء الشريف حسن بن عجلان على أموال تجار اليمن ، وتعسف عماله بهم . مما أغضب السلطان الرسولي الناصر أحمد ، فعاد إلى منع السفن اليمنية من استخدام ثغر جدة ، كما أمر بقطع هدية الحبوب التي كانت ترسل سنوياً إلى مكة ، وشجع الصراع على إمرة مكة ، واستقدم الشريف رميثة بن محمد بن عجلان وبالحق في إكرامه وزوده بالأموال وأعانته في صراعه ضد عمه الشريف حسن بن عجلان بهدف انتزاع مكة منه^(٢) .

وعلى الرغم من ذلك فيبدو أن حالة من التحسن النسبي قد طرأت على العلاقات^(٣) اليمنية المسكية نتيجة لتلك الاجراءات التأديبية ، إلا أن نجاح السفن الهندية والصينية في التوجه رأساً إلى جدة ومقاطعة ثغر عدن ، أدى إلى توتر العلاقات من جديد بين سلاطين اليمن وأشراف مكة . ومنذ أن استبد الضعف بدولة بني رسول أخذت مناطق كثيرة من الأطراف تسانخ عنها ونشق عصا الطاعة عليها ، لأسباب المنطقة الشمالية من تهامة المتاخمة للحدود الجنوبية للحجاز التي استقل بها حكامها . وقد استفاد اشراف مكة من ذلك ، وأخذوا من تلك المنطقة اليمنية ملجأً يفرون إليه إذا ما نشب خلاف بينهم وبين السلطان المملوكي وطاردتهم قواته ، مثلما حدث للشريف حسن بن عجلان الذي التجأ في ٨٢٨ هـ / ١٤٢٥ م إلى حلي بن يعقوب . ومن ناحية

(١) القاسم : العقد الثمين - ٢ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(٢) القاسم : العقد الثمين - ٢ ص ٤٨٨ - ٤٨٩ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ .

(٣) القاسم : العقد الثمين - ٢ ص ٥١٢ .

أشرفى فقد ساعد ضعف بنى رسول على دفع أشرف مكة إلى اقتطاع
أجزاء من اليمن ، فى أواخر ٨٥٦ هـ / ١٤٥٢ م استولى الشريف بركات بن
حسن بن عجلان على مدينة حلى وأتاب فيها ولده (١) .

ومنذ أن ظفر بنو طاهر بالسلطنة وتمكنوا من تأسيس دواتهم ، أخذوا
يذهبون سياسة انزعاليه هدفها التفرغ للشؤون الداخلية ، والانصراف ولو
إلى حين من الاهتمام بالأمر الخارجية من أجل تأكيد نفوذهم فى البلاد وإقرار
الأوضاع الداخلية فى اليمن ، ولولا حركة التبادل للتجسارى التى نشطت نسبيا
فى عهدهم لعاشت بلاد اليمن - فى فترة قيام دواتهم - فى عزلة تامة ، ومن
المعروف أن ازدياد حركة التجارة البحرية فى جدة ، لم يعرقل حركة الملاحة
التجارية فى نجرهـن ، ويرجع الفضل إلى السياسة التى انتهجها بنو طاهر فى
تنشيط الحركة التجارية بهذا النفر من جديد ، مما أدى إلى عودة بعض السفن
التجارية للتعامل معه ، ومن الجدير بالذكر أن بنى طاهر عرفوا جانباً كبيراً
من اهتمامهم على التجاره (٢) ، وكان تجار اليمن يخشون من النتائج التى يمكن
أن تترتب على انزعاهم البلاد من بنى رسول ، إذ أنه لو تحقق ذلك لأمكنهم
أيضا أن يستولوا على التجارة لأنفسهم وأن يجعلوا عدن « زريبة للفة » ، لأنهم
نشأوا على التكسب والتجارة ، وعرفوا فيها من المصالح ، فلا يتركوا ذلك .
والسلطان إذا تعلق بالتجر أبطل متجر التجار وتغطل عليهم الكسب (٣) .

(١) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ١٣٧ ، السخاوى : النبر

المسبوك فى ذيل السلوك ، نشر أحمد زكى ، القاهرة ١٨٩٦ ، ص ٣٩٤ .

(٢) باخرمة : تاريخ نجرهـن ج ١ ص ١٢ .

(٣) باخرمة : قلادة النجر ج ٣ ص ١١١١ .

وأيا ما كان الأمر فإن اهتمام بنى طاهر بالتجارة كان عظيماً ، إذ عملوا على زيادة النشاط التجارى فى عدن لارتباط ذلك بتدعيم دوائهم الناشئة ، فكلما زاد إقبال السفن على عدن ، كلما حقق ذلك عائداً أكبر ، يمكنهم استخدامه فى تثبيت دعائم تلك الدولة الناشئة . ولهذا تردد سلاطين بنى طاهر على عدن لتفقد حركة التجارة فيها ، وأولوها رعايتهم ^(١) ، وتنافس التجار والنواخذ فى التقترب إليهم بالهدايا النفيسة ، وكان السلاطين يجيزونهم الجوائز السنوية لتشجيعهم على العودة ^(٢) . وأدى اهتمام بنى طاهر بتنمية تجارة عدن إلى هودة التبادل التجارى بينها وبين جعدة ، فقد أخذ تجار اليمن يقصدونها بسفنهم ، ولم تلبث العلاقات الطبيعية بين اليمن والحجاز أن استؤنفت من جديد . ففى ٨٦٨ هـ / ١٤٦٤ م أرسل الشريف محمد بن بركات أمير مكة ابن عمه الشريف إدريس بن قاسم بن حسن بن عجلان فى سفارة إلى اليمن ، فاستقبله والى زبيد استقبالا حسنا وأكرم وفادته ^(٣) ، وأعطاه من الذهب والفضة والثياب والخيل جملة مستكثرة ، ^(٤) ، ثم توجه إلى السلطان الظافر عامر الأول ، ففعل معه أكثر من ذلك ^(٥) .

ومما هو جدير بالذكر أن ثورات قبائل المعاربة والقرشية وبنى حفيص

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٥٩ ، قرّة العيون ص ١٣١ ب .

با مخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٦٨ ، ص ١١٧٩ .

(٢) با مخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٨٩ .

(٣) با مخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٢٨ .

(٤) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٥ ، قرّة العيون ص ١٢٣ (أ) .

(٥) با مخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٢٨ .

شمالى زبيد ، جعل تلك القبائل تشكل حاجزا بين زبيد ومناطق تهامة الشمالية ، ولهذا لم يتمكن سلاطين بنى طاهر من السيطرة على تلك المناطق ، فاستقل ولائها بحكمها مثل مدينة جازان التى كانت تحت حكم الشريف أبو الغواير أحمد بن دريب بن خالد ، ثم انتزعتها منه الشريف محمد بن بركات ٨٨٢ هـ / ١٤٧٧ م ومدينة حلى بن يعقوب التى وقعت تحت سيطرة الشريف مكة منذ أن استولى عليها الشريف بركات بن حسن بن عجلان ٨٥٦ هـ / ١٤٥٢ م .

أما عن الأسباب التى دفعت الشريف محمد بن بركات للاغارة على جازان والاستيلاء عليها ، فترجع إلى ما كان قائما بينه وبين ابن أخيه إبراهيم من خلاف ومنافرة ، دفعت إبراهيم إلى قصد السلطان الملك الأشرف قايتباى و عرض الأمر عليه . وعلى الرغم من تحسز الشريف محمد بن بركات لذلك ، واتخاذ كل وسائل الحيلة لمنع من تنفيذ خطته فإن الشريف إبراهيم استطاع الوصول إلى جازان وهناك ساعده صاحبها ابن دريب فى الوصول إلى سواكن ومنها إلى مصر (١) . فكان لذلك أثره فى اغضب الشريف محمد بن بركات أمير مكة ، فجهز حملة أعارت على جازان (٢) ورغم المحاولات التى بذلت للصالح إلا أن الشريف مكة أصر على الحرب فكانت بين الجانبين موقعة كبيرة (٣) انتهت بهزيمة صاحب جازان ومقتل عدد كبير من عسكره ، واحتلال الشريف محمد بن

(١) باخرمرة : قلادة النحر ج ٣ ص ١٤١ .

(٢) وذكر De Gaury (أن هذه الغزوة كانت لسبب غير معروف)

(Rulers of Mecca , p . 109)

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٢ ، قره العيون ص ١٢٧ ب ، يحيى

ابن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠٩ ، الكيسى : اللطائف ص ٢٢٥ .

بركات على بلاده فقام رجاله بنهب مدينته جازان وأشعلوا فيها النيران (١) ، وهدموا سور المدينة وخرّبوا دور صاحبها (٢) . وكان صاحب جازان قد تمكن من الفرار ، وأرسل ابنته إلى السلطان الطاهري المجاهد على في عدن لئلا يطاعة له ، وطلب معاونته في استعادة بلاده ، فأ نعم عليه المجاهد وأمدّه بمال كثير (٣) .

وفي نفس الوقت خشي السلطان المجاهد أن تكون هزيمة صاحب جازان دافعا للشرىف محمد بن بركات على مواصلة الغوغل جنوبا ، مستغلا في ذلك تمرّد القبائل الطامعة في الاستيلاء على زبيد ، ولما كان يفتقد القدرة على مواجهة هذا الموقف بحكم ظروفه الدقيقة التي تمرّ بها دولته فقد رأى أن يخاطب قايتباي سلطان مصر الذي كانت له الكلمة على شريف مكة . ولهذا السبب قرر أن

(١) كادت المعركة تنتهى لصالح صاحب جازان ، فلما رأى الشرىف محمد بن بركات ذلك ، وكان معه كمية من الدراهم كان قد طلائها بالذهب بحيث لا يشك من براها أنها دنانير ذهب ، وخاصة العرب ، الذين لا يميزون بين وزن الذهب وخفة الفضة ، فقام ببث هذه الدراهم في عسكر صاحب جازان حتى أفسدهم عليه فتحاذلوا عنه (باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٤١) فلما انتصر الشرىف محمد بن بركات أباح انتهاك الحرمات في جازان ، وانكشفت بها العورات وجرى على نساء صاحب جازان من الذل والاهانة وكشف الحجاب ما لم يكن لأحد في حساب « (ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٢ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٤١) .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٢ ، قرّة العيون ص ١٢٧ ب

De Gaury : Rulers of Mecca, p. 109.

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٣ .

يحيى عليه ويخطب وده فأرسل إليه هدية سنوية وكتب إليه متشفعا في الشريف
أبي الفوار أحمد بن دريب ، ورجاه أن يمنع شريف مكة من العودة إلى مهاجمة
حجازان . فاستجاب له السلطان المملوكي وأرسل إلى الشريف محمد بن بركات
يأمره بعدم العودة إلى الاغارة عليها ، وكتب إليه يقول ، إن « جازان بلدنا ،
ولا نأخذ تصدقنا على الشريف أحمد بن دريب ، فإلك إليه اعتراض بعده هذا » (١) .

وهكذا كان لموقف السلطان قايتباي أثره في توقف نشاط الشريف محمد
بن بركات ، وكف يده عن القيام بأعماله العادية لليمن ، ويتضح ذلك من
موقفه هذا الشريف من الصراع الذي نشأ على عرش السلطنة بين السلطان
المنصور عبد الوهاب وبين أبناء عمه ، ففي ٨٨٣ هـ / ١٤٧٨ م توجه يوسف
بن عامر إلى مكة وطلب معاونة الشريف محمد بن بركات ضد السلطان
المنصور عبد الوهاب ولكن شريف مكة اعتذر بعدم إمكانه بذل المساعدة (٢) .
واستمرت العلاقات الطيبة تسود البلدين الشقيقتين في عهد السلطان الطاهري
الظافر عامر الثاني ، ففي صفر ٨٩٧ هـ / ديسمبر ١٤٩١ م وفد الشريف رميثة
بن بركات - أخو الشريف محمد بن بركات - إلى زبيد فاستقبله واليها استقبالا
محسنا وأكرم وفادته ، ثم أرسله لمقابلة السلطان الظافر عامر الثاني الذي بالغ
في إكرامه والترحيب به وأنعم عليه (٣) .

(١) باخرمة : قلادة النحر - ص ٣١٤١ .

(٢) انظر الفصل الثالث من ٢٧١ - ٢٧٤ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٦٢ : باخرمة : قلادة النحر - ص ٣١٧٢ .

ثانيا - العلاقات مع الحبشة :

جرى ملوك الحبشة على اتباع سياسة قوامها معاداة للعناصر الاسلامية . ويتجلى ذلك بوضوح في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) . عندما دخل ملوكها في مجال الصراع الصليبي ، فاشتدت وطأتهم على المسلمين في بلادهم من جهة كما بدأت انصلااتهم بالفرنيج لضرب مصر ، قاعدة النفوذ وحامية حمى الاسلام والمسلمين من جهة ثانية .

لم يكتف ملك الحبشة اسحاق بن داود (١٤١٤ - ١٤٢٩ م) باضطهاد المسلمين في بلاده والتنكيل بهم ، بل قام بمراسلة ملوك الفرنج للتحالف معهم ضد المسلمين ، واعداد حملة صليبية مشتركة ضد مصر ، بحيث تقوم جيوش الفرنج بمهاجمتها من الشمال ، وتقوى جيوشه مهمة الإطباق عليها من الجنوب . ولما كان هذا الاتفاق مجرد مشروع لم يدخل بعد في حيز التنفيذ ، فقد تمسك الملك زرع يعقوب (١٤٣٤ - ١٤٦٨ م) هذه السياسة وتوسع في تنفيذها . وعاود مراسلة ملوك الفرنج ، وخاصة الفرنسيين والخامس (١٤٤٦ - ١٤٥٨ م) ملك أرغونة المشهور بعصبيه وعدائه للمسلمين . ولم يكتف زرع يعقوب بذلك بل أراد الخروج من الكنيسة المصرية والارتباط بكنيسة روما ، وفي سبيل هذه الغاية أرسل راهبين لحضور مجمع فلورنسة ١٤٣٩ م الخاص بالنظر في

(١) المقريزي : الامام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ص ٥٥
عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب من ١٨٢ - ١٨٣ ، سعيد عاشور ص ٥٥
بعض أضراره جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى ص ٣٣
المجلة التاريخية سنة ١٩٦٨ ، ص ٣٣ .

توحيد الكنديتين الغربية والشرقية (١) . كما سمح البابا بإقامة دير حبشى في
 روما (٢) .

ولما كان زرع يعقوب حريصا على سرية تحركه فقد تظاهر بتمسكه الشديد
 بالصلوات الطيبة مع مصر قاصدا بذلك التوبة على سلطانها . ففي عام ٨٤٧ هـ /
 ١٤٤٣ م أرسل ملك الحبشة هدية إلى السلطان جقمق يطلب إليه حسن معاملة
 نصارى مصر ولم يخل كتاب ملك الحبشة من اتهامات عن سوء معاملة النصارى
 في مصر ، والتهديد بتحويل مجرى النيل ، ومنع المياه من الوصول إلى مصر .
 وعلى الرغم من عبارات الاتهام والتهديد التي وردت في كتابه ، فإن السلطان
 جقمق كان معتدلا في مسلكه مع رسل زرع يعقوب ، وجهز معهم أحد
 عماله هو يحيى بن أحمد بن شاد بك ، برسالة وهدية ردا على سفارة ملك الحبشة ،
 ولكن رسالة جقمق لم ترق لملك الحبشة ، لذلك أساء معاملة قاصدة ولم يسمح
 لها بالعودة واحتجزه وتهده ، وكانت قواته قد أغارت على إمارة عدل الاسلامية
 ونظفها بحسبه بأمرها شهاب الدين بن سعد الدين وقتلوه ، فألزم زرع يعقوب
 رسول جقمق بتحمل مشاق السفر أياما ليرى ابن سعد الدين قتيلا ، وليشهد
 على منعه بالتباعد « ليكون أنكى للمسلمين » ، ولم يسمح بمودته إلى مصر

(١) أحمد دراج : المسالك والفرنج ، القاهرة سنة ١٩٦١ ، ص ٥٠ ،

Budge : BHistory of Ethiopia and Nubia, London 19٢8, Vol.
 I, P. 334. Kammerer: La Mer Rouge, T.I, P. 305 et Suiv.

Budge: op. cit, Vol. I, P. 311, Trimmingham : Islam in (٢)
 Ethiopia, Oxford 19٤2, P. 67.

إلا بعد مضي أربعة أعوام (١) . وتمادى زرع يعقوب في تعصبه وعدائه للمسلمين ، ووصلت الأخبار إلى مصر أنه قام ١٤٤٩ / ٨١٥٣ م بإعداد أسطول ضخم للاغارة به على بلاد الحجاز وانتهاك حرمة المقدسات الإسلامية (٢) .

تلك الصورة البشعة القائمة كانت تمثل السمات المميزة لموقف الحبشة الفدائي للإسلام ، وجرت العادة أن يتوجه مسلمو الحبشة بهرينهم إلى مصر والقيرو كلما تعرضوا لاضطهاد ملك الحبشة المسيحي ، وكان ملوك الين بحكم قريب بلادهم من أرض الحبشة لا يترددون في المبادرة بإرسال النجيدات حسيب إمكاناتهم المتاحة . وفي عهد بني طاهر تكرر إرسال المساعدات إلى بني سعد الدين أمراء منطقة عدل الذين أخذوا على عاتقهم مهمة مقاومة اضطهاد ملوك الحبشة للمسلمين ، واقتصرت تلك المساعدات على الخيول وأدوات القتال (٣) . وفي شعبان ٨٧٩ هـ / ديسمبر ١٤٧٤ م أرسل السلطان المجاهد علي بن طاهر مائة وخمسة من الخيول العربية مع كمية ضخمة من السيوف والدروع والرماح لمعاونة ابن سعد الدين على الجهاد (٤) . وفي جمادى الأولى ٨٨١ هـ / أغسطس ١٤٧٦ م أرسل السلطان الطاهرى المجاهد على مجموعة أخرى من الخيول

-
- (١) السخاوى : التبر المسبوك ص ٦٧ - ٧٢ ، عبد الحميد عابدين :
 الحبشة والعرب ص ١٨٣ - ١٨٥ ، دراج : الممالك والفرنج ص ٥٢ - ٥٤ .
(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٠٩ ، أحمد دراج : الممالك والفرنج ص ٦٥ ، سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة ص ٤٠ .
(٣) بانخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١٠٨٣ .
(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٦ ب ، بغية المستفيد ص ١٩٨ .
بانخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٣٢ .

تأليف عن خمسين فرسا (١) كما تكرر ذلك في عصر السلطان المنصور عبد الوهاب ابن داود (٢) . ومما يذكر أن عبد الباقي بن محمد بن طاهر أحد أمراء بني طاهر ، كان قد دخل في دوامة الصراع الأسرى حول عرش السلطنة ، وأرغمه السلطان الظاهر عامر الثاني إلى أن يلوز بالفرار إلى ساحل الحبشة ، واتفق أثناء مقامه لدى بني سعد الدين أن أغار ملك الحبشة على بلادهم ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م فاشترك عبد الباقي في شرف الجهاد معهم وقام بدور كبير في هذه المعركة وأظهر شجاعة نادرة وبأسا شديدا أثار إعجاب ابن سعد الدين به فزاد في تكريمه واكباره (٣) .

ومع ذلك فإن موقف اليمن من سياسة الأحباش التعسفية مع المسلمين لم يكن حاسما كما أن مساندتها لمسلمي الطراز الإسلامي ضد اضطهاد وتنكيل تجاشي الحبشة بهم لم يكن ذا أثر ، فالمساعدات كانت تتم على فترات متباعدة ، وفي معظم الأحيان كانت تقتصر على عدد من الخيول وأدوات القتال . والمنتقد أن السبب الحقيقي من الاقتصار على تلك المساعدات المحدودة المتباعدة التي كان يبذلها الطاهريون وعدم إقدامهم على إمداد المسلمين في الحبشة بالرجال والسلاح يكمن في ضعف إمكانياتهم وقدراتهم العسكرية في مواجهة دولية من جهة وفي انشغالهم بتثبيت دعائم ملكهم ، وتركيز طاقتهم للقضاء على

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢١ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣

ص ١١٤٠ .

(٢) باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٨٣ .

(٣) باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٧٢ .

حركات الصليبيين التي انتشرت في أنحاء متفرقة من اليمن، ولهذا كانت مساعداتهم المادية لمسلمي الحبشة بسيطة، إكتفاء بالمساعدات المعنوية .

ثالثا : الكشف البرتغالية : أهدافها الصليبية و أثرها على الاقتصاد اليمني والمعري :

١ - دور الكشف البرتغالية في تعاقب المظاهر الصليبية :

استهدفت الجهود البرتغالية - في الكشف عن طريق حول القارة الافريقية - للتوصل إلى تحقيق التعاون مع الحبشة للقيام بحرب صليبية في البحر الأحمر يكون من أهدافها الرئيسية تدمير المقدسات الإسلامية في الحجاز وضرب مصر اقتصاديا والسيطرة عليها من ناحية الجنوب ، بعد أن فشلت المحاولات الصليبية السابقة في تحقيق ذلك من ناحية البحر المتوسط شمالا . فقد كانت مصر مصدر القوة في المنطقة ، وهي التي حملت لواء الجهاد ضد قوى الصليبيين ، منذ قيام الدولة الأيوبية على يد صلاح الدين ، إلى أن تم إجلاؤهم عن آخر معاقلهم في الشام على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون في سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م (١) .

وكان لسقوط المستوطنات الصليبية في الشام ، وفشل محاولاتهم المتكررة لاستعادتها ، أثره في التركيز على مصر باعتبارها الصخرة التي تحطمت عليها آمالهم . ووجدت البابوية أن محاربة مصر اقتصاديا من شأنه أن يؤثر على قوتها الحربية ، لذلك أعلنت الحرب الاقتصادية ضد مصر ، وحسرت على

(١) ابن تغري ردي : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٨ ، ١٠ .

Stevenson : The Crusaders in the east, pp. 354 - 355 .

الأوروبيين التعامل معها تجاريا ، وحثهم على انعاش الطرق التجارية الأخرى ، للاضرار بالاقتصاد المصرى . ومن المعروف ان مصر كانت تعتمد بوجه خاص على عائدات التجارة الشرقية التى كانت أوروبا سواقها . ولا شك فى أن نجاح هذا المخطط كان من شأنه أن يؤدى إلى إضعاف مصر سياسيا واقتصاديا ويعمد السبيل للقضاء على قوتها الذاتية تمهيدا للسيطرة عليها عسكريا (١) ، ويساعد بالتالى على استعادة المناطق التى أرغمهم المصريون على التخلي عنها فى الشام . إلا أن تلك السياسة لم يكتب لها النجاح لعدم إلزام الجمهوريات الإيطالية بتنفيذها ، لتعارضها مع مصالحها التجارية (٢) ولهذا بدأ نوع جديد من النشاط الموجه ضد مصر ، فقد تمهد القبارصة والكتلان وفرسان الاستبارة بالقيام بأعمال القرصنة فى البحر المتوسط والاغارة على سواحل مصر والشام . وعلى الرغم من نجاح السلطان برسباي فى الاستيلاء على قبرص (٣) ، ومحاولات جقمق الثلاثة للاستيلاء على رودس (٤) ، إلا أن ذلك لم يخفف من حدة غارات

(١) أحمد دراج : الممالك والفرنج ص ٧ .

Heyd : Histoire du Commerce, T. II, P. 25 ff. (٢)

(٣) عن فتح قبرص ، انظر ، السيوطى : غزوات قبرص ورودس (١٨٨٤) ، سعيد عاشور قبرص : والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧) ، إبراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٩٥ وما بعدها .

Hill, (G.): A History of Cyprus (Camb. 1948), Alastres, (D): Cyprus in History, London, 1955, Darrage: L'Egypte sous Le règne de Barsbay, Chap. VII

(٤) عن محاولات جقمق لفتح رودس ، انظر ، السيوطى : المصدر السابق ، محمد مصطفى زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس زمن =

القراصنة في البحر أو على الموانئ المصرية والشامية^(١). وكان انجاح حركة القراصنة أثرها في زيادة المطامع الصليبية ضد مصر المملوكية^(٢)، والتفكير في توسيع نطاق الحرب ضدها بإدخال الحبشة في المعركة الصليبية، والتحاليف معها للقيام بحملة مشتركة لغزو مصر من الشمال والجنوب في آن واحد، مما يساعد على انتزاع بيت المقدس وبقية المناطق الساحلية من جديد. إلا أن هذا الحلف لم يقدر له الدخول في مرحلة التنفيذ، لتسرب أنبساطه إلى المماليك، فتشددوا في منع أي اتصال بين الفرنج والحبشة، التي عادت إلى التمسك مرة.

== سلاطين المماليك في القرن الخامس عشر الميلادي، مجلة الجيس ١٩٤٩، إبراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ١٠٥ وما بعدها، أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ٤٨، ٥٤، ٥٦.

(١) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي، الاسكندرية سنة ١٩٦١، ص ٨٥ وما بعدها، طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٣٥١ وما بعدها، دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي، بيروت ١٩٧٠، ص ١٧٢، أحمد دراج: المماليك والفرنج ص ٩، ٧٠، ٨٩، ٩٠، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، نعيم زكي: طرق التجارة ص ٢١.

(٢) كان سلاطين المماليك يلجأون - كلما اشتدت هجمات القراصنة - إلى اعتقال قناصل الفرنج وتجارهم في مصر والشام، كما كانوا يلقون القبض في بعض الأحيان على رهبان دير صهيون بالقدس، مع التهديد بإغلاق كنيسة القياصرة في وجه حجاج الفرنج. كل ذلك كان يقوم به السلاطون المملوكي لتخفيف حدة هجمات القراصنة. (أحمد دراج: المماليك والفرنج ص ١٧، ١٨، ٢٣، ٢٦، ٩٠، ١٠٦).

أخرى بالارتباط بالكنيسة المصرية (١) .

وحقيقة الأمر أن القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) شهد اشتداد روح التعصب الصليبي ضد المسلمين ، وبلغ التعصب ذروته في الأندلس بقيام الممالك المسيحية بأسبانيا بتصفية الوجود الاسلامي نهائيا من آخر معاقله غرناطة التي سقطت سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م (٢) ، وأجبر المسلمون فيها على التخلص عن دينهم واعتناق المسيحية تجنباً للتعذيب والقتل (٣) .

أما البرتغال فقد تجسدت فيها الروح الصليبية وعملت على تطويق العالم الاسلامي (٤) ، وما أن تمكن ملكها خوان الأول من الاستيلاء على سبتة سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م (٥) حتى أقطعها لابنه الأمير هنري الشهير بالملاح والمعروف بحقده وكرهيته المتناهية للاسلام والمسلمين .

(١) أحمد دراج : الممالك والفرنج ص ١٧ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٦٩ .

Kammerer ; La Mer Rouge, T.I, pp 59 - 62, Atiya : The Crusade, p. 278

(٢) السلاوي : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، الدار البيضاء سنة ١٩٥٤ ، ج ٤ ص ١٠٣ - ١٠٤ ، أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٦٨ .

(٣) أحمد دراج : الممالك والفرنج ص ١٠ ، ٧٠ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٣ ، ١١١ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٤ .

Kammerer : op. cit. T. II p. 144.

Macro (Eric) : Yemen and the Western World Since 1571, (٤) London 1968 p. 1.

(٥) السلاوي : الاستقصا ج ٤ ص ٩٢ ، أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٥٥ وما بعدها .

وقد اهتم هنرى الملاح بدراسة امكانية الوصول بحرا إلى المحيط الهندى لتنفيذ أهدافه الصليبية ، ولهذا الغرض أحاط نفسه بمجموعة من العلماء ، وكان الأمير هنرى قد تمكن من اكتساب ثقة البابا مارتن الخامس الذى بارك جهود فى حروبه ضد المسلمين مما شجعه على ارسال أولى حملاته البحرية الاستكشافية لساحل إفريقيا الغربى فى ١٤١٨ (١) .

وكان يهدف من وراء ذلك إلى تحقيق مكاسب سياسية واقتصادية بالإضافة إلى المكاسب الدينية . ذلك أن نجاح حركة الكهوف من شأنها أن تحقق السيطرة على مواطن التوابل وانتزاع احتكارها من مصر والبندية ، ومن ثم تصبح اشبونة المركز الرئيسى لها (٢) ، كما يتيح الفرصة للكشف عن مناطق مجهولة - قد يكون من بينها بلاد مسيحية - كان عدم معرفتها حائلا للوصول إليها والاتجار معها . هذا إلى جانب التعرف على قوة المسلمين فى إفريقيا ، والبحث عن مملكة القديس يوحنا - التى انتشرت الأساطير عنها فى أوروبا - وتحقيق التعاون معها للقضاء على المسلمين وتحقيق الأحلام الصليبية ، مع الاهتمام بالبعثات التبشيرية لنشر المسيحية بين أهالى المناطق المكتشفة ، وحمل السكان على اعتناقها (٣) .

(١) سونيا هاو : فى طلب التوابل (مجموعة الألف كتاب ، الكتاب رقم ٩٨) ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٩٤ - ٩٥ .

(٢) سعيد عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى - ص ٥٩٠ ،

Kamerer; op. cit., T. II, p. 9.

(٣) سونيا هاو : فى طلب التوابل ص ١٠٣ .

وكان الفضل الذي منيت به حركة الكشف - في سنواتها الأولى - كافية لإقناع الأمير هزرى الملاح بالتوقف ، نظرا للتكاليف الباهظة التي كانت تشكلها الحملات ، بالإضافة إلى المضاعف العديدة والأهوال التي كان يتعرض لها البحارة . وعلى الرغم من ذلك واصل بعموده دون كلل في توجيه الحملات الاستكشافية ، بغية الوصول إلى الهند والتعاون مع مملكة القديس يوحنا للقضاء على المسلمين ^(١) . وحتى لا تشغل قواته بحروب جانبية تعوقها عن الاستمرار في الكشف ، أصدر أوامره لملاحيه بحسن معاملة أهالي المناطق التي يمرون بها ، وعدم التعرض لهم كسبا لقلوبهم وتجنباً لمقاومتهم ^(٢) . ولما كانت حركة الكشف تعتبر امتدادا للحروب الصليبية ^(٣) ، فقد قام البابوات يوجين الرابع (١٤٣١ - ١٤٤٧ م) ، ونيقولا الخامس (١٤٤٧ - ١٤٥٨ م) ، وكالكستس الثالث (١٤٥٥ - ١٤٥٨ م) على التوالي بإصدار قرارات بمباركة الجهود البرتغالية ، والاعتراف بحق البرتغال الكامل في ملكية المناطق المكتشفة ، وتأييد جهودها التبشيرية وحروبها ضد المسلمين ، وغفران خطايا من يلقي حتفه من المشتركين في حركة الكشف ، شأنهم في ذلك شأن رجال الحروب الصليبية ^(٤) . فكان لتلك القرارات أثرها في دفع حركة

(١) سونيا هاو : نفس المرجع ص ١٠٠ ، بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، القاهرة سنة ١٩٦١ ، ص ٢٦ .

(٢) سونيا هاو : نفس المرجع ص ١٠٢ - ١٠٣ .

Serjeant (R.B.) : The Portuguese off the South Arabian Coast, Oxford, 19٨٠, p. 2.

(٤) سونيا هاو : في طلب التوابل ص ١٠٧ ، بانيكار : آسيا والسيطرة

الغربية ص ٢٧ - ٢٨ .

Depping , (G.B.) Histoire du Commerce Entre La Lavant, Paris, 1830, T. II, p. 261

الكشوف ونجاح الملاح البرتغالي بارثليميو دياز في الوصول سنة ١٤٨٧ م إلى أقصى الطرف الجنوبي لإفريقية ، واكتشاف رأس الرجاء الصالح (١) . ثم تمكن فاسكو دى جاما من الطواف حول إفريقيا ، والوصول إلى الشواطئ الغربية الهندية ، والرسو بسفنه في ميناء كاليقوط سنة ١٤٩٨ م (٢) .

أحدث نجاح البرتغاليين في اكتشاف طريق جديد إلى الهند ثورة في تجارة الشرق ، وحقق للبرتغال مجداً عظيماً إلى درجة أدت إلى تلقيب ملوكها بسادة المفتح والملاحة والتجارة في الهند والحبشة وبلاد العرب وفارس ، وسرعان ما أيد البابا هذا اللقب (٣) . وهكذا قويت عزائم البرتغاليين في احتكار التجارة ، وتوجيه الضربات ضد المسلمين ، والتبشير بالمسيحية (٤) .

عمل فاسكو دى جاما - منذ وصوله إلى كاليقوط - على دراسة الموقف في الهند ، وأزعجه كثرة العرب ، وسببهم على التجارة ، وتمتعهم بثقة الهنود (٥)

(١) سونيا هاو : نفس المرجع ص ١٣١ - ١٣٢ ، بانيكار : نفس المرجع ص ٢٩ ، Kammerer : op. cit, T. 11, p. 9.

(٢) شارل دبل : البندقية جمهورية أرستقراطية ، القاهرة ١٩٠٨ ، ص ١٤٥ ، بانيكار : نفس المرجع ص ١٩ ، أحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية ص ٢٦٦ .

(٣) لوريمر : دليل الخليج ترجم وطبع على نفقة حاكم قطر - الدوحة ١٩٦٧ ج ١ ص ٥٠ .

(٤) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٣٠ ، Kammerer : op. cit :

T. II, P. VI

(٥) نفس المرجع ص ٣٨ .

وكان سلطان قاليقوط عاصمة ملبار الملقب بالزامورين (Zamorin) (١)، أو السامري - كما يسميه ابن بطوطة - (٢)، قد أدرك بفضل تحذيرات العرب له، مدى الخطر الذي يهدد بلاده نتيجة لوصول البرتغاليين إلى الهند (٣). ولما كان كل ما يهم قائد الأسطول البرتغالي في تلك المرحلة هو الحصول بأى وسيلة على كمية من البهار لتكوين دليلاً على نجاحه في الوصول إلى مصادرها، فإنه قبل شراء ماعرضه السامري عليه من الأنواع الرديئة، وبالأسعار التي حددتها له، حتى ينفى عن نفسه صفة الجاسوسية التي ركز تجار العرب على إقناع صاحب قاليقوط بها (٤). والظاهر أنه أدرك مدى الخطر الذي يحيط به، ولذلك فما أن حصل على كمية التوابل حتى أسرع بمغادرة ميناء قاليقوط في طريقه إلى كنانور حيث قابله ملكها المعادى لصاحب قاليقوط بحفاوة بالغة، وتبادل معه الهدايا رمزاً للصداقة (٥).

ولما كان موعد وصول الأساطيل التجارية العربية قد حان، فقد بادر فاسكودى جاما بمغادرة الشواطئ الهندية في العشرين من نوفمبر ١٤٩٨، وأقبل عائداً إلى بلاده. ومن الجدير بالذكر أن دى جاما كان حريصاً في تلك

Kammerer : Ibid , T. II ; p . 22 .

(١)

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ١١٥ .

(٣) بانيكار : المرجع السابق ص ٣٧ . Kammerer . Ibid . T. II , p. 87 .

(٤) سونيا هاو : في طلب التوابل ص ٢٠٠ ، Mortland , W.H .:

A Short History of India , London , 1944 , p 183'

(٥) نفس المرجع ، ص ٢٠١ ، Kammerer : op . cit . T. II , pp 87f .

الرحلة الكشفية على عدم إثارة المشاعر ضد البرتغاليين ، حتى لا تعرض حمايته للخطر ، أو تتنبه القوى المعادية لهم فتستعد للتصدي لسفن البرتغال ، مما يهدد بالقضاء على آمال دولته ، لذلك رفض تنفيذ ما أشار به بعض أتباعه بالاستيلاء على شحنات السفن التي يصادفونها في طريقهم . وواصل تقدمه إلى مالندي على شاطئ إفريقيا الشرقي ، ثم غادرها في العشرين من يناير سنة ١٤٩٩ ، بعد تبادل الهدايا مع حاكمها ، وتمكنت إحدى سفنه بقيادة نيكولا كويلما من الوصول إلى أشسبونه في العشرين من يوليو سنة ١٤٩٩ ، أما فاسكودي جاما فقد تأخر شهرين ، وكان وصوله في الثامن عشر من سبتمبر سنة ١٤٩٩ ، بعد ستة عشر شهراً استغرقتها رحلته ، التي فقد أثناءها ثلثي ما كان معه من الرجال ، من بينهم أخيه بالودى جاما ، الذي كان قد إشتدت به العلة أثناء رحلة العودة ، وتوفي بجزر الأزور ، وكان السبب في تأخر وصوله إلى جاما بعد نيكولا وكويلما (١) .

وكان لنجاح فاسكودي جاما في الوصول إلى الهند عن طريق الطواف حول إفريقيا وتوصله إلى مصدر التوابل أثره في تشجيع الملك البرتغالي مانويل على مواصلة إهداد الحملات وإرسالها إلى الهند ، لتأكيد السيطرة البرتغالية على البحار الشرقية ، وتنفيذ الأهداف البعيدة التي قامت حركة الكشف من أجلها . فبعد ستة أشهر من عودة دي جاما ، وفي التاسع من مارس سنة ١٥٠٠ أرسل الملك مانويل أسطولاً آخر ، شحنه بأنواع السلع

(١) سونيا مار : في طلب التوابل ص ٢٠٢ - ٢٠٥ .

ويبدو أن صاحب قاليقوط قد راعه قوة هذا الأسطول ، ولم يشأ أن يخاطر بمحاربته ، ولذلك أبدى ترحيبه بكبرال واستقبله إستقبالا حافلا وتبادل معه الهدايا . ورغم موافقه السامري على منح البرتغاليين مركزاً لتجارهم في قاليقوط ، إلا أن الأمور لم تلبث أن تأزمت نتيجة استعمال

Kammerer : La Mer Rouge, T, II, p. 93. (1)

(٣) انفصلت إحدى سفن الأسطول بقيادة دياجو دياز بفعل الرياح عن الأسطول ، فتمكن من اكتشاف جزيرة قمر ، وأطلق عليها اسم سان لورنزو (سونياداو : المرجع السابق ص ١٠٢)

(K) 100-4-1011-2011-p. 92. (2)

(٥) سونيا هاو : المرجع السابق نفس الصفحة ٨٨ من قضاة بشارة زيبا لانس

(A) vend : Histoire du Commerce
T. II. P. 112. Chambre de Commerce

البرتغاليين القوة معه ^(١) ، وإلصاق كبرال على المطالبة بمنع التجار العرب من الإقامة في قاليقوط. مما اضطر القائد البرتغالي إلى الانسحاب من قاليقوط بعد أن قصدها بمدافعه ، وتوجه إلى كوشين وكنا نور فقبل فيها بترحيب حار وتوصل إلى عقد لاتفاقيات تجارية معها ^(٢) ، ولم يلبث كبرال أن استعد لرحلة العودة فوصل أشبونة في آخر يولية سنة ١٥٠٩ محملاً بكميات هائلة من التوابل ^(٣) .

وهكذا أمكن لأشبونة بفضل عامل القوة للحصول بأرخص الأسعار على كميات كبيرة من التوابل وجنت البرتغال بفضل ذلك أرباحاً فاحشة عوضت ما أنفق على الحملات ، مع تحقيق فائض من الأرباح كبير . أضف إلى ذلك أن أسعار البيع في أشبونة كان أقل بكثير من الأسعار التي كانت تباع بها البندقية ، بل أقل مما كانت البندقية تشترى به من أسواق الاسكندرية نفسها ، مما أدى إلى رواج أسواق أشبونة ، ومنافستها للبندقية والقضاء على احتكارها لتجارة التوابل ، وأضر ذلك ضرراً بالغاً بمصر واليمن ، إذ توقفت الحركة التجارية إلى حد استحالة فيه تهريبها ، وخاصة بعد أن تتمكن البرتغال من احكام السيطرة على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر .

(١) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٣٩ .

(٢) سونيا هاو : المرجع السابق ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٣) زين الدين المعبري الملباري : تحفة المجاهدين في بعض أحوال

البرتغاليين ، أشبونة ١٨٩٨ ، ص ٣٧ - ٣٨ ،

Heyd : Histoire du Commerce, T. II, p. 512, Kammerer: op. it. T, II, p. 94.

ثم تتابع الحملات البرتغالية ، وانتظم وصولها سنويا إلى الهند ، ففي
أواخر يناير ١٥٠٩ أبحر فينسنت سودريه على رأس أسطول إلى الهند (١) ،
كما جهزت مجموعة أخرى من السفن بقيادة جين دي نوبا ، أبحرت من البرتغال
في منتصف مارس ١٥٠٩ ، وكان هدفها الانتقام من قاليقوط ودعم الصلات
مع كنانور وكوشين . واشتبك دي نوبا في معركة بحرية مع أسطول
قاليقوط (٢) لانتصر فيها بفضل استخدام المدفعية (٣) ، وأغرقت خلال تلك
المعركة مجموعة من السفن التجارية العربية ، نذكر منها سفينة للسلطان المملوكي
كانت قادمة إلى قلاع إلى جدة (٤)

وتشدد وطأة البرتغاليين لضرب التجارة العربية ، واستخدم أعنف
الأساليب ضد التجار والحجاج العزل ، ففي الثالث من مارس ١٥٠٢ غادر
فاسكو دي جاما البرتغال مرة أخرى على رأس أسطول كبير إلى الهند ،
فوصل أولا إلى ساحل إفريقيا الشرقية ، حيث أقام مراكز للتوابع في كل من
سفالة وموزمبيق وكلوة . كما استولى على بعض السفن العربية التي انفق
وجودها بميناء مالندي ، وفي أول أكتوبر ١٥٠٢ استولى كذلك على سفينة
كبيرة للسلطان الغوري كانت محملة بالتوابع عليها مجموعة من الحجاج الهنود

(١) Kammerer : La Mer Rouge, T. II, p. 94.

(٢) زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٣٨ .

(٣) Heyd ; op. cit. T. II, p. 518, Kammerer: T. II, p. 95.

(٤) زين الدين : نفس المرجع والصفحة ، أحمد دراج : الممايك والفرنج

ص ١٢٢ .

Wiet: L'Egypte Arabe, pp. 616 f.

كانوا في طريقهم إلى البحر الأحمر^(١). وفي الهند توصل دي جاما إلى عقد حلف مع ملك كنانور ضد قاليقوط ، كما عقد اتفاقيات أخرى مع كوشين وكوم^(٢) واستغل فاسكودي جاما فرصة العداوة بين بعض القوى الهندية ، وعمل على توسيع هوة الخلاف فيما بينها ، وضرب بعضها ببعض ، كما توسع في سياسة القرصنة والعنف ، وابتاع أساليا غير إنسانية ، فكان يقطع الطريق على السفن دون أي تحذير ، ويقوم بأسرها ، ونهب ما عليها من بضائع ، ثم إغراقها أو إحراقها بمن عليها من تجار وبحارة وحجاج وغيرهم^(٣) . ولم يكن يكتفي بذلك بل كان يعتمد إلى تعذيب من يقع في يده من المسلمين كاستئصال أنوفهم وأذانهم وأصابعهم ، أو القضاء عليهم بقطع رؤسهم^(٤) .

كان للأعمال الانتقامية الشنيعة التي لجأ إليها فاسكودي جاما أثرها السيئ في قاليقوط ، لذلك استعد صا حيا بأسطوله واشتبك في معركة بحرية عنيفة مع الأسطول البرتغالي تجاه ساحل كوشين ، وإذا كانت مدفعية الأسطول البرتغالي قد تمكنت من إلحاق بعض الأضرار بأسطول قاليقوط ، إلا أن خفة تلك السفن وسرعتها مكنتها من المناورة لتفادي نيران المدفعية ، ولولا

Kammerer : op. cit, T. II p 97.

(١)

(٢) زين الدين : نفس المرجع والصفحة

Kammerer : ibid pp. 97 f

(٣) ديل ، شارل : الهندية من ١٤٩٠ . باتيسكار : آسيا والسيطرة الغربية

ص ٤٠

Kammerer : op. cit.; T. II, p. 98, Wilson:

(٤)

The persian Gulf, London, 1945, p. 114.

استحباب دي جاما، لتمكن أسطول قاليقوط من إيقاع الهزيمة بالأسطول البرتغالي (١).

وكان على فاسكو دي جاما - تنفيذ الأوامر حكومته - أن يقوم بإغلاق البحر الأحمر والخليج الفارسي لمنع وصول تجارة الشرق إلى مصر، وضمان عدم وصول السفن - خاصة الحربية - إلى الهند، حتى تتمكن الأساطيل البرتغالية من تحقيق السيطرة على الهند، والقضاء على التجارة عدن ومصر، تمهيداً لتوجيه ضربة مباشرة في البحر الأحمر، ولذلك أمر دي جاما - بعد أن استقر ذهنه على العودة إلى بلاده - بترك جزء من أسطوله بالقرب من باب المندب لإغلاق البحر الأحمر، ومنع وصول السفن إليه أو خروجها منه (٢)، كما ترك مجموعة أخرى عند جزر كودياموريا للقيام بأعمال القرصنة ضد السفن العربية (٣)، وهدد أن تم له ذلك، أقفل عائداً إلى بلاده، حاملاً معه كميات هائلة من التوابل والسلع التي حصل على معظمها عن طريق السلب والنهب، فكان وصوله إلى البرتغال في سبتمبر ١٥٠٣ (٤).

(١) بايمكار: آسيا والسيطرة الغربية ص ٤١ - ٤٢.

(٢) ديل، شارل: البندقية ص ١٤٩.

Macro: Yemen and Western World; p. 1

Kammerer: Ibid, p. 98, Sarjeant: The portuguese, (٣) p. 41.

(١) ديل: المرجع السابق ص ١٤٦، أحمد دراج: الممالك والفرج ص ١٣٢،

Kammerer Ibid, T. II, p. 98.

وفي الوقت الذي كان دى جاما يستعد فيه لرحلة العودة كانت حملة بحرية أخرى قد أبحرت من البرتغال في السادس من أبريل ١٥٠٣ بقيادة ثلاثة من كبار القادة أبرزهم الفونسو دالبوكيرك وأخوه فرنسيسكو وأنطوان دى سالدانها^(١). وكان صاحب قاليقوط قد تمكن من التغلب على صاحب كوشين بعد عودة فاسكو دى جاما^(٢)، وأحرق مدينته، وقضى على الحامية البرتغالية فيها. ولهذا كان أول أهداف دالبوكيرك عند وصوله الانقمام من صاحب قاليقوط، وقد تم له ذلك وأجبره على الموافقة على إقامة قلعة برنغالية في بلاده كما فرض عليه غرماً عينياً كبيراً، وأرغمه على منع تصدير التجارة للبحر الأحمر. وفي نفس الوقت عمل على تمكين مركز البرتغال في كوشين، واهتم بتدعيم الحامية البرتغالية فيها وزودها بالأسلحة والعتاد، ثم ترك زميليه في مجموعتين من السفن، وعاد إلى البرتغال بكميات أكثر من البضائع الشرقية، فوصل إلى لشبونة في أواخر يوليو ١٥٠٤^(٣).

وهكذا انتشرت السفن الحربية البرتغالية في المياه الهندية، بعد أن ترك كل من دى جاما ودالبوكيرك جزءاً من أسطوليهما فيها، كما تعددت القلاع البرتغالية في ساحل أفريقية الشرق والهند كوسيلة لتأمين الوجود البرتغالي في تلك المناطق، مما ساعد على مهاجمة السفن التجارية المتجهة إلى البحر الأحمر،

(١) Kammerer : Ibid., T. II, p. 103.

(٢) زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٣٨.

(٣) زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٣٩.

Kammerer; op. cit. T. II, p. 105

ومنع وصولها إليه أو خروجها منه ، وترتب على ذلك أن احتلت أشبونة مركز المصدرة في التجارة الشرقية بدلا من البندقية ، نتيجة لحرمان دولة الممالك من تجارة العبور التي كانت تجنى من ورائها أرباحا طائلة ، هذا إلى جانب المحاولات البرتغالية لتحقيق التحالف مع الحبشة^(١) ، تمهيدا للاغارة على المقدسات الإسلامية في الحجاز وتطويق مصر من الجنوب^(٢) . ولهذا استمر تدفق الأساطيل إلى الهند ، ففي ربيع سنة ١٥٠٤ م أبحر أسطول آخر إلى الهند بقيادة لوبو سواريز دالير جاريا لتحقيق هذا الغرض ، فأوقع مجموعة من السفن العربية القادمة من جدة في كمين ، وبدد شملها . وواصل تطبيق سياسة الانتقام ضد السفن القادمة من البحر الأحمر ، وفعل نفس الشيء مع سفن قاليقوط ، وتمكن - بمعاونة ملك كوشين - من مفاجأة قاليقوط وتدمير مجموعة من سفنها^(٣) ، وبعد أن أحرز انتصاره على ماسكها^(٤) عاد إلى بلاده حاملا أسلحا قدرت بأربعة وعشرين ألف قنطار من التوابل^(٥) .

وفي سنة ١٥٠٥ تبدأ مرحلة جديدة ، فقد استقر رأى ملك البرتغال على تعيين نائب له يقيم في الهند بصفة دائمة ، ليتولى توجيه السفن القادمة من للبرتغال بما يحقق الأهداف البرتغالية فكان فرانسيسكو دالميدا أول نائب لملك البرتغال في المستعمرات البرتغالية في الشرق فأبحر من البرتغال في ٢٣ مارس

(١) Macro ; Yemen and the Western World, p. 1!

(٢) أحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية ص ٢٦٦ .

(٣) بانينكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٢ .

(٤) Kammerer ; op. cit; T. II, p. 106.

(٥) Heyd ; op. cit. , T II p. 529, Kammerer; op. cit.,

pp. 106 - 107 , 144.

سنة ١٥٠٥ م على رأس أسطول كبير ضم إلى جانب السفن الحربية أخرى تجارية ، كما استصحب معه عددا من الجنويين والبنادقة والألمان ، وكان من بين ضباطه ماجلان (١) . وفي طريقه إلى الهند عمل على تدعيم القواعد البرتغالية في شرق إفريقيا ، فأقام في أغسطس سنة ١٥٠٥ قلعين في منبسة ، كما أبدى صاحب كلوة مشاعر الود والتعاون مع الحملة (٢) ، وعمل دالميدا على تثبيت قواعد الوجود البرتغالي في الهند ، فجعل في كوشين مقر لقيادته (٣) .

وحرص ملك البرتغال على تدعيم دالميدا ، وسارع بامداده بحملة بحرية كبيرة أبحرت من البرتغال في الخامس من أبريل سنة ١٥٠٦ بقيادة ترستان داكوتشا ، ضمت إلى جانب السفن الحربية سفنا أخرى تجارية ، وكان الفونسو دالبوكيرك مسئولا عن الناحية العسكرية لتلك الحملة التي عززت بأسطولين آخرين في سنة ١٥٠٨ . ووجه داكوتشا ودالبوكيرك اهتمامها إلى إقامة القلاع على الشاطئ الإفريقي ، كما عملا على إحكام إغلاق البحر الأحمر في وجه التجارة الهندية (٤) ، ولهذا استولى داكوتشا سنة ١٥٠٦ على

Heyd ; op. cit., T. II, p. 529, Kammerer : op. (١)

cit ; II, pp. 107 f.

(٢) تمكن لورينزو دالميدا من الوصول إلى سيلان .

(Kammerer : T. II, p. 108)

(٣) لوريمر : دليل الخليج ج ١ ص ٠٠٦ .

Allen : The Cambridge Shorter History of India, London, 1924, p. 487.

Kammerer : op. cit T. II p. 109. (٤)

جزيرة سوتطرة الواقعة إلى الجنوب الشرق من عدن ، والتي تتحكم في الطريق البحري المؤدى إلى البحر الأحمر ، واتخذها قاعدة بحرية لشن الغارات على سواحل حضرموت وعمان وهرمز^(١) ، وفرض الحصار على تجارة البحر الأحمر^(٢) . وهكذا تركزت جهودها كلها على إغلاق جميع الممرات والسيطرة على الموانئ الاستراتيجية كهرمز في مدخل الخليج ، وعدن بالنسبة للبحر الأحمر . ودعم دالبوكيرك ذلك بإرسال مجموعة من السفن لإغلاق باب المندب^(٣) . كما سعى إلى الاتصال بالحبشة ، فأرسل إليها بعثة سنة ١٥٠٨ لتحقيق التعاون معها في مشروع صليبي مشترك لانضمام على مصر^(٤) . وتواترت الأخبار إلى مصر بتزايد الخطر البرتغالي ، وأن أكثر من عشرين سفينة برتغالية قد توغلت في البحر الأحمر^(٥) .

وهكذا تمكن البرتغاليون بحملاتهم البحرية الضخمة المتواصلة ، وباستخدامهم الأسلحة النارية - التي لم يكن للمناطق الواقعة على المحيط الهندي عهداً بها - واتباعهم أعنف أساليب الفرصنة ، من الاستيلاء على عدد كبير من الموانئ والجزر في المحيط الهندي . وفرض الحصار على تجارة البحر

(١) لوريمر : دليل الخليج ج ١ ص ٦ .

(٢) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٤ ، ديل ، شارل : البندقية ص ١٤٩ .

Heyd ; op. cit, T. II p. 535, Serjeant ; Portugues, p. 41.

Kammerer : op. cit., T. II, pp, 116 - 117. (٣)

(٤) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٤ - ٤٥ .

Kammerer; p. 137.

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٩٦ .

الأحمر والخليج الفارسي^(١) ، واحتكار تجارة التوابل بالقوة، مما أصاب مناطق التصدير ، والموانئ الواقعة على الطريق التقليدي للتجارة ، كهرمز وعدن وجدة بأضرار بالغة وأفقدتها أهميتها ، كما عرض الإقتصاد المصرى والبندقي لكارثة محققة . وكان البرتغاليون في وضع يسمح لهم بتعزيز قوااتهم على الدوام ، ويمكنهم من شن الهجمات على الموانئ والسفن التجارية دون أن تجرأ أى من القوى الموجودة في المنطقة من التصدي لهم أو البدء بمهاجمتهم .

٢ - أثر الاستشوف البرتغالية على حركة التجارة اليمنية -

أما فيما يتعلق باليمن فقد كان طبيعياً أن تتأثر حركة التجارة في ميناء عدن وتنخفض تبعاً لذلك حصيلة الرسوم الجمركية بدرجة هائلة، اضطر معها السلطان اليمنى الظافر عامر الثانى إلى الاستيلاء على نصف متحصلات الأوقاف ليستعين بها في مواجهة النقص في إيراداته ، مما أثار سخط الفقهاء عليه^(٢) . ومع اشتداد الحصار المفروض على التجارة لم يعد دخل عدن كافياً لسد احتياجات المدينة فقط مما أدى إلى استيلاء الأمير مرجان - وإلى عدن - على خراج الحج^(٣) لسد النقص الناجم عن عجز إيراداته لمواجهة متطلبات الدفاع عن مدينته .

وإذا أخذنا في الاعتبار الأطماع البرتغالية للاستيلاء على عدن وغيرها من ..

(١) Lewis (B.) ; The Camb. Hist. of Islam, vol. 1, p: 229 ()

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٣٩ ،

Kammerer op cit.; T. II p. 230

(٣) بانخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١٢١٠ .

الموانئ اليمنية في وقت زادت فيه الحركات الداخلية المضادة للطاهريين .
فإن اشغال السلطان الظافر عامر الثاني وقواته في القضاء على تلك الثورات
والعمل على إقرار الأوضاع الداخلية ، كان يعوق قدرته على مواجهة الخطر
البرتغالي . لذلك بادر السلطان الطاهري بالاستنجاد بالسلطان الغوري لتخليص
اليمن من هذا الخطر الداهم (١) ولم يكن السلطان اليمني وحده هو الذي
استنجد بالسلطان المملوكي ، فقد أرسل كل من السامري صاحب قاليقوط (٢)
ومظفر شاه بن محمود شاه سلطان كجرات (٣) رساما للاستنجاد به . ومن
الجدير بالذكر أنه لما نشطت القرصنة البرتغالية وتعرضت السفن للنهب ،
وركابها من البحارة والتجار والحجاج الأسر أو القتل (٤) ، اضطر
السلطان الظافر إلى إعداد حملة بحرية من أربعة عشر مركبا ، اشترك فيها
ستائة من المحاربين بينهم جماعة من طلبة العلم للجهاد ، وقد أبحر هذا الأسطول
من عدن في ٢٧ شوال ٩١٢ هـ (٥) ١٢ / مارس ١٥٠٧ . وبغلب على الظن .

(١) الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ٨ ، ٢٠١ ، النهروالي : البرق اليمني
في الفتح العثماني - الرياض سنة ١٩٦٧ - ١٩٦٨

Kammerer ; Ibid T. II p. 130

(٢) زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٤٠ ، بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية
ص ٤٢ .

(٣) النهروالي : البرق اليمني ص ١٩

Kammerer ; Ibid. II p. 153

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٦ ب ، الفضل المزيد ص ٣٨ ب ،
باجرمية : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٩ ، الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ٦٣ .
(٥) ابن الديبع : الفصل المزيد ص ٤٣ أ .

أن هذا الأسطول عجز عن الصمود ، وأن البرتغاليين تغلبوا عليه ، ذلك أن المصدر اليمنى الذى انفرد بذكر تلك الحملة لم يزودنا بشيء عن أخبارها ، وما إذا كانت قد تمكنت - كلها أو بعضها - من العودة الى عدن .

٣ - موقف مصر من الخطر البرتغالى :

كان لنجاح البرتغاليين فى اكتشاف طريق بحرى جديد الى الهند ، وسيطرتهم على تجارة التوابل ، وتحكمهم فى المياه الهندية ، وفرض الحصار على البحر الأحمر أثره الكبير فى تخفيض كميات التوابل الواصلة الى مصر ، مما عرض دولتى المماليك والبندقية لانهميار اقتصادى خطير ^(١) . فقد بلغ من نقص كميات التوابل المعروضة فى أسواق الاسكندرية سنة ١٥٠٢ ، أن سفينتين فقط من بين خمسة من سفن البندقية استطاعتا - بمشقة بالغة - الحصول على حمولتيهما ^(٢) وأن سفنهم عادت خاوية تماما سنة ١٥٠٤ ^(٣) . أضف الى ذلك أن قلة الواردات من التوابل أدى إلى ارتفاع أسعارها ارتفاعا كبيرا فى مصر وبالنسبة للبندقية ، فى الوقت الذى تأقت فيه أشبونة كسوق رئيسى لتجارة التوابل ومركز هام لنفائس الشرق ، ولم تلبث أن احتملت مكانة البندقية ، وذلك بما توفر فى أسواقها من هذه السلع والتحف ، واجتذبت اليها تجار أوروبا لخص

Heyd: op. cit., T. II, pp. 521 - 522.

(١)

(٢) ديل: البندقية ص ١٥١ — ١٥٢ ، أحمد دراج : المماليك والفونج

ص ١٣٢ ، نعيم زكى : طرق التجارة ص ٧١ .

(٣) ديل نفس المرجع ص ١٥٢ .

أسعارها (١) .

وكان لزاما على مصر أن تدافع عن كيائها الاقتصادي وحمايته من الانهيار، كما لم يكن من السهل أن تتخلى الجمهوريات الإيطالية، وخاصة البندقية عن مصادر ثروتها (٢)، لذلك أخذت سفارات البندقية تتوافد على البلاط المملوكي ابتداء من عام ١٥٠٢، لتدارك الأمور قبل استفحال الكارثة، وعمل سفراؤها على اقناع السلطان الغوري بمراسلة سلاطين الهند لحثهم على مقاطعة البرتغاليين، وأن يعمل على إرسال بعض السفن الحربية لحماية السفن التجارية، مع جلب كميات كبيرة من التوابل وتخفيض أسعارها حتى تتمكن البندقية من غمر أسواق أوروبا بالتوابل وبيعها بأسعار رخيصة لمنافسة السوق البرتغالية، وعرفتهم في تصريح بالديهم من بضائع. كذلك تضمنت مطالب البندقية، أن يعد الغوري أسطولا قويا لمحاربة البرتغاليين في المياه الهندية، وتوجيه ضربة قاضية لهم وتدمير مشروعاتهم في الهند (٣) .

وقد استغل الغوري الأضرار التي تعرضت لها البندقية بسبب منافسة البرتغال.

(١) ديل: نفس المرجع ص ١٤٩ ،

Heyd: Ibid: p. 516, Kammerer : p. 139.

(٢) هاو سونيا: في طلب التوابل ص ٢١٩ .

(٣) ديل: نفس المرجع ص ١٤٧-١٤٨ و ١٥٠ و ١٥٢ ، أحمد دراج :

نفس المرجع ص ١٣٢ و ١٥١ ، عدلى فريد : السلطان قانصوه الغوري وعصره - رسالة ماجستير بكلية الآداب باسكندرية سنة ١٩٧٠ ص ٢٠٢ ،

Heyd : Ibid, T. II, pp. 519, 521 - 524.

Kammerer : Ibid, T. II, pp. 141, 144.

لتجارتهما، فطالبها بإمداده بالأسلحة والأخشاب لبناء السفن التي يعتزم إرسالها لمحاربة البرتغاليين^(١). إلا أن البندقية استنرت عن هدم إمكان تقديم الأخشاب والأسلحة المطلوبة حتى لا تنهم لدى البابا بمساعدة المسلمين ضد المسيحيين. ولم يتردد الغورى في القيام ببعض الجهود الدبلوماسية حتى يتهيأ له إعداد أسطوله في البحر الأحمر، ففي سنة ١٥٠٤ أرسل مبعوثيه إلى البابا يوليوس الثاني، وإلى ملوك أوربا مهددا بإغلاق كنيسة القيامة والكنائس الكاثوليكية الأخرى، وقتل الفرنج الموجودين في بلاده. إذ لم تتوقف البرتغال عن أعمالها العدوانية ضد المصالح المصرية في الهند، فكان لهذه التهديدات أثرها في إزعاج البابا الذي بادر بالكتابة لعمانوئيل ملك البرتغال. إلا أن الملك البرتغالي لم يكن مستعدا للتنازل عما حققه لبلاده من نجاح هائل في احتكار تجارة الشرق، وتحقيق أحلام البابوية في حرمان دولة المماليك من مصدر قوتها وراثتها، مما يساعد على توجيه حملة صليبية للأجهاز عليها، وانتزاع المقدسات المسيحية في الشام. لهذا أرسل عمانوئيل إلى البابا يطمئنه بأن السلطان الغورى لن يقدم على تنفيذ تهديداته، وأن البرتغال قادرة على مهاجمة المقدسات الإسلامية في الحجاز إذا ما حاول الغورى تنفيذ تهديداته^(٢).

(١) أحمد دراج : نفس المرجع ص ١٣٠ ، نعيم زكي : نفس المرجع

ص ٧٨ — ٨٥

Kammerer : Ibid. T. II, p. 145.

(٢) أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٣٤ — ١٣٦ ، عدلي فريد :

السلطان قنصوه الغورى وعصره ص ٢٠٣ — ٤٠٤ ،

Heyd : op cit., T. II, pp. 520 - 522, Kammerer :

op. cit., T. II, p. 144, Lane - poole : The Hist. of Egypt, p. 532.

وعلى هذا النحو لم تنجح مساعي الغوري في الحصول على مساعدات
حربية من الهندية ، كما لم تفجح تهديداته للبابا في وقف الاعتداءات البرتغالية
على التجارة المصرية في المحيط الهندي والبحر الأحمر ، فقد كان من المحال أن
يانتظر من البابا أو ملوك أوروبا مناصرته على أبناء ملتهم^(١) . بل على العكس
من ذلك فقد أشطت فرسانة الفرنج وعلى رأسهم فرسان الاسبتارية بجزيرة
رودس في الإغارة على السواحل المملوكية ، ومهاجمة السفن المصرية في البحر
المتوسط^(٢) .

لم يجد الغوري بدا من محاربة البرتغاليين في المياه الهندية ، ولهذا بدأ في
إعداد السفن الحربية^(٣) ، وتم بالفعل إنشاء خمسين سفينة^(٤) ، جهزت بالمدافع
والأسلحة النارية^(٥) وأسند أمر قيادتها إلى الأمير حسين الكردي ، الذي
جعله السلطان نائباً عنه على جدة ، وأبحر الأسطول من ميناء السويس في
١٩١١ هـ / ١٥٠٥ م . وبدأ حسين الكردي في تحصين جدة وبناء الأبراج

Kammerer : op. cit., T. II, p. 145.

(١)

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٩١ — ١٩٢ ، ابن طولون
للصالحى : مماكرة الخللان ج ١ ص ٢٤٥ أحمد دراج : المالك والفرنج ص ١٢٨ -
١٢٩ ، عدلى فريد : نفس المرجع ص ١٢٨ .

(٣) Lewis, (B.) : The Camb. Hist. of Islam, vol. I. p. 229.

(٤) زيارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٣٩٣ .

(٥) النهر والى : البرق النيرانى ص ١٩ .

(٦) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٨٢ ، أحمد مختار العبادى : تاريخ

البحرية الإسلامية ص ٢٦٦ .

لحمايتها^(١) ، كما عمل على تأمين البحر الأحمر ، وبدأ بالاستيلاء على سواكن
بغير حرب^(٢) .

وفي أوائل المحرم سنة ٩١٣ هـ / مايو ١٥٠٧ م وصلت طلائع الأسطول
المصري إلى ميناء جازان للتموين ، ثم توجهت إلى جزيرة كمران^(٣) ، وتبعها
الأمير حسين في ربيع الآخر سنة ٩١٣ هـ / أغسطس ١٥٠٧ م في مجموعة
أخرى^(٤) . فلما وصل إلى عدن أرسل قاصدا من قبله إلى واليها الأمير
مرجان الظافري يستأذنه في الدخول إلى الميناء ، فأذن له ودخل بسفنه ، بأدب
واحترام وتعفف واحترام^(٥) . وأرسل إليه الأمير مرجان رسولين فأكرمهما
وأعادهما محامين يهداياه ، وأوصاهما بقوله : « بلغا الأمير مني السلام ، وعرفاه ،
لولا أني مأخوذ على من قبل السلطان قانصوه أن لا أدخل عدن لدخلت إليه

(١) ابن اياس : نفس المصدر ص ٨٤ ،

Heyd : op. cit., T. II, p. 521.

(٢) ابن اياس : نفس المصدر ص ٩٥ - ٩٦ ، عدلي فريد : السلطان
قانصوه الغوري ص ١٢٦ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيّد ص ٤٣ ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان
ص ٦٣٥ - ٦٣٦ ، الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٣٢ ،

Kammerer : op. cit., T. II; p. 154.

(٤) باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١٩٢ ، زيارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٣٧٣ ،

Kammerer : Ibid, T. II. p. 230.

(٥) يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٦٣٦ .

ومثلت بين يديه « (١) . ولم يردد الأمير مرجان ازاء ذلك في تزويده بكل ما يحتاج إليه من المساء والمؤون وغيرها (٢) . ثم أبحر الأمير حسين الكردي بأسطوله إلى الهند (٣) . وما أن وصل إلى كجرات - الواقعة في شمال الساحل الغربي للهند - حتى رحب به سلطانها مظفر شاه بن محمود شاه (٤) وأمدّه بالأموال (٥) . وتعاونت معه الأساطيل الهندية المتحالفة ، وتمكن بفضل هذا العون من التغلب على أسطول برتغالي في موقعة شول ٩١٣ هـ / ١٥٠٨ م (٦) ، التي سقط فيها قائد الأسطول البرتغالي لورنزو دالميدا صريعاً (٧) .

(١) ابن الديبع : الفضل المزيّد ص ٤٤ أ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٣٦ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٣٧٣ .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيّد ص ٤٤ أ ، عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتوح — مخطوط مصور ضمن مجموعة رقم ١١ تاريخ م بدار الكتب — ج ١ ص ٥٨ ب .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٨ ب ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٩٣ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٣٧٣ .

(٤) Kammärer : Ibid, p. 155. (٥)

(٥) النهروالى : البرق اليماني ص ٢٠ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٣٦ .

(٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٤٢ ، أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٢١٢ . أحمد دراج : المليك والتونج ص ١٣٧ ،

Kammärer : Ibid p. 155.

(٧) زين الدين : نخبة المجاهدين ص ٤٠ — ٤١ ، بانيكار : آسيا والسيطرة =

وأحدث انتصار الأسطول المصرى فى شول دويا هائلا فى مصر ، وأمر السلطان الغورى بإقامة الاحتفالات فى البلاد بهذه المناسبة لمدة ثلاثة أيام . وكان الأمير حسين الكردى قد أرسل فى طلب الإمدادات ليتمكن من مواصلة الحرب ضد البرتغاليين (١) ، فبدأ الغورى فى المحرم سنة ٨٩١٥ هـ / مايو ١٥٠٩ م بتجهيز عدد من السفن لإرسالها إليه إلى الهند (٢) . غير أن ذلك جاء متأخرا ، لئلا استطاع الأسطول البرتغالى بقيادة فرنسيسكو دالميدا نائب الملك - بعد وصول سفن ومعدات برتغالية لتعزيز قواته - أن يفاجئ الأسطول المملوكى فى ديو وينزل به هزيمة ساحقة فى الثالث من فبراير ١٥٠٩ م ، ويرغم الأمير حسين على الانسحاب بما سلم من سفنه إلى جده (٣) .

= الغربية ص ٤٣ ، عدلى فريد : قانصوه الغورى ص ١٢٧ ،

Heyd : op. cit., T. II, p. 536.

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٤٢

(٢) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ص ١٥١ .

(٣) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ص ٢٨٦ ، زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٤١ ، أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الإسلامية ص ٢٦٧ ، سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٧٨ - ١٧٩ ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٣٧ ، نعيم زكى : طرق التجارة ص ٣٠ - ٣١ ، ٩١ ،

Depping : Histoire du Commerce, Paris, 1830, T. II, p. 269,

Heyd : op. cit., T. II, p. 536, Kammerer : op. cit., T. II, p.

157, 174, Lane-poole : Mediaeval India under Mohammedan Rule,

London, 1925, pp. 176 - 177.

والواقع أن إبطاء السلطان المملوكي في القيام بعمل حربي مباشر ضد البرتغاليين في المياه الهندية عقب نجاح طلائعهم في الوصول إلى الهند، أدى إلى تمكن البرتغال من المبادرة بتعزيز قواتها، بحيث أصبح من اليسير على تلك القوات التعجيل بتوجيه هجوم شامل على الأسطول المصري انتهى بتدمير معظمه في ديو .

وكان لا انتصار البرتغاليين في ديو أثره في قيام دالبوكيرك بشن حرب صليبية لا هزادة فيها ضد المسلمين ، فقد انتهر فرصة قيام عادل شاه حاكم جوا بإيواء المعارين من بطش البرتغاليين ، ولمدادهم بالمعونات والأسلحة للصمود في محاربة البرتغاليين ، وبادر بمهاجمة مدينة جوا سنة ١٥١٠م واستولى عليها واتخذها قاعدة برتغالية في الهند (١) ، وأرسل إلى ملك البرتغال يبلغه بأنه قتل جميع من وجد من العرب فيها ، وأنه حينما أمكنه العبور على عربي ، كان لإفلاته من يده من المحال ، وأنه كان يملأ بهم المساجد ويضرم فيها النار ، (٢) . ثم أنه عمد إلى بث الحساس في نفوس رجاله قبيل اعتزامه الاستيلاء على ملقه سنة ١٥٢٥ (٣) ، وخطب فيهم بقوله ، إن الخدمة الجليله التي سنقدمها لله يحيط دناء العرب من هذه البلاد ، وإطفائنا شعله شيعة محمد بحيث لا يتداع

(١) زين الدين : نفس المصدر ٤٤ ،

Kammerer : op. cit., T II, p. 164.

(٢) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٦ .

(٣) أحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٢٦٧ ، أحمد دراج :

الأماليك والفرنج ص ١٣٨ .

Kammerer : ibid, T. II, p. VIII.

لها بها بعد ذلك لهيب » ومزج بين المطامع الاقتصادية والتعصيب الديني بقوله « وذلك لأنى على يقين أننا لو انتزعنا تجارة ملقة هذه من أيديهم (أى من المسلمين) لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثرا بعد عين ، ولا تمتعت من البندقية كل تجارة التوابل ، ما لم يذهب تجارها إلى البرتغال لشراؤها من هناك » (١) .

وهكذا فقد كان لانتصار البرتغاليين في ديو أثره في توطيد دعائمهم في الهند، فاستولوا على مصادر التوابل واحتكروا تجارتها ، واشتدت وطأنهم على المسلمين ، وتمكنوا من إحكام الحصار على الخليج الفارسي والبحر الأحمر وعدن ، وترصدت أساطيلهم سفن الأسطول المصري وغيرها من السفن العربية وتمكنوا في سنة ١٥٩١ / ١٥٩٠ م من الظفر ببعض السفن اليمنية الخاصة بسلطان اليمن الظافر عامر الثاني واستولوا عليها ولم يسلم منها إلا مركب واحد وزورقين (٢) . ولم تستطع السلطات اليمنية أو الهندية القيام بأى عمل مضاد للبرتغاليين الذين أصبحت لهم السيطرة الكاملة بغير منازع . ونتيجة لذلك أسرع السلطان الظافر عامر الثاني إلى الاستنجاد من جديد بالسلطان الغوري وحته على تدارك الخطر البرتغالي (٣) . وتبادل السلطان الغوري مع

(١) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٨ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤١ ب ، الفضل المزيدي ص ٤٦ أ ، باخرمة : قلادة النجر ج ٣ ص ١١٩٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٦٣٧ ، الكلبس : اللطائف السنية ص ٢٣٢ .

Kammerer : op. cit., T. II, pp. 157, 230.

(٣) الشبلى اليمني : السنا الباهر ص ٨ ، ٢٠١ ، النهر والى : البرق النيماني

سفارات^(١)، ومنها سفارة الطواشي بشير الذي غادر القاهرة في ربيع الأول ٩١٦ هـ^(٢) / ٥ يونيو ١٥١٠ م في طريقه إلى اليمن، فوصلها في جمادى الآخرة من نفس العام، وقام بإبلاغ رسالة السلطان الغوري إلى السلطان الطاهري، وأطلععه على حقيقة الموقف وما يتم من استعدادات لمواجهة البرتغاليين، ثم قفل الطواشي بشير عائدا إلى مصر محملا بالهدايا فوصلها في المحرم سنة ٩١٧ هـ^(٣) / أبريل ١٥١١ م.

كذلك وفد إلى مصر في سنة ٩١٦ هـ / مايو ١٥١٠ م قصاد الملك محمود شاه صاحب كنيابة، وغيره من ملوك الهند لمطالبة الغوري بالإسراع في إرسال الحملات لمعاونتهم ضد البرتغاليين الذين كثروا تعبتهم، منذ انتصارهم في حيو^(٤). فقام السلطان الغوري بإرسال مبعوث إلى ملوك الهند في ربيع الأول ٩١٦ هـ يونيو ١٥١٠ م يطالبهم بمساندته في قتاله ضد البرتغاليين^(٥).

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ، ص ٦٣٧ ، الكسبي : اللطائف

Kammerer : Ibid, T. II, pp. 158, 231.

ص ٢٣٢

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٨٨ ، زين الدين : تحفة المجهادين

ص ٤٨

(٣) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ص ٢٠٩ ، ابن الديبع : الفضل

Kammerer : Ibid, T. II, p. 232.

المزيد ص ١٧ أ ،

(٤) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ص ١٨٢ ، عدلي فريد : السلطان

نصوه الغوري ص ٢٠٨ .

(٥) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ص ١٨٥ .

وفي نفس الوقت عاود السلطان الغوري مطالبة البندقية بالإمدادات العسكرية ليتمكن من مواصلة القتال ضد البرتغاليين في الهند . ولكن البندقية كعادتهم تعللوا بخرجهم من مواجهة البابا والدول المسيحية الأوربية ، ونصحوه بالتوجه بطلباته إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني الذي بادر بتزويد الغوري بالأخشاب والأسلحة على سبيل الهدية لإسهاماً منه في حماية المقدسات الإسلامية في الحجاز (١) .

أما الأمير حسين الكردي فقد اهتم بعدودته من ديو بإعادة تحصين جدد وبناء سور ضخيم حولها (٢) - وكان سلطان كجرات قد أمده بالأموال لهذا الغرض (٣) - واستغرق بناء هذا السور عامين ، ومن الجدير بالذكر أن البرتغاليين أقاموا وبدورهم حصناً لهم في قاليقوت ، وكان صاحبها قد اعتزم الإسهام في أعمال التحصينات التي يتولاها الأمير حسين الكردي في جدد فأعد سفينة حملها بالتوابل ، وتحامل حتى حصل على إذن من السلطات البرتغالية

(١) ابن اباس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٩٦ ، ٢٠١ ، ابن طولوق : الصالحى : مفاكهة الخلان ج ١ ص ٣٤٥ ، أحمد دراج : المهالك والفرنج ص ١٤٨ ، Heyd : op. cit., T. II, pp. 537-39, Kammerer : op. cit., T. II, p. 146, Inaleik, (Halil) : The Ottoman Empire; Lon don, 1973, p. 33.

(٢) الطبرى : تحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن - مخطوط بالجمعية الآسيوية في كلكتا رقم ١٢٨١ ، مصور بالميكرو فيلم بمعهد المخطوطات العربية ، رقم ٣١٤٣ - ص ٥٤ أ .

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٣٦ .

بضمان عدم تعرض الأسطول البرتغالي لها ، وتمكنت تلك الشحنة من الوصول إلى جدة بفضل ملاح عربي يدعى خليفة ، وقام هذا الملاح بإبلاغ الأمير حسين بالأمر وأطلعه على أحوال البرتغاليين ، إلا أن الأمير حسين شك في أمر ذلك الملاح واعتقد أنه يعمل لحساب البرتغاليين ، وأنه إنما جاء للتجسس والتعرف على معلومات ليستفيد منها البرتغاليون . ولهذا احتجزه وأرغمه وبحارته على الاشتراك في بناء السور ^(١) .

وأيا ما كان الأمر ، فإنه ما أن انتهى الأمير حسين الكردي من تحصينات جدة حتى بادر بالعودة إلى مصر ، فوصلها في آخر رمضان سنة ٩١٨ هـ / ديسمبر ١٥١٢ م ، وبصحبه رسول من ملك كنباية جاء للحصول على تقليد من الخليفة العباسي لسيدته ^(٢) ، وكان قد وصل إلى القاهرة أيضا - في بداية ذلك الشهر - رسول آخر من الهند محملا بالهدايا للسلطان الغوري ^(٣) ، ولم تفصح المصادر عن مضمون مهمته ، ولكن يبدو أنها كانت تهدف إلى حث السلطان على إرسال الإمدادات المصرية إلى الهند .

٤ - محاولة البوكيرك الاستيلاء على عدن والسيطرة على البحر الأحمر :-

على الرغم من الحصار الذي فرضه البرتغاليون على عدن ، إلا أن أساطيلهم لم تكن تجرؤ على المخاطرة بمهاجمتها بسبب تحصيناتها الطبيعية القوية . ولكن دالبوكيرك كان يحصر على الاستيلاء عليها لأهميتها ، ولتخذها قاعدة

(١) Depping : Histoire du Commerce, T. II p. : 219.

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٣) ابن أبياس : نفس المصدر والجزء ص ٢٨٤ .

بحرية لأسطوله والعمل على السيطرة على البحر الأحمر والقضاء على الأسطول المصري ، حتى يفقد حكام الهند كل أمل في وصول الإمدادات الحربية من مصر إليهم ، ومن ثم تفتر مقاومتهم ، ويتخلص البرتغاليون من المخاطر التي تعترضهم في حالة وصول أسطول مصري إلى المياه الهندية ، وبذلك يتحقق الاستقرار للبرتغاليين في الهند ^(١) .

ولهذا السبب تجوز دالبوكيرك للاستيلاء على عدن ، فغادر جوا في ٨ فبراير سنة ١٥١٣ ^(٢) في أسطول يتألف من عشرين سفينة ^(٣) ، فوصل عدن في ١٧ محرم سنة ٩١٩ هـ ^(٤) / ٢٤ مارس ١٥١٣ ، ولكن أخبار حملته سبقته ، مما فوت عنصر المفاجأة التي كان البرتغاليون يهدفون إليها ، وعلى الرغم من انزعاج والى عدن من تلك الأخبار ، إلا أنه اتخذ للامر عدته وكان قد قام ببناء على أوامر سلطانه - بتحصين المدينة والتأهب للقتال دون أن يكون البادئ .

(١) Wilson : The Persian Gulf, p. 118.

(٢) Kammerer : op. cit T. II, p. 178.

(٣) Kammerer : op. cit., T. II, p. 178. Wilson ; op.

cit., pp 75 - 76

(٤) وتذكر المصادر اليمنية أن الأسطول البرتغالي كان مكونا من ١٨ سفينة) ،

ابن الديبع : قسرة العميون ، ص ١٥١ ب ، الفضل المزيدي ص ١٥١ أ ،
سباخرمة قلادة النحر ج ٣ ص ١١٩٤ ، زيارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٣٨٠-٣٨١ .

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيدي ص ٥١ أ ، زيارة أئمة اليمن ج ١ ص ٨٠ ،

Kammerer : op. cit. T. II, p. 185.

به (١) . واتفق وقت وصول الأسطول البرتغالي إلى عدن أن كانت مجموعة من المراكب راسية في مينائها ، فاضطر أصحابها إلى تركها والاحتباء في المدينة ، ولما تأكد البرتغاليون من خلو تلك المراكب من الحراسة ، تقدموا إلى الميناء ، واستولوا على دار البندر (٢) . ثم قصفوا المدينة بالمدافع (٣) . وحاول الأمير صر جان - حاكم عدن - أن يهادنهم ، ويهاديهم تجنباً لما قد يصيب مدينته من كوارث محتملة إذا ما تصدى لهم ، فأرسل إليهم مجموعة من الكباش وكمية من العواكر على سبيل الغنيمة ، ولكنهم أعادوها إليه ، وطالبوه بتسليم المدينة ، وهددوه بالاستيلاء عليها قهراً وحددوا مهلة لليوم التالي (٤) . فلما لم يستجب حاكم عدن لطلباتهم ، هاجموا المدينة ونصبوا عدداً من السلاط على أقصر جانب من سورها (٥) . وتمكن بعضهم من النزول بداخلها (٦) . فكان لذلك أثره السيء على حاكمها الذي تم بالتسليم ، ولكنه عدل عن ذلك ، عندما رأى استماتة أهل المدينة في الدفاع عنها واستبسالهم في المقاومة رغم قلة ما لديهم من

(١) ابن الديبع : آرة العيون ص ١٥١ ب ، بانخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٩٤ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٠ .

(٢) تقع دار البندر على جبل صخرة المقابل لعدن والمشرق على مينائها .
(بانخرمة : تاريخ نجر عدن ج ١ ص ١٢ - ١٣ ، ١٢٠ .

(٣) بانخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١٦ ، قلادة النحر ج ٣ ص ١١٩٤ .

(٤) بانخرمة : قلادة النحر ، نفس الجزء والصفحة .

Kammerer : op. cit. T. II, p. 186.

(٥)

(٦) بانخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٩٥ ، ابن الديبع : قرة العيون

ص ١٥١ ب ، الفضل المزيدي ص ٥١ أ .

إمكانيات ، فقد تجمع عدد منهم واستخدموا الحجارة في محاربة البرتغاليين .
المسلحين بالأسلحة النارية . وشجع هذا الموقف البطولي من الأهالي حاكم عدن ،
وقوى عزيمته ، وحط بمن معه كالابواشق على من نزل من البرتغاليين في
المدينة . وتغلب عليهم وأرغمهم على اللوز بالترار ، وحوصر الباقون وأشاعت
الزيران في الأحراش التي اختبأوا فيها ، مما اضطرهم إلى لقاء أنفسهم من
الأسوار ، ولجأت قوات الأسطول إلى قصف المدينة بالمدفعية لتفطية
انسحابهم (١) .

وهكذا أسفرت تلك المعركة عن فشل البرتغاليين في الاستيلاء على
عدن (٢) ، وسقوط بعض القلبي منهم (٣) ، وأسر أربعة آخرين (٤) .
لشباعا لانتقامهم ، قام البرتغاليون - عند انسحابهم - بأشغال الزيران في المراكب
الراسية في الميناء (٥) ، ثم اتخذ دالبوكيرك طريقة إلى باب المندب ، حيث
توجه شمالا في البحر الأحمر بجذاه ساحله الشرقي ، فر بالقرب من المواني
اليمنية دون أن يتوقف في أي منها إلى أن وصل إلى جزيرة كمران في أوائل

(١) باخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥١ ب ،

Macro : Yemen and the Western World, p. 1.

(٣) باخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيّد ص ٥١ أ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى .

ص ٦٤٠ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٣٨١ .

(٥) زبارة : نفس المرجع والصفحة ،

Kammerer : Ibid T, II p. 186.

صفر سنة ٨٩١٩ / أبريل ١٥١٣ م ، فاستولى عليها ونهبها رجاله (١) ، ودمروا بعض مبانيها (٢) وقتلوا من وجدوه فيها من اليعنبيين (٣) . وأقام دالبو كيرك في كمران حتى منتصف جمادى الأولى سنة ٨٩١٩ / يوليو ١٥١٣ م (٤) ، دون أن يتحرك السلطان اليعنى لمقارمتهم والناس يأكل بعضها بعضا من الغيظ ، يريدون من السلطان المصروف والأذن في قتالهم ، فلم يساعد على ذلك ، (٥) .

وعلى الرغم من نجاح الأسطول البرتغالي في التوغل في البحر الأحمر ، والوصول إلى كمران واحتلالها بغير مقاومة ، إلا أنه فشل في الوصول إلى جدة ، بسبب الديات التي سخرت لتشتيت قطع الأسطول ، وقضت على أحلام دالبو كيرك في العبث بالمقدسات الإسلامية ، وتدمير قبر الرسول (٦) .

(١) ابن الديبع : الفضل المزيّد ص ٥١ ، قرة العيون ص ١٥٢ أ ،
باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٩٥ ، أحمد دراج : الماليك والفرنيج
ص ١٥٥ .

Kammerer ; Ibid. T. II, p. 192: (٢)

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٠ ، زبارة : نفس المرجع
والصنحة .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٢ أ ؛

Kammerer ; Ibid, T. II, p. 193.

(٥) باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٩٥ .

Kammerer ; op. cit., T. II p. 193, Serjeant (٦)

The Portuguse p. 169.

ولهذا توجه إلى مصوع (١) ، وأغارت بعض سفنة على زيلس ، وأحرقت ما كان راسيا في مينائها من مراكب (٢) . كما هاجم سواكن (٣) وجزائر دهلك ، واضطر أخيرا إلى العودة إلى عدن حيث فشلت محاولته الثانية في الاستيلاء عليها ، فتركها في أول جمادى الآخرة سنة ٩١٩هـ / أغسطس ١٥١٣م إلى الهند (٤) بعد أن قصفها بمدفيعته ، وأحرق رجاله ما كان راسيا في مينائها من المراكب (٥) .

وأحدث دخول الأسطول البرتغالي إلى البحر الأحمر ، ومحاولته الوصول إلى جدة رد فعل عنيف ، ففي الحجاز خشي الشريف بركات أمير مكة أن يتمكن البرتغاليون من النزول في جدة ، في غيبة حسين الكردي قائد الأسطول المملوكي ، الذي كان موجودا وقتها في مصر ، ولذلك أسرع الشريف بركات بالتوجه إلى جدة بمن معه من المجاورين لتعصيد الحامية المملوكية فيها . وكان الشريف قد أرسل إلى السلطان الغوري يبلغه بخطورة الموقف (٦) ، فأصدر

(١) Kamme er ; Ibid T. II pp. 1X, 197.

(٢) ابن الديبع . قررة العيون ص ١٥٢ أ ، الفضل المزيدي ص ٥١ ب ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٩٥ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٦٤٠ .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٠٧ ، أحمد دراج : المسالك والفرنج ص ١٥٥ .

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيدي ص ٥٢ أ .

(٥) ابن الديبع : قررة العيون ص ١٥٢ أ - ب ، باخرمة : قلادة النحر ص ١١٩٥ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٦٤٠ .

Kammerer Ibid. pp. 205.

(٦) ابن اياس : نفس المصدر والصفحة .

السلطان أو امره إلى الأمير حسين الكردي لسرعة العودة إلى جدة ، وأرسل معه أحد الأمراء ليتولى مهمة الكشف عن أخبار البرتغاليين ^(١) . وفي نفس الوقت تضاعفت الجهود من أجل تجهيز السفن الجارية لإنشاؤها في السويس ، وتزويد الجلة بالزرد كاشية والتجارين والحدادين ورماة البندق والنفطية ^(٢) وتوجه السلطان إلى السويس في شهر صفر ٩٢٠هـ / مارس ١٥١٤م للإشرافه بنفسه على إنزال السفن العشرين التي تم إنشاؤها إلى البحر الأحمر ^(٣) . ونتائج الغوري إرسال الإمدادات ، ففي جمادى الأولى ٩٢٠هـ / يونيو ١٥١٤م جهز تجريدة إلى الأمير حسين الكردي ^(٤) ، كما أرسل أسطولا آخر من عشرين سفينة في جمادى الأولى سنة ٩٢١هـ / يونيو ١٥١٥م ، أسند قيادتها إلى الرئيس سلمان العناني ^(٥) ، الذي توجه إلى جدة للاضطلاع إلى الأمير حسين الكردي والاشتراك معه في قيادة الأسطول المملوكي ضد البرتغاليين ^(٦) .

(١) ابن اياس : نفس المصدر ص ٣٠٨ .

(٢) ابن اياس : نفس المصدر ص ٣١٠ - ٣١١ .

(٣) ابن اياس : نفس المصدر ص ٣٦٢ - ٣٦٦ ، عدلي فريد : السلطان قانصوره الغوري ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٤) ابن اياس : نفس المصدر ص ٣٨١ .

(٥) ابن اياس : نفس المصدر ص ٤٥٨ و ٤٦٠ و ٤٦٦ - ٤٦٧ .

(٦) الطبري : اتحاف فضلاء الزمن ص ٥٨ ب ، ٥٩ أ ،

وأخيراً - تطور العلاقات اليمنية المصرية حتى سقطت دولة بنى طاهر :

١ - موقف السلطات الطاهرية من الجهاد المملوكية ضد البرتغاليين :

لم يؤثر نجاح البرتغاليين في السيطرة على الطريق إلى الهند ، على الممالك الهندية أو دولة المماليك والبندقية فحسب ، وإنما شمل بالضرورة بلاد اليمن بحكم موقعها وأهمية عدن . وعلى الرغم من السياسة الانعزالية التي اتبعها سلاطين اليمن الطاهريين ، إلا أنها كانت أكثر البلاد تأثراً بما يدور حولها ، فقد تأثرت حركة التجارة في موانئها تأثراً بالغاً وخاصة عدن ، وكان نجاح البرتغاليين في السيطرة على موانئ شرق إفريقيا ، وخاصة في المنطقة الواقعة جنوبي رأس جوردفوي (القرن الأفريقي) ، واحتلالهم لسوق طرة ، إلى الجنوب الشرقي من عدن - وسيطرتهم على سواحل عمان وهرمز ، وانتشار أساطيلهم لإغلاق الخليج الفارسي والبحر الأحمر ، كلها مقدمات للهجوم الذي شنّه دالبوكيوك سنة ١٥١٣ م على عدن ، في محاولة للاستيلاء عليها ، لموقعها الاستراتيجي الممتاز ، ولكونها من أصلح الموانئ التي يطمع البرتغاليون في استخدامها كقاعدة رئيسية لأسطولهم ، ولعملياتهم الحربية في البحر الأحمر ، مما يساعد على الاتصال بالحشة ، وتحقيق المطامع الصليبية بضرب مصر والاستيلاء على الحجاز .

وكان موقف السلطات الطاهرية في عدن بادئ ذي بدء مشرقاً عند مرور الأسطول المملوكي بقيادة الأمير حسين الكردي سنة ١١١٣ هـ / ١٥٠٧ م في طريقه إلى الهند ، إذ تبادل الأمير مرجان معه الهدايا ، وأمدّه باحتياجاته وعامله معاملة الخلفاء^(١) . ولكن هذا الموقف لم يلبث أن تغير بعد أن بدأ

(١) انظر ، ابن الديبع : قسرة العميون ص ١٤٨ ب ، بانخرمة : قلادة

البرتغاليون حملتهم على عدن والبحر الأحمر في أعقاب انتصارهم على الأسطول المصري في ديو سنة ١٥٠٩م ، فقد وقف حاكم عدن موقفاً سليماً من الهجوم البرتغالي الأول على عدن سنة ١٥١٣م ، وعمل على مهادنة البرتغاليين وموادةتهم ، وأمدّم بالمؤن مما يعد دليلاً على جنوحه إلى مسالمتهم ، ولكنهم أصروا على تسلم المدينة . ونظراً لتخاذل مرجان الظافري حاكم عدن الطاهري فقد تمكنت بعض القوات البرتغالية من تسلق أسوار المدينة والنزول فيها ، ولولا تصدى الأهالي لهم ، واشتباهم معهم في معركة انتصرت فيها حجارة الأهالي على الأسلحة النارية البرتغالية ، اسقطت عدن في أيدي البرتغاليين (١) .

ولم يكن هذا هو موقف مرجان الظافري وحده ، بل كانت شياخة استنفا السلطان الطاهري الظافر عامر الثاني بدليل أنه لم يتصدد للأسطول البرتغالي في البحر الأحمر ، مما سهل للبرتغاليين الاستيلاء على جزيرة كمران اليمنية بغير حرب ، كما أنه لم يحاول استرداد تلك الجزيرة رغم حماس أهل اليمن للجهاد ، بل ترك البرتغاليين يحتلون أكثر من شهرين دون أن يلقوا منه أية مقاومة (٢) . فكان لهذا الموقف أثره في تطوع البرتغاليين للاستيلاء على جدة ، ولولا مقاومة الرياح لهم لأمكنهم تحقيق ذلك ، وما يمكن أن يترتب على ذلك

النحر ج ٣ ص ١١٩٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٦٣٦ ،

Kammerer ; op. cit., T 11, p 231

(١) انظر ، ابن الديبع : قرّة العيون ص ١٥١ ، بانخرمة : نفس المصدر

والنحر ص ١١٩٤ - ١١٩٥ ، يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٤٠ .

(٢) بانخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٩٥ .

من الاعتداء على المقدسات الإسلامية ، وافتتاح الطريق أمامهم لتوجيه ضربتهم
المباشرة لمصر .

لما قام السلطان الغورى بإعداد أسطول آخر بقيادة الأمير حسين
الكردي والرئيس سلمان العثماني ، وبدأ هذا الأسطول في الإبحار جنوباً في
طريقه إلى الهند ، صدم قادة هذا الأسطول بالموقف العدائي الصارخ الذي
وقفته الساطات الطاهرية في اليمن . وكان الأمير حسين حريصاً - كما أنه -
على عدم المساس بالسيادة اليمنية ، فما أن وصل إلى جازان حتى أرسل رسولا
من قبله إلى السلطان الطاهري الظافر عامر الثاني ، يخبره بأمر الحملة البحرية ،
ويطلب سرعة العمل على تزويده بالمؤن والأموال تنفيذا لما تعهد به في مكاتباته
للسلطان الغوري (١) ، وذلك حتى يمكنه مواصلة الإبحار إلى الهند لمقابلة
البرتغاليين هناك ، ولكن هذا الطلب أزعج السلطان اليمني ولم يستجب له (٢) .
وكان الأمير حسين الكردي قد واصل تقدمه فوصل إلى جزيرة كمران في
السابع من ذي القعدة سنة ٩٢١ هـ (٣) / ديسمبر ١٥١٥ م ، وعندئذ أرسل
رسله بالهدايا إلى والي زبيد الأمير عبد الوهاب ابن السلطان الظافر عامر الثاني ،
فكتب عبد الوهاب إلى والده يخبره بوصول الأسطول المصري إلى كمران ،
ومطالبة قائده بالمؤن والأموال لمعاونتهم على الجهاد (٤) . ويقال إن السلطان

(١) الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ٢٠١ ، النهروالي : البرق اليمني ص ٢٠٠ .

Kammerer : Ibid, T. II, p. 231.

(٢) باخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١٩٧ .

(٣) ابن الديبع : قرّة العيون ص ١٥٥ أ ، الفضل المزيّد ص ٥٤ أ .

(٤) باخرمة : نفس المصدر والصفحة ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى .

كان ميالا لتقديم المساعدات المطلوبة اتقاء لشركهم ، ولكن وزيره أفتعسه بعدم الاستجابة (١) حتى لا يكون في ذلك التزام بتقديمها سنويا (٢) . ولهذا أعرض السلطان عن رسل الأمير حسين الكردي ، وامتنع عن تزويده بالمعلومات التي كان قد اشتراطها على نفسه ، وكتب إلى ابنه في زييد يحذره من التعاون معهم ، وأمره بعدم إرسال المؤن المعتادة إلى كمران والحجاز حتى لا يستولوا عليها (٣) .

كان لتخاذل السلطان الظافر عامر وعدم وفائه بما التزم به ، وتحوله إلى هذا الموقف العدائي من الحملة ، أثره في تخويف الأمير حسين الكردي ، الذي كان حريصا على عدم انتهاك حرمة الأراضي اليمنية ، وتأمين سلامتها وحمايتها من الخطر البرتغالي ، مما يفرض على اليمن تقديم المساعدات المطلوبة ، كما كان التعاون اليمني أمرا ضروريا ولازما لإنجاح مهمة الأسطول الملوكي ، وذلك بالسماح له باستخدام بعض المواني اليمنية ، مما يساعد على حماية السواحل وتأمين البحر الأحمر ، في وقت عاجز فيه السلطان الظافر الطاهري عن مقاومة البرتغاليين لانشغاله في القضاء على الثورات الداخلية ، وهكذا اضطر الأمير حسين الكردي بحكم موقف السلطان اليمني منه إلى قبول التعاون مع بعض القبائل

(١) بانخرمة : نفس المصدر ص ١١٩٨ ،

Kammerer : Ibid, T. II, p. 243.

(٢) الشبلي اليمني : السنين الباهرة ص ٢٠١ - ٢٠٢ ، النهر والى : البرق

اليمني ص ٣٠ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٥ أ ، الفضل المزيدي ص ٤٥ أ ،

بانخرمة : نفس المصدر والصفحة ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٦٤ ،

الكهني : اللطائف السنية ص ٢٣٣ .

اليمنية التي عرضت عليه استخدام القواعد البحرية اللازمة للاستطول في الأراضي اليمنية ، ولهذا تحولت جهوده للاستيلاء على تهامة والدخول في صراع مع بني طاهر ، مما أدى سقوط دولتهم في نهاية الأمر ^(١) .

ومما يمكن من أمر ، فقد ترك الأمير حسين الكردي مجموعة كبيرة من جنده في تهامة تعاونها القبائل اليمنية للاستيلاء على اليمن ، وتوجه هو في أواخر جمادى الآخرة سنة ٩٢٢ هـ / يوليو ١٥١٦ م ومعه الرئيس سليمان العثماني إلى زيلع ^(٢) لاصلاح السفن والتزود بالمؤن والمياه وغيرها ^(٣) . ثم رحل من هناك إلى عدن فوصلها في رجب ٩٠٢ هـ ^(٤) / أغسطس ١٥١٦ م ، فلما رأى أهل عدن السفن المملوكية - وكان قد بلغهم غزو الجراكسة لتهامة - صرخوا ما كان في الميناء من مراكب خوفا من أن يستولي المالك عليها ^(٥) ، وقد شغل الرئيس سلمان العثماني بمطاردتها ^(٦) . أما الأمير حسين الكردي فقد

(١) عن الصراع بين الجراكسة وبني طاهر ، انظر ، ما يلي ص ٥٢٦ وما بعدها .

(٢) الشبلي : السنا الباهر ص ٢٠٣ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيّد ص ٥٥ أ ، باغرمة : قلادة النحر ص ٣ ص ١٢٠٠ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٩٤٧ .

(٤) النهر والى : البرق اليماني ص ٢٣ ، للكبيسي : اللطائف السنينة ص ٢٣٧ .

(٥) باغرمة : قلادة النحر ص ٣ ص ١٢٠٠ .

Kammerer : op. cit., T. II, P. 235.

(٦) ابن الديبع : الفضل المزيّد ص ٥٥ أ ، النهر والى : البرق اليماني

ص ٢٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٨ .

بمقاومة عنيفة ، واضطر إلى قصف المدينة بالمدفعية ، وتمكن من انزال
 بعض قواته إلى البر ، حيث دارت معركة حامية بينها وبين عسكر المدينة ،
 قتل فيها جمع من الفريقين وانتهت بالانسحاب حسين الكردي من ميناء
 عدن (١) . ولكنه لم يكفد يعتمد عنها كثيراً حتى لحقه زميله سلمان ، الذي لاقاه
 على ترك حصار المدينة ، وأعادته معه إليها في شعبان ٩٢٢ هـ / سبتمبر ١٥١٦ م
 فحاصرها مرة أخرى . واتفق عند عودة الأسطول ، أن كان القائمون بالحراسة
 على حصن صيرة - المقابل لعدن والمشرق على مينائها - قد تركوا مواقعهم
 وتولوا إلى المدينة ، ظناً منهم بزوال الخطر ، مما سهل على القوات المملوكية
 هجومه الاستيلاء على هذا الحصن ، واستخدامه في ضرب المدينة بالمدفعية .
 ثم تحول سلمان إلى تصويب مدفعيته إلى سور المدينة ، وتمكن من هدم جانب
 كبير منه . وعاوالت القوات الجركية اقتحام تلك الثغرة ، ولكن حامية
 المدينة تمكنت - بجمعبيد الأهالي - من الصمود (٢) ، ثم قويت عزيمتهم بوصول
 للمدادات من السلطان الظافر عامر الثاني ، مما اضطر القوات الجركية على
 الانسحاب إلى سفنها ومغادرة عدن (٣) في رجب سنة ٩٢٢ هـ (٤) / أغسطس
 ١٥١٦ م .

(١) ابن الديبع : نفس المصدر ص ٥٥ ب ، باخرمة : نفس المصدر
 والجزء ص ١٢٠٠ ، يحيى بن الحسين : نفس المرجع والصفحة ، زبارة : أئمة
 الحسين ج ١ ص ٣٨٦ ، عدلي فريد : السلطان قانصوه الغوري ص ١٣٥ .
 (٢) ابن الديبع : الفضل المزيدي ص ٥٥ ب ، باخرمة : قلادة النحر ص ٣٠١ .
 (٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٨ أ .

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيدي ، نفس الصفحة ، عيسى بن لطف الله :
 روح ج ١ ص ٦١ ب ، النهر والي : البرق البهائي ص ٢٤ .

ومن الجدير بالذكر أن الرئيس سلمان العثماني توجه بسفنه إلى قرية ربالك (١) للتزويد بالمياه، وكان التينيون قد رتبوا حامية فيها لمنع الأسطول المصري من الحصول على الماء، فوقع سلمان ومن توجه إليها معه في كمين (٢) أعد لهم واستطاعت حامية القرية محاصرتهم، ولكن ماكادت قواته تطلق بنادقها ويسقط بعض رجال الحامية اليمنية حتى فر الباقون، وتمكن سلمان من العودة بمن معه إلى سفنه (٣).

وبدلاً من أن يواصل الأسطول المصري رحلته إلى الهند لانحياز المهمة الرئيسية التي أسندت إليه، عاد إلى البحر الأحمر. وكان قد حدث خلاف بين الأمير سلمان والأمير حسين الكردي فتوجه الأول إلى زيلع للتزود بالمؤن ومنها توجه إلى جدة. في حين عاد الأمير حسين إلى جدة ماراً بالموانئ اليمنية الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر (٤).

وعلى هذا النحو لم يتمكن الأسطول المصري من مواصلة التقدم من عدن إلى الهند لتنفيذ المهمة الأساسية التي جهز لها، وهي محاربة البرتغاليين في المياه الهندية، وعلى الرغم من أن المصادر لم توضح أسباب عودة الأسطول المفاجئة إلى جدة، إلا أنه يمكن القول بأن هناك عدة أسباب هامة لهذا التصرف منها:

-
- (١) ربالك، قرية بالقرب من عدن، تقصدها السفن المتجهة إلى البحر الأحمر للتزود بالماء، (باخرمة: تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ٢٠ - ٢١).
 - (٢) ابن الديبع: الفضل المزيّد، نفس الصفحة.
 - (٣) باخرمة: تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ٢١.
 - (٤) باخرمة: قلادة النجدة ج ٣ ص ١٢٠٢.

أولاً — امتناع السلطان الطاهري الظافر عامر الثاني عن الوفاء بعهده الفوري بتقديم المساعدات إلى الأسطول المملوكي ، أو السماح باتخاذ قواعد له في اليمن ، وقيامه باحتجاز السفن الواردة بالمؤن ، ومنعها من الوصول إلى الأسطول الذي كانت وحداته راسية في جزيرة كبران .

ثانياً — كان تأمين البحر الأحمر من الخطر البرتغالي من بين المهام الرئيسية للأسطول ، لضمان حماية المقدسات الإسلامية ، وتأمين مصر واليمن ، ومنع اتصال البرتغاليين بالحبشة . وهي أمور كان البرتغاليون يسعون إلى تحقيقها لضمان سيطرتهم على التجارة الشرقية . وكان على قادة الأسطول المملوكي إيجاد قواعد لهذا الأسطول في موانئ البحر الأحمر ، تلجأ إليها السفن للإصلاح أو المراقبة والتأمين . إلا أن موقف السلطان الطاهري المعادي ، ألزم قادة الأسطول للعمل على تحقيق ذلك عن طريق القوة وقد استلزم ذلك توجيه جزء من القوات المعدة أساساً لمحاربة البرتغاليين للقيام بالمراقبة في بعض الموانئ اليمنية ، ثم تطورت الأمور إلى غزو لليمن لضرب الطاهريين الذين تسببوا بموقفهم في عرقلة وتعطيل الأسطول المملوكي عن موصلة القيام بمهمته الأساسية في محاربة البرتغاليين بالمياه الهندية .

ثالثاً — كانت عدن بموقعها الاستراتيجي الهام نقطة ارتكاز أساسية لتأمين الأسطول المملوكي في المحيط الهندي ، ولم يكن في إمكان قادة الأسطول التوجه إلى الهند دون ضمان الاعتماد عليها وتحقيق الرسو في مينائها ، حتى لا يخلفهم البرتغاليون عليها ، ومن ثم يقطعون خط الرجعة عليهم ويصبح الأسطول المملوكي فريسة سهلة لهم ، ولهذا كان على حسين الكردي أن يؤمن عهودته من هذه المغامرة ، خاصة وأن الأمير مرجان حاكم عدن كان يسعى إلى

مهادنة البرتغاليين عند قيامهم بالهجوم على عدن في سنة ١٥١٣ ، ولم ياجأ البرتغاليون
مقاومتهم إلا تحت ضغط الأهالي . ولهذا لم يكن مستبعدا أن يتحالف هؤلاء
الأمير مع البرتغاليين ، بحجة تخليص اليمن من أطباع الجراكسة ، وهذا ما أكدته
الأحداث بعد ذلك في سنة ١٥١٧ .

ولهذه الأسباب لم يتمكن قادة الأسطول المملوكي من المجازفة بالتوجه
لحاربة البرتغاليين الذين كانوا قد دعموا مراكزهم في الهند ومدخل الخليج
وهرمز وسوقطرة ، وأحكموا الحصار على الساحل الجنوبي لبلاد العرب ،
وامتدت سيطرتهم ، على الساحل الشرقي لأفريقية ، وأقاموا القلاع والتحصينات
في المناطق التي يسيطرون عليها ، وأصبح لديهم من القوة الحربية والبحرية
ما يجعل الأمير حسين عاجزا عن مواجهتهم ، خاصة إذا لم يكن مسيطرا على عدن
والموانئ اليمنية في البحر الأحمر ، حتى يضمن سلامة وصول الإمدادات
وتأمين عودته . وإلا فإن هزيمته ستصبح أمرا محققا . وإذا أخذنا في الاعتبار
الخلاف الناشب بين الأمير حسين الكردي وزميله سلمان العثاني ، لرأينا أنه
هودة الأسطول المصري إلى البحر الأحمر كان تصرفا صائبا ، وذلك إلى أن
يتم الاستعداد لجولة أخرى متكافئة . ولكن ما لبثت الأوضاع أن تغيرت
فجأة ، واستولى العثمانيون على مصر ، وخلفوا المماليك في تحمل عبء الكفاح
ضد البرتغاليين .

٢ - تعاون حاكم عدن مع البرتغاليين للسيطرة على البحر الأحمر :

على الرغم من فشل دالبوكيرك في الاستيلاء على عدن سنة ١٥١٣ ، إلا أنه
فكرة السيطرة عليها ظلت تراود البرتغاليين الذين كانوا يعتبرونها ضرورة
ملحة للسيطرة على البحر الأحمر ، وقطع أي اتصال بين مصر والهند ، وثبيت

الوجود البرتغالي بتوجيه ضربة مباشرة لمصالح مصر الاقتصادية، ولأنشك في توصل البرتغاليين إلى معرفة بعض الأخبار المتعلقة بالصراع الناشب بين قوات الأسطول المملوكي وبنى طاهر، واستيلاء حسين الكردي على بعض الموانئ اليمنية في البحر الأحمر، وتوغل قواته لاستكمال غزو اليمن، فاستغل البرتغاليون ذلك الصراع للقيام بحملة أخرى في البحر الأحمر وتحقيق الاتصال بالحبشة، والتعاون معها ضد مصر والحجاز والعبث بالمقدسات الإسلامية (١).

ففي ٨ فبراير ١٥١٧ غادر أسطول برتغالي قوامه أربعون سفينة (٢) ميناء جوا بقيادة لوبوسواريز، وتمكن من الوصول إلى سوقطرة بعد ثلاثة أسابيع، ولم يلبث أن أبحر منها إلى عدن فوصلها في الخامس من مارس (٣). وبدأ على الفور في مراسلة الأمير مرجان حاكم عدن موضحاً له أن هدفه لا يعدو مجرد تقديم العون له ضد المماليك الذين انتهكوا حرمة بلاده، والعمل على طردهم منها (٤)، ومبالغة من لوبوسواريز في التظاهر بحسن نواياه لم يقم بأى عمل عدائي ضد السفن الراسية في الميناء، ويبدو أن حاكم عدن انخدع بهذا الأسلوب الودي الناعم، أو وجدها فرصة سانحة للقضاء على الأسطول المملوكي والقوات

(١) Kammerer: op. cit., T. II, p. 265, Wilson: The Persian Gulf, p. 120.

(٢) Kammerer: Ibid., p. 265. (وبذكر باخبره أنه عدة أسطوله ثلاثون سفينة) قلادة النحر ج ٣ ص ١٢٠٥.

(٣) Kammerer: Ibid., p. 266.

(٤) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٦٥٨، زبارة: أئمة اليمن ج ١ ص ٣٩١.

البحر كسبية ، وتخليص بلاده من سيطرتهم ، فاجتمع في موضع من ميناء عدن
بجماعة من البرتغاليين للاتفاق معهم ، ورحب بهم ، و قدم لهم الضيافة العظيمة
إلى مراكزهم ، وطلبوا ربابين تسير بهم إلى جدة ، فدفع إليهم الأمير جماعة من
أهل الشام بالكراهة من الربابين لذلك ، بعد أن أخيفوا وتجوروا ، فلم يعذرهم
الأمير في ذلك كفاية لشمر الفرنج ، (١) . ولم يتردد الأمير مرجان في تلبية جميع
طلبات البرتغاليين ، حتى أنه عرض عليهم مفاتيح المدينة . وقد أرجع لوبو
سواريز موقف حاكم عدن إلى قوة الأسطول البرتغالي وتفوقه على الأسطول
الملوكي في القوة ، مما حدا بالأمير مرجان — خوفاً على تخريب عدن —
إلى الانصياع للبرتغاليين والوقوف موقف المحالف لهم ، وأيا كان الأمر ،
فقد آثر القائد البرتغالي التظاهر بالموافقة على عقد هذا الحلف ، حتى يتمكن من
مواصلة رحلته إلى البحر الأحمر تنفيذاً لخططه ، وأرجأ التصرف في أمر عدن
إلى حين عودته من تلك المهمة (٢) .

وهكذا لم يقدر مرجان الظافري خطورة ما أقدم عليه ، من الترحيب
بالبرتغاليين والتعاون معهم ، ولمدادهم بأربعة من أكفأ مرشديه (٣) لمساعدتهم
في الوصول إلى جدة ، وهو أمر لو قدر للبرتغاليين تحقيقه ، لما ترددوا في
تدمير المقدسات الإسلامية ، ولكن الله خذلهم وحمل مقدساته . فقد غادر
لوبو سواريز عدن بمن أجبر على العمل معه من المرشدين ، وعبر باب المنذب

(١) باخرمة . نفس المصدر والصقجة .

(٢) Kammerer : La Mer Ronge, T. II pp. 266 f.

(٣) Kammerer : Ibid, p. 267.

بأسطوله في السابع عشر من مارس ١٥١٧، وبفضل مساعدة الربانة المسلمين، نجح لوبو سواريز في الوصول إلى مشارف جدة مع حلول فصل الربيع، حيث تهب الرياح الشمالية، ولكنه لم يستطع الوصول إلى جدة بسبب شدة الرياح (١) التي عصفت بسفنه، وفشل البرتغاليون للمرة الثانية في الاستيلاء عليها (٢).

ومن الجدير بالذكر أن تلك الحملة البرتغالية البحرية أقلعت وفقا لمخطيط دقيق يتفق مع ظروف موالية للبرتغاليين، فقد كان العثمانيون قد استولوا على مصر وقضوا على دولة الجراكسة. وكان سلمان العثماني قد انشرد بقيادة الأسطول المرابط في جدة، بعد أن نفذ أوامر السلطان سليم، بالقبض على حسين الكردي وإغراقه في مياه البحر الأحمر أمام جدة (٣).

وأيا ما كان الأمر فقد أربكت الرياح حركة الأسطول البرتغالي، وأسهمت مع مدفعية سلمان في إحداث بعض الأضرار بالسفن البرتغالية (٤)، مما شجع سلمان على مطاردتهم، وتمكنت مدفيعته من إصابة سفينتين أو ثلاثة من سفنهم، وبهدف بالخرمة: للوقوف والمعركة بقوله: «ثم أن المدافعي طرح في الباروت شيئاً حتى تغير المدفع، وأحرقت النار بعض الغراب الذي فيه سلمان». ويقال أن المدافعي كان نصرانيا، يخدم مع الأمير سلمان فاحتر على أهل

(١) Kammerer : Ibid; pp. 2٥7 - 269.

(٢) Macro : Yemen and the Western World, p. 1:

(٣) النهر والى : الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ١٢٨ ، البرق الياني

ص ٢٦ — ٢٧ ، الطبري : اتحاف فضلاء الزمن ص ٥٨ ب — ٥٩ أ .

(٤) Kammerer : Ibid; p: 269.

دينه» (١) وقد أدى هذا العمل الذى قام به المدافعى إلى إصابة المركب واشتعال النيران فى جانب منها ، ولكن سلمان تمكن من العودة بها سالما إلى جدة ، وانتقم من هذا الرجل وقتله فى حين أخذت بعض سفن سلين فى مطاردة سفن البرتغاليين ، حتى تمكنت من أسر إحداها بالقرب من ميناء اللحية اليمنى وعادت بها وبمن عليها إلى جدة (٢) .

أما القائد البرتغالى لوبو سواريز ، فقد نجح فى الوصول بمجموعة من سفنه إلى كمران ، فى حين ضلت مجموعة أخرى طريقها ، ولعبت الرياح بها ، وحولتها إلى الشاطئ الغربى عند جزيرة ظنوها سواكن ، فنزل بها بعض البحارة بحثا عن الماء ، ولكنهم لم يجدوا إلا مياه ملحة ، فأقلعوا منها إلى دهالك ، ووصلوها فى حالة من الإعياء والسوء بسبب نفاذ المياه وهلاك عدد كبير منهم عطشا ، ولاضطرابهم إلى شرب الماء المالح ، فكان لما لقوه من أهوال أثره فى وقوع حركة تمرد فى صفوفهم (٣) ، وأسرعت سفنهم إلى مصوع ، فوقع قواهم فى كمان نصبت لهم فيها ، وراح ضحيتها عدد منهم (٤) .

أما السفن البرتغالية التى رست فى كمران ، فقد هاجم بحريوها الحصن

(١) باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١٢٠٥ .

(٢) باخرمة : نفس المصدر والصفحة ، يحيى بن الحسين : قاية الأمانى

ص ٦٥٨ ،

Serjeant : The portuguese, p. 170.

Kammerer : La Mer Rouge, T. II, p, 269.

(٣)

Kammerer : Ibid, T. II, p. 272.

(٤)

ودمروا التحصينات التي كان الأمير حسين الكردي قد أنشأها فيها، وأشعلوا النيران في نخيل الجزيرة، ثم غادروها في ١٢ يونيو ١٥١٧ (١). وكان القائد البرتغالي لوبو سواريز حريصا على تحقيق نصر رخيص، فأبحر إلى زبالع ووصلها في يوليو ١٥١٧ وقتل عددا كبيرا من أهلها، ومضى إلى عدن في طريقه إلى المياه الهندية (٢)، بعد أن فشلت حملته فشلا ذريعا، ومنيت قواته بخسائر جسيمة، بفعل الرياح ونقص المياه، مما أدى إلى هلاك عدد كبير من أفراد قواته (٣)، وفشل محاولاته في الاتصال بالحبشة. ومن الجدير بالذكر أن لوبو سواريز، عندما وقف بأسطوله أمام عدن، أقام خمسة أيام مترددا في مهاجمتها، لعظم ما تكبدته من خسائر وكثرة من فقدته من قواته، وتفشى المرض فيمن بقي منهم، وندم على ترك عدن عندما عرض عليه حاكمها مفتاح المدينة.

وهكذا اضطر لوبو سواريز إلى التخلي عن فكرة الهجوم على عدن، ونقل عائدا إلى قواعده مرورا بالساحل الصومالي للوصول إلى بربرة، ثم توجه منها إلى هرمز ومنها إلى الهند (٤). ويذكر المؤرخون اليمنيون أنه أنه لما عاد إلى عدن لم يلبث إلا أياما زوده حاكم عدن خلالها بما يحتاجه (٥).

(١) Kammerer. Ibid, T. II, p. 273.

(٢) Kammerer. Ibid, T. II, pp. 273 f.

(٣) Macro: Yemen and the Western World, p. 1.

(٤) Kammerer. Ibid, p. 275, Macro : Ibid, p.1

(٥) باخرمه : قلادة النحر ج ٢ ص ١٢٠٥ — ١٢٠٦، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٦٥٨.

ويبدو أن عمانوئيل ملك البرتغال قد استبد به الغضب على لوبو سواريز ، وعزا إليه المشل الذي أصاب الحملة والخسائر الفادحة التي منيت بها ، فلم يلبث أن عزله وأرسل بدله ديجو لوبز دي اسكويرا سنة ١٥١٨ ونصبه حاكما على الهند ، واضطر سواريز إلى مغادرة الهند في ٢٠ ديسمبر ١٥١٨ عائدا إلى بلاده (١) .

ويتبين لنا مما سبق عرضه ، أنه في الوقت الذي وقعت فيه السلطات الطاهرية موقفا معاديا من الأسطول المملوكي ، وعرقلت جهوده في حماية السواحل المطلية على البحر الأحمر أو التأهب لصعد الخطر البرتغالي ، كانت تلك السلطات تبذل العون للبرتغاليين ، وتدفعهم إلى تدمير القوات المملوكية المرابطة في جدة . ولم تقتصر معونات حاكم عدن للبرتغاليين على مجرد تقديم الضيافات أو إمدادهم بالثمن والمياه ، وإنما تجاوزت ذلك إلى تقديم مفاتيح المدينة إليهم ، ولحسن طالع الاسلام أنهم لم يقبلوها ، أملا في تحقيق انتصارات أعظم ، يضاف إلى ذلك أن الحاكم الطاهري لعدن أجاب المطالب البرتغالية وأمددهم بعدد من المرشدين ، أجبرهم — تحت التهديد — على قيادة الأسطول البرتغالي إلى جدة ، وكان ذلك كفيلا — لو تم تحقيقه — لإحداث كارثة محققة للأمة الإسلامية جمعاء ، وهي تدمير المقدسات الإسلامية ، والقضاء على قوة مصر البحرية ، وتحقيق تحالف مع الحبشة ، من الممكن أن تنعكس أولي نتائجها على اليمن نفسها ، وهي أمور لا بد أن يكون الأمير مرجان حاكم عدن مدركا مدى خطورتها . وعلى الرغم من اندحار الحملة البرتغالية فإن الأمير مرجان لم يعدل عن سياسته ،

واستمر في كرمه لهم ، وقدم اليهم المؤن والمياه بعد عودتهم وهم في حالة انهيار تام .

ومن الجدير بالذكر أن حاكم عدن أحس بخطورة ما قام به ، ذلك أنه ما أن هلم بسقوط دولة المماليك الجراكسة وانتقال السيادة على مصر إلى العثمانيين الذين اعتمد نفوذهم إلى الحجاز والبحر الأحمر ، والمناطق التي احتلها الجراكسة من اليمن ، حتى خشي عاقبة مساعدته للبرتغاليين ، واحتمل انتقام الساطات العثمانية منه ، فبادر بالكتابة إلى السلطان سليم على لسان الساطان الطاهري الظافر عامر الثاني ، مع أن هذا السلطان كان قد اتى مصرعه قبل ذلك في إحدى المعارك التي خاضها ضد الجراكسة حول صنعاء ، وضمن كتابه الشكوى من الأمير حسين الكردي وزميله سلمان ، وما قاما به من سفك الدماء ونهب اللاموال . كذلك ضمن كتابه الاعتذار من فعله مع الترنج من المسألة ، ودفع الربابيين اليهم » (١) . وأخذ على هذا الخطاب توقعات جماعة من أعيان عدن وفقهائها وتجارها ، وأرسله مع رسولين إلى الحجاز وزودها بهدايا للأمير مكة الشريف بركات والسلطان سليم . فقام الشريف مكة بتوجيههما إلى مصر ومنها إلى البلاط العثماني في القسطنطينية ، حيث قاما بتسليم الكتاب والهدايا . ومات أحد رسوليّه هناك ، وعاد الثاني بهدية من السلطان سليم ، ولكن هذا الرسول لم يكد يصل بالقرب من سواكن في طريقه إلى اليمن ، حتى خرج عليه جماعة من جزيرة دهلك ، واستولوا على ما كان معه (٢) .

(١) باخرمه : قلادة النحر ج ٣ ص ١٢٠٦ .

(٢) باخرمه : نفس المصدر والجزء والصفحة .

٣ - غزو الجراكسة لليمن :

رأينا أن غزو الجراكسة لبلاد اليمن جاء كرد فعل لموقف سلطانها الطاهري الذي كان قد ألح في طلب حملة مملوكية للقضاء على الخطر البرتغالي المحدق ببلاده ، بعد أن تعهد بتقديم كافة المساعدات من مؤن وأموال وقواعد للأسطول . وإذا كان السلطان الطاهري قد وفى بالتزاماته حيال الحملة البحرية الأولى ، إلا أن الأمر اختلف بالنسبة للحملة الثانية . إذ لم يكد الأسطول المملوكي يصل إلى السواحل اليمنية حتى امتنع هذا السلطان عن الرفاه بما ألزم به ، واتخذ موقفا عدائيا سافرا من تلك الحملة التي كانت موجهة لتحيق عدة أهداف هامة من بينها أمرين هامين ، أحدهما ، تدمير القوة البرتغالية في المياه الهندية ، والثاني ، تدعيم الدفاع عن السواحل اليمنية الجنوبية والجنوبية الغربية . ولم تكتف السلطات الطاهرية بمجرد الامتناع عن تقديم ما التزمت به ، بل تجاوزت ذلك إلى الكف عن ارسال المؤن المعتادة إلى جزيرة كمران والحجاز ، حتى لا تقع في أيدي القوات المملوكية (١) . ومما زاد من غضب الأمير حسين الكردي ، لإقدام صاحب الحديدة - تنفيذ الأوامر سلطانه - على حجز ثلاثة من السفن كانت قد وصلت من زيلع مشحونة بالمؤن لإمداد الأسطول المملوكي ، ومنعها من مواصلة التقدم إلى كمران (٢) ، واستولى على

(١) ابن الديبع : قررة العيون ص ١٥٥ أ ، باخرمة : قلادة النحر ص ٣ ص ١١٩٧ - ١١٩٨ ، الشبلي اليمني : السنا الباسا ص ٢٠١ - ٢٠٢ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٦٦٢ ، الكعبي : اللطائف السنية ص ٢٣٣ .

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٤٤ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٣٨٤

جمولتها ، رغم مراسلة الأمير حسين الكردي له ، وتهديده بتخريب مدينته إذا أصر على منعها من الوصول (١) . واستمرت محاولات الأمير حسين السامية فأرسل في ذي الحجة ٩٢١ هـ / يناير ١٥١٦ م بعض أتباعه في ثلاثة أغربة لمحاربة التوصل إلى حل والحصول على المؤن ، ولكن لم يكد هؤلاء يصلون إلى المدينة حتى خافهم أهلها ، وأرسلوا إلى والي زبيد يبلغونه بالأمر ، فأمدهم بتجريدة . ولكن أهل المدينة أروهقهم تحمل ثققات أفراد التجريدة فتركوا المدينة لهم بحجة الخوف من المماليك ، وكان رجال الأمير حسين الكردي في أغربتهم الراسية عند الميناء ، فلما علموا باخلاء المدينة نزلوا إليها واستولوا على أبواب دورها وما وجدوه هناك من أخشاب وعادوا بها إلى كمران (٢) .

والقد كان في إمكان السلطان الطاهري الظافر عامر الثاني تدارك الموقف والقضاء على أسباب الخلاف قبل أن تتعقد الأمور ويستفحل النزاع ، ولكنه كان محاطا بمستشارين إما خونة لم يخلصوا النصيحة له ، أو جهلة لم يكونوا على دراية كافية بخطورة ما يدور حولهم ، ذلك أن السلطان كان قد اتخذ مدينة المقرات - بخلاف رداغ في منطقة الجبال - مقرا له ، بعيدا عن مسرح الأحداث ولهذا لم يقدر هؤلاء خطورة الموقف ، فكان وزيره سببا في اقناعه بعدم الوفاء بما التزم به . فلما تطورت الأمور وأغارت بعض قوات الأمير

(١) ابن الديبع : الفضل المزيدي ص ٥٤ أ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٥ ب ، الفضل المزيدي ص ٥٤ أ ،
بأخرمة : نفس المصدر ص ١١٩٨ ، يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٤٤ -
٦٤٥ ، زبارة : نفس المرجع ص ٣٨٣ .

حسين الكردي على مدينة الحديدة ، أحس السلطان بالخطر ، وبدلاً من أن يعمل على اصلاح الأمور ، عهد إلى أحد كبار خواصه - وهو الفقيه عبدالحق ابن محمد النظاري - بمحشد الرجال ، والاستعداد لمحاربة القوات الجركسية وهو أمر لم يتحرك السلطان للقيام به ضد البرتغاليين ، فغادر الفقيه عبد الحق زبيد في آخر ذي الحجة سنة ٩٢١ هـ / فبراير ١٥١٦ م متوجهاً إلى منطقة جبال اليمن ، وعاد في منتصف صفر ٩٢٢ هـ / مارس ١٥١٦ م إلى زبيد بجمع كبير ، معظمهم من الضعفاء وعديمي الخبرة وكبار السن . وبينما قدم بعض القادرين من هؤلاء قدراً من المال نظير إعفائهم من الاشتراك في الحرب ، بقي الضعفاء الذين لا خبرة لديهم بالحرب ولا قدرة لهم على القتال (١) .

ولم يكن غريباً في الوقت الذي وقف فيه السلطان الطاهري موقفه العدائي من الجراكسة دون سبب ظاهر ، أن يحظى الأمير حسين الكردي بتأييد كبير من القبائل والعناصر اليمنية الساخطة على بني طاهر ، إذ توافدت جموعهم للانضمام إلى قواته ومساعدته في الانتقام من بني طاهر والقضاء عليهم ، فقد بدأ صاحب جازان بالترحيب بالأمير حسين الكردي ، وأمدّه بآبائه الشريف عز الدين بن أحمد بن دريب ، الذي توجه معه في جموع أتباعه إلى كران (٢) وفي نفس الوقت قام الإمام الزيدى يحيى شرف الدين بمراسلته عندما علم بوجهه إلى كران ، وطلب معاونته في محاربة السلطان الظافر عامر الثاني ، فأحسن

(١) ابن الدبيع : قرة العيون ص ١٥٥ ب الفضل المزيدي ص ٥٤ ، باخرمة قلادة النحر ص ٢٠ ، ١١٩٨ ، الكشي : اللطائف السنية ص ٢٣٤ .

(٢) الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ٢٠٢ ، النهر والي : البرق اليمني ص ٢١ ،

Kammerer . La Mer Rouge, T. II p 23.

الأمير حسين استقبال رسول الإمام وبالف في اكرامه ، ولكنه لم يتسرع في الرد وانتظر حتى عادت رسله كاشفة عن موقف السلطان الظفر العدائي ، وعندئذ رد على الإمام « بجواب يشفي الأوام ، وأجاز رسـوله وأحسن قفوله » (١).

كذلك كان الفقيه أبو بكر بن المقبول الزيلعي صاحب الاحية — الواقعة إلى الشمال من كمران في نهاية وادي مور — ميالا للجراكسه (٢) ، فتوجه إلى كمران وأمدم بالمؤن والأموال (٣) وعرض عليهم أن يتخذوا ميناء الاحية قاعدة لأسطولهم ، ولم يتردد الأمير حسين في تلبية طلبه لمعاونته في محاربة الطاهريين ، وأمدّه بغراب ومائة مملوك مسلحين بالبنادق (٤) ، وخاع عليه وأكرمه وطلب منه الخطبة ببلده للسلطان الفوري فوافق (٥) ، وعلى اثر ذلك عاد الفقيه ابن المقبول بمن معه إلى مدينته ، وخرج منها شرقا عبر وادي مور لغزو البلاد الواقعة فيه ، فتصدت له القوات الطاهرية في المنطقة بقيادة الأمير محمد بن جيش السنبلي . ومن الجدير بالذكر أن الأسلحة النارية لم تكن

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٢ - ٦٤٣ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٣ - ٢٣٤ ، زبارة : أئمة اليمن ص ١ - ٣٨٣ .

(٢) الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٣٠٢ ،

Kammerer : op. cit , p. 234 .

(٣) التهر والى : البرق اليمانى ص ٢١ ، الكبسى : اللطائف ص ٢٣٥ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٤ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٣٨٤ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ٥٥ ب ، الغضل المزيّد ص ٥٤ أ ، باحرمة

قلادة الحجر ، ص ٣٦٨ - ١١٩٨ .

معروفة في اليمن (١) ، أو أنها كانت معروفة بالسباع والوصف ، وكانت لها هدية ورهبة تذهل القلوب (٢) . لذلك لما أن استخدم المماليك بنادقهم في المعركة ، وسقط الأمير محمد بن جياش السنبلي قتيلًا في عدد من أتباعه ، حتى انهزمت قواته ، ولم تتمكن من الصمود وولت الأدبار واستولى الزيلعي والقوات المملوكية على منطقة مور (٣) .

وتماثلت العناصر الساخطة على بني طاهر معلنة انضمامها إلى الجراكسة ، ومن بين تلك العناصر قبائل بني حفيص (٤) عرب مدينة الزيدية الواقعة إلى الشرق من جزيرة كمران ، فقد وفد جماعة من رؤسائهم على الأمير حسين الكردي ،

(١) ابن الديبع : قرة العيون نفس الصفحة ، الفضل المزيدي ص ٥٤ ب
زيارة : أئمة اليمن ح ١ ص ٣٨٤ .

(٢) الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٣٥ . (ويذكر ابن الديبع ، أن البنادق « شيء عجيب ، لا يكاد أحد يقاتل صاحبها إلا غلب . وهو شيء يشبه المدفع إلا أنه أطول منه وأدق ، مجوف يجعل في جوفه قطعة رصاص كحبة البندق وتحشي من البارود ، ويدفع بنار في فتيلة من أسفل البندق . فلا تصيب أحدا إلا هلك . وربما أصابت البندق شخصا ونفذت منه في آخر فقتلتها » .
الفضل المزيدي ص ٥٤ ب ، قرة العيون ص ١٤٦ ب .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٦ أ ، الفضل المزيدي ص ٥٤ ب ،
بالحزيمة : قلادة النحر ، ح ٢ ص ١١٩٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان
ص ٦٤٤ - ٦٤٥ .

(٤) عن بني حفيص وحملات بني طاهر المتواصلة ضدهم ، انظر ، ماسبق
ص ٢١٧ وما بعدها .

سحقوا عينا بما ذاقوه من عسف سلاطين بني طاهر ووجد أن الفرصة قد سنحت
للانتقام منهم ، فبايعوا الأمير حسين الكردي على الطاعة والمناصرة ضد بني
طاهر ، وطلبوا بدورهم إمدادهم بمجموعة من الجند تكفلوا بحوامكهم ومؤنهم
مع الالتزام بتسليم خراج بلادهم للأمير حسين الكردي ، فأمدهم بما في
يد يده (١) . وتوجهوا بهم لمحاربة القوات الطاهرية المتمركزة عند قرية الضحى
القرية من مدينة الزبيدية ، وتمكن بنو حفيص بمساعدة القوات المملوكية
والسلحية بالبنادق ، من هزيمة جموع القوات الطاهرية ، وأرغامها على الفرار
مختلفة ورأى الكثير من القتلى ، ونهب بنو حفيص قرية الضحى ، وأضرموا
نيرانها النيران (٢) .

وكان بنو حفيص يحكم تمر كز معظمهم في مدينة الزبيدية التهامية ، قد
تسموا للمدينة ، وعرفوا بالزبيدية ، ومع أنهم سنيون ، إلا أن بعض المؤرخين
الخطوط عليهم الأمر واعتبرهم من أهل الجبال أتباع المذهب الزيدي (٣) ،
وقسوا هملتهم المشتركة مع الجراكسة على أنها تمت بمساعدة أتباع الامام
الزيدي يحيى شرف الدين ، الذي على الرغم من مكاتبته للأمير حسين الكردي ،
إلا أنه لم يثبت اشتراك أتباعه مع الجراكسة ضد بني طاهر .

(١) ابن الديبع : الفضل المزيدي ص ٥٤ ب ، الكبسي : اللطائف السنية

ص ٢٢٥ .

(٢) ابن الديبع : فرة العيون ص ٢٥٦ أ ، الفضل المزيدي ص ٥٤ ب ،

البحر : قلالة النجر ، ج ٣ ص ١١٩٨ يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٦٤٥ ،
الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٢٥ ، زيارة : أئمة الدين ج ١ ص ٣٤ .

(٣) النهر والي : البرق المياني ص ٢٠ .

لإزداد قلق السلطان الطاهر عامر الثاني على اثر تخريب مدينة الحديدة
وهزيمة قواته في وادي مور وفي نواحي قرية الضحى ، لهذا أرسل قوة
عسكرية بقيادة أخيه عبد الملك بن عبد الوهاب إلى زيد ، فلما وصلها في الحادي عشر
من ربيع الأول سنة ١١٢٢ هـ (١) / أبريل ١٥١٦ م ، ونظم أموره بها ،
توجه بقواته شمالا في السابع من ربيع الآخر ١١٢٢ هـ / مايو ١٥١٦ م للتصدي
للقوات الحركسية (٢) . فلما علم الأمير حسين الكردي بذلك ، أسرع من كرايته
للملاقاة في ألف من جنده المزودين بالبنادق (٣) ، وانضم إليه الشريف عز الدين
ابن أحمد بن دريب بن صاحب جازان (٤) ، والفقير أبو بكر بن المقبول الزيلعي
صاحب اللحية (٥) بقواتهما ؛ كما انضوت تحت لوائه جموع قبائل المنطقة وعلى
رأسها قبائل المعازبة (٦) . ووقعت بين الجانبين معركة عنيفة ، قاتلت فيها
القوات الطاهرية بقيادة عبد الملك بن عبد الوهاب قتالا عظيما ، استول فيها وأظهر

(١) ابن الديبع : الفضل المزيدي ص ٥٤ ب ، باخرمة قلادة النحر ج ٣ ص ١١٩٨ - ١١٩٩ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٦٤٥ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٦ أ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيدي ص ٥٤ ب ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٩٩ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٦٤٥ ، زبارة : أئمة اليمن

ج ١ ص ٣٨٤ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٦ ب ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٩٩ .

ص ١١٩٩ .

(د) الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٣٥ .

(هـ) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٦ ب ، باخرمة ج ٣ ص ١١٩٩ .

الشجاعة والإقدام ما جعله يؤخر الهزيمة المحتومة ، ولكنه اضطر إلى الانسحاب إلى زيد^(١) ، فوصلها في العاشر من جمادى الأولى سنة ٩٢٢ هـ / (٢) يونيو ١٥١٦ م ، بعد أن فقد في المعركة جماعة من شجعان جنده^(٣) ، كما قتل من الجراكسة عدد آخر ، احتز عبد الملك منهم أربعة عشر رأساً عاد بها إلى زيد^(٤) .

وحرص بعض رؤساء القبائل الملازمين للجراكسة على الإجهاد على بنى طاهر ، فأتبعوا الأمير حسين الكردي بمائة فلولهم المنسحبة إلى زيد ، وانتزاعها منهم ، فتوجه الأمير حسين برا على رأس جيش كبير من الجراكسة ، ومن انضم إليه من عرب تهامة كالمعازبة والقرشيين وبنى حفيص وأهل جازان وغيرهم ، تعضده بحرا بعض قطع الأسطول المشحونة بالجند والأتقال بقيادة الرئيس سلمان العناني . فلما وصلت تلك القوات إلى زيد في التاسع عشر من جمادى الأولى سنة ٩٢٢ هـ (٥) / يونيو ١٥١٦ م اشتبكت مع القوات الطاهرية

(١) الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٦ .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيّد ص ٥٤ ب ، ياخرمة : قلادة النجر ج ٣

ص ١١٩٩

(٣) ياخرمة : نفس المصدر والجزء والصنفحة .

(٤) ابن الديبع : قرّة العيون ص ١٥٦ ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى

ص ٦٤٥ ، زبارة : أئمة الين ج ١ ص ٣٨٤ .

(٥) ابن الديبع : الفضل المزيّد ص ٥٤ ب ، النهر والى : البرق اليماني

ص ٢١ ، زبارة : أئمة الين ج ١ ص ٣٨٥ .

بقيادة عبد الملك بن عبد الوهاب وابن أخيه - والى زيد - عبد الوهاب
 ابن الظافر عامر في معركة عنيفة وقعت خارج زبيد ، ورغم استبسالهما إلا أنهما
 لم يتمكنوا من الصمود ، نتيجة لتخاذل القوات الطاهرية ، واشتداد وطأة
 الجراكسة وحلفائهم مما أدى إلى هزيمة الطاهريين هزيمة نكراء ، وأسمم
 عبد الوهاب بن الظافر عامر بالدخول إلى زبيد بعد إصابته برصاصة ، وحلقه
 عمه عبد الملك وأخرجوه من المدينة ، وتوجها بمن تبقى من عسكرهما إلى مدينة
 تعز (١) ، حيث مات عبد الوهاب متأثراً بجراحه (٢) في الرابع عشر من جمادى
 الآخرة سنة ٩٢٢ (٣) / يوليو ١٥١٦ م .

أما الأمير حسين الكردي ، فقد استولى قهراً على زيد وانتهزت القبايل
 الفرصة واعتبرتها دار حرب ، فانتهدت المدينة نهبا شنيعا ، وسفكت فيها الدماء
 وانتهدت المحارم ، واستمر نهب المدينة ثلاثة أيام ، بالرغم من صدور أوامر
 الأمير حسين بالكف عن ذلك (٤) . وليس من شك في أن أعمال العنف لله

(١) ابن الديبع : الفضل المزيدي ص ٥٤ ب ، قرة العيون ص ١٥٧ أ - ب .
 باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٩٩ - ١٢٠٠ ، يحيى بن الحسين : غلاة
 الأمانى ص ٦٤٦ .

(٢) الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٩ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢٨٥ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٧ ب ، الفضل المزيدي ص ٥٥ أ - ب .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٧ ب ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣
 ص ١٢٠٠ ، الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ، يحيى بن الحسين :
 غاية الأمانى ص ٦٤٦ - ٦٤٧ زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٣٨٥ .

مارسها المنتصرون ضد أهل زبيد إنما تعزى في حقيقة الأمر إلى القبائل المشتركة مع الأمير حسين الكردي ، والتي كانت ترى في الانتقام من زبيد وأهلها إنتقاما من بني طاهر لحملاتهم المتواصلة ضدهم من قبل ، هذا بالإضافة إلى ميل القبائل الطبيعية إلى هذه الأساليب .

ولم يبق الأمير حسين الكردي في زبيد طويلا ، وروى عن أسباب إسرائعه في مغادرتها ، أنه كان قد وعد جنده بأن يمنح كل منهم مائة أشرفي إذا ما تحقق له الاستيلاء على زبيد ، فلما سقطت المدينة في يده أخذ يماطلهم في منجته ، فثاروا عليه وهموا بقتله ، ولكنه استمهلهم حتى يستحضر لهم الأموال من سفنه ، وبهذه الحجة استناب عنه الأمير برسبای أحد رجاله من الجراكسة (١) على زبيد ، ودعمه بالشريف عز الدين بن دريب ، وبادر بالرحيل إلى ميناء البقرة اليمنى حيث لقيه هناك الرئيس سلمان العثماني (٢) وتوجها معا في أسطولهما إلى زبلع ، ومن هناك أبحرا إلى عدن حيث قوبلا من حاميتها بمقاومة عنيفة ، واضطر إلى العودة إلى جدة بدلا من مواصلة التوجه شرقا إلى الهند لمحاربة البرتغاليين (٣) .

أما برسبای ، فقد أعلن الأمان لأهل زبيد (٤) ، وانتهج سياسة حكيمة

(١) الطبري : اتحاف فضلاء الزمن ص ٥٨ .

(٢) Kammerer : La Mer Rouge, T. II, p 234. (٣)

(٣) انظر ما سبق ص ٥١٥ وما بعدها

(٤) ابن الديبع . قرّة العيون ص ١٥٨ أ ، باخرمة قلادة النحر ج ٣ ص ١٢٠٠ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٦٤٧ ، الكبسي : اللطائف للسنية ص ٢٣٦ .

« فإنه لما استقر يزيد بقرار أحوال الناس ، وأظهر حسن السياسة والتدبير ، ومشى بالناس مشيا حسنا » (١) . ثم بدأ يستعد للزحف بقواته برا إلى عدن لمعاونة الأمير حسين الكردي أثناء حصاره لها ، غير أنه لم يكـد يصل إلى مدينته حيدس جنوبى زيد ، حتى علم بإقلاع الأمير حسين من عدن ، ووصوله إلى ميناء المخا ، فتقدم برسبأى إليه واجتمع به ، ثم زحف إلى مدينة موزع (٢) الواقعة إلى الشرق من ميناء المخا ، فقامت قـواته بنهبها ، ثم قفل عائدا إلى زيد ، فوصلها فى رمضان سنة ٩٢٢ هـ (٣) / أكتوبر ١٥١٦ م .

وهكذا ازدادت الأمور تأزما بين الجراكسة وبنى طاهر ، وعلى الرغم من عجز السلطان الطاهرى عن مواجهة القوة الجركسية المدعمة بالأسلحة الحديثة ، ومن انضم إليها من العناصر اليمنية الساخطة على الطاهريين ، مما يهدد بزوال الحكم الطاهرى ، إلا أن السلطان الظافر عامر الثانى لم يحاول تسوية الخلافات لانتهاء حالة الحرب ، والتفرغ لإقرار الأوضاع الداخلية فى بلاده . ولإتاحة الفرصة للجراكسة لمواصلة القيام بمهمتهم الأساسية فى محاربة البرتغاليين ، واستمر يتحداهم رغم شعوره بالعجز عن مواجهتهم ، وأصر على الانتقام منهم لغزوهم منطقة تهامة ، واستيلائهم على زيد وتسببهم فى قتل ابنه عبد الوهاب ، فخرج على رأس حملة من المقرنة فى طريقه إلى زيد لمحاربتهم .

(١) باخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١٢٠٢ .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيّد ص ٥٥ ب ، يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٤٨ ، الكبسى : الطائف السنية ص ٢٣٧ .

Kammerer : Ibid, p 235

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٨ ب ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١٢٠٢ ، النهروالى : البرق البانئ ص ٢٢ .

وتذكر المصادر اليمنية أن الجراكسة بادروا - عندما علموا بأمر الحملة - إلى مراسلته ، وعرضوا عليه الصلح (١) ، وتسليم ما بأيديهم من البلاد ، مقابل مبلغ حددوه ، مع تأمين خروجهم بما معهم ، ماعدا الخيل والسلاح . وكانت فرصة مواتية لم يحسن السلطان الظافر الثاني اغتنامها . وعلى الرغم من ميله إلى الموافقة إلا أن بعض كبار حاشيته أفتعوه مرة أخرى برفض هذا العرض ، بحجة أن هذا الصلح قناع زائف يخفي وراءه حقيقة المطامع الجركسية . فتراجع السلطان عن رأيه ، وأعرض عن الرسل وأعادهم بغير جواب ، (٢) دون أن يعمل شيئاً للتأكد من مدى صدق هذا العرض وجسن نواياهم . وواصل السلطان تقدمه ، إلى أن اصطدمت قواته بالجراكسة في معركة طاحنة بالقرب من زبيد في التاسع من شوال سنة ١٠٤٢ هـ / نوفمبر ١٥٩٦ م ، استمرت يومين . ومن الجدير بالذكر أن الجراكسة عادوا إلى زبيد في نهاية اليوم الأول من المعركة للراحة والاستعداد للقتال في اليوم التالي ، في حين دأب أصحاب السلطان ما بين جريح ومن الجوع طريح ، (٣) . ثم استؤنف القتال في اليوم

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٨ ب ، الفضل المزيدي ص ٥٥ ب ،
 باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ٢٠٢ ، الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ٢٠٣ ،
 يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٦٤٩ ، الكهسي : اللطائف السنية ص ٢٣٧ ،
 زبارة : أئمة اليمن ص ٣٨٦ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٨ ب ، الفضل المزيدي ص ٥٥ ب ،
 باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١٢٠ ، الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ٢٠٤ ،
 يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٦٤٩ ، الكهسي : اللطائف السنية ص ٢٣٧ .
 (٣) ذكر باخرمة ، أنه كان صحنبة السلطان الظافر كميات كبيرة من =

الثاني ، واشتدت هجمات الجراكسة ، وعلى الرغم من ثبات السلطان الظافر ، فقد تخاذل عنه معظم عسكره ، وانتهت المعركة بانتصار الأمير برسبای ، وفرار السلطان إلى تعز . ولولا انشغال القوات الجركسية في نهب محطة الطاهريين ، لكان في مقدورهم أسر السلطان أو قتله (١) .

عاد برسبای منتصرا إلى زبيد ، وأعلن الأمان لأهلها ولمن كان قد انضم إلى السلطان ضده ، وأقام فيها إلى أواخر المحرم ٨٩٢٢ / فبراير ١٥١٧ م لإقرار أحوال أهلها ، ثم سار بقواته ومن انضم إليه من اليمنيين لمحاربة السلطان الظافر عامر الثاني في تعز . وما أن وصلت طلائع قواته إلى مشارف تعز في السادس عشر من صفر ٩٢٣ هـ / مارس ١٥١٧ م حتى تفرقت القوات الطاهرية ، وتوجهت كل مجموعة منها إلى مضارب قبائلها ، وأصبح في المعتذر على السلطان العمود أمام الجراكسة بمن تبقى معه من الجند ، ولذلك اضطر إلى الانسحاب إلى منطقة لب الواقعة إلى الشمال الشرقي من تعز ، فاستولى الجراكسة على تعز وقلعتها بغير قتال (٢) ، وأعانت الحطبة فيها للسلطان

= الدقيق والزبيب، وقد أشار عليه بعض قادته بتوزيع ثمنها على الجند لينفقوا بها ، ويتمكنوا من الاستمرار في القتال في اليوم التالي ولكنه بخل عليهم بها . (تلادة النجر ج ٣ ص ١٢٠٢ - ١٢٠٣) .

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٩ أ ، الفضل المزيدي ص ٥٦ أ ، باخرمة : تلادة النجر ج ٣ ص ١٢٠٣ ، الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ٢٠٤ ، يحيى ابن الحسين : غاية الأمان ص ٦٤٩ ، الكيسى : اللطائف السنوية ص ٢٣٨ .
(٢) ابن الديبع : الفضل المزيدي ص ٥٦ أ ، قرة العيون ص ١٥٩ أ ، الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ٢٠٤ ، النور والي : البرق اليمني ص ٢٨ ، يحيى بن =

الغورى (١) .

ولم يضيع الأمير برسبای وقته ، فقد تجهز خلال أسبوع من وصوله إلى
تغز ، وأتاب فيها الأمير أقبای (٢) ، ثم تقدم بقواته إلى مدينة المقرانة ،
عاصمة الطاهريين ، ولكن السلطان الطاهري كان قد أسرع إليها قبله لاستنفاد
مافيها من أموال وحريم بنى طاهر ، ونجح في منادرتها قبيل وصول برسبای
إليها (٣) . وفي المقرانة ، وفد بعض مشايخ آل عمار ويايعوا برسبای على
الطاعة ، وعرضوا تسليم بلادهم - الواقعة في نواحي رداغ - لآل به ، فتوجه
برسبای معهم في قلة من أتباعه ، ولكن آل عمار لم يكونوا صادقين في
مبايعتهم ، ذلك أنهم كانوا قد أعدوا كميناً له في الطريق ووثبوا عليه وقتلوه
هو (٤) ومن معه من أتباعه ، ولم ينج منهم إلا المخبر عنهم (٥) .

=الحسين: غاية الأمانى ص ٦٥٠ ، الكيسى: اللطائف السنية ص ٢٣٨، زبارة :
أئمة اليمن ج ١ ص ٢٨٦

Kammerer : La Mer Rouge, T II, p. 235

(١) باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١٢٠٣ .

(٢) ابن الديبع : قرية العيون ص ١٥٩ أ ، النهروالي : البرق الميانى ص ٢٨ ،
يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٠ .

(٣) ابن الديبع : قرية العيون ص ١٥٩ أ ، باخرمة قلادة النحر ج ٣
ص ١٠١٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٠ .

Kammerer : Ibid. T. II, p. 235.

(٤)

(٥) ابن الديبع قرية العيون ص ١٥٩ ب ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣

ص ١٢٠٣ .

تأثر الجراكسة لمقتل أميرهم برسبای ، وأجمعوا على اختيار اسكندر بن محمد ليخلفه في الامارة عليهم . فلما تمت مبايعته ، أمر عسكره بتخريب مدينة المنرانة ، ونهب أموالها وذخائرها ، ثم غادرها في طريقه إلى صنعاء للاستيلاء عليها ، ومن الجدير بالذكر أن بعض القبائل اعترضت طريقه إليها ، وأغارت على قواته ، ولم ينج منهم إلا بصعوبة (١) .

أما السلطان الظافر عامر ، فقد أخذ يحدوه الأمل في النصر عندما بلغه نبأ مقتل برسبای وإغارة القبائل على قوات الأمير اسكندر واستيلائهم به ، واعتقد أن بمقدوره إيقاع الهزيمة بالجراكسة والانتقام منهم . فخرج على رأس حملة كبيرة للتصدي لهم قبل أن يتمكنوا من الاستيلاء على صنعاء (٢) . ويقال أن أخاه عبد الملك بن عبد الوهاب حذره من التوجه إلى صنعاء ، وقال له : أنت تعرف عداوة الزيدية ، فتقع بين عدوين المصري والزيدي ، فلم يصغ إلا كلامه ونسبه إلى الجبن والذل (٣) ، ثم وصلت القوات الطاهرية إلى صنعاء أثناء قيام الجراكسة بمحاصرتها . ورأى الأمير اسكندر ألا يدع للسلطان وقواته

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٩ ب ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١٢٠٣-١٢٠٤ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٠-٦٥١ ، الكبسى : اللطائف ص ٢٣٨ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٣٨٧ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٩ ب ، الفضل المزيدي ص ٥٦ أ ، باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١٢٠٤ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ١٢٠٤ يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥١ .

(٣) باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١٢٠٤ .

فرصة للراحة ، وقام بمهاجمته بمجرد وصوله (١) ، وقبل أن يتمكن من حط أنقاله وترتيب قواته ، ونجح في إحراز نصر سريع وحاسم على الطاهريين في الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٩٢٣ هـ / مايو ١٥١٧ م ، وقتل في المعركة عدد كبير من القوات الطاهرية على رأسهم عبد الملك بن عبد الوهاب (٢) ، وتم أسر الكثيرين من بينهم أبي بكر بن الظافر ، وعامر بن عبد الوهاب (٣) . أما السلطان ، فقد أصابته الهزيمة بالذهول ، وهام على وجهه ، وتعقبه بعض الجراكسة حتى أدركوه وهو في حالة مزريه ، لدرجة أنهم لم يتعرفوا عليه ، وحسبوه من جنده الفارين وقتلوه ، ثم تحفقوا من شخصيته (٤) ، وقيل إنهم رأوه أحد اليمانيين فأسره وقدمه إلى الجراكسة فاحتزوا رأسه (٥) . فكان لتلك الهزيمة النكراء التي لحقت بالطاهريين ، وأسقطت دولتهم بمقتل آخر

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥١ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٣٨٧ .

(٢) الطبري : انحاف فضلاء الزمن ٥٨ ،

Kammerer : op. cit. T. II, p. 236.

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٩ ب - ١٦٠ أ ، المفضل المزيدي ص ٦٠ أ ، باخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٦٠ أ ، باخرمة : نفس المصدر والصفحة ، الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ٤ ، الكسبي : اللطائف ص ٢٣٩ .

(٥) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥١ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٣٨٧ .

Kammerer : Ibid. T. II, p. 236.

سلاطينهم^(١)، أثرها في طلب والى صنعاء الطاهري الأمير علي بن محمد البعداني الأمان من الجراكسة ، فتسلموا مدينته وغنموا منها أموالا كثيرة لانقع تحت حصر ، وكان في المدينة عدد كبير من آل عمار - قتلة برسبای - فاستأصلهم الأمير أسكندر عن آخرهم^(٢) .

أصبح الجراكسة باستيلائهم على صنعاء وجها لوجه أمام القوي الزيدية ، وكان الإمام الزيدى يحيى شرف الدين قد عمل على الانصال بالقوات الجركسية عند بدايه وصولهم إلى كمران ، وطلب معاونتهم ضد الطاهريين . وإذا كان الاتصال ينهض دليلا على رضا الإمام الزيدى بالوجود الجركسي في اليمن ، إلا أنه ليس لدينا ما يدل على قيام تعاون من جانب الإمام معهم أو قيامه بتقديم المساعدات لهم . ويهمننا أن نشير إلى أن القوي الزيدية بدأت تنشط منذ أن تمكن الجراكسة من الانتصار على الطاهريين ، والقضاء على دولتهم ، وقد يكون مرجع ذلك إلى أن تخلفهم من الطاهريين قد بعث الأمل في نفوسهم للاستيلاء على اليمن والاستقلال بحكمه . أو أنهم كانوا يخشون امتداد النفوذ الجركسي شمالا مما يهددهم تهديدا مباشرا . لذلك لم يضع الإمام وقتنا وزحفا بقواته إلى مدينة تلا الواقعة إلى الشمال الغربي من صنعاء ، وذلك في أواخر ربيع الآخر سنة ٩٢٢ هـ / مايو ١٥١٧ م ، فسلمها له حاكمها الطاهري وتعاون

(١) الطبري : انخاف فضلاء الزمن ص ٥٨ ب .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٦٠ أ ، بانخسرة : قلادة النحر ج ٣

ص ١٢٠ هـ ، الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ٢٠٢ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمان ص ٦٥٢ ، الكبسي : اللطائف السننية ص ٢٣٩ .

معة . وبدأ الامام في الاستعداد لمهاجمة صنعاء ونصرة أهلها (١) . فلما علم الأمير اسكندر بذلك أرسل حملة إلا ثلا للقضاء على أحلام الامام ، وتمكنت القوات الجركسية من محاصرة الامام وأتباعه في ثلا (٢) وترددت الرسل بين الجانبين في محاولة للصلح ، وعرض الجراكسة موافقتهم على أن تكون ثلا للامام ، وأن يحتفظوا هم بصنعاء ، وتعهدوا بعدم التعرض له . وكان الامام ميالا للموافقة ، إلا أن بعض أتباعه شككه في نواياهم ، فاختار الحرب (٣) . وبدأت الإمدادات الجركسية تنهال على ثلا لإحكام الحصار عليها . ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، إذ وردت الأنباء المؤكدة للأمير اسكندر بن محمد بهزيمة السلطان الغوري ومقتله في مرج دابق ، وسقوط دولة الجراكسة ، واستيلاء السلطان سليم على الشام ومصر ، فكتم الأمير هذا الخبر ، وبدأ في فتح باب الصلح مع الامام مرة أخرى . وقد لقي هذا العرض ترحيبا من الامام حتى يتمكن من التخلص من الحصار الذي أقامه الجراكسة عليه ، فلما تم الاتفاق عاد الجراكسة إلى صنعاء (٤) .

أما الأمير اسكندر فقد خشي أن تتعرض قواته لأخطار من الداخل والخارج . بعد استيلاء العثمانيين على مصر ، ولذلك وجد أنه من الحكمة أن

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٣ .

(٢) Kammerer : op. cit. T. II, p. 238. (٣)

(٣) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٤٤ الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٩ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٣٨٨ .

(٤) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٥٤ - ٦٥٦ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٣٨٩ .

يعلن ولائه للعثمانيين ويجعل الخطبة في صنعاء باسم السلطان سليم (١) ثم قرر الانتقال إلى زبيد حتى يتمكن من متابعة الأحداث ، ولهذا استخاف أحد أتباعه في صنعاء ، وغادرها - في معظم قوائمه - في الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٩٢٣هـ / يوليو ١٥١٧م في طريقه إلى زبيد (٢) ولكن خبر سقوط دولة الجراكسة أثار استخفاف القبائل اليمنية بالأمير اسكندر وقوائمه ، فخرجت عليه قبائل بني حبيش ومن أوالها عند مروره ببلادهم وتمكنت تلك القبائل من التغلب عليه ، وفتكت بعدد كبير من أتباعه ، واستولت على كثير مما كان قد حصل عليه من أموال بني طاهر وذخائرهم (٣) ، وخاض الأمير اسكندر بقية أصحابه بصعوبة (٤) . وتمكن من الوصول إلى زبيد

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح ج ١ ص ٩٣ ، زبارة : أئمة نفس الصنفحة .

Isaluk : The Ottoman Empire, p 34

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٥٦ : زبارة : أئمة اليمن . نفس الصنفحة .

(٣) يقال أن قبائل بني حبيش قد استولت على ثمانية آلاف جمل محملة بالذخائر والجواهر والنقود والذهب والفضة وأنواع المصاغ والقماش والعدد والسلاح وغير ذلك (ابن الديبع : فرة العيون ص ١٦٠ أ الفضل المزيدي ص ٥٦ ، باشخرمة : تلادة النجر ج ٣ ص ١٢٠٥ ، النهر والى : السبرق اليابى ص ٣٣) .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٦ ، والكبرى : اللطائف السنية ص ٢٤٠ - ٢٤١ ، زبارة : أئمة اليمن ج ص ٣٨٩ .

ليلة التاسع من جمادى الآخرة ٨٩١٣هـ (١) / يوليو ١٥١٧ م .

وهكذا يتضح أن موقف اليمن كان مؤثرا ومقائرا بمجريات الأحداث الدولية وقتئذ ، فقد أدى موقف السلطان الظافر حاصر المعادى للعملة المملوكية إلى تحويلها عن هدفها الأساسى إلى غزو اليمن ، وقيام الأمير مرجان الظافرى والى عدن بالتعاون مع البرتغاليين ، وهو أمر لا يمكن حدوثه دون موافقة السلطان نفسه ، ولكن القوات الطاهرية لم تتمكن من الصمود أمام أسلحة الجراكسة النارية ، وانتهى الأمر بمقتل السلطان الظاهرى الظافر حاصر السانى وسقوط دولته ، ولولا سقوط دولة الجراكسة فى الوقت نفسه لأمكن لتلك القوات استكمال السيطرة على اليمن .

والحقيقة أن الفتح العثمانى لمصر قلب الأوضاع رأسا على عقب ، ففى الحجاز ، أسرع الشريف بركات بإعلان الخطبة للسلطان سليم ، وأرسل ابنه أبا نعى إلى الفاتح العثمانى بالقاهرة لإعلان ولائه ، فاحتفى السلطان بمقدمه ، وأقر أباه على ولايته (٢) . وفى اليمن أعلنت القوات الجركسية كما ذكرنا اعترافها بالسيادة العثمانية ، وأصبحت المناطق الخاضعة لنفوذهم فى اليمن ،

(١) ابن الديبع : قرة العون ص ١٦٠ أ ، الفضل المازيد ص ٥٦ أ ، باخرمة : قلادة النجر ج ٣ ص ١٢٠٠ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٢٠٥ ، للكسبي : اللطائف السنية ص ٢٤١ .

(٢) النهروالى : البرق الباقى ص ٢٤ - ٢٥ و ٢٦ ، ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمنية - مخطوط مصور رقم ٢٦٤٢١ بمكتبة جامعة القاهرة - ج ١ ص ١٠٥ أ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٥ ،

تابعة تلقائيا للعثمانيين ، وأصدر السلطان العثماني أوامره بإقرار الأمير اسكندر
ابن محمد - الذي عرف بالمخضرم لمعاصرته لمهدين - نيابة عنه في حكم اليمن^(١) .
وهكذا استكمل العثمانيون - بعد استيلائهم على مصر - السيطرة على
المناطق التي كانت تابعة للمماليك بغير عناء . وأغنام ذلك من القيام بالحملات
لتحقيق السيطرة على الحجاز واليمن ، إلا أن انشغال العثمانيين في إقرار
الأوضاع في إمبراطوريتهم الكبيرة ، وتحولهم إلى غزو أوروبا الشرقية ،
وتجدد النزاع بينهم وبين الفرس ، ساعد على تدهور الأوضاع في اليمن
وانتشار الفوضى والاضطرابات هناك ، ونشوب القتال الدامي بين بقايا
الطاهريين والقوى الزيدية والقوات الجركسية ، كل يريد السيطرة على
البلاد . ولكن الزيدية الذين كانوا قد ادخلوا قوتهم ، تجمعوا حول الإمام
يحيى شرف الدين ، واستطاعوا السيطرة على صنعاء^(٢) ، وامتد نفوذهم على
معظم المناطق اليمنية .

وليس من شك في أن سيطرة العثمانيين على مصر قد ألقت على عاتقهم
مسئولية التصدي للقوى البرتغالية ، إلا أنهم ادخلوا قوتهم لفتوحات
جديدة ، واكتفوا بالأسطول المملوكي الموجود في جدة - والذي انقرد

(١) انظر إلى : البرق الثاني ص ٢٣ ، ابن داهر : الفتوحات المرادية ج ١
ص ١٦٩ أ ، Kammerer : op. cit., T. II, p. 238

(٢) العصامي : مخط النجوم العوالي ج ٤ ص ٤٢٨ ، يحيى بن الحسين : غاية
الأنام ص ٦٥٧ ، الكنسي : اللطائف ص ٢٤١ - ٢٤٢ ، زيارة : أئمة اليمن
ج ١ ص ٣٩٠ ، Kammerer : p. 232

بقيادة سليمان العثماني بعد أن أعلن ولاءه للعثمانيين - للتصدي للبرتغاليين الذين
 حاصروا جدة سنة ١٥١٧^(١) . وعلى الرغم من مشول هذا الخطر، إلا أن
 السلطات العثمانية لم تتحرك لمهاجمة البرتغاليين في الهند، مما شجعهم على مواصلة
 حملاتهم وتركيزها على جدة، ففي عام ١٥٢٠ توجه الأسطول البرتغالي بقيادة
 دي سكويرا لمهاجمة جدة، ولكن الرياح تعضدت لهم للمرة
 الثالثة، وكانت كمينة وحدها لإعاقة تقدم البرتغاليين ونشبت شملهم وفشل
 الحملة^(٢)، ومع استمرار الحملات البرتغالية على البحر الأحمر كانت أساطيلهم تلقى
 كل اعتماد معاونة ومساعدة حاكم عدن^(٣) . واستمر الوضع كذلك إلى أن
 تمكن العثمانيون من إمداد أسطول ضخم في سنة ١٥٤٥/١٥٣٨ بقيادة سليمان
 باشا لشكاد لمحاربة البرتغاليين في المياه الهندية^(٤) . وما أن وصل إلى عدن
 حتى خرج إليه حاكمها مامر بن داود آخر الطاهريين لاستقباله والترحيب
 به، وانتفض سليمان باشا تلك الفرصة وأمر بالقبض عليه وشنقه، واستولى
 على عدن في ربيع الأول سنة ١٥٤٥ // أغسطس ١٥٣٨ م^(٥) . فكان لغدر

(١) انظر ما سبق من ٥١٠ وما بعدها .

(٢) Serjeant The Portuguese, pp. 170F, Macro : Yemen and the Western World, P.2.

(٣) بانحرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١٢٠٩ - ١٢١٠ .

Kammerer , pp. 283-88.

(٤) الظبري : أعقاب فضلاء الزمن ص ٧٦ ب، لوريمر : دليل الخليج

ص ١٠ .

(٥) النهروالي : البرق الثاني ص ٨٠ ، زبارة : أئمة اليمن ص ١٧٤ .

Serjeant; op cit., p. 95; Macro; op. cit., B. 1.

سليمان باشا بالحاكم الطاهري أثره الكبير في فشل حملته ، إذ تخوف سلاطين الهند من التعامل معه ، وامتنعوا عن معاونته أو تموينه ، مما اضطره للعودة إلى بلاد اليمن لاستكمال السيطرة العثمانية عليها (١) .

وأيا ما كان الأمر فإنه إذا كان استيلاء العثمانيين على مصر قد أدى إلى تعطيل المشروعات المملوكية ضد البرتغاليين في البحر الأحمر ، فإن العثمانيين قد فشلوا فيما كان المماليك يستعدون له ، وانحصرت جهودهم - تقريبا - في الدفاع عن البحر الأحمر .

(١) عن العثمانيين في اليمن ، انظر . السيد مصطفى سالم . الفتح العثماني الأول لليمن ... معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٩ .

الخاتمة

تهبت الظروف لنور الدين عمر بن علي بن رسول لإعلان استقلاله بملك اليمن . ولما كان حريصا على حماية دولته من انتقام الأيوبيين فقد عمد إلى إرسال الحملات إلى بلاد الحجاز للتصدي لما قد يجره الأيوبيون من قسوات لاستعادة السيطرة على اليمن . وبهذا تحول الأمر إلى منافسة الأيوبيين نفوذهم في بلاد الحجاز ، وجعلها خط دفاع أمامي لإعاقة تقدم الحملات الأيوبية ، ووقف تقدمها جنوبا لتهديد دوائه الناشئة . وقد أدى تدفق الحملات بين الجانبين إلى الاسهام في زيادة ضعف الدولة الأيوبية ، والتمهيد بالتالي لاستيلاء المماليك على دولتهم في مصر والشام .

ومن الجدير بالذكر أنه على الرغم من انسلاخ اليمن عن الدولة الأيوبية فقد واصل بنو رسول السير على نفس السياسة ، واستمروا يحكمون اليمن وفقا ورثوه من نظمها ، بل واعتمدوا في تطوير تلك النظم على مصر ، يستقصدون أخبارها في موسم الحج ، ومن التجار المصريين الذين يصلون إلى عدن . أما في حالة تحسن العلاقات ، فقد كانت رسائلهم يحيطونهم علما بظورتها . ولهذا اتفقت تلك النظم في معظمها - بين مصر واليمن - في كثير من الأحيان . وفي إطار العلاقات ، كان الخبراء العسكريون يصلون من مصر إلى اليمن ، لإعادة تنظيم الجيش اليمني ، كما تدفقت العناصر المملوكية على اليمن ، عن طريق الشراء أو ضمن الهدايا التي كان يرسلها سلاطين المماليك لهدم الفرات اليمنية . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعداه إلى إرسال الأطباء لمواجهة الأوبئة والطواعين ، أو عمال طراز لصناعة البسيج ، أو

عرفاء معاريون أو صنّاع لفنون التجارة والزخرفة ، إسهاما من معمر في إقامة الحضارة البينية ، وكان سلاطين بني رسول يشجعون قاصديهم من العلماء والأرباب الصناعات والتجار وغيرهم ، ويفرونهم بالمال ويقرّبونهم إليهم ليواهبوا العمل في خدمتهم . وهكذا انقضى بدأ الأيوبيون في اليمن تلك الحركة الحضارية التي بلغت أوج عظمتها في عصر بني رسول ، اعتمادا على الخبرة المصرية . ولا تزال بقايا كثير من المباني كالمساجد وغيرها قائمة إلى اليوم ، إلا أن الدراسة الأثرية لها تحتاج إلى جهود شاقة ومضنية للكشف عن زخارفها ونظمها المعمارية ، بسبب طمس معالمها تحت طلاء صميك من القنطرة ، كسيت به في أوائل هذا القرن ، بقاثير من التوجيهات الدينية . ولهذا فإن الاعتياد فقط على ماورد متناثرا في المصادر ، لا يساعد على القيام بدراسة حضارية متكاملة لهذا التراث .

وفيما يتعلق بالتاريخ السياسي للفترة موضوع الدراسة ، فقد أسفرت المناقشة لكثير من النقاط ، عن آراء جديدة ، منها ما يتعلق بمحاولات إسباغ صبغة الشرعية على حكم بني رسول ، سواء ما كان متعلقا بأدماء نسبهم إلى أصل يعني ، أو التنبؤ بقيام دولتهم ، أو ما ذكره بعض المؤرخين عن تنازل السعوي يوسف بن الملك الكامل آخر الأيوبيين في اليمن لنور الدين . وأثبتت المناقشة عدم صحة ماذهب إليه هؤلاء المؤرخين في هذا الصدد . وتوصل البحث إلى تأكيد نسبتهم إلى التركمان ، وأن ما ذكره عن التنبؤ إنما هو محض أساطير . وتأكيد أنه لا أساس لما قيل عن تنازل السعود لمؤسس الدولة الرسولية . وتأكيد لما انتهت إليه الدراسة في هذا المجال ، فقد تم تتبع الجذور التاريخية لبني رسول وما نسجت المصادر البينية حولهم ، والتوصل إلى معرفة بداية وصولهم إلى اليمن صحبة السلطان الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ، وبروزهم

تدريجياً على مسرح الأحداث اليمنية إلى أن واثت نور الدين الفرصة ،
واستقل بملك اليمن .

كما تعرضت الدراسة لما ذكره المؤرخون عن انتساب بني طاهر الأمويين
وتطور ظهورهم في خدمة بني رسول واستغلالهم الفرص لإقامة دولتهم على
انقاض دولة بني رسول .

وبالنسبة لأحوال اليمن الداخلية ، فقد كان الاضطراب وعدم الاستقرار
والفلاقل الداخلية المناهضة للسلطة المركزية تمثل السمات المميزة لها في كثير من
الأحيان . ولم يكن ذلك كله وليد ظروف طارئة ، وإنما يرجع في معظمه
إلى جذور تاريخية تتمثل في الصراع حول الخلافة الإسلامية ، وقرار كثير
من المصطفيين كالشيعة ، والتجأؤهم إلى بلاد اليمن للاحتباء بها . ذلك أن
تلك البلاد بطبيعتها الجبلية وحصونها الشائخة المنيعه وضعوبة مسالكها وبعدها
عن عاصمة الخلافة ، كانت من أنسب المناطق التي يتوفر فيها الأمن والطمأنينة
لتلك المجموعات المضطهدة . ومع مرور الزمن نجحت تلك العناصر ، من
إسماعيليه وزيدية في دعوتها ، وظهرت كل منها على مسرح الأحداث اليمنية
ولم يقتصر دورها على مناوأة القوى السنية الحاكمة فحسب ، وإنما اتخذ الموقف
شكل صراع عسكري ثلاثي متشابك يسعى كل جانب منه إلى تقويض الآخر
وتحقيق الهدف السياسي بالسيطرة على البلاد والانفراد بحكمها . فكان لهذا
الصراع أثره في اختلال الأوضاع الداخلية ، ونفتيت البلاد إلى أشلاء ممزقة
وفقدان الوحدة السياسية في كثير من الأحيان . ومما يذكر أن الأوضاع
كانت أكثر استقراراً في عهد الأيوبيين لاستمرار الإمدادات من مصر ،
مما حقق وحدة اليمن السياسي خلال فترة طويلة من حكمهم .

أما بالنسبة للفترة موضوع هذه الدراسة ، فإن الدارس قد يتوه في دوامات الحروب الداخلية التي لا تكاد تنتهى حتى تعود أشد ضراوة ، لعدة أسباب منها ، ضعف السلاطات الحاكمة أو انشغال السلاطان القائم وقتئذ بالدفاع عن عرشه ضد الطامعين فيه من أمراء البيت المالكة ، وما يستتبع ذلك من انقسام الجند بين المعسكرات المتناحرة ، وهى ظاهرة نفشت خلال حكم هاتين الدولتين - الرسولية والطاهرية - مما كان دافعا للقوى الزيدية للعمل على تحقيق سيطرتها على المناطق التي تنتشر فيها جموعهم فيما بين صعدة شمالا وصنعاء ودمار جنوبا . وقد أدى الصراع الدائر بين السلطة الحاكمة والقوى الزيدية إلى إتاحة الفرصة لكثير من القبائل لإعلان تمردها . وهكذا كان لكل تلك الحركات أثرها في صرف جهد الدولة لتجهيز الحملات ، ودفعها لخوض سلسلة من الحروب الداخلية المستمرة ، التي استنزفت جانبها كبيرا من الدخل ، وكان من الممكن توجيه تلك الجهود لما هو أجدى وأنفع للشعب اليمني . والخلاصة فقد أثرت تلك الصراعات في الكيان الداخلى لدولتي بنى رسول وبنى طاهر ، وانعكس أثر ذلك على المجال الخارجى ، وكانت من أهم أسباب سقوط هاتين الدولتين .

وفىما يتعلق بالعلاقات الخارجية ، فإن انفصال اليمن عن الدولة الأيوبية ، واستقلال نور الدين عمر بن رسول بحكمها ، مؤسسا دولة بنى رسول ، حدد مسار العلاقات اليمنية بمصر الأيوبية ، ولم يكن متوقعا من الملك الكامل أن يسلم بالأمر الواقع ، فكان لابد من اتخاذ الاجراءات الكفيلة بإعادة اليمن إلى حظيرة الدولة الأيوبية . وفى نفس الوقت ، كان نور الدين يعلم ذلك جيدا ويتوقع سرعه تحرك الملك الكامل للمحافظة على الدولة ككيان دولته ، ومن أجل الحفاظ على الدولة الناشئة ، بادء نور الدين بالاستعداد لذلك للصراع المرير ، وتفاديا للمخاطر التي قد تترتب على وصول

الحملة الأيوبية إلى اليمن ، فقد استقر رأيه على نقل مسرح المعارك إلى بلاد الحجاز - التي كانت لا تزال تابعة للأيوبيين - وجعلها بمثابة خط دفاع أمامي لليمن ضد القوات الأيوبية ، وتوالى الحملات من الجانبين - الرسول والأيوبي - كل يعمل على تثبيت سيطرته على الحجاز ، حتى تمكن نور الدين من نهاية الأمر - نتيجة لضعف الدولة الأيوبية - من تحقيق نهجهم لليمن ، وهو ما كان يسعى جاهدا لتحقيقه من أجل اكتساب احترام العالم الإسلامي وتقديره له باعتباره حامى حمى الحرمين الشريفين .

وقد سار المظفر يوسف على سياسة أبيه ، فعمل بعد تثبيت قواعد حكمه على تثبيت النفوذ اليمني في الحجاز . ولكن ما كادت الدولة الأيوبية تسقط ويتمكن المماليك من توطيد دعائم دولتهم ، وتتوالى انتصاراتهم ، ويشرعون في تحقيق السيطرة على البحر الأحمر ، حتى تغيرت السياسة اليمنية وتحول المظفر إلى مسالمة دولة المماليك البحرية بمصر والشام ، وتبادل مع سلاطينها السفارات والهدايا درهما لثمنهم . ومن ثم بدأ دور جديد مستمر من التعاون بين اليمن ورؤساء الكبر ، وذلك لقيام المماليك بتأمين البحر الأحمر ، وانصراف السفن اليمنية من جانب آخر للقضاء على القرصنة في المحيط الهندي ، مما أدى إلى زيادة نشاط تجارة العبور عن طريق البحر الأحمر ، وتدفع السفن التجارية على عدن لإعادة تجهيزها لتحملة من بضائع إلى الموانئ الهندية أو المصرية .

وقد بلغ من ارتفاع مكانة سلطان اليمن - في تلك المرحلة - لدى السلطان المملوكي أن لجأ ملك الحبشة - يكو نو أملاك ، إلى إرسال رساله إلى السلطان المظفر يوسف ليوضح ذات اليمين يمينه وبين السلطان المملوكي الظاهر بيبرس .

ولم يكتف البحث بدراسة العلاقات اليمنية مع بلدان حوض البحر الأحمر كهمز والحجاز والحشة ودول الطراز الاسلامي هناك . وانما تعرض لدراسة العلاقات الاقتصادية والسياسية مع آسيا . فقد توافد سفراء بعض الدول الآسيوية بالمدايا على البلاط اليمني لطلب ود سلطانها من بنى رسول ، وتسهيل تجارتهم ، والإحسان إلى تجارهم ، وقد بواخ في كسب قلوب سلاطين اليمن إلى حد قيام سلطان قاليقوط بالمحبة لسلطان اليمن في بلاده ، فقد كان لموقع اليمن الهام على الطريق التجارى الرئيسى أثره في أن تحتل ميناء عدن مكانة عالمية وقتئذ ، وقامت بدور بارز في التجارة العالمية التى كانت مصر تمتلك ناصيتها . وهكذا فقد كان لرعاية اليمن للتجارة أثرها في زيادة نشاطها . كما أخذت مصر على عاتقها مهمة التصدى للمحاولات الموجهة إليها أو إلى اليمن حتى لو لم تتحرك السلطات اليمنية للدفاع عن مصالحها . فمع قيام الدولة الأيلخانية المعادية لمصر وتحول البابوية إلى فرض الحصار الاقتصادى على دولة المماليك وتحريم للعباد التجارى في موانئها . فقد انفتحت المصالح الأيلخانية في عهد الختان أرغون مع الصليبيين ، فتعالف معهم ضد مصر المملوكية ، وعملوا على توجيه ضربة إلى تجارة مصر بتحويل النشاط التجارى إلى الخليج الفارسى ، والحيولة دون وصول السفن المحملة بتجارة الشرق إلى عدن ، وذلك بانزال بعض السفن إلى مياه الخليج لتولى نقل البضائع من مصادرها ، وفرض حصار بحرى على عدن . وهكذا كانت عدن ، وبالتالي اليمن تشكل هدفا صليبيا لمكانتها التجارية بين الشرق والبحر الأحمر ، ولما تقدمه من معونات لمسلمي الطراز ضد الحشة المسيحية . ومهما كان الأمر ، فقد فشلت هذه المحاولات لتصدى مصر لها ، بتوجيه للضربات للدولة الأيلخانية . واجتذاب التجار الفرنج المتعامل مع الموانئ المملوكية .

أما ما يتعلق بتعسف سلاطين اليمن مع التجار في عدن ، فلم يكن في إمكان مصر المملوكية أن تقف مكتوفة الأيدي دون الدفاع عن مصالحها التجارية والعمل على وضع حد للمظالم التي كان يتعرض لها التجار من سلاطين اليمن وعمالهم . و كنتيجة اتعنت هؤلاء السلاطين مع التجار ، وتكرار شكوى دولهم لسلاطين الممالك ، فقد تحمات اليمن أضرارا كثيرة أثرت على اقتصادها ، خاصة بعد أن رحب السلطان برسبای بمحاولة السفن الهندية في الوصول رأسا إلى جدة ، مما أدى إلى احتلالها المكانة التجارية الأولى كميناء هام ، واضمحلال ميناء عدن نتيجة لهجرة السفن التجارية له ، وللاخطار الذي فرضه برسبای على التجار ومنعهم من التعامل مع ميناء عدن .

وإذا كانت الأحداث التاريخية قد أثبتت أنه كان في مقدور مصر وحدها القيام دائما بدور طبيعي متحملة - بإمكاناتها الذاتية - المسئولية كاملة في التعدي للاخطار الخارجية وحماية العالم العربي ، فقد كان من الطبيعي أن يكون لتعاون بعض الأقطار العربية الأخرى وتحمل نصيبها في الجهاد أثره البالغ في زيادة فاعلية هذا الدور . غير أن تلك الأحداث تبين أيضا أن الضغط الذي قد يصيب مصر كان ينعكس أثره على العالم العربي ، فمع نهاية القرن التاسع وبداية العاشر الهجريين (الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين) وخاصة بعد عهد السلطان المملوكي قايتباي ، برزت عوامل متعددة أثرت على قوة مصر ، منها انتشار الأوبئة والقحط وماترتب عليها من غلاء فاحش ، ومبالغة في الضرائب والمظالم ، وعدم استقرار الأوضاع نتيجة الخلافات والمنازعات المستمرة بين طوائف الممالك ، وتولى خمسة من السلاطين خلال السنوات الخمس التي أعقبت وفاة قايتباي ، مما جعل فترة حكم سادسهم

وهو السلطان الغوري فتره تنذر بنهاية محققة ، ليس فقط نتيجة للأحوال الداخلية السيئة ، وإنما لتضايف الظروف الدولية على ازدياد ضعف دولة المماليك ، وجعلها لقمة سائغة في نهاية الأمر للعثمانيين . فقد نجحت الحركة الصليبية في تصفية آخر المعاقل الإسلامية في الأندلس والقضاء على العناصر الإسلامية فيها ، كما نشطت حركة القرصنة الصليبية الموجهة للموانئ والسفن المملوكية ، وفي نفس الوقت استمر الصراع في المشرق بين العثمانيين والصفيويين مؤكدا قيام المنتصر بمهاجمة الحدود الشرقية لدولة المماليك .

وفي تلك الظروف المعقدة كانت الجهود البرتغالية قد أثمرت اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والوصول إلى الهند سنة ١٤٩٨ . ولا شك أن الجهود البرتغالية كانت حلقة من حلقات الصراع الصليبي وامتدادا لها ، وكانت أشد خطرا على الإسلام والمسلمين من سابقتها ، كما كانت نتيجة طبيعية للجهود الصليبية السابقة ، بعد فشل المحاولات المستمرة لاستعادة السيطرة على الممالك الصليبية التي كانوا قد أسسوها في بلاد الشام . وعدم جدوى القرارات البابوية بتحريم التعامل التجاري مع الموانئ المملوكية .

ومن الجدير بالذكر أن المصادر العربية لم تشر إلى المراحل التي أسفرت عن كشف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح ، أو وصولهم إلى الهند عند نجاحهم في ذلك ، وإنما اكتفى بالإشارة في حويلات متأخرة إلى الوجود البرتغالي في المياه الهندية وليس ذلك بالتأكيد اغفالا من المؤرخين لتلك الأحداث ، وإنما قد يكون ذلك لتأخر علمهم بها ، أو أن الأحوال الداخلية بمصر كانت من السوء بحيث طغت على ماعداها ، ولم يكن متوقعا أن يزداد خطر البرتغاليين إلى هذا الحد الذي هدد

البلاد تهدد بما مباشر من الخلف. وقد يؤيد ذلك أن الأساطيل البرتغالية لم تلبس في بداية الأمر إلى استعمال العنف، ولكنها انتمت أسلوب المسالمة تفادياً للصدام، في وقت كانت حريصة فيه على تثبيت مراكزها، ولم تتمكن من القيام بأعمال يكون من شأنها التعرض لمقاومة جماعية. ولكن ما أن انضمت حقيقة المطامع البرتغالية الصليبية - التي تعرض البحث لها - وزاد الخطا - وبرتغالي في المياه الهندية حتى أسرع سلاطين الهند والبن إلى الاستنجاد بالسلطان الغوري، الذي قام رغم ظروفه الداخلية والخارجية الصعبة بإعداد أسطول لمحاربة البرتغاليين والعمل على القضاء عليهم.

وبالنسبة لليمن، فقد تميزت فترة ما قبل ديو بتعاون السلاطات الطاهرية ووفائها بما التزمت به. ولكن الموقف لم يلبث - بعد هزيمة الأسطول المملوكي في ديو - أن تحول إلى عداة سافر للقوى المملوكية. في حين تعاون الطاهريون مع البرتغاليين إلى حد التحالف معهم من أجل إيقاع الهزيمة بالممالك وتحقيق الأهداف البرتغالية الصليبية في البحر الأحمر. وهكذا يتضح أن موقف سلطان اليمن كان مؤثراً ومتأثراً بمجريات الأحداث الدولية وقتذاك، ذلك أن تغير موقف السلطان الطاهري، وامتناعه عن الوفاء بتعهداته الخاصة بتقديم مساعدات للحملة البحرية المملوكية الثانية، أدى إلى تخوف الأمير حسين الكردي قائد الأسطول المصري خاصة وأن السلطات اليمنية لم تسمح له باستخدام قواعد الأسطول بالموانئ اليمنية، ومن ثم أصبح خروج هذا الأسطول من البحر الأحمر أو العودة إليه محفوفاً بالكثير من المخاطر. وهكذا، اضطر الأمير حسين الكردي بعد أن أخفقت محاولاته لإقناع السلطان الطاهري الظافر عامر الثاني، إلى استخدام القوة للسيطرة على بعض المناطق الساحلية لتأمين أسطوله وضمان سلامة وصول الامدادات إليه. ولاستكمال المهمة الأساسية التي جهز

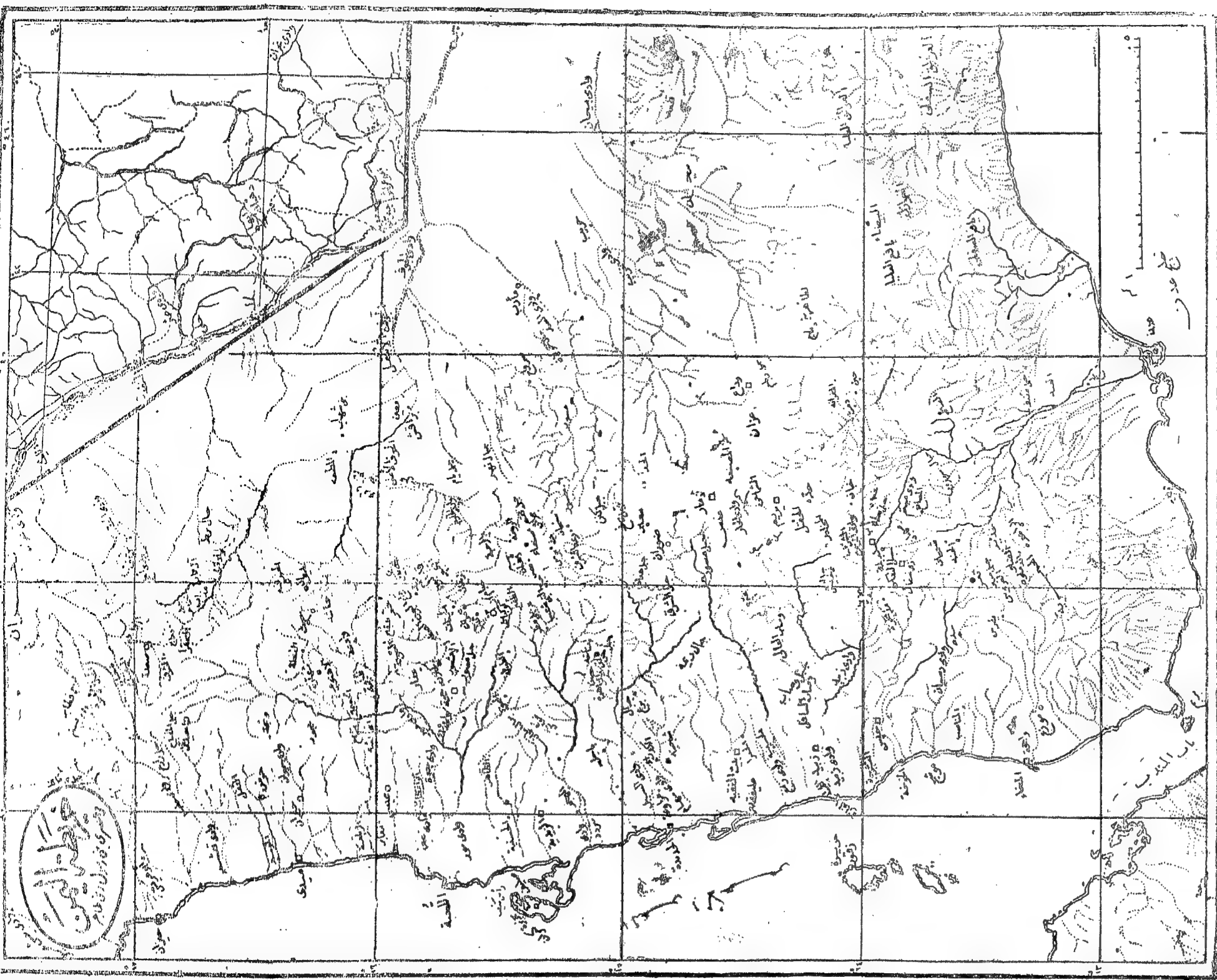
الأسطول للقيام بها ، ترك الأمير حسين الكردي بعض قواته لحماية مائمه للسيطرة عليه من المناطق ، وتوجه في بعض قطعه البحرية إلى عدن ، على يستطيع أن يتخذ منها قاعدة لتأمين سلامة البحر الأحمر ، وضمان عدم التعرض للاخطار عند عودته من الهند . إلا أن فشل حسين الكردي في الاستيلاء على عدن لحصانتها الطبيعية ومقاومة حاكمها له ، اضطره إلى تفضيل العودة إلى البحر الأحمر ، وتركيز قوته فيه والاكتفاء بالعمل على تأمينه . وهكذا تحول هدف الحملة .. نتيجة لموقف السلطات الطاهرية .. من التوجه لمجابهة البرتغاليين في المياه الهندية ، إلى مجرد للدفاع عن البحر الأحمر .

وعلى الرغم من الاضرار التي تعرضت لها بلاد اليمن نتيجة لسيطرة البرتغاليين على التجارة ومحاولتهم للاستيلاء على عدن ، إلا أن السلطان الطاهري الظافر عامر الثاني لم يكتف بها اتخذ من مواقف معادية للجراكسة ، الذين كان من بين أهدافهم حماية اليمن نفسها من الخطر البرتغالي ، إذ تعاون نائبه على عدن - الأمير مرجان .. مع البرتغاليين ، وأمدم بالمرشدين لتسهيل وصولهم إلى جدة لضرب الأسطول المملوكي فيها ، وهو أمر لا بد وأن يكون قد تم بموافقة السلطان الظافر الثاني شخصيا ، رغم النتائج الخطيرة التي كانت سوف تترتب على نجاح البرتغاليين في تعظيم الأسطول المملوكي في جدة . من الاستيلاء على الحجاز ، وتعرض المقدسات الإسلامية للدمار ، وتحقيق الاتصال بالحشة والتعاون معها لتوجيه ضربة مباشرة ضد مصر ، باعتبارها مصدر القوة في العالم الإسلامي ، وما قد يتبع ذلك من تسهيل مهمة البرتغاليين في تنفيذ كافة الأهداف التي قامت حركة الكشوف الجغرافية من أجلها .

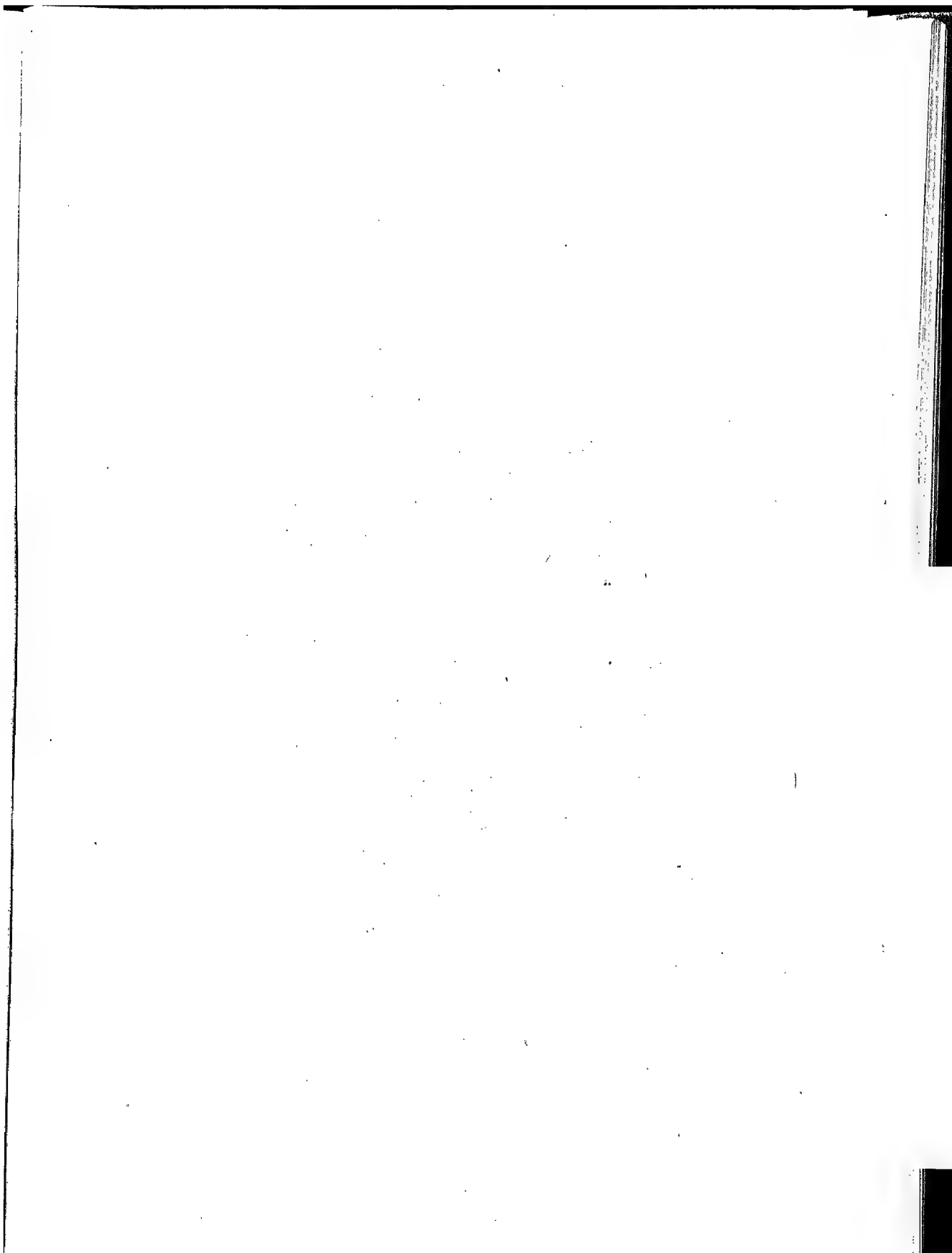
والحقيقة لقد كان لموقف السلطان الطاهري أثره في إعاقة الأسطول

المملوكي من مهمته ، مما أدى إلى تحول قوات ذلك الأسطول إلى مقابلة تحديات السلطان الطاهري والتفرغ لغزو اليمن . ومن العجيب أن السلطان الظافر لم يترشح عن موقفه رغم هجز قواته من الصمود أمام الأسلحة النارية الحديثة التي كانت تستعملها القوات الجراكسية ، مما أدى في النهاية إلى مقتل هذا السلطان ، وسقوط دولته واستيلاء الجراكسة عليها . ولولا استيلاء العثمانيين على مصر والشام وسقوط دولة الجراكسة لاستمرت قوات المماليك في العمل على استحصال السيطرة على بقية المناطق الأخرى من اليمن ، كقمة التفرغ لمواجهة البرتغاليين .

ويمكن القول بأنه إذا كان السلطان الطاهري قد أسهم بموقفه هذا في نفس الجهود التي بذلها للغوري ضد البرتغاليين ، وساعد الأسطول البرتغالي على اقتحام البحر الأحمر ، وتعاون حاكم عدن معهم لتنفيذ أهدافهم ، فقد أسهم العثمانيون بتقاسمهم ، في ترسيخ الوجود البرتغالي في المياه الهندية وذلك لانشغالهم بالفتوحات في مناطق أخرى ، مما ساعد البرتغاليين على إحكام السيطرة على تجارة الشرق ، وتوطيد نفوذهم وتغاقم خطرهم في المنطقة .



مخطط الجبل
الشمالي



المصادر والمراجع

أولا - مصادر مخطوطة

- أدريس عماد الدين بن الحسن القرشي (ت ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م) .
— نزهة الأفكار وروضة الأخبار في ذكر من قام باليمن الميمون من الملوك
الكبار والدعاة الأخيار ، (جزءان) مخطوط بمكتبة أجد علماء
حراز اليمن .
الأهدل ، أبو عبد الرحمن الحسين بن عبد الرحمن بن محمد الحسيني (ت ٨٨٥ هـ /
١٤٨٠ م) .
— تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، مخطوط بمكتبة خدابخش بته
رقم ٢٤٨٥ مصور بالميكرو فيلم بمعهد المخطوطات العربية برقم ٣٠٨٨ .
ابن اييك الدواداري ، أبو بكر بن عبد الله (ت ٨٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) .
— درر التيجان وغرر توار يخ الأزمان ، (٤ مجلدات) مخطوط بمكتبة
أحمد خان بالآستانة ، مصور بدار الكتب برقم ٤٤٠٩ تاريخ .
— كنز الدور وجامع الفرر ، (٩ أجزاء) مخطوط بدار الكتب رقم
٢٥٧٨ تاريخ .
بيرس الدوادار ، ركن الدين المنصوري (ت ٨٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) .
— زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، (٩ ج) مخطوط بالمتحف البريطاني
رقم ٢٣٢٢٥ إضافات ، مصور بالفوتوستات بمكتبة جامعة القاهرة
برقم ٢٤٠٢٨ .
ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) .

- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، (٥ مجلدات) مخطوط بدار
الكتب رقم ١٢٠٩ تاريخ تيمور .
- الدليل الشافي على المنهل الصافي ، مخطوط بدار الكتب رقم ١١٨٩ ح .
- الجزيري ، زين الدين عبد القادر بن محمد الحنبلي (ت ٩٦١ هـ / ١٥٥٤ م) .
- درر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة ، مخطوط
بدار الكتب رقم ٣٧ م .
- الجنيداري ، صفي الدين أحمد بن عبد الله (ت ١٣٣٧ هـ / ١٩١٨ م) .
- الجامع الوجيز في وفيات العلماء أولى التبريز ، مخطوط بمكتبة الجامع
الكبير بصنعاء .
- الجندي ، أبو عبد الله بهاء الدين يوسف بن يعقوب (ت ٥٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) .
- السلاوك في طبقات العلماء والملوك ، (٣ مجلدات) مخطوط بمكتبة
كوبريلى رقم ١١٠٧ معصور بدار الكتب برقم ٩٩٦ تاريخ .
- ابن حاتم ، بدر الدين محمد (كان موجودا سنة ٥٧٠٢ هـ) .
- السمعط الغالى الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن ، مخطوط بالمتحف
البريطاني رقم ٢٧٥٤١ لإضافات .
- ابن حبيب ، الحسن بن عمر (ت ٥٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) .
- درة الأسلاك في دولة الأتراك ، (٤ ج) مخطوط معصور بدار الكتب
رقم ٦١٧٠ ح .
- ابن حجر ، شهاب الدين أحمد بن هلى العسقلاني (ت ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م) .
- إنباء الغمر بأنباء العمر ، (جزءان) مخطوط بدار الكتب رقم
٢٤٧٦ تاريخ .
- الحنبلي ، أحمد بن إبراهيم بن نصر الله (ت ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م) .

- شفاء القلوب في مناقب بنى أيوب ، مخطوط بالمتحف البريطاني رقم ٧٣١١ إضافات مصور بالميكرو فيلم بالجامعة العربية برقم ٣ .
- الشيزجي ، أبو الحسن علي بن الحسن (ت ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م) .
- طراز الزمن في طبقات أعيان اليمن ، (جزءان) مخطوط بدار الكتب رقم ١٢٦٥٧ تاريخ .
- المسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك ، مخطوط بمكتبة بلدية الاسكندرية رقم ١٢٦٥ ب .
- العقد الفاخر الحسن في طبقات أعيان اليمن ، مخطوط بالمتحف البريطاني 72 Kings Collage مصور بالميكرو فيلم بالجامعة العربية رقم ٣٣٩ .
- الدين داعر ، عبد الله بن صلاح الدين بن داود بن علي (كان موجودا سنة ١٠١٠ هـ) .
- الفتوحات المرادية في الجهات اليمنية ، نسخة المؤلف وبخطه ، بمكتبة واغب باشا باستانبول ، وتوجد نسخة منها مصورة بالفوتوستات بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦٤٢١ ، وأخرى بالميكرو فيلم بالجامعة العربية برقم ٩٣٣ تاريخ .
- الدين دقاق ، صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيمن العلاني (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) .
- الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٩٢ تاريخ تيمور .
- الدين الديسج ، أبو عبد الله عبد الرحمن بن علي الشيباني الشافعي (ت ٨٩٤ هـ / ١٥٣٧ م) .
- بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، مخطوط بدار الكتب رقم ٦٠٧ تاريخ تيمور ، وأخرى رقم ١١ م تاريخ .

- الفضل المزيدي على بغية المستفيد ، مخطوط مصور بدار الكتب رقم ٩٠٨٧ ح تاريخ عن الدار رقم ٢١ م تاريخ .
- قرة العيون في أخبار اليمن اليمون ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٥٥ تاريخ .
- الذهبي ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قيار (ت ٧٤٨ هـ) ١٣٤٧ م .
- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، (٣٢ مجلد) مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٦ تاريخ .
- سير أعلام النبلاء ، (١٣ جزء) مخطوط بدار الكتب رقم ٧٧٩٥ تاريخ .
- الرازي ، أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد الصنعاني (ت ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م) — تاريخ صنعاء ، مخطوط بالمتحف البريطاني رقم ٢٩٠٣ ، مصور بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦٠٥٧ .
- الرسولي ، السلطان الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل عباس (ت ٨٠٣ هـ) ١٤٠٠ م .
- فاكهة الزمن ومفاكهة الآداب والفتن في أخبار من ملك اليمن مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٠٩ تاريخ تيمور .
- الرسولي ، السلطان الملك الأفضل عباس بن المجاهد علي بن داود (ت ٧٧٨ هـ) ١٣٧٦ م .
- العطايا السنوية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية ، مخطوط بدار الكتب برقم ٣٥١ تاريخ .
- نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون ، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٥١ تاريخ .

الرشيدى ، أحمد .

— حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج ، مخطوط بدار الكتب رقم ٤٨٧ تاريخ .

الشبلى اليمنى ، جمال الدين محمد بن أبى بكر الحسنى (ت ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م) .
— السنا الباهر بتكميل النور السافر فى أخبار القرن العاشر ، مخطوط بدار الكتب رقم ٢٠٣٢ تاريخ تيمور .

الشرقى ، أحمد بن محمد بن صلاح (ت ١٠٥٥ هـ / ١٦٠٥ م) .
— اللالى المضبية فى أخبار أئمة الزيدية ، (٣ أجزاء) مخطوط بمكتبة الجامع الكبير برقم ١٠٧ - ١٠٩ .

المصدقى ، صلاح الدين خليل بن أيبك (٥٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) .
— الوافى بالوفيات ، (٧ أجزاء فى ١٧ مجلد) مخطوط بدار الكتب رقم ١٢١٩ تاريخ .

المصلى ، بدر الدين محمد بن يوسف (ق ١٠ هـ) .
— مآثر الأبرار فى تفصيل مجلات جواهر الأخبار ، مخطوط ملك الباحث .
الطبرى ، محمد بن على بن فضل (ق ١٢ هـ) .
— إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن ، مخطوط بالجمعية الآسيوية فى كلكتا رقم ١٢٨١ ، منه نسخة بالميكرو فيلم بالجامعة العربية برقم ٣١٤٣ .

الطبرى ، على بن محيى الدين عبد القادر (ت ١٠٧ هـ / ١٦٦٠ م) .
— كتاب الأرج المسكى فى التاريخ المكى ، مخطوط بدار الكتب رقم ٢٢٠٥ تاريخ تيمور .

الطامسى ، أبو زكريا يحيى بن أبى بكر الحرصى (٨٩٣ هـ / ١٤٨٨ م) .

- غر بال الزمان في وفيات الأعيان ، مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء .
 ابن عبد المجيد ، تاج الدين عبد الباقي القرشي (٥٧٤٣ / ١٣٤٢ م) .
- بهجة الزمن في تاريخ اليمن ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٥٩٧٧ عربي .
- العصامي ، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك (ت ١١١١ / ١٦٩٩ م) .
- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، (٥ أجزاء) .
 مخطوط بدار الكتب رقم ٥٦٦٤ تاريخ .
- عيسى بن لطف الله بن المطهر (١٠٤٨ / ١٦٣٨ م) .
- روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٩ تاريخ م .
- العيني ، بدر الدين محمود (ت ٨٥٥ / ١٤٥١ م) .
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، (٢٣ جزءا في ٦٩ مجلد) .
 مخطوط معصور بدار الكتب رقم ١٥٨٤ تاريخ من نسخة الآسمانة .
- الفاسي ، تقي الدين أبي الطيب محمد بن أحمد بن علي الحسني (٨٣٧ / ١٤٢٩ م) .
- تحفة الكرام ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٢٨١٣ ح معصور عن نسخة الدار رقم ١٦٤٦ تاريخ .
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، (٤ مجلدات) مخطوط بدار الكتب رقم ٨٤٩ تاريخ تيمور .
- ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي (ت ٨٠٧ / ١٤٠٤ م) .
- تاريخ الدول والملوك ، (١٨ مجلدا) مخطوط بدار الكتب رقم ٣١٩٧ تاريخ معصور عن نسخة فيينا .

ابن فضل الله العمرى ، شهاب الدين أبى العباس أحمد بن يحيى (ت ٥٧٤٩ / ١٣٤٨ م) .

— مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، (الجزء الخامس) مخطوط بدار الكتب رقم ٨ معارف عامة م .

الفيومى ، أحمد بن محمد بن على المقرئ (ت ٥٧٧٥ / ١٣٧٤ م) .
— نثر الجمان فى تراجم الأعيان ، (٣ مجلدات) مخطوط بدار الكتب رقم ١٧٤٦ تاريخ .

ابن القاسم ، صارم الدين ابراهيم بن القاسم بن المؤيد (النصف الأول من ق ٥١٢) .
— طبقات العلماء الزيدية ، مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء .
الكسبي ، محمد بن اسماعيل بن محمد بن يحيى (ت ١٢٠٨ / ١٨٩٠ م) .
— اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية ، مخطوط بدار الكتب رقم ٧٢٤ تاريخ تيمور ونسخة أخرى رقم ٤١٦٣ تاريخ .

المحلى ، حسام الدين أبى عبد الله حميد بن احمد (ت ٩٥٢ / ١٢٥٤ م) .
— الحدائق الوردية فى مناقب الأئمة الزيدية ، مخطوط بدار الكتب رقم ٤٨٧٥ تاريخ .

باخرمة ، أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله (ت ٩٤٧ / ١٥٤٠ م) .
— قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر ، (٣ أجزاء) مخطوط بمكتبة
بنى جامع بالآستانه رقم ٨٨ معصور بدار الكتب برقم ١٦٧ تاريخ .
ابن مظفر ، محمد بن أحمد بن يحيى (ت حوالى ٩٢٥ / ١٥١٩ م) .
— كتاب الترجمان المفتوح لثمرات كاشف البستان ، مخطوط بمكتبة القاضي حسين بن أحمد السياغى من علماء صنعاء .

النويرى ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ / ١٣٣٢ م) .

— نهاية الأرب في فنون الأدب ، (٣١ جزءاً) مخطوط بمكتبة كوبرلي
بالأستانة ، مصور بدار الكتب برقم ٥٤٩ معارف عامة ، وأخرى
برقم ٥٥١ معارف عامة .

يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٥ هـ / ١٦٩٣ م) .

— أنباء الزمن في تاريخ اليمن ، مخطوط بدار الكتب برقم ١٣٤٧ تاريخ .

ثانيا - مصادر مطبوعة

- ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن الكرم (ت ٥٦٣٠ / ١١٢٣ م) .
 — الكامل في التاريخ ، القاهرة ١٣٠١ هـ .
 الأهدل ، محمد بن علي .
 — نثر الدر المكنون من فضائل اليمن الميمون ، القاهرة ١٩٣١ .
 ابن إياس ، أبو البركات محمد بن أحمد الحنفى (ت ٥٩٣٠ / ١١٥٢٤ م) .
 — بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الأجزاء ٣ - ٥ تحقيق محمد مصطفى
 ١٩٦٠ - ١٩٦٣ .
 ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد بن محمد اللواتى الطنجى (ت ٥٧٧٩ /
 ١٣٧٧ م) .
 — تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (جزءان) القاهرة
 ١٩٣٨ .
 ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٨٧٤ / ١٤٦٩ م) .
 — النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، (١٦ جزءا) القاهرة
 ١٩٣٠ - ١٩٧٢ .
 — المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، (الجزء الأول) تحقيق أحمد
 يوسف نجأتى ، القاهرة ١٩٧٦ .
 — منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور .
 Ed. William Forpper, California, 19٢0 - 1931.
 ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد الكتانى (ت ٦١٤ / ١٢١٧ م) .
 — رحلة ابن جبير ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ .
 الجندى ، أبو عبد الله بهاء الدين يوسف بن يعقوب (٥٧٣٢ / ١٦٥٦ م) .

— أخبار القرامطة باليمن ، منقول من كتاب السلوك في طبقات العلماء والملوك) ، نشره هنرى كاي ، ضمن كتاب تاريخ اليمن لعلمارة ، لندن ١٨٩٢ .

حاجي خليفه ، مصطفى كاتب شاي (ت ١٠٦٧ / ١٦٥٦ م) .

— كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، والآسمائة ١٩٤١ .

ابن حجر ، شهاب الدين احمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٣ / ١٤٤٩ م) .

— الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، (٤ أجزاء) حيدر آباد ، الهند (١٣٤٨ - ١٣٥٠ هـ) .

الجهادي ، محمد بن مالك بن أبي الفضائل الجاني (أواسط القرن الخامس الهجري) .

— كشف أمرار الباطنية وأخبار القرامطة ، القاهرة ١٩٣٩ .

حمزة بن الحسن الأصفهاني (٣٦٠ / ٩٧٠ م) .

— تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، برلين ١٣٤٠ هـ .

الخزرجي ، أبو الحسن علي بن الحسن (ت ٨١٢ / ١٤٠٩ م) .

— العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، (جزءان) تحقيق محمد

بسيوني عسل ، من مطبوعات Gibb Memorial Series القاهرة ١٩١١ .

ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ / ١٤٠٥ م) .

— العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بولاق ١٢٨٤ هـ .

— تاريخ اليمن ، منقول من كتاب العبر ، نشره كاي ملحقاً بكتاب تاريخ اليمن لعلمارة ، لندن ١٨٩٢ .

ابن خلكان ، شمس الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر الشافعي (ت ٦٨١ / ١٢٨٢ م) .

— وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، (٦ أجزاء) نشر محمد محي الدين .
عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨ .

الدمشقي ، محمد بن أبي طالب الأنصاري (ت ٥٧٢٧ / ١٣٢٨ م) .

— كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ليبيج ١٩٢٣ .

الذهبي ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عثمان بن قنار (ت ٥٧٤٨ / ١٣٤٧ م) .

— دول الإسلام ، (جزءان) ، حيدر آباد ، الهند ١٣٣٣ هـ - ١٣٣٧ هـ .

الرسولي ، السلطان الملك الأشرف عمر بن مظفر يوسف (ت ٥٩٩٦ / ١٢٩٦ م) .

— طرفة الأصبحاب في معرفة الأنساب ، تحقيق سترستين ، نشر المجمع

العربي بدمشق ١٩٤٩ .

زين الدين المعبري للمباري (٩٨٥ هـ ١٥٧٩ م) .

تحفة المجاهدين في أحوال البرتكاليين ، لشبونة ١٨٩٨ .

سبط ابن الجوزي ، شمس الدين أبي مظفر يوسف بن قز أوغلي (ت ٦٥٤ هـ /

١٢٥٧ م) .

— مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، (٨ ج) حيدر آباد ، الهند ١٩٥١ .

السبكي ، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين (ت ٥٧٦ هـ /

١٣٧٠ م) .

— طبقات الشافعية الكبرى ، (٦ أجزاء) القاهرة ١٣٢٤ هـ .

السيخاوي ، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن (٥٩٠٢ هـ / ١٤٩٧ م) .

— التبر المسبوك في ذيل السلوك ، نشر أحمد زكي ، القاهرة ١٨٩٦ .

— الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، (١٢ جزءا) القاهرة ١٣٥٣ -

١٣٥٥ هـ .

ابن سمره ، أبو حمص بن علي (ق ٦ هـ) .

- طبقات فقهاء اليمن ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٧ .
- السيدوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٨٩١١ / ١٥٠٥ م) .
- غزوات قبرص ورودس ، فيينا ١٨٨٤ .
- ابن شاكر الكتبي ، صلاح الدين محمد بن شاكر بن أحمد (ت ٥٧٦٤ / ١٣٦٣ م) .
- فوات الوفيات ؛ (جزءان) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ؛ ١٩٥١ .
- أبو شامة ، شهاب الدين أبي محمد بن عبد الرحمن الرحمن ابن اسماعيل المقدسي .
- (ت ٦٦٥ / ١٢٦٧ م) .
- الروضتين في أخبار الدولتين . (جزءان) القاهرة ١٢٧٨ - ١٢٨٨ هـ .
- الذيل على الروضتين . نشره السيد عزت المطار . القاهرة ١٩٤٧ .
- ابن شاهين الظاهري ؛ غرس الدين خليل (ت ٨١٣ / ١٤٦٨ م) .
- كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ؛ تحقيق بولس راويس Paul Ravaisse باريس ١٨٩٤ .
- ابن الشحنة ، محب الدين أبي الوليد محمد بن كمال الدين الحلبي (ت ٨١٥ / ١٤١٢ م) .
- روض المناظر في أخبار الأوائل والأواخر ، مطبوع على هامش الجزء التاسع من كتاب (الكامل) لابن الأثير . القاهرة ١٢٩٠ هـ .
- الشرجي ، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف (ت ٨٩٣ / ١٤٨٨ م) .
- طبقات الخوارج أهل الصدق والاخلاص ، مصر ١٣٢١ هـ .
- ابن طباطبغا ، محمد بن علي (ت بعد ٧٠١ / ١٣٠١ م) .
- الفخرى في الآداب السلطانية ، القاهرة ١٣١٧ هـ .
- ابن طولون الصالحى ، شمس الدين محمد بن علي بن محمد (٨٩٥٣ / ١٥٤٦ م) .

— مفاتيح الخللان في حوادث الزمان ، (جزءان) تحقيق محمد مصطفى .

القاهرة ١٩٦٢ .

ابن ظهيرة ، جمال الدين محمد جار الله بن محمد بن أبي بكر (١٥٥٢/١٩٦٠ م) .

— الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، الطبعة

الثانية ١٩٣٨ .

ابن عبد الحق ، صفى الدين عبد المؤمن (ت ٥٧٣٩ / ١٣٣٨ م) .

— مرصع الاطلاع في أسماء الأمكنة والبلدات ، القاهرة ١٩٥٤ .

ابن عبد الظاهر ، محيى الدين أبي الفضل عبد الله (ت ٨٩٩٢ / ١٢٩٢ م) .

— تشریف الأيام والعصور في سيرة السلطان الملك المنصور ، تحقيق

د. مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١ .

العلوى ، طي بن محمد بن عبد الله العباسي (من علماء الزيدية في أواخر القرن

الثالث الهجري) .

[— سيرة الامام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، تحقيق د. سهيل زكار

بيروت ١٩٧٢ .

ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحى (ت ١٠٨٩ / ١٦٧٨ م) .

— شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، (٨ أجزاء) القاهرة ١٣٥١ هـ .

همارة اليمنى ، أبو محمد نجم الدين بن أبي الحسن علي بن زيدان الحكيم

(ت ٥٥٦٩ / ١١٧٤ م) .

— تاريخ اليمن ، تحقيق هنرى كاي ، لندن ١٨١٢ .

— النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية .

Ed. Hartwig Derenbourg, Paris, 1897-1902.

العبدروسي ، محيى الدين عبد القادر بن عبد الله العلوى (ت ١٠٣٨ / ١٦٢٨ م) .

— النور السافر في أخبار القرن العاشر ، بغداد ١٩٣٤ .

- القاسمي ، تقى الدين أبي الطيب محمد بن احمد الحسني (٨٣٢هـ / ١٤٢٩ م) .
- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، (جزءان) القاهرة ١٩٥٦ .
- أبو الفدا ، الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن علي صاحب حماة (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١ م) .
- كتاب تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ .
- المختصر في أخبار البشر ، (٤ أجزاء) الآستانة ١٢٨٦ هـ .
- ابن فضل الله العمري ، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨ م) .
- التعريف بالمصطلح الشريف . القاهرة ١٣١٢ هـ .
- ابن الفوطي ، كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق البغدادى (ت ٧٢٢هـ / ١٢٣٢ م) .
- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، نشره د. مصطفى جواد بغداد ١٣٥١ .
- الفيروز آبادي ، محمد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الشيرازي (ت ٨٠٧هـ / ١٤١٤ م) .
- القاموس المحيط ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٤٤ هـ .
- القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨ م) .
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، (١٤ جزءا) ، القاهرة ١٩١٣-١٩١٩ .
- قلائد الجنان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، نشره ابراهيم الاياري ١٩٦٣ م .
- ابن كثير ، عماد الدين أبي الفدا اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣ م) .
- البداية والنهاية ، (١٤ جزءا) ، القاهرة ١٣٤٨ / ١٣٥٨ هـ .

١. ابن الجرار، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الدمشقي
(ت ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م) .

— صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، ويسمى تاريخ المستبصر ،

Ed., O. Loeftgren, 2 vol. Leiden, 1951-1954.

مجمع اللغة العربية .

— المعجم الوسيط ، قام بإخراجة نخبة من العلماء ، القاهرة ١٩٦٠ .

بأنحرمة ، أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله (ت ٩٤٧ هـ / ١٥٤٠ م) .

— تاريخ نجر عدن ، (جزءان)

Ed., O. Loeftgren Leiden, 1936 - 1950.

المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي الشافعي (ت ٣١٦ هـ / ١٩٥٦ م) .

— مروج الذهب ومعادن الجوهر ، (٤ أجزاء) تحقيق محمد محي الدين

عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٨ .

المقدسي ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر البشاري (ت ٣٨٨ هـ /

٩٩٧ م) .

— أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ،

Ed., De Goeje, Leiden, 1906.

المقري ، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ /

١٦٣١ م) .

— فتح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين

ابن الخطيب ، (١٠ أجزاء) ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،

القاهرة ١٩٤٩ .

المقرىزى ، نقي الدين أبى العباس أحمد بن على بن عبد القادر (ت ٨٤٥ هـ)

١٤٤١ م) .

— الإلام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، Patavia, 1890 .

— البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق فستنفيلد .

جوتنجن ١٨٧٤ .

— الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، نشر

الشيال ١٩٥٥ .

— السلوك لمعرفة دول الملوك .

١ ، ٢ ، تحقيق د . زيادة ، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨ .

٣ ، ٤ ، تحقيق د . سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٢ .

— المواظ والاعتبار فى ذكر المخطوط والآثار ، (٤ أجزاء) القاهرة .

١٣٢٤ - ١٣٢٦ هـ .

مؤلف مجهول .

— أخبار مجموع فى فتح الأندلس وذكر أمرائها ، نشره دون لافونق

الكنترا ، مدريد ١٨٦٧ .

نشوان بن سعيد الحميرى (ت ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م) .

— الحور العين ، تحقيق كمال مصطفى ، القاهرة ١٩٤٨ .

— منتخبات من أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم ، تحقيق عظيم

الدين أحمد . لندن ١٩١٦ هـ .

النهر والى ، قطب الدين محمد بن أحمد المكي (ت ٩٩٠ هـ / ١٥٨٢ م) .

— البرق اليماني فى الفتح العثماني ، أشرف على طبعه حمد الجاسر .

الرياض ١٩٦٧ .

- الاعلام باعلام بيت الله الحرام ، تحقيق بروك هوس ، ليزج ١٨٥٧ .
- التويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) .
- نهاية الأرب فى فنون الأدب ، (١٨ جزء) طبعة دار الكتب ١٩٢٣ - ١٩٥٦ .
- الهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف (ت ٨٣٤ هـ / ٩٤٥ م) .
- الأكايل ، (ج ١٠) تحقيق محب الدين الخطيب . القاهرة ١٣٦٨ هـ .
- صفة جزيرة العرب ، ليدن سنة ١٨٩١ .
- اين واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (ت ١٢٩٧ م) .
- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب .
- (الأجزاء من ١ - ٣) تحقيق د. الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٦١ .
- (ج ٤ - ٥) تحقيق د. حسنين محمد ربيع ، القاهرة ١٩٧٢ .
- ابن الوردي ، زين الدين أبو حفص عمر بن المظفر (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) .
- تاريخ ابن الوردي (جزءان) ، القاهرة ١٢٨٥ هـ .
- خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، القاهرة ١٣٠٩ هـ .
- ياقوت ، شهاب الدين أبى عبد الله الحموى الرومى (٦٢٩ هـ / ١٢٢٩ م) .
- معجم البلدان ، (١٢ جزء) ، القاهرة ١٩٠٦ .
- يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٥ هـ / ١٦٩٣ م) .
- أنباء الزن فى أخبار اليمن ، القسم الأول من ٢٨٠ إلى ٣٢٢ هـ ،

تحقيق د. محمد عبد الله ماضي ، برلين ١٩٣٦ .

— غاية الأمان في أخبار القطر الليبي ، تحقيق د. سعيد عاشور ،

القاهرة ١٩٦٨ .

اليقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٢ هـ /

٨٩٥ م) .

— تاريخ اليعقوبى ، (جزءان) نشر هوتسما ، ١٨٨٣ .

ثالثاً - مراجع عربية حديثة

إبراهيم على طرخان (الدكتور) .

— مصر في عصر المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٥٩ .

أحمد حسين شرف الدين .

— اليمن عبر التاريخ ، القاهرة ١٩٦٣ .

أحمد دراج (الدكتور) .

— المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري ، القاهرة ١٩٦١ .

— ايضاحات جديدة عن العهول في تجارة البحر الأحمر منذ مطلع القرن

التاسع الهجري ، محاضرات الجمعية التاريخية المصرية : ١٩٦٨ .

أحمد مختار العبادي (الدكتور) .

— دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، الاسكندرية ١٩٦٨ .

— قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، بيروت ١٩٦٩ .

— تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، القسم الثاني ، بيروت ١٩٧٢ .

— في لتاريخ العباسي والأندلس ، بيروت ١٩٧٢ .

نيكار ، ك.م.

— آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ١٩٦٢ .

بروكلان ، كارل .

— تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ،

بيروت ١٩٥٣ .

الجرافي ، عبد الله بن عبد الكريم .

— المقتطف من تاريخ اليمن ، القاهرة ١٩٥١ .

- جمال الدين الشيال (الدكتور) .
- تاريخ معصر الإسلامية ، (جزءان) ١٩٦٧ .
- حسن ابراهيم حسن (الدكتور) .
- تاريخ الإسلام السيامي والديني والثقافي والاجتماعي ، الطبعة الخامسة ١٩٦٠ .
- حسن ابراهيم حسن وطه شرف .
- عيد الله المهدى لإمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسسى الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ، القاهرة ١٩٤٧ .
- حسن أحمد محمود (الدكتور) .
- الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، (الجزء الأول) القاهرة ١٩٠٨ .
- دور العرب في نشر الحضارة في غرب افريقية - المجلة التاريخية .
- ١٩٦٨ .
- قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ .
- حسن سليمان محمود (الدكتور) .
- تاريخ اليمن السيامي في العصر الاسلامي ، بغداد ١٩٦٩ .
- الصليحيون وعلاقتهم بالفاطميين ، رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة .
- علاقات الفاطميين بالدول الإسلامية ، القاهرة بدون تاريخ .
- الملكة أروى سيدة ملوك اليمن ، القاهرة بدون تاريخ .
- حسنين الهمداني وحسن سليمان محمود (الدكتوران) .
- الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ، القاهرة ١٩٥٥ .
- حمزه على ابراهيم لقمان .
- تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ، القاهرة ١٩٦٠ .

هداية المعارف الإسلامية ، (الترجمة العربية) .
دار الكتب المصرية .

- فهرس الكتب العربية ، (٨ أجزاء) القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٤٢ .
- فهرست المخطوطات ، (٣ أقسام) تصنيف فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٦١ .
- قائمة بالكتب والمراجع عن الجزيرة العربية .
- قائمة المخطوطات العربية المصورة بالميكرو فيلم من الجمهورية العربية اليمنية ١٩٦٧ .
- شاربيل ، شارل .

— البندقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم
وتوفيق اسكندر ، القاهرة ١٩٤٧ .

— تراجمياور .
— معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، ترجمة
الدكتور زكي محمد حسن والدكتور نخسن أحمد محمود وآخرين ،
القاهرة ١٩٥١ - ١٩٥٢ .

— تربية ، محمد بن محمد بن يحيى الحسنى الصنعاني .
— أئمة اليمن ، (الجزء الأول) تعز ١٣٧٢ هـ .
— إتحاف المهتدين بذكر الأئمة المجتهدين ، ومن قام باليمن الميئون من
قراء الكتاب المبين وأبناء سيد الأنبياء والمرسلين ، صنعاء ١٣٤٣ هـ .

— ترستين .
— تاريخ سلاطين المماليك ، (من ٦٩٠ إلى ٧٤١ هـ) ، ليدن ١٩١٩ .
— تينى دحلان (ت ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٦ م) .
— خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، ١٣٠٥ هـ .

سركيس ، يوسف اليان .

— معجم المطبوعات العربية وانعربة ، (مجلدان) القاهرة ١٩٢٨-١٩٣٠

سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور) .

— الترك والمجتمعات التركية عند العرب وغـيرهم ، مجلة كلية آداب

اسكندرية ، ١٩٥٦ .

— في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ١٩٧٥ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) .

— الإمبراطور فزديك الثاني والشرق العربي، المجلة التاريخية سنة ١٩٦٣

— أوربا في العصور الوسطى ، (جزءان) ، القاهرة ١٩٠٤ .

— الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، القاهرة ١٩٧٠ .

— بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور

الوسطى ، المجلة التاريخية سنة ١٩٦٨ .

— الحركة الصليبية ، (جزءان) القاهرة ١٩٦٣ .

— قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧ .

— مصر في عصر المماليك البحرية ، للقاهرة ١٩٥٩ .

سعيد عوض باوزير .

— صفحات من التاريخ الحضرمي ، القاهرة ١٣٧٨ هـ .

السلوى ، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت ١٨٩٧/٨١٣١٥ م)

— الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، (٩ أجزاء) الدار البيضاء

١٩٥٦ .

السيد الباز العريفي (الدكتور)

— مصر في عصر الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٠ .

السيد عبد العزيز سالم (الدكتور) .

— تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية

١٩٦١ .

— تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام - القسم الأول - بيروت

١٩٧٢ .

— تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، بيروت ١٩٧٠ .

— تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، بيروت ١٩٦٢ .

— دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي ، بيروت ١٩٧٠ .

— طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ، الإسكندرية ١٩٦٧ .

السيد مصطفى سالم (الدكتور) .

— الفتح العثماني الأول لليمن، مطبوعات معهد الدراسات العربية، ١٩٦٩ .

الشوكاني ، محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م) .

— البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، (جزءان) القاهرة

١٣٤٨ هـ .

صلاح البكري .

— تاريخ حضرموت السياسي ، (جزءان) القاهرة ١٩٥٦ .

— في جنوب الجزيرة العربية ، القاهرة ١٩٤٩ .

عبد الرحمن زكي (الدكتور) .

— قلعة صلاح الدين وما حولها من الآثار ، القاهرة ١٩٧١ .

العبدلي ، أحمد فضل بن علي بن محسن .

— هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن ، القاهرة ١٣٥١ هـ .

- عبد المجيد عابدين (الدكتور) .
- بين الحبشة والعرب ، مصر ١٩٤٧ .
- عبد المنعم ماجد (الدكتور) .
- التاريخ السياسى للدولة العربية ، (جزءان) ١٩٦٥ .
- هدلى أحمد فريد (الدكتور) .
- السلطان قانصوه الغورى وعصره ، رسالة ماجستير بكلية الآداب
بالاسكندرية ، ١٩٧٠ .
- العرشى ، حسين بن أحمد الزيدى (ت ١٣٢٩هـ / ١٩١١م) .
- بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من
ملك وامام ، تحقيق الكرملى ، ١٩٣٩ .
- العقيلي ، محمد بن أحمد عيسى .
- تاريخ الخلاف السائى ، أو الجنوب العربى فى التاريخ ، (جزءان) ،
الرياض ١٣٧٨ ، والقاهرة ١٣٨٠ .
- عمر رضا كحالة .
- معجم المؤلفين ، دمشق ١٩٥٧ .
- فييت ، جاستون .
- المواصلاات فى مصر فى العصور الوسطى ، نشرها محمد وهبى مترجمة
فى كتاب (فى مصر الإسلامية) ١٩٣٧ .
- لوريمر .
- دليل الخليج - القمم التاريخى ، ٧ أجزاء - ترجم وطبع على نفقة
حاكم قطر ، الدوحة ١٩٦٧ .
- الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ؛
- المجلة التاريخية .

- محمد جمال الدين سرور (الدكتور) .
- دولة بني قلاوون في مصر ، الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها
بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٧ .
- قيام الدولة العربية ، القاهرة ١٩٦٤ .
- النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ، القاهرة ١٩٦٤ .
- محمد حسن .
- قلب اليمن ، بغداد ١٩٤٧ .
- محمد حسين هيكل (الدكتور) .
- في منزل الوحي ، القاهرة ١٩٧٠ .
- محمد عبد العال أحمد .
- دولة بني أيوب في اليمن ، رسالة ماجستير بكلية الآداب بالاسكندرية ،
١٩٦٨ .
- محمد عبد الله ماضي (الدكتور) .
- دولة اليمن الزيدية ، المجلة التاريخية ، مايو ١٩٥٠ .
- محمد مختار .
- التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنجية
والقبطية ، بولاق ١٣١١ هـ .
- محمد مصطفى زيادة (الدكتور) .
- بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك ، مجلة كلية آداب
القاهرة ، ١٩٣٦ .
- المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس زمن سلاطين
المماليك في القرن ١٥ م ، مجلة الجيش ١٩٤٩ .

- نهاية سلاطين المماليك في مصر ، المجلة التاريخية ١٩٥١ .
 محمد بن هاشم العلوي .
- تاريخ الدولة الكثرية ، القاهرة ١٩٠٨ .
 معهد المخطوطات العربية بالجامعة العربية .
- فهرس المخطوطات المصورة ، (الجزء الثاني - التاريخ - ، أقسام)
 القاهرة ١٩٥٦ .
- مجلة معهد المخطوطات ،
 مكتبة البلدية بالاسكندرية .
- فهرس التاريخ ، تصنيف أحمد أبو علي ، ١٩٢٥ .
 نظير حسان سعداوى (الدكتور) .
- التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ، القاهرة ١٩٥٧ .
 نعيم زكى فهمى (الدكتور)
- طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ،
 القاهرة ١٩٧٣ .
- تلدكه ، نيودور .
- أمراء غسان ، ترجمة د. بندلي جـ - وزي ، ود. قسطنطين زريق ،
 بيروت ١٩٣٣ .
- هاو ، سونيا .
- فى طاب التوابل ، ترجمة محمد عزيز رفعت ، ومراجعة د. محمود
 النحاس ، القاهرة ١٩٥٧ .
- الواسع ، عبد الواسع بن يحيى اليماني :
 — تاريخ الين المسمى فرجة الهدوم والحزن ، فى حوادث وتاريخ

اليمن ، القاهرة ١٩٤٧ :

— البدر المزيل للحزن في فضائل اليمن ومحاسن صنعاء ، القاهرة .

١٣٤٥ هـ .

الويسى ، حسين بن علي

— اليمن الكبرى ، القاهرة ١٩٦٢ .

رابعاً : مراجع أجنبية

Alastros (D.) :

- Cyprus in History. London; 1955.

Allen (J.) :

- The Cambridge Shorter History of India, Cambridge, 1924.

Arnold (T. W.) :

- The Caliphate, Oxford, 1924.

Barthold (W.) :

- Art. « Hulagu » in ENC. of Islam.

Bratianu (G. I.) :

- Recherches sur le Commerce Génois dans la Mer Noire
au 13^{eme}. Siecle; Paris 1929.

Brockelmann (C.) :

- Geschichte de Arabischen Litteratur.
2 Vols. Leiden, 1943 - 1949.
3 Supplementbande, Leiden, 1937
- History of Islamic peoples, London, 142. - 1949,

نقله إلى العربية د. نبيه أمين فارس ومدير البعدي بعنوان « تاريخ
الشعوب الإسلامية » .

Brown (E. G.) :

- A literary History of Persia, Cambridge. 1909:

Budge (E. A. W.) :

- A History of Ethiopia, Nubia & Abyssinia. 2 vols.-
London, 1928.

Burckhardt (J. L.) :

- Travels in Arabia, 2 vols: London, 1819.

Cambridge :

- The Combridge History of Islam, 2 Vols. Cambridge, 1970.

Darrag (A.)

- L' Egypte sous le Regne de Barsbay, Damas, 1961.

De Gaury (G.) :

- Rulers of Mecca. London, 1951.

De la Ronciere (ch.) :

- Le Découverte de L' Afrique au Moyen Age, 3 Tomes, Le Gaire, 1925 - 27.

Derenbourg (H.) :

- Omara du Yémen, sa vie et son Oeuvre, 2 tomes, Paris, 1897 - 1902.

Depping (G. B.) :

- Histoire du Commerce entre le Levant et l' Europe, Depuis les Croisades Jusqu' a la Fondation des Colonies d' Amérique, 2 Tomes, Paris 1830.

Diehl (Charles) :

- Une République Patricienne Venise, (Bibliothèque de Philosophie Scientifique) 1928.

نقله الى العربية د. أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر بعنوان

« الهندقية جمهورية ارستقراطية ». القاهرة ١٩٤٧.

D' Ohsson (Le Baron C.) :

- Histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan, jusqu' à Timour Bey ou Tamerlan, 4 Tomes, (Les Freres Van Cheef.) La Haye & Amsterdam, 1834 - 1835.

Dozy (R.) :

- Supplément aux Dictionnaires Arabes, 2 Tomes, Leiden - Paris, 1927.

ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM.

- 4 vols. Leyden, 1913 - 1934.

Ferrand (G.) :

- Une Navigation Européenne dans l'Océan Indien au 14^{ème} siècle, J. Asiat. 1922, T. 20.

Fuller (J. F. C.) :

- Decisive Battles; Their influence upon history & civilization, London, 1950.

Grousset (R.) :

- Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem, 3 Tomes, Paris 1934 - 1936.

Heyd (W.) :

- Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, 2 Tomes, Leipzig; 1925.

Hill (G.) :

- A History of Cyprus. Camb. 1948.

Hogarth (D. G.) :

- A History of Arabia, Oxford, 1922.

Howe (Sonia E.) :

- In Quest of Spices, London, 1946.

نقله الى العربية محمد عزيز رفعت بعنوان « في طلب التوابل » ، وراجعته

د. محمود النحاس . القاهرة ١٩٥٧ .

Howorth (Sir Henry) :

- A History of Mongols, 4 vols. London 1876 - 1883.

Huart (C.):

- Histoire des Arabes, 2 Tomes, Paris, 1912 - 1913.

Hunter :

- An account of the British settlement of Aden in Arabia; London, 1877.

Inalcik (Halil) :

- The Ottoman Empire, (The Classical age, 1300 - 1600), translated by Norman Itzkowitz and Colin Imber, London, 1973.

Jomier :

- Le Mahmal et la Caravane Egyptienne de Pelgrime de la Mecque, Le Caire, 1935.

Kammerer (A.)

- Le Mer Rouge, 1' Abyssinie et 1' Arabie depuis 1' antiquité, (Mémoires de la société Royale de Géographie d' Egypte), 2 Tomes 1921 - 1925.

Kantarowicy :

- Fredric The Second.

Kay (H. C.) :

- Yemen, Its early Mediaeval History, London, 1892.

Khalil Ed - Dahiry :

- Zoubdat Kachf El-Mamalik, Publie Par Poul Raveisse, Paris, 1894.

EL - Khazrejiyy :

- The Pearl - Strings; A History of the Resuliyy Dynasty of Yemen. Ed by E. G. Browne, Gibb Memorial Series, 3 vols, London, 1906.

Lamb (H.) :

- The Crusades; The Flame of Islam, London, 1931.

Lane - Poole (St.) :

- A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1933.
- Mediaeval India Under Mohammadan Rule, London 1925.
- The mohammadan Dynasties; Paris, 1925.
- Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, London, 1898.

Lewis (Bernard) :

- Egypt and Syria, (The Cambridge History of Islam,) 2 vols. Cambridge, 1970.

Lorimer (J G.) :

- Gazetter of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia.

ترجم بعنوان « دليل الخليج » ونشر على نفقة حاكم قطر ،
الدوحة ١٩٦٧ .

Marco (Eric) :

- Yemen and Western World Since 1571, London, 1963.

Marin (M.) :

- Histoire De Saladin; Sulthan D' Egypte et Syrie. 2 Tomes

IBNAL MUGAWIR :

- Descriptis Arabiae Meridionalis Preamissis Capitibus de Mecca et parte regionis Higaz qui liber inscribitur Tar'h al - Mustabsir, Ed. Oscar Lofgren, 1951.

Moreland (W. H.) :

- A Short History of India, London, 194٦

Murray :

- Aidhab (J. R. A. S.) Sept. 1926.

Neibuhr (C.) :

- Voyage en Arabie et en d' autres Pays, Amesterdam, 1776.

Panikkar (K. M.) :

- Asia and western Dominance, London, 1935.

ترجمه عبد العزيز توفيق جاويد بعنوان « آسيا والسيطرة الغربية » .

Piloti (E.) :

- L' Egypte au Commencement du Quinzième Siècle, Le Caire 1950.

Playfair (Sir Robert Lambert) :

- A History of Arabia Felix or Yemen. Selection from the records of Bombay Govenment, Bombay. 1859.

Rene Busset :

- Art, « Dahlak » in ENC. of Islam.

Reinaud (M.) :

- Extraits des Historiens Arabes Relatifs aux Guerres de croisades, Paris 1829.

Runciman (S.) :

- A History of the Crusades. 3 Vols. Cambridge, 1951 - 1954.

Scott (Hugh.) :

- In the High Yemen, London, 1947.

Serjeant (R. B.) :

- The Portuguese off the South Arabian Coast, Oxford, 1933.

Stevenson (W. B.) :

- The Crusaders in the East, Cambridge, 1907.

Streck (M.) :

- Art. « Baghdad » in ENC. of Islam.

Thenau (J.) :

- Le Voyage d'Outre Mer de Jean Thenau, Paris, 1884.

Trimingham (J. S.) :

- Islam in Ethiopia, Oxford, 1952.

Wensinck (A. J.)

- Art « Mecca » & « Katada » in ENC. of Islam.

Wiet (G.) :

- Histoire de la Nation Egyptienne, T. IV. (L' Egypte Arabe) Paris, 1937.
- Le Communication en Egypte au Moyen Age, L' Egypte Contemporaine, 1933.

ترجمها محمد وهبي بعنوان « المواصلات في مصر » ونشرها في كتاب « في مصر
الاسلامية » القاهرة ١٩٣٧ .

Wilson (A. T.) :

- The Persian Gulf, London, 1945.

Zetterstéen (K. W.) :

- Beitrage Zur Geschichte der Mamluken Sultane, Leiden, 1919.

فهرس المحتويات

مقدمة ، ص ٥ - ١١ .

الباب الأول

التاريخ السياسي ، ص ١٣ - ٢٣٠ .

تمهيد : أحوال اليمن الداخلية حتى نهاية الحكم الأيوبي ، ص ١٥ - ٣٧ .

الفصل الأول

قيام دولة بني رسول على عهد نور الدين عمر بن رسول ، ص ٣٩ - ١١٦ .

أولاً : محارلات اسباغ المعنفة الشرعية على حكم بني رسول ، ص ٢٩ ،

(١) مشكلة انتحال بني رسول للنسب اليمني ، ص ٤٠ ، مناقشة

نسب بني رسول ، ص ٤٥ ، (٢) التدبوء بقيام دولة بني رسول ،

ص ٥٢ ، مناقشة الروايات الخاصة بالتدبوء والتبشير بقيام دولة بني رسول ،

ص ٥٥ ، (٣) ادعاء تنازل المسعود لنور الدين عمر ، ص ٥٧ ،

(٤) اعتراف الخليفة العباسي باستقلال نور الدين بملك اليمن ، ص ٥٩ .

ثانياً : ظهور بني رسول على مسرح الأحداث اليمنية قبيل قيام دولتهم ،

ص ٦٣ ، (١) أولوية بني رسول في اليمن ، ص ٦٣ ، (٢) نكبة أولاد

رسول في أواخر عهد المسعود ، ص ٨٣ ، (٣) دور نور الدين

عمر بن رسول في التمهيد لقيام دولة بني رسول ، ص ٨٨ ، (٤) تحالف

الزيدية مع نور الدين ودخولهم في طاعته ، ص ٩٤ .

ثالثا : قيام دولة بنى رسول في اليمن على يد نور الدين ، ص ٩٧ ، (١) اعلان سقوط الدولة الأيوبية في اليمن ، ص ٩٧ ، (٢) استكمال مظاهر الاستقلال وتأمين الدولة الناشئة ، ص ٩٩ ، (٣) الزيدية ونقض الصالح مع نور الدين ، ص ١٠٣ ، (٤) تثبيت سيطرة نور الدين على اليمن ، ص ١٠٦ ، (٥) استغلال الشريف الزيدى أحمد بن الحسين الخلاف القائم بين بنى رسول للدعوة للإمامة ، ص ١٠٩ ، (٦) مقتل السلطان نور الدين ، ص ١١٥ .

الفصل الثانى

بنى رسول بعد نور الدين ، ص ١١٧ - ٢٤٣ .

أولا : عصر المظفر يوسف ، (١) الوضع المتفجر بعد وفاة نور الدين ، وموقف المظفر يوسف من الطامعين في السلطنة من بنى رسول ، ص ١١٧ ، (أ) صراع المظفر ضد أبناء عمه ، ص ١١٩ ، (ب) صراع المظفر ضد أخيه المفضل قطب الدين ، ص ١٢٢ ، (٢) موقف المظفر من الزيدية ، (أ) تدخل الزيدية في الصراع القائم بين بنى رسول ، ص ١٢٨ ، (ب) مصرع الامام الزيدى وأثره في تطور الأحداث ، ص ١٣٧ ، (ج) استمرار الخلافات بين الزيدية ، ص ١٤٦ .

ثانيا : الصراع على السلطنة بين أبناء المظفر وأحفاده ، (١) عهد الأشرف عمر بن المظفر ، ص ١٦٢ ، (٢) سلطنة المؤيد داود ، وتطور الأحداث الداخلية في عهده ، ص ١٦٦ ، (أ) صراعه مع أخيه المسعود ، ص ١٦٩ ، (ب) مواجهته لحركات الزيدية وقبائل الجحافل والمجالم ،

ض ١٧١ ، (ج) تحالف الزيدية والأكراد ضد السلطان وموقفه منهم ،
ص ٩٨٠ ، (د) حركة الناصر بن الأشرف ، ص ١٨٣ .

ثالثا : سلطنة المجاهد واضطراب اليمن في عهده ، ص ١٨٥ ، (١) الصراع
على العرش بين المجاهد وبين الظاهر ونتائجه ، ص ١٨١ ، (٢) أساليب
المجاهد الانتقامية مع خصومه ونتائجها ، ص ١٩٩ ، (٣) نهاية المجاهد ،
ص ٣٠٤ .

رابعا : اليمن بعد المجاهد حتى نهاية دولة بني رسول ، (١) المشكلات التي
واجهت الأفضل عباس بن المجاهد ، وموقفه منها ، ص ٢٠٨ ،
(٢) جهود الأشرف الثاني اسماعيل بن الأفضل عباس في اقرار الأوضاع ،
ص ٢١٧ ، (٣) عهد السلاطين الضعاف ونهاية الدولة ، (أ) عهد
الناصر أحمد بن الأشرف اسماعيل ، ص ٢٢٧ ، (ب) عهد المنصور
عبد الله بن الناصر أحمد وأخوه الأشرف الثالث اسماعيل ، ص ٢٣٢ ،
(ج) عهد الظاهر يحيى بن الأشرف اسماعيل بن العباس ، ص ٢٣٣ ،
(د) عهد الأشرف الرابع اسماعيل بن الظاهر يحيى ، ص ٢٣٥ ،
(هـ) سلطنة المظفر الثاني ، ص ٢٣٧ ، (و) المسعود صلاح الدين
أبو القاسم بن الأشرف وسقوط دولة بني رسول ، ص ٢٤٠ .

الفصل الثالث

دولة بني طاهر ، ص ٢٤٥ - ٣٣٠

أولا : الأوضاع السياسية عند قيام دولة بني طاهر ، (١) نسب بني طاهر ،
ص ٢٤٥ ، (٢) ظهور بني طاهر ودورهم في الصراعات بين سلاطين
بني رسول ، ص ٢٠٧ ، (٣) سقوط دولة بني رسول ، ص ٢٥٢ .

ثانيا : قيام الدولة الطاهرية ، (١) سلطنة الظافر عامر الأول وأخيه المجاهد علي بن طاهر ، ص ٢٥٧ ، (٢) الأصول الداخلية عند قيام دولة بني طاهر ، ص ٢٥٩ ، (٣) موقف صاحب الشجر من قيام دولة بني طاهر ، ص ٢٦٢ ، (٤) مقتل السلطان الظافر عامر وانفراد أخوه المجاهد علي بالسلطنة ، ص ٢٦٦ .

ثالثا : الدولة الطاهرية بعد المجاهد ، (١) سلطنة المنصور عبد الوهاب بن داود ابن طاهر ، ص ٢٦٨ ، (٢) التنافس على هرش السلطنة ، ص ٢٦٩ ، (٣) عهد الظافر عامر الثاني ، ص ٢١٤ ، (٤) الموقف بعد مقتل السلطان الظافر عامر الثاني ، ص ٢٨٢ .

رابعا : الفتن والثورات الداخلية في عهد بني طاهر ، (١) مرقف قبائل يافع من بني طاهر ، ص ٢٨٧ ، (٢) ثورات قبائل القرشية ، ص ٢٩١ ، (٣) ثورات قبائل المعازبة ، ص ٢٩٣ ، (٤) ثورات بني حنفيص الزيدية ، ص ٣٠٠ ، (٥) ثورات الحبيشي ، ص ٣١٠ ، (٦) الصراع الزيدى التقليدى فى عهد بني طاهر ، ص ٣١٣ .

الباب الثاني

العلاقات الخارجية ، ص ٣٣١ - ٥٤٨

الفصل الرابع

العلاقات الخارجية فى عصر بنى رسول ، ص ٣٣٣ - ٤٦٠

أولا : فى عصر نور الدين عمر بن رسول ، ص ٣٢٣ ، (١) موقف الأيوبيين

من محاولات بني رسول السيطرة على الحجاز ، ص ٣٣٤ ، (٢) علاقة نور الدين بن رسول بالخلافة العباسية ، ص ٣٤٤ ، (٣) استمرار الصراع بين بني رسول والأيوبيين حول الحجاز ، وما أسفر عنه من نتائج ، ص ٣٤٦ ، (٤) أعمال نور الدين عمر بن علي بن رسول في مكة ، ص ٣٥٥ .

ثانيا : العلاقات اليمنية مع مصر والحجاز في عهد المظفر يوسف ، (١) استقلال بني قتادة بحكم مكة ، ص ٣٥٩ ، (٢) تطور العلاقات اليمنية المصرية بين المظفر يوسف والظاهر بيبرس ، ص ٣٦٦ ، (٣) سياسة المماليك في البحر الأحمر وأثر ذلك على العلاقات مع اليمن ، ص ٣٧٦ ، (٤) دور اليمن في ازدهار طريق البحر الأحمر ، ص ٣٨٣ ، (٥) العلاقات اليمنية المصرية بعد إحياء الخلافة العباسية في مصر ، ص ٣٩٣ .

ثالثا : العلاقات اليمنية المصرية بين سلاطين بني رسول بعد المظفر وبين سلاطين دولتي المماليك البحرية والجراركة ، (١) في عهد المؤيد داود الرسولي ، ص ٤٠٠ ، (٢) في عهد المجاهد الرسولي ، ص ٤٠٦ ، (٣) العلاقات اليمنية المصرية بين بني رسول وسلاطين المماليك الجراكسة ، ص ٤٣٠ .

رابعا : العلاقات اليمنية مع الدول التجارية الآسيوية وساحل افريقية الشرق ، وأثرها في انتعاش تجارة عدن والبحر الأحمر ، ص ٤٣٤ ، (١) فتح الدول الآسيوية ، (أ) مع الصين ، ص ٤٣٥ ، (ب) مع الهند ، ص ٤٣٦ ، (ج) مع قالية قوط ، ص ٤٣٧ ، (٢) مع سواحل العدووة الافريقية ، ص ٤٣٨ ، (٣) مظاهر اهتمام سلاطين بني رسول بفتح عدن والتجارة البحرية مع الهند ، ص ٤٤٣ .

خامسا : تجارة العبور وموقف مصر واليمن منها . (١) جهود مصر في المحافظة على تجارة البحر الأحمر ، ص ٤٤٦ ، (٢) تدهور ميناء عدن واحتلال ميناء جدة مكانته في حركة التجارة العالمية ، ص ٤٥٤ .

الفصل الخامس

العلاقات الخارجية في عصر بنى طاهر ، ص ٤٦١ - ٥٤٨

أولا : العلاقات بين اليمن والحجاز ، ص ٤٦١ .

ثانيا : العلاقات مع الحبشة ، ٤٦٨ .

ثالثا : الكشوف البرتغالية : أهدافها الصليبية وأثرها على الاقتصاد اليمني المصري ، (١) دور الكشوف البرتغالية في تحقيق المطامع الصليبية ، ص ٧٢ ، (٢) أثر الكشوف البرتغالية على حركة التجارة اليمنية ، ص ٤٩٠ ، (٣) موقف مصر من الخطر البرتغالي ، ص ٤٩٢ ، (٤) محاولة البو كيرك الاستيلاء على عدن والسيطرة على البحر الأحمر ، ص ٥٠٣ .

رابعا : تطور العلاقات اليمنية المصرية حتى سقوط دولة بنى طاهر ، (١) موقفه السلطات الطاهرية من الجهود المملوكية ضد البرتغاليين ، ص ٥١٠ ، (٢) تعاون حاكم عدن مع البرتغاليين للسيطرة على البحر الأحمر ، ص ٥١٨ ، (٣) غزو الجراكسة لليمن ، ص ٥٢٦ .

الخاتمة ، ص ٥٤٩ - ٥٥٩ .

المصادر والمراجع ، ص ٥٦١ - ٥٩٤ .

الخريطة ، ص ٥٦٠ .

فهرس المحتويات ، ص ٥٩٥ - ٦٠٠ .

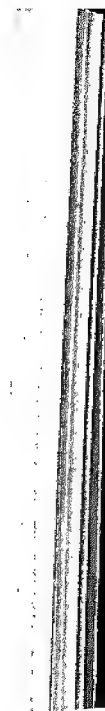
رقم الايداع بدار الكتب

٧٩ / ٤٩١٠

٩٧٧-٢٠١-٧٨٢-٢

مطابع دار الناشر الجامعي

ت: ٨٠٣٧١٤





P R E F A C E

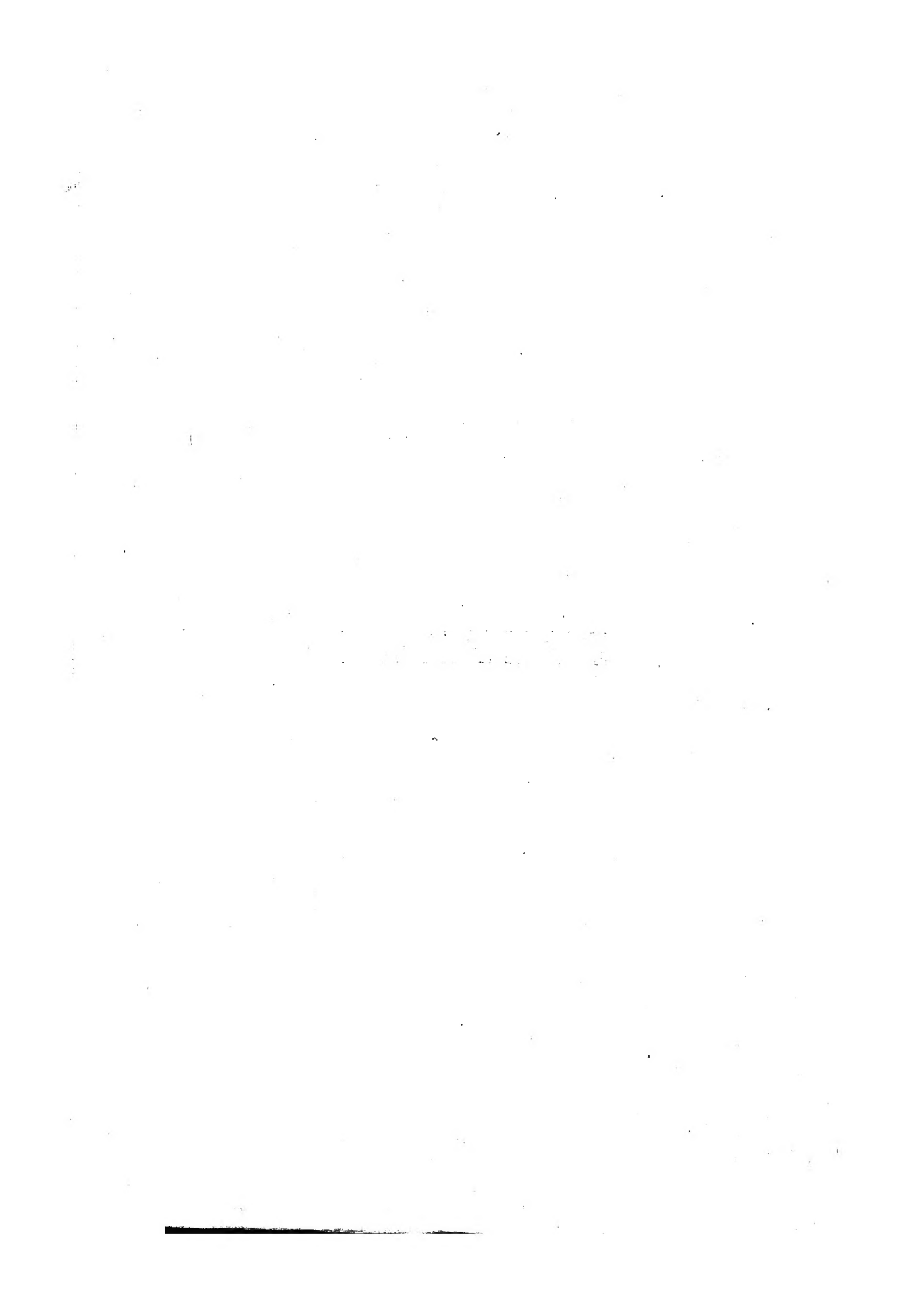
This work deals with the history of yemen and its foreign relations during the reign of the Rasulites and Tahirides dynasties .

It covers a period of three centuries of the political history of yemen . That political history is marked by uprisings, internal struggle, disorder and instability whose outcome was the loss of the political unity of yemen and the engagement of the rulers in almost continuous wars .

The work, furthermore, endeavours to clarify the significant role that yemen played in the Red Sea area, and explains most of the aspects of the Egyptian and yemeni policy in that area during the reign of the Mamlukes dynasty.

The history of yemen, compared to that of many other countries, is both difficult and complicated for its lack, mainly, of resources, or rather, their availability due to various reasons.

Yet every available Source has been consulted and every possible datum has been used in this work .



PREFACE

7

